لجنة التأليف والترجمة والنشر

H. G. WELLS.

هـ . ج . ولز

معالم تاريخ الإنسانية

تعريب

عبد العزيز توفيق جاويد
خريج المعلمين العليا
وكيل مدرسة مصر الجديدة الثانوية

راجعه

الدكتور عبد الحميد يونس
المدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد

المجلد الرابع

في التاريخ الحديث

(١٧٤٠ — ١٩٤٧)

لجنة التأليف والترجمة والنشر

H. G. WELLS.

هـ . ج . ولز

معالم تاريخ الإنسانية

تعريب

عبد العزيز توفيق جاويد

خريج المعلمين العليا
وكيل مدرسة مصر الجديدة الثانوية

راجعه

الدكتور عبد الحميد يونس

المدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد

المجلد الرابع

في التاريخ الحديث

(١٧٤٠ — ١٩٤٧)

محتويات الكتاب

صفحة

محتويات الكتاب ... ... ا — ج

فهرس الصور والخرائط ... ... د — هـ

كلمة المترجم ... ... ز — ك

الباب الثامن

عصر الدول العظمى

الفصل الرابع والثلاثون : أمراء وبرلمانات ودول ... ...

١ — الأمراء والسياسة الخارجية ٨٥١

٢ — الجمهورية الهولندية ٨٥٤

٣ — « الإنجليزية ٨٥٧

٤ — إقسام ألمانيا واضطرابها ٨٦٩

٥ — أبهة الملكية العظمى فى أوربا ٨٧٣

٦ — الموسيقى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ٨٨٢

٧ — التصوير فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ٨٨٤

٨ — نمو فكرة الدول العظمى ٨٨٦

٩ — جمهورية بولندة المتوجة ومصيرها ٨٩٢

١٠ — أول تخاطف على الإمبراطوريات وراء البحار ٨٩٥

١١ — بريطانيا تسود الهند ٨٩٨

١٢ — تقدم الروسيا إلى المحيط الهادى ٩٠٣

١٣ — رأى جيبون فى العالم فى ١٧٨٠ ... ... ٩٠٥

١٤ — المدنية الاجتماعية تشارف نهايتها ٩١٢

الفصل الخامس والثلاثون : الجمهوريات الديمقراطية الجديدة بأمريكا وفرنسا ... ...

١ — متاعب نظام الدولة العظمى ٩٢٠

٢ — المستعمرات الثلاث عشرة قبل عصيانها ٩٢٢

٣ — الحرب الأهلية تفرض على المستعمرات فرضاً ٩٢٧

٤ — حرب الاستقلال ٩٣٣

٥ — دستور الولايات المتحدة ٩٣٥

صفحة

٦ — المظاهر البدائية لدستور الولايات المتحدة ٩٤١
٧ — الفكرات الثورية فى فرنسا ٩٤٨
٨ — ثورة سنة ١٧٨٩ ... ... ٩٥١
٩ — الجمهورية الفرنسية المتوجة ٨٩ — ٩١ ... ... ٩٥٤
١٠ — ثورة اليعاقبة ٩٦٢
١١ — جمهورية اليعاقبة ١٧٩٢ — ١٧٩٤ ... ... ٩٧١
١٢ — حكومة الإدارة ٩٧٦
١٣ — توقف التعمير وفجر الاشتراكية العصرية ٩٧٩

الفصل السادس والثلاثون : سيرة نابليون بونابرت ... ...

١ — أسرة بونابرت فى كورسيكا ٩٨٨
٢ — بونابرت قائداً جمهوريا ٩٨٩
٣ — نابليون قنصلا أول ١٧٩٩ — ١٨٠٤ ... ... ٩٩٤
٤ — نابليون الأول إمبراطوراً من ١٨٠٤ — ١٨١٤ ... ... ٩٩٩
٥ — المئة يوم ١٠٠٨
٦ — خريطة أوربا فى ١٨١٥ ... ... ١٠١٢
٧ — طراز الإمبراطورية ١٠١٧

الفصل السابع والثلاثون : حقائق القرن التاسع عشر وأخيلته ... ...

١ — الانقلاب الآلى ١٠١٨
٢ — العلاقة بين الانقلابين الآلى والصناعى ١٠٢٧
٣ — اختمار الفكرات فى ١٨٤٨ ... ... ١٠٣٤
٤ — تطور فكرة الاشتراكية ١٠٣٦
٥ — عيوب الاشتراكية بوصفها خطة للجماعة الإنسانية ١٠٤٥
٦ — كيف أثر مذهب داروين فى الفكرات الدينية والسياسية ١٠٥٠
٧ — فكرة القومية ١٠٥٩
٨ — المعرض الكبير فى ١٨٥١ ... ... ١٠٦٣
٩ — سيرة حياة نابليون الثالث ١٠٦٤
١٠ — لنكولن والحرب الأهلية فى أمريكا ١٠٧٤
١١ — الحرب الروسية التركية ومعاهدة برلين ١٠٨٣
١٢ — التدافع الثانى على الإمبراطوريات وراء البحار ١٠٨٥
١٣ — السابقة الهندية فى آسيا ١٠٩٥
١٤ — تاريخ اليابان ١٠٩٨
١٥ — ختام فترة التوسع وراء البحار ١١٠٤
١٦ — الإمبراطورية البريطانية فى ١٩١٤ ... ... ١١٠٥
١٧ — التصوير والنحت والعمارة فى القرن التاسع عشر ١١٠٨
١٨ — الموسيقى فى القرن التاسع عشر ١١١٢
١٩ — نهوض القصة إلى المرتبة العليا فى الأدب ١١١٤

صفحة

الفصل الثامن والثلاثون : كارثة (الاستعمار) التسلطية العصرية ... ...

١ — السلام المسلح قبل الحرب العظمى ١١٢٤
٢ — ألمانيا التسلطية (الإمبراطورية) ١١٢٦
٣ — التسلطية في بريطانيا وإرلندة ١١٣٥
٤ — التسلطية في فرنسا وإيطاليا والبلقان ١١٤٨
٥ — الروسيا تصبح ملكية عظمى ١١٥٠
٦ — الولايات المتحدة والفكرة التسلطية ١١٥١
٧ — الأسباب المباشرة للحرب العظمى ١١٥٦
٨ — خلاصة للحرب العظمى حتى ١٩١٧ ... ... ١١٦١
٩ — الحرب العظمى منذ انهيار الروسيا إلى الهدنة ١١٧١

الفصل التاسع والثلاثون : العالم بعد الحرب العظمى ... ...

١ — دور إجهاد خلق ١١٧٨
٢ — الرئيس ولسون في فرساي ١١٨٤
٣ — دستور عصبة الأمم ١١٩٦
٤ — معاهدات ١٩١٩ — ١٩٢٠ ... ... ١١٩٩
٥ — البلشفية في الروسيا ١٢٠٥
٦ — دولة إرلندة الحرة ١٢١٥
٧ — اضطراب الأمور في الصين ١٢٢٠
٨ — اختبار الإسلام ١٢٢٢
٩ — الديون والنقود والتثبيت النقدي ١٢٢٥
١٠ — التناقض بين فرط الإنتاج والحاجة ١٢٣٢
١١ — تنازع التقاليد والتعمير ١٢٣٤
١٢ — لن يتم التوحيد إلا بالجهد الواعي ١٢٣٧
١٣ — القوى الهادفة إلى توحيد العالم ١٢٤٠
١٤ — هل الدولة الاتحادية العالمية أمر مرجح ؟ ١٢٤٣
١٥ — بعض احتمالات الدولة الاتحادية العالمية ١٢٤٤
١٦ — ماوراء ذلك من مستقبل البشرية ١٢٥٢

ذيل الكتاب ... ...

١ — من ١٩٣٠ إلى ١٩٣٨ ... ... ١٢٥٣
٢ — الحرب العظمى الثانية ١٢٦٠

جدول تاريخي ١٢٧٤

كلمة رجاء وثناء ١٣٠٠

فهرس الصور والخرائط

صفحة

١٦٩ — صورة كرمويل ٨٥٨
١٧٠ — خريطة أوربا بعد صلح وستفاليا ١٦٤٨ ... ... ٨٥٩
١٧١ — صورة لويس الرابع عشر ٨٧٣
١٧٢ — خريطة أوربا فى ١٧١٤ ... ... ٨٧٥
١٧٣ — خرائط تقسيم بولنده ٨٩٣
١٧٤ — خريطة بريطانيا وفرنسا وأسبانيا فى أمريكا ١٧٥٠ ... ... ٧٩٩
١٧٥ — خريطة المستقرات الأجنبية الرئيسية بالهند فى أواخر القرن ١٧ ... ... ٩٠٠
١٧٦ — خريطة الهند فى ١٧٥٠ ... ... ٩٠١
١٧٧ — صورة ڤولتير ٩٠٦
١٧٨ — خريطة المستقرات الأمريكية إلى ١٧٦٠ ... ... ٩٢٣
١٧٩ — خريطة لمدينة بوسطن وما يجاورها ١٧٧٥ ... ... ٩٣١
١٨٠ — خريطة امتداد الاستيطان فى الولايات المتحدة ١٧٩٠ ... ... ٩٣٦
١٨١ — صورة بنيامين فرانكلين ٩٤٦
١٨٢ — چورج واشنطون ٩٤٧
١٨٣ — خريطة خطة الفرار إلى ڤارن ٩٦٤
١٨٤ — خريطة موقف فرنسا الحربى سبتمبر ١٧٩٢ ... ... ٩٧٢
١٨٥ — خريطة حملة نابليون على مصر ٩٩١
١٨٦ — صورة الإمبراطور نابليون ١٠٠١
١٨٧ — صورة القيصر إسكندر الأول ١٠٠٣
١٨٨ — خريطة إمبراطورية نابليون حوالى ١٨١٠ ... ... ١٠٠٤
١٨٩ — خريطة أهم غزوات نابليون ١٠٠٧
١٩٠ — خريطة أوربا بعد مؤتمر ڤينا ١٠١٤
١٩١ — خريطة الوضع الطبيعى لأوربا السياسية ١٠١٦
١٩٢ — صورة كارل ماركس ١٠٣٤
١٩٣ — صورة روبرت أوين ١٠٣٩
١٩٤ — صورة الأرباب القبيليون فى القرن التاسع عشر ١٠٦١
١٩٥ — خريطة أوربا من ١٨٤٨ إلى ١٨٧١ ... ... ١٠٦٥
١٩٦ — صورة غاريبالدى ١٠٦٧
١٩٧ — خريطة مملكة إيطاليا ١٨٦١ ... ... ١ ٦٨
١٩٨ — صورة بسمارك ١٠٦٩
١٩٩ — صورة نابليون الثالث ١٠٧٠
٢٠٠ — صورة لنكولن وحفيده ١٠٧٥
٢٠١ — خريطة البلقان بعد معاهدة برلين ١٨٧٨ ... ... ١٠٨٤
٢٠٢ — خريطة لآسيا ١٠٨٥

صفحة

٢٠٣ — خريطة الإمبراطورية البريطانية ١٨١٥... ... ... ١٠٨٨
٢٠٤ — خريطة أفريقيا حوالى منتصف القرن التاسع عشر ١٠٩٣
٢٠٥ — خريطة أفريقيا ١٩١٤ ... ... ١٠٩٤
٢٠٦ — خريطة اليابان والسواحل الشرقية فى آسيا ١٠٩٩
٢٠٧ — خريطة الإمبراطوريات الأوربية يناير ١٩١٤ ... ... ١١٠٦
٢٠٨ — صورة الإمبراطور غليوم الثانى ١١٢٨
٢٠٩ — خريطة إرلنده ١١٣٨
٢١٠ — خريطة الدول البلقانية ١٩١٢ — ١٩١٣ ... ... ١١٤٩
٢١١ — الجبهة الغربية ١٩١٥ — ١٩١٨ ... ... ١١٥٧
٢١٢ — خريطة خطة الهجوم الألمانى الأصلية ١٩١٤ ... ... ١١٦٣
٢١٣ — خريطة زمنية للحرب العظمى فى الشرق ١٩١٤ — ١٩١٨ ... ... مقابل ١١٧٠
٢١٤ — خريطة زمنية للحرب العظمى فى الغرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ... ... مقابل ١١٧٨
٢١٥ — صــورة الرئيس ولسن ١١٨٦
٢١٦ — صورة كليمنصو ١١٧٨
٢١٧ — صورة لويد جورج ١١٨٨
٢١٨ — خريطة ألمانيا بعد معاهدة الصلح ١٩١٩ ... ... ١٢٠٠
٢١٩ — خريطة تبين المعاهدة التركية ١٩٢٠ ... ... ١٢٠١
٢٢٠ — خريطة تمزق امبراطورية النمسا والمجر ١٢٠٢

كلمة المترجم

اليوم وقد استوت «المعالم» كتاباً عربياً ، يلتفت إلينا ولز نحن معشر العرب من بين أطباق السماوات العلى التي تسكنها روحه بين العباقرة والنابغين ، ويهيب بنا «هاؤم اقرءوا كتابيه »

واليوم يتردد صوته فى أجوائنا التى خفت فيها كل صوت نبيل منذ قرون الإسلام الأولى ، يتردد جهيراً مدوياً كأنه النفخ فى الصور «إنى لسعيد إذ أديت نحو الإنسانية واجبى ، وبذلت لها دعوتى ، ورضيت لها مذهبى وفكرتى » .

واليوم يحق لولز أن تبوئه البشرية مكاناً علياً ، وأن تضمه بين أبنائها المخلصين وأفذاذها الخالدين . فقد قضى نصف عمره فى الحدب عليها والمنافحة عن مصالحها والدعوة إلى صلاح أمرها وتمحيض النصح لها .

واليوم يستطيع ولز أن يسامى الهداة الملهمين بأنه ظل يحمل مشعل رسالته مضيئاً ذاكياً وهاجاً نصف قرن كامل من الزمان . وهى فترة لم تتح فى العصر الحديث لصاحب دعوة ولم تتهيأ لرشد ذى رسالة .

واليوم يستطيع القارىء أن يستعرض مع ولز مشاهد الحياة منذ هوادى بواكيرها ومستهل تباشيرها ، إذ هى هزة نشأت بإذن العلى القاهر فى ذلك الماء الذى جعل منه كل شىء حى ، هزة لا يكاد يقوم لها أثر ولكنها الأثر كل الأثر ، هزة ما زالت الأيام ترعاها والليالى تهدهدها حتى تمثلت على طول الحقب بشراً سوياً . ذلكم هو الكائن الذى حارت البرية فيه ، والذى هو حيوان مستحدث من جماد كما يقول شيخ المعرة ، هذا الكائن الضعيف بقوته القوى بحكمته الثائر بغريزته المتمرد الجبار بطبيعته القابل للصلاح بفطرته ، هو منذ خليقته مصدر للشغب ومثار للفتن . بسببه فسق الشيطان عن أمر ربه فغوى . وحل بالأرض فأفسد فيها وسفك فيها الدماء وكانت من قبله مطهرة من كل رجس ، ولم يزل هذا دأبه حتى يومنا هذا ، تفتنه هوائجه ويزين له حب شهواته ، والله فى عليائه يرسل له رسله وأنبياءه فما كف عن غيه ولا أقلع .

واليوم من لنا بمن يشهد روحه النبيلة أننا أخذنا بدعوته ، وأيقنا أن التاريخ وحدة واحدة ، وأن ركب الحضارة نهر واحد متدارك اللجات متلاحق الفيضات ، وأنه إن هدأ يوماً أو ألم به شىء من الغيض ، فلا بد أن يتدفق فى تاليه ويعود سيرته من جريان وتلاطم واصطخاب ، وأن البشرية على مر العصور كتلة واحدة متحركة دائماً إلى الأمام فى حركة

واحدة تجمعها جميعاً وتضم شملها فى عالمنا العصرى الذى أصبح بعضه إلى بعض أقرب من حبل الوريد .

* * *

والعصر الذى يستهل به كتابنا هذا كان ، كما يقول بعض أفذاذ الزمان ، أمثل الأزمان وأسوأها ، وأحكمها وأحمقها ، وأشدها نوراً وأشدها حلوكة . كان عصر الإيمان وعصر الكفر والإلحاد ؛ وكان ينطوى على ربيع الأمل والرجاء وخريف اليأس والقنوط ؛ وكان عصر ملكية عظمى باغية وكثرة عظمى مهيضة ؛ عصر رقى بلغ الذروة وجهل أنزل الناس إلى الحضيض ؛ وكان دهر عز شامخ واستبداد داس كرامة الإنسان بالنعال ؛ يوم كان صاحب الدين يلاحق أخاه ليدخله فى دينه وإلا فله الموت والعذاب ؛ ويوم كان الغنى العزيز يعفى من الضرائب والتبعات ويبهظ بها الفقير الجائع . تمد بصرك فتجد فى مكان كل شيء وتسرح الفكر فتجد إلى جواره لا شيء .

وجاءت الثورة الفرنسية لأن ذئب الأرستقراطية كان ينهش كلب العامة ، فما كاد الكلب ينتصر ويقطع رأس الذئب وذنبه ، حتى انقلب هو كذلك ذئباً أشد ما يكون عواء وإزعاجاً ولعلعة بلسانه وولوغا به فى دماء الابرياء .

وأين مبادىء الثورة الفرنسية ؟ أين الإخاء والحرية والمساواة ؟ لقد ذهبت فى أطباق الهواء هباء وراحت طرائق قددا .

وهذه مغاليق قوى الطبيعة تتفتح منذ أوليات القرن التاسع عشر ، إذ أخذ عقل ذلك الجبار يتسلل إليها رويداً رويداً . فعرف كيف يستذل البخار ، ولم يلبث أن جعله مطية ذلولا وعسيفاً ذليلا . وانتقل منه إلى عناصر الطبيعة عنصراً بعد عنصر يدرسها ويتحكم فيها ويستبد بها ، حتى أصبح يفعل بها ما يشاء ويستخدمها أنىّ شاء .

وأبطره العلم حتى زعم أن ليس فوقه عليم ، واستهوته المادة حتى أنسى الروح وما لها من قيام معلوم ، ولج به الطغيان فبغى فى الأرض يستعبد أهلها ويتخذ بعضهم شيعاً . وسلط على أخيه الإنسان مناجل الفناء ، وأخذ يستغله استغلال السوائم يمتلك منه وطنه ويستأثر بخيراته دونه بعد أن يفدحه عملا ، ويحرم عليه نعمة التمتع بما وهبه الله لكافة مخلوقاته من حرية . لأن داعى الاستعمار قد أصمه عن كل ضمير وأعماه .

واحتاج العلم إلى مواد الطبيعة يصنعها ويبدعها ، فإذا استوت سلعة مصنوعة استوجبت سوقاً يتلقفها . وبشمت أوربا بما انتجته لها دواليب المصانع فخرجت تهرول تلتمس مشتريا .

وتحول الشراء والبيع فى أقطار الشرق المنكودة من السلع إلى الشعوب ، فحيثما حل الأوربى فثم الاستعمار البغيض . وتلفتت دول أوربا بعضها إلى بعض ، فإذا بعضها قد سبق وأرسى أسسه ووطد فى أقطار العالم أقدامه ، وإذا بعضها الآخرقد تخلف . وثار فى النفوس ما ركب فيها من جشع . فالسابق يريد أن يستأثر ، واللاحق يبتغى لقمة يسد بها جوعته . فأما من عدا الأوربيين فتعسا لهم وثبورا .

فهذا الأسود المسكين وذاك الأصفرأوالنحاسى المنكود ! ما بالهم ينظر إليهم الأبيض كأنهم من حثالة السوائم ، أومن خشاش الأرض ؟ وفيم الضن بالعلم عليهم والاستئثار به دونهم حتى لايقووا به فينازعوه سيادته التى زعم أن الله آثره بها وحده ؟

وهذه بريطانيا لماذا تثب على مصر فتحرمها نعمة الحرية بذريعة واهية ، والله يعلم والناس يعلمون أن الحقيقة غيرالذريعة ، وأن الهدف إن هوإلا فتح السوق ، وقطع الطريق ، والاستئثار بما فى البلاد من خير وثمار .

وكيف يكون النفط فى أرض إيران ومالكته الحكومة البريطانية مستخفية من وراء تلكم الشركات ، وما هى بشركات ولكنها خدع وذر للرماد فى العيون .

والإنسان لاجرم يطغى أن رآه تقوّى فيعود بهـذه القوة على إخوانه من بنى الإنسان حرباً يهزمه فيها ويفتك به . ولا يطيق المغلوب على الهزيمة صبراً ، فهو يترصد الغالب ويتربص به الدوائر ، ويعد له معدات الفتك والفناء ، ويستخدم له ما استطاع من وسائل العلم والعلماء ، ثم ينفجر بها حرباً ضروساً عاتية ، يريد أن يجعلها للأولى الجولة الثانية ، ولم يدر أنه هدم الكون على أعدائه ونفسه وسعى بيديه إلى حفر رمسه ، فإذا انقضت الجولة الثانية كرست جهود العالم للثالثة وأعد لها من المبيدات والمهلكات مالا يتصوره عقل ، وما كان يعد قبل ذلك من بعيد الخيالات . وانقسم العالم كدأبه فإذا هو محور وديموقراطية ، ثم أخذ الطرفان بعضهما بتلابيب بعض ، هـذا ينسف وذاك يدك ويقصف ، حتى استلقت البشرية بأجمعها جريحة مهيضة ضعيفة دامية ، قد نزفت من الدماء ما لا قبل للأيام برده ، وأزهقت من الأرواح شباباً ما كان أجدره بأن يحيا ليسعد بالحياة ، وما كان أشد حاجة العالم إلى سواعده الفتية فى البناء والتعمير لا فى الفتك والتخريب .

والمالية والملكية والنقود ، ما خطبهن وما بال آثارهن عميقة فى حياة الفرد والجماعة ؟ وما بالهن ينتجن المشاكل الاجتماعية والمذاهب الاقتصادية المتناحرة والمعسكرات الشيوعية

والرأسمالية المتقاتلة ؟ وما بالهن يحيرن الإنسان ويبلبلن فكره ويذهبن به كل مذهب ؟ وهل من سبيل إلى علاج لدائهن الوبيل ؟

* * *

ألا إن البشرية أصبحت مخيرة بين أمرين فإما أن تأتلف فتعيش أو تختلف فتهلك .

على البشرية أن تأتلف مكونة حكومة اتحادية للعالم أجمع ليس فيها قوى ولا ضعيف ولا استعمار ولا مستعمرات ، بل تكون كلها الولايات العالمية المتحدة ، كل دولة لها حكومتها وإدارتها الداخلية ، وكل دولة منهن خاضعة لتلك الحكومة المركزية التي وظيفتها التصدير والتوريد ، وضبط النظام في البر والبحر والجو ، وإرساء أسس الديموقراطية الصحيحة ، والاطمئنان على احترام روح الدساتير وإجراء الانتخابات البرلمانية النزيهة وإنتاج المجالس النيابية الممثلة للشعوب أصدق تمثيل ، وتعليم أفراد العالم قاطبة إلى مستوى موحد عام من العلم .

ألا وإن على البشرية أن تتناسى أحقادها القديمة وتعصباتها الدينية والعنصرية ، وأن يشعر الجميع أنهم أبناء قرية واحدة كبرى هي هذه الدنيا التي عليها نعيش ، فما اختلاف الألوان ولا الأديان بعيب في طبيعتها جميعاً ، ولكن العيب في الناس وفيما يذهب إليه الناس من مذاهب تنطوي على الغل والحقد أو التجبر والتحكم ، فالناس جميعاً إخوان ، والدين بالفطرة خير ، فكيف ينجم عن الخير الشر ؟

إن ولز يقف من كل ذلك موقف المحب المحذر لا موقف المتطير المنذر ، فإن حافزه حب لا تشاؤم ، ولذا فهو يهدي الناس بوعي وقوة وحمية وإخلاص هي السر فيما أوتي من بعد الصيت ونباهة الذكر في الناس .

إن ولز هو بشير الإصلاح إلى هذه البشرية المادية . يريد أن يأخذ بيدها إلى قديم الروحانية وأن يدعوها إلى التخلي عن ذميم الأخلاق وإلى الاستمساك بكريم المبادىء الخلقية . فالمادية إذا طغت ولدت حرباً ، والروحانية إذا سادت خلقت على الأرض محبة وسلاما ، وحولتها من دار للشقاء إلى دار نعيم ووئام ، وأعادت إلى الإنسانية فردوسها المفقود ، وسعادتها الضائعة ، وسلامها المنشود .

ومن عجب أن ولز لايترك علماً ولافناً ولا تقدماً ولا أدباً إلا أرخ له وكتب عنه ، ولا حادثة ذات أثر في تاريخ البشرية ولا ملكاً أو عظيماً خلد اسمه في ذاكرة البشر إلا نوه به ناسجاً ذلك كله بهذه المبادىء الإنسانية الرفيعة ومنتجاً منها وشياً رائع النقش أخاذ الإبداع .

فأنت لاتقف في إعجابك به عند حد ، ولاتلبث حتى تقتنع بوجهة نظره وإخلاصه ، ثم أنت

حين تقرأ كتابه وتنعم فيه النظر وتتدبر ما فيه من آيات ، تشعر بأن من الحزن حقاً أن عظماء الدول وأصحاب الرأى فيها لم يأخذوا إلا مؤخراً جداً بهـذه المبادىء النبيلة التى دعت إليها الأديان السماوية قديماً والتى بيّنها ولز فى كل سطر من سطور كتابه . ولـكن حسبك عزاء أن ميثاق الأطلسى الذى أصدره روزفلت وميثاق سان فرانسسكو وحقوق الإنسان تكاد تكون الثمرة المباشرة لتعاليم ولز فى هذا الـكتاب وغيره .

ولايذهبن عن فطنة القارىء أن ولز كاتب عميق عويص ، يعبر عن فـكر عميق عويص ، لذلك نرجو أن يتدبر كل فقرة من فقرات ولز ، وأن يزن بفكره كل كلمة يقرؤها فيه ، لأنه مثقف يكتب لـكل مثقف مثله . وأنت أيها القارىء — مهما تكن مهنتك أو مزاجك فى الحياة — واجد فى هذا الـكتاب ما يروقك بل ماروعك ، وواجد فيه حيثما تصفحت فائدة فكرية تعود عليك وواجد أنك كلما أمعنت فيه نظرا زدت منه أثراً .

فمن زعم أنه لن يجد التاريخ نقياً صافياً ، منزهاً من كل دخَل ، مبرئاً من كل هوى ، مصفى من كل تحيز فليمدد بسبب إلى سماء المعالم ؛ ومن كان يريد خلاصة وافية لثقافة الدهور يضمها إلى ثقافته ويزيدها بها صـقالا فلينهل من مناهل ولز العذبة ؛ ومن كان يريد أن يتعلم كيف يكون مواطناً حراً ذا رأى فى إدارة شئون بلاده فليفد من ولز ؛ ومن كان من رجال السياسة يريد أن يتعلم نزاهة الحـكم ، وصراحة العمل ، واحترام رأى الأغلبية ، وتقديس الدساتير ، والتخلى عن المـكيافلية البغيضة والدس والتآمر — فليتخذ من ولز رائده وهاديه .

وما أبدع أن تجلس إليه جلسة التلميذ الخاشع من أستاذه العظيم ، لـكى تخرج بعد ذلك مثقفاً ناصع الصقل ، ومواطناً بالعالم رحب الأفق فسيح النظرة ، عديم التعصب ، عارفا بحقك وكرامتك مؤدياً لواجبك ومؤمناً بالديموقراطية .

وبعد فإذا لقى القارىء بعض العسر فى استيعاب ولز ومتابعة عميق أفكاره فليصبر وليصابر فإن ما سيبذله فى ذلك من جهد واصطبار ثمن قليل لما سيجنيه من التزكى بثمرات ذلك العقل الملهم الفياض .

مصر الجديدة فى { ١٤ رجب ١٣٧١ / ٩ أبريل ١٩٥٢ }

عبد العزيز توفيق جاويد

الكتاب الثامن

عصر الدول العظمى

الفصل الرابع والثلاثون

أمراء وبرلمانات ودول

١ — الأمراء والسياسة الخارجية .
٢ — الجمهورية الهولندية .
٣ — « الإنجليزية .
٤ — انقسام ألمانيا واضطرابها .
٥ — أبهة الملكية العظمى فى أوربا .
٦ — الموسيقى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر .
٧ — التصوير فى القرنين السابع عشر والثامن عشر .
٨ — نمو فكرة الدول العظمى .
٩ — جمهورية بولندة المتوجة ومصيرها .
١٠ — أول تحالف على الإمبراطوريات وراء البحار .
١١ — بريطانيا تسود الهند .
١٢ — تقدم الروسيا إلى المحيط الهادى .
١٣ — رأى جيبون فى العالم فى ١٧٨٠ .
١٤ — المدنية الاجتماعية تشارف نهايتها .

١ — الأمراء والسياسة الخارجية

تتبعنا فى الفصل السابق بزوغ فجر مدنية جديدة ، هى المدنية ذات الطابع الحديث التى أصبحت فى العصر الحالى تعم العالم أجمع . وهى لا تزال إلى الآن شيئاً ضخماً لم تستو له قسمات ، ولم تتخط فى يومنا هذا بواكير أدوار النمو والتطور . وشهدنا فكرتى العصور الوسطى عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة وعن الكنيسة الكاثوليكية — بوصفهما صورتين للقانون والنظام العام — تذويان عند مستهل ذلك الفجر وهما إنما تزولان من الوجود بحكم نوع من الضرورة قضت بذلك لكى يستطاع صوغ تلك الفكرات الداعية إلى قيام قانون واحد ونظام واحد صوغاً جديداً يشمل العالم برمته . وبينما كان التقدم يلم بكل ميدان من ميادين الصالح الإنسانية الأخرى جاء زمان أدى فيه امحاء هاتين الفكرتين السياسيتين العامتين وهما الكنيسة والإمبراطورية ، إلى التقهقر بالمسائل السياسية إلى مجرد الملكية الشخصية المطلقة وإلى القومية الملكية ذات الطراز المقدونى .

وجاءت فترة فراغ وركود توقفت فيها بالفعل عملية تماسك الشئون الإنسانية ، وهى طور

من تلك الأطوار التى كان يسميها أصحاب الحوليات الصينية « عصور الاضطراب » . ولبثت فترة الفراغ هــذه أمداً يعادل تلك الفترة المحصورة بين سقوط الدولة الرومانية وبين تتويج شرلمــان فى روما . ونحن اليوم نعيش فى ظلالها ولعلها أشفت على نهايتها . فما نستطيع حتى الآن أن نجزم بذلك . وكانت الأفكار الغالبة القديمة قد تحطمت ، وكان خليط من المشروعات والمقترحات الجديدة غير المجربة يبلبل عقول الناس وأفعالهم ، وكان لزاماً على العالم فى الوقت نفسه أن يرتد فيطلب الزعامة على أساس التقاليد القديمة تقاليد الأمير الفرد . ذلك أن الناس لم يكن أمامهم من محجة بينة المعالم يستطيعون أن يضربوا فيها بقدم ، وكان الأمير بين أيديهم .

شهدت خاتمة القرن السادس عشر أرجاء العالم كافة ، وقد سادتها الملــكية التى تنزع إلى الحــكم المطلق . فكانت ألمانيا وإيطاليا مقسمتين إلى رقاع صغيرة من الإمارات الاستبدادية (الأوتوقراطية) التى يرأسها أمير ، وكانت أسبانيا استبدادية أو تكاد . ولم يصل العرش يوماً فى إنجلترا إلى مثل قوته آنذاك ، حتى إذا تقدم القرن السابع عشر كانت الملــكية الفرنسية قد أصبحت على الأيام أعظم دولة فى أوربا وأشدها تماسكا . وما نحن بقادرين على أن نسجل هاهنا أطوار رفعتها وما مر بها من تقلبات .

وكانت تحتشد فى كل بلاط زمر من الوزراء وكتاب السر (السكرتيرين) يلعبون دوراً مكيافلياً ضد منافسيهم فى الدول الأخرى . والسياسة الخارجية هى الوظيفة الطبيعية للبلاط والملك ويكاد وزراء الخارجية يكونون أهم الشخصيات البارزة الزعيمة فى كل تواريخ القرنين السابع عشر والثامن عشر . وهم الذين دأبوا على جعل أوربا فى حُمَّى من الحروب . وكانت نفقات الحروب أخذت تثقل ، فلم تعد الجيوش بعد جنوداً غير مدربين ، ولم تعد جموعاً من فرسان الإقطاع يجلبون معهم خيلهم وسلاحهم ورجلهم بل أخذت تشتد حاجة هذه الجيوش إلى المدفعية ، وأصبحت تتكون من جنود يتناولون أجوراً يلحون فى طلبها ، كانوا جنوداً محترفين متأنسين حذاقاً ، يقومون بالحصارات الطويلة ، ويحتمون إقامة التحصينات المحكمة . فزادت نفقات الحرب فى كل مكان واستدعت الزيادة المستمرة فى فرض الضرائب .

وهنا حدث أن اشتبكت هذه الملــكيات ، ملــكيات القرنين السادس عشر والسابع عشر فى نزاع بينها وبين قوى للحرية جديدة غير مكتملة النضج فى المجتمع . ووجد الأمراء أنفسهم لا يتحكمون فى حيــاة رعاياهم ولا أموالهم . بل وجدوا مقاومة مزعجة للضرائب التى كانت ضرورية لا مندوحة عنها إذا شاءوا لخصوماتهم ومحالفاتهم أن تتواصل . وأصبحت الشئون المــالية شبحاً كريهاً فى كل قاعة «مجلس» وكان العاهل من الوجهة النظرية هو المالك لبلاده .

فقد أعلن جيمس الأول ملك انجلترا (١٦٠٣) أنه « لما كان من الكفر والتجديف أن يعترض الناس على قدرة الله ، فإن من الوقاحة والزراية الكبيرة أن يعترض أحد الرعايا على قدرة الملك ، أو أن يقول إن ملكا لا يستطيع أن يفعل هذه أو تلك . »

ولكنه وجد فى الواقع — كما قدر لولده شارل الأول (١٦٢٥) أن يجد أكثر مما وجد أبوه ، أن فى ملكه عدداً كبيراً من أصحاب الأرض والتجار — وهم أشخاص لهم وزنهم ولهم ذكاؤهم — قد رسموا حداً محدوداً فاصلا لمطالب الملك ووزرائه . كانوا على استعداد للتسامح والرضا بحكمه إذا كانوا يستطيعون هم أنفسهم أن يكونوا ملوكا وأقيالا لأراضيهم وأعمالهم وتجارتهم وما إلى هذا بسبيل . ولكنهم لا يقبلون عدا ذلك شيئاً .

وكان هناك تطور مماثل لهذا فى كل أرجاء أوربا . فمن دون الملوك والأمراء كان هؤلاء الأقيال ، وأعنى بهم أصحاب الأملاك والنبلاء والمادنين الأغنياء ومن إليهم ، الذين كانوا يظهرون آنذاك لولاهم الأمير نفس المقاومة التى أبداها ملوك ألمانيا وأمراؤها للإمبراطور . وكانوا يرمون إلى تحديد الضرائب بقدر ما كانت تضغط على أشخاصهم ، وأن يكونوا أحراراً فى ديارهم وضياعهم . وكان من أثر انتشار الكتب والقراءة والانصال أن تمكن هؤلاء الأقيال من أصحاب الأملاك من الرق بهذه المجتمعات الفكرية وتلك الصلابة فى المقاومة رقياً لم يكن له نظير فى أى طور من الأطوار التى مرت بتاريخ الإنسانية كله . كانوا نزاعين فى كل مكان أن يقاوموا الأمير ، ولكنهم لم يجدوا فى كل بقعة نفس التيسير فى المقاومة المنظمة . فإن الظروف الاقتصادية والتقاليد السياسية فى الأراضى المنخفضة وإنجلترا جعلت هذين القطرين أول من جعل النزاع بين العاهل والمالك يؤتى ثماره .

وفى بادىء الأمر كان جمهور القرن السابع عشر هذا ، ذلك الجمهور المكون من أصحاب الأملاك ، قليل الاحتفال بالسياسة الخارجية . ذلك أنهم لم يستشعروا أول الأمر أنها تؤثر فيهم . فلم يريدوا أن يشغلوا أنفسهم بها فقد سلموا بأنها شئون الأمراء والملوك . ومن ثم لم يحاولوا قط التحكم فى معقدات السياسة الخارجية ، ولكن حدث أنهم اشتبكوا مع النتائج المباشرة لهذه المعقدات ، فقد اعترضوا على الضرائب الفادحة ، وعلى التدخل فى شئون التجارة ، وعلى الحبس التعسفى ، وعلى تسلط الملك على الضمائر . وعلى أساس هذه المسائل نزلوا حومة الكفاح ضد التاج .

٢ — الجمهورية الهولندية

كان انفصال الأراضي المنخفضة عن الملكية المطلقة بداية سلسلة من أمثال تلك المنازعات استمرت طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر . كانت تختلف في تفاصيلها اختلافاً بالغاً تبعاً للخصائص المحلية والعنصرية ، ولكنها كانت كلها من الناحية الجوهرية متمردة على السلطان الشخصي للأمير وعلى توجيهه السياسي والديني .

كانت منطقة الراين الأدنى بأكلها مقسمة في القرن الثاني عشر بين عدد من الحكام الصغار ، وكان السكان من أرومة ألمانية دنيا Low German[1] من فوق أساس كلتى ، وتخالطهم عناصر دانياركية أحدث عهداً شديدة الشبه بما في بلاد الإنجليز من خليط ، وكان الإفريز الجنوبي الشرقي لهذا الإقليم ينطق بلهجات فرنسية ، على حين تنطق كتلة السكان بلغات فريزية وهولندية ولغات ألمانية دنيا أخرى . ولقد ظهرت الأراضي المنخفضة ظهوراً كبيراً في الحروب الصليبية . فإن جود فرى البويونى الذى استولى على بيت المقدس (في الحملة الصليبية الأولى) كان بلجيكياً . وكان مؤسس ما يسمى بالأسرة اللاتينية في القسطنطينية (الحملة الصليبية الرابعة) هو بالدوين أمير فلاندرا . (وقد أطلق عليهم اسم الأباطرة اللاتينيين ، لأنهم كانوا يظاهرون الكنيسة اللاتينية) .

ونمت في الأراضي المنخفضة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر مدن ضخمة : منها غنت وبروج وإيبر وأترخت وليدن وهارلم وما إليها . وتمخضت هذه المدن عن « حكومات مجالس بلدية » شبه مستقلة وطبقة من رجال المدن المتعلمين . ولن نشغل القارئ عما سنح بين الأسرات المالكة من صدف ربطت شئون الأراضي المنخفضة ببورغنديا (فرنسا الشرقية) ، وانتهت إلى جعل السلطان الأعلى عليها من ميراث الإمبراطور شارل الخامس .

وفي عهد شارل انتشرت إلى الأراضي المنخفضة المبادئ البروتستانتية التى كانت عند ذاك تعم ألمانيا ، واضطهد شارل الناس في شيء من الشدة ، ولكنه مالبث في ١٥٥٦ ، كما أسلفنا أن ترك الأمر إلى ولده فيليب (فيليب الثانى) ، وسرعان ما أصبحت سياسة فيليب الخارجية الناشطة إذ كان يشتبك بحرب مع فرنسا — مصدر شر بينه وبين نبلاء الأراضى

---

(١) راجع ص ١٣٤ ج ١ من المعالم . والأجناس الألمانية الدنيا هى الأجناس الألمانية التى كانت تسكن سهل ألمانيا الشمالى المنخفض ولغتهم تسمى باللهجة الألمانية الدنيا .

المنخفضة وأهل مدنها ، لأنه اضطر أن يلجأ إليهم طالباً المعونة فنصب النبلاء العظام يقودهم وليم الصامت ، أمير أورانج ، وكونتا إجمونت وهورن ، أنفسهم على رأس مقاومة شعبية عامة ، يستحيل فيها الآن التفريق بين الاعتراض على فرض الضرائب والاعتراض على الاضطهاد الدينى ، ولم يكن النبلاء العظام من البروتستانت أول الأمر ، ولكنهم أصبحوا كذلك عندما اشتدت حدة النزاع مرارة . أما الشعب فكان أصبح من قبل بروتستانتياً عنيفاً .

وعقد فيليب العزم على أن يحكم الأراضى المنخفضة وضمائر أهلها جميعاً فأرسل إليهم نخبة مختارة من الجنود الأسبان واستعمل على البلاد نبيلاً اسمه ألفا ، وهو أحد أولئك الرجال « الأقوياء » الذين لا تعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلا والذين يحطمون الحكومات والملكيات . فطفق يحكم البلاد زدحاً من الزمان بقبضة من حديد ، ولكن اليد الحديدية تبث فيما تمسك به من جسم روحاً من حديد ، ففى ١٥٦٧ جهرت كل الأراضى المنخفضة بالعصيان ، وأخذ ألفا يعمل فى الناس القتل والانتهاب والمذابح على غير طائل ، وأعدم الكونتان إجمونت وهورن . فأصبح وليم الصامت زعيم الهولنديين الأكبر ، ومليكهم فى الواقع .

واستمر الكفاح فى سبيل الحرية زماناً طويلا يتخلله كثير من التعقيد ، ومن الجدير بالذكر أن العصاة ظلوا متعلقين فى كل أدوار الكفاح بالقول بأن فيليب الثانى إنما هو ملكهم — لو أنه فقط رضى أن يكون ملكاً معقولاً محدود السلطان . ولكن فكرة الملكية المقيدة كانت فكرة كريهة المذاق لدى أصحاب التيجان فى أوربا وقتذاك ، وأخيراً دفع فيليب بالمقاطعات المتحدة التى تطلق عليها اليوم اسم هولندا ، إلى النزوع نحو الحكم الجمهورى وليلحظ القارئ أن ذلك فى هولندا وليس فى الأراضى المنخفضة جمعاء ، ذلك أن الأراضى المنخفضة الجنوبية وهى بلاد البلچيك كما يسمى ذلك القطر الآن ، ظلت حتى نهاية الكفاح ولاية إسبانية كاثوليكية العقيدة أيضاً .

ويمكن أن يتخذ حصار آلكمار (١٥٧٣) كما يصفه موتلى [١] ، مثالا على ذلك النضال الطويل القطيع بين الشعب الهولندى الصغير وبين موارد الاستعمار الكاثوليكى التى كانت ما تزال كبيرة ضخمة . كتب آلفا إلى فيليب يقول : « إذا استوليت على آلكمار فلن أدع فيها على قيد الحياة فرداً . ولسوف أضع النصل فى كل رقبة ... والآن وقد مثلت أمام أعينهم مدينة هارلم المجردة من أسلحتها والخاوية على عروشها ، وكأنى بها شبحاً يتنبأ لهم بمصيرهم ، فإن رجال آلكمار الذين يعدون على الأصابع والذين أغلقوا عليهم أبوابها تهيئوا لأسوأ الظروف .

(١) فى كتابه « قيام الجمهورية الهولندية » .

وكان البحر صديقهم هو مناط أملهم الأكبر . ذلك بأن الفتحات الهائلة التى يمكن بواسطتها غمر القاطعة الشمالية بغاية السرعة ، لم تكن إلا على مبعدة أميال . فلو أنهم فتحوا هذه البوابات وهدموا بعض جسور الماء لجعلوا المحيط يحارب فى صفهم . ومع ذلك فقد كانت موافقة الأهلين لازمة للحصول على تلك النتيجة ، إذ أن تلف كل المحاصيل التى فى الحقول يكون عند ذاك محققاً . وكانت المدينة محوطة بالمحاصرين إحاطة وثيقة جعلت من المسير عليهم أن يجدوا رسولا يقوم بتلك المهمة المخطرة . وأخيراً تقدم للقيام بهذه المغامرة نجار يدعى بيترڤان درماى ...

« وسرعان ما تحرجت الأمور فى داخل المدينة المحصورة فقد كانت تحدث فى كل يوم خارج الأسوار مناوشات غير حاسمة . ثم حدث آخر الأمر فى اليوم الثامن عشر من سبتمبر أن أصدر الدوق فردريك فى الساعة الثالثة بعد الظهر أمراً بالهجوم ، بعد ضرب المدينة بالمدافع ضرباً متواصلا دام اثنتى عشرة ساعة ، وبالرغم مما مر به من خبرة دامت سبعة شهور فى هارلم فإنه ظل يعتقد أن من المحقق أن يأخذ المدينة اكتساحاً . وحدث الهجوم فى نفس الوقت على كل من البوابة الفريزية والبرج الأحمر فى الجهة المقابلة . وكان على رأس الهجوم فرقتان من نخبة الجند وصلتا وشيكا من لومبارديا ، وهما تزلزلان الجو بصيحات أفرادها معبرين عن ثقتهم بنصر جين قريب . وكان يظاهرهم ما كان يلوح قوة جارفة من الجنود المنظمة . بيد أنه لم يحدث قط حتى فى تاريخ هارلم القريب ، أن قوبلت هجمة بصدور أثبت جناناً وأشجع أفئدة . فإن كل رجل به نسمة من حياة كان متخذاً مكانه على الأسوار . وكانت الجماعات الهاجمة تقابل بالمدافع والقرابينات والغدارات . وكان الماء والقار والزيت المغلى والرصاص المصهور والجير الحى تصب عليهم فى كل لحظة صباً . وكانت مئات من الأطواق القيّرة والحماة تلقى بمهارة حول أعناق الجنود ، الذين حاولوا عبثاً أن يخلصوا أنفسهم من تلك الأطواق النارية ، فى حين أنه لم يكن أحد من الهاجمين يضع قدمه على الثغرة حتى يتلقاه سكان المدينة بالسيوف والخناجر ويقذفون بهم على أم رءوسهم فى الخندق .

وتجدد الهجوم ثلاث مرات بحدة وقوة لا تلين وصد كذلك ثلاث مرات بضراوة وجلد لا هوادة معهما . واستمرت العاصفة هوجاء أربع ساعات . ولم يغادر واحد من المدافعين مكانه طيلة تلك المدة ، إلا أن يسقط عنه صريعاً أو جريحاً . ونفخ فى البوق نفخة الارتداد ، وانسحب الأسبان عن الأسوار مندحرين تمام الاندحار ، مخلفين وراءهم فى الخنادق ما لا يقل عن ألف قتيل ، أما أهل المدينة فلم يقتل منهم إلا ثلاثة عشر من السكان وأربعة وعشرون من

الحامية ... وقد أبلغ حامل العلم سوليز الذى صعد على الثغرة لمدة ثانية واحدة ، ونجا بحياته بمعجزة بعد أن قذف به من الأسوار ، أنه لم ير عندما أشرف على المدينة خوذة أو سرجا : بل شهد نفراً من البسطاء يرتدون عموما ثياب صيادى السمك ، ومع ذلك فإن هؤلاء الصائدين البسطاء قد دحروا محنكة جنود آلفا ...

« وفى نفس الوقت لما كان الحاكم سونوى قد فتح كثيراً من جسور الماء ، فإن الأرض فى المنطقة المجاورة للمعسكر أخذت تصبح بركا ، وإن كان الفيضان المنذر به لم يحدث حتى آنذاك . وكان القلق أخذ يدب دبيبه إلى الجنود وامتلأت نفوسهم بالشكس والتمرد . ولم تكن مهمة النجار عبثاً ... »

فإنه عاد إلى المدينة يحمل بعض الرسائل . ولكنه فقد تلك الرسائل إما على وجه الصدفة أو التدبير وهو فى طريقه إلى المدينة ، فوقعت فى يد آلفا . وكانت تحوى وعداً صريحاً من دوق أورانج بغمر البلاد بالماء غمراً يحمل الجيش الأسبانى بأكمله من المغرقين . وكان هذا الأمر يغرق فى نفس الوقت معظم المحصول والماشية الهولندية . ولكن آلفا عندما اطلع على تلك الوثائق لم ينتظر حتى تفتح عليه بوابات أخرى . وسرعان ما أخذ رجال الكار البواسل وهم يتصايحون ويهتفون — يشهدون الأسبان وهم يأخذون أهبة الرحيل والتفرق .

وكان الشكل الذى اتخذته حكومة هولندا المحررة ، هو جمهورية من الأشراف تحت رياسة بيت أورانج وكان مجلس الطبقات States-General أقل تمثيلا لهيئة المادنين بأكملها من البرلمان الإنجليزى ، الذى سنقص عليك فيما يلى قصة كفاحه مع التاج .

ومع أن أسوأ أدوار الكفاح انقضت بعد آلكار ، فإن هولندا لم تصبح مستقلة بالفعل حتى ١٦٠٩ ، ولم يعترف باستقلالها اعترافاً تاماً كاملا إلا فى معاهدة وستفاليا فى ١٦٤٨ .

٣ — الجمهورية الإنجليزية

يبدأ النزاع الصريح الذى قام به مالك العقار مناهضاً عدوان « الأمير » فى إنجلترا فى عهد قديم يرجع إلى القرن الثانى عشر . ودور الكفاح الذى علينا أن ندرسه الآن إنما هو الذى ابتدأ بمحاولات هنرى السابع والثامن وخلفائهما ، إدوارد السادس ، ومارى واليزابيث لجعل حكومة إنجلترا ملكية شخصية[1] من الطراز الذى يعم القارة الأوربية . واشتد

(١) الملكية الشخصية أو الفردية هى المطلقة التى تتجسم فى شخص الملك .

الـكفاح حدة عندما حدث تبعاً لمصادفات المصاهرة فى الأسرة المـالـكة ، أن أصبح چيمس ملك اسكوتلندة ، هو چيمس الأول ملك إنجلترا واسكوتلندة على السواء (١٦٠٣) ، وأخذ يتكلم على المنوال الذى اقتبسناه عنه آنفاً عن « حقه الإلهى » فى أن يفعل ما يشتهى .

(شكل ١٦٩) صورة كرمويل

ولـكن لم يحدث قط أن كان طريق الملـكية الإنجليزية طريقاً سهلا معبداً . ففى كل العاهليـات التى أقامهـا غزاة الإمبراطورية الشماليون والألمانيون كان هناك تقاليد لجمعية شعبية تجمع ذوى النفوذ والتمثيل من الرجال لحفظ حرياتهم العامة ، ولم تكن تلك الجمعية أنشط فى أىّ منها حياة ، منها فى إنجلترا . فـكانت لفرنسا تقاليدها الخاصة بجمعية الطبقات الثلاث Estates وكان لأسبانيا كورتيزها ، بيد أن الجمعية الإنجليزية كانت تتسم بسمة خاصـة من ناحيتين . أولاهما أنه كان من ورائها تصريح يتخذ صفة الوثيقة ويحتوى على حقوق معينة أولية وعامة ؛ وثانيتهما أنها كانت تضم « فوارس مقاطعات » منتخبين كما تضم نواباً عن المدن منتخبين أيضاً . وكانت الجمعيتان الفرنسية والأسبانية تتألفان من العنصر الأخير دون الأول .

وهاتان الخصيصتان جعلتا للبرلـمان الإنجليزى قوة خاصة فى كفاحه مع العرش . والوثيقة المعنية إنما هى الماجنا كارتا أى العهد الأعظم ، وهو تصريح أخذ غصبا من الملك چون (١١٩٩ — ١٢١٦) ، وهو أخو الملك ريتشارد قلب الأسد (١١٨٩ — ١١٩٩) وخليفته ، وذلك بعد عصيان البارونات فى ١٢١٥ . وهو يكرر عدداً من الحقوق الجوهرية التى جعلت من إنجلترا دولة قانون لا دولة ملـكية . وهو قد أبى على الملك التسلط على الممتلـكات والحرية الشخصية لـكل نوع من أنواع المادنين — اللهم إلا أن يكون ذلك برضاء نظراء المادن .

فأما وجود ممثلى القاطعة المنتخبين فى البرلمان الإنجليزى — وهى الخصيصة الثانية فى

حالة بريطانيا — فقد نجمت عن بدايات بسيطة جداً ، رغما لاحت سليمة لاضير فيها ، إذ يبدو أن الفرسان كانوا يستدعون من المقاطعات أو أقسام المديريات إلى المجلس الوطني ليشهدوا

(شكل ١٧٠)

بمقدرة نواحيهم على دفع الضرائب . وكان يرفعهم إلى ذلك المكان من هم أدنى منهم مرتبة من الأعيان وأصحاب الأملاك وشيوخ القرى فى نواحيهم فى زمان يرجع إلى ١٢٥٤ ، فينوب عن كل مقاطعة فارسان . فألهمت هذه الفكرة سيمون دى مونت فورت ، وكان فى ثورة ضد هنرى الثالث ، خليفة جون ، أن يدعو إلى المجلس الوطنى فارسين عن كل مقاطعة ، وممادنين لكل مدينة أو بندر[1] وواصل هذا العمل إدوارد الأول خليفة هنرى الثالث ، إذ أنه كان يلوح فى نظره وسيلة ملائمة تمكنه من الاتصال المالى بالمدن النامية .

(١) البندر : Borough أطلقناها للدلالة عليها ومعناها المدينة المتحدة .

وأبدى الفرسان ورجال المدن فى بادئ الأمر قدراً جسيماً من عدم الرغبة فى حضور البرلمان ، ولكنهم أدركوا شيئاً فشيئاً القوة التى يملكونها فى ربط رفع المظالم بمنح الاعتمادات المالية .

وكان ممثلو ملاك العقارات العامة فى المدن والريف وهم من يسمون باسم العموم Commons يعقدون جلساتهم ويتناقشون فى الأمور من زمن قديم جداً أو قل منذ البداية ، بمعزل تام عن كبار اللوردة والأساقفة ، وهكذا نمت فى انجلترا جمعية تمثيلية ، هى مجلس العموم ، إلى جانب جمعية أخرى من الأساقفة والنبلاء هى مجلس اللوردة . ولم يكن هناك فارق جوهرى عميق يفرق بين هيئتى الجمعيتين . وكان بين فرسان المقاطعة رجال لهم قيمتهم ، ربما بلغوا من الثراء والنفوذ مبلغ النبلاء ويبنهم كذلك أبناء النبلاء وأشقاؤهم ، على أن مجلس العموم كان فى جملة أمره هو الجمعية الأدنى إلى الشعبية .

وأظهر هذان المجلسان منذ البداية ، وبخاصة مجلس العموم ، ميلاً إلى ادعاء الحق الكامل فى فرض الضرائب على البلاد . وأخذا بالتدريج يوسعان دائرة مجالها من نظر المظالم إلى نقد شئون المملكة كلها .

ولسنا بمترسمين حظ البرلمان الإنجليزى المترجح فى سبيل القوة والسطوة إبان حكم ملوك آل تيودور ، (أعنى هنرى السابع والثامن وإدوارد السادس ومارى وإليزابيث) ، على أنه يتضح للقارئ مما قلناه ، أنه عندما أعلن جيمس استيوارت آخر الأمر ادعاءه الصريح بالأوتوقراطية ، وجد التجار والنبلاء والجنتلمانية المستقلون الإنجليز ، بين أيديهم وسيلة تقليدية شريفة مختبرة لمقاومته لم يكن عند أى شعب فى أوربا نظير لها .

وهناك خصيصة أخرى للنضال السياسى الإنجليزى ، هى انفصاله النسبى عن الكفاح العظيم بين الكاثوليك والبروتستانت ، وهو الكفاح الذى كانت نيرانه مشبوبة فى كل أرجاء أوربا . حقاً إنه اختلطت بالكفاح الإنجليزى منازعات دينية واضحة المعالم تختلف عن كل ما عداها ، ولكنها كانت فى جوهرها نضالاً سياسياً بين الملك والبرلمان ، مجسماً فى طبقة المادنين أصحاب الأملاك الخاصة ، ولكن الشعب والتاج دخل إليهما الإصلاح الدينى رسمياً وكانا من البروتستانت . نعم إن كثيراً من الناس فى الجانب الأول (أعنى الشعب) كانوا بروتستانت ، من طراز يحترم الكتاب المقدس ولا يقيم وزناً للنظام الكهنوتى ، وهو الطراز الذى يمثل الإصلاح الدينى كما تراه الشعوب ، وأن الملك كان الرئيس الإسمى لكنيسة قسوسية تعترف بالعشاء الربانى وتقوم على نظام الكهنوت ، وهى كنيسة إنجلترا المنشأة ،

التى تمثل الإصلاح الدينى كما يراه الأمراء[1] ، ولـكن هذه الخصومات لم تلق قط ستراً تاماً على أسس الـكفاح الجوهرية .

وكان الـكفاح بين الملك والبرلـمان قد وصل من قبل إلى دور حاد قبل وفاة جيمس الأول (١٦٢٥) ، ولـكنه لم يبلغ ذروته ، ويصل إلى الحرب الأهلية إلاّ فى حكم ولده شارل الأول . وفعل شارل بالضبط كل ما يتوقعه المرء أن يفعله ملك فى ذلك الموقف ، بالنظر إلى قلة الرقابة البرلمانية على السياسة الخارجية . فإنه زجّ بالمملـكة فى حرب مع كل من أسبانيا وفرنسا ، ثم جاء يطلب من بلاده المدد آملاً أن يتغلب الشعور الوطنى على ماتوقـر فى النفوس من كراهية طبيعية لإعطائه المـال ، فلما أن رفض البرلمان إمداده بالمال ، طلب من كثير من رعاياه بعض القروض ، وحاول أن يفرض على الناس ألواناً مماثلة من هذه الفرائض غير القانونية .

فأدى هذا بالبرلمان إلى إصـدار وثيقة لاتنسى أبداً (١٦٢٨) ، هى ملتمس الحقوق Petition of Right ذكر فيها بالعهد الأعظم وأكد القيود القانونية على سلطة الملك الإنجليزى ، وأنكر حقه فى جباية الفرائض من أى إنسان أو سجنه أو معاقبته ، أو أن ينزل جنوده على حساب الناس ، — دون اتخاذ الإجراءات القانونية الواجبة .

وبذلك عرض ملتمس الحقوق قضية البرلمان الإنجليزى . والميل إلى عرض القضية ، كان على الدوام خصيصة إنجليزية ملحوظة جداً . وعندما كان الرئيس ولسون أثناء الحرب العظمى (١٩١٤ — ١٨) يمهد لـكل خطوة من خطوات سياسته (بمذكرة) ، كان يسير فى نهج أعظم التقاليد الإنجليزية وقاراً .

وتصرف شارل فى شأن هذا البرلمان بملء حريته — فحله فى (١٦٢٩) ، وظل أحد عشر عاما لايدعو برلماناً ما ، ويجمع الضرائب جمعاً غير قانونى ، ولـكنها لم تكن تفى بغرضه . وإذ أدرك أن فى الإمكان أن تستعمل الـكنيسة أداة لنشر الطاعة ، عين لود رئيساً لأساقفة كانتربورى وبذا يصبح على رأس كنيسة إنجلترا ، وهو رجل من كبار رجال الـكنيسة عدوانى الطبع ، وينطوى على كثير من صفات القسيس وممن يؤمنون « بالحق الإلهى » .

وفى (١٦٣٨) حاول شارل أن يمد خصائص الـكنيسة الإنجليزية التى كانت بين البروتسـتانتية والـكاثوليكية ، إلى مملـكته الأخرى الإسكتلندية ، حيث كان التباعد والانفصال عن الـكاثوليكية أتم وأشمـل ، وحيث كانت صورة من المسيحية لا تقوم على

(١) انظر ص ٧٩٤ ج ٣ من المعالم .

قسس ولا تعترف بالعشاء الربانى ، هى البريزبتريانية Presbyterian[(١)] ، قد تأسست بوصفها الكنيسة القومية . فثار الإسكتلنديون ، وتمردت الجنود الإنجليزية التى جمعها شارل لقتالهم .

وكان الإفلاس قاب قوسين أو أدنى وهو فى كل الأزمان النتيجة الطبيعية لكل سياسة خارجية طموح . واضطر شارل حين لم يعد لديه مال ولاجنود جديرة بالثقة ، أن يدعو آخر الأمر برلماناً (١٦٤٠) ولكن هذا البرلمان ، وهو المعروف بالبرلمان القصير ، حله الملك فى نفس السنة ، ثم جرب مجلساً من النبلاء فى يورك (١٦٤٠) ، ثم استدعى فى نوفمبر من نفس السنة آخر برلمان له .

واجتمعت هذه الهيئة ، وهى البرلمان الطويل ، وهى فى حالة تهيؤ للنضال . فقبضت على لود ، رئيس أساقفة كنتربورى ، واتهمته بالخيانة ، ونشرت (توبيخاً عظيماً) كان عبارة عن تقرير مفصل شامل لقضية البرلمان ضد شارل . واتخذ البرلمان بإصداره مشروع قانون (Bill) التدابير اللازمة لاجتماع البرلمان مرة فى كل ثلاث سنين على الأقل ، سواء استدعاه الملك أم لم يستدعه . وحاكم أكابر وزراء الملك الذين أعانوه على أن يحكم مثل ذلك الزمان الطويل بلا برلمان ، وبخاصة الإيرل سترافورد .

قدبر الملك إنقاذاً لاسترافورد — مؤامرة للاستيلاء بالجيوش فجأة على لندن ، واكتشفت المؤامرة ، وسارع البرلمان إلى إصدار القانون القاضى بالحكم بإدانة سترافورد ، وسط عاصفة عظيمة من الهياج الشعبى ، ودب الخوف من جماهير لندن إلى قلب الملك شارل الأول ، الذى لعله كان من أسفل من جلسوا على العرش البريطانى وأشدهم خيانة . وكان لابد قبل أن يموت سترافورد بالطريقة القانونية المناسبة ، أن يوافق الملك على ذلك ، فوافق الملك وقطعت رأس سترافورد .

وكان الملك فى الوقت نفسه يأتمر فى الخفاء ويبحث عن المونة فى مواطن غريبة ، ينشدها بين الإرلنديين الكاثوليك وبين الخونة من الإسكتلنديين . وأخيراً لجأ إلى مظهر للعنف ضعيف أراد أن يستعمل فيه القوة . فذهب إلى دار البرلمان ليعتقل خمسة من أنشط خصومه فدخل إلى مجلس العموم واعتلى منصة الخطابة ، وكان مستعداً لإلقاء خطبة جريئة عن الخيانة ، ولكنه عندما رأى أماكن خصومه الخمسة خالية ، أرتج عليه واضطرب وتكلم فى جمل متقطعة إذ علم أنهم ارتحلوا عن مدينته الملكية وستمنستر ، ولجأوا إلى مدينة لندن التى كان لها مجلس

---

(١) البريزبتريانية هى كما ترى طائفة مسيحية لاتعترف بنظام الأساقفة والقسوس .

بلدية يحكمها حكماً ذاتياً ، وتحدته لندن . وبعد ذلك بأسبوع قام رجال حرس لندن المدربون بتوصيل هؤلاء الأعضاء الخمسة إلى دار البرلمان بوستمنستر فى موكب عظيم ، من مواكب النصر ولكى يتجنب الملك جو الصخب والعداء الذى صحب الحادث ، غادر قصر هوايت هول إلى وندسور . وعندئذ استعد كل من الفريقين صراحاً للحرب .

وكان الملك هو الرئيس التقليدى للجيش وقد جرت عادة الجند بطاعة الملك . وكانت لدى البرلمان موارد أعظم . ورفع الملك لواءه فى نوتنجهام فى مساء يوم مظلم عاصف من أغسطس (١٦٤٢) .

وتلى ذلك حرب أهلية طويلة عنيدة ، كان الملك فيها مستحوذاً على أكسفورد والبرلمان على لندن ، وكان النجاح ينتقل من جانب إلى جانب ، ولكن الملك لم يستطع قط أن يطبق على لندن ، كما لم يستطع البرلمان أن يأخذ أكسفورد . وكان يفل من عزم كل من الخصمين وجود أتباع من المعتدلين الذين « لم يكونوا يحبون الاشتطاط فى الأمور » .

وبرز من بين قادة البرلمان ، رجل اسمه أوليفر كرومويل ، كان قد جمع ثلة من الفرسان وارتفع إلى مرتبة جنرال . ويصفه معاصره اللورد وارويك بأنه رجل بسيط فى بدلة من قماش عادى « صانعها خياط ريفى ردئ » . لم يكن مجرد جندى مقاتل ، بل كان منظماً عسكرياً ، أدرك ماعليه كثير من القوات البرلمانية من حالة دنية ، ونصب نفسه لإصلاحها ، وكان لفرسان الملك تلك التقاليد الجيلة ، تقاليد الفروسية والولاء . وكان البرلمان شيئاً جديداً عسيراً على الأفهام ليست له تقاليد تقارن بتلك . قال كرومويل « إن جنودكم إنما هم فى معظمهم خدمة وسقاة كهول واهنو القوى ، فهل تظنون أن أرواح مثل هؤلاء الأشخاص الأسافل الأدنياء ، تستطيع يوماً أن تقاتل الجنتلمانية الذين ملأ أعطافهم الشرف والشجاعة والعزم ؟» .

ولكن هناك شيئاً أقوى وأحسن من الفروسية الجذابة فى العالم ، وذلك هو الحماسة الدينية . ولذا نصب كرومويل نفسه ليجمع فرقة من « الأتقياء » . وكان لا بد لهم من أن يكونوا رجالا جادين راشدين . وكان لا بد لهم فوق كل شىء من أن يكونوا رجالا ذوى عقيدة قوية . فتجاهل جميع التقاليد الاجتماعية وجمع ضباطه من بين كل طبقة . « إنى لأفضل أن أحصل على ضابط بسيط يرتدى بذلة ريفية حمراء ، ويعرف الذى من أجله يحارب ويحب ما يعرف ، على ما تسمونه جنتلمانا وليس بشىء عدا ذلك . »

واكتشفت إنجلترا بين ظهرانيها قوة جديدة هى الحرس الجديدى . كان السعاة والحوذية

وربابنة السفن يتولون فيها قيادة عليا ، إلى جوار أبناء البيوتات وأصبحوا النموذج الذى حاول البرلمان أن يبنى على منواله من جديد جيشه بأكمله . وكان الحديديون هم العمود الفقرى « للنموذج الجديد » . واجتاح هؤلاء الرجال أمامهم فرسان الملك من مارستون مور إلى نيسبى . وأخيراً وقع الملك أسيراً فى يد البرلمان .

وكانت ما تزال تجرى هناك محاولات للتسوية ، كانت تهدف إلى أن تغادر الملك ملكا بشكل ما ، ولكن شارل كان رجلا قدرت عليه العواقب المحزنة ، فهو لا ينقطع عن تدبير الخطط ؛ « رجلا بلغ من إفكه أنه لا يجوز أن يثق به إنسان » . وكان الإنجليز ينساقون نحو موقف جديد فى تاريخ العالم ، وجب فيه أن يحاكم ملك على خيانته شعبه وأن يقضى فيه بحكم .

وإنما يعجل بمعظم الثورات — شأن هذه الثورة الإنجليزية — تطرف الحاكم ، ومحاولته استعمال القوة والحزم استعمالا يتجاوز حد القانون . وتنقذف معظم الثورات بحكم نوع من الضرورة نحو خاتمة أشد تطرفاً مما كان يتوقعه الكفاح الأصلى . ولم تكن الثورة الإنجليزية استثناء لهذا الأمر . والإنجليز بطبعهم شعب ميال إلى الصلح والتفاهم بل هم قوم مترددون ، والراجح أن الغالبية العظمى منهم كانت ما تزال تريد أن يكون الملك ملكا وأن يكون الناس أحراراً ، وأن يرقد الأسود والخراف بعضهم إلى جوار بعض فى سلام وحرية . ولكن الجيش ذا الطراز الجديد لم يكن فى مستطاعه أن يتراجع . فلن تكون هناك إذا ما عاد الملك إلى عرشه ذرة من الشفقة نحو هؤلاء السعاة والحوذية الذين وطئوا جنتلمانية الملك بخيولهم ، وعندما شرع البرلمان أن يتفاوض من جديد مع الخاتل الملكى ، تدخل الطراز الجديد . فطرد الكولونيل برايد ثمانين عضواً من أعضاء البرلمان الإنجليزى كانوا يميلون إلى الملك ، ثم قدمت البقية الباقية غير القانونية وهى البرلمان الأبتر (Rump Parliament) ، الملك إلى المحاكمة .

ولكن الواقع أن الملك كان مقدراً عليه من قبل قضاء لا مرد له . فلما أن نبذ مجلس اللوردة قانون المحاكمة ، أعلن البرلمان الأبتر عند ذلك « أن الأمة إنما هى فى ظل الله مصدر كل السلطات العادلة » وأن « العموم فى إنجلترا أصحاب السلطة العليا فى هذا الشعب » ، وإذ افترض المجلس الأبتر أنه هو مجلس العموم — فإنه واصل المحاكمة . وحكم على الملك بأنه « طاغية وخائن وقاتل وعدو بلاده » . وأخذ فى صباح أحد أيام شهر يناير ١٦٤٩ إلى مشنقة ، أقيمت خارج نوافذ قاعة ولائمه الخاصة فى هوايتهول . وهناك قطعت رأسه فمات وعليه سيما التقوى وضرب من الإشفاق على الذات نبيل — وذلك بعد مقتل استرافورد بثمانية

أعوام ، وبعد ست سنوات ونصف مضت فى حرب أهلية مدمرة ، سببها كلها بلا استثناء تقريباً خروجه على القانون .

والحق إن هذا الذى عمله البرلمان كان عملا عظيما مرعباً . فلم يسمع الناس بمثله قط فى العالم من قبل . نعم إن الملوك كثيراً ما قتل أحدهم الآخر ؛ وإنما كان قتل الأب أو الأخ والاغتيال وسائل اختص بهـا الأمراء ، فأما أن يقوم فريق من الشعب ، ويحاكم ملـكه فى جد وتعمد متهماً إياه بعدم الولاء وإثارة الشر والخيانة ، ويحكم بإدانته ثم يقتله ، فأمر بث الذعر فى كل بلاط فى أوربا . ذلك أن البرلمان الأبتر تجاوز ضمير زمانه . وكأنما خرج من إحدى الغابات سرب من الظباء فأسر أحد النمور وقتله — وهى جريمة مخالفة للطبيعة . فطرد قيصر الروسيا السفير الإنجليزى من بلاطه . واتخذت فرنسا وهولندا تصرفات عدائية صريحة . ووقفت إنجلترا منعزلة أمام العالم ، مبلبلة يؤنبها ضميرها بجرمها .

ولـكن مضى ردح من الزمان تهيأ فيه للمزايا الشخصية لأوليفر كرومويل ولنظام الجيش الذى أنشأ وقوته ، أن تصون لانجلترا النهج الجمهورى الذى سلـكت . وكان الإرلنديون الـكاثوليك قاموا بمذبحة فى الإنجليز البروتستانت فى إرلندة ، وعند ذاك قمع كرومويل بقوة عظيمة الإرلنديين العصاة . وفيما عدا رهبانا بأعيانهم قتلوا أثناء الهجوم العنيف على دروجيدا فإن جنوده لم يقتلوا إلا الرجال الذين يحملون الأسلحة بأيديهم . ولـكن فظائع المذبحة كانت ما تزال قوية الأثر فى ذهنه ، ولذا لم تبد من جانبه أية رحمة فى المعركة ، ومن ثم لا تفتأ ذكراه يتقد لهيبها فى أذهان الإرلنديين ، الذين يطول تذكرهم لـما يصيبهم من النوازل .

وبعد إرلنده ، جاء دور اسكتلندة ، حيث مزق كرومويل جيشاً ملـكياً فى معركة دنبار (١٦٥٠) .

ثم صرف انتباهه إلى هولندا . وهى القطر الذى نهز فى حماقة فرصة الانقسامات بين الإنجليز واتخذها ذريعة لإيقاع الأذى بمنافسيه له فى التجارة . وكان الهولنديون آنذاك سادة البحر ، فـكان قتال الأسطول الإنجليزى غير مضمون العاقبة . ولـكن حدث بعد سلسلة من الحروب البحرية العنيدة أن طرد الهولنديون من البحار البريطانية . وحل الإنجليز محلهم بوصفهم الدولة البحرية العظمى . وأصبح حتما مقرراً على السفائن الهولندية والفرنسية أن تخفض لها راياتها . وذهب أسطول إنجليزى إلى البحر الأبيض ، وكان أول قوة بحرية إنجليزية دخلت تلك المياه ، فأصلحت كثيراً من الحيف الواقع على أرباب السفن الإنجليز من توسكانى ومالطة ، وأطلقت قنابلها على وكر القرصان التونسى وحطمت أسطول القراصنة — الذى

تعوّد فى أيام شارل وتراخيه أن يصل حتى شواطىء كورنوال وديڤون ليقطع الطريق على السفن ويحمل الرقيق إلى إفريقيا .

وتدخلت كذلك ذراع انجلترا القوية لمساعدة البروتستانت فى جنوب فرنسا ، وكان دوق ساڤوى يطاردهم ويفتك بهم ، ووجدت كل من فرنسا والسويد والدانمارك أن من الحكمة أن يتغلبن على نفورهن الأول من قتل العاهل فتحالفن مع انجلترا . ونشبت الحرب مع أسبانيا ، ودمر الأميرال الإنجليزى العظيم بليك أسطول المعادن[1] الأسبانى فى تناريف فى إقدام وجرأة لايكاد يصدقها عقل ، فإنه هاجم البطاريات البرية . وكان أول رجل « جعل السفن تهين قلاع الشواطئ » . (ومات فى ١٦٥٧ ، ودفن فى دير وستمنستر ، ولكن نبشت عظامه بعد عودة الملكية بأمر من شارل الثانى ، ونقلت إلى كنيسة القديس مارجريت بوستمنستر) . تلك هى الصورة التى نقشتها إنجلترا لنفسها أمام أعين العالم أثناء أيامها الجمهورية الوجيزة .

وفى اليوم الثالث من سبتمبر ١٦٥٨ توفى كرومويل أثناء عاصفة هوجاء لم يفتها أن تبلغ من نفوس أصحاب الخرافات كل مبلغ ، وما كادت يده القوية تجمد عن الحركة ، حتى تخاذلت بريطانيا عن تلك المحاولة السابقة لأوانها لتحقيق إنشاء دولة تقوى قوامها الأحرار من الرجال ؛ ففى ١٦٦٠ رحب الناس فى انجلترا بعودة شارل الثانى ابن شارل الشهيد بكل مظاهر حفاوة الولاء الشخصى المحببة إلى قلوب الإنجليز ، وتراجعت البلاد عن كفايتها العسكرية والبحرية كأنها النائم إذ يستيقظ ويتمطى ويتثاءب بعد حلم عنيف حاد . قضى على البيوريتان (المتطهرين) وانتهى أمرهم . وعادت إنجلترا المرحة سيرتها الأولى ، وفى ١٦٦٧ دخلت سفن الهولنديين — وقد عادت إليهم سيادة البحر ثانية — فى نهر التيمز حتى وصلت جراڤزند Gravesend وأحرقت أسطولاً انجليزياً فى الميدواى[2] .

يقول پيپس فى يومياته : « وفى الليلة التى أحرق فيها الهولنديون سفننا ، تعشى الملك فعلاً مع مولاتى الليدى كاستيل مين ، وهناك جن جنونهم وهم يطاردون فراشة مسكينة » .

وتناول شارل منذ ساعة عودته ، ١٦٦٠ ، قيادة شؤون الدولة الخارجية بين يديه ، وفى ١٦٧٠ عقد محالفة سرية مع لويس الرابع عشر الفرنسى ، تعهد فيها أن يجعل السياسة الإنجليزية الخارجية تابعة تماماً لسياسة فرنسا مقابل جعل سنوى مقداره مئة ألف جنيه .

---

(١) المستعمل فى نقل المعادن النفيسة المغتصبة من أمريكا .

(٢) الميداوى : نهر صغير بإنجلترا يصب فى نهر التيمز .

وكانت دنكرك التى سبق أن استولى عليها كرومويل قد بيعت قبل ذلك إلى فرنسا . وكان الملك رياضياً عظيما ، وله الولع الإنجليزى الصحيح بمشاهدة سباق الخيل ، ولعل أبلغ آثاره فى الدلالة على خصائصه حلبة السباق فى نيومارك .

وقد طوعت لشارل فكاهته السهلة ، الاحتفاظ مدى سنى حياته بالعرش البريطانى ، ولكنه وصل إلى ذلك بالتزام الحيطة والمسالمة ، حتى إذا خلفه فى ١٦٨٥ أخوه چيمس الثانى ، الذى كان كاثوليكياً مخلصاً ، وكان أغبى من أن يدرك التحديد الخفى الذى يحد من سلطة الملكية فى انجلترا ، عاد النزاع القديم بين البرلمان والملك حدته الأولى .

ونصب چيمس نفسه لإرغام مملكته على العودة إلى الاتحاد الدينى مع روما . وإذا به فى ١٦٨٨ يتخذ طريق الهرب إلى فرنسا على أن اللوردة الكبار والتجار والچنتلمانية كانوا فى هذه المرة أحرص من أن يسمحوا بأن يقذف بهم هذا التمرد على الملك إلى أيدى كولونيل برايد آخر أو كرومويل آخر ، وكانوا استدعوا آنفاً ملكاً آخر هو وليم أمير أورانج ليحل محل الملك . وتم التغيير سريعاً . ولم تحدث أية حرب أهلية اللهم إلا فى إرلندة — ولم تنطلق فى البلاد أية قوة ثورية أكبر من هذه .

وما نحن بقادرين على أن نسرد هاهنا شيئاً عن دعوى وليم بالعرش ، أو بالحرى عن ادعاء زوجته مارى به ، فإن الاحتفال لهذا الموضوع آلى بحت ، كذلك ما نحن بقادرين على سرد كيف حكم وليم الثالث ومارى ، ولا كيف حدث بعد ذلك أن الملك الأرمل وليم حكم وحده ردحاً من الزمان ، ثم انتقل العرش إلى آن (١٧٠٢ — ١٧١٤) أخت مارى . ويلوح أن آن كانت تنظر بعين العطف إلى عودة الملك إلى أسرة استيوارت ، ولكن اللوردة والعموم الذين كانوا عند ذاك المسيطرين على الشئون الإنجليزية ، فضلوا أن يليهم ملك أقل كفاية . إذ كان فى الإمكان أن يقام نوع من الادعاء على العرش لمنتخب هانوفر ، الذى أصبح ملكاً على إنجلترا باسم چورج الأول (١٧١٤ — ١٧٢٧) . كان ألمانيا قحاً لا يعرف اللغة الإنجليزية ، واجتلب معه إلى بلاطه حشداً من النساء الألمانيات والحشم الألمان ، وبمقدمه حلت بالحياة العقلية فى البلاد فترة خمود وركود وزال عنها الصقل ، ولكن انعزال البلاط عن الحياة الإنجليزية كان أعظم مازكيه لدى كبار ملاك الأراضى وأصحاب المصالح التجارية ، بل كان الميزة التى من أجلها خاصة استقدموه .

ودخلت إنجلترا مرحلة يسميها اللورد بيكونزفيلد باسم مرحلة « الأوليجاركية البندقية »[1]

---

(١) الأوليجاركية : هى حكومة الأقلية .

وكانت ناصية السلطة العليا مستقرة بين يدى البرلمان الذى كان يسيطر عليه آنذاك مجلس اللوردة ، لأن فن الرشوة ودراسة طرائق طبخ الانتخابات ، اللذين رفعهما إلى درجة عالية السير روبرت والپول ، سلبت مجلس العموم حريته وقوته الأصليتين . وقُصر الصوت البرلمانى بطرق خبيثة ماهرة على عدد متناقص من الناخبين . فقد ترسل المدن القديمة التى تحوى نفراً قليلا من السكان أو هى لا تحوى أحداً قط عضواً أو عضوين (فكان لمدينة ساروم القديمة ناخب واحد لا يقيم فيها ، وليس بها أحد من السكان ولها عضوان) ، على حين لم يكن للمراكز الأشد حداثة الآهلة بالسكان أى تمثيل إصالة . وترتب على الإصرار على وجوب امتلاك الأعضاء مؤهلا عقارياً عالياً ، أن زادت ضيقاً على ضيق ، الفرص المتاحة للعموم الذين يتكلمون بلسان العامة معبرين عن حاجات السوقة .

وعقب چورچ الأول چورچ الثانى (١٧٢٧ — ١٧٦٠) الشديد الشبه به ، ولم يُتح لإنجلترا إلا بموته أن صار لها من جديد ملك مولود فى إنجلترا ، ويستطيع أن يتكلم الإنجليزية بدرجة من الجودة متوسطة وهو حفيده چورچ الثالث . ولدينا شىء عن محاولة هذا الملك أن يسترد بعض السلطات الملكية الكبرى سنقوله لك فى فصل تال .

ذلك موجز لقصة الكفاح الذى حدث بإنجلترا إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر بين العوامل الثلاثة الكبرى فى مشكلة الدولة العصرية ، أى بين التاج ، وأصحاب الأملاك الخاصة وتلك القوة المبهمة ، التى ما تزال عمياء جاهلة ، وهى قوة الناس العوام الخلّص . ولم يكن هذا العامل الأخير يبدو حتى ذلك الحين إلا فى اللحظات التى تهتز فيها البلاد اهتزازاً أشد ما يكون عمقاً ؛ ثم لا يلبث أن يعود إلى الأعماق . ولكن نهاية القصة تعد حتى ذلك الوقت نصراً تاماً جداً لصاحب الأملاك الخاصة البريطانى على أحلام الحكم المطلق المكياڤللى وخططه . وأصبحت إنجلترا وعلى رأسها الأسرة الهانوڤرية « جمهورية متوجة » ، على حد تسمية جريدة التايمز حديثاً لها . فإنها صاغت طريقة جديدة للحكومة هى الحكومة البرلمانية التى تذكرنا من نواحى كثيرة بمجلس السناتو والجمعية الشعبية لدى الرومان ، ولكنها أرسخ قدماً وأشد كفاية لاستعمالها الطريقة التمثيلية مهما يكن ذلك الاستعمال محدوداً . وكان أن قدر لجمعيتها فى وستمنستر أن تصبح أم البرلمانات فى كافة أقطار العالم .

وقد قبض البرلمان الإنجليزى وما زال قابضاً حيال التاج على قسط وفير من العلاقة بين ناظر القصر وبين الملوك الميروڤنجيين . وهم يرون فى الملك شخصاً للرسميات غير مسئول ، ورمزاً حياً للنظام الملكى والإمبراطورى .

ولكن يظل الشيء الكثير من القوة كامناً فى تقاليد التاج وهيبته ، وإن فى اعتلاء الملوك الأربعة الهانوفريين المسمين بجورج ، ووليم الرابع (١٨٣٠) ، وفيكتوريا (١٨٣٧) ، وإدوارد السابع (١٩٠١) وجورج الخامس (١٩١٠) ، لشاكلة تخالف تماما ملوك الميروفنچيين الضعفاء القصيرى الأجل . فقد مارس هؤلاء الملوك جميعاً على درجات متفاوتة فى شئون الكنيسة ، والهيئات العسكرية والبحرية ، والسياسة الخارجية ، نفوذاً لم يقلل من شأنه كونه غير ذى حدود تحدده .

٤ — انقسام ألمانيا واضطرابها

لم يجلب انهيار الفكرة القائلة بمسيحية موحدة ، فى أى قطر من أقطار أوربا ، عواقب أوخم مما جره على ألمانيا . وطبيعى أن يتبادر إلى ظن الإنسان أن الإمبراطور ، وقد كان ألمانى الأرومة ، فى كل من حالة الأسرات الأولى وحالة آل هابسبرج ، كان لابد أن يتطور به الأمر حتى يصبح المليك القوى فى دولة تتكلم الألمانية . كان مما جلبته المصادفة من نكد الطالع على ألمانيا ، أن لم يظل أباطرتها قط ألمانيين . فإن فردريك الثانى آخر سلالة آل هوهنشتاوفن ، كان كما رأينا ، صقليا نصف مستشرق . وأصبح آل هابسبرج بالمصاهرة والميل ، ممثلين فى شخص شارل الخامس ، بورغنديى الروح بادئ ذى بدء ، ثم أسبانيها . وبعد موت شارل الخامس أخذ أخوه فرديناند النمسا والإمبراطورية ، وأخذ ابنه فيليب الثانى أسبانيا والأراضى المنخفضة وجنوبى إيطاليا . ولكن السلالة النمسوية ، وكانت كاثوليكية عنيدة فى كثلكتها ، ممسكة بزمام معظم ميراثها على الحدود الشرقية متورطة لذلك أعمق التورط فى الشئون المنغارية ودافعة الجزية للأتراك شأن فرديناند وخليفتيه ، — لم تحتفظ لنفسها بأى سلطان على شئون الألمان الشماليين بما فيهم من نزعة إلى البروتستانتية ، وأواصر بلطيقية واتجاه نحو الغرب ، وجهلهم بالخطر التركى أو عدم اهتمامهم به .

وما كان أصحاب السلطان من الأمراء والدوقة والمنتخبين والأساقفة الأمراء وأشباههم ، الذين كانت أملاكهم تقطع أوصال ألمانيا فى القرون الوسطى إلى مرقعة تكد البصر ، بمعادلين فى الحقيقة لملوك إنجلترا وفرنسا . بل كانوا على التقريب فى مستوى كبار أصحاب الأراضى من الدوقات والنبلاء بفرنسا وإنجلترا . ولم يكن فيهم واحد حتى (١٧٠١) يحمل لقب (ملك) ؛ وكان الكثير من ممتلكاتهم أضأل فى الحجم والقيمة من الأملاك الكبيرة للنبلاء البريطانيين . وكان مجلس الدايت الألمانى شبيهاً بمجلس الطبقات (States General)

أو مثيلا لبرلمان ليس فيه ممثلون منتخبون . حتى أن الحرب الأهلية العظيمة التى شبت للفور فى ألمانيا ، وهى حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ — ٤٨) ، كانت فى جوهرها أوثق قربى وشبهاً بالحرب الأهلية فى إنجلترا (١٦٤٣ — ٤٩) ، وبحرب الفروند (١٦٤٨ — ٥٥) ، (وهى عصبة النبلاء الإقطاعيين ضد الملوك فى فرنسا) ، — مما يبدو على ظاهرها لأول وهلة .

وفى كل هاته الحالات كان التاج إما كاثوليكياً أو نزاعاً إلى الكثلكة ، ووجد الأمراء المعاندون أن ميلهم الفردى ، ينزع بهم نحو نزعة بروتستانتية . ولكن على حين حدث فى إنجلترا وهولنده أن النبلاء البروتستانت والتجار الأغنياء فازوا فى النهاية فوزاً مبيناً ، وكان نجاح التاج فى فرنسا أكمل وأوفى ، فإن الإمبراطور فى ألمانيا لم يبلغ من القوة والسيادة مبلغاً كافياً ، ولا كان لدى الأمراء البروتستانت من الوحدة والتنظيم فيما بينهم ، ما يكفل لهم نصراً نهائياً . وانتهت الحال هناك بألمانيا ممزقة الأوصال .

وفضلا عن ذلك فإن الكفاح الألمانى كان يداخله التعقيد من جراء اشتباك شعوب غير ألمانية متنوعة فيه ، هى البوهيميون والسويديون (الذين كانت لهم ملكية بروتستانتية جديدة نشأت تحت چوستافوس ڤازا كنتيجة مباشرة للإصلاح الدينى) . وأخيراً تدخلت الملكية الفرنسية ، وقد انتصرت نهائياً على نبلائها ، فعضدت البروتستانت وإن كانت كاثوليكية ، رامية بذلك إلى غاية واضحة هى الحلول محل آل هابسبرج فى رياسة الإمبراطورية .

وإنما ترتب على طول أمد الحرب ، وعدم جريانها على امتداد حدود معينة ، إذ كانت تنتقل فى كل أرجاء إمبراطورية قوامها الرقاع : فمن بروتستانت هنا وكاثوليك هنالك — أن تحولت إلى حرب من أقسى الحروب وأشدها تدميراً ، ولم تشهد أوربا لها مثيلا منذ أيام الغارات الهمجية . وليس يقوم شرها الخاص فى القتال ، بل فيما يلازم القتال من ويلات . فإنها حدثت فى زمن تطور فيه التاكتيك العسكرى إلى حد جعل المجندين العاديين غير ذوى جداء حيال المشاة المحترفين المدربين . فإن إطلاق الجماعات النار دفعة واحدة من القرابينات إلى مبعدة بضع عشرات من الياردات قضى على الفارس الفرد ذى الدروع السابغات ، بيد أن هجمات جموع الفرسان المنظمة كانت ما تزال تستطيع أن تشتت شمل أى مشاة ، لم تصل فى تدريبها إلى درجة كافية من الصلابة الآلية ، فإن المشاة بقرابيناتهم التى لابد من حشو أنابيبها بين لحظة وأخرى لم تكن لتستطيع أن تقيم من النار سياجاً متواصلا يقى بتشتيت فرسان ذوى عزم وصرامة قبل وصول هجمتهم إلى هدفهم وإنزالهم ضربتهم . ومن ثم كان لزاماً عليهم أن يقابلوا الصدمة وقوفاً أو راكعين خلف جدار براق من الخوازيق أو السونكيات . وكان

لابد لهم فى هذا من تنظيم عظيم وخبرة كبيرة ؛ وكانت المدافع الحديدية ما تزال صغيرة الحجم كما لم تكن وفيرة العدد جداً ، ولم تكن تقوم حتى آنذاك بدور حاسم فى الحرب . نعم إنها كانت تستطيع أن « تشق خطوطاً » فى صفوف المشاة ، ولكنها لم تكن لتستطيع فى سهولة أن تحطمها وتبددها ، إن هى كانت قوية العزم جيدة التدريب .

وكانت الحرب فى مثل تلك الظروف موكولة تماماً إلى جنود مدربين محترفين ، وكانت مسألة أعطياتهم أمراً يعادل فى أهميته لدى قواد ذلك الزمان أهمية مسألة الميرة والذخيرة . وبينما الكفاح الطويل يجر قدميه جراً من طور إلى طور ، وتتفاقم معه محنة البلاد المالية ، كان قواد كلٍّ من الجانبين مضطرين أن يرجعوا بالانتهاب على المدن والقرى ، رغبة فى أخذ المؤن والتعويض عن متأخرات أعطيات جنودهم . فأخذ الجند يصبحون أكثر فأكثر مجرد مناسر تعيش على حساب البلاد ، وأوجدت حرب الثلاثين سنة تقاليد من الانتهاب والسلب بوصفهما عملية قانونية فى الحرب ومن انتهاك الحرمات بوصفه امتيازاً للجندى ، وهى تقاليد لوثت سمعة ألمانيا الطيبة حتى الحرب العظمى (١٩١٤) .

إن الفصول الأولى من كتاب « مذكرات فارس تأليف دانيال ديفو » ، بما حوت من وصف مشرق لمذبحة ماجدبورج وحريقها ، لتعير القارئ فكرة عن طريقة الحروب فى ذلك الزمان ، أحسن جداً من أى كتاب رسمى فى علم التاريخ . إذ بلغت البلاد من الخراب حداً حمل الفلاحين على الكف عن الزراعة ، وكان ما يستطاع حصده من المحصولات الخطيفة يخفى فور جمعه ، وأصبحت جماهير غفيرة من النساء الطاويات والأطفال الجائعين ممن يتتبعون معسكرات الجيوش ، وصاروا حاشية من اللصوص إلى جانب الناهبين الأشد خشونة وشراسة . فما أن انتهى الكفاح حتى كانت كل ألمانيا قد أمست خراباً يباباً . ولم تستفق أوربا الوسطى استفاقة تامة من هذه السرقات والمفاسد طوال قرن من الزمان .

ولسنا بمستطيعين ها هنا أن نذكر إلا اسمى تللى Tilly ووالنشتين Wallenstein ، قائدى النهب الكبيرين فى جانب أسرة هابسبرج ، وجوستاف أدولف ملك السويد أسد الشمال ونصير البروتستانت الذى كان يحلم بأن يجعل من بحر البلطيق بحيرة سويدية . وقتل جوستاف أدولف ساعة نصره الحاسم على والنشتين فى لوتز (١٦٣٢) ، وقتل والنشتين فى ١٦٣٤ .

وفى ١٦٤٨ اجتمع الأمراء والسياسيون بين ظهرانى ذلك الدمار الذى حاكته أيديهم ، اجتمعوا لترقيع شئون أوربا الوسطى فى صلح وستفاليا ، وبهذا الصلح استحالت قوة الإمبراطور إلى شبح أو خيال ، وترتب على استلحاق فرنسا للألزاس أن وصلت إلى نهر

الرين . وأصبح فى حوزة أمير ألمانى هو منتخب براندنبرج سليل آل هوهنزلرن قدر عظيم من الأراضى جعل بين يديه أعظم قوة ألمانية تلى قوة الإمبراطور ، وهى قوة سرعان ما أصبحت (١٧٠١) ، مملكة بروسيا .

واعترفت معاهدة وستفاليا أيضاً بحقائق مقررة من زمان مديد ، وهى الانفصال عن الإمبراطورية والاستقلال التام لكل من هولندة وسويسرا .

٥ — أبهة الملكية العظمى فى أوربا

افتتحنا هذا الفصل بقصتى قطرين ، هما الأراضى المنخفضة وبريطانيا ، اللتين نجحت فيهما مقاومة المادن الخاص لهذا الطراز الجديد من الملكية ، وهى الملكية المكيافلية ، التى أخذت تنشأ عن انهيار المسيحية الخلق . ولكن الملكية الفردية فى فرنسا والروسيا وفى كثير من أنحاء ألمانيا وإيطاليا — فى سكسونيا وتوسكانى مثلا لم تصد وتقهر على مثل تلك الدرجة . بل الواقع أنها وطدت نفسها بوصفها النظام الأوربى السائد أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر ، بل لقد كانت الملكية فى هولندة وبريطانيا آخذة بأسباب استرجاع قوتها أثناء القرن الثامن عشر . (فأما بولنده فلها أحوال خاصة ، وإنا لمعالجوها فى فصل تال) .

ولم يكن ثمة « عهد أعظم » (ماجنا كارتا) فى فرنسا ، ولا كان للحكم البرلمانى بها مثل تلك التقاليد المحددة الفعالة . أجل كان هناك نفس تعارض المصالح بين التاج من ناحية وبين أصحاب الأراضى والتجار من ناحية أخرى ، ولكن هؤلاء لم يكن لهم متجمع (أى مكان اجتماع) معترف به ، ولا كان لهم أسلوب للاتحاد كريم . كانوا كثيراً ما يعارضون التاج ، وينشئون عصياً للمقاومة ، — كذلك شأن (الفروند[1]) ، الذين كانوا يكافحون الملك الشاب لويس الرابع عشر ووزيره العظيم مازارين ، على حين كان شارل الأول يقاتل لاستنقاذ حياته فى إنجلترا — ولكن الأمر انتهى بأنهم هزموا هزيمة نهائية بعد حرب أهلية (١٦٥٢) وعلى حين حدث فى انجلترا بعد تأسيس بيت هانوفر أن مجلس اللوردة وتابعه مجلس العموم كانا يحكمان البلاد ، فإن البلاط فى فرنسا على العكس من ذلك كان بعد ١٦٥٢ هو صاحب السيطرة التامة على الأرستقراطية . وكان الكردينال مازارين نفسه يبنى على أسس مهدها له الكردينال ريشيليو معاصر جيمس الأول ملك إنجلترا .

---

(١) الفروند : حزب فرنسى كان يناصب البلاط الملكى العداء أثناء حداثة لويس الرابع عشر .

شكل (١٧١) صورة لويس الرابع عشر

ولسنا نسمع بعد زمان مازارين بأى نبيل فرنسى عظيم إلا أن يكونوا فى البلاط حشما للملك وموظفين . ذلك أنهم شُروا ورُوِّضوا — ولكن بثمن ، والثمن هو إلقاء عبء الضرائب على الجماهير التى لا صوت لها ، فكان كل من رجال الدين والنبلاء . بل وفى الواقع كل إنسان يحمل لقباً — معفين من كثير من الضرائب . وأصبح هذا الظلم فى النهاية أمراً لا يطاق ، ولكن الملكية الفرنسية ازدهرت ردحاً من الزمان ازدهار شجرة الغار الخضراء فى المزامير وإنك لترى الكتاب الإنجليز عند مفتتح القرن الثامن عشر ، وقد أخذوا يستلفتون الأنظار إلى بؤس الطبقات الدنيا الفرنسية وإلى ما يستمتع به الفقراء الإنجليز ، فى نفس ذلك الزمان من رخاء نسبي .

على مثل هذا الحال الفاسد أقامت ماعسانا أن نسميها « الملكية العظمى » ، الفرنسية أسسها . فحكم لويس الرابع عشر الملقب بالعاهل الأعظم زماناً لا نظير له فى الطول هو اثنتان وسبعون سنة (١٦٤٣ — ١٧١٥) ، وأقام من نفسه نموذجاً يحتذيه كل ملوك أوربا . وكان يقوده بادىء الرأى وزيره المكيافللى الكردينال مازارين . وبعد وفاة الكردينال أصبح هو نفسه بشخصه ونصه وفصه الأمير المثالى . وكان — فى داخل حدود عطنه الضيق — ملكا ذا كفاية استثنائية ، وكان طماحه أقوى من شهواته الدنيا ، فجر على بلاده الإفلاس بما انتهج من معقدات سياسة خارجية شديدة النشاط أظهر فيها وقارا محكما ما يزال يستدعى إعجابنا . وكان أول ما يخالجه من رغبة أن يربط أجزاء فرنسا بعضها ببعض وأن يمد حدودها إلى نهر الرين وجبال البرانس ، وأن يتمثل الأراضى المنخفضة الأسبانية ؛ وكانت أحلامه البعيدة ترى فى ملوك فرنسا خلفاء محتملين لشرلمان فى دولة رومانية مقدسة يعاد سبكها .

واتخذ من الرشوة وسيلة للدولة تكاد تكون أعظم أهمية من الحرب . وكان شارل الثانى ملك إنجلترا يتناول منه الأعطيات المالية وكذلك كان شأن معظم النبلاء البولنديين ، الذين سنصفهم من فورنا . وكانت نقوده أو بالحرى نقود الطبقات الدافعة للضرائب فى فرنسا تذهب كل مذهب . ولكن البذخ كان شغله الشاغل . فكان قصره العظيم فى فرساى بقاعاته (صالوناته) ، ودهاليزه ومراياه وشرفاته ونافوراته وجناته ومنظراته ، موضع غبطة العالم أجمع وإعجابه .

حتى لقد حفز الجميع إلى محاكاته . فإن كل ملك أو أمير صغير فى أوربا كان يبنى لنفسه قصر فرسايه الخاص متجاوزاً موارده المالية بالقدر الذى يسمح به رعاياه ودائنوه . وكان النبلاء فى كل مكان يعيدون بناء قصورهم أو يوسعونها وفق النموذج الجديد . وتطورت صناعة الأقمشة

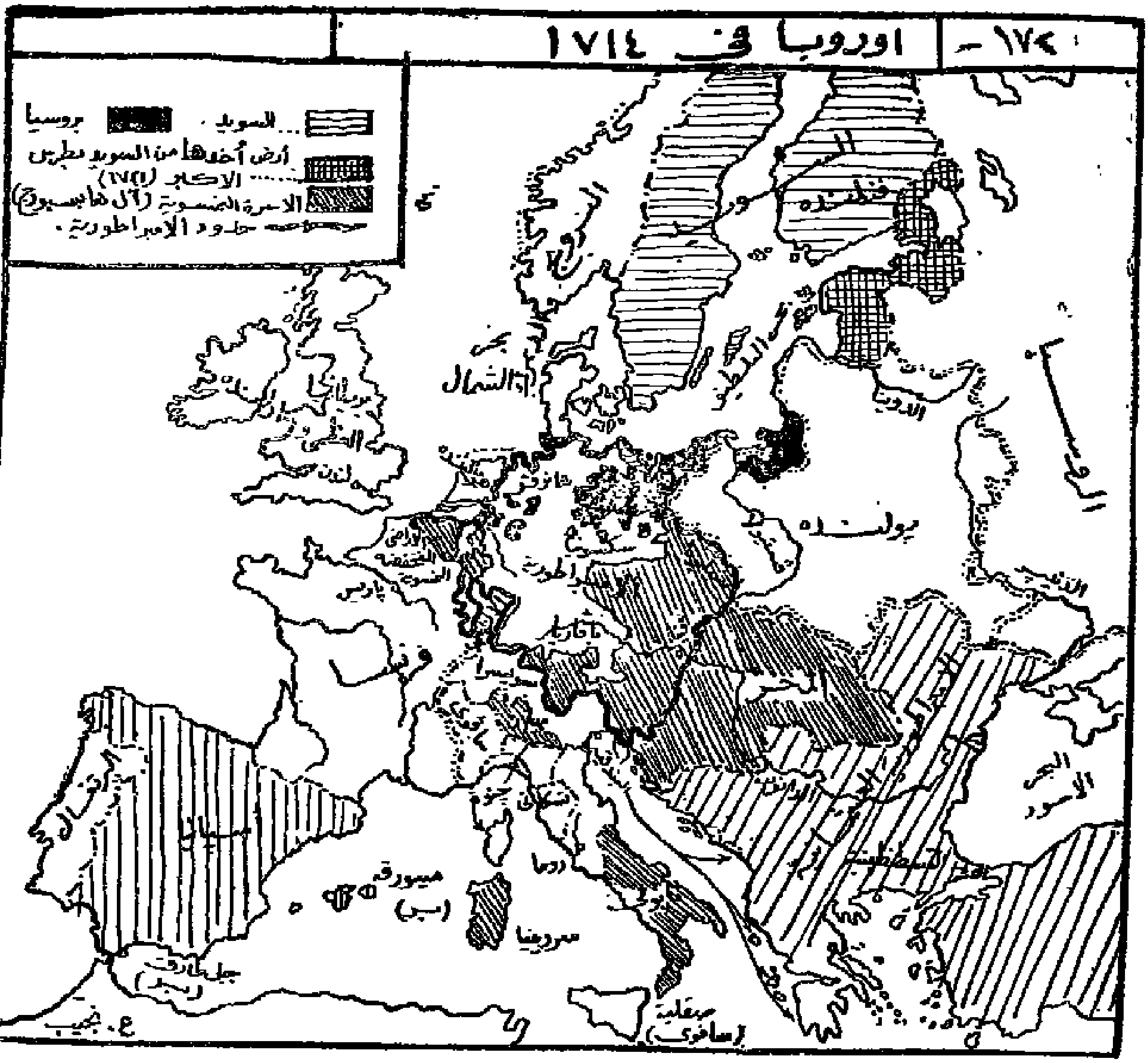

(شكل ١٧٢)

والأثاثات الجميلة المحكمة الصنع وعظم شأنها . وازدهرت فنون الترف فى كل مكان ؛ فثمة تماثيل من الرخام المجزع ، والقاشانى[1] Faience ، وأشغال الخشب المذهب ، وأشغال المعادن والجلد المضغوط بالنقوش البارزة ، وموسيقى كثيرة وتصوير فاخر ، وطباعة جميلة ومبانى مونقة وطباخة ممتازة وخمور بديعة . وكان يسير بين المرايا والأثاث البديع جنس عجيب من السادة فى شعور مستعارة ضخمة مذرورة بالمساحيق ، وحرائر ومخرمات وهم يتمايلون على أعقاب عالية حمراء ، ويتكئون على عصى باهرة !! هذا إلى سيدات أكثر إدهاشاً وإعجاباً ، تحت أبراج من الشعور المغطاة بالمساحيق وفى ثياب لها متسعات عظيمة من الحرير والساتان التى تحملها الأسلاك . وكان يتجلى وسط ذلك كله لويس العظيم ، شمس عالمه ، غير شاعر بالوجوه

(١) القاشانى : هو ضرب من الخزف الممتاز مطلى بطبقة صقيلة من الورنيش الملون .

الهزيلة المتجهمة المريرة التي كانت ترقبه من تلك الظلمات الدنيا التي لم تخترق حجبها شمسُ ضيائه .

ولسنا بقادرين أن ندلي إليك هنا بتفصيل قصة حروب ذلك الملك وأعماله . وما يزال كتاب ڤولتير المسمى « عصر لويس الرابع عشر » أحسن الروايات عنه وأصحها من وجوه كثيرة . أنشأ الملك بحرية فرنسية كفؤاً لمقاتلة الإنجليز والهولنديين . وهي مأثرة عظيمة القدر . ولكن نظراً لأن ذكاءه لم يسم قط عن أن تسحره مغريات ذلك السراب الخداع ، أو قل ذلك الصدع في عقول السياسيين في أوربا ، وأعني به الحلم بقيام إمبراطورية رومانية مقدسة تشمل العالم طرا ، فإنه تحول في سنواته الأخيرة إلى استرضاء البابوية ، التي كانت حتى ذلك الحين معادية له . ونصب نفسه لمناهضة روح الاستقلال والانفصال ، الممثلة في الأمراء البروتستانت ، فأشعل نار الحرب على البروتستانتية في فرنسا . فأبقت إلى خارج البلاد من اضطهاداته الدينية جماعات وفيرة العدد من خيرة رعاياه وأعظمهم قيمة ، حاملين معهم فنوناً وصناعات . فإن صناعة الحرير الإنجليزية مثلا ، قام بتأسيسها البروتستانت الفرنسيون . ونفذت إبان حكمه عملية الدراجوناد (Dragonnades) وهي طريقة للاضطهاد شريرة فعالة بوجه خاص . فكان بعض الجنود الأجلاف ينزلون في منازل البروتستانت ، وكانوا أحراراً في أن يفسدوا نظام حياة مضيفيهم وأن يهينوا نساءهم على الشاكلة التي ترضيهم . وخضع لهذا النوع من الضغط ، كثير من الرجال ممن لم يكونوا ليخضعوا للنار « والعذراء » خالعة العظام .

وأوقف تعليم الجيل التالي من البروتستانت ، وكان الآباء بين أن يعلموا أولادهم تعليما كاثوليكياً أو لا يعلمونهم أي تعليم البتة . ولا يداخلنك شك أنهم كانوا يعطونهم ذلك التعليم ، ولكن في سخر وتنغيم ونغمة صوت تذهب بكل ثقة فيه . وبينما الأقطار الأكثر تسامحاً أصبحت كاثوليكية أو پروتستانتية في معظم أمرها ؛ فإن الأقطار التي أنزلت الاضطهاد برعاياها أمثال فرنسا وأسبانيا وإيطاليا ، بلغ من قتلها للتعليم البروتستانتي الشريف ، أن أصبح هؤلاء الناس في جل شأنهم مجرد معتنقين للكثلكة أو ملحدين بالكثلكة ، مستعدين للانتقال إلى الإلحاد الغفل المطلق ما سنحت لهم الفرصة لذلك . وكان العهد التالي أي عهد لويس الخامس عشر هو عصر ذلك المتهكم الرفيع ڤولتير (١٦٩٤ — ١٧٧٨) ، وهو عصر كان فيه كل إنسان في الجماعة الفرنسية مطابقاً ومسايراً للكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، على حين لا يكاد يكون فيهم واحد يؤمن بها .

وكان من مقومات الملكية العظمى — بل من مقوماتها الفائقة الممتازة — أن تنصر الآداب والعلوم . فأقام لويس الرابع عشر أكاديمية للعلوم منافساً بها الجمعية الملكية الإنجليزية التى أنشأها شارل الثانى ومثيلتها جمعية فلورنسا . وكان يُجمّل بلاطه بالشعراء وكتاب المسرحيات والفلاسفة ورجال العلم . ولئن خرجت الطريقة العلمية من هذه الرعاية بالشىء القليل من الإلهام ، فإنها حصلت على كل حال على موارد مالية تعينها على التجريب والنشر مع قدر خاص من الهيبة فى أعين السوقة .

وكانت الجهود الأدبية فى كل من فرنسا وإنجلترا ، منوالاً تقيس على مثاله معظم الجهود الأدبية الأوربية أثناء تلك الفترة ، فترة الملوك الأعظمين ما بين صغير وكبير ، وفترة البيوتات الريفية الكبيرة والمنشئات التجارية النامية . وكانت ظروف الأحوال بفرنسا أكثر اعتماداً على الملكية منها بانجلترا ، وأشد تركزاً واتساقاً . وكان الكتاب الفرنسيون تعوزهم التقاليد العظيمة التى تهيأت لمثل تلك الروح الحرة غير المنظمة ، روح شكسبير ، إذ كانت الحياة الذهنية الفرنسية تتركز حول البلاط ، وكانت أشد من الإنجليزية إحساساً بالضبط وكبح الجماح . وهى لم تنتج أبداً أدباء من العامة أبناء الشعب أمثال (بنيان Bunyan) الإنجليزى ، ولم يكن فى متناول أيديها فى القرن السابع عشر مثل ذلك السراح المطلق لروح التمرد والانشقاق الذى قامت عليه الجمهورية والذى يطلق عقال رجل مثل ملتون . وكانت نزعتها أميل إلى مراعاة الصحة والتقييد ، وكانت أتم خضوعاً للمدرس والناقد العلامة . وكانت تُخضع المادة للأساليب . ولم يكن من نتيجة لإنشاء الأكاديمية إلا المزيد من القيود يضاف إلى ما كان هناك من قبل من الإغراق فيها وترتب على تلك الفروق ، أن تشبع الأدب الفرنسى السابق على القرن الثامن عشر بالوعى الذاتى الأدبى ، وكأنى به قد كتب بروح طالب ماهر يخشى الدرجات الرديئة ، أكثر منه مكتوباً بروح رجل ينشد التعبير الصريح . فإنه أدب قوامه الدرر اليتيمة والمآسى والمهازل والرومانس(١) والمباحث النقدية وكلها باردة صحيحة جوفاء خالية من الحيوية بشكل خارق للعادة . وممن برزوا بين ممارسى الصحة فى الدراما ، كورنى (Corneille) (١٦٠٦ — ١٦٨٤) وراسين (١٦٣٩ — ١٦٩٩) . وانتصر موليير (١٦٢٢ — ٧٣) كذلك على عصره بكوميديات ، يراها بعض الثقات خير ما ظهر فى العالم . ويكاد العرق الوحيد من القراءة السهلة الناصعة اللذيذة الذى يبدو وسط الرياش العقلى الدمث الفاخر للملكية الفرنسية العظمى ، أن يوجد فى مذكرات ذلك الزمان المليئة

---

(١) الرومانس : قصص الغزل والفروسية .

بالقيل والقال والفضائح. فهناك هذه ؛ وهناك بعض المحاولات القوية الاجتماعية والسياسية .

وإن شيئاً من أروع وأحسن ما سطر بالفرنسية أثناء ذلك الزمان قد قام به خارج فرنسا فرنسيون منفيون ومتمردون . فإن ديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠) أعظم الفلاسفة الفرنسيين عاش معظم حياته فى ظلال أمن هولندة النسبي . وهو الشخصية المركزية المتسلطة بين مجموعة متألقة من أهل النظر ، نشطت فى إعمال معول التقويض والتعديل والتحقير بمسيحية عصرهم الممثة . وكان يعلو محلقاً فوق كل هؤلاء المبدعين ، وفوق كل الكتاب المعاصرين الأوربيين شخص ڤولتير العظيم ، الذى سنتكلم عن اتجاهاته الذهنية فى فصل تال . وإن چان چاك روسو (١٧١٢ — ١٧٧٨) — وهو روح أخرى منبوذة — بما قام من هجوم عاطفى على الأخلاق الشكلية واتخاذه العاطفى للطبيعة والحرية مثلا أعلى ، ليقف مبرزاً بوصفه الروائى الأعظم فى عصره ووطنه . ولسوف يكون لدينا عنه كذلك سعة من القول .

وكان الأدب الانجليزى فى القرن السابع عشر مرآة تعكس سعة الشئون الانجليزية الأقل قراراً وتركزاً ، وكان به من العافية قدر أكبر ومن الصقل قدر أصغر مما للفرنسى . ولم يكن البلاط والعاصمة الانجليزيان ابتلعا حياة البلاد القومية كما فعلت العاصمة والبلاط الفرنسيان وربما وضع الانسان مقابل ديكارت ومدرسته ، باكون الذى سبق أن نبأناك عنه فى بياننا عن النهضة العلمية ، ثم هوبز ولوك . وكان ملتون (١٦٠٨ — ١٦٧٤) ، يرتدى ثوباً مخلطاً من الدراسة الإغريقية واللاتينية ، والثقافة الإيطالية واللاهوت البيوريتانى مع أبراد من المجد من نسج يديه . وكان هناك قدر جسيم من الأدب الحر يخرج عن مجال النفوذ الكلاسيكى ولعله وجد أشد خصائص تعبيره فى كتاب بنيان « مسير الحاج Pilgrim's Progrees » — (١٦٧٨) . وواضح أيضاً أن تواليف ديفو defoe . الخلاق (١٦٥٩ — ١٧٣١) الذى لم ينل بعد قدره الحق من التقدير ، موجهة إلى جمهور برىء من تهذيبات العالم الأكاديمى وادعاءاته وإنما جاء مؤلفه روبنسون كروزو واحداً من أعظم مبتكرات الأدب . وكتابه « مول فلاندرز Moll Flanders » . إنما هو دراسة للأخلاق تستدعى الإعجاب ، وهذا الكتاب وكتابه « التطورات الخيالية للتاريخ » ، سابقان كثيراً من الناحية الفنية على كل معاصريه . ويكاد يكون على نفس مستواه ، فيلدنج الحاكم اللندنى ومؤلف توم چونز وكان صمويل ريتشاردسون بائع الأقمشة الذى كتب « باميلا وكلاريسا » ، شخصية عظيمة ثالثة بين حقائق الأدب الانجليزى الحية فى القرن الثامن عشر ، وهو الأدب الذى لم يعن بأن يكون أدبياً ، وإلى هؤلاء الثلاثة جرت عادة النقاد أن يربطوا اسم « سموليت Smollett » ،

الأدنى منهم كثيراً . وبهذه الأسماء وباسم جان جاك روسو معها ، تعود إلى الأهمية «الرواية» وهى البيان شبه الحقيق عن طرائق العيش ، وعن الضرب فى أرجاء العالم ، وعن الالتقاء بالمسائل الخلقية ، وذلك بعد أن اختفت بتدهور الامبراطورية الرومانية . وتؤذن عودتها بفكاك أنواع جديدة غير محدودة من الناس ميالة الى الاستطلاع فى شئون الحياة والخُلُق ، وهم أناس أوتوا شيئاً من وقت الفراغ ، وأناس تواقون إلى تكميل تجربتهم الخاصة بقصص مغامرات من هم على شاكلتهم ، ذلك بأن الحياة أصبحت أقل وطأة وأكثر لذة .

وربما جاز لنا هنا قبل أن نختم هذه الحاشية الأدبية ، أن نلحظ أيضاً ما عليه أديسون (١٦٧٢ — ١٧١٩) ، من خواء رشيق ، وما للدكتور صمويل چونسون (١٧٠٩ — ١٧٨٤) ، من رغبة فى التعقيد يحبها الناس ، وهو مصنف أول قاموس إنجليزى . ولا يكاد يبقى صالحاً للقراءة من كتاباته الفعلية شىء اللهم إلا تراجم قليلة قصيرة للشعراء ، بيد أن أمثاله وغرابة أطواره قد بقيت لنا فى كتابه الذى لاضريب له «ترجمة بوزويل» . فأما اسكندر پوپ (١٦٨٨ — ١٧٤٤) ، وكان كلاسيكى الاتجاه فرنسى الروح ، فإنه ترجم هوميروس ثم حول فلسفة دياسطية[1] ، مناهضة للمسيحية فى إجمالها إلى شعر صقيل متقن . وصدرت أقوى كتابة فى هذا العصر ، عصر الرجال المؤدبين الثانويين فى إنجلترا شأنه فى فرنسا ، عن روح انغمست فى نزاع عنيف مع النظام السائد ، بل مع نظام العالم بأجمعه فى الواقع ، وهو سويفت (١٦٦٧ — ١٧٤٥) ، مؤلف رحلات جلفر . واستقى « لورانس سترن L. Sterne » ، (١٧١٣ — ١٧٦٨) ، وهو رجل الدين الذى تكاد تتصل به شهرة السوء والذى كتب « تريسترام شاندى » ، وعلم من تلاه من مؤلفى الروايات مثة لفة وطريقة ، — حيويته من عظمة الفرنسى رابليه السابق على العهد الكلاسيكى . ولسوف نقتبس من جيبون المؤرخ فى قسم تال وعند ذاك نحدثك ثانية عن القيود التى تغل ذلك العصر عصر الجنتلمان .

ومات الملك الأعظم فى ١٧١٥ . وكان لويس الخامس عشر ابن حفيده ومقلداً غير كفء لفخامة سلفه . اتخذ وضعة ملك متصنعة ، ولكن الشهوة المتسلطة عليه كانت هى الشىء العادى الملازم لجنسنا البشرى ، وهى طراد النساء الذى يخفف منه خوف من جهنم يمت إلى الخرافات بسبب . فأما كيف أن نساء من أمثال الدوقة شاتورو ومدام دى پومبادور ومدام دى بارى تسلطن على ملذات الملك ، وكيف أن الحروب كانت تشب والمحالفات تعقد وأن المقاطعات كان يعاث فيها فساداً ، وآلافاً من الناس تقتل بسبب غرور هاته المخلوقات

(١) دياسطية : فلسفة مخالفة للمسيحية تؤمن بوجود الإله وتنكر الوحى .

وأحقادها ، وكيف حدث أن تلوثت كل الحياة العامة لفرنسا وأوربا بالدسائس والبغاء والاحتيال بسببهن ، — فأمور يجب أن يعلمها القارئ من مذكرات ذلك الزمان . وسارت السياسة الخارجية الطموح فى حكم لويس الخامس عشر بقدم ثابتة صوب تحطيمها النهائى .

وفى ١٧٧٤ مات بمرض الجدرى هذا اللويس ، لويس المحبوب جداً كما كان تملقوه يسمونه ، وخلفه على العرش حفيده لويس السادس عشر (١٧٧٤ — ١٧٩٣) ، وهو رجل غبى حسن النية ، وصاحب طلقة نارية بديعة التسديد ، وصانع أقفال هاو على شىء من المهارة ؛ فأما كيف أنه تبع شارل الأول إلى المقصلة فأمر سندلى به فى قسم تال . إذ ينحصر كل اهتمامنا فى الوقت الحاضر ، فى الملكية العظمى إبان مجدها .

وقد نستطيع أن نلحظ من بين أكبر ممارسى الملكية العظمى خارج فرنسا الملوك البروسيين أولا وهم فردريك وليم الأول (١٧١٣ — ١٧٤٠) ، وابنه وخلفه فردريك الثانى وهو فردريك الأكبر (١٧٤٠ — ١٧٨٦) . وقصة النهوض البطىء لأسرة هوهنزلرن ، التى حكمت مملكة بروسيا ، مبتدئة من بدايات مغمورة غير مُبرزة ، قصة مُملة ليس يهمنا أن نتتبعها هنا . وهى قصة تجمع بين الحظ والعنف ، والدعاوى الجريئة والخيانات الباغتة . ويسردها مع التقدير العظيم كتاب كارليل المسمى « فردريك الأكبر » حتى إذا وافى القرن الثامن عشر كانت المملكة البروسية قد بلغت من الأهمية حداً هددت معه الإمبراطورية ، وكان لها جيش قوى حسن التدريب ، وكان ملكها ممن أعطوا مكيافلى حظاً كبيراً من التفاتهم وعنايتهم . ووصل فردريك بفرسايه إلى حد الكمال فى بوتسدام . إذ هناك بلغت جنات سان سوسى ، بنافوراتها وشوارعها المزدانة بالأشجار وتماثيلها حد التقليد القردى لنموذجها الفرنسى ، وكان هناك كذلك القصر الجديد وهو بناء هائل مبنى من الطوب أنفقت فى تشييده أموال طائلة ، وكذلك ثوبة البرتقال (الأورانچرى[1]) ذات الطراز الإيطالى وفيها مجموعة من الصور ، وقصر من الرخام إلى غير ذلك . وسما فريدريك بالثقافة إلى حد التأليف ، كما أنه أخذ يراسل ڤولتير ويعتمه حتى انتهى بهما الأمر إلى السآمة المتبادلة .

وكانت الممتلكات النمساوية مشغولة على الدوام ما بين مطرقة الفرنسيين وسندان الأتراك حتى أنها لم تستطع أن تطور نموذج الملك الأعظم الحقيقى إلى عهد ماريا تريزا (١٧٤٠ — ١٧٨٠) (التى لم تحمل لقب الإمبراطورة لأنها امرأة) . وخلفها على قصورها فى ١٧٨٠ چوزيف الثانى الذى تولى الإمبراطورية منذ ١٧٦٥ — ١٧٩٠ .

(١) الأورانچرى أو ثوبة البرتقال : مبنى من الزجاج يساعد بدفئه شجر البرتقال على النمو .

وبظهور بطرس الأكبر انفصلت الإمبراطورية المسكوفية عن تقاليدها التتارية ودخلت إلى حيز الجاذبية الفرنسية . وحلق بطرس لحى نبلائه الشرقية وأدخل العادات الغربية . ولم تكن هذه إلا الرموز الخارجية المرئية لميوله الغربية . ولكي يحرر نفسه من الشعور الأسيوى وتقاليد موسكو ، التي لها — شأن بكين — مدينة جوانية مقدسة ، هي « الكرملين Kremlin » ، بنى لنفسه عاصمة جديدة هي بتروغراد على مستنقع النيفا . وطبيعي أنه شاد لنفسه فرسايا أخرى هي البيترهوف على قرابة ثمانية عشر ميلا من باريس الجديدة هذه ، مستخدماً في ذلك مهندساً معمارياً فرنسياً ومنشئاً شرفة (تراسا) ونوافير ومساقط مائية وبهواً للصور وجنات وكل المظاهر المعترف بها . وكان خلفاؤه الأشد بروزاً هم إليزابث (١٧٤١ — ١٧٦٢) وكاترين العظيمة ، وهي أميرة ألمانية ، عادت بعد الحصول على التاج بطريقة شرقية بحتة هي قتل زوجها ، القيصر الشرعي ، فانحرفت إلى مثل عليا غربية تقدمية وحكمت البلاد بقوة عظيمة من ١٧٦٢ إلى ١٧٩٦ . فأقامت أكاديمية ، وراسلت مع ڤولتير . وعاشت حتى شهدت نهاية الملكية العظمى في أوربا وإعدام لويس السادس عشر .

ولسنا بمستطيعين حتى أن نقدم إليك قائمة بأسماء صغار الملوك الأعظمين في فلورنسا (توسكاني) وساڤوى وساكسونيا والدانمارك والسويد . فإنك تشهد في كل عاصمة فرسايا تحت عشرات من الأسماء إذ تجدها مقلدة في كل مجلد من مجلدات دليل بيديكار[1] ، وإن السائح لتأخذه الدهشة أثناء مروره في تلك القصور . كذلك لسنا بمستطيعين أن نعالج حرب الوراثة الأسبانية . فإن أسبانيا وقد أجهدتها فوق طاقتها مشروعات التوسع الإمبراطوري التي دبرها شارل الخامس وفيليب الثاني ، وأضعفها ما أظهرته نحو البروتستانت والمسلمين واليهود من اضطهاد تعصبي ، أخذت طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر تهبط عما أوتيت من أهمية موقوتة في الشئون الأوربية وتعود إلى مستوى الدول الثانوية .

كان هؤلاء الملوك الأوربيون يحكمون ممالكهم كما يحكم نبلاؤهم مزارعهم ، كانوا يأتمرون بعضهم ببعض ، وكانوا « سياسيين » « وبعيدى النظر » بطريقة أبعد ما تكون عن الواقع ، وكانوا يعلنون الحروب وينفقون مادة أوربا الحيوية في سياسات سخيفة من العدوان والمقاومة . وانتهى الأمر بأن انفجرت عليهم من الأعماق عاصفة هوجاء . وكانت تلك العاصفة هي الثورة الفرنسية الأولى ، فإن غضب الرجل العادي في أوربا أخذ نظامهم بغتة وعلى حين غرة . ولم يكن ذلك إلا الانفجار الافتتاحي لدورة عظيمة من العواصف السياسية والاجتماعية

---

(١) دليل بيديكار Baedeker كتاب يصدر بلغات أجنبية متعددة عن أهم أقطار العالم ومدنه .

ما تزال مستمرة ، ولعلها ستستمر حتى يزول آخر أثر للملكية القومية النزعة ويمحى من العالم فيعود إلى السماوات صفوها من جديد وتنعم البشرية باتحاد يظلله السلام العظيم .

٦ — الموسيقى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر

كان القرنان السابع عشر والثامن عشر فترة تقدم قوى فى الموسيقى . ذلك أن الآلة الذهنية كانت قد أحكمت ، وتأسست السلالم الكبرى الماچور والصغرى المينور بما لها من ثابت تعاقب النغمات ، وقابليتها للتكييف وفق التلحينات وما يكمن فيها من احتمالات اللون الهارمونى . فكان فى الإمكان أن يحدد المرء القصد الموسيقى تحديداً واضحاً ، وأن ينظم التعاون بين آلات متنوعة فى دقة عظيمة . وكانت الأحوال الاجتماعيــة ما بين مدن نامية وبلاطات وبيوتات ريفية تضيف ميادين جديدة من الاحتمالات الموسيقية إلى المجال القديم المنحصر فى المرتلين الكنسيين . وكانت الحفلات التنكرية والمهرجانات قد انتشرت وأصبحت محبوبة من الشعب فى القرن السادس عشر ، فأتاحت أمام محكم الموسـيقى فرصاً جمة ، وحل بالأوبرات والأناشيد الدينية بمجىء القرن السابع عشر تطور عظيم .

وظهرت فى إيطاليا الموسـيقى الجديدة Nuove Musiche يقول السير و . ه . هادو « إن لولى (١٦٣٥ — ١٦٨٧) ، هو أعظم شخصية من الوجهة التاريخية ، وما كان ذلك فقط من أجل ما حوته لحونه من قوة (درامية) تمثيلية ، بل لما يتجلى فيها من تحمس محكم الضبط » ويقف إلى جواره الإيطالى مونتيفردى . ذلك أن الموسيقى شرعت تعمل على معيار كبير فى تلك المدة .

ودونت قداسات القرن السادس عشر لجماعات المرتلين بالكنيسة ، وكتبت غزليـات (مادريجالات) القرن السادس عشر ليستمتع بها جماعة من الخلان حول مائدة عشائهم ، ولم يحدث إلا عند قريب من نهايته أن عازفى العود والفرجينال يشرعون فى أن يتجهوا بأذهانهم إلى فكرة الأستاذية[1] Virtuoso فى الفن التنفيذى . . . واجتلب التحسين المعظم فى بناء الأرغن عدداً متعاقباً من العازفين العظماء : منهم بل وفيلبس الإنجليزيان ، وسويلنك الهولندى ، وفرسكو بالدى فى روما ، وفروبرجر فى ڤيينا ، وبوكستيهود فى لوبيك ، وهو الذى سعى إليه باخ ماشياً على قدميه لـكى ينعم بسماعه ... ويساير هذا كله التطور الذى لحق موسيقى

(١) Virtuoso : الأستاذ الماهر فى الفنون الجميلة وخاصة الموسيقى .

الفرجينال[1] ولا يقل عن ذلك فى الأهمية وصول الكمان وعائلتها وتلكؤ الناس فى قبولها . فإنها وإن رجعت إلى عهد تيفن بروخر وأسرة أماتى[2] فى النصف الأول من القرن السادس عشر ، إلا أنها قضت زهاء مئة عام تشق طريقها نحو القبول والرضا العام . ناهيك بأن ماس عازف العود كان فى عصر يصل فى تأخره إلى ١٦٧٦ ما زال مستطيعاً أن يطعن فى « الكمان الصارخة » — على حد تعبيره ، وأن يأسف على نغم جدتها القيول Viol الأكثر هدوءاً واستواء . بيد أن مجالها الأرحب ، وخفة حركتها العظمى وقوة تعبيرها الأشد وخزاً وتأثيراً جعلت من نفسها شيئاً ملموساً على طول المدى ... وبلغ من شأنها فى إيطاليا موطنها الأصلى وإن حملوها فى سماجة وعزفوا عليها فى سماجة — أن اعترف لها الناس بأنها الآلة الوحيدة التى تستطيع أن تضارع الصوت الإنسانى وتنافسه[3] » .

ويقال إنه مضى حين من الدهر أخر فيه التباهى بالصائت والإعجاب به فى الأوبرا الإيطالية التطور الموسيقى ، وكان لمغنى القرن السابع عشر ، وبخاصة أصحاب صوت السوبرانو من الذكران ، صيت يقارب فى سوقيته وشناعته ما لنجوم السينما المصريين ، ومع هذا فإن تلك الفترة أظهرت موسيقى أليسندرو اسكرلاتى (١٦٥٩ — ١٧٢٥) الجميلة الوفيرة وهو البشير الممهد لموزار . وحدث فى انجلترا انفجار عظيم من النشاط الموسيقى بعد فترة هدوء أثناء عصر الجمهورية بلغ أوجه فى شخص بورسل (١٦٥٨ — ١٦٩٥) . وأمدت البلاطات الصغيرة وجوقات المدن ، ألمانيا بقدر لا حصر له من مراكز الاستثارة الموسيقية ، وولد فى ١٦٨٥ بسكسونيا ج . س . باخ وهاندل ، ليحملا الموسيقى الألمانية إلى سمت التفوق والاستعلاء الذى قدر لها أن تحافظ عليه طيلة قرن ونصف من الزمان . يقول السير و . هـ . هادو « إنهما بين جميع الملحنين قبل عصر قبينا أشدهم وأوثقهم ارتباطاً بزماننا هذا وإن صوتهما ليرن فى آذاننا بآلف اللهجات وأدناها إلينا » .

فأما بالسترينا الذى سجل لنفسه آنفاً ذروة فى الموسيقى ، فإنه بالمقايسة مخلوق يعيش فى عالم آخر . إذ كان تاجاً على مفرق أساتذة موسيقى المرتلين قبل عهد الآلات العظيم . وجاءت بعقب أسماء باخ وهاندل مجموعة من أسماء أخرى ، فإن هايدن (١٧٣٢ — ١٨٠٩) ، وموزار (١٧٥٦ — ١٧٩١) وبيتهوفن (١٧٧٠ — ١٨٢٧) يقفون مبرزين بين أشد الكواكب

(١) الفرجينال : آلة موسيقية صغيرة يلعب عليها بوساطة الدساتين (لوحة الأصابع) .

(٢) أسرة أماتى (Amati) : اسم عائلة من صناع إيطاليين للكمان وهم مؤسسو مدرسة الكمان الكريمونية .

(٣) الموسيقى من تأليف السير و . هـ . هادو .

تألقاً . ذلك أن الفيض العظيم للموسيقى المصرية كان يتثال آنذاك عميقاً جياشاً واسع الجنبات . وما زال يهمى ويفيض . ولسنا هنا بمستطيعين إلا أن نذكر الملحنين ثم ندلى إليك بعد ذلك فى فقرة موجزة أو ما إليها بتعميمات قليلة مركزة حول موسيقى القرن التاسع عشر وموسيقى أيامنا هذه . كانت هذه الموسيقى ، موسيقى القرنين السابع والثامن عشر إبان صنعها امتيازاً لعالم صغير مثقف — هو من فى البلاطات من الناس ، ومن فى مدن المقاطعات والدور الريفية من أناس يستطيعون أن ينظموا حفلات عزف ومن من الناس فى مدن تحوى لكبرها دور الأوبرا وحجرات العزف وكان للفلاح والعامل فى أوربا الغربية قدر مطرد التناقص من الموسيقى إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر بينما كانت هذه الأشكال الجديدة آخذة فى التطور . وكان أن تدلى الغناء الشعبي وبدت عليه مظاهر التعرض للنسيان . وكان كل ما تبقى للكافة من الناس من حياة موسيقية هو بضع أغان شعبية وبضع ترانيم . والراجح أن النهضات الدينية فى تلك الأيام ، مدينة بشىء من قوتها الدافعة إلى إطلاقها سراح الحافز الغنائى السجين . ولم يحدث إلا فى أيامنا هذه مع ظهور تطور ضخم فى الطرائق الآلية للإنتاج والنشر الموسيقى ، أن الموسيقى وقد صبغت بالصباغ العصرى وخالطها النشوء والارتقاء وارتفعت فى علياء التسامى — تعود إلى غمار الحياة العادية . ومن ثم يصبح باخ وبيتهوفن جزءاً من ثقافة الجنس البشرى العامة .

٧ — التصوير فى القرنين السابع عشر والثامن عشر

إن فنى التصوير والعمارة فى هذا الزمان شأن موسيقاه ، مرآة تعكس الأحوال الاجتماعية فيه . وهو زمان تحطيم للفكرات والسلطان ، ولم تعد اعتبارات المظهر والروعة تسيطر على الفن التصويرى . وقد نزلت الموضوعات الدينية إلى مرتبة ثانوية ، فحيثما عالجها الناس عالجوها بوصفها أحداثاً صغيرة فى قصة وليس بوصف كونها حقائق عظيمة هائلة . وتنحط أشكال الكنايات[1] والرمزيات . فإن المصور يصور من أجل الرؤية لا من أجل الفكرة ولا من أجل الحقيقة . وتحل صورة الحقيقة والواقع محل صورة الأبطال أو صور التبتل الدينى على نفس الشاكلة التى تحل بها الرواية محل الملحمة والرومانس العجيبة الخيال . والأستاذان المتفوقان فى تصوير القرن السابع عشرهما ڤيلاسكويز (١٥٩٩ — ١٦٦٠) ورامبرانت (١٦٠٦ —

(١) الكنايات (Allegory) : ضرب من التصوير المجازى أو الرمزى يرمى إلى موقف له ظل من الحقيقة ومع ذلك فهو موضوع فى عالم الخيال .

١٦٦٩) . إذ يخيل إلينا أن الحياة كانت فى نظرهما متكافئة كلها لا تتفاوت إلا بمقدار ما تقدم إليهما من مجال ضاق أو رحب لتحقيق الجمال فى الجو والنور والمادة . وكان ڤيلا اسكويز يقوم فى البلاط الأسبانى المتدهور برسم البابوات والملوك دون تمليق ، ورسم الأقزام والمقعدين دون ما احتقار . ويحل الرسم الدقيق التحليلى الخاص بالوثائق مكانه فى أشغال هذين الرجلين — وهما أول المصورين العصريين — لعملية إظهار التأثير ، أى التركيز على وحدة الانطباع وذلك على حساب كل الاعتبارات الثانوية . وكانت الصورة إلى ذلك العهد فى حياة الماضى الشديد المركزية ، شاهداً على شىء واحتشاداً عليه وتعليقاً وتحلية ، فأما الآن فإنها أصبحت فى عدد عظيم من الحالات ، شيئاً يوجد من أجل نفسه . وكانت الصورة تعلق بوصفها صوراً وتجمع فى معارض للصور . وتطورت مناظر البر تطوراً قوياً ، كذلك تصوير مناظر الحياة العادية Genre .[١] وكانت الصور العارية تنقش بشكل لطيف يثير الانفعال ، وأبهج كل من واتو وفراجونار وغيرهما فى فرنسا طبقة الخاصة وعلقوهم بلمسة من التقديس الرقيق لحقائق الحياة الريفية . وإن الإنسان ليدرك فى هذه الأشياء شواهد تنم عن مجتمع ناعم مكون من أناس آمنين موفقين ذوى أرواح جد ممتازة ، يقدرون الحياة وينفصلون شيئاً ما عن مباذخها وآلامها جميعا .

ولم يبد عصر إليزابيث فى إنجلترا أى تحمس فى فنون التشكيل يطاول جهوده الأدبية والموسيقية . فهى إنما كانت تستورد مصوريها ومعمارييها . بيد أنه حدث فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، أن خلقت الثروة المتجمعة والرخاء المتكاثف اللذان أصابتها تلك الدولة التى كانت حتى حين قطراً على هامش المدنية الغربية — أحوالاً توائم ازدهار المجهود الفنى ، حتى إذا وافى القرن الثامن عشر كان أمثال رينولدز (١٧٢٣ — ١٧٩٢) ، وجينزبورو (١٧٢٧ — ١٧٨٨) ، ورومنى من المصورين الإنجليز يستطيعون أن يطاولوا أى مجهود معاصر .

وكانت هذه الفترة ، فترة الملكيات وطبقة الخاصة ، موائمة أيضاً أعظم المواءمة لتطور طرز معينة من العمارة . ذلك أن عمليات ناشطة من قبل فى القرن السادس عشر ، كانت لا تزال تعمل عند ذاك بقوة متزايدة . وكان الملوك فى كل مكان يبنون القصور ويعيدونها بناء ، وكان النبلاء والأعيان يهدمون قلاعهم ويشيدونها منازل أنيقة . فأما منازل المدن فقد شرع فى التفكير فيها على معيار أكبر . فأما فن العمارة الكنسى فإنه ذوى . وأضحى مجهود البلديات أقل أهمية نسبياً ؛ والواقع أن المثرى الكبير الفرد ، إنما هو القابض بيده على

(١) الجنر Genre : هو لفظ يطلق فى النقش والتصوير على الصور التى تصور الحياة العادية من أمثال المناظر المنزلية أو الريفية أو القروية .

مفتاح الابتكار فى ذلك العصر فى هذا الشأن وفى غيره من الشئون . وأتاح احتراق قسم عظيم من لندن فى الحريق الكبير (١٦٦٦) ، لانجلترا نهزة خاصة أتيحت للسير كرستوفررن ، وإن كنيسة سانت بول وكنيسة لندن ، لتسجلان دوراً بالغ الأوج فى العمارة الإنجليزية . وكان له الفضل على أمريكا إذ أرسل إليها تصميمات لبيوت ريفية متنوعة شيدت هناك ، كما أن عبقريته الخاصة طبعت أثرها فى التصميم الأمريكى الباكر . وكان إينيجو جونس شخصية عظيمة ثانية بين المعماريين الانجليز فى بواكير القرن السابع عشر ، وهذه قاعة الولائم التى قصد بها أن تكون قسما من قصر فى هوايت هول[1] لم يتم — يجعل عمله مألوفاً لدى كل زائر لمدينة لندن . وكان كل من هذين الرجلين بل فى الواقع كل المعماريين الانجليز والفرنسيين والألمان فى تلك الفترة ، يشتغلون على أساس النهضة الايطالية التى كانت ما تزال حية متطورة ، أن كان كثير من أحسن المبانى فى ذلك الزمان من عمل ايطاليين . وحدث بالتدريج مع اقتراب القرن الثامن عشر من نهايته ؛ أن أوقف التطور الحر الطبيعى لعمارة عصر النهضة ، إذ اعترضته موجة من التحذلق الكلاسيكى . وكان للتجمد التدريجى فى الدراسات الكلاسيكية فى مدارس أوربا الغربية نظير بدا فى نزعة عامة إلى تقليد نماذج إغريقية ورومانية . فما كان يوماً ما من النبهات أضحى الآن مخدراً ذهنياً تقليدياً مخبلا للعقول . وأصبحت البيوت المالية والكنائس والمتاحف تبنى على صورة المعبد الأثينى ، حتى شرفات (تراسات) المنازل أخضعت لنظام أبهاء الأعمدة . ولكن أسوأ غلو تهيأ لهذه النزعات القاتلة ، جاء فى القرن التاسع عشر خارج حدود عصرنا الراهن هذا .

٨ — نمو فكرة الدول العظمى

رأينا كيف ظهرت فى الشئون الإنسانية ، فكرتا الحكم العالمى والمجتمع البشرى ، وقصصنا كيف أن إخفاق الكنيسة المسيحية فى المحافظة على تينكم الفكرتين ، فكرتى مؤسسها يسوع وتوطيدها ، قد أفضى إلى انهيار خلق فى الشئون السياسية وانتقال إلى الأنانية ونقص فى الإيمان . ورأينا كيف أن الملكية المكياڤلية نصبت نفسها لمناهضة روح الأخوة فى المسيحية ، وكيف أن الملكية المكياڤلية تطورت فى قسم كبير من أوربا فأصبحت الملكيات العظمى والملكيات البرلمانية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . بيد أن عقل الإنسان وخياله لا ينفكان ناشطين ، لذلك فقد كانت تنتسج انتساج الشبكة تحت سلطان الملوك

(١) هوايت هول : قصر بناه ولم يتمه منذ الثامن ودمرته النيران فى ١٦٩٨ .

الأعظمين عقدة من الأفكار والتقاليد ، تهدف إلى اصطياد عقول الناس والإمساك بها ، تلك العقدة هى فكرة السياسة الدولية لا بوصفها موضوع معاملات بين الأمراء ، بل بوصف كونها موضوع معاملة بين نوع من الكائنات الخالدة ، هى الدول . ذلك أن الأمراء يجيئون ويغدون . فإن لويس الرابع عشر قد يخلفه لويس خامس عشر متصيد لربات الدل والجمال ، وقد يخلفه بدوره ذلك صانع الأقفال الهاوى الغبى لويس السادس عشر . وجاء بعد بطرس الأكبر خلف متعاقب من القيصرات . وكان أهم مظهر مستمر لآل هابسبرج بعد شارل الخامس ، فى كل من النمسا أو أسبانيا ، تواصلا للشفاه الغليظة والذقون القبيحة والاعتقاد فى الخرافات . وإن النذالة المحببة التى يبديها ملك مثل شارل الثانى ، لتتخذ من مدعياته هزواً وسخرياً . فأما الشىء الأرسخ قدماً فهو وظيفة وزير الخارجية ، وفكرات الناس الذين كتبوا عن اختصاصات الدولة . كان الوزراء يحافظون على استمرار السياسة أيام اعتكاف ملوكهم ، وفى الفترات التى يخلو فيها العرش بين ملك وخلفه .

ولذا فإنا نجد أن الأمير أصبح بالتدريج أقل أهمية فى أذهان الناس من « الدولة » التى كان رأساً لها ؛ ومن ثم يحين الزمان الذى نقرأ فيه القليل ، فالأقل عن خطط وأطماع هذا الملك أو ذاك ، ونقرأ أكثر عن « خطط فرنسا » أو « أطماع بروسيا » . فإنا نجد فى عصر كانت فيه العقيدة الدينية فى انحدار ، رجالاً يظهرون إيماناً جديداً جازماً ، بحقيقة هذه الشخصيات المعنوية . فإن تلك الأطياف الضخمة المبهمة وأعنى بها « الدول » تسللت خفية إلى الفكر السياسى الأوربى ، حتى تسلطت عليه تسلطاً كاملا عند ختام القرن الثامن عشر وإبان التاسع عشر . وهى لا تبرح متسلطة عليه إلى يومنا هذا . وظلت الحياة الأوربية مسيحية اسماً ، ولكن عبادة رب واحد فى الروح والحقيقة معناها الانتماء إلى مجتمع واحد يضم كل زملاء الإنسان فى تلك العبادة . وما تفعل أوربا ذلك الأمر فى الحقيقة العملية ، بل إنها قد سلمت نفسها تسليما تاماً لعبادة تلك الرطازة العجيبة المسماة بالدولة . ومن أجل هذه الآلهة ذات السيادة ، ومن أجل وحدة « إيطاليا » ، وزعامة « بروسيا » ، ومن أجل مجد « فرنسا » ، ومقدرات « الروسيا » ، ضحت بأجيال عديدة من الوحدة الممكنة والسلام والرخاء وحياة ملايين من الرجال .

والنظر إلى القبيلة أو الدولة كنوع من الشخصية إنما هو نزعة قديمة جداً فى العقل الإنسانى . والكتاب المقدس عامر بمثل هذه التجسمات (الشخصيات المعنوية) . فإن مملكة يهوذا (جوديا) وإيدوم ومواب ومملكة آشور (آشوريا) لتبدو فى الكتب المقدسة العبرانية

كأنما هى أفراد . بل قد يكون من المستحيل فى بعض الأحايين أن يقول المرء هل الكاتب العبرى يعالج شخصاً أو أمة . ولا خفاء فى أنها نزعة بدائية وطبيعية . ولكنها فى حالة أوربا العصرية ، عملية رجعى . فإن أوربا فى كنف فكرة المسيحية تقدمت مراحل كثيرة فى سبيل الوحدة . وبينما كان أفراد قبيليون أمثال إسرائيل وصور يمثلون بالفعل مجتمعاً بعينه من القرابة الدموية ، واتساقاً بعينه فى الطراز وتآلفاً فى المصلحة ، فإن الدول الأوربية التى نشأت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، كانت وحدات افتعالية تماماً . وكانت الروسيا فى الحقيقة مجموعة من أشد العناصر تبايناً وعدم تجانس ، فما بين قوزاق وتتار وأوكرانيين ومسكوفيين ثم — بعد زمان بطرس — استونيين ولتوانيين . وكانت فرنسا فى حكم لويس الخامس عشر تضم الأقاليم الألمانية ومناطق بورغنديا المتمثلة حديثاً ، وكانت سجناً للهوجنوت المهيضى الجناح ومستنزفاً لحياة الفلاحين . فأما فى بريطانيا فإن إنجلترا كانت تحمل على كاهلها الممتلكات الهانوفرية فى ألمانيا كما تحمل اسكتلنده ، وأهل ويلز الأجانب تماماً ، والإرلنديين الكاثوليك المعادين . وإن دولا كالسويد وروسيا ، وأكثر منها فى هذا بولندة والنمسا لتروح — إذا نحن راقبناها فى سلسلة من الخرائط التاريخية ، — تتقلص وتتمدد ، وتقذف زوائدها خارجاً وتتجول فوق خريطة أوربا كما تفعل الأميبا تحت الميكرسكوب .

ولو أنا تأملنا سيكولوجياً العلاقات الدولية كما نراها متجلية فى العالم المحيط بنا ، وكما يظهرها تطور فكرة « الدولة » فى أوربا العصرية ، لأدركنا حقائق بعينها على غاية الأهمية من الوجهة التاريخية عن طبيعة الإنسان . قال أرسطو إن الإنسان إنما هو حيوان سياسى ، ولكنه فى المعنى العصرى الذى لدينا عن كلمة « السياسة » وهى التى تغطى الآن سياسة العالم بأجمعها ، ليس شيئاً من هذا القبيل . وما تزال باقية فيه غرائز قبيلة العائلة ، ولديه بعد هذا نزعة تدفعه إلى ربط نفسه وعائلته إلى شىء أكبر منهما ، أى إلى قبيلة أو مدينة أو شعب أو دولة . ولكن هذه النزعة لو تركت ونفسها لكانت نزعة مبهمة جد غير نقادة . ومهما يكن من شىء ، فإنه ميال إلى خشية وكراهية كل نقد يوجه لذلك الشىء الأكبر الذى يحيط بحياته والذى سلم نفسه إليه ، كما أنه ميال إلى تجنب مثل هذا النقد . ولعل فى نفسه خوفاً باطناً (شبه شعورى) من العزلة التى قد تترتب على تحطيم النظام أو دحضه وفقدانه الثقة . وإنه ليعد الوسط الذى يجد فيه نفسه أمراً مسلماً به . وإنه ليتقبل مدينته أو حكومته مثلما يتقبل الأنف أو الهضم الذى حباه الحظ به . بيد أن ولاء الرجال ، أعنى الجوانب التى يتحازون

إليها فى الأمور السياسية ، ليست فطرية ، وإنما هى نتائج تربية وتعليم . ولدى غالب الرجال أن تعليمهم فى تلك الأمور إنما هو التعليم الصامت المستمر الصادر عن الأشياء المحيطة بهم . فإن الرجال يجدون أنفسهم جزءاً من انجلترا المرحة أو الروسيا المقدسة . وهم إنما يشبون على هذه العقائد . ويقبلونها كجزء من طبيعتهم .

ولم يحدث إلا على سبيل البطء والتمهل أن شرع العالم يدرك إلى أى حد من العمق يمكن أن يستكمل تعليم الظروف الضمنى المفهوم بالاستنتاج وأن يعدل أو يصحح بالتعليم الإيجابى والأدب والجدال ، والخبرة المنقودة نقداً صحيحاً . فحياة الفرد العادى الحقيقية هى حياته اليومية وأعنى بها الدائرة الصغيرة لعواطفه ومخاوفه وجوعاته وشهواته ودوافعه الخائلة . وليس يحدث إلا عند ما يوجه نظره إلى الشئون السياسية بوصفها شيئاً ذا تأثير حيوى على تلك الدائرة الشخصية ، أنه يلزم عقله المتكره أن يؤثر فيها . ولا تكاد تكون هناك مبالغة فى القول بأن الرجل العادى يفكر فى الأمور السياسية بأقل قدر مستطاع ، وأنه يكف عن التفكير فيها بأسرع ما يستطيع . وما يزال الحال قاصراً على أن الأذهان الشديدة التطلع الخارقة الذكاء أو العقول التى أتيح لها على سبيل القدوة أو التربية الطيبة أن اكتسبت تلك الصفة العلمية التى ترغبها فى معرفة أسباب الأشياء ، أو الأذهان التى صدمتها أو أحزنتها بعض الملمات العامة واستثارتها إلى التخوف الكبير من الأخطار ، هى وحدها التى لا تستسيغ الحكومات والأنظمة التى لا تضايقهم مباشرة مهما يكن شأن مخالفتها للمعقول والمنطق ولا تعدها مرضية . وإن الكائن الإنسانى العادى لينضوى — حتى يأتى الوقت الذى يستثار فيه على تلك الشاكلة — تحت ظلال أى مناشط حشدية تجرى فى هذا العالم الذى يجد فيه نفسه ؛ كما أنه يتقبل أية عبارة أو رمز تناسب حاجته المبهمة إلى شىء أعظم وأكبر يمكن أن لديه وتطمئن إليه شئونه الشخصية ودائرته الفردية .

فإذا نحن وعينا هذه القيود البينة التى تغل طبيعتنا ، لا يصبح بعد سراً خافياً كيف أنه كما حدث أن فكرة اتخاذ المسيحية أخوة عالية بين الناس قد هوت فى دركات المهانة بسبب اشتباكها القاتل بالقسوسة والباباوية من ناحية ، وبسلطان الأمراء من ناحية أخرى ، ومن ثم انتقل عصر الإيمان إلى عصرنا الراهن عصر الشك وعدم الإيمان ، وحول الناس مدار حياتهم عن ملكوت الرب وأخوة الجنس البشرى إلى هذه الحقائق الأكثر فى ظاهرها دواماً وبقاء ، فإن فرنسا وانجلترا والروسيا المقدسة وأسبانيا وبروسيا التى كانت على الأقل تتجسم فى شخص بلاطات ناشطة ، تحافظ على القوانين وتظهر القوة بواسطة الجيوش

والبحريات ، كانت تلوح براياتها فى هيئة جد ووقار تعنو لعزتها الجباه كما كانت ترفع رؤوسها اعتزازاً بالنفس وكما كانت نهمة نهم من لا يشبع متسقة بذلك تمام الاتساق مع الطبيعة الإنسانية .

ولا مراء أن رجالا من أمثال الكردينال ريشليو والكردينال مازارين كانوا يرون أنفسهم خداماً لغايات أعظم من غاياتهم هم ، ومن ملوكهم ، إذ يخدمون فرنسا شبه القدسة التى يصورها لهم خيالهم . ولا شك أيضاً أن هذه العادات العقلية انسابت منهم إلى مرؤوسيهم وإلى هيئة الشعب العامة . وفى القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان عامة السكان فى أوربا مستمسكة بدينها ولم تكن وطنيتهم إلا شيئاً مبهماً ، فما أن حل القرن التاسع عشر حتى أصبحوا وطنيين بكليتهم . ففى عربة مزدحمة من عربات السكك الحديدية الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية فى أخريات القرن التاسع عشر ، كانت السخرية من الله تستثير من العداوة قدراً أقل كثيراً مما تستثيره السخرية بأحد من هاته المخلوقات العجيبة ، إنجلترا أو فرنسا أو ألمانيا . فإلى هذه الأشياء تعلقت أذهان الناس ، تعلقت بها لأنه لم يبد فى كل أنحاء العالم أى شىء آخر تقنع النفوس بأن تتعلق به . كانت هى آلهة أوربا الحقة الحية .

ونتج عن رفع الحكومات ووزارات الخارجية إلى مصاف المثل العليا ، وهى تلك الرطازة رطازة[1] الدول وحبها وكراهياتها ونضالاتها أن تشبع بها خيال أوربا وآسيا الغربية إلى حد أن كانت مصدراً تستقى منه « أشكال تفكيرها » . وتكاد تكون كل التواريخ ، ويكاد يكون كل الأدب السياسى فى القرنين الأخيرين فى أوربا ، مكتوبة بنفس تلك اللغة والروح ؛ على أنه لابد أن يأتى ذلك الزمان الذى سوف يقرأ فيه جيل أوضح نظرة وأصفى بصيرة ويرى فى شىء من الارتباك كيف حدث فى المجتمع الأوربى الغربى ، المكون فى كل مكان من تنوعات طفيفة جداً فى خليط جنسى مشترك مكون من شعوب نوردية وأيبيرية وعناصر نازحة سامية ومغولية تتكلم فى كل مكان تقريباً لهجات محورة عن نفس اللسان الآرى ، ولها ماض مشترك متمثل فى الإمبراطورية الرومانية ، وأشكال دينية مشتركة ، وعادات اجتماعية مشتركة وفن وعلم مشتركان ، وهى تتزاوج فيما بينها بحرية لا يستطيع إنسان معها أن يتكلم فى أى تحقق عن جنسية (أى قومية) أى من أولاد أحفاده ، — أن كان فى الإمكان أن تهيج فى الرجل أقصى أنواع الانفعال حول مسألة عظمة فرنسا ، ونهضة وتوحيد ألمانيا ، ومدعيات الروسيا

---

(١) الرطازة Mythology : هى أسطورة أو حكاية تقليدية كثيراً ما تعبر عن معتقدات بدائية وتفسر الظواهر الطبيعية والتاريخية .

واليونان المتنافستين على امتلاك القسطنطينية . ولسوف تبدو هذه المنازعات عند ذلك غريبة لا سبب لها ، جنونية لا عقل فيها ، شأن ما اندثر قبلها من منازعات لا يفهمها الناس الآن أمثال منازعات بين « الخضر والزرق[1] » الذين كانوا يملأون شوارع بيزنطة بالضجيج وسفك الدماء .

وهذه الأطياف أعنى الدول عظيا ما عظم تسلطها على عقولنا وحيواتنا — فإنها كما يبين لك هذا الكتاب أوضح بيان ، أمور لا ترجع إلى أقدم من القرون الأخيرة القليلة بل هى مجرد ساعة واحدة أو دور عرضى فى التاريخ المقصود المتعمد لنوعنا البشرى . وهى تسجل دوراً من أدوار الارتكاس أو ضرباً من الانسلاخ من ركب التقدم ، مثلما يسجل نهوض الملكية المكياڤلية حالة تخلف عن مسايرة الركب . فهى جزء من نفس دوامة العقيدة المضطربة المترددة تقوم فى عملية أكبر منها على وجه الإطلاق ومخالفة لها على وجه الإطلاق فى نزعتها العامة ، وهى عملية إعادة الاتحاد الخلق والذهنى إلى البشرية . وقد ظل الناس حيناً من الدهر مرتكسين حول أربابهم هؤلاء القوميين أو الإمبراطوريين ، على أن ذلك لم يدم إلا إلى حين . فإن فكرة الدولة العالمية ومملكة الصلاح العامة التى يصبح فيها كل كائن حى ممادناً ، كانت موجودة فى العالم قبل ذلك بألفين من السنين ، ولن تغادر العالم بعد ذلك قط . وإن الناس ليعلمون أنها بين أيديهم وإن أبوا أن يعترفوا بها . وإنك لتحس فى كتابات وأحاديث الناس عن الشئون الدولية اليوم وفى المناقشات الجارية الدائرة الآن بين ظهرانى المؤرخين والصحفيين السياسيين ، أثراً من سمة رجال ثملين قد شرعوا يستفيقون ، ويداخلهم ذعر شديد من استفاقتهم هذه . وهم لا يفتأون يتكلمون بصوت مرتفع عن حبهم لفرنسا وكراهيتهم ألمانيا وعن سيادة بريطانيا التقليدية فى البحار ، وهكذا وهكذا ... شأن أولئك الذين يغنون مترنحين بكؤوسهم بالرغم من اتصال دبيب الاستفاقة إليهم وغلبة الخمار على رؤوسهم . وما تلك التى يخدمون إلا أرباب ميتة . فإن الناس لا يريدون فى البحر أو البر دولا فى رفعة ، وإنما يبتغون القانون والخدمة . وإن ذلك التحدى الصامت الذى لا مندوحة منه ولا مفر موجود فى أذهاننا وجود الفجر وهو يبزغ فى تمهل وأناة ، وينفذ ضياؤه خلال مصاريع حجرة مشوشة النظام .

---

(١) الخضر والزرق : فرقتان رياضيتان قديمتان بالقسطنطينية كانتا تعدان حرسا للمدينة .

٩ — جمهورية بولندة المتوجة ومصيرها

كان القرن السابع عشر فى أوربا ، قرن لويس الرابع عشر ، فهو وعظمة فرنسا وفرساى قطب الرحى فى القصة . وكان القرن الثامن عشر معادلا لذلك فى أنه قرن نهضة بروسيا كدولة عظمى ، والشخصية الرئيسية فى قصتها هى فردريك الثانى ، أى فردريك الأكبر . وتجىء قصة بولندا مشتبكة وتاريخه .

كانت أحوال الشئون فى بولندة ذات سمة خاصة . وبولندة بخلاف جيرانها الثلاثة الروسيا وبروسيا وملكية آل هابسبرج فى النمسا والمجر لم تطور لنفسها ملكية عظمى . وخير وصف يوصف به نظام حكومتها أن يقال إنه كان نظاماً جمهورياً له ملك ، وهو رئيس ينتخب مدى الحياة . وكان كل ملك ينتخب على حدة . بل كانت فى واقع الأمر أبلغ فى روحها الجمهورية من بريطانيا ، ولكن روحها الجمهورية كانت أكثر أرستقراطية فى شكلها . وكان لبولندة تجارة طفيفة ومصنوعات قليلة العدد ؛ وكانت قطراً زراعياً ما يزال به مساحات عظيمة للرعى والغابات والأرض البراح ، فكانت قطراً فقيراً ، وكان أصحاب الأراضى فيها أرستقراطيين فقراء . وكانت جمهرة سكانها فلاحين أذلاء جهلة جهلا وحشياً ، وكانت تؤوى كذلك جماهير غفيرة من اليهود الشديدى الإدقاع . وكانت حافظت على كثلكتها . كانت — إن صح هذا القول — بريطانيا أخرى أرضية كاثوليكية فقيرة ، تكتنفها الأعداء من كل جانب مثل ما يكتنف البحر بريطانيا . ولم تكن لها على وجه الإطلاق أية تخوم محددة ، لا بحر ولا جبل . ومما زاد فى مصائبها أن بعض ملوكها المنتخبين كانوا حكاماً أذكياء عدوانيي النزعة . فكان سلطانها يمتد شرقاً امتداداً ضعيفاً إلى مناطق يسكنها كلها تقريباً الروسيون كما يغطى من ناحية الغرب بعض الرعايا الألمان . ونظراً لأنها لم يكن لها تجارة عظيمة ، لم تنشأ لديها مدن عظيمة تقاس إلى مدن أوربا الغربية ، ولا تكونت بها جامعات قوية تضم شتات ذهنها بعضه إلى بعض . وكانت طبقتها النبيلة تعيش على ما تغله لها مزارعها ، دون الشىء الكثير من الاختلاط الذهنى . كانوا وطنيى النزعة ، ولديهم إحساس أرستقراطى بالحرية يتسق تماماً مع الإفقار المنظم الذى يعيش فيه موالى أراضيهم — ولكن وطنيتهم وحريتهم كانتا غير قادرتين على إنتاج التعاون الفعال . كانت بولندة يوم كانت الحروب أمر جمع للرجال والخيل ، دولة قوية نسبياً ؛ ولكنها لم تستطع أصالة أن تماشى تطورات الفن العسكرى الذى كان يتخذ من قوات دائمة من جنود محترفين العدة الضرورية فى الحروب .

ولـكنها على ما كانت عليه من الانقسام وقلة الاقتدار ، تستطيع أن تكتب فى كتاب حسابها بعض انتصارات جديرة بالذكر . فإن الهجوم التركى الأخير على ڤيينا (١٦٨٣) قد قضى عليه الفرسان البولنديون بقيادة الملك حنا سوبيسكى (الملك جون الثالث) . (وكان هذا

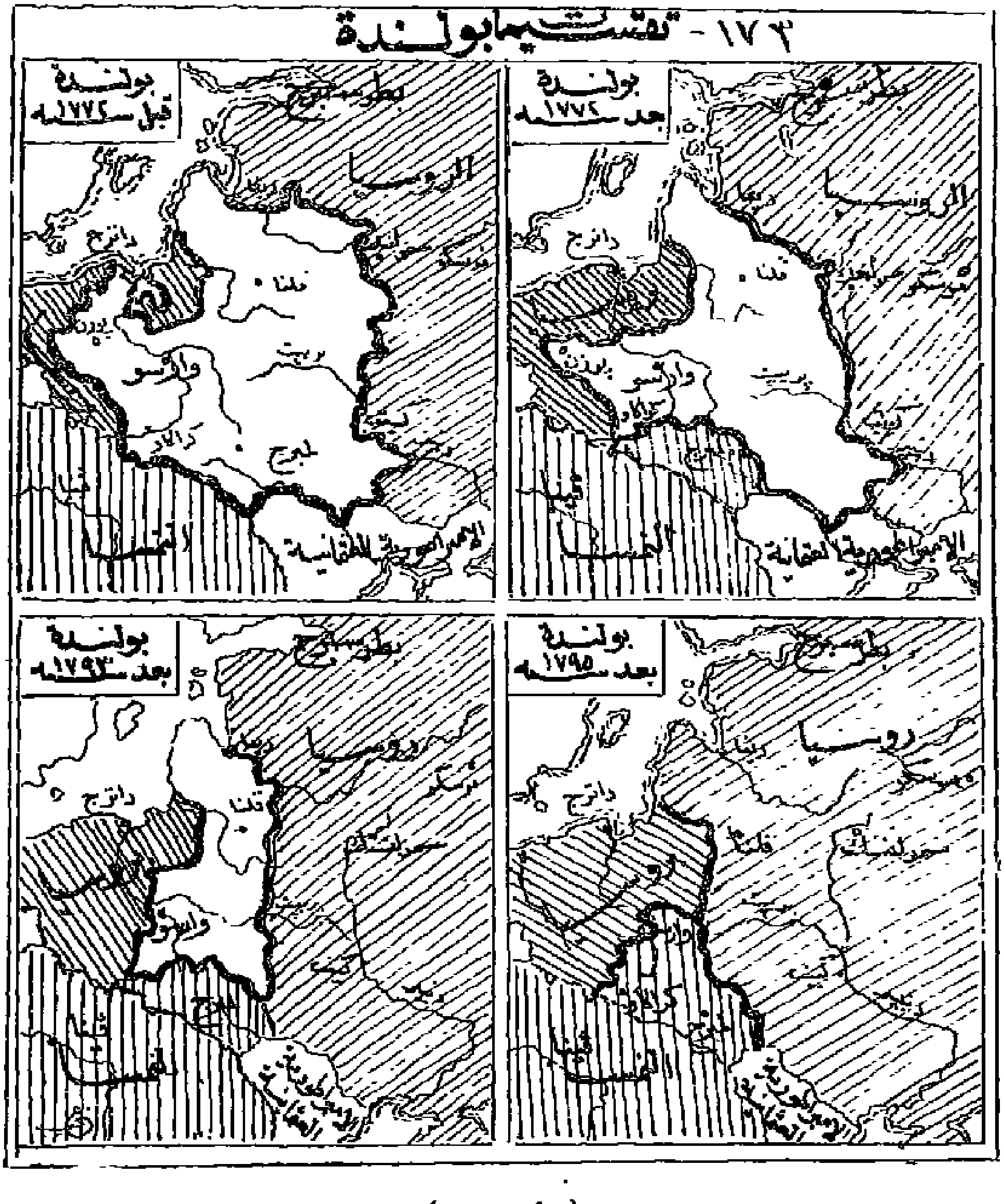

(شكل ١٧٣)

السوبيسكى نفسه قبل أن ينتخب ملـكا ، أجيراً يتقاضى المـال من لويس الرابع عشر ، وكان قد حارب فى صفوف السويديين ضد وطنه) . ولا حاجة بنا إلى القول ، أن هـذه الجمهورية الأرستقراطية الضعيفة ، بانتخاباتها الملـكية المتداركة الحدوث كانت تستدعى العدوان من كل من جيرانها الثلاثة . وكانت الأموال الأجنبية وكل نوع من أنواع التدخل تنساب إلى البلاد

عند كل انتخاب . وكان كل مواطن بولندى ساخط منهم يفر — شأن الإغريق قديماً — إلى أحد الأعداء الأجانب ويصب جام غضبه على وطنه الناكر للجميل .

ولم تكن للملك البولندى إلا سلطة ضعيفة جداً حتى بعد أن يتم انتخابه وذلك بسبب غيرة النبلاء البولنديين بعضهم من بعض . إذ هم شأن النبلاء الإنجليز كانوا يفضلون الأجنبي . لأنه لنفس السبب لم يكن له عماد من قوة وعزوة ، يرتكز عليها فى البلاد . ولكنه بخلاف البريطانيين لم تكن لحكومتهم نفس قوة التماسك التى كانت تعيرها للنبلاء البريطانيين الاجتماعات الدورية للبرلمان فى لندن ، « ولا الحضور إلى العاصمة » . وكانت لندن ملتقى المجتمعات وما يتلوها من تمازج متواصل فى الفكرات وفى أصحاب النفوذ من الأشخاص . ولم تكن لبولندة مدينة كلندن ولا كان فيها «هيئة اجتماعية» . ولذا فالواقع أنه لم تكن لبولندة حكومة مركزية إصالة . وما كان ملك بولندة يستطيع أن يعلن حربا أو يعقد صلحا ، أو يجبى ضريبة أو يغير قانونا دون موافقة مجلس الدايت ، (وكان لكل عضو بمفرده فى مجلس الدايت الحق فى نقض قراراته بالاعتراض (Veto) على أى مقترح مطروح للبحث) . وما كان عليه إلا أن ينهض ويقول « إنى غير موافق » فيسقط الموضوع . بل إنه كان يستطيع أن يحمل حقه فى الاعتراض المطلق Liberum Veto إلى مدى أبعد من هذا . إذ يستطيع أن يعترض على اجتماع المجلس ، وعند ذلك ينحل الدايت . لم تكن بولندة إذن مجرد جمهورية أرستقراطية متوجه مثل تلك البريطانية ، بل كانت جمهورية أرستقراطية متوجه مشلولة :

وكان وجود بولندة فى نظر فردريك الأعظم أمراً مثيراً بوجه خاص بسبب الطريقة التى كان بها ذراع بولنده تمتد إلى بحر البلطيق فى دانزج ، وتفصل ممتلكاته الموروثة فى روسيا الشرقية عن أراضيه داخل الإمبراطورية . فكان هو من حرض كاترين الثانية قيصرة الروسيا وماريا تريزا النمسوية — التى فاز باحترامها بحرمانه إياها من سيليزيا — على القيام بهجوم مشترك على بولنده .

واسمحوا الآن لخرائط أربع لبولنده أن تروى لكم القصة .

وبعد هذا الانتهاك الذى أصاب بولنده فى (١٧٧٢) ، ألم بفؤادها تغير كبير . إذ الواقع أن بولنده ولدت شعباً فى ليلة انحلالها . إذ حدث فيها تطور إن يكن سريعاً فقد كان جسيما ضخما فى التعليم والأدب والفن . ونشأ المؤرخون والشعراء بغتة ، وقذف جانباً بالدستور العقيم الذى جعل من بولنده دولة كليلة واهنة . وألغى حق الاعتراض المطلق ، وجعل التاج ورا ـ

من أجل إنقاذ پولندة من المؤامرات الأجنبية التى كانت تصحب كل انتخاب ، وأقيم برلمان يحاكى البرلمان البريطانى . على أنه كان هناك مع ذلك محبون للنظام القديم فى پولنده ، كرهوا تلك التغييرات الضرورية ، وطبيعى أن تعين الروسيا وبروسيا هؤلاء المعترضين ، إذ كانتا لا ترغبان فى أية نهضة پولندية . وجاء التقسيم الثانى ، وبعد كفاح وطنى عنيف ابتدأ بالمنطقة التى سلختها بروسيا ، ووجد فى كوزكيوسكو Kosciusko ، زعيما له وبطلا وطنياً ، حدثت إزالة پولندة نهائياً من الخريطة . وبذا انتهى إلى حين من الزمان ذلك التهديد البرلمانى للملكية العظمى فى أوروبا الشرقية . ولكن وطنية البولنديين اشتد تضرمها وتلألأ صفاؤها لهذا الضغط . فإن پولندة ظلت مئة مائة وعشرين سنة تكافح كفاح مخلوق مغمور بالماء ، تحت تلك الشبكة السياسية والعسكرية التى كانت تمسك بها تحت سطح الماء . ثم نهضت ثانية فى (١٩١٨) عند نهاية الحرب العظمى .

١٠ — أول تخاطف على الإمبراطوريات وراء البحار

أدلينا إليك ببعض البيانات عن ارتقاء فرنسا مدارج الرفعة فى أوروبا ، وعن الانحلال السريع لذلك النماء الرخو الذى تهيأ للدولة الأسبانية وعن انفصالها عن النمسا ، وقيام بروسيا . فأما فرنسا والبرتغال وأسبانيا وبريطانيا وهولنده ، فإن تنافسها على الرفعة فى أوروبا الغربية قد امتد وتعقد فى كفاح على الممتلكات وراء البحار .

ذلك بأن اكتشاف قارة أمريكا وهى الضخمة القليلة السكان ، غير المتطورة والمكيفة تكييفاً رائعاً لإقامة الأوروبيين واستغلالهم ، وما رافق ذلك من اكتشافات لمساحات عظيمة من الأرض البكر جنوبى المناطق الاستوائية الحارة فى إفريقيا التى كانت حتى ذلك الحين تحد من عرفان الأوربى ، ثم التوصل على التدريج إلى معرفة أقاليم جزرية فسيحة فى البحار الشرقية ، لم تمسسها حتى ذلك الحين المدنية الغربية ، — كانت بأكملها عملية عرض للنهزات أمام أعين الإنسانية لم يسبق لها مثيل فى التاريخ أجمع . وكأنما ورثت شعوب أوروبا ميراثاً فاخراً باذخاً . فإن عالمهم أصبح بغتة أربع أضعافه . وكان لكل ما يفى بحاجته ويفيض . ولم يكن عليهم إلا أن يتسلموا تلك الأراضى وأن يواصلوا بها عيش الثراء ، وعند ذلك يتبدد ما هم عليه من فقر وتزاحم تبدد الحلم عند اليقظة . ولكنهم تلقوا ذلك التراث الفاخر تلقى الورثة السيئى التربية . إذ لم يكن له لديهم من معنى إلا أنه ظرف جديد تتجلى فيه المنازعات الفظيعة ، ولكن أى مجتمع من الإنسانية قد آثر حتى اليوم الخلق والتكوين على المؤامرة ؟ وأى شعب فى

قصتنا بأجمعها تعاون قط مع شعب آخر بينما كان يستطيع مقابل أى ثمن يدفعه ، أن يدبر المكايد لإلحاق الضرر بذلك الشعب الآخر ؟ ابتدأت دول أوربا الأمر « بادعاء » جنونى متهوس على الممالك الجديدة . ثم ترامى بهم الأمر إلى منازعات مستنفدة للقوى . فإن أسبانيا صاحبة أول الادعاءات وغالبها ، والتى ظلت ردحا من الدهر سيدة ثلثى أمريكا ، لم تفد من ممتلكاتها بطريقة أحسن من أن تنزف دماء نفسها فيها إلى درجة الموت تقريباً .

ولقد ذكرنا كيف أن البابوية فى آخر أدوار تمسكها بالسيادة العالميـة ، قسمت القارة الأمريكية بين أسبانيا والبرتغال بدل أن تحافظ على الواجب المشترك لكل عالم المسيحية بإنشاء حضارة عظيمة مشتركة فى الأراضى الجديدة . وطبيعى أن يستثير ذلك عداوة الشعوب المحرومة . فإن رجال البحر الإنجليز لم يعيروا مدعيات الطرفين أى احترام ، ونصبوا أنفسهم ضد الأسبان بوجه خاص . وحوّل السويديون نزعتهم البروتستانتية إلى شىء من هذا القبيل . وما كاد الهولنديون يلقون عن أنفسهم نير أسيادهم الأسبان حتى نشروا قلوعهم غرباً ليسخروا من البابا ، وينالوا نصيبهم من خيرات العـالم الجديد . فأما صاحب الجلالة الكاثوليكية الورعة ملك فرنسا ، فإنه لم يتردد إلا قدر ما تردد أى بروتستانتى . فكانت كل هذه الدول مشغولة تتنافس فى دعاويها على أمريكا الشمالية وجزائر الهند الغربية .

ولم تفد المملكة الدانيمركية (وكانت آنذاك تضم النرويج وإيسلندة) ولا السويد شيئاً كثيراً جداً فى هذا التخاطف . فضم الدانيمركيون إليهم شيئاً من جزائر الهند الغربية . ولم تصل السويد إلى شىء منها . وكان كل من الدانيمرك والسويد فى ذلك الأوان غائصتين فى الشئون الألمانية . فقد ذكرنا آنفاً جوستاف أدولف « أسد الشمال » البروتستانتى ، وأشرنا إلى حملاته فى ألمانيا وبولندة والروسيا . فهذه الأقاليم الأوربية الشرقية تمتص الطاقات امتصاصاً عظيما ، وهذه القوة التى ربما كانت تكسب السويد قسطاً عظيما من العالم الجديد ، قد حصدت لها محصولاً عقيما من المجد فى أوربا . وسرعان ما سقطت تلك المستقرات الصغيرة التى أنشأها السويديون بأمريكا فى أيدى الهولنديين .

وكذلك الهولنديون أيضا فإنهم وقد شهدوا حيالهم الملكية الفرنسية تحت الكردنيال ريشليو وتحت لويس الرابع عشر ، وهى تشق طريقها عبر الأراضى المنخفضة الأسبانية نحو تخومهم ، لم تكن لديهم الموارد غير المبددة التى كانت بريطانيا من خلف لجج « بحرها الفضى » تستطيع أن تقذف بها فى ميادين المغامرات وراء البحار .

وفضلا عن ذلك فإن الجهود التى بذلها فى سبيل الحكم المطلق جيمس الأول ،

وشارل الأول ، وعودة شارل الثانى ، كان من أثرها أن دفعت خارج إنجلترا عددا عظيما من البروتستانت الأقوياء العقول ، الجمهوريين الروح ، وهم قوم ذوو وطنية قوية وأخلاق متينة ، أقاموا فى أمريكا ، وبوجه خاص فى منطقة نيوانجلند ، بعيدا عن منال أى ملك وكل ضريبة — فيما كانوا يظنون . ولم تكن السفينة (ماى فلَور) ، إلا واحدة من السفن الأولى فى فيض من سفن المهاجرين . وكان من حسن طالع بريطانيا أنهم ظلوا تحت العلم البريطانى ، وإن كانوا مخالفين منشقين . فأما الهولنديون فلم يرسلوا إلى أمريكا البتة مستقرين على نفس وفرة العدد والرق ، أولا لأن حكامهم الأسپانيين لم يكونوا ليسمحوا لهم ، وثانياً لأنهم تملكوا بلادهم هم . ومع أنه حدثت هجرة عظيمة للهوجنوت البروتستانت لما لقوا من عذاب الدراجونّاد واضطهاد لويس الرابع عشر ، فقد كان لهم من هولندا وانجلترا ملتجأ قريب ، فانتقلت صناعاتهم ومهاراتهم وجدهم وقناعتهم إلى ذينك القطرين فكان لهما منهم وبخاصة انجلترا قوة أى قوة . وأسس القليل منهم المستقرات فى كارولينا ، على أن هذه لم تستمر فرنسية . فإنها انتقلت إلى الأسپان أولا ثم انتقلت آخر الأمر إلى الإنجليز .

كذلك خضعت المستقرات الهولندية ومعها السويدية لبريطانيا . فأصبحت نيو أمستردام بريطانية (١٦٧٤) وتعدل اسمها إلى نيويورك ، كما قد يسر القارئ أن يعلم من كتاب واشنجتن إرفنج « تاريخ نيويورك الموجز » ، وتتبين حال الأمور بأمريكا فى (١٧٥٠) تبيناً واضحاً جداً من خريطة كيفناها عن أخرى فى كتاب (العصور الوسطى والحديثة) لروبنسون . وقد تأسست دائرة النفوذ البريطانية على امتداد الشاطئ الشرقى من ساڤانا إلى نهر السانت لورنس ، فأما نيوفوندلند وأراضى شمالية مترامية هى أراضى شركة خليج هدسون فقد اكتسبت من الفرنسيين بمعاهدة صلح . واحتل البريطانيون بربادوس فى (١٦٠٥) ، (وهى تكاد تكون أقدم ممتلكاتهم الأمريكية) واستحوذوا على چامايكا وجزائر بهاما وهندوراس البريطانية من الأسپان . ولكن فرنسا كانت تطارد صيداً خطراً مزعجاً جداً ، وهو صيد يكاد يكون أشد خطراً وإزعاجاً على الخريطة منه فى الحقيقة . فإنها أنشأت مستقرات حقيقية فى كويبك ومونتريال فى الشمال وفى نيو أورليانس فى الجنوب ، وكان روادها ووكلاؤها تقدموا جنوباً وشمالاً ، يعقدون المعاهدات مع الهنود الأمريكيين بالسهول العظيمة ويقيمون المدعيات — دون أن يقيموا المدن — عبر القارة بأكملها خلف البريطانيين . ولكن حقيقة الموقف لا تمثل على هذا النحو تمثيلا كافياً . فإن المستقرات البريطانية كان يقيم بها طبقة طيبة من الناس أوطد إقامة ، وكانوا من قبل يتجاوزون فى

عددهم المليون . وما كان الفرنسيون فى ذاك الزمان يدانون عُشر ذلك العدد إلا بشق الأنفس . أجل كان لهم عدد من أذكياء الرحالين والإرساليين يعملون ناشطين ، على أنهم لم يكن من ورائهم مادة عظيمة من السكان .

وما زال فى الإمكان العثور على كثير من الخرائط القديمة لأمريكا فى تلك الفترة ، وهى خرائط وضعت خصيصاً لإخافة البريطانيين واستثارتهم حتى يتنبهوا إلى « خطط الفرنسيين » فى أمريكا . ونشبت الحرب فى (١٧٢٤) . وفى (١٧٥٩) استولت القوات البريطانية وقوات المستعمرات بقيادة الجنرال وولف على كويبك وفرغت من فتح كندا فى السنة التالية . وما وافت ١٧٦٣ حتى كانت كندا قد انتقلت نهائياً إلى أيدى بريطانيا . (على أن الجزء الغربى من إقليم لويزيانا الذى يكاد يكون لا حد له فى الجنوب ، والمسمى باسم لويس الرابع عشر ، ظل خارج الدائرة البريطانية . فأخذته أسبانيا ، وفى (١٨٠٠) استردته فرنسا . ثم اشترته آخر الأمر (١٨٠٣) حكومة الولايات المتحدة من فرنسا) . وفى هذه الحرب الكندية ، حصل المستعمرون الأمريكان على خبرة جسيمة فى فن الحروب ، وعلى علم بالتنظيم العسكرى البريطانى عاد عليهم بعظيم النفع بعد ذلك بزمن وجيز .

١١ — بريطانيا تسود الهند

لم يقتصر اصطدام الدولتين الفرنسية والبريطانية على أمريكا . بل إن أحوال الهند كانت فى ذلك الزمان شديدة الجاذبية عظيمة اللذة للمغامرين الأوربيين . فإن الإمبراطورية المغولية العظيمة ، إمبراطورية بابر وأكبر وأورانغزيب ، كانت قد سارت فى الانحلال شوطاً بعيداً . وما حدث للهند كان موازياً ومماثلا لما جد لألمانيا . فإن المغولى الأكبر ، شأن إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة فى ألمانيا ، كان ما يزال صاحب السيادة العليا شرعاً ، ولكنه كان بعد وفاة أورانغزيب ، يتولى سلطة اسمية ليس غير ، اللهم إلا فى المنطقة المجاورة مباشرة لعاصمته . وقد حدث نهوض عظيم فى الهندوكية وفى الروح الوطنية . فإن شعباً هندوسياً هو المهراتا ثار فى الجنوب الغربى ضد الإسلام ، وأعاد البرهمانية ديانة سائدة . ثم بسطوا سلطانهم حيناً من الدهر فوق مثلث الهند الجنوبى بأجمعه . وتقوض حكم الإسلام فى راچپوتانا أيضاً وحلت محله البرهمانية ، وكان يحكم فى (بهورتبور) وفى جايبور ، أمراء راچپوتانيون أقوياء . وكانت فى أودا مملكة شيعية عاصمتها لكنو ، وكانت البنغال كذلك مملكة إسلامية منفصلة . ونشأت فى بلاد البنچاب القصية فى الشمال هيئة دينية شائقة جداً هى السيخ ، الذين أعلنوا أن الحكم العام لرب واحد

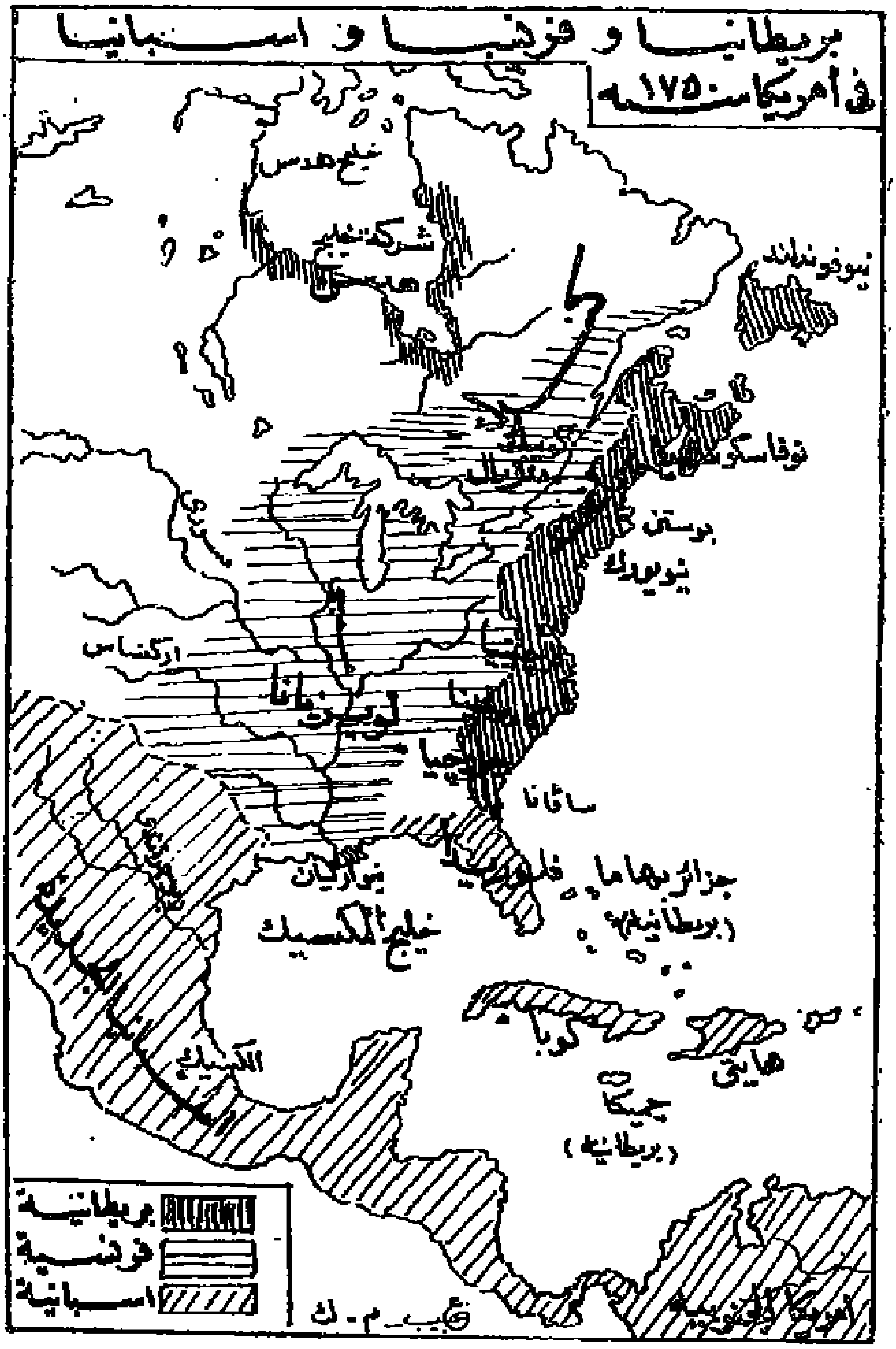

(شكل ١٧٤)

وهاجموا الڤيدا الهندوسية والقرآن الإسلامى على السواء . وكانوا فى الأصل طائفة سلم ما لبثوا أن احتذوا حذو الإسلام[1] وحاولوا — موقنين أنفسهم فى أول الأمر فى أشد الكوارث — أن يؤسسوا مملكة الرب بحد الحسام . وإلى هذه الهند الهندية المتبلبلة البالغة الفوضى وإن كانت ناهضة قوية الحيوية ، هبط للفور (١٧٣٨) غاز من الشمال ، هو نادر شاه (١٧٣٦ — ٤٧) حاكم فارس التركمانى ، الذى انثال بجيوشه عابراً ممر خيبر ، موقعاً بكل جيش اعترض طريقه ، واستولى على دلهى ونهبها ، وحمل منها غنائم هائلة . وخلف شمال الهند محطماً تمام

(١) سبق أن رددنا على هذه النقطة فى المجلد الثالث من المعالم ص ٦٣٢ فليرجع إليها القارئ فى موضعها .

التحطيم إلى حد أن عدد غارات النهب الأخرى الناجحة فى العشرين سنة التالية لم يقل عن ست غارات فى شمال الهند أتت جميعاً من بلاد الأفغان ، التى أصبحت دولة مستقلة عند وفاة نادر شاه . وواصل المهراتا محاربة الأفغانيين ردحاً من الزمان على حكم شمال الهند . ثم تحطمت دولة المهراتا وتقسمها عدد من الإمارات وهى إندور وجواليور وبارودا وغيرها .

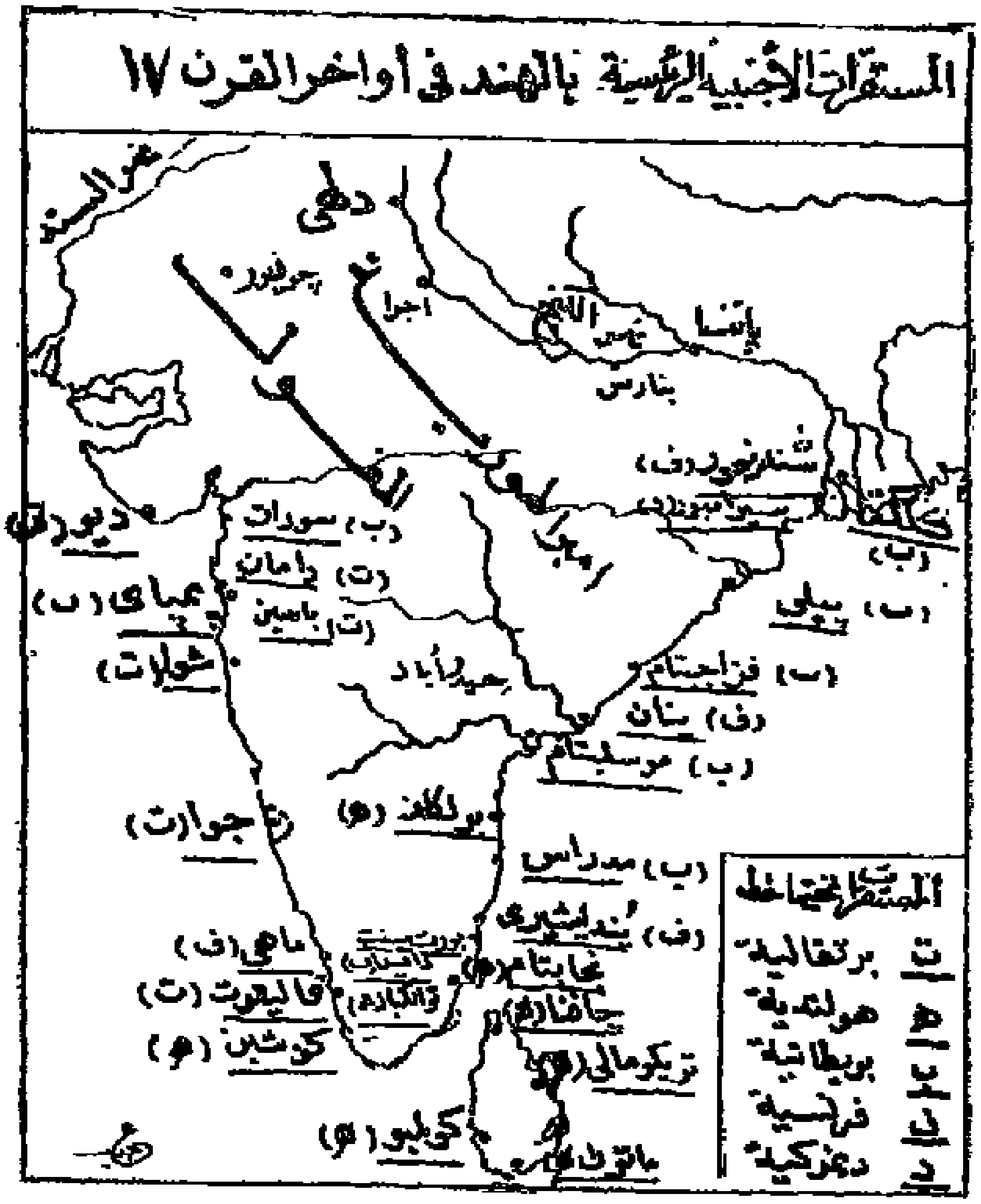

(شكل ١٧٥)

فكانت الهند فى القرن السابع عشر شديدة الشبه بأوربا فى القرن السابع أو الثامن ، إذ كانت أرض تنهوض ببطء لا يفتأ المغيرون الأجانب ينزلون بها الكوارث .

ذلك شأن الهند التى كان يندفع إليها الفرنسيون والإنجليز إبان القرن الثامن عشر .

وكان عدد متعاقب من الدول الأوربية الأخرى يكافح طلباً لمرمى تجارى وسياسى فى الهند والشرق منذ السنة التى قام فيها ڤاسكودا جاما برحلته العظيمة حول رأس الرجاء إلى قاليقوت . وكانت تجارة الهند البحرية قبل ذلك فى يد عرب البحر الأحمر ، فظفر بها منهم البرتغاليون بعد سلسلة من المعارك البحرية . إذ كانت السفن البرتغالية أكبر حجماً ، وكانت

تحمل أسلحة أثقل . وظل البرتغاليون زماناً وزمام التجارة الهندية ملك خالص ليمينهم ، وبزت لشبونة البندقية كسوق للأفاويه الشرقية . ومهما يكن من شيء فإن القرن السابع عشر شهد الهولنديين قابضين على هذا الاحتكار . وكان للهولنديين وهم فى أوج قوتهم مستعمرات عند رأس الرجاء الصالح ، هذا إلى جزيرة موريشيوس ، وإلى مؤسستين فى

(شكل ١٧٦)

فارس ، واثنتى عشرة فى الهند ، وست فى سيلان ، وكانوا قد نثروا محطاتهم المحصنة فى كل أرجاء جزائر الهند الشرقية . ولكن ما أبدوا من عزم أنانى على حرمان التجار من أية جنسية أخرى أوربية ، ألجأ السويديين والداغركيين والفرنسيين والإنجليز إلى المنافسة العدائية . فضربوا أولى الضربات التى كيلت لاحتكارهم وراء البحار ، ضربوها فى المياه الأوربية فى انتصارات بليك الأميرال الإنجليزى الجمهورى . وكان كل من الإنجليز والفرنسيين عند مفتتح القرن الثامن عشر ، على جانب المنافسة القوية للهولنديين على التجارة والامتيازات فى كل أرجاء الهند . وأنشأ الإنجليز مراكزهم الكبرى فى مدراس وبمباى وكلكتا ، وكانت المستقرات الفرنسية الرئيسية هى پوندتشيرى وشاندر ناجور .

وكانت كل هاته الدول الأوربية تأتى بوصفها مجرد متجرين ، وكانت المؤسسات الوحيدة التى يحاولون تشييدها هى المخازن . ولكن حالة البلاد غير المستقرة ، والطرق غير الشريفة التى كان يتبعها منافسوهم ، جعلت تحصينهم أنفسهم وتسلحهم شيئاً طبيعياً ، وجعلهم هذا التسلح حلفاء جذابين فى أعين الأمراء المتنوعين المتقاتلين الذين كانت تنقسم الهند آنذاك إليهم . وكان مما يتواءم تماماً وروح السياسة القومية الأوربية الجديدة ، أنه ما يكاد الفرنسيون ينضمون إلى جانب ، حتى يجب أن ينحاز الإنجليز إلى آخر . وكان الزعيم العظيم فى الجانب الإنجليزى هو روبرت كليف ، المولود فى (١٧٢٥) والذى وصل إلى الهند فى (١٧٤٣) . وكان خصمه الأكبر هو دوپليه . وقصة هذا الكفاح المستغرق للنصف الأول من القرن الثامن عشر أطول وأعقد من أن يتسع لها هذا المكان . ولما وافت (١٧٦١) نظر الإنجليز وإذا لهم السيادة الكاملة على شبه الجزيرة الهندية . وفازت جنودهم فى پلاسى (١٧٥٧) وبوكسر (١٧٦٤) بانتصارات رائعة فاصلة على جيش البنغال وجيش أودا . وكان المغولى الأكبر ، صاحب السيادة عليهم اسمياً ، قد أصبح فى الحقيقة ألعوبتهم الخاضعة . وكانوا يجبون الضرائب فى مساحات عظيمة ؛ وكانوا يحتمون دفع التعويضات جزاء لمعارضة حقيقية أو خيالية .

لم تحرز هذه الانتصارات على أيدى قوات ملك انجلترا مباشرة ؛ بل فازت بها شركة التجارة الشرقية الهندية ، التى ما كانت فى الأصل حين إنشائها فى حكم الملكة إليزابيث ، إلا شركة من المغامرين البحريين . واضطروا خطوة فخطوة أن يجمعوا الجنود وأن يسلحوا سفنهم . وعند ذلك وجدت هذه الشركة التجارية بما لها من تقاليد الكسب والربح ، أنها لا تتجر فحسب فى الأفاويه والأصباغ والشاى والجواهر ، بل فى إيرادات الأمراء وممتلكاتهم وفى مقدرات الهند . جاءت لتشترى وتبيع ، ووجدت نفسها تصيب قرصنة هائلة ، ولم يكن هناك من إنسان يتحدى تصرفاتها . أعجيب إذن أن قادتها وضباطها وموظفيها ، كلا بل كتبتها وجنودها العاديين ، كانوا يعودون إلى انجلترا محملين بالغنائم ؟ إن رجالا فى مثل هذه الظروف وتحت رحمتهم أراضى عظيمة غنية ، لا يستطيعون أن يميزوا بين ما يجوز أن يفعلوه وما لا يجوز . كانت فى أعينهم أرضاً عجيبة ذات شمس عجيبة الضياء . وكان سكانها السمر القاتمون جنساً مختلفاً ، يخرج عن مجال عطفهم . وكانت معابدها ومبانيها تبدو كأنما تقيم أركان معايير للسلوك وهمية سخيفة .

وكان الإنجليز فى بلادهم يتبلبلون خاطراً عندما يعود هؤلاء القادة والموظفون إلى بلادهم

ويتراشقون بالتهم السوداء ما بين ابتزازات وقساوات . وأصدر البرلمان ضد كليف قراراً بالتعنيف . فقضى على نفسه انتحاراً فى (١٧٧٤) . وفى (١٧٨٨) حوكم وارن هاستنجس وهو مدير عظيم آخر للهند وقضى ببراءته (١٧٩٢) . وكان ذلك الموقف موقفاً غريباً لم يسبق له مثيل فى تاريخ العالم . فإن البرلمان الإنجليزى ألفى نفسه يحكم فوق شركة لتدنيسة للتجارة ، كانت بدورها تتسلط على إمبراطورية أعظم وأكثر سكاناً من كل ممتلكات التاج البريطانى . وكانت الهند فى نظر كتلة الشعب الإنجليزى أرضاً شاسعة خيالية سخيفة لا يكاد يستطاع الوصول إليها ، لم يكن يذهب إليها إلا فقراء الشبان من المغامرين ليصيروا بعد سنوات كثيرة سادة مسنين أغنياء جداً حادى الطبع جداً . وكان من العسير على الإنجليز أن يتصوروا ماذا يمكن أن تكون عليه حياة ملايين القاتمين الذين لا يحصرهم عدد فى ضياء شمس الشرق . وكانت أخيلتهم تأبى عليهم حمل هذه الصورة . فظلت الهند شيئاً غير حقيقى يشابه ما فى الروايات الرومانسية . فكان من المستحيل على الإنجليز إذن ، أن يبذلوا أى إشراف ورقابة فعالين ، على تصرفات الشركة .

١٢ — تقدم الروسيا إلى المحيط الهادى

وعلى حين كانت شبه الجزيرة العظيمة فى الجنوب من آسيا تقع على هذا النحو تحت سلطان المتجرين البحريين الإنجليز ، كان يحدث فى الشمال رد فعل آخر لأوربا على آسيا معادل لذلك عظيم . ولقد سبق أن نبأنا القارىء كيف استردت الدول المسيحية فى الروسيا استقلالها من الرهط (الحشد) الذهبى ، وكيف أصبح قيصر الروسيا سيداً على جمهورية نوفجورود ، وأخبرناك فى القسم الخامس من هذا الفصل عن بطرس الأكبر وهو ينضم إلى جماعة الملوك العظام ثم يسوق الروسيا فى الواقع إلى أوربا سوقاً . ونهوض هذه الدولة الكبرى التى تتوسط العالم القديم التى لا هى بالشرقية تماماً ولا هى بالغربية تماماً ، نهوض ذو أهمية قصوى لمقدراتنا الإنسانية . كذلك نبأناك فى الفصل ذاته عن ظهور شعب مسيحى فى السهوب ، هم القوزاق الذين كانوا حداً فاصلا بين زراعة بولندا وهنغاريا الإقطاعية من ناحية الغرب وبين التتار من ناحية الشرق . وكان القوزاق يمثلون شرق أوربا المتوحش ، وكانوا فى كثير من الوجوه لا يختلفون كثيراً عن القسم الغربى المتوحش فى الولايات المتحدة إبان منتصف القرن التاسع عشر . فكل من أحنق عليه صدر الروسيا حتى لم تعد تطيق أن تؤويه ، من أمثال المجرمين ثم الأبرياء المضطهدين ، وموالى الأرض الثائرين ، والشيع الدينية ، واللصوص ، والأفاقين

والقتلة ، كانوا يلوذون بملجأ السهوب الجنوبية ، ثم يبدءون حياتهم من جديد ويقاتلون من أجل الحياة والحرية ضد كل من البولنديين ، والروسيين والتتار على السواء . ولا مرية فى أن لاجئين من التتار فى الشرق كانوا ينضمون كذلك ويزيدون فى عدد خليط القوزاق . وكان أكبر هذه القبائل المترحلة الجديدة ، قوزاق أوكرانيا على نهر الدنيبر وقوزاق الدون على نهر الدون . وضُمَّ هؤلاء القوم على الحدود فى بطء إلى الخدمة الإمبراطورية الروسية ، على نفس الطريقة التى تم بها تحويل عشائر الأراضى المرتفعة (هايلاند) فى اسكتلندا إلى فرق أنشأتها الحكومة البريطانية . فمنحوا أراضى جديدة فى آسيا . فأصبحوا سلاحاً ضد قوة المغول المترحلين المضمحلة ، فى التركستان فى مبدأ الأمر ، ثم عبر سيبيريا حتى نهر العامور .

واضمحلال الطاقة المغولية فى القرن السابع عشر والثامن عشر أمر يعسر علينا جداً أن نفسره . فلم ينقض قرنان أو ثلاثة على أيام جانكيز وتيمورلنك ، حتى انحدرت آسيا الوسطى من فترة رفعة عالمية إلى حالة كلال ووهن سياسى مفرط . ولعل تغيرات فى المناخ ، وأوبئة غير مسجلة ، وعدوى من طراز يشبه الملاريا ، قد قامت بدورها فى هذا التأخر الذى ألم بشعوب آسيا الوسطى ، والذى ربما لا يكون إلا تأخراً موقوتاً إذا قيس إلى معيار التاريخ العام . ويظن بعض الثقات أن نشر التعاليم البوذية من الصين كان له أيضاً أثر مهدئ لنفوسهم . ومهما يكن من شىء ، فلم تعد شعوب التتار والترك المغولية عند حلول القرن السادس عشر محافظة على ضغطها إلى الخارج ، بل تحولت بهم الحال ، فأصبحوا يُغزون ويُقهرون ويُدفعون إلى الخلف من كل من الروسيا فى الغرب والصين فى الشرق .

وكان القوزاق ينتشرون نحو الشرق طوال القرن الثالث عشر من الروسيا الأوربية ويستقرون حيثما تهيأت لهم الظروف الزراعية . وكانت نطاقات من التحصينات والمحطات تقوم مقام التخوم المتحركة لهذه المستقرات فى الجنوب ، حيث كان التركمان لا يبرحون أقوياء ناشطين ؛ ومع ذلك فإن الروسيا من الجهة الشمالية الشرقية لم تكن لها تخوم حتى وصلت إلى المحيط الهادى نفسه . وكانت الصين فى نفس الوقت فى دور اتساع . إذ أن الغزاة « المانشو » بثوا فى الشئون الصينية طاقة جديدة ، وأدى اهتمامهم فى الشمال إلى توسع شمالى عظيم لحضارة الصين وسلطانها فى منشوريا ومنغوليا . وهكذا حدث عند منتصف القرن الثامن عشر أن تلاحم الروسيون والصينيون فى منغوليا . وكانت الصين فى تلك الفترة تحكم التركستان الشرقية ، والتبت ونيبال ، وبورما وأنام .

وكان عصر المانشو فى الصين فترة نشاط أدبى جسيم أيضاً . مماثل لنظائره الأوربية وإن

استقل عنه الاستقلال كله ، فإن الرواية الصينية والقصة الصينية القصيرة ارتفعتا إلى مستويات عالية فى الأسلوب والإمتاع ، وحدثت للدراما الصينية تطورات هامة . وصورت مناظر أرضية ممتازة كثيرة ، واخترعت الطباعة بالألوان ، وتُعلم الحفر على النحاس من المرسلين اليسوعيين ، وارتقى صنع الخزف (البورسلين) الصينى إلى ذروة لا مثيل لها من الرفعة . ولكن السمة الجمالية لهذا المنتج الأخير انحطت مع تقدم الزمن بالقرن الثامن عشر بسبب مسارعة الفخرانية إلى تكييف أنفسهم طبقاً لما كانوا يعدونه الذوق الأوربى . وكان التصدير متواصلا طيلة هذا القرن كله إلى السرايات والقصور والدور الريفية التى للنبلاء والأعيان الأوربيين . وقلدت صناعة الخزف الأوربيــة المنتجات الصينية ونافستها ولكنها لم تفقها قط . وابتدأت تجارة الشاى الأوربية أيضاً .

سبق أن ذكرنا غزواً يابانياً للصــين (أو بالحرى لكوريا) . ولا تلعب اليابان فيما عدا عدوانها هذا على الصين ، أى دور فى تاريخنا قبل القرن التاسع عشر وهى شأن الصين تحت حكم أسرة منج ، قد نصبت نفسها فى حزم وعزم ضد تدخل الأجانب فى شئونها . فكانت قطراً يسير بحياته المدنية الخاصة به وهو مختوم ختماً سحرياً ضد كل دخيل . وقد حدثناك عنها بالنزر اليسير حتى الآن لأن كل مالدينا كان ذلك النزر اليسير . فإن تاريخها الجميل الجذاب الرومانسى الشعرى يقف بمعزل عن الدراما العامة للشئون الإنسانية . كان سكانها فى معظم أمرهم من المغول ، بهم مسكة من شعب أبيض شائق جداً يوحى بطراز نوردى بدائى ، هو الأينو Ainu المشعرون فى الجزائر الشمالية . ويلوح أن مدنيتها قد استمدت كلها تقريباً من الصين وكوريا ؛ وإنما فنها تطور خاص للفن الصينى وكتابتها تكييف للكتابة الصينية .

١٣ — رأى جيبون فى العالم فى ١٧٨٠

كنا نعالج فى هذه الأقسام الاثنى عشر السابقة عصر فُرقة وانقسام ، وقوميات متفرقة . وسبق أن شبهنا تلك الفترة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر بفترة خلو من الدافع الأعلى فى تقدم البشرية نحو وحدة تعم العالم أجمع . ففى كل هذه المدة لم تكن فى أذهان الرجال أية فكرة جامعة فإن دافع الإمبراطورية قد أخفق إلى حد أن الإمبراطور لم يعد يزيد عن فرد بين جماعة من الأمراء المتنافسين ، كذلك كان حلم المسيحية قد راح يذوى . وكانت الدول المتطورة تتدافع بالمناكب فى كل أرجاء العالم قاطبة ، وانقضى حين من الدهر كان يبدو أثناءه أنها سوف تمضى تتدافع بالمناكب إلى ماشاء الله دون أن تُلم بالإنسانية أية نازلة عظيمة . وقد وسَّعت

(شكل ١٧٧) ڤولتير

المكتشفات الجغرافية العظيمة فى القرن السادس عشر الموارد الإنسانية إلى درجة أنه بالرغم من انقساماتهم ، وبالرغم مما كان يصيبهم من الخسران بسبب الحروب والسياسات ، فإن شعوب أوربا استمتعت بظلال رخاء جسيم متزايد . وراحت أوربا الوسطى تنتعش انتعاشاً مطرداً مما حل بها من جراء حرب الثلاثين سنة من فساد .

وإذا نحن ألقينا إلى الخلف نظرة على تلك الفترة التى بلغت ذروتها فى الثامن عشر ، إذا نحن ألقينا إلى الخلف نظرة كما قد نستطيع أن نفعل ذلك اليوم ، ورأينا أحداثها بالعلاقة إلى القرون التى سبقتها ، وإلى الحركات العظيمة فى الزمن الحاضر ، استطعنا أن ندرك كم كانت أشكالها السياسية موقوتة غير دائمة عرضية حادثة وكم كانت ضماناتها غير ثابتة الأسس . كانت عرضية طارئة على صورة لم تسبق لأى عصر آخر ، وكانت عصر انتعاش وإبلال وكانت توقفاً سياسياً ، وتجمعاً لفكرات الرجال وموارد العلم توطئة لجهود إنسانى أرحب . على أن العقل المعاصر لم يرها تحت ذلك الضياء . فإن إخفاق الفكرات الخلاقة العظيمة بشكلها الذى صيغت فيه فى القرون الوسطى ، غادر الفكر الإنسانى حينا من الدهر محروما من هداية الفكرات الخلاقة ؛ فإن المتعلمين وذوى الخيال الفسيح أنفسهم كانوا يرون العالم بطريقة عارية من كل روعة ؛ فلم يعد فى نظرهم مكاناً يتلاعب فيه الجهد والمقادير بل منظراً تطلب فيه السعادة المبتذلة وتكافأ فيه الفضائل الألين ممطفاً . ولم يكن أصحاب العقول المحافظة والقانعة هم وحدهم الذين كانوا يتفيئون — فى عالم حافل بالتغييرات السريعة — أكناف هذا التوكيد الذى يجزم ببلوغ الشئون الإنسانية مرحلة الثبات والاستقرار . بل لقد تبدت نفس النزعة فى الفطنات العالية الانتقاد ، والثائرة الفائرة ، بسبب امتناع وجود أى حركات تدعم روح المجتمع وتشد أزرها . فأحسوا بأن الحياة السياسية كفت عن أن تكون ذلك الشىء المستعجل الفاجع الذى كانته يوماً ما ، فإنها أصبحت كوميديا مؤدبة . وكان القرن الثامن عشر قرن كوميديا أصبحت فى النهاية عابسة جهمة . ولا يكاد يتصور العقل أن ذلك العالم عالم منتصف القرن الثامن عشر كان فى طوقه أن ينتج يسوعا ناصرياً ، أو جوتاما ، أو

فرنسيساً أسيسياً ، أو إغناطيوس ليولا . فلو استطاع الإنسان أن يتصور وجود جون هس آخر فى القرن الثامن عشر ، فإن من المستحيل عليه تصور وجود أى إنسان لديه ما يكفى من الحميـة لإحراقه . فإلى يوم حدثت حركات تيقظ الضمير فى بريطانيا التى تطورت إلى نهضة المنهاجيين Methodists [1] لا نكاد نلمح أية بارقة شك تشير إلى أنه ما تزال توجد بين يدى جنسنا واجبات عظيمة لابد له من إتمامها ، ولا أن مزعجات هائلة كانت وشيكة دانية ، ولا أن أخطاراً لاحصر لها كانت تغشى بالسُدفة والظلام طريق الإنسان فى الزمان والفضاء ، وأنه لابد له من أن يظل حتى النهاية جهداً سامياً رهيباً .

اقتبسنا فى هـذا التاريخ مرة بعد أخرى ناقلين عن كتاب تدهور الدولة الرومانية وسقوطها لجيبون . ونحن الآن على أن نقتبس منه لآخر مرة ثم نستودعه الله ، ذلك أننا وصلنا إلى العصر الذى كتب فيه الـكتاب . ولد جيبون فى ١٧٣٧ ، وصدر آخر جزء من تاريخه فى ١٧٨٧ . على أن الفقرة التى نقتبسها كتبت فيما يرجح فى ١٧٨٠ . كان جيبون شاباً رقيق الصحة متوسط الثراء ، نال فى أوكسفورد تعليما جزئياً متقطعاً ، ثم أتم دراساته فى جنيف ، وكان اتجاهه الذهنى فى جملته فرنسياً دوليا أكثر منه بريطانياً ، وكان كبير التأثر بالنفوذ العقلى للفرنسى العظيم الذى يشتهر باسم ڤولتير (فرانسوا مارى اروبه دى ڤولتير ، ١٦٩٤ — ١٧٧٨) . كان ڤولتير مؤلفاً هائل الجد والتشمير ، فإن سبعين سفراً له تزين رفوف كاتب هذه السطور ، وهناك طبعة أخرى لمؤلفات ڤولتير ترفع العدد إلى اثنين وتسعين سفراً ؛ وكان يعالج كثيراً شئون التاريخ والشئون العامة ، وتراسل مع كاترين العظمى قيصرة الروسيا وفردريك الأكبر ملك بروسيا ولويس الخامس عشر ومعظم الرجال البارزين فى ذلك الزمان . وكان روح التاريخ قويا فى كل من جيبون وڤولتير ، وكلاهما قد وضع آراءه فى الحياة الإنسانية على أكمل وأوضح وجه ، وواضح أنهما كلَيهما كانا يريان أن النظام الذى كانا يعيشان فيه وأعنى به نظام الملـكية ، ونظام الطبقات الراقية المتمتعة بالفراغ والامتيازات ونظام الأقوام المحترفين تقريباً أصحاب الصناعة والتجارة ونظام الأقوام الفقراء والعمال المدوسين بالأقدام والمنزلين منزلة الإهمال والفقراء والعامة ، كان يبدو أثبت طريقة للعيش رآها العالم الدهرَ . فاتخذا إلى حد ما مبادىء الجمهوريين وسمتهم ، وأخذا يسخران من الادعاءات المقدسة للملـكية ؛ ولـكن الروح الجمهورية التى راقت ڤولتير كانت الروح الجمهورية المتوجة فى

(١) المنهاجيون : هيئات دينية كثيرة نشأت عن الحركة الإنجيلية التى قام بها شارل وجون ويسلى فى القرن الثامن عشر .

بريطانيا ذلك الزمان ، التى كان فيها الملك مجرد الرأس الرسمى ، وأول الجنتلمانية وأعظمهم .

وكان المثل الأعلى الذى يرفعان لواءه وبناءه هو المثل الأعلى القائل بوجود عالم مؤدب مهذب يكون فيه الرجال — وأعنى بهم الرجال ذوى السجايا العالية ، إذ ليس لغير هؤلاء وزنٌ — فى خجل من أن يكونوا قساة أو غلاظاً أو متحمسين ، وتكون فيه مرافق الحياة فسيحة الجنبات رشيقة الحواشى ، والخشية من هزؤ الناس أقوى معين للقانون على صيانة السلوك اللائق والتوازن فى الحياة . وكان ڤولتير يحمل فى صدره استعدادا للكره المتوقد للظلم ، وما تدخلاته فى نصرة من يضطهدون أو يساء إليهم من الرجال إلا الأنوار الساطعة فى قصة حياته المديدة المعقدة . وإذ كان هو الميل الذهنى لدى جيبون وڤولتير ، ولدى العصر الذى كانا يعيشان فيه . فإن من الطبيعى لديهما أن يجدا فى وجود الديانة فى العالم وبخاصة وجود الديانة المسيحية ظاهرة مربكة لا يكاد يوجد لها ما يبررها . وكان ذلك الجانب من الحياة يبدو لهما فى مجموعه نوعاً من الخبل فى الكيان الإنسانى . وما ذلك التاريخ العظيم الذى ألفه جيبون إلا مهاجمة للمسيحية فى جوهره ، بوصفها السبب الفعال للتدهور والسقوط . فاتخذ من بلوتوقراطية(1) روما الفجة الغليظة مثلا علياً حاول أن يبنها فى عالم مكون من جنتلمانية ممتازين من غرار القرن الثامن عشر ، كما بين كيف أن سقوطها أمام هجمات الهمج القادمين من الخارج جاء نتيجة لفسادها الداخلى من جراء المسيحية . وقد حاولنا فى كتابنا التاريخى هذا أن نقيم معالم تلك القصة تحت ضياء أصح وأحسن . وكان ڤولتير يرى فى المسيحية الرسمية « شنعة » ، وشيئاً يحد من حياة الناس ، ويتدخل فى أفكارهم ، ويضطهد المخالفين الذين لا يضرون أحداً . والواقع أنه لم يكن فى « فترة الخلو من الدافع الأعلى » ، هذه إلا أثر ضئيل جداً من النور أو الحياة فى أى من مسيحية روما (السُّنِّية) أو كنائس الروسيا الأرثوذكسية الخاضعة وكنائس الأمراء البروتستانت . وكان من العسير على الإنسان فى فترة هذا الخلو من الدافع الأعلى التى يثقل الجو فيها وجود كثرة من الأساقفة المداهنين والقساوسة المكرة — أن يدرك أى نيران توقدت جمرتها يوماً ما فى قلب المسيحية ، وأى نيران من الشهوات السياسة والدينية لعلها ما تزال متوقدة فى قلوب الناس .

وأتم جيبون فى نهاية سفره الثالث بيانه عن تصدع الإمبراطورية الغربية . ثم تساءل عند ذلك هل تصاب المدنية يوماً ما بانهيار عائل ذاك ؟ وأدى به ذلك إلى استعراض حال الشئون الراهنة (١٧٨٠) وإلى مقارنتها بحال الأمور أثناء انحلال روما الإمبراطورية . وإن من المناسب جداً لخطتنا العامة أن نقتبس هنا بعض فقرات من تلك الموازنة ،

(١) البلوتوقراطية : حكومة الأغنياء .

فما من شيء يستطيع أن يوضح خيراً منها حال الفكرين السمحى الفكر فى أوربا إبان بلوغ فترة الخلو السياسى من الدافع الأعلى فى عصر الدول الكبرى أوجها ، قبل ظهور أول بوادر تلك القوى العميقة السياسية والاجتماعية ، قوى التفكك التى أنتجت فى النهاية حالة التساؤل المستوقفة للنظر الموجودة فى عصرنا هذا .

كتب جيبون عن الانهيار الغربى يقول : « ربما طُبقت هذه الثورة الرهيبة تطبيقاً نافعاً على العظة النافعة التى نفيدها من عصرنا الحاضر . فإن من واجب الوطنى أن يؤثر ويزكى مصالح ومجد وطنه وحده دون أى شيء عداه ، على أنه ربما أبيح للفيلسوف أن يوسع وجهة نظره ، وأن تعد أوربا جمهورية واحدة عظيمة ، أوشك سكانها المتنوعون أن يصلوا إلى نفس المستوى من التأدب والتهذيب . ولسوف يستمر توازن القوى فى التأرجح ، وسوف يتعاور على رخاء مملكتنا أو الممالك المجاورة لها غِيَر الدهر ما بين تسام وتدلٍّ ، على أن هذه الأحداث الجزئية لاتستطيع بالضرورة أن تسدد سهماً يضر بحالة سعادتنا العامة ، وأعنى بذلك مجموعة الفنون والقوانين وآداب السلوك ، التى تميز الأوربيين ومستعمراتهم عن الجنس البشرى تميزاً له جدواه التامة . فإن شعوب الكرة الأرضية المتوحشين هم الأعداء المشتركون للجماعة الإنسانية المدنة ، ولعلنا نتساءل فى تطلع القَلِق أما تزال أوربا مهددة بتكرار لتلك النوازل التى سبق أن ألمت بقوى روما ونظمها . وربما وضحت نفس التأملات سقوط تلك الإمبراطورية الجبارة وشرحت الأسباب المحتملة لحالة الطمأنينة الفعلية التى نحن عليها اليوم .

« كان الرومان بجهلة لمدى الخطر المحيق بهم ، وعدد أعدائهم . وكانت المناطق وراء الرين والدانوب أى الأقطار الشمالية لأوربا وآسيا غاصة بقبائل لايحصيها حصر من الصيادين والرعاة ، فقراء جشعين جياشين بالثورة متصفين بالجرأة عند اشتباك القتال وهم أشوق ما يكونون إلى انتهاب ثمار الكدح والجد . كان العالم الهمجى يضطرم بدافع الحرب السريع الجياش ، وكان سلام بلاد الغال أو إيطاليا يتزلزل بما يثور فى الصين . فراح الهون الذين كانوا يفرون أمام عدو مظفر ، يجعلون وجهتهم الغرب ؛ وتزايد السيل وطما بمن كان ينضم إليهم من الأسرى والأحلاف . واتخذت القبائل الهاربة التى خضعت للهون ، روح الغزو بدورها ؛ وكان طابور الهمج الذى لانهاية له يضغط على الإمبراطورية الرومانية بقوة متجمعة متكاثفة ، ولئن دُمر الأولون منهم ، لقد كان المكان الشاغر يملؤه على الفور مهاجمون جدد . وليس فى المستطاع بعد ذلك أن تجيء من الشمال مثل هاته الهجرات العاتية ، فأما فكرة السكون الطويلة التى تعزى إلى نقص عدد السكان ، فهى النتيجة السعيدة لتقدم الفنون والزراعة . فبدلا من

ألاّ تقوم بألمانيا إلا بضع قرى خشنة متناثرة تناثراً بعيداً وسط غاباتها وأنهارها ، فإن ألمانيا تصدر اليوم قائمة بألفين وثلثمئة مدينة مسورة ، وتأسست على التعاقب ممالك الدانمارك والسويد وبولنده المسيحية ، ومد تجار الهانسا ومعهم الفرسان التيوتون مستعمراتهم على امتداد ساحل بحر البلطيق ، حتى خليج فنلندة . ومن خليج فنلنده حتى المحيط الشرقى ، تتخذ الروسيا الآن شكل إمبراطورية قوية ممدنة . ويستقدم المحراث والمنوال والكور إلى ضفاف الفولجا والأوبى واللينا ؛ وعُلِّمت أشد قبائل التتار شراسة كيف ترتعد وتطيع .

كانت إمبراطورية روما راسخة البنيان بسبب تضامن أعضائها الفريد الكامل . ولكن هذا الاتحاد اشترى بضياع الحرية القومية والروح العسكرية ، وكانت الولايات الذليلة وهى خلو من الحياة والحركة ، تتوقع أن تكون سلامتها على يد الجيوش والحكام المرتزقة ، الذين كانوا يأتمرون بأوامر بلاط بعيد الشقة . وكانت سعادة مئة مليون من الأنفس تتوقف على الجدارة الشخصية لرجل أو رجلين ، ربما كانا طفلين ، ممن أفسد عقولهم طراز تربيتهم وترفهم وسلطتهم الاستبدادية . وأوربا اليوم مقسمة إلى اثنتى عشرة مملكة قوية وإن تكن غير متعادلة ، ثلاث منها إمبراطوريات عظمى ، هذا إلى عدد من الدول الصغرى ، وإن كانت مستقلة . فالفرص أمام مواهب الملوك والوزراء تضاعفت ، وذلك على الأقل بقدر تكاثر عدد حكامها . وربما تولى الأحكام فى الشمال جوليان آخر (أى فردريك الأكبر) أو سميراميس أخرى (يعنى كاترين الكبيرة قيصرة الروسيا) ، على حين يغلب النعاس من جهة أخرى على أركاديوس (لويس السادس عشر) ، وهو نوريوس (شارل الثالث ملك أسبانيا) ، الجالسين على عرش آل بوربون . وقد أوقفت مساوئ الطغيان عند حدها نتيجة لما للخوف والخجل من تأثير متبادل ، فاكتسبت الجمهوريات النظام والثبات ، وانطوت الملكيات على مبادئ الحرية ، أو مبادئ القصد والاعتدال على أقل تقدير ، ودخل شىء من معنى الشرف والعدالة لما ساد الزمان من خلق ، إلى أشد الدساتير نقصاً . وفى زمن السلم كان يتزايد تقدم العرفان والصناعة بتنافس مثل هذا العدد الجم من المتبارين الناشطين . وفى زمن الحروب تتمرس القوات الأوربية بنضال معتدل غير حاسم . فلو خرج من صحراء التتار غاز همجى ، فلا بدّ له من أن يكرر قمع فلاحى الروسيا الأشداء ، فجيوش ألمانيا العديدة ، فنبلاء فرنسا الشجعان فرجال بريطانيا الأحرار الجريئى الجنان ؛ الذين لعلهم يحتلفون من أجل دفاعهم المشترك . ولو أن الهمج المظفرين حملوا الاسترقاق والتدمير حتى المحيط الأطلسى ، فإن عشرة آلاف من السفن تنقل بقايا الجماعة المدنة إلى حيث لا تنالها أيديهم ؛ وعند ذلك

تنتعش أوربا مزدهرة فى العالم الأمريكى الملىء من قبل بمستعمراتها ونظمها .

« والبرد والفقر وحياة الخطر والتاعب تخلع على قوة الهمج وشجاعتهم منعة وحصانة . ولقد كانوا فى كل عصر كلا فادحاً على أهل التأدب والسلام من أمم الصين والهند وفارس ، الذين أهملوا وما يزالون يهملون أن يقيموا بين ظهرانيهم قوة توازن تلك القوى الطبيعية بالالتجاء إلى موارد الفن العسكرى . وكانت الدول الحربية النزعة فى الأزمان القديمة أمثال الإغريق ومقدونيا وروما ، تنشىء جنساً من الجنود ، فتمرن أجسامهم ، وتنظم شجاعتهم وتكثر من عددهم بما تحدث فى قواتهم من تطورات منظمة ، وتحول ما فى حوزتها من حديد إلى أسلحة متينة نافعة . ولـكن هذا الاستعلاء انحط بظهور قوانينهم وآداب سلوكهم انحطاطاً غير محسوس . وأدت السياسة الضعيفة التى انتهجها قسطنطين وخلفاؤه إلى تسليح وتعليم شجاعة المرتزقة الهمج الخشنة ، — مما جر الخراب على الإمبراطورية . ولقد غير اختراع البارود الفن العسكرى ، والبارود يطوع للإنسان السيادة على كل من أقوى عوامل الطبيعة شكيمة وهما الهواء والنار . وطبقت الرياضيات والـكيمياء والميكانيكا والعمارة ، واستعملت فى خدمة الحرب ؛ وطبق الخصمان المتضادان أحكم طرائق الهجوم والدفاع . وربما لاحظ بعض المؤرخين فى شىء من الغضب أن نفقة معدات الحصار قد تكفى لتأسيس مستعمرة مزدهرة والمحافظة عليها . ومع ذلك فليس فى مستطاعنا أن نتكدر لأن تخريب مدينة عمل يجب أن يتكلف ثمناً غالياً وصعوبة كبيرة ، أو أن شعباً مجداً يجب أن تحميه فنونه ، التى تبقى بعد فناء وانحلال الفضيلة العسكرية والتى تكون من عوامل ذلك الفناء . وإنما تنهض المدافع والتحصينات اليوم حاجزاً منيعاً فى وجه خيل التتار ، وأوربا الآن بمأمن من أى غارة مستقبلة للهمج ؛ إذ أنه يجب عليهم قبل أن يفتحوا ويقهروا أن يتخلوا عن همجيتهم .

« فإن ساورك الشك فى هذه الآراء ، أو تبينت خطأها ، فما يزال هناك مصدر متواضع للراحة والأمل . فإن مكتشفات الملاحين القدامى والعصريين والتاريخ الداخلى أو التقاليد لأشد الشعوب استنارة تمثل « المتوحش الإنسانى » عاريا فى كل من جسده وعقله ، ومجرداً من القوانين والفنون والفكرات ، بل من اللغة تقريباً . وعن هذه الأحوال الوضيعة ، ولعلها حالة الإنسان البدائية العمومية ، ارتفع الإنسان شيئاً فشيئاً إلى السيطرة على الحيوان وإلى تسميد الأرض ، وإلى اختراق أغوار المحيط ، وإلى قياس أطباق السموات . وكان تقدمه فى تحسين وتدريب مواهبه العقلية والجسمية منوعا غير منتظم ، بطيئاً بطئاً لا نهائيا فى البداية ، متزايد السرعة متضاعفها درجة فدرجة . وكم تلت عصور الرفعة المضنية لحظات انحدار سريع .

وأحست أجواء الكرة الأرضية المختلفة تقلبات النور والظلام . على أن خبرة أربعة آلاف سنة ، يجب أن توسع أفق آمالنا ، وأن تقلل من مخاوفنا . ولسنا بقادرين أن نحدس إلى أى ارتقاع يمكن أن يحلق النوع الإنسانى فى تقدماته نحو الكمال . على أنه من الممكن أن يفكر المرء وهو على جانب الأمنة أن شعبا واحداً — ما لم يتغير وجه الطبيعة ، لن ينتكس إلى حالة همجيته الأصلية .

« فمنذ اكتشاف الفنون لأول مرة بثت الحروب والتجارة والحماسة الدينية بين متوحشى الأزمان القديمة والعالم الجديد ، تلك الهبات التى لا تقدر ، بأن طفقت تنشرها نشراً متعاقبا ؛ وإذن فليس فى الإمكان أبداً أن تزول . ولذا فإنا نستطيع أن نوافق على تلك الخاتمة السارة ، القائلة بأن كل عصر فى العالم قد زاد ، وما يزال يزيد فى الثروة الحقيقة والسعادة والعرفان لدى الجنس البشرى وربما زاد فى فضيلته أيضا » .

١٤ — المدنية الاجتماعية تشارف نهايتها

ومن أمتع مظاهر قصة أوربا هذه فى القرن السابع عشر ومستهل الثامن عشر ، أثناء دور الملكيات العظمى والبرلمانية ، ما نراه من الاستسلام النسبى فى العمال والفلاحين . حتى لقد بدت نيران تمرد القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر خامدة باردة . ذلك بأن بعض التسويات الخشنة الفجة خفضت من حدة الاضطرابات الاقتصادية فى الفترة السابقة . فإن اكتشاف أمريكا كان أحدث ثورة فى مجال الأعمال والصناعة ، وأدخل إلى أوربا قدراً ضخما من المعادن النفيسة لتصنع منها النقود ، وزاد فى العمل ونوّعه . وكفت الحياة والعمل آناً من الزمان عن أن تكون عند جماهير الفقراء شيئاً لا يطاق . ولكن لم يحل هذا بالطبع دون وجود الكثير من الشقاء والتذمر الفردى ، أن كان الناس يعيشون ومعهم على الدوام الفقراء ، بيد أن هذا الشقاء والتذمر كان متناثراً . فأصبح همهمة لا تصل إلى الآذان .

وكان لعوام الناس فى الفترة السابقة فكرة يتبلورون حولها وهى فكرة الشيوعية المسيحية. وكانوا وجدوا فى أمثال ويكليف من القساوسة والعلماء المنشقين قيادة مثقفة . وإذ أن الحركة الداعية إلى نهضة فى المسيحية استنفدت قوتها ، وإذ أن اللوثرية نكصت فى زعامتها عن يسوع الناصرى إلى الأمراء البروتستانت ، فقد نضب معين ذلك التماس والتفاعل الذى تهيأ بين الأذهان الجديدة للطبقة المتعلمة وبين الأذهان الأمية . ومهما يبلغ عدد الطبقة المهيضة

الجانب ، ومهما يبلغ التطرف بشقاوتها فلن يكون فى إمكانها القيام باحتجاج فعال حتى تصل إلى التكتل بواسطة تكوين فكرة عامة تجمع شمل أفرادها . فإن ذوى الفكرات من متعلمى الرجال والنساء ألزم وأشد ضرورة لأية حركة سياسية شعبية منهم إلى أية عملية سياسية أخرى . فإن الملكية تتعلم الحكم عن طريق الحكم ، وإن للأوليجاركية من أى طراز كانت لتعلما تتلقاه من إدارتها الشئون ، ولكن ليس لدى الرجل العامى وأعنى به الفلاح أو الكادح أى تجربة فى الشئون الكبيرة ، فهو لا يستطيع أن يعيش سياسيا بغير خدمات المتعلمين وإخلاصهم وإرشادهم . فالإصلاح الدينى أى الإصلاح الدينى الذى نجح ووفق ، وأعنى به الإصلاح الدينى للأمراء ، قد قضى بتحطيمه للتسهيلات التعليمية على العالم الفقير وطبقة القسوس قضاء كبيراً وهم الذين جعلوا الإصلاح ممكنا بإقناعهم للجمهور .

هذا ولم يفت أمراء الأقطار البروتستنتية أن يدركوا منذ البداية أى عند ما استولوا على الكنائس الوطنية ، ضرورة الاستحواذ على الجامعات أيضاً . وكانت فكرتهم عن التعليم هى فكرة الاستيلاء على شبان مهرة واستخدامهم فى خدمة سادتهم . فأما ما وراء ذلك ، فإنهم كانوا يميلون إلى النظر إلى التعليم نظرتهم إلى شىء ضار . وعلى ذلك لم يبق للفقير إلا وسيلة واحدة هى الاستعانة بنصير يأخذ بيده . وبديهى أن جميع الملكيات العظمى كانت تشجع التعليم بطريقة هى بالمهرجانات أشبه ، هذا إلى إقامة للأكاديميات والجمعيات الملكية ، ولكن هذا لم يفد إلا طبقة صغيرة من العلماء الخاضعين . وكانت الكنيسة كذلك تعلمت ألا تثق فى المتعلم الفقير . كذلك حدث فى الجمهورية العظيمة الأرستقراطية المتوجة فى بريطانيا ، نفس التناقص فى الفرص التعليمية . ويقول هاموند فى بيانه عن القرن الثامن عشر : « إن كلا من الجامعتين القديمتين ، كانت جامعة للأغنياء وهناك فقرة فيما كولى تصف حالة أكسفورد وما كانت عليه من بذخ ، عند مختتم القرن السابع عشر « وعند ما جلس مديرها الدوق أورموند الوقور فى ثيابه الموشاة على عرشه تحت السقف المنقوش فى المسرح الشلدونى[1] ، يحيط به مئات من المتخرجين وكل يلبس ثياب رتبته ، على حين كان يقدم إليه أنبل شبان انجلترا فى دعة ووقار بوصفهم طلاباً لدرجات الشرف العلمية » لقد كانت الجامعة قوة ، لا بالمعنى الذى يمكن أن تقال به تلك الكلمة عن جامعة مثل جامعة باريس القديمة ، التى كان العلم فيها يستطيع أن يجعل البابوات يرتعدون فرقاً ، بل بالمعنى القائل بأن الجامعة

---

(١) المسرح الشلدونى : نسبة إلى جلبرت شلدون رئيس أساقفة كانتربرى فى ١٦٦٣ بناه على نفقته بأكسفورد وقد صممه المهندس رن .

كانت جزءاً من الآلة الأستقراطية المعترف بها . وما كان يصدق عن الجامعات ، كان يصدق عن المدارس العامة . فلم يكن التعليم فى إنجلترا مهد مجتمع ، بل مهد هيئة ؛ وليس مهد دولة ، بل مهد جنس من الحكام الملاك » . وكانت روح الإرساليات الدينية قد فارقت التعليم فى كل أرجاء أوربا . وإلى هذا ، بل وأيضاً إلى تحسن الأمور بانتشار الرخاء ، ينسب طور الاستسلام هذا الذى ران على الطبقات الدنيا . فإنهم فقدوا عقولهم وألسنتهم ، وكان الطعام يقدم إليهم وكفى . وكان المجتمع أشبه شىء بحيوان مسلوب الحيوية فى أيدى الطبقة الحاكمة .

وفضلا عن ذلك فقد دخلت على ما بين الطبقة والطبقة من تناسب تغييرات جسيمة . ومن أشق ما قد يقفوه المؤرخ فى مجتمع ما من أمور ، تقدير القيمة النسبية للأملاك الكلية ، التى تملكها فى أى وقت أية طبقة خاصة فى ذلك المجتمع . فإن هذه الأمور تتفاوت تفاوتا سريعاً جداً . وتدل حروب الفلاحين فى أوربا على دور تركز نسبي للأملاك ، بينما جماهير من الناس تشعر بنفسها مشردة عن أملاكها وفى حالة من السوء مشتركة . وبذلك تتخذ خطة العمل الجمى . كان هذا هو الزمان الذى تسنمت فيه أسرة الفوجرز[1] وأمثالها مراقى الرفعة والرفاهية ، وهو زمان مالية دولية . ويبدو أنه قد صاحب الاستيراد الهائل للذهب والفضة والسلع إلى أوربا من أمريكا ، عودة لحالة ثراء أوسع انتشاراً بين الأفراد وكان الفقراء على حالهم التى هم عليها من الشقاء والتعاسة ، ولكن لعله لم يكن هناك فقراء بمثل العدد الأول نسبياً ، كما أنهم انقسموا إلى أضرب من الطوائف التى لا تجمعها فكرات مشتركة . فأما فى بريطانيا العظمى ، فإن الحياة الزراعية التى نزعها من موضعها وزلزل أركانها ، مصادرات الأملاك إبان الإصلاح الدينى ، قد استقرت من جديد فى نظام من زراعة المستأجرين من دون ملاك للأراضى عظام . وإلى جوار هذه المزارع الكبيرة ، كان ما يزال يوجد أراض كثيرة مشاعة لرعى سائمة القرويين الأفقرين ، كما كان هناك أراض كثيرة تزرع قطعاً على أسس من الملكية المشتركة فأما الرجل المتوسط الحال ، وحتى النوع الأفقر منه من رجال الأرض ، فكانوا يعيشون عيشاً مطاقاً مقبولاً فى (١٧٠٠) . فإن مستوى الحياة وأعنى به فكرة ما قد يطاق من العيش ، كان مع ذلك يرتفع أثناء مستهل عهد الملكية العظمى ؛ وبعد انقضاء آن من الزمان ، تبدو عملية تركز الثروة واتجاهها إلى أعلى وكأنما قد استؤنفت : فإن ملاك الأراضى العظام أخذوا يضعون أيديهم على الأراضى ويطردون

(١) أسرة فوجزر Fuggers : أسرة سوابية من التجار كانت تعيش فى أوجزبرج وبلغ من ثرائها أن كانت تنفق أحياناً على حملات ملوك ألمانيا العسكرية .

الزراع الأحرار الأفقرين زرافات ، وترايدت من جديد نسبة الفقراء ونسبة القوم الذين كانوا يشعرون بأنهم يعيشون حياة من يحل بهم الفقر . وكان أكابر الرجال هم حكام بريطانيا العظمى الذين لا ينازعهم منازع ، فنصبوا أنفسهم لإصدار قوانين — هي قوانين السياجات The Enclosure Acts — وهي التي كادت تفضي إلى مصادرة الأراضي غير المسوجة والأراضي المشاع ، لمصلحة كبار ملاك الأراضي قبل كل إنسان . وانحدر صغار الرجال إلى رتبة الأجراء كاسبي الأجور بعرق الجبين في الأراضي التي كانوا يملكون فيها في أحد الأيام حق الفلاحة والرعي .

ولم يصل الفلاح في فرنسا وأوربا عامة إلى مثل هذه الدرجة من الحرمان من ممتلكاته . فلم يكن عدوه هو صاحب الأرض بل الجابي ، فكان يُدفع إلى أرضه دفعاً بدل أن يدفع إلى خارج أراضيه .

ومع مضي العهد بالقرن الثامن عشر يتضح لنا من أدب ذلك الزمان ، أن معالجة شأن « الفقير » ، عادت فشغلت أذهان الناس ثانية ، فإنا نجد كُتاباً من متوقدي الأذهان بين الإنجليز من أمثال ديفو (١٦٥٩ — ١٧٣١) وفيلدنج (١٧٠٧ — ١٧٥٤) ، يفكرون أعمق التفكير في هذه المسألة . ولكن لم يحدث حتى ذلك الحين أي انتعاش للفكرات الداعية إلى الشيوعية والمساواة الموجودة في المسيحية البدائية ، شأن ما كان عيز أزمان ويكليف وهس Huss . فالبروتستانتية عند تمزيقها للكنيسة العامة ، مزقت ردحاً من الزمان فكرة التماسك العام . وحتى لو صح أن الكنيسة العامة في القرون الوسطى فشلت فشلاً تاماً في تحقيق تلك الفكرة ، فإنها كانت على كل حال رمزها .

وكان ديفو وفيلدنج رجلين أوتيا خيالاً عملياً أشد نشاطاً من خيال جيبون ، فأدركا شيئاً من العمليات الاقتصادية التي كانت قائمة على قدم في زمانهما . وكذلك شأن أوليفر جولد سميث (١٧٢٨ — ٧٤) ؛ فإن قصيدته « القرية المهجورة » ، (١٧٧٠) ليست إلا منشوراً في موضوع السياجات متنكراً في زي قصيدة . ولكن ظروف جيبون لم تظهر قط لناظريه الحقائق الاقتصادية ظهوراً ناصعاً جداً . فإنه كان يرى العالم في صورة كفاح بين الهمجية والمدنية ، على أنه لم يدرك شيئاً من ذلك النزاع الآخر الذي كان (جيبون) يطفو فوقه ، وهو ذلك الكفاح الصامت غير المدرك كفاح عامة الناس ضد الرجال القادرين الأقوياء الأثرياء الأنانيين . فلم يدرك تجمع الضواغط التي أوشكت للفور أن تعصف بكل توازن بين « ممالكه الاثنتي عشرة القوية غير المتعادلة » أعني بين إمبراطورياته المحترمة الثلاث وما حولها

من السفلة والزعانف من أصاغر المستقلين من الأمراء والدوقة الحكام ومن إليهم . وحتى الحروب الأهلية التى ابتدأت فى المستعمرات البريطانية بأمريكا ، لم توقظه إلى إدراك قرب نشوء ما نسميه اليوم « بالديموقراطية » .

وقد يظن القارئ مما ظللنا نقوله حتى الساعة من أن دفع الملاك العظام للمزارع الصغير والفلاح إلى خارج الأراضى ، وأن مجرد اختطاف أرض العموم وتركيز العقار فى أيدى طبقة قوية شرهة ذات امتيازات ، كان كل ما يحدث فى الأراضى الإنجليزية فى القرن الثامن عشر . ولكن الواقع أنا لم نزد على أن ذكرنا أسوأ نواحى التغيير . وفى نفس الوقت الذى كان يحدث فيه هذا التغير فى الملكية ، كان يحدث تقدم عظيم فى الزراعة . وليس هناك إلا القليل من الشك فى أن طرائق الفلاحة التى كان يستعملها الفلاحون الذين يضعون أيديهم على الأرض والمزارعون الصغار ، كانت طرقاً عتيقة بالية مضيعة للجهد وغير منتجة نسبياً ، وأن الملكيات والمزارع الخاصة الكبرى التى خلقتها قوانين السياجات كانت أكثر إنتاجاً بكثير من الطرق القديمة (يقول حجة إنها كانت تنتج عشرين ضعفاً) ، فلربما كان التغير أمراً ضرورياً ، ولم يكن الشر فيه راجعاً إلى حدوثه ، بل إلى أنه حدث لكى يزداد كل من الثروات وأعداد الفقراء . أما منافعه فإن المالك الخاص الأكبر قطع الطريق دونها مختصاً بها نفسه . فتأذى المجتمع وإن استفادت هذه الطبقة الفائدة العظمى .

وهنا نبلغ واحدة من أعظم مشاكل حياتنا فى الزمن الحاضر ، وهى مسألة انحراف ثمار التقدم عن طريقها الطبيعى . فقد انقضت مئتان من السنين — ظهر فيهما بتأثير العلم والبحث بوجه رئيسى ، تحسن متواصل فى طرائق إنتاج كل شئ تقريباً تحتاج إليه الإنسانية . فلو أن إحساسنا بالجماعة وعلمنا الاجتماعى كانا معادلين للواجبات المفروضة عليهما ، فلن يكون هناك أدنى شك فى أن هذه الزيادة الكبيرة فى الإنتاج ، كانت تعود بالنفع على المجتمع بأكمله ، وكانت تتيح لكل فرد قدراً من التعليم ووقت الفراغ والحرية لم تحلم قط الإنسانية بمثله من قبل . ولكن على الرغم من أن مستوى المعيشة العام قد ارتفع ، فإن الارتفاع كان على أساس معيار صغير غير مناسب . إذ أن الأغنياء طوروا لأنفسهم حرية وترفاً لم يعهدها العالم من قبل ، كما تزايدت نسبة الأغنياء والراكدين الخاملين من الناجحين وغير المنتجين فى المجتمع ؛ على أن هذا يخفق فى تعليل النفع الكامل المستفاد . وحدث ثمة كثير من المضيعة التى لا فائدة تجنى من ورائها . فإن مجمعات هائلة من المادة والطاقة قد انصرفت فى الحرب والاستعداد لها . وكرس شيء كثير من الجهد فى سبيل تلك الجهود غير ذات الجدوى ، التى تصرف فى المنافسة

الفاشلة فى الأعمـال . وظلت احتمالات كثيرة بلا تطور ولا تنمية بسبب ما أبداه الملاك ومحتكرو السوق والمضاربون من معارضة لاستغلالها الاقتصادى . ولم تتناول الطبيات التى ظل العلم والتنظيم يقربانها إلى متناول يد الإنسانية — تناولاً منهاجياً[1] ولم تستعمل إلى أقصى حدودها ، ولـكن تخاطفتها الأيدى وتجاذبتها الأصابع — واستمسك بها المغامرون المقامرون واستعملت لغايات أنانية تمت إلى الغرور بسبب . وكان القرن الثامن عشر فى أوربا وبوجه أخص فى بريطانيا العظمى وبولندة عصر الملـكية . وكان القدح المعلى فيه للمسعى الخاص[2] الذى معناه فى الممارسة العملية أن لـكل فرد الحق فى الحصول على كل شىء يستطيعه من أشغال المجتمع . ولسنا نعثر فى الروايات العادية والمسرحيات وما إليها من الأدب الممثل للزمان على أى إحساس بالتزام نحو الدولة فى شئون الأعمـال إذ أن كل إنسان منطلق لتكوين ثروته » ، وليس هناك من يعرف أن من الخطأ أن يظل الإنسان طفيلياً على المجتمع غير منتج ، وأقل من هذا أن يشعر مالى أو تاجر أو صاحب صناعة ، أنه يتناول لقاء خدماته للإنسانية أجراً أكثر ممـا ينبغى . كان ذلك هو جو الزمان الخلق وهؤلاء اللوردة والجنتلمانية الذين كانوا يختطفون أرض الشعب المشاع ، يفترضون امتلاك المناجم التى تحت أراضيهم ، ويحطمون صغار المزارعين الملاك[3] والفلاحين حتى يصلوا إلى مرتبة الأجراء المعدمين ، ولم تكن تخامرهم أية فكرة إلا أنهم إنمـا يعيشون عيشتهم بتمام الجدارة والاستحقاق .

وكان يساير هذا التغير فى بريطانيا ، أعنى هذا الانتقال من فلاحة الرقاع التقليدية والمراعى المشتركة إلى الزراعة الـكبيرة الأكثر اعتماداً على العلم — تغيرات عظيمة جداً فى صناعة السلع . وكانت بريطانيا العظمى فى القرن الثامن عشر زعيمة العالم فى تلك التغيرات . فحتى ذلك الحين وعلى مسار التاريخ أجمع منذ بداية المدنيات ، كانت الصناعات والمبانى والأعمال فى أيدى أرباب الحرف على وجه العموم وفى أيدى صغار المعلمين (الأسطوات) الذين كانوا يشتغلون فى بيوتهم الخاصة . وكانت تنتظمهم نقابات ، وكانوا فى معظم الأمر سادة أنفسهم . فكانوا يكونون طبقة وسطى جوهرية مستديمة . وكان بينهم المولون الذين كانوا يخرجون الأنوال وما إليها ، ويزودون غيرهم بالخامات ، ويأخذون السلعة التى تتم ، على أنهم لم يكونوا

---

(١) منهاجياً Methodically : أى متبعاً للترتيب المنطقى فى البحث العلمى .

(٢) المسعى الخاص Private Enterprise : جهود الأفراد فى التجارة والأعمال الحرة .

(٣) صغار المزارعين الملاك Yeomen : وكانت ملـكيتهم مدى حياتهم فقط أو تتوارث بقيود .

مموّلين كباراً . فلم يكن هناك أصحاب مصانع أغنياء ، بل كان أغنياء العالم قبل ذلك الزمان هم أصحاب الأراضى العظام أو مسلفو النقود أو الممارسون لشئون النقود أو التجار . ولكن حدث فى القرن الثامن عشر أن عمالاً فى صناعات بعينها شرعوا يُجمعون فى مصانع لكى ينتجوا أشياء بمقادير أكبر بطريقة توزيع نظامى للعمل ، وشرع صاحب العمل مميزاً من المعلم (الصانع) فى أن يكون شخصاً ذا أهمية . زد على ذلك أن الاختراع الآلى كان ينتج الآلات التى تسهل عمل الإنتاج اليدوى ، والتى كان فى الإمكان دفعها بقوة الماء ثم للفور بقوة البخار . إذ ركبت فى (١٧٦٥) آلة (وات Watt) البخارية ، وهو تاريخ عظيم الأهمية فى تاريخ الحركة الصناعية .

وكانت صناعة القطن من أوائل الصناعات التى تحولت إلى الإنتاج فى المصانع (وكان ذلك فى الأصل بواسطة آلات تدفعها المياه) . وتلى ذلك صناعة الصوف . وفى نفس الوقت لجأت صناعة صهر الحديد إلى فحم «الكوك» المصنوع من الفحم الحجرى ، وكانت حتى ذلك الحين مقصورة على طرائق صغيرة تستعمل الفحم النباتى ، وابتدأت صناعات الفحم والحديد كذلك فى الانتشار . وانتقلت صناعة الحديد من أرض سسكس Sussex وسَرى Surrey المليئة بالغابات ، إلى مناطق الفحم . ولما وافت (١٨٠٠) كان هذا الانقلاب فى الصناعة قد سار شوطاً طيباً من الإنتاج الصغير بما يصحبه من أصحاب الأعمال الصغار ، إلى الإنتاج الكبير فى كنف أصحاب الأعمال الكبار . فنشأت فى كل مكان مصانع استعملت الماء بادئ بدء ثم ثنّت بقوة البخار . كان ذلك تغيراً ذا أهمية جوهرية فى الاقتصاد الانسانى . ومنذ فجر التاريخ كان صاحب المصنع وصاحب الحرفة كما قلنا ، ضرباً من أهل المدن المتوسطين .

وحلت محل حذقه الآلة وصاحب العمل Employer ، فأما هو فإنه أصبح إما صاحب عمل يستخدم إخوانه ، ويرقى درجات الغنى إلى حد التساوى بالطبقات الغنية الأخرى ، أو ظل صانعاً وانحط سريعاً إلى مستوى العامل فحسب . ويعرف هذا التغير العظيم فى الشئون الإنسانية باسم الثورة الصناعية . ابتدأت فى بريطانيا العظمى وظلت تنتشر طيلة القرن التاسع عشر إلى العالم أجمع .

ومع تقدم الزمن بالثورة الصناعية ، انفتحت هوة عظيمة بين صاحب العمل المستخدم لغيره والعامل المستخدَم الأجير . ففى الماضى كان كل عامل « منتج » يمنى النفس بأن يصبح يوماً معلماً (أسطى) مستقلا . وبلغ الأمر بأصحاب الحرف الأرقاء فى بابل وروما أن كانت تحميهم قوانين كانت تمكنهم من ادخار المال وشراء حريتهم وإقامة عمل لأنفسهم . أما

الآن فقد أصبح المصنع وعُدده وآلاته شيئاً ضخماً باهظ النفقة ، بالقياس إلى قدرة الصانع المالية . وكان لزاما على الأغنياء أن يجتمعوا لينشئوا مشروعا . وكان الائتمان Credit ومعدات المصنع وأعنى بهما « رأس المال » لازمين مطلوبين . وكفت إقامة المرء عملا بنفسه عن أن تكون مطمحاً طبيعيا لمهرة الصناع . ومن ثم أصبح العامل منذ ذلك الحين عاملا من مهده إلى لحده . ونشأ عند ذاك بالإضافة إلى أصحاب الأراضي والتجار والماليين الذين كانوا يمولون الشركات التجارية ويقرضون أموالهم للتجار والدولة ، نشأت عند ذاك هذه الثروة الناجمة من رأس المال الصناعي — وهو ضرب جديد من القوة فى الدولة .

وإنا لمحدثوك عما قليل عن قيام تلك البدايات . وكان الأثر المباشر للثورة الصناعية فيما حلت به من أقطار ، أن أحدثت انتقالا أليما وهزّة عظيمة بين عوامّ السكان الصامتين غير المتعلمين الذين لا زعيم لهم والذين أصبحوا الآن محرومين من الأملاك حرمانا يتزايد أكثر فأكثر . فأما صغار المزارعين — والفلاحين وقد قضى عليهم وأخرجوا من أراضيهم بقوانين السياجات — فإنهم انتقلوا إلى مناطق الصناعة الجديدة ، وهناك انضموا إلى عائلات أصحاب الحرف الذين غلبتهم الفاقة وانحطت مكانتهم فى المصانع . وظهرت فى الوجود مدن كبيرة مكونة من منازل قذرة . وما نخال أن إنسانا لاحظ فى وضوح ، ماذا كان يجرى فى ذلك الزمان . فإن أساس المسعى الخاص أن يلزم كل امرىء شأنه ، وأن يحصل على أقصى ربح فى مستطاعه ، وأن يغفل كل ما عدا ذلك من عواقب . ونمت مصانع قبيحة الشكل ، بنيت بأرخص ما يمكن من نفقة ، لتضم أكبر عدد ممكن من الآلات والعمال . وتجمعت حولها شوارع تحوى منازل العمال ، وقد بنيت بأرخص الأسعار ، دون أى اتساع ودون أى انفصال عن الجيران ، ودون أى مظهر من مظاهر اللياقة تقريبا ، مع تأجيرها للعمال بأقصى إيجار يمكن تحتيمه عليهم . وكانت هذه المراكز الصناعية الجديدة ، بلا مدارس ولا كنائس بادىء الأمر .

وكان الجنتلمان الإنجليزى الذى عاش فى الهزيع الأخير من القرن الثامن عشر يقرأ السفر الثالث من جيبون ، ثم يقبل على نفسه بالتهنئة لأنه لم يعد يوجد منذ ذلك الحين أى خوف خطير من الهمج المتبربرة ، على حين أنه على قيد بضع خطوات من باب منزله كانت هذه الهمجية الجديدة تشب وتنمو ، كما كان هذا التحول ، الذى كان يحيل أبناء وطنه شيئا حالكا معتما لا رجاء فيه ، — يسير بأشد قوة وأقصاها .

الفصل الخامس والثلاثون

الجمهوريات الديمقراطية الجديدة بأمريكا وفرنسا

١ — متاعب نظام الدولة العظمى .
٢ — المستعمرات الثلاث عشرة قبل عصيانها .
٣ — الحرب الأهلية تفرض على المستعمرات فرضا .
٤ — حرب الاستقلال .
٥ — دستور الولايات المتحدة .
٦ — المظاهر البدائية لدستور الولايات المتحدة .
٧ — الفكرات الثورية فى فرنسا .
٨ — ثورة سنة ١٧٨٩ .
٩ — الجمهورية الفرنسية المتوجة ٨٩ — ٩١ .
١٠ — ثورة اليعاقبة .
١١ — جمهورية اليعاقبة ١٧٩٢ — ١٧٩٤ .
١٢ — حكومة الإدارة .
١٣ — توقف التعمير وفجر الاشتراكية العصرية .

١ — متاعب نظام الدولة العظمى

عند ما كان جيبون يهنئ منذ قرن ونصف من الزمان عالم الأناسى المهذبين المتعلمين بأن عصر الكوارث السياسية والاجتماعية قد ولى كان يهمل دلالات كثيرة كنا نستطيع تأدبا منا بحكمة الحقائق الواقعة أن نخبره بأنها تحمل فى طياتها النذر بهزات وتشريدات وتقلقلات أفدح ثقلا من أى شىء توقعه . ولقد أخبرناك كيف أن كفاح أمراء القرنين السادس عشر والسابع عشر من أجل الرفعة والمنافع تطور إلى كفاح أكثر مكرا ودهاء وأشد تعقدا بين وزارات الخارجية ، وهى فى ثياب تنكرية تتشكل شكل الدول العظمى وتتخذ منها مثلا عليا مع تقدم العهد بالقرن الثامن عشر . وتطور فن الدبلوماسية المعقد العريض الدعاوى . وكف (الأمير) عن أن يكون متآمرا مكيافليا يعمل فى السر ، وأصبح مجرد الرمز المتوج لخطة مكيافلية . فانقضت بروسيا والروسيا والنمسا على بولندة واقتسمتها . وتورطت فرنسا فى تدابير عميقة ضد أسبانيا . وخاتلت بريطانيا خطط فرنسا فى أمريكا واستحوذت على كندا ، وتفوقت على فرنسا فى الهند . عند ذلك حدث أمر جلل ، وهو أمر عدته الدبلوماسية الأوربية مزعجا جدا . فإن المستعمرات البريطانية فى أمريكا رفضت رفضا باتا أن يكون لها بعد ذلك أى سهم أو نصيب فى لعبة الدول العظيمة هذه . فإنهم دفعوا بأنهم ليس لهم صوت ولا مصلحة كبيرة فى هذه الخطط والمنازعات الأوربية ، ورفضوا أن يتحملوا أى نصيب من عبء الضرائب التى تجرها تلك السياسات الخارجية . « فالضرائب بلا تمثيل نيابى استبداد وطغيان » تلك كانت فكرتهم المتسلطة عليهم .

وبديهى أن هذا العزم على الانفصال لم يتفجر كاملا سوى الخلق من العقل الأمريكى منذ بداية هذه المتاعب . فقد كان فى أمريكا فى القرن الثامن عشر مثلما كان فى إنجلترا فى القرن السابع عشر ، رضاء تام بل هو فى الواقع رغبة من جانب الرجال العاديين ، فى ترك الشئون الخارجية فى يد الملك ووزرائه . ولكن كانت هناك رغبة تعادل هذه فى القوة من جانب الرجال العاديين أنفسهم هى ألا تقرر عليهم الضرائب ولا يتدخل فى شئون اتجاهاتهم العادية متدخل . فهاتان الرغبتان متعارضتان . فإن الرجال العاديين لايستطيعون أن يتنصلوا من السياسية العالمية وأن يستمتعوا فى نفس الوقت بالحرية الخاصة ، ولكن تعلمهم هذه الحقيقة اقتضاهم أجيالاً لا تقع تحت حصر . وعلى ذلك فإن أول ما ظهر من الدوافع فى العصيان الأمريكى ضد حكومة بريطانيا ، كان مجرد تذمر من الضرائب ، ومن التدخل الذى تبع بالضرورة السياسة الخارجية ، دون أى تمييز واضح لما كان ينطوى عليه ذلك الاعتراض . ولم يحدث إلا عند ما بلغ العصيان التمام ، أن سكان المستعمرات الأمريكية ميزوا حقاً تمييزاً واضحاً أنهم رفضوا وجهة نظر الدولة العظمى فى الحياة . وكان اللسان الذى عبر عن ذلك الرفض هو وصية واشنجتون « بتجنب المحالفات المورطة » . وظلت مستعمرات بريطانيا العظمى المتحدة فى أمريكا الشمالية قرناً كاملا وقد تحررت واستقلت تحت اسم الولايات المتحدة الأمريكية — واقفة بمنأى تامة عن المؤامرات والمنازعات الملطخة بالدماء بين وزارات الخارجية الأوربية . وسرعان ما استطاعوا بعد (١٨٠١ إلى ١٨٢٣) أن يمدوا مبدأهم الانفصالى إلى بقية القارة ، وأن يجعلوا العالم الجديد أجمع محظوراً على أصحاب التوسع والتدبير الأقدمين . وعند ما اضطروا آخر الأمر فى ١٩١٧ أن يدخلوا مجتلد[1] السياسة العالمية ، كانت نتيجة ذلك أن دخلت إلى شبكة العلاقات الدولية ، الروح الجديدة والأغراض الجديدة اللواتى مكنهم ترفعهم من تطورها . على أنهم لم يكونوا مع ذلك أول من ترفع . فمنذ معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) حافظت ولايات سويسرا الاتحادية فى معاقلها الجبلية على حقها فى الانعزال من خطط الملوك والإمبراطوريات .

ولكن لما كانت شعوب أمريكا الشمالية مقدمة الآن على القيام بدور فى تاريخنا تتزايد أهميته ، فإن من الخير أن نقسم لهم من عنايتنا قسماً أوفى قليلاً مما قسمناه لتطورهم حتى الآن . ولقد سبق أن ألقينا نظرة إلى هذه القصة فى القسم العاشر من الفصل السابق . ولسوف نخبرك الآن فى قدر أوفى — وإن تكلمنا مع ذلك فى حدود أبسط المعالم — عما كانت عليه تلك

(١) المجتلد (Arena) : هى حلبة المباراة عند الرومان .

المستعمرات ، التي سبب عنادها تلك المضايقة لملك بريطانيا العظمى ووزرائها في لعبتهم السياسية ضد سائر بني الإنسان .

٢ — المستعمرات الثلاث عشرة قبل عصيانها

يتبين امتداد المستعمرات البريطانية في أمريكا في النصف الأول من القرن الثامن عشر من الخريطة المرافقة . والتظليل الأشد سواداً يمثل المناطق التي سُكنت في ١٧٠٠ ، ويمثل التظليل الأخف نمو المستعمرات (المستقرات) إلى ١٧٦٠ . وسيرى القارئ أن المستعمرات كانت مجرد حافة من السكان على امتداد الساحل ، تمتد إلى الداخل شيئاً فشيئاً وتلقى في جبال ألِّيغني والجبال الزرقاء حاجزاً خطيراً جداً . ومن أقدم هذه المستقرات مستعمرة ڤرجينيا ، التي يخلد اسمها ذكرى الملكة اليزابث ، ملكة انجلترا العذراء . وأول حملة لإنشاء مستعمرة بڤرچينيا قام بها السير والتر رالى في ١٥٨٤ ، ولكن لم يتم بها استقرار مستديم في ذلك الزمان ، وترجع بدايات ڤرچينيا الحقيقية إلى يوم تأسيس الشركة الڤرچينية في ١٦٠٦ ، إبان حكم چيمس الأول (١٦٠٣ — ١٦٢٥) . وإن قصة چون سميث ومؤسسي ڤرچينيا الأوائل وكيف تزوجت الأميرة الهندية پوكاهونتاس من أحد رجاله الأماثل ، لهي قطعة أدبية كلاسيكية هي « رحلات چون سميث . » ولقي الڤرچينيون بوادر النجاح في زراعتهم الطباق . وفي نفس الوقت الذي تأسست فيه الشركة الڤرچينية ، حصلت شركة بليموث على مرسوم بالاستقرار في الأراضي الواقعة إلى الشمال من مضيق « الجزيرة الطويلة » التي ادعى الإنجليز ملكيتها . ولكن لم يكن إلا في ١٦٢٠ أن شرع الناس يستقرون في المناطق الشمالية وذلك بموجب مراسيم جديدة . وكان المستعمرون في المنطقة الشمالية (: نيوانجلند) التي أصبحت كونكتي كت ونيوهمپشير وورود آيلاند وماساشوستس ، رجالا لهم طابع يخالف طابع الڤرچينيين ؛ فإنهم كانوا بروتستانت متذمرين مما أبدت الكنيسة الإنجيلية من موادعة ، وكانوا رجالا ذوي روح جمهورية لا مأمل لديهم في مقاومة ملكية چيمس الأول أو شارل الأول العظمى . وكانت سفينتهم الأولى هي زهرة مايو May Flower التي أنشأ ركابها مدينة نيوبليموث في ١٦٢٠ . وكانت المستعمرة الشمالية المتسلطة هي ماساشوستس . وأدت الفوارق في الطرائق الدينية واختلاف الفكرات عن التسمح إلى تفرقة المستعمرات الثلاث البيوريتانية الأخرى عن ماساشوستس . ومما يوضح المعيار الذي كانت تقوم عليه الأمور في تلك الأيام أن ولاية نيوهمپشير بأجمعها قد ادعى تبعيتها له شخص معين اسمه الكابتن چون ماسون ، وأنه

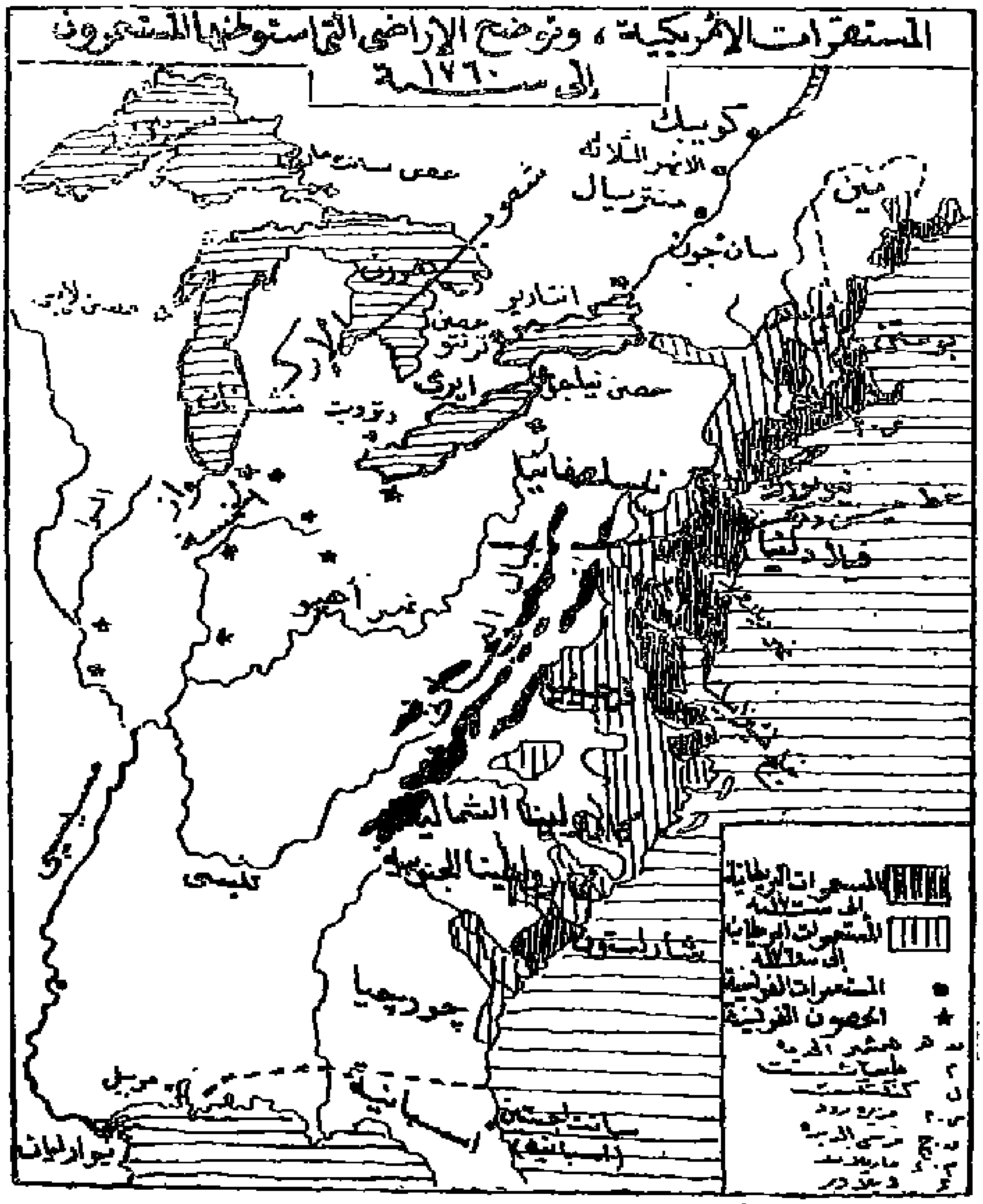

(شكل ١٧٨)

عرض أن يبيعها للملك (وهو الملك شارل الثاني فى ١٦٧١) مقابل استيراده ثلاثمئة طن من النبيذ الفرنسي — معفاة من المكوس الجمركية — وهو عرض رفضه الملك . واشترت ولاية (ماساشوستس) ولاية مين Maine الحالية من مدعى ملكيتها بمبلغ ألف ومئتين وخمسين جنيهاً .

وفى إبان الحرب الأهلية التى انتهت بقطع رأس الملك شارل الأول ، كانت مواطف نيوانجلند منحازة إلى جانب البرلمان ، وكانت ڤرجينيا من أنصار فرسان الملك ؛ ولكن كان يفصل هاتين المستعمرتين[1] مئتان وخمسون ميلا ، ولم يحدث بينهما احتكاك خطير . وصحب

(١) المستقر والمستعمرة : تستعملان هنا بمعنى واحد والمؤلف فى الإنجليزية يستعمل كلتى (Settlement, Colony) ولا تنطويان على معنى الاستعمار الحالى .

عودة الملكية فى ١٦٦٠ تطور قوى فى الاستعمار البريطانى بأمريكا . إذ كان بشارل الثانى ومن حوله من خلطاء شراهة للمال ، ولم يعد بالتاج البريطانى رغبة فى أن يقوم بتجاريب أخرى لفرض الضرائب غير المشروعة فى أرض الوطن . غير أن العلاقات غير المحددة بين المستعمرات وبين التاج والحكومة البريطانية لاح فيهما بوادر الأمل فى قيام مغامرة مالية وراء المحيط الأطلسى . فحدث تطور سريع فى المزارع الواسعة الرقعة وفى مستعمرات الملاك . وكان اللورد بالتيمور أقام قبل ١٦٣٢ مستعمرة لتكون للكاثوليك ملجأ للحرية الدينية تحت الاسم الجذاب مارى لاند ، إلى الشمال وإلى الشرق من فرجينيا . وعندئذ استقر بن السكويكرى (الذى أدى والده لشارل الثانى خدمات جليلة) إلى الشمال من فيلادلفيا وأنشأ مستعمرة بنسلفانيا . وقد حدد تخومها الرئيسية مع مارى لاند وفرجينيا ، رجلان هما ماسون وديكسون ، اللذان قدر لخطهما « خط ماسون وديكسون » أن يكون خطا ذا أهمية فعلية فيما تلى ذلك من شئون الولايات المتحدة . ومن قبل ذلك سقطت فى أيدى الإنجليز كارولينا التى كانت فى الأصل مؤسسة فرنسية بروتستانتية غير ناجحة ، وكانت تدين باسمها لا لشارل الثانى (كارلوس) ملك انجلترا ، بل لشارل التاسع الفرنسى — سقطت فى أيديهم وسكنوها فى جهات متعددة . وكان يمتد بين مارى لاند ونيو انجلند عدد من المستعمرات الصغيرة الهولندية والسويدية ، كانت المدينة الرئيسية فيها هى نيو أمستردام . وقد استولى البريطانيون على هذه المستعمرات من الهولنديين فى ١٦٦٤ ، ثم خسروها مرة ثانية فى ١٦٧٣ ، واستعيدت بالمعاهدة التى أبرم بها الصلح بين هولندا وانجلترا فى ١٦٧٤ . وبهذا غدا الساحل كله من (مين) إلى (كارولينا) ممتلكة بريطانية بطريقة ما أو بأخرى . وكان الأسبان مستقرين إلى الجنوب ، وكان مقرهم الأكبر فى قلعة سانت أوغسطس فى فلوريدا ، وفى ١٧٣٣ سكن مدينة سافانا رجل محب للانسانية هو « أوجلى ثورب » الإنجليزى ، وكان قد مست قلبه الرحمة بالفقراء المسجونين وفاء لدينهم فى انجلترا ، ومن ثم أنقذ من السجن عددا منهم فأصبحوا مؤسسى مستعمرة جديدة ، هى جورجيا التى كان من نصيبها أن أصبحت حصنا منيعا يقف فى وجه الأسبان . ومن ثم نجد هذه المستعمرات ممتدة بإزاء الساحل الأمريكى وهى : مجموعة نيو انجلند البيوريتانية والفئة الحرة البروتستانتية وأعنى بها مين التابعة لماساشوستس ، ونيوهمشير وكونكتى كت ، ورودايلاند ، وماساشوستس ؛ والمجموعة الهولندية المكتسبة التى كانت انقسمت آنذاك إلى نيويورك (وهو الاسم الجديد لمدينة نيو أمستردام) ونيو جرسى وديلاوير (وكانت سويدية قبل أن تصبح هولندية ، وقد ألحقت

فى أبكر أدوارها البريطانيــة بنسلفانيا) ثم جاءت مارى لاند الـكاثوليكية ، وفرچينيا الفرسانية ؛ وكارولينا (التى قسمت للوقت إلى شمالية وجنوبية) ثم چورچيا منشأة أوجلى ثورب . ثم التجأ إلى چورچيا بعد ذلك عدد من البروتستانت التيروليين ، وحدثت هجرة جسيمة لطبقة حسنة من الزراع الألمان إلى بنسلفانيا .

ذلك شأن الأصول المختلطة لمادتى المستعمرات الثلاث عشرة . وكان احتمال حدوث أية وحدة وثيقة فيما بينها فى يوم من الأيام يبدو فى عين أى امرئ غير متحيز يراقب الأمور فى ١٧٦٠ احتمالا ضعيفاً تافهاً جداً . ومما زاد الأمر سوءاً أن أضيف إلى الفوارق الأولى فوارق أخرى خلقها المناخ . فإلى الشمال من خط ماسون ديكسون كانت الزراعة تمارس على أساس القواعد المتبعة فى بريطانيا وأوربا الوسطى على يد زراع أحرار من البيض . واكتست المنطقة المسكونة فى نيو انجلند بثوب مشابه للريف الإنجليزى ؛ فطورت مساحة جسيمة فى بنسلفانيا حقولا ودوراً ريفية تشبه ما فى ألمانيا الجنوبية . وكانت للظروف المميزة فى الشمال آثار هامة من الناحية الاجتماعية . وكان لزاماً على السادة ورجالهم أن يعملوا يداً لـيـد بوصفهم أصحاب غابات خلفية[1] ، فتمت المساواة بينهم أثناء ذلك . أجل إنهم لم يبدأوا العمل متساوين ، فإن كثيراً من الخدم مذكورون فى قائمــة سفينة زهرة مايو ، ولـكنهم سرعان ما أصبحوا متساوين فى ظل ظروف المستعمرات ؛ فـكان هناك — مثلا — متسع عظيم من الأرض يمكن امتلاكه بوضع اليد عليه ، وكان الخادم ينطلق ويأخذ الأرض مثل سـيده . واختفى نظام الطبقات الإنجليزى . ونشأت فى أكناف ظروف هذه المستعمرات « مساواة فى ملـكات كل من الجسم والعقل » ، وظهر استقلال فردى فى الحـكم على الأشياء تأخذه حمية الأنف لأى تدخل من جانب انجلترا . ولـكن ابتدأت زراعة الطباق إلى الجنوب من خط ماسون ودكسون ، وكان المناخ الأدفأ مشجعاً على إنشاء المزارع الضخمة ومناسر العمال . فحاولوا بادئ الرأى استخدام الأسرى من الهنود الحمر ولـكنهم وجدوا بهم ميلا شديداً إلى سفك الدماء البشرية . وأرسل كرومويل أسرى الحرب الإيرلنديين إلى فرچينيا ، وهو أمر كان له أثره البالغ فى استرضاء أفئدة المزارعين الملـكيين على الجمهورية . وكان المحكوم عليهم يرسلون ، وجرت تجارة جسيمة فى الأطفال المخطوفين ، الذين كانوا يرسلون خفية إلى أمريكا لـكى يصبحوا صـبياناً فى صناعة أو عبيداً أرقاء . ولـكن ثبت أن أوفق شكل من أشكال

(١) الغابات الخلفية : أراضى غابات غير مزدرعة تقوم وراء الأرض المزروعة بمنأى من المدن والمستقرات .

مناسر[1] العمال إنما هو منسر العبيد الزنوج . وقد اجتلبت سفينة هولندية أول فوج من الزنوج إلى (جيمس تون) من مدن ڤرچينيا فى زمن مبكر يرجع إلى ١٦٢٠ . ولما وافت ١٧٠٠ كان الأرقاء الزنوج منتشرين فى كل أرجاء الولايات ، بيد أن ڤرچينيا ومارى لاند والكارولينتين كانت مناطق استخدامهم الرئيسية ، وعلى حين كانت المجتمعات فى الشمال مجتمعات من زراع غير كبيرى الثراء وغير كبيرى الفقر ، فإن الجنوب طور طرازاً من المالك الكبير ومجتمعاً أبيض من المشرفين وأرباب الحرف يعيشون على العمال الأرقاء . فكان العمال الأرقاء ضرورة اقتضاها النظام الاجتماعى والاقتصادى الذى نما فى الجنوب ، وكان وجود الأرقاء فى الشمال أمراً لا ضرورة له بل كانت فيه مضايقات من بعض الوجوه . وبالتالى لقيت الاعتراضات المنبعثة عن الضمائر الحية فى موضوع الاسترقاق قسطا من حرية التطور والازدهار فى الجو الشمالى أبلغ وأعظم . ولا بد لنا من عودة إلى هذه المسألة ، مسألة ابتعاث الرق إلى العالم ، عند ما نأخذ فى التأمل فيما تعرضت له الديمقراطية فى أمريكا من ارتباك . فأما هنا فإنا نلحظها فى بساطة بوصفها عاملا إضافياً إلى ذلك الخليط التنافرى المستعمرات البريطانية .

ولكن لئن كان سكان المستعمرات الثلاث عشرة أنواعاً شتى فى أصولهم متخالفين فى عاداتهم واتجاه عواطفهم ، لقد كانوا ينتظمهم جميعاً خصومات ثلاث . فكانت لهم مصلحة مشتركة ضد الهنود الحمر . وتقاسموا ردحاً من الزمان خوفاً مشتركا من الفتح والسيادة الفرنسيين . وكانوا فى الثالثة مشتركين بأجمعهم فى النضال ومدعيات التاج البريطانى والأنانية التجارية للأوليجاركية الجشعة التى كانت تسيطر على البرلمان البريطانى والشئون البريطانية .

فكان الهنود ما طال الزمن بذلك الخطر الأول — شراً مستديماً ولكنه لم يزد قط عن مجرد تهديد ينذر بالنوازل . فإنهم ظلوا منقسمين على أنفسهم . ومع ذلك لقد ظهرت عليهم فى بعض الأحيان احتمالات تبشر بالإمتزاج وتوحيد الجهود على معيار كبير . فإن الشعوب الخمسة فى عصبية القبائل الإيروكوازية (راجع خريطة مستعمرات ١٧٦٠) ، كانت عصبة قبائل هامة جداً . بيد أنها لم تنجح فى حمل الفرنسيين على العمل ضد الإنجليز لكى تضمن لنفسها الأمان ، ولم ينشأ بين مترحلة العالم الجديد هؤلاء چانكيزخان هندى أحمر . وكان العدوان الفرنسى تهديداً أخطر . ولم يقم الفرنسيون أبدا بإنشاء مستعمرات فى أمريكا على معيار ينافس الإنجليزية ، بيد أن حكومتهم اتجهت إلى تطويق المستعمرات وإخضاعها بطريقة منظمة مزعجة . كان الإنجليز فى أمريكا مستعمرين مستوطنين ، وكان الفرنسيون مرتادين ،

(١) مناسر العمال Gang Labour : هى جماعات العمال التى تجمع لأداء عمل ما .

ومغامرين ، ووكلاء تجاريين ومبعوثين دينيين وتجاراً وجنوداً . ولم يرسوا لبنائهم أساساً متيناً إلا فى كندا . وكان رجال السياسة الفرنسيون يكبون على الخرائط ويطلقون لأحلامهم العنان ، وإنك لواجد أحلامهم فى خريطتنا ، وفى سلسلة القلاع المتسللة إلى الجنوب من البحيرات العظيمة وإلى الشمال فى أعلى المسيسبي والأوهايو . وكان الكفاح بين فرنسا وبريطانيا كفاحاً شمل العالم أجمع . وقد فصل فيه فى الهند وفى ألمانيا وعلى صفحة أعالى البحار[1] . وبصلح باريس (١٧٦٣) أعطى الفرنسيون كندا لإنجلترا ، وتركوا لويزيانا لأسبانيا المتقوضة المشلولة اليدين . وكان فى ذلك ترك فرنسا تركاً تاماً لأمريكا . وغادر زوال الخطر الفرنسى المستعمرين أحراراً لايعوقهم عائق عن مواجهة عدوهم الثالث المشترك — وهو تاج أرض موطنهم وحكومتها .

٣ — الحرب الأهلية تفرض على المستعمرات فرضاً

لاحظنا فى الفصل السابق كيف أن الطبقة الحاكمة فى بريطانيا العظمى دأبت على وضع يدها على الأراضى والقضاء على حريات العامة طيلة القرن الثامن عشر ، وعرفنا كيف اجتلب جشعهم وعمايتهم الثورة الصناعية[2] الجديدة . كذلك لاحظنا كيف أن البرلمان البريطانى بسبب انحلال الأساليب التمثيلية فى مجلس العموم ، أصبح فى كل من مجلسيه الأعلى والأدنى مجرد أداة حكم لكبار أصحاب الأراضى . وكان كل من مالكى الأملاك الكبار هؤلاء والتاج ذا مصلحة عميقة فى أمريكا — الأولين منهم بوصفهم مغامرين يحدون مصالحهم الخاصة ، والأخير بوصفه ممثلا لاستغلال ملوك أسرة استيوارت ومضارباتهم من ناحية ، وبوصفه ممثلا للحكومة فى بحثها عن موارد مالية للقيام بنفقات السياسة الخارجية من ناحية أخرى ؛ وما كان أى من اللوردة أو التاج بميال إلى النظر إلى التجار والزراع والعامة سكان المستعمرات بأى تقدير يزيد على نظرهم إلى صغار المزارعين وصغار الزارعين الملاك فى أرض الوطن . فأما فى صميم الأمر فإن مصالح الرجل العامى (العادى) فى كل من بريطانيا العظمى وإرلندة وأمريكا كانت واحدة لا اختلاف بينها . فإن كلا منهم كانت تعتصره نفس الهيئة الحاكمة . ولكن على حين كان العاصر والمعصور فى انجلترا متشابكين تشابكا وثيقاً فى نظام

(١) أعالى البحار : High Seas أجزاء البحار الموجودة فى عرض البحر والتى تقع خارج المياه الإقليمية لأى قطر من الأقطار التى عرضها كما ينص القانون الدولى ثلاثة أميال .

(٢) تسمى تلك النهضة الصناعية باسم الثورة الصناعية أو الانقلاب الصناعى .

اجتماعى وطيد ، فإن التاج وطالبي الاستغلال فى أمريكا كانا بعيدين ، وكان فى مكنة الرجال أن يتحدوا وأن يطوروا فى أنفسهم شعوراً بالجماعة ضد عدوهم المشترك .

هذا إلى أن المستعمر الأمريكى كانت له الميزة الهامة ميزة امتلاكه لسان حال منفصل قانونى لمقاومة الحكومة البريطانية يتمثل فى مجلس مستعمرته أو جمعيتها التشريعية ، التى كانت ضرورية لإدارة الشئون المحلية . ولم يكن للرجل العامى فى انجلترا — وهو المحروم بواسطة ضروب الحيل والخداع من التمثيل الصحيح فى مجلس العموم — أى لسان ناطق عنه وأى مركز للعمل والتعبير عن تذمره .

ولسوف يتضح للقارئ إذ يتذكر تنوع المستعمرات أنه كان يوجد هنا احتمال لسلسلة لا نهاية لها من المنازعات ، والمدوان والتدابير المضادة له . وقصة تطور الانفعالات بين المستعمرات وبين بريطانيا قصة أشد تعقداً وأدق وأطول من أن تحتملها خطة هذه «المعالم .» وحسبك أن المظالم كانت تقع تحت عناوين ثلاثة رئيسية : المحاولات المبذولة لضمان حصول المناصر البريطانى أو الحكومة البريطانية على أرباح استغلال الأراضى الجديدة ؛ والتضييقات المنظمة على التجارة بغية الاحتفاظ بتجارة المستعمرات الخارجية كلها فى أيد بريطانية ، بمعنى أن جميع صادرات المستعمرة لم تكن لترسل إلا بطريق بريطانيا ولم يكن يستعمل فى أمريكا سوى السلع البريطانية . وأخيراً تجيء محاولة فرض الضرائب بواسطة البرلمان البريطانى بوصفه السلطة العليا الفارضة للضرائب فى الإمبراطورية . واضطر المستعمرون الأمريكيون ، تحت ضغط هذا النظام الثلاثى المضايقات — أن يقوموا بقدر جسيم جداً من التفكير السياسى العميق . وشرع رجال من أمثال باتريك هنرى وجيمس أوتس Otis فى مناقشة الفكرات الأساسية فى الحكومات والترابط السياسى على نحو شديد الشبه بمناقشتها فى انجلترا فى الأيام العظام أيام دولة كرومويل الجمهورية . وأخذوا ينكرون كلا من الأصل القدسى للملكية والسياسة العليا للبرلمان البريطانى ، وكان أن قال جيمس أوتس فى ١٧٦٢ أشياء من أمثال :

« خلق الله كل الرجال متساوين تساوياً طبيعياً
والفكرات القائلة بالاستعلاء الإنسانى فكرات تلقينية غير فطرية
وقد خلق الملوك لخير الناس ولم يخلق الناس لهم
وليس لأية حكومة أن تتخذ من رعاياها عبيداً
ومع أن معظم الحكومات تعسفية فى واقع الأمر

وهي بناءً على ذلك لعنة وفضيحة للطبيعة الإنسانية .

فما من واحدة منها تكون تعسفية قانوناً وشرعاً . »

وقد بدأ هذا التخمر في فكرات الأمريكيين السياسية بوساطة خميرة بريطانية . فإن هناك كاتباً إنجليزياً عظيم التأثير هو چون لوك (١٦٤٢ — ١٧٠٤) ، الذي يمكن أن تعد مقالتاه عن الحكومة المدنية ، بمثابة كتاب واحد في مثل هذه الأحوال ، وأن تعتبرا نقطة ارتحال الفكرات الديمقراطية العصرية . كان ابناً لجندي من أتباع كرومويل ، وقد تعلم في (كنيسة المسيح) بأكسفورد إبان عظمة الجمهورية ، وقضى بضع سنوات مبعداً في هولندا ، وتكون كتاباته جسراً يصل بين التفكير السياسي الجرئ في تلك الأيام الجمهورية القديمة وبين الحركة الثورية في كل من أمريكا وفرنسا .

على أن الرجال لا يشرعون في العمل على أساس النظريات . وإنما يحدو الناس إلى العمل على الدوام شعورهم بوجود خطر ما حقيقي أو ضرورة ما عملية . ولن تستقيم للنظريات الأمور إلا بعد أن يتلف العمل العلاقات القديمة وينتج أموراً جديدة محيرة . وعند ذلك يحدث أن توضع هذه النظرية في بوتقة الاختبار . فالخلاف على الصالح والفكرات المشتجر بين المستعمرين دخل في مرحلة قتال لما أبداه البرلمان البريطاني بعد صلح ١٧٦٣ من عنيد التصميم على فرض الضرائب على المستعمرات الأمريكية . وكانت بريطانيا ترتع في بحبوحة السلم وتنهال عليها الرفاهة من كل جانب ، فكانت تلك تبدو فرصة بديعة لتصفية الحساب مع هؤلاء المستعمرين العنيدين . ولكن كبار أصحاب الأملاك البريطانيين وجدوا إلى جوار قوتهم قوة ، تفكر في نفس آرائهم ، وإن اختلفت عنهم قليلا في غاياتها — وهي قوة التاج المنتعش . ذلك بأن الملك چورج الثالث الذي بدأ حكمه في ١٧٦٠ ، أصر على أن يكون في سلطانه ملكا أكثر من سلفيه الألمانيين . وكان يستطيع التكلم بالإنجليزية ، وكان يدعى أنه « مباه بأن يلقب بريطونيا »(١) — والواقع أن هذا ليس اسماً رديئاً لرجل لا تجرى في عروقه نقطة مدركة من الدم الإنجليزي ولا الويلزي ولا الإسكوتلندي . . !! وكان يخيل إليه أن المستعمرات الأمريكية والممتلكات وراء البحار عامة بما لها من مراسيم غير محددة — بل عساها بلا مراسيم أصالة — قد يستطيع التاج فيها أن يدعى السلطان وأن يحصل على الموارد المالية والسلطات التي تنكرها عليه إنكاراً باتاً — الأرستقراطية القوية الغيور في

(١) بريطوني Briton : أي من سكان بريطانيا القدامى .

بريطانيا . فدفع هذا كثيراً من نبلاء (الهويج)[1] أن يعطفوا على المستعمرين عطفاً لم يكونوا ليظهروه فى أية حالة غير هذه . ولم يكن لديهم أى اعتراض على استغلال المستعمرات لصالح صاحب المسعى الخاص البريطانى ، ولكن كانت لديهم اعتراضات قوية جداً على تقوى التاج بذلك الاستغلال تقوياً يجعله على الفور مستقلا مستغنياً عنهم .

وإذن فقد كانت حقيقة الحرب التى نشبت لا حرباً بين بريطانيا والمستعمرين بل كانت حرباً بين الحكومة البريطانية والمستعمرين ، انحاز فيها قسم من نبلاء الهويج وقدر جسيم من الشعور العام فى انجلترا إلى صف الأخيرين . وكانت هناك حركة مبكرة بعد ١٧٦٣ ترمى إلى محاولة جمع الإيرادات لبريطانيا فى المستعمرات بتحتيم دمغ الصحف وأنواع مختلفة من الوثائق . ولقيت هذه الحركة مقاومة عنيدة ، ودخلت الرهبة قلب التاج البريطانى ، وألغيت قوانين الدمغة (١٧٦٦) . وقوبل إلغاؤها بمظاهر فرح فيها شىء من الشغب فى لندن ، وكاد أن يتجلى فيها من السرور القلبى ما لم يتجلّ فى المستعمرات نفسها .

ولكن موضوع قانون الدمغة لم يكن إلا دوامة واحدة فى سيل مضطرب يتدافع فى سبيل حرب أهلية . فكان ممثلو الحكومة البريطانية مستترين وراء عشرات من الحجج فى أعلى الساحل وأسفله — منشغلين بالمطالبة بسلطتهم وإبرازها وجعل الحكومة البريطانية أمراً لا يطاق . وكان إنزال الجنود فى ضيافة المستعمرين أمراً شديد المضايقة لهم . وكانت رود آيلاند ناشطة بوجه خاص فى تحديها لقيود التجارة . فإن سكان رود آيلاند كانوا متجرين أحراراً — أى مهربين ؛ وقد حدث أن سفينة حكومية تسمى جاسپى شحطت على أرض پروڤيدانس ؛ فباغتها واعتلى ظهرها واستولى عليها رجال مسلحون فى زوارق ، ثم ما لبثوا أن أحرقوها . وفى ١٧٧٣ منح البرلمان البريطانى شركة الهند الشرقية ميزات خاصة فى استيراد الشاى إلى أمريكا فى استهانة تامة بنظام تجارة الشاى فى المستعمرات . وصمم المستعمرون معتزمين على رفض هذا الشاى ومقاطعته . ولما أن أظهر مستوردو الشاى فى بوسطن إصراراً على إنزال بضائعهم إلى الشاطئ ، صعد إلى سفن الشاى الثلاث عصبة من الرجال متنكرين فى زى الهنود الحمر ، وألقوا بالشاى فى البحر على ملأ من جمهور عظيم من الناس (١٦ ديسمبر ١٧٧٣) .

وشُغل الطرفان طيلة ١٧٧٤ بجمع الموارد المالية استعداداً للكفاح الوشيك . وكان أن

---

(١) الهويج Whigs : حزب ظهر فى القرن التاسع عشر ممثلا لتجار الطبقة الوسطى مناهضاً لأصحاب الأملاك من حزب التورى (المحافظين) تسمى فيما بعد باسم حزب الأحرار .

قرر البرلمان الإنجليزى فى ربيع ١٧٧٤ معاقبة بوسطن بإغلاق مينائها ، واتجهت النية إلى القضاء على تجارتها ما لم تقبل ذلك الشاى . كان ذلك مثالاً نموذجياً كاملا لذلك الحزم الأحمق الذى يمزق الإمبراطوريات بدداً . ولكى يتم هذا التدبير قسراً احتشدت الجيوش البريطانية فى بوسطن تحت قيادة الجنرال جاج Gage . واتخذ المستعمرون تدابير مضادة لتلك . واجتمع أول (كونجرس)[1] للمستعمرين بمدينة فيلادلفيا فى سبتمبر ، مثلت فيه اثنتا عشرة مستعمرة هى : ماساشوستس ، وكونكتى كت ، ونيوهمبشير ، وورود آيلاند ، ونيويورك ، ونيوجرسى وبنسلفانيا ، ومارى لاند ، وديلاوير ، وفرجينيا ، وكارولينا الشمالية والجنوبية . ولم تكن جورجيا حاضرة . وأصدر الكونجرس تمشياً مع خير التقاليد الإنجليزية وثيقة أبان فيها موقفه بأن أشهر «إعلان حقوق» . والواقع أن هذا الكونجرس كان حكومة تمرد وعصيان ، ولكن لم تضرب ضربة واحدة حتى ربيع ١٧٧٥ . يوم جاء أول سفك للدماء .

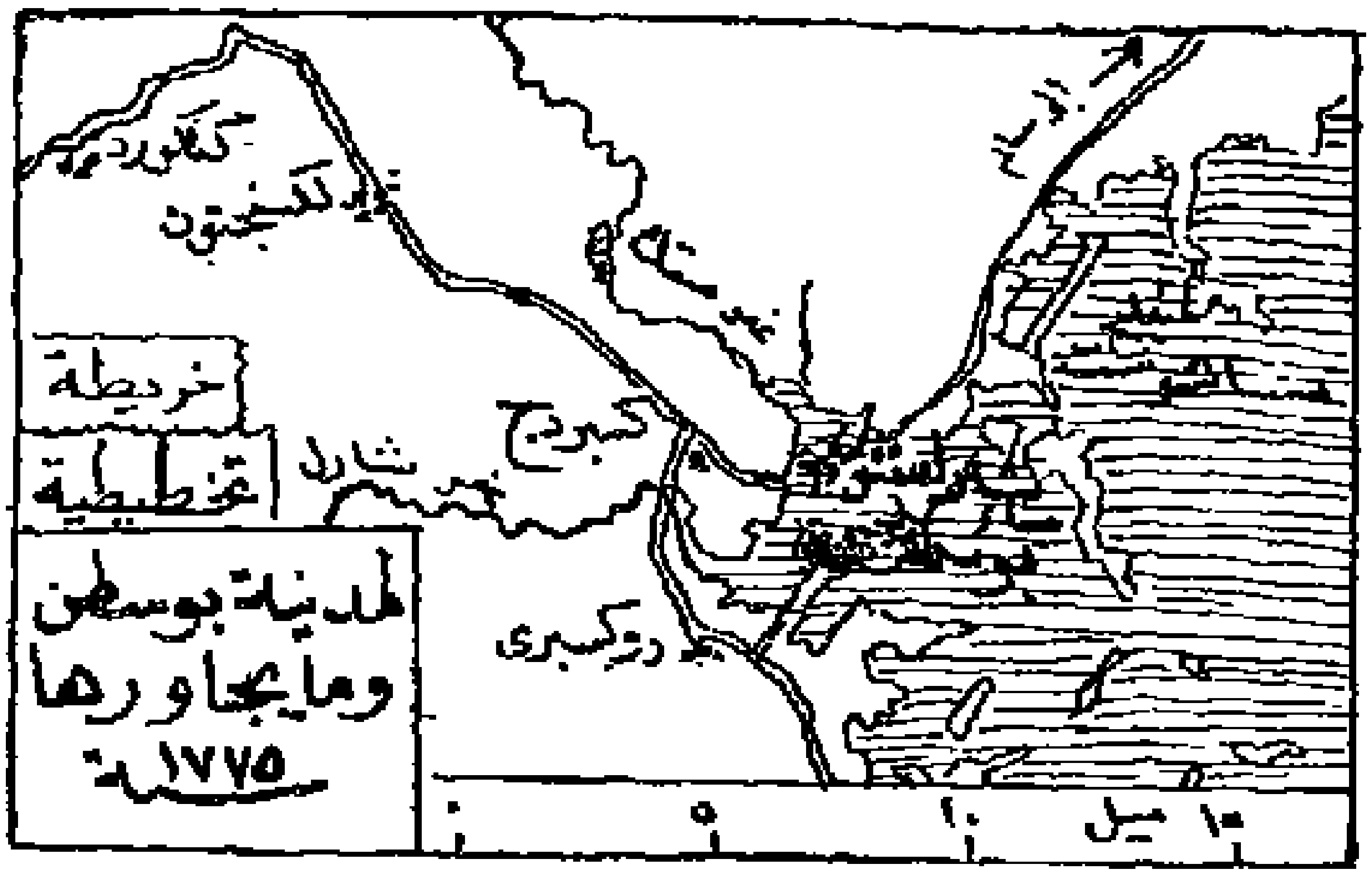

(شكل ١٧٩)

فإن اثنين من الزعماء الأمريكان هما هانكوك وصموئيل آدامز ، قد أشرت الحكومة البريطانية أمام اسميهما توطئة لاعتقالهما ومحاكمتهما بتهمة الخيانة ، وكان معروفاً أنهما فى لكسينجتن ، على مبعدة أحد عشر ميلا تقريباً من بوسطن ، وفى ليل ٨ إبريل ١٧٧٥ أصدر جاج أوامره بمسير قواته لاعتقالهما .

وكانت تلك الليلة من ليالى التاريخ العظيمة الشأن . فإن حركة جيوش جاج لوحظت

(١) الكونجرس : هو الهيئة التشريعية بالولايات المتحدة ويتكون من مجلس نواب (٤٣٥ عضوا موزعين على ولايات الاتحاد بنسبة السكان ومنتخبين لمدة سنتين) ومجلس للشيوخ (٩٦ شيخاً اثنان من كل من الولايات الثمانية والأربعين وينتخبون لمدة ٦ سنوات) . والمجلسان ينتخبان انتخابا مباشراً ويجتمع الكونجرس فى مبنى الكابيتول بواشنطن .

ورفعت مصابيح الإشارة فوق برج كنيسة فى بوسطن وانسل رجلان هما داوز وبول ريفير فى قارب عبر الخليج الخلفى حتى يستطيعا أن يحصلا على جوادين لكى يُحذّرا المنطقة الريفية. كذلك نُقل البريطانيون بالمعدية بطريق البحر، وفيما هم يسيرون تحت جنح الليل إلى لكسينجتن كانت تسبقهم أصوات مدافع الإنذار ورنين أجراس الكنائس. وبينما هم يدخلون لكسينجتن عند الفجر، شاهدوا مجموعة من الرجال مصطفين اصطفافاً عسكرياً. والظاهر أن البريطانيين كانوا البادئين بإطلاق النار. فانطلقت طلقة واحدة ثم سيل من الطلقات، وتراجعت الثلة الصغيرة دون أن تجيب فيما هو واضح على الطلقات تاركة فى ظاهر القرية ثمانية من القتلى وتسعة من الجرحى.

وعند ذلك سار البريطانيون إلى قرية كونكورد، وهى وراء ذلك بعشرة أميال، فاحتلوا القرية وأوقفوا ثلة من الجنود على الكوبرى القائم فى ذلك الموضع. وفشلت الحملة فى هدفها وهو اعتقال هانكوك وآدامز، ويلوح أن القائد البريطانى تحير ماذا يفعل بعد ذلك. وفى نفس الوقت كان مجندو المستعمرين يتقاطرون من كل حدب وصوب وسرعان ماوجد الجاويش المرابط على الكوبرى نفسه غرضاً لنيران متزايدة انتهت بهجوم. وتقرر التقهقر إلى بوسطن. كان تقهقراً أصيبت فيه القوات بكارثة. فإن المنطقة كانت نهضت من خلفهم، وكان المستعمرون آخذين فى التجمع طول الصباح. وكان جانبا الطريق مزدحمين برماة أشداء يطلقون النار من وراء الصخور والسياجات والمبانى، وكثيراً ماحدث أنهم هجموا حتى غدوا على مسافة دانية بلغت مرمى السونكى. وكان الجنود فى ثياب قرمزية وضاحة، ذات واجهات صفراء وتزالك وأربطة رقبة بيضاء؛ ولا بد أن هذه الألوان كانت تبدو وضاحة ساطعة بالقياس إلى الألوان الكابية الحادة فى أخريات ربيع نيوانجلند، كان ذلك اليوم مشرق الضياء حاراً متربا، وكان الرجال قد غلبهم الإعياء من جراء سُراهم طول الليل. وفى كل بضع ياردات يقع منهم رجل إما جريحاً أو قتيلا. على حين يسير الباقون تمالا أو يقفون ليطلقوا وابلا من نار على غير جدوى. وكانت هناك فى لكسينجتن أمداد بريطانية ومدفعان، وبعد استراحة وجيزة تواصل التقهقر فى نظام أحسن. ولكن التعقب استمر حتى النهر، وبعد أن عبره البريطانيون قافلين إلى بوسطن، اتخذ جنود المستعمرين مراكزهم فى كامبردج وأعدوا أهبتهم لحصر المدينة حصراً بحرياً.

٤ — حرب الاستقلال

بذا ابتدأت الحرب . ولم تكن حرباً تبشر بنهاية حاسمة . فلم تكن للمستقرين عاصمة واحدة يخشون عليها عطباً ؛ بل كانوا منتشرين فوق ريف عظيم من خلفه برية لا آخر لها ، ولذا كانت لهم قوة مقاومة عظيمة . وكانوا فى غالب أمرهم تعلموا فن الحرب عن الهنود . فكانوا يستطيعون أن يجيدوا القتال فى نظام مكشوف وأن يشتتوا الجنود ويمزقوهم بحركاتهم . ولكن لم يكن لديهم جيش منظم يستطيع أن يلقى البريطانيين فى معركة عظيمة حاسمة ، ولم يكن لديهم إلا القليل من العتاد الحربى ؛ وكان مجندوهم يُلم بهم نفادُ الصبر إذا طال بالحملة الأمد ، وينزعون إلى العودة إلى مزارعهم . وكان لدى الإنجليز من الناحية الأخرى جيش حسن التدريب ، كما أعارتهم سيادتهم على البحر قوة على نقل هجومهم شمالا وجنوباً فى ذلك الساحل الأطلسى الطويل . وكانوا فى سلام مع العالم أجمع . ولكن الملك كان غبياً شرهاً فى تدخله فى إدارة الأمور ، وكان القواد الذين يؤثرهم إما رجالا أغبياء « أقوياء الشكيمة » أو طائشين من أبناء البيوتات « والطبقة العالية » . ولم يكن فؤاد انجلترا محبذاً لهذا الأمر . لذلك كان جل اعتماده على حصر المستقرين بحرياً والإغارة عليهم ومضايقتهم حتى يخضعوا ، أكثر منه على الفتح والاحتلال النهائى للبلاد . ولكن الوسائل التى استعملت ، وبوجه خاص استخدام الجنود الألمانية المأجورة التى كانت ما تزال تحتفظ بتقاليد حرب الثلاثين القاسية ، والجنود المساعدة الهندية الذين شتتوا سكان المستقرات المنعزلة — لم تضجر الأمريكان من الحرب قدر ما أضجرتهم من البريطانيين . فأما الكونجرس فإنه اجتمع لثانى مرة فى ١٧٧٥ ، وأقرَّ التصرفات التى أتاها مستقرو نيوانجلند ، وعين چورج واشنجتون قائداً عاماً للجيش الأمريكى . وفى ١٧٧٧ بينما الجنرال برجوين يحاول أن ينحدر من كندا على نيويورك ، إذ انهزم عند « مزرعة فريمان » على نهر الهدسون الأعلى ، وأحيط به واضطر إلى التسليم فى ساراتوجا ومعه جيشه كله . وشجعت هذه الكارثة الفرنسيين والأسبان على الدخول إلى الحلبة فى صف المستقرين . وقام الأسطول الفرنسى بالشىء الكثير فى سبيل تقليل ميزة البريطانيين فى البحار . وحصر الجنرال كورنواليس فى شبه جزيرة يوركتون بفرچينيا فى ١٧٨١ ، فسلم بجيشه . وكانت الحكومة البريطانية عند ذاك قد استنزفت مواردها ، إذ كانت ترزح تحت عبء ثقيل من الكفاح مع فرنسا وأسبانيا وأوربا .

ويلوح أن المستقرين عامة كانوا فى البداية من قلة الميل إلى نبذ الملكية والمطالبة

بالاستقلال التام بحيث ماثلوا الهولنديين أثناء الدور الأول من اضطهادات فيليب الثانى وحماقاته . وكان الداعون إلى الانفصال يسمون بالراديكاليين[1] ؛ وكانوا فى معظمهم متطرفى الديموقراطية ، كما قد تقول فى إنجلترا فى أيامنا هذه ، وأدخلت آراؤهم المغالية شيئاً من الخوف قلوب كثير من المستقرين الأكثر رزانة وثراء ، الذين كان لامتيازات الطبقات وفوارقها سحر عظيم فى أعينهم . ولكن إنجليزياً مقتدراً قوى الحجة هو توماس پين Paine نشر فى زمن مبكر من ١٧٧٦ كراسة بفيلادلفيا تحت عنوان « حسن التصرف » ، كان لها أثر هائل فى الرأى العام . كان أسلوبها أسلوباً بيانياً بليغاً إذا قيس بالمعايير المصرية . « إن دماء القتلى وصوت الطبيعة الباكى تصيح ، أن قد حان وقت الافتراق » ، وهلم جرا ... ولكن آثارها كانت بالغة جداً . فإنها حولت عقيدة الآلاف إلى فكرة ضرورة الانفصال . وما كاد انقلاب الرأى يبدأ حتى أخذ يهدر مسرعاً .

ولم يتخذ الكونجرس إلا فى صيف ١٧٧٦ الخطوة التى لا مرد لها بإعلان طلب الانفصال . فإن « إعلان الاستقلال » ، وهو مثال آخر من تلك الوثائق النموذجية التى يعود الفضل فى إنتاجه للبشرية للإنجليز بخاصة ، وقد سطره توماس چفرسون ، وما لبث بعد أن أدخلت عليه إصلاحات وتعديلات متنوعة ، أن جُعل الوثيقة الأساسية للولايات المتحدة الأمريكية . وأدخل تعديلان جديران بالذكر على مسودة چفرسون ، فإنه شنع تشنيعاً عنيفا على تجارة الرقيق ، وأنحى باللائمة على حكومة أرض الوطن بانجلترا على حيلولتها دون محاولات المستقرات إنهاءها . فحذفت هذه الفقرة وكذلك حذفت جملة أخرى عن البريطانيين تقول : « يجب أن نحاول أن ننسى حبنا السابق لهم . . . فقد كنا نستطيع أن نكون جميعاً شعباً حراً عظيما » .

وفى قريب من نهاية (١٧٨٢) وقعت فى باريس البنود الأولية فى المعاهدة التى اعترفت فيها بريطانيا بالاستقلال التام للولايات المتحدة . وأعلن انتهاء الحرب فى ١٩ أبريل (١٧٨٣) ، أى بعد ثمانى سنين بالضبط من انطلاق بول ريڤير بجواده وارتداد رجال جاچ (Gage) من كنكورد إلى بوسطن . ووقعت معاهدة الصلح نهائياً بباريس فى سبتمبر .

---

(١) الراديكاليون : كانت كلمة الراديكاليين تطلق فى انجلترا فى ذلك الزمان على أنصار الديموقراطية والإصلاح البرلمانى .

٥ — دستور الولايات المتحدة

إن الطريقة التى أصبحت بهـا الولايات الثلاث عشرة مستقلة ، كانت من وجهة نظر التاريخ الإنسانى ، أقل شأناً بكثير من استقلالها الفعلى نفسه . وظهر فى العالم بتوطيد استقلالها هذا نوع من المجتمع جديد . وكأنى به شيئاً فقست عنه بيضة . كان حضارة أوربية غربية انفصلت وتحررت من آخر آثار الإمبراطورية والمسيحية ؛ ولم يكن بها أى أثر للملكية ولا دين رسمى للدولة . وما كان بهـا دوقة ولا أمراء ولا كونتات ، ولا أى ضرب من حملة الألقاب المدعين سمـو القدر والرفعة بوصفها حقوقاً . بل إن اتحادها نفسه لم يزد حتى آنذاك عن أن يكون اتحاداً بقصد الدفاع والحرية . فكان من هذه الوجوه بداية نظيفة فى التنظيم السياسى لم ير العالم من قبل لهـا نظيراً . وإن غيبة أية رابطة دينية تربطهم بعضهم إلى بعض لجديرة بالتنويه بوجه خاص . كان بها أكثر من واحد من أشكال المسيحية، ولا مجال للشك فى أن روحها كانت مسيحية . ولـكن الأمر كان كما صرحت بذلك وثيقة رسمية فى (١٧٩٦) تصريحاً لا لبس فيه « إن حكومة الولايات المتحدة ليست بأى حال مؤسسة على الديانة المسيحية »[١] . فإن المجتمع الجديد قد توغل بالفعل والواقع حتى بلغ أصول الجماعة الإنسانية العارية المجردة . وكان يبنى نوعاً جديداً من الجماعة الإنسانية ونوعاً جديداً من الدولة على تلك الأصول .

كان ها هنا ما يقرب من أربعة ملايين من الناس متناثرين فوق منطقة مترامية الأطراف بينها من وسائل الاتصال كل صعب شديد الصعوبة بطىء عظيم البطء ، وهم لمـا يبرحوا فقراء ، وإن كان فى جوفها طاقة تبشر بثروة لا نهاية لها ، وقد نشطوا يعملون فى واقع الحقيقة على معيار ضخم أعمالا إنشائية جليلة مثل تلك التى قام بها بالخيال والنظر الفلاسفة الأثينيون قبل ذلك بالثنين وعشرين قرناً .

وهذا الموقف يشير إلى مرحلة محددة فى فـكاك الإنسان من السابقة والعرف ، وخطوة محددة إلى الأمام تتجه نحو إعادته بناء ظروفه إعادة واعية متعمدة حتى تتلاءم وحاجاته وغاياته . كانت طريقة جديدة أخذت تصبح شيئاً عملياً فى الشئون الإنسانية . فإن دول أوربا العصرية تطورت عما سبقها من أشياء ، نظاماً فى إثر نظام ، وعلى مهل وبلا خطة مرسومة . فأما الولايات المتحدة فإنها خُططت تخطيطاً واصطنعت اصطناعاً .

(١) نقلا عن معاهدة تريبولى — أنظر شانتج السفر الثالث — الفصل الثامن عشر .

ومع ذلك فإن حرية الشعب الجديد الخلاقة ، كانت محددة تحديداً خطيراً جداً من ناحية واحدة . فلم يكن هذا النوع الجديد من الدولة مبنياً على موقع ممهد موطأ . بل إنه لم يبلغ فى صراحة تكوينه الاصطناعى مبلغ بعض المستعمرات الآثينية المتأخرة التى انطلقت عن المدينة

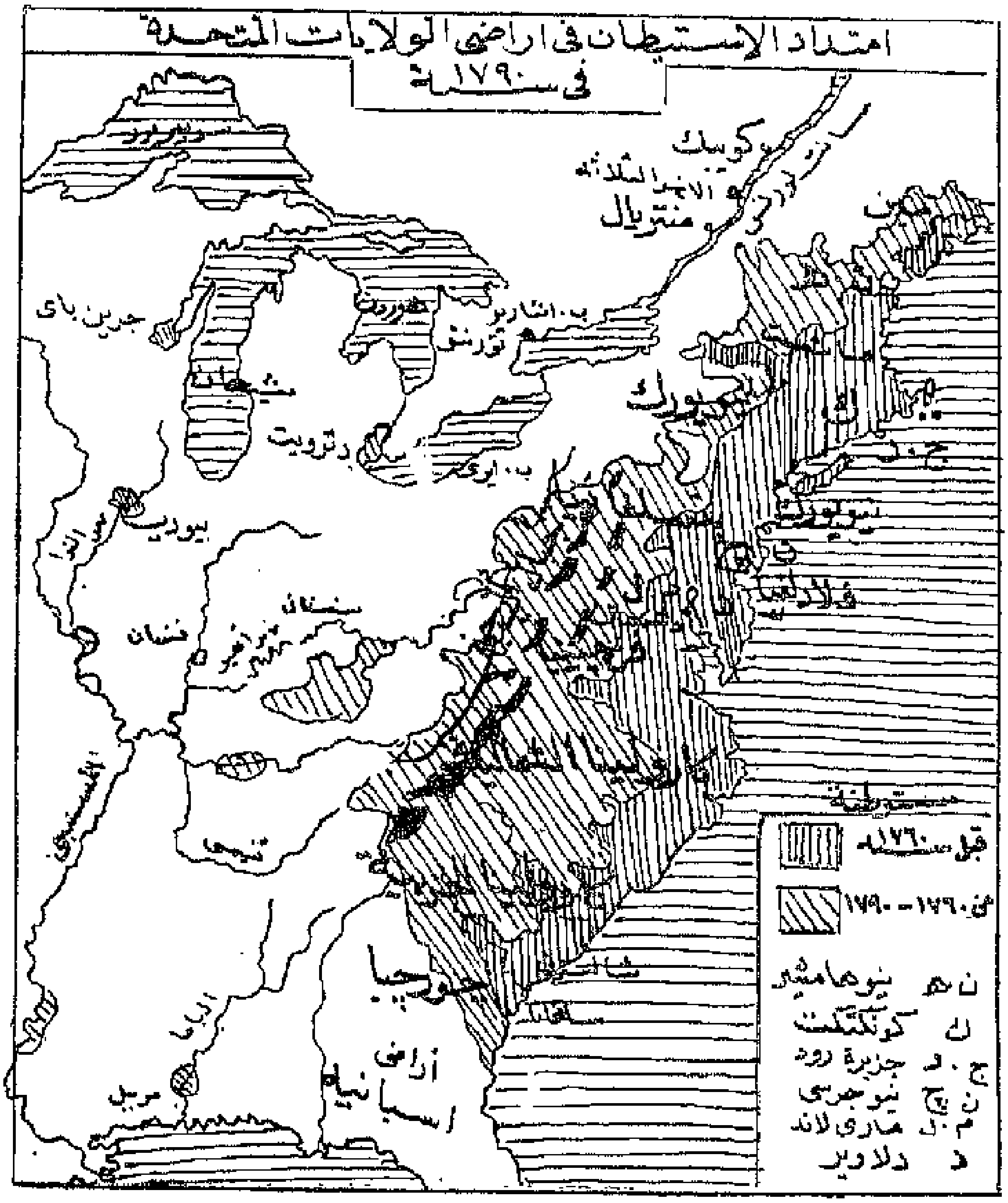

(شكل ١٨٠)

الأم لتخطط وتبنى دول مدن جديدة الطابع ، ذات دساتير جديدة الطابع أيضاً . فكان لكل من المستعمرات الثلاث عشرة فى نهاية الحرب ، دستورها الخاص ، وهو إما مثل دساتير كونكتيكت ، وروڈ أيلاند ، التى يرجع تاريخها إلى أوان مراسيمها الأصلية (١٦٦٢) أو أعيد تكوينه أثناء النضال ، شأن دساتير سائر الولايات ، حيث كان حاكم بريطانى يلعب دوراً عظيماً فى الإدارة . على أنا نستطيع أن نعد أعمال التجديد هذه محاولات ذات فضل عظيم وتجارب فى المجهود الإنشائى العام .

ومن فوق هذا المجهود كانت فكرات معينة تبرز بروزاً واضحاً . وكانت إحداها فكرة المساواة السياسية والاجتماعية . فهذه الفكرة التي رأيناها وهي تولد في العالم بوصفها فكرة متطرفة لا يكاد يصدقها عقل في العصر المحصور بين بوذا ويسوع الناصري ، — قد توكدت الآن في أخريات القرن الثامن عشر بوصفها معياراً عملياً للعلاقات الإنسانية . تقول الفقرة الأساسية في دستور ڤرچينيا : « إن كل الناس خلقوا بالفطرة أحراراً مستقلين » ، ثم هي تمضي في تكرار « حقوقهم » والتوكيد بأن كل المأمورين والمديرين ليسوا إلا « مؤتمنين على المصلحة العامة وخداماً لها » ولكل الناس الحق المتساوي في ممارسة الديانة ممارسة حرة . فأما الملك بحكم الحق ، والأرستقراطي ، « والعبد الطبيعي » ، والملك الرب ، والله ، فقد اختفت كلها من هذه الخطة السياسية — بقدر ما تذهب إليه هذه التصريحات . وقدمت معظم الولايات لنظام الحكم فيها بمقدمات شبيهة بهذه . وقال إعلان الاستقلال إن « كل الرجال قد ولدتهم أمهاتهم سواسية » . وإنك لترى في كل مكان توكيدات مصوغة في عبارات القرن الثامن عشر تقول بأن المجتمع الجديد سوف يكون — ولنستعمل التعبيرات التي أدخلناها في فصل سابق — « مجتمع إرادة وليس مجتمع طاعة » غير أن مفكري ذلك الزمان ، كانت لهم في صوغ عبارة ذلك الموضوع طريقة ، كادت أن تبلغ حد السمج والغلط ، فإنهم تصوروا ضرباً من الاختيار الفردي في المعادنة وقبولها — لم يحدث قط في واقع الأمر — وهو الشيء المتسمى باسم العقد الاجتماعي . ألا ترى إلى الديباجة التمهيدية في ماساشوستس مثلا ، كيف تذكر أن الدولة ترابط اختياري ، « به تعاهد الشعب بأجمعه مع كل ممادن ، وكل ممادن مع الشعب بأجمعه بأن يحكم الجميع بقوانين معينة ترمى إلى الخير المشترك » .

ولسوف يتضح الآن أن معظم هذه البيانات الأساسية ، تحتمل المناقشة ، فليس يولد الرجال سواسية ، وليسوا يولدون أحراراً ؛ بل هم يولدون حشداً أشد ما يكون تنوعاً ، متورطين في شبكة اجتماعية عتيقة معقدة . كذلك ما من رجل يدعى إلى التوقيع على أي عقد ، فإن فاته ذلك هجر العالم ملياً . فلو فسرت هذه البيانات تفسيراً حرفياً ، لبلغت من الزيف والخطأ الظاهر ، حداً يجعل من المستحيل الاعتقاد بأن الناس الذين وضعوها ، كانوا يقصدون منها أن تفسر حرفياً . وإنما هم أنشئوها للتعبير عن فكرات معينة خداعة ولكنها مهمة أعمق الأهمية — وهي فكرات أصبح العالم بعد انقضاء قرن ونصف في التفكير فيها ، في موضع يستطيع فيه أن يعبر عنها أحسن منه آنفاً . والمدنية كما أوضحت هذه « المعالم » نشأت بوصفها مجتمع طاعة ، وكانت بالضرورة مجتمع طاعة . ولكن الكهنة والحكام

أساءوا إلى الروح جيلا بعد جيل . ثم حدث انثيال متواصل من الإرادة القوية منحدراً من الغابات والغياض والسهوب[1] . ذلك أن الروح الإنسانية ثارت فى نهاية الأمر ثورة تامة على الطاعات العمياء فى الحياة المشتركة . كانت تبغى — وكان ذلك بطريقة مبهجة جداً فى بداية الأمر — الحصول على طراز جديد من المدنية أحدث جدة وأحسن صنفا ، يكون فى نفس الوقت مجتمع إرادة . وكان من الضرورى للوصول إلى تلك الغاية أن يُعامل كل إنسان بوصفه سلطاناً على نفسه ؛ وكان لا بد أن يكون مركزه مركز الزمالة لا العبودية . وكانت فائدته الحقيقية وأهميته الحقيقية تعتمد على صفته الفردية . والطريقة التى حاول بها هؤلاء الخالقون لأمريكا السياسية أن يحصلوا على مجتمع الإرادة ذاك ، كانت طريقة مفرطة فى بساطتها وفجاجتها . منحوا الناس شيئاً كان بالنسبة إلى الزمان وبالنظر إلى الأحوال الأمريكية ، حق اقتراع رحيب جداً . وكانت الأحوال تختلف بين ولاية وأخرى ، وكان أوسع حق للاقتراع فى بنسلفانيا ، حيث كان كل دافع ضرائب بالغ ذكر له الحق فى التصويت ، ولكن إذا قورن الحال ببريطانيا ، فإن الولايات المتحدة بأجمعها كانت على مسافة دانية من منح حق التصويت للرجال عند نهاية القرن الثامن عشر . وبذل مؤسسو أمريكا أولئك ، الجهود — وكانت جهوداً جسيمة بالقياس إلى زمانهم طفيفة بالقياس إلى زماننا — للوصول إلى تعليم مشترك واسع الانتشار . فأما إخطار المهادنين بخبر ما يجرى فى داخل بلادهم وفى خارجها فأمر تركوه ، دون أن تخالجهم وخزة ريب — فيما يظهر — إلى الاجتماعات العامة وإلى المطبعة الخاصة .

وقصة دساتير الولايات المختلفة ودستور الولايات المتحدة على وجه العموم ، قصة معقدة جداً ، ولسنا بمستطيعين أن نعالجها هنا إلا كأشد ما تكون المعالجة إجمالاً واقتضاباً . وأجدر الأمور بالذكر من وجهة النظر العصرية هى إغفال النساء بوصفهن مسادنات . وكان المجتمع الأمريكى مجتمعا بسيطاً زراعياً فى كبير أمره ، وكانت معظم النساء متزوجات ؛ فلا غرو إذن أن يمثلهن بعولهن . على أن نيوجرسى سمحت لعدد قليل من النساء أن يصوتن على أساس من المؤهلات العقارية . وهناك أيضاً نقطة أخرى ذات أهمية عظيمة ، هى القرار الذى كاد أن يكون اجماعياً بأن تكون هناك جمعيتان تتوليان الحكم ، وتقر أو تحد كل منهما الأخرى ،

---

(١) الغياض (Parklands) : مصطلح جغرافى معناه الغابات الخفيفة المتباعدة الأشجار . والسهوب (Steppes) : هى السهول الفسيحة الجافة الخالية من الأشجار ومعظمها فى جنوب شرقى أوربا وجنوب غربى آسيا .

على غرار مجلسى اللوردة والعموم فى بريطانيا . وكان لپنسلڤانيا وحدها فقط مجلس تمثيلى واحد ، وكان الناس يشعرون بأن تلك حالة شديدة الخطر مغالية فى ديموقراطيتها . ففيما عدا الدفع الجدلى بأن التشريع يجب أن يكون بطيئاً كما يجب أن يتسم بالتمكن ، فإن من العسير أن يجد المرء أى ضرورة لهذه التنظيمة الثنائية المجالس ، ويلوح أنها كانت تقليداً جديداً لدى مؤسسى الدساتير فى القرن الثامن عشر أكثر منها حاجة ملحة معقولة . فإن التقسيم البريطانى كان تقسيما قديماً : فمجلس اللوردة وهو البرلمان أصلا ، كان جمعية من الكبراء وأعظم زعماء المملكة ، ودخل مجلس العموم فى الأمر بوصفه عاملا جديداً وبوصفه جماعة المنتخبين المتحدثين عن سكان المدن وأصحاب الملكيات الصغيرة . وكان مفروضاً فى شىء من التعجل فى القرن الثامن عشر أن العامة ميالة إلى الاندفاع وراء الدوافع الضارية وأنها محتاجة ولا ريب إلى من يشكمها ، وكان الرأى متجها إلى الأخذ بالديموقراطية على أن تكون ديموقراطية عليها دائماً شكائم(١) قوية سواءاً كانت منطلقة إلى أعلى الجبل أو منحدرة إلى أسفل . وكان يحيط بكل المجالس العليا جو مشبع بفكرة النخبة المنتقاة ، فإنهم كانوا ينتخبون على أساس من الاقتراع أضيق حدوداً . وهذه الفكرة الداعية إلى إنشاء مجلس أعلى يكون معقلا يعتصم به ذوو القيمة من الرجال لا تروق المفكرين العصريين بنفس القوة التى كانت تروق بها أمثالهم فى القرن الثامن عشر ، ولكن فكرة المجلس الثنائى مكوناً على صورة أخرى ماتزال ولها أنصارها . فإنهم يلوحون بأن المجتمع يجوز له ، مع رجوع ذلك بالخير عليه ، أن ينظر شئونه من زاويتى نظر — فإما أن ينظر بواسطة عيون هيئة منتخبة لتمثيل الحرف ، والصناعات والمهن ، والخدمات العامة وما إلى ذلك ، وهى هيئة تمثل الوظيفة ، ثم خلال أعين هيئة ثانية تنتخبها الجهات المحلية لتمثل المجتمعات . فالتصويت على أعضاء الهيئة الأولى يصوت الرجل على أساس مهنته ، وللثانية على أساس الحى الذى يسكنه . وهم يشيرون إلى أن مجلس اللوردة البريطانى إنما هو فى الواقع ممثل للوظيفة ، تمثل فيه الأرض والقانون والكنيسة تمثيلا غير متناسب و لا مراء ، على أن أصحاب الصناعات فيه وأرباب الأموال وأهل الخدمة العامة الكبيرة وذوى الفن والعلوم والطب يجدون مكانهم كذلك ؛ وأن مجلس العموم البريطانى جغرافى بحت فى مراجعه . بل لقد اقترح بعضهم فى بريطانيا أنه يجب أن يكون هناك « نبلاء من العمال » ينتخبون من بين زعماء اتحادات الحرف الصناعية العظيمة . على أن هذه تأملات تخرج عن نطاقنا الحالى .

---

(١) شكائم : فرامل .

وكانت الحكومة المركزية للولايات المتحدة هيئة واهنة القوة جداً بادئ الرأى ، مكونة من كونجرس من ممثلى الولايات الثلاث عشرة ، التى تضمها بعضها إلى بعض عناصر احتلاف[1] بأعيانها . ولم يكن هذا الكونجرس ليزيد كثيراً عن مؤتمر من ممثلين مستقلين ذوى سيادة . إذ لم يكن فى يده مثلا أية هيمنة على التجارة الخارجية فى كل ولاية على حدتها ، ولا كان بالمستطيع أن يسك النقود ويجمع الضرائب بناء على سلطانه هو . وقد حدث عند ما ذهب جون آدامز أول وزير مفوض للولايات المتحدة فى انجلترا لمناقشة معاهدة تجارية مع وزير الخارجية البريطانى أن قوبل بطالب ثلاثة عشر ممثلا ، يمثل كل واحد منهم ولايته المختصة . ثم اضطر أن يعترف بعدم قدرته على اتخاذ إجراءات ترتبط بها بلاده . وعند ذلك شرع البريطانيون يتعاملون مع كل ولاية على حدة متخطين من فوق رأس الكونجرس ، واحتفظوا بملكية عدد من المواضع على الأراضى الأمريكية حول البحيرات العظيمة بسبب عدم مقدرة الكونجرس على الاحتفاظ بتلك الأقاليم احتفاظاً فعالا . وأثبت الكونجرس على نفسه فى مسألة أخرى مستعجلة خطيرة ضعفاً لا يقل عن ضعفه هذا . إذ أنه تمتد إلى الغرب من الولايات الثلاث عشرة أراض لا نهاية لها كان المستقرون يتخذون سبيلهم إليها فى عدد متكاثر . وكانت لكل من الولايات مدعيات غير محصورة للتوسع غرباً . فكان من الواضح لكل رجل نافذ البصيرة أن احتكاك هذه المدعيات مؤد على طول الزمان إلى الحرب ، ما لم تستطع الحكومة المركزية أن تتولى توزيع الأنصبة . وبلغ الضعف بالحكومة المركزية وحاجتها إلى التركز ، حدا أصبحا معه أمراً مزعجاً وخطراً بادياً ، حتى لقد جرت بعض مباحثات سرية ترمى إلى إنشاء ملكية ، وكلف ناثانيال جورهام نائب ماساشوستس ورئيس الكونجرس من يفاتح الأمير هنرى البروسى شقيق فردريك الأكبر فى هذا الصدد . وأخيراً دعى مؤتمر دستورى للاجتماع فى ١٧٨٧ بفيلادلفيا ، وهنالك كون الدستور الحالى للولايات المتحدة على أسسه الإجمالية . وكان قد حدث أثناء السنوات الأخيرة تغير عظيم فى الروح ، إذ فشا فى الناس شعور فسيح بضرورة الاتحاد .

وعند ما كانت مواد دستور الاحتلاف تصاغ ، كان الناس يفكرون فى شعب فرجينيا وشعب ماساشوستس وشعب رود آيلاند وما إلى ذلك ، فأما الآن فتظهر فكرة جديدة ،

---

(١) احتلاف : أطلقنا هذه الكلمة للدلالة على معنى Confederation وهو الاتحاد بين الولايات اتحاداً مفككا تحتفظ فيه كل منها بسماتها والشىء الكثير من استقلالها وذلك تمييزاً من كلمة اتحاد Federation التى تدل على الاتحاد المطلق بين الولايات .

هى « شعب الولايات المتحدة » . والحكومة الجديدة وما تحتوى من رئيس تنفيذى وأعضاء مجلس شيوخ ورجال كونجرس ، والمحكمة العليا ، (التى أنشئت عند ذاك) ، قد أعلن أنها حكومة « شعب الولايات المتحدة » كانت اندماجاً ولم تكن مجرد جمعية . وكانت تقول « نحن الشعب » وليس « نحن الولايات » . كما اشتكى ذلك عرارة (لى الفرجينى) . إذ تقرر أن تكون حكومة اتحادية Federal وليست حكومة احتلافية Confederate .

وأقرت الدستور الجديد ولاية بعد ولاية ، وفى ربيع ١٧٨٨ اجتمع بنيويورك أول كونجرس قام على الأسس الجديدة ، تحت رياسة چورچ واشنجتون ، الذى كان القائد الأعلى الوطنى طوال حرب الاستقلال ، وعند ذلك مر الدستور فى طور من المراجعة جسيم ، وبنيت مدينة واشنجتون على نهر البوتوماك لتكون عاصمة الاتحاد .

٦ — المظاهر البدائية لدستور الولايات المتحدة

فى فصل سابق نعتنا الجمهورية الرومانية ، وخليطها المكون من المظاهر العصرية المشوبة بالخرافات القاتمة والسمة الوحشية البدائية — بأنهـا الصورة النياندرتالية التى تؤذن بالدولة العصرية . وربما جاء وقت يعد فيه الناس مستحدثات الدستور الأمريكى وآلاته العديل السياسى للأدوات والمستحدثات التى كانت للرجل النيوليثى فى العصر الحجرى الحديث . على أنها أدت الغرض المطلوب منها أداء حسناً ، ونمـا أهالى الولايات فى ظل حمايتها حتى أصبحوا من أعظم المجتمعات التى رآها العالم إلى الآن ومن أشدها قوة ومدنية ، على أنه ليس فى ذلك ما يدعو إلى اعتبار الدستور الأمريكى شيئاً أقرب إلى الغاية وأبعد من قبول التغيير من طراز سكك حديد الشوارع التى تعلو كثيراً من طرقات نيويورك العامة ، أو ذلك الطراز الممتاز البسيط من عمارة المنازل الذى ما زال يعم فيلادلفيا . فإن هذه الأشـياء أيضا أدت الغرض منها أداء حسنا ، وفيها عيوبها على أن فى الإمكان إصلاحها وتحسينها . فإن مستحدثاتنا السياسية شأن مستحدثاتنا المنزلية والآلية بالضبط ، لفى حاجة إلى أن يتعاورها التعديل المتواصل مع نمو العرفان والتفهم .

ومنذ أن رسمت خطة الدستور الأمريكى ، تعرضت فكرتنا عن التاريخ ومعرفتنا بسيكولوچيا الجماعة لتطور جسيم جداً . فإنا أخذنا نرى فى معضلة الحكم والحكومة أشياء كثيرة كان رجال القرن الثامن عشر عنها عمهين ، وإذ أنهم كانوا شجعانا شجاعة تتجلى فى نزعتهم الإنشائية بالعلاقة إلى أى تكوين سياسى سابق عليهم ، فإنها قصرت كثيراً عن حد

تلك الجرأة التى تدرك الحاجة إليها فى هذه الأيام ، للوصول إلى حل لهذه المسألة الإنسانية العظيمة ، مسألة إنشاء مجتمع إرادة تمدن . فإنهم سلموا بأشياء كثيرة نعرف اليوم أنها بحاجة أن تكون موضوع أشد الدراسات العلمية تدقيقاً وأن تلق أشد ألوان التقويم والضبط . فإنهم كانوا يظنون أنه من الضرورى فقط أن يقيموا المدارس والكليات ، مع منحها منحة من الأرض للقيام بأودها ، وأنه من الجائز عند ذاك أن تترك وشأنها . ولكن التعليم ليس كلأً ينمو بقوة فى أية تربة ، وإنما هو محصول ضرورى رقيق قد يضوى فى سهولة ويضمحل . وإنا لنعلم فى هذا العصر أن التطور الناقص للجامعات وعدة التعليم يشبه شيئاً من تطور المخ تطوراً ناقصاً غير كامل يعوق نمو الجسم الاجتماعى كله . ومستوى التعليم العادى فى أمريكا مستوى عال إذا قيس بالمعايير الأوربية وبمعيار أية دولة ظهرت حتى الآن ؛ ولكن إذا قيس إلى ما يمكن أن يكون عليه فإن أمريكا تعد دولة غير متعلمة . كذلك أيضاً رأى آباء أمريكا هؤلاء أنه ليس عليهم إلا أن يتركوا الصحافة حرة ، وعند ذلك يعيش كل إنسان على علم ونور . فلم يدركوا أن فى إمكان الصحافة الحرة أن تطور نوعاً من الارتشاء والفساد الدستورى بسبب علاقتها بأصحاب الإعلانات ، وأن فى مستطاع أصحاب الصحف الكبيرة أن يكونوا قراصنة يقتلون كل رأى ومحطمين فاقدى الشعور للبدايات الحسنة . ويجىء فى آخر الأمر أنه لم يكن لمؤسسى أمريكا أى معرفة بتعقيدات التلاعب بالأصوات . فإن علم الانتخابات بأجمعه كان أبعد من أن يتناوله حدسهم ، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن الحاجة إلى الصوت القابل للنقل . لمنع طبخ الانتخابات بواسطة التنظيمات المتخصصة ، وغادرت الطرق الفجة الصلبة التى كانوا يستعملونها — نظامهم السياسى فريسة محققة لآلات الحزب الكبير التى سلبت الديموقراطية الأمريكية نصف حريتها ومعظم روحها السياسية . وأصبحت السياسة حرفة ، وحرفة سافلة جداً ، وانسحب كرام الرجال ومقتدروهم ، بعد الفترة العظيمة الأولى تاركين ميدان السياسة إلى الأعمال ، وانحط روح الشعور بالدولة ، وتحكم داء السعى الخاص فى أمور كثيرة ذات مساس بالشئون المشتركة ، لأن الفساد السياسى جعل السعى الجماعى أمراً مستحيلا .

ومع هذا فإن نقائص النظام السياسى المظيم الذى خلقه أمريكيو الثورة ، لم تظهر على الفوز . فإن تاريخ الولايات المتحدة لبث أجيالا عدة ، تاريخ اتساع سريع وقدر من الحرية ، وسعادة ساذجة وعمل ناشط ، لا نظير لها جميعاً فى تاريخ العالم . وبالرغم من حدوث انحرافات كثيرة نحو عدم المساواة وبالرغم من الكثير من قلة الخبرة والكثير من الأخطاء ، فإن

تاريخ أمريكا مع ذلك فى المئة والخمسين السنة الأخيرة قصة تعادل فى نصاعتها وشرفها قصة أى شعب معاصر آخر .

وقد استطعنا فى هذا البيان الوجز الذى كتبناه عن إنشاء الولايات المتحدة أن نتجاوز قليلا مجرد ذكر لأسماء جماعة العظماء الذين بدءوا هذه البداية الجديدة فى التاريخ الإنسانى . وقد ذكرنا عرضاً أو قل إننا حتى لم نذكر رجالا من أمثال توماس پين وبنيامين فرنكلين وپاتريك هنرى ، وتوماس جفرسون ، وأبناء العم من أسرة آدامز وماديسون ألكسندر هاملتون ، وجورج واشنجتون . ومن العسير على المرء أن يقيس رجال فترة ما من التاريخ برجال فترة أخرى . فإن بعض الكتاب حتى الأمريكيين منهم ليُبدون فى شأن مؤسسى أمريكا هؤلاء ، متأثرين بالبذخ الاصطناعى فى البلاطات الأوربية وبالأعمال المدمرة المليئة بالبهرج والزيف التى قام بها أمثال فردريك أكبر أو كاترين عظيمة — ضربا مما قد يبديه محدثو النعمة من خجلة من شىء مصنوع بالمنزل ، فإنهم يشعرون أن بنيامين فرنكلين إنما يبدو فى بلاط لويس السادس عشر فى شعره الطويل وثيابه البسيطة وخلقه الماكر شخصاً ينقصه الامتياز الأرستقراطى نقصاً محزنا . ولكنهم إن جردوا حتى بدت شخصياتهم لم يكد لويس السادس عشر يبلغ من المواهب ولا من نبل العقل الحد الكافى لجعله وصيفا لفرنكلين . فإذا كانت العظمة الإنسانية أمراً يقوم على العيار والبريق ، فلا شك إذن أن الإسكندر الأكبر يتبوأ من العظمة الإنسانية ذروتها . ولكن هل العظمة هى ذلك الأمر ؟ أليس الرجل العظيم يكاد أن يكون من إذا تولى منصبا عظيما أو تهيأت له فرص عظيمة ، وما تزيد المواهب العظيمة عن أن تكون الفرص العظيمة — خدم الله وخدم إخوانه بقلب ملؤه التواضع ، وإن عدداً جما من أمريكيى الزمن الثورى أولئك ، ليلوح عليهم فعلا أنهم أظهروا الشىء الكثير من الإخلاص والخلو من الأغراض . كانوا لا جرم رجالا محدودين ورجالا يتطرق إليهم الزلل ؛ ولكنهم يبدون فى جلتهم وكأنما كانوا يُعنون بالنفع العام الذى يخلقون أكثر من عنايتهم بأية غاية شخصية أو غرور شخصى . ومن المستحيل علينا ألا نخولهم عظمة ذهنية ممتازة .

حقا إنهم كانوا محدودى المعارف ضيقى أفق النظر إلى الأمور ؛ إذ كان يحددهم عهد زمانهم وقيوده ، كانوا — شأننا جميعا — رجالا ذوى دوافع مختلطة ، قد نشأت فى أذهانهم حوافز طيبة وسرت فى أجسادهم فكرات عظيمة ، ومن الجائز كذلك أن تداخلهم نزغات الغيرة أو الكسل أو العناد أو الشره أو الشر . فلو كان للمرء أن يكتب تاريخا حقيقيا كاملا

مدققا لتكوين الولايات المتحدة ، لوجب أن يكتب في روح من السماحة والجذل كما تُكتب ملهاة فاخرة ترتفع إلى أنبل الغايات . ولسنا نعثر على الروح الإنسانية الجزلة الملتوية المتجلية في القصة الأمريكية ، قدر ما نعثر عليها متجلية ممتازة في شأن تجارة الرقيق . وإذا نحن راعينا مسألة العمال عامة — وجدنا في الرق خير جهد بذلته هذه الروح الجديدة في التاريخ العالمي وأعنى بها الروح الأمريكية .

ابتدأت تجارة الرقيق في وقت مبكر جداً في تاريخ أمريكا الأوربي ، وما من شعب أوربي ذهب إلى أمريكا بريء براءة تامة من ذلك الأمر . ومن الخير أن نلحظ في وقت لما يزل فيه الألماني في أوربا من الناحية المعنوية كالمعاقب بجريرة غيره ، أن السجل الألماني خير السجلات وأنظفها من هذه الوجهة . وتكاد تكون أول الأقوال الصريحة ضد استرقاق الزنوج صادرة من مستعمرين ألمانيين في بنسلفانيا . ولكن المستعمر الألماني كان يشتغل بوساطة عمال أحرار فوق أرض معتدلة المناخ متوغلة شمالاً عن منطقة المزارع الكبرى ، فلم يكن تحت تأثير مغريات خطيرة في هذا الشأن . ابتدأت تجارة الرقيق الأمريكية باسترقاق الهنود لتشغيلهم في مناسر العمال بالمناجم وفوق المزارع الكبرى ، ومن عجب أن يلحظ الإنسان أن الرجل لاس كاساس الذي حض على استيراد الزنوج إلى أمريكا للحصول في العمل محل من تحت حمايته من الهنود المعذبين كان بالفعل رجلا طيباً جداً عطوفاً على الإنسانية . وكانت الحاجة إلى العمال الذين يشتغلون في المزارع الكبرى في جزر الهند الغربية وفي الجنوب حاجة حتمية ملحة . وعند ما ثبت أن الوارد من الأسرى الهنود غير كاف ، شخص المزارعون لا إلى الزنوج فحسب بل إلى السجون وملاجيء الفقراء في أوربا لتزودهم بالعمال الكادحين . ولسوف يعلم قاريء كتاب مُول فلاندرز من تأليف ديفو ، الرأي الذي كان يراه إنجليزي ذكي الفؤاد عند بواكير القرن الثامن عشر في عملية الرقيق الأبيض الفرجينية . على أن الزنجي جاء في وقت مبكر جداً . وسنة ١٦٢٠ التي شهدت الآباء الحجاج ينزلون إلى البر في بليموث بنيوانجلند ، شهدت غليوناً هولندياً يُنزل إلى البر أول شحنة من الزنوج في چيمس تون بفرچينيا . وتبلغ تجارة الزنوج من العمر عمر نيوانجلند ، وكانت نظاماً أمريكياً مضى عليه قبل حرب الاستقلال ما يربو على قرن ونصف من الزمان . وقدر لها أن تواصل حياتها في كفاح استمر الجزء الأكبر من قرن آخر .

على أن ضمائر المفكرين من رجال المستعمرات لم ترتح قط تمام الارتياح إلى هذه النقيصة ، وكانت إحدى التهم التي وجهها توماس چفرسون لتاج بريطانيا العظمى ولوردتها أن كل

محاولة تبذل لتحسين الحال أو الوقوف فى سبيل تجارة الرقيق من جانب المستعمرين كانت تحول دونها مصالح أصحاب الملكيات الكبرى فى أرض الوطن الأم (أى انجلترا) . وفى ١٧٧٦ كتب اللورد دارتموث إن المستعمرين لا يمكن أن يباح لهم « أن يحولوا دون تجارة لها مثل ذلك النفع العميم على الشعب أو يثبطوها » . وجاءت مسألة استرقاق الزنوج مع نشوء التخمر الأخلاق والذهنى إبان الثورة ، إذ قفزت قدما إلى المكان الأول فى الضمير العام . وظهر التباين والتحادّ واضحاً وهاجاً لعين العقل . يقول قانون الحقوق الفرجينى « كل الرجال بطبيعتهم أحرار متساوون » فإذا خرج الإنسان إلى العراء وجد العبد الزنجى يكدح فى ضياء الشمس تحت سوط الراقب ! ! ! .

ومما يشهد بالتغير العظيم فى الفكرات الإنسانية منذ أن انحل النظام الإمبراطورى الرومانى تلقاء الهجوم الهمجى أن أصبح فى الامكان أن يقوم الناس بمثل هذا البحث فى زوايا قلوبهم وحناياها . فإن ظروف الصناعة والإنتاج وحق ملكية الأراضى قد حالت زماناً طويلا دون حدوث انتقاض وعودة إلى استرقاق الناس . ولكن الدورة دارت الآن مرة أخرى ، وكانت هناك مزايا مباشرة هائلة تحصدها الطبقات المالكة والحاكمة من وراء انتعاش ذلك النظام القديم ، فى المناجم والضياع الكبرى والأعمال الكبيرة العامة . ابتعث النظام ولكن فى وجه معارضة عظيمة . وكانت هناك احتجاجات منذ بداية الابتعاث ثم تزايدت الاحتجاجات ونمت . إذ كان الاستحياء مضاداً لضمير البشرية الجديد . وكان النظام الجديد لاسترقاق الناس أسوأ فى بعض مناحيه من أى شىء فى العالم القديم . ومما كان فظيعاً مرعباً بوجه خاص ما كانت تؤججه تلك التجارة من حروب لاصطياد الرقيق ، وما كان يجرى من طراد الإنسان فى أفريقيا الغربية ، ومن قساوات الرحلة الطويلة عبر المحيط الأطلسى . فإن هؤلاء المساكين كانوا يعبأون فى السفن وليس معهم فى غالب الأمر ما يكفيهم من الماء والطعام ودون رعاية صحية واجبة ما ودون أدوية على الاطلاق . حتى لقد كان الكثيرون ممن يستطيعون أن يتسامحوا مع الاسترقاق على أرض الضياع الكبرى يرون تجارة الرقيق شيئاً لا تستطيع أن تسيغه أخلاقهم . وكانت شعوب أوربية ثلاثة مشتغلة بوجه رئيسى بهذا العمل البشع وهى بريطانيا وأسبانيا والبرتغال لأنها كانت أكبر ملاك الأراضى الجديدة فى أمريكا . فأما البراءة النسبية للشعوب الأوربية الأخرى فتنسب فى الغالب إلى ما كان أمامهم من مغريات أقل وأصغر . كانوا مجتمعات مماثلة لتلك فلو أتيحت لها ظروف مماثلة لتصرفت تصرفا مماثلا .

وقد ألم بالنفوس هياج ناشط طوال الجزء الأوسط من القرن الثامن عشر ضد استرقاق

الزنوج فى بريطانيا العظمى وفى الولايات على السواء . وقدر عدد الأرقاء فى انجلترا فى ١٧٧٠ بخمسة عشر ألف عبد ، استجلب أصحابهم معظمهم من جزر الهند الغربية وڤرچينيا . وفى ١٧٧١ وصل النزاع إلى امتحان نهائى فى بريطانيا أمام اللورد مانسفيلد . فإن زنجياً اسمه چيمس سومرست أحضره سيده من ڤرچينيا إلى إنجلترا . ففر ثم قبض عليه وأخذ أخذاً عنيفاً إلى إحدى السفن لكى يعاد إلى ڤرچينيا . فاستخلص من السفينة بحكم نص فى ملتمس الحقوق Habeas Corpus. وأعلن اللورد مانسفيلد أن الرق حالة لا يعرفها القانون الإنجليزى وأنه حالة « بغيضة » ، وعند ذلك خرج سومرست من المحكمة رجلا حراً .

وكان دستور ١٧٨٠ لماساشوستس قد أعلن أن كل « الرجال يولدون أحراراً ومتساوين » . وقام زنجى بعينه اسمه كواكو بوضع هذا النص تحت الاختبار فى ١٧٨٣ ، وفى تلك السنة أصبحت أرض ماساشوستس مثل أرض بريطانيا ، لا تتسمح مع الرق ، فكان مجرد الدخول إليها معناه الانتقال إلى الحرية . ولم تنح هذا النحو فى ذلك الزمان ولاية أخرى . وفى تمداد ١٧٩٠ كانت ماساشوستس وحدها دون سائر الولايات هى الولاية الوحيدة التى لم تسجل وجود عبد ما .

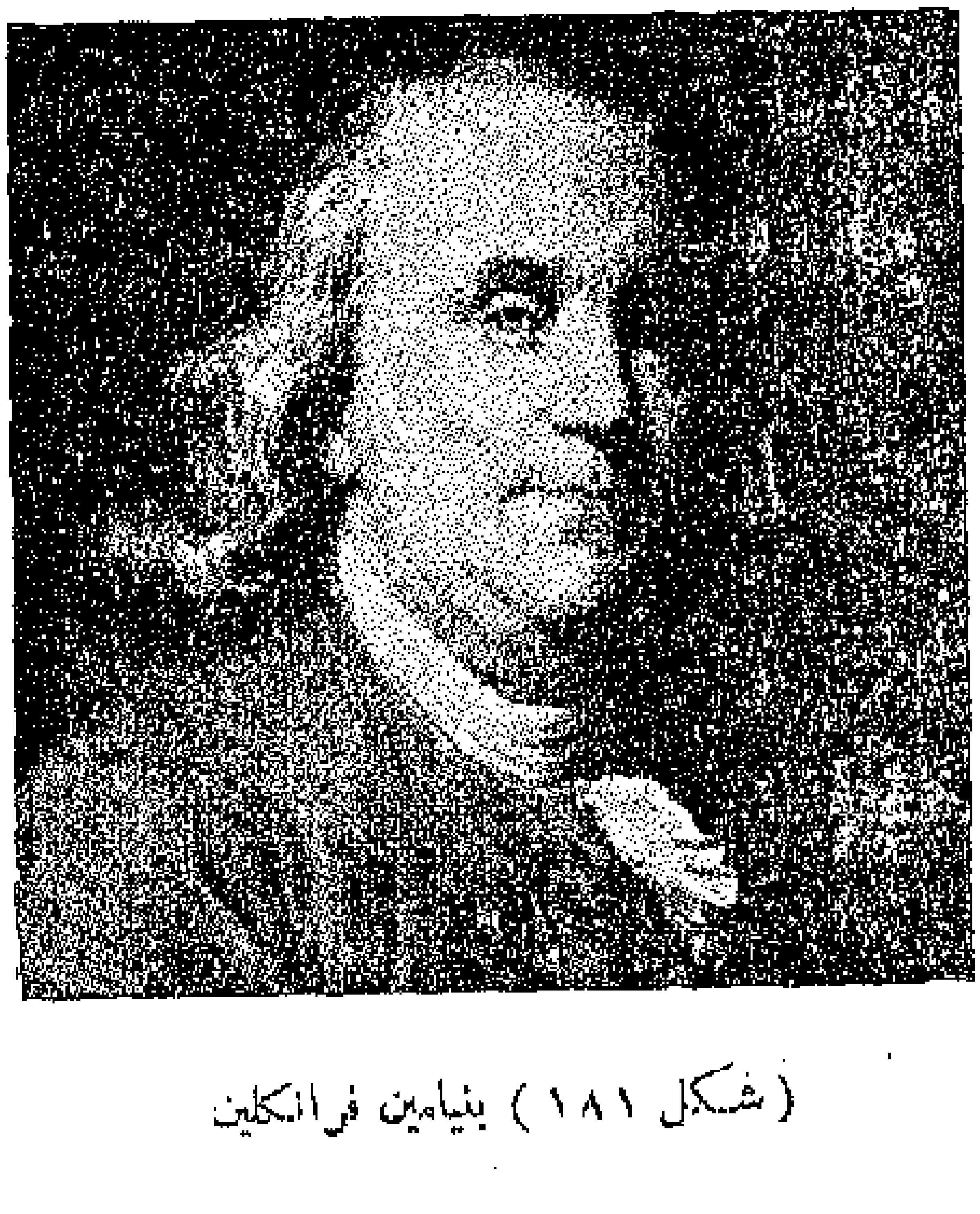

(شكل ١٨١) بنيامين فرانكلين

وآراء الناس فى ڤرچينيا جديرة بالملاحظة ، لأنها تكشف القناع عن الصعوبات الخاصة التى كانت تواجه الولايات الجنوبية . فإن كبار رجال السياسة الڤرچينيين من أمثال واشنجتون وچفرسون كانوا يطعنون فى ذلك النظام ، ومع هذا فإن واشنجتون كان يمتلك العبيد إذ لم يكن هناك أى شكل آخر للخدمة المنزلية . وكان بڤرچينيا حزب قوى يناصر إعتاق الرقيق ، على أنهم طالبوا بأن يغادر العبيد المعتقون الولايات فى مدى سنة من الزمان وإلا اعتبروا خارجين على القانون . وكان من الطبيعى أن ينزعجوا من احتمال وجود مجتمع همجى حر من السود ، الكثير من أفراده مولودون بأفريقيا ومتشبعون بتقاليد آكلة لحم البشر

وشعائر دينية سرية مرعبة — يقوم إلى جوارهم على الأراضى الڤرچينية . فلو أنا تأملنا وجهة النظر هذه استطعنا أن نفهم لماذا حدث أن عدداً كبيراً من الڤرچينيين مال إلى الاحتفاظ

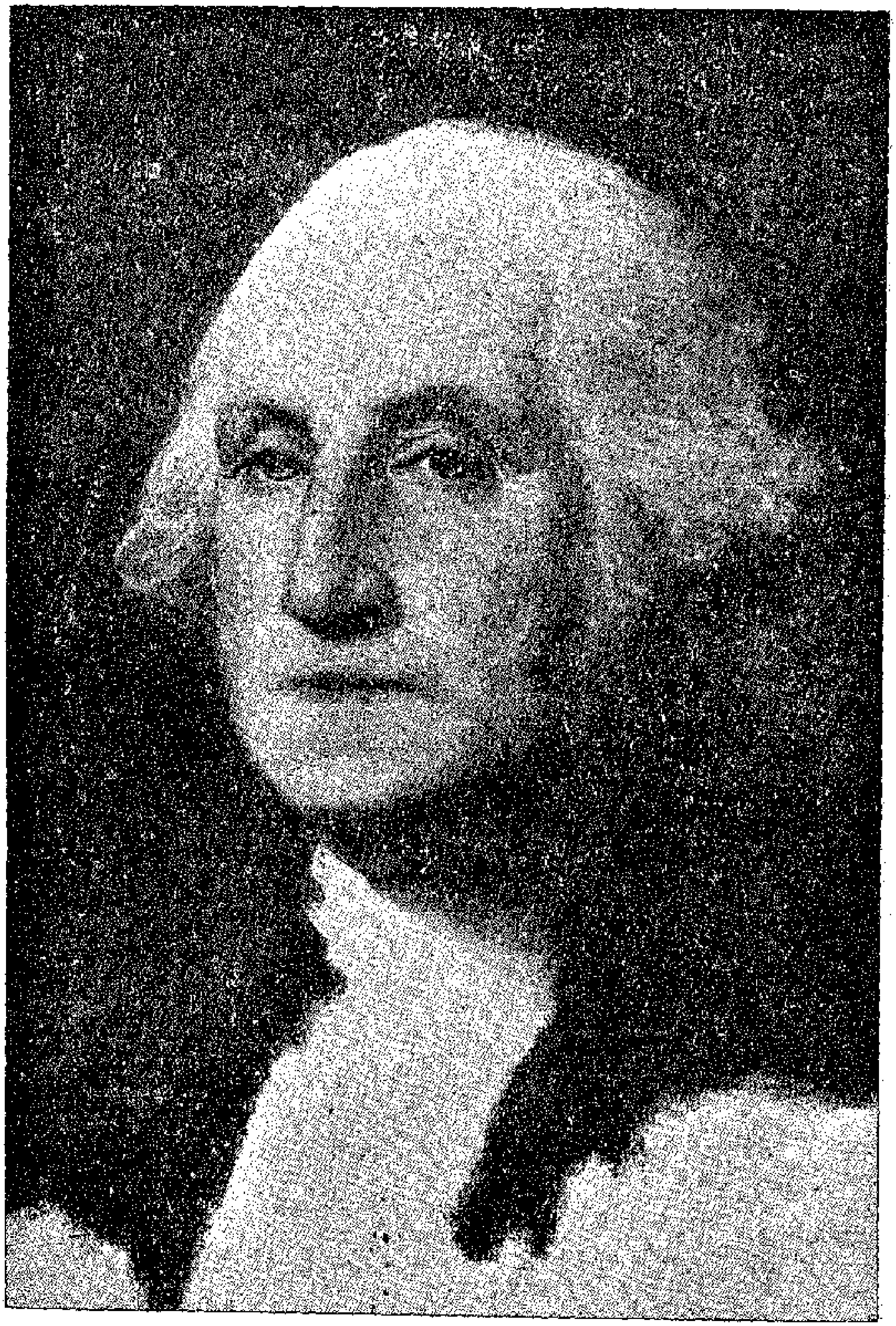

(شكل ١٨٢) جورج واشنطون

بكتلة السود فى البلاد تحت الرقابة بوصفهم عبيداً ، على حين كانوا فى نفس الوقت يمارضون تجارة الرقيق واستيراد أى دم جديد من أفريقيا معارضة مريرة . ومن اليسير على الإنسان أن يدرك أن السود الأحرار قد يصبحون بسهولة شوكة مضايقة ، والواقع أن ولاية ماساشوستس الحرة أغلقت للوقت حدودها فى وجههم .

ومسألة الرق التى لم تكن فى العالم القديم لتزيد على مسألة « حالة » بين أفراد بينهم مماثلة عنصرية[1] ، قد غمرت فى أمريكا مع المسألة المخالفة لها والأشد منها عمقاً مسألة العلاقات بين عنصرين من السلالة الإنسانية على طرفى النقيض كما أنهما على حال من التباين الكامل فى التقاليد والثقافة . فلو أن الرجل الأسود كان أبيض ، فلا مجال للشك فى أن استرقاق الزنوج كان يمتنع من الولايات المتحدة فى مدى جيل واحد من ساعة إعلان الاستقلال بوصفه نتيجة طبيعية للبيانات الواردة فى ذلك الإعلان .

٧ — الفكرات الثورية فى فرنسا

تكلمنا عن حرب استقلال أمريكا ووصفناها بأنها أول انفصال عظيم عن نظام الملوك الأوربيين ووزارات الخارجية الأوربية ، وبأنها رفض مجتمع جديد لصناعة السياسة المكياڤلية بوصفها الصورة المدبرة للشئون الإنسانية . وما انقضت عشر سنوات حتى وافت ثورة ثانية أشد من الأولى إيذاناً بالشر ، ثورة قامت ضد هذه اللعبة العجيبة لعبة الدول العظمى ، وأعنى بل هذا التفاعل المعقد بين البلاطات والسياسات الذى أشربت به عقلية أوربا . على أنه لم يكن فى هذه المرة انفصالا بعيد الشقة . حدثت هذه الفتنة الثانية فى فرنسا ركن الملكية العظمى وموطنها وقلب أوربا ومركزها . وقام الفرنسيون — مترسمين خطى الثورة الانجليزية بقطع رأس ملكهم ، على النقيض من المستعمرين الأمريكيين الذين اكتفوا بمجرد نبذ الملك .

والثورة الفرنسية شأن الثورة البريطانية وشأن الثورة فى الولايات المتحدة ، يمكن تعقبها حتى مصدرها فى سخافات الملكية ومطامعها . فإن خطط التوسع وأغراض الملك الأعظم وتدبيراته ، استلزمت من النفقة على عتاد الحرب فى كل أرجاء أوربا ، ما يتجاوز كل تناسب مع طاقة العصر فى الضرائب . ناهيك بأن ترف الملكية وبذخها كانت تتكلف نفقات هائلة باهظة إذا قيست إلى مقدرة الزمان الإنتاجية . وقد حدث فى فرنسا كما حدث بالضبط فى

(١) عنصرية (Racial) : تقوم على العنصر وتوارثه أو تماثله .

بريطانيا وأمريكا أن لم تكن أولى المقاومات موجهة ضد الملك بوصفه ملكا ولا ضد سياسته الخارجية بوصفها سياسة خارجية ، كذلك لم يميز الناس تمييزاً واضحاً أن أصل الشر ينحصر فى تلك الأمور ، — بل لمجرد ما يتسبب عنها من مضايقات وتكاليف تلم بالحياة الفردية . وطاقة فرنسا الفعلية على دفع الضرائب كانت لا محالة أقل كثيراً نسبياً من طاقة انجلترا بسبب الإعفاءات المتنوعة التى كان يستمتع بها النبلاء ورجال الكنيسة . فكان العبء الملقى إلقاء مباشراً على عاتق عامة الشعب أثقل وأفدح . وهذا الإعفاء جعل الطبقات العليا أعواناً للبلاط ، بدل أن يناصبوا البلاط العداء شأنهم فى انجلترا ، وبذا ساعد على إطالة أمد الخراب ، حتى إذا تناهى الأمر فعلا إلى درجة الانفجار ، كان الانفجار أشد عنفاً وتمزيقاً وتدميراً .

ولم تكن هناك أثناء سنوات حرب الاستقلال الأمريكية إلا أمارات قليلة تؤذن بأن انفجاراً يوشك أن يحدث فى فرنسا . أجل كانت التعاسة متفشية بين الطبقات الدنيا ، وكان النقد نشيطاً والتهكم لذاعاً ، والتفكير المتحرر الصريح وفيراً ، ولكن لم يبد هناك إلا أقل النذر بأن الأمر فى مجمله وبكل ما فيه من عرف وعادات واختلافات مألوفة ، قد لا يستمر فى طريقه زماناً لا آخر له . كان الأمر يتجاوز فيما يتطلب من استهلاك ، حدود قدرتها على الانتاج . ولكن لم يكن هناك حتى ذلك الحين من يحس الوخزة إلا الطبقات التى ليس لها لسان تئن به . وكان المؤرخ جيبون يعرف فرنسا خير المعرفة ، وكان بصيراً بباريس بصره بلندن ، ولكن أحدا لا يستطيع أن يحس منه فى الفقرة التى اقتبسنا خلجة ارتياب تنبىء بأن أياماً من الانحلال السياسى والاجتماعى وشيكة دانية . ولا ريب فى أن العالم كان يزخر بالسخافات والمظالم ، ومع هذا فإنه من وجهة نظر العالم والجنتلمان كان على درجة لا بأس بها من الارتياح كما كان يلوح فى حال لا بأس بها من الطمأنينة .

نعم ظهر فى فرنسا فى ذلك الزمان قدر كبير من التفكير الحر والخطابة الحرة والعاطفة الحرة . وقام فى فرنسا فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، مونتسكيو (١٦٨٩ — ١٧٥٥) ضريبا لجون لوك فى انجلترا وإن تأخر عنه بعض الزمان . فوضع النظم الاجتماعية والسياسية والدينية تحت نفس الفحص والتحليل الجوهرى وبخاصة فى كتابه « روح القوانين » . وكان قد جرد الملكية المطلقة بفرنسا من هيبتها السحرية . وهو يقاسم لوك فضل إزالة كثير من الفكرات الخاطئة التى كانت حتى حينذاك تحول دون المحاولات الواعية المقصودة لإعادة بناء الجماعة الإنسانية . ولئن حدث فى بداية الأمر أن أقيمت فى الأرض البراح المتخلفة عن ذلك الهدم أكواخ هزيلة مفرطة فى الضعف بالغة الغاية فى عدم الاستقرار ، فإن ذلك لم يكن

راجعا إلى خطئه هو . فإن الجيل الذى عقبه فى أواسط القرن الثامن عشر وأخرياته ، كان يفكر تفكيراً جريئا فيما قام به ذهنيا وخلقيا ، من هدم وإزالة . وأقامت جماعة من أذكياء الكتاب هم الموسوعيون — ومعظمهم ذوو أرواح ثائرة ممن تخرجوا فى مدارس اليسوعيين الممتازة — أنفسهم تحت قيادة ديدرو لوضع الخطط لعالم جديد (١٧٦٦) بوساطة مجموعة من المؤلفات . ويقول ماليه (Mallet) ، « إن مجد الموسوعيين ينحصر فى كراهيتهم لكل جور وظلم وفى تشهيرهم بتجارة الرقيق ، وعدم التسوية بين الناس فى الضرائب ، وفساد العدالة ، والدمار الذى تجره الحروب . . . وفيما كانوا يحلمون به من التقدم الاجتماعى ، وما كان يخالجهم من عطف على دولة الصناعة الناهضة التى شرعت تحول العالم تحويلا ، ويلوح أن غلطتهم الرئيسية تنحصر فى مناصبتهم الديانة عداوة عمياء . فإنهم كانوا يعتقدون أن الإنسان عادل بطبعه كفء بسياسته ، على أن دوافعه نحو الخدمة الاجتماعية ونكران الذات لا تتطور فى العادة إلا بطريق تعليم يكون بالضرورة تعليما دينياً ، ولا يدعمه إلا جو من التعاون الشريف . فأما الابتداهات الإنسانية غير المنسقة فإنها لا تؤدى إلى شىء إلا الفوضى الاجتماعية .

وكان يقوم إلى جانب الموسوعيين الاقتصاديون أى الفيزيوقراطيون ، الذين كانوا يقومون بأعمال جريئة فجة فى شئون إنتاج الطعام والبضائع وتوزيعها . وقد شهّر مؤلف « قانون الطبيعة(١) » . بنظام الملكية الخاصة من الناحية الأخلاقية واقترح إنشاء تنظيم شيوعى للمجتمع . كان هو البشير المؤذن بظهور تلك المدرسة الكبيرة المنوعة ، مدرسة المفكرين الجماعيين(٢) فى القرن التاسع عشر وهم الذين يضمهم الناس بعضهم إلى بعض تحت اسم الاشتراكيين .

وكان كل من الموسوعيين ومختلف فرق الاقتصاديين والفيزيوقراطيين يطلبون من تلاميذهم قدراً جسيما من التفكير الشديد العميق . وثمة زعيم ألين معطفاً وأقرب إلى قلوب الناس هو روسو (١٧١٢ — ١٧٧٨) . أظهر مزيجاً عجيباً من الصلابة المنطقية والحماسة العاطفية . وكان ينشر بالمبدأ الجذاب القائل بأن حالة الإنسان البدائية كانت حالة فضيلة وسعادة ، انحدر عنها بواسطة نشاط القساوسة والملوك والمحامين ومن إليهم نشاطاً لا يكاد يبدو له سبب يفسره . وكان تأثير روسو الذهنى تأثيراً مفسداً للأخلاق على وجه العموم . إذ كان يصيب بضرباته لا البناء الاجتماعى القائم بل يمس كل تنظيمة اجتماعية . ويلوح أنه حين كتب كتابه « العقد الاجتماعى » ، كان يلتمس المعاذير لنكث العهود أكثر من توكيده ضرورتها . والإنسان يبعد

(١) قانون الطبيعة Code de la Nature . (٢) الجماعيون : المشديون : Collectivists .

من الكمال بعداً يجعل الكاتب الذى ناصر مناصرة ظاهرة الموضوع القائل بأن الميل الذى يكاد يكون عاماً فينا جميعا ، والذى نحن مضطرون أن نحصن أنفسنا متقين له ، ذلك الميل الذى يدعونا إلى إنكار ديوننا وإلى سوء السلوك من الناحية الجنسية والتهرب من عناء ونفقات التعليم المفروض علينا وعلى الآخرين ، ليس على ذلك إثما وتقصيراً ، بل هو مظهر بديع للفضيلة الطبيعية ، — كاتبا قدر له أن يكون له عدد كبير من الأنصار فى كل طبقة استطاعت قراءته . وقد قامت بدعة روسو الهائلة بالشىء الكثير فى سبيل أن تنشر بين الشعب طريقة عاطفية حماسية فى معالجة المسائل الاجتماعية والسياسية .

ولقد لاحظنا قبل الآن أنه لم يحدث أن مجتمعاً إنسانياً واحداً بدأ يوما أن يعمل على أساس نظرى . فلا بد من أن يكون هناك قبل كل شىء انهيار ما وحاجة إلى التوجيه تسمح للنظريات بأن تتبوأ مكانها . ولا بد أن كتابات وأحاديث المفكرين الفرنسيين الجمهورية والفوضوية كانت حتى ١٧٨٨ تلوح أمورا لا تأثير لها ولا قيمة من الناحية السياسية شأن اشتراكية وليم موريس الجمالية (الإسطيقية) فى انجلترا فى نهاية القرن التاسع عشر . فهناك كان النظام الاجتماعى والسياسى يسير فى طريقه وعليه سيما الإصرار الذى لا سبيل إلى قهره ، فكان الملك الفرنسى يخرج للقنص أو يصلح ساعاته ، وكان البلاط وعالم الطبقة الراقية يواصلان ملذاتهما ، وكان الماليون لا ينون عن تدبير وسائل التوسع لشروعاتهم فى الائتمان ، وكانت الأعمال تتردى فى الخطأ وهى تسير فى سماجة على طول طريقها القديم البالى ، تبهظها الضرائب والمكوس ، وكان الفلاحون يحملون الهموم ويكدحون ويقاسون الويلات ، ويسيرون عامرى القلوب بكراهية المستيئس لقصر النبيل . وكان الرجال يتكلمون ويحسون أنهم يتكلمون ليس غير . وكان فى الإمكان أن يقال أى شىء إذ كان يبدو أن لن يحدث أى شىء .

٨ — ثورة سنة ١٧٨٩

وجاءت أول رجة أصابت هذا الاستمرار المطمئن للحياة فى فرنسا فى ١٧٨٧ . فإن لويس السادس عشر (١٧٧٤ — ١٧٩٣) كان ملكا غبياً سىء التعليم ، وكان من سوء طالعه أنه تزوج من امرأة حمقاء مبذرة ، هى مارى أنطوانيت شقيقة إمبراطور النمسا . ومسألة اتصافها بالفضيلة مسألة شائقة جداً لدى طراز معين من كتاب التاريخ ، على أنا فى غير حاجة إلى مناقشتها فى هذا المكان . فكانت تعيش جنباً إلى جنب مع زوجها لا فى كنفه ، إذ كانت هى فى واد وهو فى واد كما عبر عن ذلك بول ويريك فى الموسوعة البريطانية فى مادة

«فرنسا» . وهى تكاد تكون غليظة القسمات ، ولكن وجهها لم يكن عادياً إلى حد يمنع أن تتخذ وضع الملكة الجميلة الرومانسية المختالة . فلما أن استنفدت موارد وزارة المالية فى الحرب فى أمريكا ، وعند ما كانت البلاد بأسرها تتقلب على جمر التذمر والقلق ، نصبت كل سلطانها لغل أيدى وزراء الملك عن أية محاولة للاقتصاد ، ولتشجيع كل نوع من أنواع السرف الأرستقراطى ، ولإعادة الكنيسة والنبلاء إلى المركز الذى كانوا يتبوأونه فى الأيام العظيمة أيام لويس الرابع عشر . وكان لزاماً عليهم أن يخلعوا من الجيش الضباط غير الأرستقراطيين ؛ وأن يبسطوا من قوة الكنيسة على الحياة الخاصة . ووجدت فى موظف من الطبقة العليا هو كالونى المثل الأعلى لوزير ماليتها . ومنذ ١٧٨٣ إلى ١٧٨٧ كان هذا الرجل العجيب ينتج النقود بطريقة تشبه السحر ثم تختفى هذه النقود ثانية بطريقة تشبه السحر أيضاً . ثم انهار فى ١٧٨٧ . وكان قد طبق القرض فوق القرض ، وعند ذلك أعلن أن الملكية ، أى الملكية العظيمة التى حكمت فرنسا منذ أيام لويس الرابع عشر قد أفلست . ولم يعد فى الطوق جمع أى نقود جديدة . ولا بد من عقد جمعية من ذوى الرأى والمكانة فى المملكة للنظر فى الموقف .

وقدم كالونى إلى اجتماع ذوى المكانة — وهو جمعية مدعوة من الزعماء — مشروعا بأخذ ضريبة مالية على كل عقار من الأرض . فأثار ذلك الأرستقراطيين إلى درجة من الغضب عظيمة . فطالبوا بدعوة هيئة تعادل على وجه التقريب البرلمان الانجليزى — وهى مجلس الطبقات States General الذى لم يجتمع منذ ١٦١٤ . وأصر ذوو المكانة الفرنسيون على طلبهم غير مبالين باللسان الناطق الذى كانوا بتصرفهم هذا ينشئونه للتعبير عما يخالج من دونهم من تذمر ، لايحفزهم على ذلك إلا الاقتراح القائل بأنهم يجب أن يتحملوا نصيبا من أثقال البلاد المالية . ومن ثم اجتمع مجلس الطبقات فى مايو ١٧٨٩ .

وكانت جمعية تضم ممثلى هيئات ثلاث ، هى النبلاء ورجال الدين والطبقة الثالثة أى العامة . وكان حق التصويت للطبقة الثالثة متسعا جداً إذ كاد أن يكون لكل دافع ضرائب بلغ الخامسة والعشرين صوت . (وكان قساوسة الأبروشيات يعطون أصواتهم بوصفهم من رجال الدين والنبلاء الصغار بوصفهم نبلاء) . وكان مجلس الطبقات هيئة ليس لها أى تقاليد ولا سوابق فى إجراءاتها وأرسلت الاستعلامات فى هذا الصدد إلى علماء العاديات القديمة «بأكاديمية المخطوطات» . وكانت مناقشاتها الأولى تدور حول مسألة هل لها أن تجتمع كهيئة واحدة أو كهيئات ثلاث ، يكون لكل طبقة فيها صوت معادل . ولما كان عدد رجال الدين ٣٠٨ والنبلاء ٢٨٥ والنواب ٦٢١ ، فإن الترتيب الأول يضع الأغلبية المطلقة بين أيدى

العامة ، ويعطيهم الترتيب الثانى صوتا واحداً من ثلاثة . كذلك لم يكن لمجلس الطبقات مكان ينعقد فيه . فهل يجب أن يجتمع فى باريس أو فى إحدى مدن المقاطعات ؟ واختيرت فرساى « بسبب الصيد » .

وواضح أن الملك والملكة كانا يقصدان أن يعالجا هذه الضجة الثارة حول المالية القومية بوصفها شيئاً ثقيلا مزعجا ، وأن يسمحا لها بالتدخل فى نظامهما الاجتماعى بأقل قدر مستطاع . وإنا لنرى الاجتماعات تتواصل فى قاعات متروكة ليس بأحد إليها حاجة أو فى بساتين البرتقال وملاعب التنس وما إليها .

وكان أخذ الصوت بالطبقة أو بالشخص أمراً واضح الحيوية . وتجادل القوم فيها مدة ستة أسابيع . حتى إذا التمست الطبقة الثالثة بضع صفحات من كتاب مجلس العموم الإنجليزى ، راحت تعلن أنها وحدها هى الممثلة للشعب ، وأنه ينبغى ألا تجبى أية ضرائب من ذلك الحين إلا بعد إقرارها إياها . وعند ذلك أغلق الملك البهو الذى كانت تجتمع فيه وأعلن أنه يحسن بالنواب أن ينصرفوا إلى منازلهم . وبدلا من ذلك اجتمع النواب فى ملعب للتنس مناسب ، وهناك أقسموا يمينا هو يمين ملعب التنس — ألا يتفرقوا حتى ينشئوا لفرنسا دستورا .

واتخذ الملك مظهر القوة وحاول أن يفرق الطبقة الثالثة عنوة . ورفض الجنود أن يطيعوا وعند ذلك خضع الملك بشكل فجائى خطر وقبل المبدأ القائل بأن الطبقات الثلاث يجب أن تتناقش كلها وتعطى صوتها بصفتها جمعية وطنية واحدة . وفى نفس الوقت نقلت فرق أجنبية تخدم فى الجيش الفرنسى ويمكن أن يعتمد عليها فى العمل ضد الشعب ، وواضح أن هذا كان بتحريض من الملكة إذ استقدمت من الأقاليم تحت قيادة المارشال دى بروجلى ، وأعد الملك العدة للتراجع فى منحته . وعند ذلك تمردت باريس وفرنسا . وتردد بروجلى فى إطلاق النار على الجماهير . وأقيمت حكومة مدينة مؤقتة فى باريس وفى معظم المدن الكبيرة الأخرى ، وأنشئت قوة مسلحة جديدة هى الحرس القومى وهى قوة معدة أولا وبشكل ظاهر لمقاومة قوات العرش أنشأتها تلك الهيئات البلدية .

وكان عصيان شهر يولية ١٧٨٩ هو فى الحقيقة الثورة الفرنسية الفعالة . وأخذ شعب باريس عنوة سجن الباستيل الجهم لقاء مقاومة ضعيفة جدا وانتشر التمرد سريعاً إلى كل أرجاء فرنسا . وأحرق الفلاحون فى المقاطعات الشرقية والشمالية الغربية كثيراً من قصور النبلاء ودمروا صكوك ألقابهم فى حرص وعناية ، وقتلوا أصحاب القصور أو طردوهم منها . وانتشر العصيان فى كل أرجاء فرنسا . ولم يمض شهر حتى كان نظام هيئة الأرستقراطية البالى

القديم قد انهار . وفر إلى الخارج كثير من كبار الأمراء ورجال البلاط من حزب الملكة .
ووجدت الجمعية الوطنية نفسها تدعى لإنشاء نظام جديد سياسى واجتماعى لعصر جديد .

٩ – الجمهورية الفرنسية المتوجة ٨٩ — ٩١

كانت الجمعية الوطنية الفرنسية أقل توفيقاً بكثير فى ظروف عملها من الكونجرس الأمريكى . فقد كان للثانى نصف قارة يتصرف فيه ، وليس أمامه من خصم إلا الحكومة البريطانية . وكانت تنظيماته الدينية والتعليمية متنوعة ، وهى فى مجموعها غير ذات قوة كبيرة ولكنها تنطوى فى الجملة على الود والصداقة . وكانت الشقة نائية بينه وبين الملك چورج فى انجلترا وقد أخذ ينحدر فى بطء نحو حالة من البلاهة . ولكن معالجة أحكام الدستور وجعله فعالا اقتضت من الولايات المتحدة سنوات كثيرة . وكان الفرنسيون من الناحية الأخرى محوطين بجيران ميالين إلى العدوان لهم فكرات مكياڤلية ، وكان يعتاق سبيلهم ملك وبلاط يصران على عمل الشر ، وكانت الكنيسة تنظيمة فريدة عظيمة ترتبط بالنظام القديم ارتباطاً لا انفصام له . وكانت الملكة على تراسل متواتر مع الكونت دارتوا ، والدوق دى بربون والأمراء المبعدين الآخرين الذين كانوا يحاولون أن يحملوا النمسا وروسيا على مهاجمة الشعب الفرنسى الجديد . هذا إلى أن فرنسا كانت من قبل ذلك قطراً مفلساً ، على حين كانت للولايات المتحدة موارد لا نهاية لها وغير مطورة ؛ وكانت الثورة بأقدامها على تغيير أحوال ملكية الأراضى والعمل بالأسواق قد أنتجت اضطراباً اقتصادياً ليس له مثيل فى حالة أمريكا .

تلك هى صعوبات الموقف التى لم يكن إلى تجنبها سبيل . ولكن الجمعية خلقت بالإضافة إلى ذلك صعوبات على نفسها . فلم تكن هناك إجراءات منظمة . على حين كان لمجلس العموم الإنجليزى ما يربو على خمسة قرون من خبرته فى عمله ، وعبثاً ما حاول ميرابو أحد كبار زعماء الثورة الأولى ، أن يحمل إخوانه على اقتباس القواعد الإنجليزية . ولكن شعور الزمان كان ميالا بكليته إلى الصياح والمقاطعات الدرامية ، وأمثال ذلك من إظهار « الفضيلة الطبيعية » . وليت صدور الفوضى اقتصر على الجمعية فقط . فقد كانت هناك شرفة كبيرة للزوار — شرفة فاقت فى كبرها كل حد مناسب — فمن ذا الذى يمنع المواطنين الأحرار من أن يكون لهم صوت فى الرقابة القومية ؟ فكانت هذه الشرفة تغص بجمهور من الناس تواقين إلى مشاهدة «مشاهد التهور» ، مستعدين للتصفيق أو الصياح لإسكات الخطباء المتكلمين من تحتهم . وكان الخطباء الأوسع مقدرة يضطرون أن يلعبوا أمام أصحاب الشرفة ، وأن يسلكوا سبلا عاطفية

مثيرة للحواس . وكان من السهل إبان الأزمات أن يُدخل كل من شاء جماعة من الغوغاء يقضون على المناقشة .

وشرعت الجمعية وهى مغلولة الأيدى بهذا الشكل فى القيام بواجبها الإنشائى . وفى اليوم الرابع من أغسطس أحرزت نجاحاً دراميا عظيما . فأصدرت — يقودها كثير من أحرار النبلاء الأسمحيين[1] — سلسلة من القرارات ، تلغى نظم موالى الأرض ، والامتيازات والاعفاء من الضرائب ، والعشور ومحاكم الإقطاع . (ومع هذا فإن هذه القرارات لم تدخل حيز التنفيذ فى أجزاء كثيرة من البلاد إلا بعد ذلك بثلاث سنوات أو أربع) . وذهبت الألقاب فيما ذهب . وقبل أن تصبح فرنسا جمهورية بزمن مديد كان من الجرائر أن يوقع النبيل باسمه مقرونا بلقبه . وحبست الجمعية نفسها طوال أسابيع ستة ، استمتع فيها علم البيان بفرص ذهبية لا حصر لها ! ! ! على صوغ إعلان لحقوق الإنسان — على غرار قوانين الحقوق التى كانت هى التوطئة الإنجليزية المهدة للتغيير المنظم . وكان البلاط فى نفس الوقت يدبر المؤامرات لإحداث انقلاب رجعى وشعر الناس أن البلاط يأتمر بهم . وتتعقد القصة ها هنا فى خطط ابن عم الملك فيليب دورليان وتدبيراته النذلة الخسيسة ، وكان يأمل أن يستخدم الخلافات للحلول محل لويس على العرش . وفتحت حدائق فى القصر الملكى (الباليه رويال) للجمهور ، وأصبحت مركزاً عظيما للمناقشة المتطرفة . وفعل وكلاؤه الشىء الكثير لاذكاء حدة شبهات الشعب بإزاء الملك . وبلغت الأمور حداً لا يطاق بسبب نقص فى المواد الغذائية اعتبرت حكومة الملك مسئولة عنه .

وسرعان ما ظهرت بفرساى فرقة الجيش الفلاندرية[2] الموالية للملك . وكانت العائلة الملكية تدبر التدابير للابتعاد عن باريس — لكى تتحلل من كل شىء أبرم وتستعيد الاستبداد والتبذير ، فانزعج الملكيون الدستوريون أمثال الجنرال لافاييت أيما انزعاج . وحدث فى نفس ذلك الوقت أن اندلع غضب الناس عامة لقلة الطعام ، وتحول فى دور انتقال هين إلى غضبة ضد ما يهدد القوم من الحركة الرجعية الملكية . إذ كان الاعتقاد السائد أن قصر فرساى يضم قدراً وفيراً من المواد الغذائية ، وأن الأطعمة كانت تختزن هناك بعيدة عن أيدى الجمهور . وكان الاضطراب قد غلب على عقول الجمهور بسبب شائعات لعلها كانت مبالغاً فيها ،

---

(١) الأسمحيين أنصار التسامح وعدم التحيز Liberal .

(٢) فلاندر Flanders هو الاسم الذى كان يطلق قديماً على المنطقة الشمالية الشرقية من فرنسا وعلى بعض أجزاء من بلجيكا وهولندا .

عن إقامة مأدبة حديثاً فى ڤرساى ، تجلى فيهـا العداء للشعب . واليكم بعض المقتطفات من وصف كارليل لهذه المأدبة التاعسة .

« سمح بقاعة الأوبرا . وسوف تصبح قاعة هرقل حجرة استقبال . ولن يقف الأمر عند حد ضباط فلاندر ، بل تعداه إلى ضباط السويسريين ، السويسريين المئة . كلا بل ضباط الحرس القومى بڤرساى ، فمن كان منهم يحمل فى قلبه مسكة من الولاء يحضر المأدبة . ولسوف تكون وليمة قل نظيرها .

« والآن فافرض أن هذه الوليمة أعنى القسم الوقور منها قد تم ؛ وأن الزجاجة الأولى قد احتسيت . وهبْ أن نخب الولاء الذى جرت به العادة قد شرب ؛ فجاء نخب صحة الملك ، ثم نخب الملكة فى هتافات تصم الآذان ؛ وأسقط نخب الشعب ، أو قُل نُبذ . وافرض أن الشمبانيا تفيض أنهاراً ، ويصحب ذلك خطب كلها شجاعة وإقدام ، ولكنه إقدام السكارى المخمورين ، هذا إلى عزف آلات موسيقية ؛ ويأخذ خفاف الأحلام فى رفع عقيرتهم أكثر فأكثر ، كل يطاول أخاه خفة ويطاوله ضجة وعجيجاً . فأما صاحبة الجلالة وهى تبدو الليلة محزونة الفؤاد بشكل غير عادى (وصاحب الجلالة جالس قد ملأه القنص فى طول يومه بالتبلد) ، فهم يخبرونها أن منظر الوليمة سيدخل إلى فؤادها السرور . انظروا إليها ! إنها تدخل هناك خارجة من حجراتها الفاخرة خروج القمر من بين أطباق الغمام ، هذه الملكة التاعسة أبدع مليكة على عرش الأفئدة ؛ يسير إلى جوارها الزوج الملكى ، وولى العهد الصغير بين ذراعيها ! وهاهى ذى تنزل من القاصير ، بين مظاهر الروعة والفخامة والتهليل ؛ وتسير حول المناضد سير الملكات ؛ وهى تحنى رأسها برشاقة ؛ وتنظر نظرات تنم عن الحزن والأسى ، يخالطه مع ذلك معنى الشكران والإقدام ، وعلى صدرها الأموى الحنون معقد رجاء فرنسا المنتظر ! ثم تعزف الجوقة الموسيقية : ياريكارد ـ يا ـ يا ـ مليكى ، إن العالم يتخلى ـ عنك . فهل يستطيع الإنسان أن يفعل أكثر من أن ترتفع به العواطف إلى أقصى حد شفقةً وولاء وشجاعة ؟ وهل يستطيع الضباط خفاف الأحلام إلا أن يظهروا بواسطة قبعاتهم البوربونية البيضاء ، التى سلمتها إليهم الأنامل الجميلة ؛ وبتلويح السيوف التى استلت للقسم على صحة الملكة ؛ والدوس على القبعات القومية بالأقدام ، وبتسلق القاصير التى قد يصدر منها أصوات تدخل أو احتجاج ، وبالصياح بأنكر الأصوات وأشد الحنق وضياع الرشد فى الداخل والخارج — مبلغ الحالة الجوفاء العاصفة التى هم عليها أثناء تناولهم النخب ؟..

« كانت وليمة طبيعية ، وهى فى الأوقات العادية أكلة لا ضير فيها ولكنها الآن قتالة .

فإن مارى أنطوانيت المسكينة التى تجمّع حولها نصحاء السوء ، وفيها ما فى المرأة من حدة الطباع ، وليس فيها بُعد نظر الملوك ! فالأمر إذن طبيعى جدا وهو مع ذلك من الحماقة بمكان . فى اليوم التالى تصرح جلالتها فى خطبة رسمية عامة أنها مبتهجة بيوم الخميس . » ولنضع مقابل هذا تصور كارليل لحالة الشعب .

« تستيقظ « الأمومة » فى صبيحة الإثنين فى طابقات السطوح القذرة ، فتسمع أطفالها يبكون طالبين الخبز . ولا بد للأمومة من الانطلاق إلى الشوارع وإلى صفوف (طوابير) باعة الخضر والخبازين . حيث تلتقى بأمومة قد أضرت بها المخمصة ، وهى مليئة بالعطف عليها والإثارة لها . يالنا من نساء تعسات ! ولكن بدلا من الوقوف فى صفوف الخبازين لماذا لا نذهب إلى قصور الارستقراطية التى هى مصدر الأمركله ؟ هيا بنا Allons !ولنجتمع . هيا إلى دار البلدية . وإلى فرساى ... »

وحدث فى باريس الشىء الكثير من الصياح والمجئ والذهاب ، قبل أن تحققت هذه الفكرة الأخيرة . وظهر فرد اسمه مايّار له قدرة على التنظيم ، واتخذ لنفسه نوعاً من الزعامة . وليس هناك أقل ريب فى أن زعماء الثورة ، والجنرال لافاييت بوجه خاص ، قد استخدموا ونظموا هذا الانفجار للحصول على الملك ، قبل أن يفلت من أيديهم — كما أفلت شارل الأول إلى أكسفورد — ليبدأ حرباً أهلية . وشرعت الظاهرة عند الأصيل تسير رحلتها المكونة من أحد عشر ميلا . . .

وها نحن نعود إلى الاقتباس من كارليل :

« كان مايّار Maillard قد أوقف من يقودهم من المشردين المشعثين على قمة آخر تل ؛ وعند ذلك تبدو لعين الرائى المتعجب فرساى وقصر فرساى وميراث الملكية المترامى الأطراف . ومن على بعد فى الناحية اليمنى فوق مارلى (وسان چرمين إن لاى) حتى الناحية الأخرى نحو رامبوييه ، إلى اليسار ، مناظر كلها جميلة ؛ وهى ترقد فى رفق ؛ كأنما يخيم عليها الحزن فى أحضان ذلك الجو المعتم الرطب ! وقريباً منا وأمامنا تبدو فرساى قديمها وجديدها . وبينهما ذلك الشارع الظليل المفرع شارع فرساى ، وهو شارع فخم رحيب يبلغ عرضه فيما يقدرون ثلاثمئة قدم ، وقد امتدت به صفوفه الأربع من شجر الدردار ؛ ثم يبدو بعد ذلك قصر فرساى منتهياً بجنات ملكية ومروج وبرك صغيرة متلألئة ، وعرائش عظيمة عدا بيوت التيه (لابيرانت) ومعارض وحوش والتريانون الكبير والصغير ؛ ومساكن عالية الأبراج ، وهى أماكن مورقة ممتعة ؛ يسكنها آلهة هذا العالم السفلى : وحيث لا يمكن مع

ذلك أن نستبعد الهموم الشوهاء ؛ وإليها كان الجوع المشرد يتقدم آنذاك مسلحاً بالقضبان ذات الرءوس . وسقط المطر عند ماخيم المساء .

« فانظر تر الميدان كله وقد تغطت جميع جنباته الفسيحة ، بجماعات من نساء قذرات يقطر منهن ماء المطر ؛ ومن رجال الدهماء الأسافل ناحلي الشعر وهم مسلحون بالبلط ، والخوازيق الصدئة والقرابينات القديمة ، والمراوات ذات الحدائد والعصي التي تنتهي بسكاكين أو نصال سيوف ، ونوع من الخطاطيف التي اصطنعوها بأيديهم ، وليس يبدو عليهم إلا أنهم عصاة جياع . وينهمر المطر ؛ والحرس الخاص يتنقل بخيله وسط الجماهير التي تفح عليه كالأفعى وتسخر منه وهو يهيج ويستثير من الجماعات ما يتفرق ها هنا لكي يتجمهر هناك ...

« ويحيط عدد لا حصر له من النساء القذرات بالرئيس والوفد ؛ ويصررن على الذهاب معه : ألم يرسل جلالته بنفسه بعد أن نظر ، من خرج ليسأل عما نريد ؟ نريد الخبز . والكلام مع الملك ، ذلكم هو الجواب . ويضاف إلى الوفد بين الصخب الشديد والجلبة اثنتا عشرة امرأة ؛ ثم يسرن معه مظفرات عبر الميدان . وبين جماعات متفرقة من الحشد ، ورجال من الخاص ، يتحركون بجيادهم ، تحت المطر المنهمر » .

« الخبز مع عدم الإكثار من الكلام : . طلبات طبيعية » .

« ويعلم الإنسان أيضاً أن العربات الملكية أخذت تشد إليها الخيول ، كأنما هي ذاهبة إلى مدينة متز . وقد ظهرت بالفعل عند البوابة الخلفية عربات سواء أكانت ملكية أم لم تكن . بل إنهم أبرزوا أو حتى اقتبسوا أمراً كتابيا من بلدية ڤرساى — وهي بلدية ملكية وليست ديموقراطية . ومع هذا فإن داوريات ڤرساى أدخلتها ثانية ، بأمر مشدد إليهم من ليكوانتيه اليقظ .

« وهكذا احلولكت أشباح الليل ، بين العجيج والمطر وتصبح كل الممرات معتمة مظلمة . وهي أعجب ليلة شوهدت في تلك الأماكن . وربما كان ذلك منذ ليلة بارثولوميو(١) عندما كانت ڤرساى ، كما كتب ذلك باسومبرى قصراً هزيلا . « فأنا لنا بقيثارة أورفيوس(٢) ليضطر بلمسة من أوتاره الشجية هاته الجماهير المجنونة إلى التزام النظام ! إذ كان يبدو أن

---

(١) بارثوليو : يشير الكاتب هنا إلى مذبحة الهوجنوت التي ابتدأت باريس في عيد القديس بارثولوميو في ٢٤ أغسطس ١٥٧٢ .

(٢) أورفيوس : تمثله الأساطير في صورة أبرز شاعر قبل هومر ، وهو يحمل قيثارة كان يسبي بساحر أنغامها لا الكائنات الحية وحدها بل إن الأنهار والصخور كانت تطرب بتاجي أنغامه وتخضع لأوامره .

كل شيء هاهنا قد تشتت وتبدد وخرج عن موضعه خروجا بعيدا . وأخذ أعلى الناس كأنما يجذبهم تيار عالى إلى أسفل يتصلون بأدنى الناس : وأخذ دهماء فرنسا وأنذالها وزعانفها يطيفون بملكية فرنسا وأقيالها . ورفعت الهراوات ذوات الرءوس الحديدية حول التاج لغاية غير حراسته! وانطلق مع السباب الموجه للحرس الخاص المتعطش إلى الدماء المضاد للوطنية دمدمات قائمة تزمجر اسماً للملكة .

« ويجتمع البلاط مرتعدا ، عاجزاً : ويتقلب رأياً مع تقلب أهواء الميدان ، ومع تنوع ألوان الشائعات الآتية من باريس . شائعات تأتى متكاثفة تنبيء آونة عن السلم وآنا عن الحرب . ويتشاور نيكر والوزراء كافة ، فلا يخرجون بنتيجة ، والقاعات تجتاحها عاصفة هوجاء من همسات : لسوف نفر إلى متز ، سوف لانفر . وتحاول المركبات الملكية الخروج مرة ثانية وإن كان ذلك لمجرد المحاولة . على أنها تدفع إلى الداخل مرة ثانية تدفعها داوريات ليكوانتيه » .

ولزام علينا أن نحيل القارىء إلى كارليل ليعلمه بقدوم الحرس الوطنى تحت قيادة الجنرال لافاييت نفسه ، وبالمساومة بين الجمعية والملك ، واندلاع نار القتال فى الصباح بين الحرس الخاص والمحاصرين الجياع ، وكيف دخل الأخيرون القصر عنوة وأوشكوا أن يعملوا فى الأسرة المالكة ذبحاً . وجاء لافاييت وجنوده فى الوقت المناسب فحالوا دون ذلك . ووصلت للجمهور الجائع من باريس فى الوقت اللائم عربات محملة بالخبز . وأخيراً استقر الرأى على وجوب ذهاب الملك إلى باريس .

« إن مسير المواكب الاحتفالية أمر لم يشهد عالمنا منه القليل ، فهناك مواكب النصر والترحيب بالأبطال لدى الرومان ، وهناك الضرب بالصنوج الكابرية Cabiric[(١)] والمواكب الملكية والجنازات الارلندية ، ولكن هذا الركب المنطلق بالملكية الفرنسية وهى تسير إلى مهدها أمر ينتظرنا لنشهده . فعلى امتداد أميال بعرض يتلاشى فى غموض وإبهام — ذلك أن كل المنطقة المجاورة تتجمهر — يسير الجمع فى بطء وركود يكاد يأسن به ، شأن بحيرة لا شواطىء لها ، ولها مع ذلك لجب ضجة تشبه نياجارا ، أو تشبه بابل وبدلام[(٢)] . ويحدث ضرب بالأرجل فى الماء ودوس بها على الأرض . ثم ارتفاع أصوات بالهتاف والعجيج وإطلاق وابل من طلقات القرابينات ؛ فهى أصدق قطعة من الفوضى شوهدت فى تلك العصور الأخيرة !. حتى تصب نفسها رويداً رويداً ساعة عتمة الغسق المتكاثفة ، فى باريس المنتظرة ، بين صف مزدوج من الوجوه يمتد من باسى إلى دار البلدية .

---

(١) الكابرى Cabiri : الآلهة المذكورة فى الميثولوجيا الإغريقية .

(٢) بدلام : أقدم مستشفى للمجانين بأوربا .

« تأمل هذا : مقدمة من الجنود الوطنية ؛ من خلفها أرتال من المدفعية ؛ ورجال بالجوازيق ، ونساء بالجوازيق ؛ يركبون المدافع والعربات ، والمركبات أو يسيرون على الأقدام ... أرغفة قد رشقت على سن السونكيات ، وغصون خضراء قد رشقت فى أنابيب البنادق . ثم يأتى بعد ذلك الموكب الرئيسى ، خمسون عربة محملة بالقمح ، أقرضت لهم من مخازن فرساى التماساً للسلام . يسير من خلفها جماعة لا وجهة لهم من رجال الحرس الخاص ؛ وقد غلبت عليهم الذلة وهم فى قبعات الجرينادير . ومن خلف هؤلاء مباشرة تأتى المركبة الملكية . ثم تأتى مركبات ملكية . إذ أن هناك مئة من النواب الوطنيين كذلك ، يجلس من بينهم ميرابو وهو لا يبدى أية ملحوظة . ثم يأتى خليط من الحابل والنابل هم ساقة الجماعة ، من الفلاندريين ، والسويسريين والمئة سويسرى وحرس خاص آخر وسابلة ، وكل من لا يستطيع أن يتقدم إلى الأمام . وتفيض فيما بين أطواء هذه الجموع التى لا حد لها طائفة القديس أنطوان والكتيبة النسائية . ويسير النساء بوجه خاص حول المركبة الملكية ... متشحات بالألوان الثلاثة وهن يغنين أغانى كلها الهمز واللمز ، ويشرن بأحدى أيديهن إلى المركبة الملكية التى يقصدن بها ذلك اللمز ، ويشرن باليد الأخرى إلى عربات الأطعمة ، ويقلن هذه الألفاظ : تشجعوا أيها الإخوان . فلن نحتاج الآن إلى الخبز ، وإنا لمحضرون لكم الخباز والخبازة وابن الخباز .

« ويلوث المطر الألوان الثلاثة ، ولكن لهيب السرور مما لا يستطيع إطفاءه أى مطر . ألم يصبح كل شىء الآن على ما يرام ؟ قال بعض هؤلاء النساء القويات بعد ذلك ببضع أيام — آه يا مدام يا ملكتنا الطيبة ، لا تعودى إلى الخيانة مرة أخرى حتى نحبك كلنا ! » .

كان ذلك هو يوم ٦ أكتوبر ١٧٨٩ . وأقامت الأسرة المالكة فى التويلرى قرابة سنتين لم يكدر صفوها أثناءها مكدر . فلو أن البلاط حافظ على عهده العادى مع الشعب ، فلعل الملك كان يموت هناك وهو بعد ملك . فمنذ ١٧٨٩ إلى ١٧٩١ حافظت الثورة الأولى على كيانها ، وأصبحت فرنسا ملكية مقيدة ، واحتفظ الملك بسلطان منقوص فى قصر التويلرى ، وطفقت الجمعية الوطنية تحكم قطراً شمله السلام . فلو رجع القارىء إلى خرائط بولندا التى قدمناها فى الفصل السالف ، عرف ما كان يشغل الروسيا وبروسيا والنمسا فى ذلك الأوان . فعلى حين كانت فرنسا تنشىء التجارب فى جمهورية متوجة فى الغرب ، كان يجرى آخر تقسيم للجمهورية المتوجة فى الشرق . وماذا على فرنسا لو انتظرت قليلا ؟

وإذا نحن تأملنا عدم خبرتها ، والظروف التى كانت تشتغل فى كنفها ، والتعقيدات المحيطة بمسائلها ، وجب علينا أن نسلم بأن الجمعية قامت بقدر جسيم جداً من العمل الإنشائى .

وكان الشيء الكثير من ذلك العمل سليما قوياً وما يزال باقياً إلى اليوم ، وكان كثير منه تجريبياً فهدم ونقض . وكان فى بعضه الكوارث . فتمت تنقية قانون العقوبات ، وألغى التعذيب والحبس التعسفى ، والاضطهادات الدينية . وأخلت مقاطعات فرنسا القديمة وهى نورمانديا وبورغانديا وأشباههما مكانها لثمانين مديرية . وجعل باب الترقى إلى أقصى رتب الجيش مفتوحاً للرجال من كل الطبقات . وأقيم نظام بديع بسيط من المحاكم ، ولكن أفسده كثيراً أن القضاة كانوا يعينون بانتخاب شعبي ولأجل قصير . فكان هذا الأمر يجعل من الجمهور نوعاً من محكمة استئناف نهائية ، واضطر القضاة — شأن أعضاء الجمعية أن يمثلوا لأهل الشرفة . واستولت الدولة على جميع أملاك الكنيسة الهائلة وأخذت تديرها بنفسها . وقوضت كل المؤسسات الدينية التى لا تشتغل بالتعليم أو الإحسان ، وجعلت مرتبات رجال الدين فرضاً على الأمة . ولم يكن هذا فى حد ذاته شيئاً تكرهه الطبقة الدنيا من رجال الدين بفرنسا ، الذين كانوا فى غالب الأحيان يتناولون أجوراً بخسة بشكل فاضح بالموازنة إلى رؤسائهم الأكثر ثروة . ولكن أضيف إلى ذلك أن وظائف القسيسين والأساقفة جعلت بالانتخاب ، وهو أمر أصاب الفكرة الأساسية للكنيسة الكاثوليكية فى الصميم ، وهى التى كانت تمركز كل شيء حول البابا ، والتى تأتى فيها السلطة من أعلى إلى أسفل . والواقع العملى أن الجمعية الوطنية أرادت أن تجعل الكنيسة الفرنسية بروتستانتية بضربة واحدة ، بروتستانتية فى التنظيم إن لم يكن فى المبادىء . وحدثت فى كل مكان مناقشات ومنازعات بين قسوس الدولة الذين أنشأتهم الجمعية العمومية وبين القسيسين المباندين (الذين لا يحلفون اليمين) ، الذين أخلصوا الولاء لروما .

وهناك شيء عجيب فعلته الجمعية الوطنية فكان من أثره أن أضعف من قبضتها على زمام الأمور . إذ أنها أصدرت مرسوماً يقضى بأن لا يكون أى عضو من أعضائها وزيراً تنفيذياً . وكان ذلك محاكاة منهم للدستور الأمريكى ، حيث الوزراء هناك أيضاً منفصلون عن الهيئة التشريعية . وكانت الطريقة الإنجليزية تقضى بأن يكون كل الوزراء أعضاء فى الهيئة التشريعية ، وأن يكونوا على استعداد للإجابة على الأسئلة وتقديم الحساب عن تفسيرهم للقوانين وإدارتهم لشئون الشعب . فإذا كانت الهيئة التشريعية تمثل الشعب ذا السيادة وجب إذن ولا شك أن يكون الوزراء على أوثق اتصال بسيدهم . وتسبب عن فصل الهيئة التشريعية عن التنفيذية بفرنسا حدوث كثير من سوء التفاهم وعدم الثقة . إذ كانت القوة التشريعية تعوزها السيطرة والقوة التنفيذية فقيرة فى القوة المعنوية . فأفضى هذا إلى أن أصبحت الحكومة المركزية

غير فعالة إلى حد أنه كانت تكتشف فى كثير من النواحى فى ذلك الزمان أحياء ومدن يتبين أنها مجتمعات تحكم نفسها بنفسها أو تكاد ؛ فكانوا يقبلون أن يرفضون أوامر باريس بحسب هواهم ، ويأبون دفع الضرائب ، ويقتسمون أرض الكنيسة طبقاً لمشتهياتهم المحلية .

١٠ – ثورة اليعاقبة

من المحتمل جداً أنه لو جاء عون من التاج يتجلى فيه الإخلاص ووطنية يتبدى فيها التعقل من جانب النبلاء ، فعسى أن كانت الجمعية الوطنية تتعثر فى طريقها حتى تصل — بالرغم من شرقاتها العالية المجيج وبالرغم من غلبة روح روسو عليها ومن ضؤولة خبرتها — إلى شكل ثابت لحكومة برلمانية لفرنسا . وكان لها فى ميرابو رجل دولة له بصيرة نافذة باحتياجات العصر . وكان يعرف مواطن القوة والضعف فى النظام البريطانى ، وظاهر أنه قد نصب نفسه ليؤسس فى فرنسا نظاماً سياسياً مماثلا على أساس اقتراع أفسح مجالاً وأشد أمانة وشرفاً . حقاً إنه قد استمرأ نوعاً من الغزل الروريتانى[1] مع الملكة ، وكان يلقاها خفية ، ويصرح عنها جاداً غير مازح أنها هى الرجل الوحيد حول الملك ، ويكاد فى هذا الأمر أن يصم نفسه بالغباء والحماقة . على أن خططه كانت تقوم على نطاق أوسع كثيراً من نطاق سلالم التويلرى الخلفية . ولا شك أن فرنسا فقدت بموته ١٧٩١ واحداً من أشد سياسييها إنشاء ، وكذلك فقدت الجمعية الوطنية آخر فرصة للتعاون مع الملك . وحيثما كان هناك بلاط كان هناك فى العادة التآمر ، وكانت تدبيرات الملكيين وبث الملكيين للشر آخر وقشة يضعونها فى كفة الميزان ضد الجمعية الوطنية . ولم يكن الملكيون يهتمون بميرابو ولا كانوا يهتمون بفرنسا بل كانوا يريدون الرجوع وكفى إلى فردوس امتيازاتهم المفقودة ، وإلى صلفهم ، وسرفهم الذى لاحد له ، وكان يلوح لهم أنهم لو استطاعوا فقط أن يجعلوا حكومة الجمعية الوطنية أمراً مستحيلا ، فإن العظام الرميم النخرة عظام الدولة القديمة لابد أن تحيا من جديد بمعجزة من المعجزات . ولم يخالجهم أى إدراك للاحتمال الآخر وهو هوة الجمهوريين المتطرفين التى كانت فاغرة فاها تحت أقدامهم .

وفى إحدى ليالى شهر يونية من ١٧٩١ ، حدث بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل ، أن الملك والملكة وطفليهما انسلوا متنكرين من قصر التويلرى ، ثم اخترقوا باريس

---

(١) فى ذلك إشارة إلى رواية سجين زندا التى عشق الملكة فيها نبيل إنجليزى عشقا عذرياً .

وجلين ، وداروا من شمال المدينة إلى الشرق ، حتى وصلوا آخر الأمر إلى عربة سفر كانت معدة لنقلهم إلى شالون . كانوا يفرون للانضمام إلى جيش الشرق . إذ كان جيش الشرق موالياً أى أن قائده وضباطه على الأقل كانوا على استعداد للتخلى عن فرنسا والانضمام إلى الملك وبلاطه . وهكذا وصلنا آخر الأمر إلى المغامرات التى تروق فؤاد الملكة ، ويستطيع الإنسان أن يتخيل ويفهم النشوة والسرور يعم الفئة الصغيرة والأميال تباعد بينها وبين باريس . وكان ينتظرهم فوق التلال البعيـدة ، التوقير والانحناء العميق ولثم الأيدى . ثم تأتى العودة إلى فرساى . وإطلاق يسير للنـار على دهماء باريس وبعض طلقات من المدافع إذا استلزم الأمر . وإعدام بعض الناس وإن لم يكونوا من ذوى المكانة . وعهد إرهاب أبيض[1] يستمر أشهراً قلائل . ثم يعود كل شىء فيصبح على خير ما يرام . وربما عاد كالونى أيضاً ومعه تدبيرات مالية جديدة . وكان فى ذلك الوقت مشغولا بجمع المدد من بين ظهرانى الأمراء الألمان . وكان هناك عدد جم من القصور لا بد من إعادة بنائها ، ولـكن لا يكاد يكون فى مستطاع القوم الذين أحرقوها أن يتشكـوا إن وقع عبء إعادة بنائها ثقيلا فادحا نوعا ما على أعناقهم القذرة .

وتحطمت كل هذه الخيالات الزاهية المرجوة ، فى تلك الليلة ، تحطما قاسياً عند ڤارن . فإن صاحب دار خيل البريد عرف الملك فى سانت مين هولد ، وبينما الليل يرخى سدوله كان ينطلق فى جو الطرق المؤدية شرقا وقع سنابك خيول الرسل وهم يوقظون البلاد ويحاولون أن يقطعوا الطريق على الهاربين . وكانت هناك خيل أخرى على أهبة الانتظار فى القرية العليا من ڤارن وكان الضابط الشاب المنوط بالنوبة قد انصرف عن الملك فترة الليل وآوى إلى فراشه — على حين ظل الملك المسكين مدة نصف ساعة فى القرية السفلى وهو يتنازع مرتديا ثياب الخدم — مع الحوذى والسواس الذين كانوا يتوقعون أن يجدوا أبدالهم فى القرية السفلى ويرفضون أن يتقدموا بالعربة خطوة واحـدة . وأخيراً رضوا أن يواصلوا السير ولـكن رضاءهم جاء بعد فوات الأوان . فإن الفئة القليلة وجدت ناظر البريد بسنت مين هولد — وكان قد سبق عندما كان السواس فى لجاجهم يجادلون — ومعه ثلة جمعها من الجمهوريين المحترمين فى ڤارن ؛ وانتظر بها عند الجسر الموصل بين جزئى المدينة . وأقيمت على الجسر المتاريس . وصوبت القرابينات إلى المركبة . وقيل لمن فيها : « جواز سفركم ! » .

سلم الملك بدون مقاومة . وأخذت الفئة الصغيرة إلى منزل أحد موظفى القرية . قال الملك

---

(١) أبيض : كان البياض شعار آل بوربون .

« حسناً ! ها أنا ذا بين أيديكم ! » ثم ذكر كذلك أنه جوعان . وأخذ أثناء تناوله الطعام يطرى النبيذ ويقول « نبيذ ممتاز جداً » ولم يسجل لنا ما قالته الملكة . وكانت هناك جنود ملكية على مقربة ولكنهم لم يحاولوا أن ينقذوا الملك . وأخذ جرس الخطر يدق وأضاءت القرية نفسها تحرزاً من المباغتة .

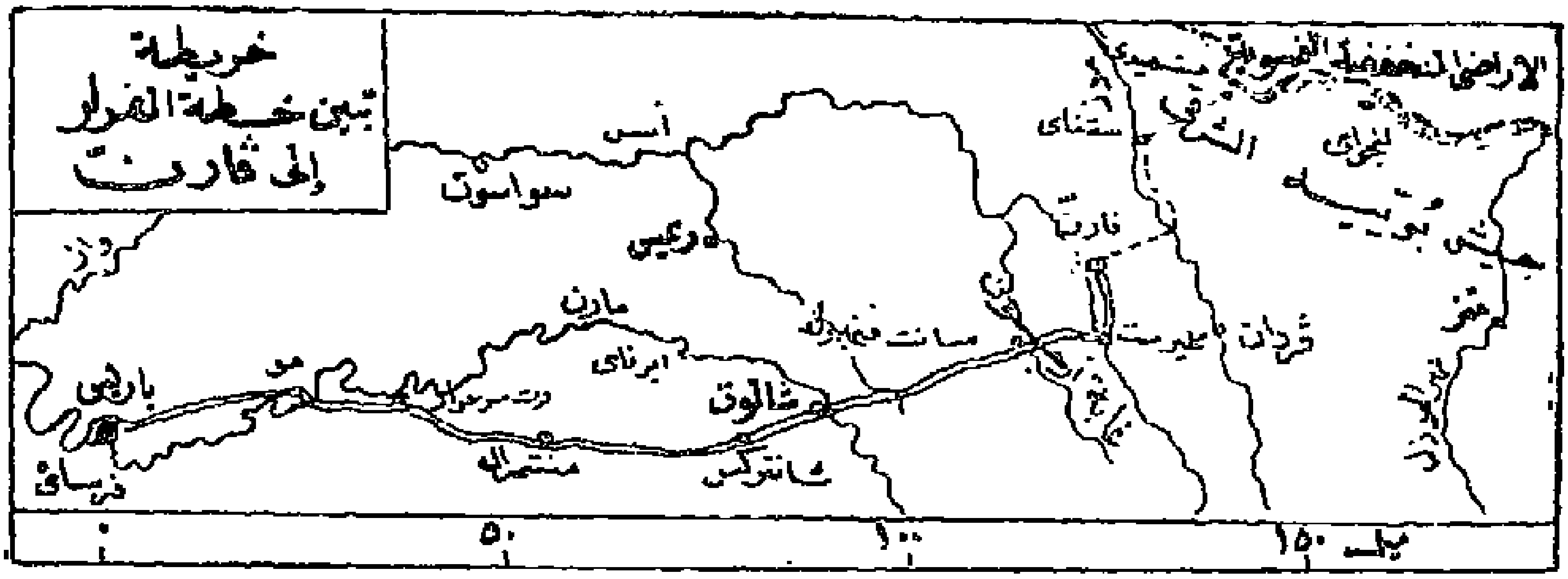

(شكل ١٨٤)

ومن ثم عاد إلى باريس حمل العربة الملكية مهيضاً ذليلا ، وقابلته جماهير غفيرة فى صمت وسكون . إذ سرى بين الجماهير النذير بأن من اجترأ على إهانة الملك يجلد ، وكل من هتف له يقتل . لم يحدث إلا بعد هذه المغامرة الحمقاء أن استولت فكرة الجمهورية على الذهن الفرنسى . وكان هناك ولا ريب قبل هذا الفرار إلى ڤارن عاطفة مبهمة نحو الجمهورية ، ولكن لم يكد أن يكون فى فرنسا أحد من الناس يجهر برغبته فى إلغاء الملكية . وقد حدث حتى فى شهر يولية يوم لم ينقض على الفرار إلا شهر واحد ، حين عقد اجتماع عظيم فى شان دى مارس (Champ de Mars) ، لتعضيد القيام بملتمس بعزل الملك — أن فرقت السلطات ذلك الاجتماع وقتل فيه خلق كثير . ولكن أمثال مظاهر الحزم هذه لم تحل بين الدرس المستفاد من ذلك الفرار وبين التغلغل إلى أذهان الرجال . وكما حدث فى انجلترا فى أيام شارل الأول فكذلك حدث الآن فى فرنسا ، أن أدرك الناس أن الملك لم يكن ليؤتمن — وأنه مصدر خطر . وقويت شوكة اليعاقبة بسرعة . وشرع زعماؤهم روبسبيير ودانتون ومارا الذين كانوا يلوحون حتى آنذاك غلاة مستحيلين — أن يتسلطوا على الشئون الفرنسية .

وكان هؤلاء اليعاقبة نظير الراديكاليين الأمريكيين ، وهم رجال ذوو فكرات متقدمة ضارية غير مروضة . وتقوم قوتهم على كونهم لا يعوقهم عائق من مال أو سلطان وأن لهم

مضاء واستقامة . كانوا رجالا فقراء ليس لديهم ما يخشون فقدانه . وكان حزب « الاعتدال » والتفاهم مع بقايا النظام القديم يقوده رجال من ذوى المكانة الوطيدة أمثال الجنرال لافاييت ، الذى ميز نفسه صغيراً بقتاله متطوعا فى صفوف المستعمرين الأمريكيين ، وميرابو وهو أرستقراطى كان على استعداد أن يصوغ نفسه على غرار أرستقراطية الإنجليز الأغنياء الواسعى النفوذ . بيد أن روبسبيير كان محاميا شابا فقيراً ماهراً من أراس ، كان أثمن ما علكه هو إيمانه بروسو ؛ ولم يكد دانتون أن يكون محاميا أشد منه ثراء بباريس ، وكان شخصا ضخما كثير الإشارة بليغ العبارة ميالا إلى البيان ؛ فأما مارا فكان رجلا أسنّ منهما وكان سويسريا على شىء من الامتياز العلمى وإن عادلها فى انطلاق سراحه وخلوه من الوظائف . قضى سنوات عديدة فى انجلترا وكان يحمل شهادة الدكتوراه الفخرية فى الطب من جامعة سانت أندروز ، وله فى علم الطب بعض مقالات ثمينة نشرها بالإنجليزية . وكان عمله فى الفوزيق يشوق كلا من بنيامين فرانكلين وجيته . فهذا هو الرجل الذى يسمية كارليل « الكلب الكلب » و « الفظيع » و « القذر » و « مطبب الكلاب » ولعل هذه الكنية الأخيرة جاءت من قبيل الاعتراف بفضل علمه !!

دعت الثورة مارا أن يخوض غمار السياسة ، وكانت أقدم ثمار قريحته التى أدلى بها فى مضمار جدلها العظيم تمتاز بسلامة التفكير ، إذ كانت تعم فرنسا فكرة خاطئة تقول بأن انجلترا أرض حرية . ولكن مقالته فى « عيوب الدستور الانجليزى » تبين حقائق الموقف الإنجليزى . وقد جن جنونه فى سنيه الأخيرة لإصابته بمرض جلدى لا يكاد يطاق انتقل إليه عند ما كان مختبئا إبان الثورة فى مجارى باريس فراراً من عواقب اتهامه الملك ووصفه إياه بالخيانة بعد فراره إلى ڤارنّ . ولم يكن ليستطيع إلا وهو جالس فى حمام حار أن يجمع شوارد ذهنه للكتابة . ولقى عنتا شديداً وقاسى الآلام ، فأصبح شديداً ، ومع هذا فإنه يبرز فى التاريخ بوصفه رجلا ذا نزاهة ممتازة . ويلوح أن فقره بوجه خاص كان يستثير سخرية كارليل منه .

« يالطول الطريق الذى قطعه !! وها هو الآن يجلس عند قرابة الساعة السابعة والنصف ، وهو يسلق نفسه فى حمامه متقرح الجسد مصاباً بالنوازل مريضاً بحمى الثورة . . . رجلا عليلا مضنىً مفرطاً فى العلة والضنى ، فقيراً حملقا معه من النقود ما يعادل بالضبط أربعة قروش وستة مليمات من العملة الورقية ؛ مع حمام ونضد للكتابة متين بثلاثة أرجل ، ومتاعب . ومعه غسالة قذرة تقوم بمرافق بيته . . . ذلك هو مسكنه ومثواه فى شارع مدرسة الطب . وإلى هذا المكان دون أى مكان آخر اقتاده سبيله . . . أنصت ! فإن هناك طرقاً ثانياً ، وإن

هناك لصوتاً موسيقياً لامرأة ، وهى تأبى أن تحرم الدخول : إنهـا هى المواطنة التى تريد أن تؤدى لفرنسا خدمة . وإذ يسمع ماراً من الداخل ، يصيح أن أدخليها . ويؤذن لشارلوت كورداى بالدخول » .

وقد عرضت البطلة الصغيرة أن تقدم إليه بعض المعلومات الضرورية حول الثورة التى قامت ضدهم فى كاين ، وبينما هو مشغول فى تدوين ما أدلت به من حقائق ، طعنته بسكين كبيرة ذات غمد (١٧٩٢) . . . تلك صفة معظم زعماء حزب اليعاقبة . فإنهم كانوا رجالا لا أملاك لهم ، رجالا لا قيد يغل أيديهم ، وكانوا أقل ترابطاً وأقرب إلى الطبيعة الأصلية من أى حزب آخر . وكانوا على استعداد أن يدفعوا بفكرات الحرية والمساواة إلى غاية متطرفة منطقية . وكانت معايير الفضيلة الوطنية عندهم عالية وخشنة . وكان هناك شيء غير إنسانى حتى فى حميتهم للمذهب الناسوتى[1] (Humanitarian) وكانوا يمتعضين مما يرون من ميل المعتدلين إلى تهوين الأمور وتسكينها ، وإلى الاحتفاظ بالعامة محتاجين هوناً ما محترمين للغير شيئاً ما ، وأن يجعلوا الملكية (وذوى الاعتبار من الرجال) محترمين نوعاً ما . وكانت قوانين المذاهب الروسونية تعمى أبصارهم عن الحقيقة التاريخية القائلة بأن الإنسان يكون بطبعه إما ظالماً أو مظلوماً ، وأنه لا يتم إلا ببطء بواسطة القانون والتعليم وروح المحبة فى العالم — أن يجعل الناس سعداء أحراراً .

وبينما حدث فى أمريكا أن صيغ قوانين ديموقراطية القرن الثامن عشر كانت فى جملتها مستنهضة للناس معينة لهم ، لأنهـا كانت من قبل أرض المساواة العملية فى الهواء الطلق ما اختص الأمر بالبيض من الرجال ، أنتجت هذه المبادىء فى فرنسا خليطا جنونيا خطرا على سكان المدن ، لأن أجزاء جسيمة من مدن فرنسا كانت أحياء فقيرة مليئة بأقوام ممن نزعوا من أملاكهم وانحلت أخلاقهم وانحطت مرتبتهم وتمررت أرواحهم . وكانت جماهير باريس بوجه خاص فى حالة يأس خطرة ، لأن صناعات باريس كانت فى معظمها صناعات ترف . وكان الشيء الكثير من أعمالها من النوع الطفيلى الذى يعيش على نقائص الطبقة الراقية ورذائلها . والآن ولى عالم أهل النعيم وذهب إلى ما وراء الحدود ، وصار الحال إلى التضييق على المسافرين وداخل الاضطراب الأعمال ، وأصبحت المدينة مليئة بأقوام عاطلين غاضبين .

(١) الناسوتيون : أصحاب هذا المذهب يعتقدون بأن للمسيح ناسوتا فقط وينبذون أو يتشككون فى أن له سمة إلـهية .

ولكن الملكيين بدل أن يدركوا حقيقة هؤلاء اليعاقبة وما لهم من أمانة خطرة وما لهم من سلطان خطر على خيال الدهماء ، قد بلغ من اغترارهم بأنفسهم أنهم ظنوا أن فى إمكانهم أن يتخذوا منهم آداة يعملون بها . وكان موعد استبدال الجمعية التشريعية بالجمعية الوطنية تطبيقاً للدستور الجديد ، قد قرب أوانه ؛ وعند ما اقترح اليعاقبة بقصد تمزيق المتدلين ألا يكون لأحد من أعضاء الجمعية الوطنية الحق فى عضوية الجمعية التشريعية ، انضم إليهم الملكيون فى جذل عظيم وأنفذوا الاقتراح . ذلك أنهم أدركوا أن الجمعية التشريعية وقد اجتثت منها على تلك الشاكلة كل خبرة وتجربة ، سوف تكون ولا مرية هيئة غير ذات كفاية من الناحية السياسية . وعند ذلك رجع إليهم « الخير من الإفراط فى الشر » ، وعند ذلك تعود فرنسا فتهوى صريعة لا معين لها إلا أيدى سادتها الشرعيين . هكذا كانوا يقدرون . بل لقد فعل الملكيون أكثر من هذا . فإنهم ناصروا انتخاب أحد اليعاقبة لعمدية باريس . وكأنى بهذا الأمر يكاد يعادل فى مهارته مهارة من يجتلب إلى منزله نمراً جائعاً ليقنع زوجته بحاجتها إليه . وكانت هيئة أخرى تقف على ساق مستعدة عن كثب وإن لم يحسب هؤلاء الملكيون حسابها ، وكانت أحسن عدة من البلاط للتقدم أماماً والحلول محل جمعية تشريعية غير فعالة ، تلك هى (كوميون) باريس أى هيئتها البلدية القوية النزعة اليعقوبية والنازلة فى دار البلدية .

وكانت فرنسا ما تزال حتى ذلك الحين تستظل السلام . فلم يهاجمها أحد من جيرانها ، لما بدا لهم من إضعافها نفسها بانقساماتها الداخلية . فكانت بولندا هى الضحية التى قاست الآلام من جراء ارتباك الحالة فى فرنسا . ولكن لم يبد لهم مانع يحول دون إهانتها وتهديدها وتمهيد السبيل لاقتسام نال عند ما يحلو لهم ذلك . واجتمع ملك بروسيا وإمبراطور النمسا فى بلنتز Pilnitz ١٧٩١ ، وأصدرا تصريحاً يقول إن إعادة النظام والملكية فى فرنسا أمر له أهميته لدى كل الملوك . وسمح لجيش من المهاجرين ونبلاء الفرنسيين وسرائهم وهو جيش يتكون فى معظمه من الضباط — بالتجمع على مسافة دانية من الحدود .

وكانت فرنسا هى البادئة بإعلان الحرب على النمسا . وكانت الدوافع التى خالجت نفوس من ناصروا هـذه الحركة دوافع متنازعة . فإن كثيراً من الجمهوريين كانوا يرغبون فى ذلك لأنهم كانوا يشتهون أن يروا ذوى قرباهم سكان البلجيك وقد تحرروا من النير النمسوى . وكان كثير من الملكيين يرغبون فيها لأنهم كانوا يرون فى الحرب احتمالا لإعادة هيبة الملكية وسلطانها . وعارضها مارا معارضة مريرة فى صحيفته صديق الشعب (L' Ami du Peupl)

لأنه لم يكن يرغب أن تتحول الحماســة للجمهورية إلى حمى حرب . وقد حذرته غريزته من نابليون . وفى ٢٠ ابريل ١٧٩٢ جاء الملك إلى الجمعية واقترح بين مظاهر الاستحسان العظيم إعلان الحرب .

وابتدأت الحرب بكارثة . فإن جيوشاً فرنسية ثلاثة دخلت بلاد البلجيك ؛ فهزم اثنان منها هزيمة منكرة ، وتراجع الثالث وكان بقيادة لافاييت . وعند ذلك أعلنت بروسيا الحرب مؤازرة منها للنمسا ، واستعدت الجيوش المتحالفة لغزو فرنسا تحت قيادة الدوق برنزويك . وأصدر الدوق إعلاناً من أشد إعلانات التاريخ نزقا ؛ فإنه قال إنه يغزو فرنسـا ليعيد سلطان الملكية إلى نصابه . وأن أية إهانة أخرى تلحق بالعرش الفرنسى سينتقم لهـا من الجمعية التشريعية وباريس « بالإعدام العسكرى رميا بالرصاص . » وكان هذا كافيا ولا شك لجعل أشد الفرنسيين ملكية جمهوريا — لمدة الحرب على الأقل .

وكان الدور الجـديد من أدوار الثورة ، وهو الثورة اليعقوبية ، هو الثمرة المباشرة لهذا الإعلان . ذلك أنه جعل الجمعية التشريعية ، التى كان يتسلط عليهـا الجمهوريون النظاميون (الجيرونديون) والملكيون ، وجعل الحكومة التى أخمدت ذلك الاجتماع الجمهورى فى الشان دى مارس وتعقبت (مارا) حتى اختبأ بالمجارى — أمراً مستحيلا . واجتمع العصاة فى دار البلدية ، وفى ١٠ أغسطس قامت بلدية (كوميون) باريس بهجوم على قصر التويلرى .

وتصرف الملك بغباء سمج ، وبذلك الاستخفاف بالغير الذى هو من امتيازات الملوك . وكان معه حرس سويسرى مكون من ألف رجل كما كان معه حرس أهلى ولاؤه غير مضمون . فصمد صموداً مبهما حتى ابتدأ إطلاق النار ، ثم انتقل إلى الجمعية المجاورة ليضع نفسه وعائلته تحت حمايتها ، تاركا حرسه السويسرى يقاتل . ولا شك أنه كان يطمع فى القاء الشقاق بين الجمعية وبلدية باريس ، ولكن لم يكن لدى الجمعية ذرة من روح القاتلة التى كانت تستمتع بها دار البلدية . ووضع اللاجئون الملكيون فى مقصورة (لوج) معدة للصحفيين (وكانت تتصل بها حجرة صغيرة) ، وهناك ظلوا ستة عشر ساعة بينما كانت الجمعية تتناقش فى مصيرهم . وكانت تعلو فى الخارج أصوات معركة ضخمة ، وكان يحدث بين الآونة والأخرى أن تنكسر احدى النوافذ . وكان السويسريون التعساء يقاتلون وظهورهم إلى الجدران ، إذ لم يكن أمامهم من سبيل إلى غير ذلك .

ولم تجرؤ الجمعية على مناصرة الحكومة فى إتيان ما عملته فى شان دى مارس فى شهر يوليه . إذ كانت قوة البلدية الشرسة تتسلط عليها . ولم يجد الملك فى الجمعية أية راحة أبداً .

فإنها عنفته وتناقشت فى إيقافه عن العمل . وقاتل السويسريون حتى تلقوا من الملك أمراً بالكف عن القتال ، وعند ذلك أعمل الجمهور فيهم قتلا حتى قضى على معظمهم ، أن كان الغضب قد بلغ به حد التوحش من جراء سفك الدماء الذى لا ضرورة له ، وأن كان جنونه قد جن إلى حد لم يعد معه إلى ضبطه سبيل .

وكانت المحاولة الطويلة المملة لصوغ لويس فى القالب الميروفنجى ، ولاستخراج جمهورى شريف متوج من ملك مطلق غبى غير قابل للتكيف ، — قد قاربت آنذاك خاتمتها المحزنة . فإن بلدية باريس كانت قد تسلمت بالفعل مقاليد السلطان فى فرنسا . وأصدرت الجمعية التشريعية التى لحقها تغير ظاهر فى شجاعتها ، مرسوما يقضى بإيقاف الملك عن القيام بمهام عمله ، وأودعته المعبد ، واستبدلت به لجنة تنفيذية ودعت مؤتمراً وطنياً لإنشاء دستور جديد .

وعندئذ أخذ توتر فرنسا الوطنية والجمهورية يصبح شيئاً لا يطاق . وكان كل ما تمتلك من جيوش يتدحرج منهزما على الطريق المؤدية إلى باريس فى حالة يأس واستسلام (الخريطة ٩٧٢) . وكانت لونجوى قد سقطت ، وعقبتها قلعة فردان العظيمة ، ولم يكن يبدو هناك أى احتمال لإيقاف تقدم الحلفاء على العاصمة . وارتفع الإحساس بالخيانة الملكية إلى حد ملأ الناس بقساوة الرعب . وكان لا بد على كل حال من إسكات الملكيين وغل أيديهم وإرهابهم حتى يختفوا عن الأنظار . ونصبت بلدية باريس نفسها لطراد كل ملكى يمكن العثور عليه ، حتى اكتظت بهم سجون باريس . ورأى مارا شبح المذبحة مقبلا . فحاول أن يفوز بإنشاء محاكم الطوارئ قبل أن يفوت الأوان بقصد تمييز البرئ من المذنب فى هذا الخليط العظيم من المتآمرين ، والمشتبه فيهم والسراة غير المؤذين . ولكنهم تجاهلوه ، وحدثت فى أوائل سبتمبر المذبحة التى لا بد منها .

ابتدأ الأمر على حين فجأة بأن عصابة من الرجال كانت تستولى على أحد السجون ثم على الآخر وهكذا ، وتشكل ضرباً من المحاكم الغليظة ، وكان يتجمع فى الخارج صنف من الدهماء الضارية مسلحاً بالسيوف والخوازيق والبلط . وكان السجناء يقتادون من زنزاناتهم واحداً بعد الآخر لا فرق فى ذلك بين رجل وامرأة ، ثم يستجوبون استجواباً وجيزاً ، ويعفى عنهم بصيحة « لتحيا الأمة » ، أو يقذف بهم إلى الدهماء على الأبواب . وهناك كان الجمهور يتدافع ويتقاتل ليحدث فى الضحية جرحاً أو يصيبها بطعنة . وكان المحكوم عليهم يطعنون ، ويمزقون إرباً ويضربون حتى يقضوا نحبهم ، وكانت رؤوسهم تحتز ، وترفع على الخوازيق وتحمل فى أرجاء المدينة وتلقى أجسادهم الممزقة جانباً . وهلك فيمن قتل الأميرة

دى لامبال التي تركها الملك والملكة في قصر التويلرى . وحملت رأسها على أحد الأسياخ إلى المعبد لتراها الملكة . وكان في زنزانة الملكة اثنان من الحرس الوطني ، رغب أحدهما في أن يحملها تنظر من النافذة لتبصر هذا المشهد الفظيع ، ولم يرغب زميله رحمة بها أن يسمح لها بفعل ذلك .

وحتى عند ما كانت هذه المأساة الدموية تجرى في باريس ، كان الجنرال الفرنسي دوموريه الذى كان قد هرع بأحد الجيوش مسرعاً من فلاندر إلى غابة الأرجون ، يصد تقدم جيوش الحلفاء وراء ڤردان . وحدثت في ٢٠ سبتمبر معركة كانت في معظمها تبادلاً في إطلاق المدافع في ڤالمى . وأوقف تقدم بروسى لم يكن مصحوباً بالعزم ، وثبتت المشاة الفرنسية في مكانها ، وكانت مدفعيتهم خيراً من مدفعية الحلفاء . وظل دوق برانزويك يقدم رجلا ويؤخر أخرى طيلة عشرة أيام بعد ذلك الصد ، ثم أخذ ينسحب إلى الرين . وكانت أعناب شامبانيا الحامضة قد نشرت الدوسنتريا في الجيش البروسي . ومعركة ڤالمى هذه ولم تكن لتعدو كثيراً عملية إطلاق مدافع — إحدى معارك التاريخ الفاصلة . وتم إنقاذ الثورة .

والتأم المؤتمر الوطني في ٢١ سبتمبر ١٧٩٢ ، ثم أعلن من فوره الجمهورية . وعقب تلك الأحداث محاكمة الملك وإعدامه بحكم ضرب من الضرورة المنطقية . مات الملك ويكاد يكون ذلك بوصفه رمزاً أكثر منه رجلا . إذ لم يجدوا أمامهم غير ذلك شيئاً يفعلونه به ؛ ياله من مسكين ، فإنه كان يسد مسالك الأرض . ولم تكن فرنسا لتستطيع أن تدعه يذهب ليشجع المهاجرين ، وما كانت لتستطيع أن تمنعه من إحداث الشر في بلادها ، فكان وجوده مصدر تهديد لها . وكان ماراً قد حضّ في غير هوادة على القيام بهذه المحاكمة ، على أنه لم يكن بأسلوبه الواضح المرير المعروف — لم يكن ليميل إلى توجيه أية تهمة إلى الملك قبل أن يوقع الدستور ، لأنه يكون قبل ذلك ملكا فعلياً ، ويكون فوق القانون وبذا لا يمكن أن يكون غير شرعى . كذلك لم يكن ماراً ليميل إلى السماح بالطعن في محامى الملك . . . وكان ماراً يلعب في الموضوع من أوله إلى آخره دوراً مريراً غير أنه دوز عادل في الغالب ، كان رجلا عظيما ، ذا ذكاء لطيف ممتاز ، في إهاب من نار ؛ يعصف به ذلك البغض العضوى المستقر في الدم ، والذى ليس من ثمار العقل بل الجسد .

وقطعت رأس لويس في يناير ١٧٩٣ . احتزت بالمقصلة لأن المقصلة (الجيلوتين) استعملت منذ أغسطس السابق أداة الاعدام الرسمية في فرنسا . وكان دانتون فيما اتخذ لنفسه من دور الأسد ممتازاً جداً في هذه المناسبة : فلقد زأر بأجهر صوت قائلا : « يريد ملوك أوربا أن يتحدونا ، وها نحن أولاء نلقى إليهم رأس أحد الملوك » .

١١ — جمهورية اليعاقبة ١٧٩٢ — ١٧٩٤

وعقب ذلك دور غريب فى تاريخ الشعب الفرنسى . فقد توقد وميض لهب عظيم من التحمس لفرنسا والجمهورية . إذ كان لا بد من وضع حد لروح المسالمة داخل فرنسا وخارجها ، فنى الداخل كان لا بد من القضاء على الملكيين وكل شكل من أشكال عدم الولاء ، وكان لا بد لفرنسا فى الخارج من أن تكون حامية كل الثوريين ومعينتهم . وكان لا بد من أن تصبح كل أوربا بل كل العالم جمهورية فى تكوينها . وانثال شباب فرنسا إلى الجيوش الجمهورية انثيالا . وانتشرت فى كل أرجاء البلاد أغنية جديدة مدهشة وهى أغنية لا تزال تفعل فى إحماء الدم فعل الصهباء هى « المارسيليز » . وتدحرجت إلى الوراء الجيوش الأجنبية قدام هذه الأنشودة وطوابير الوثابين من حملة السونكى الفرنسيين ومدافعهم المنطلقة فى حماسة . وقبل أن تأتى خاتمة ١٧٩٢ كانت الجيوش الفرنسية قد بلغت مدى تجاوزت به كل ما أحرزه الملك لويس الرابع عشر ، وكانوا فى كل مكان يطأون أرضاً أجنبية . كانوا فى بروكسل وكانوا اجتاحوا سافويا ، وأغاروا حتى مايانس Mayence ، واستولوا من هولندا على الشلدت . وعند ذلك فعلت الحكومة الفرنسية فعلة خرقاء . إذ كان أسخطها طرد ممثلها من انجلترا عند إعدام لويس ، فأعلنت الحرب على انجلترا . كانت فعلة خرقاء لأن الثورة التى أعطت فرنسا مشاة جديدة متحمسة ومدفعية زاكية متحررة من ضباطها الأرستقراطيين ومن كثير من التقاليد الموبقة ، قد أفسدت نظام بحريتها وكان للإنجليز السيادة فى البحر . ووحد هذا الاستفزاز كلمة بريطانيا كلها ضد فرنسا ، بعد أن كان هناك فى بداية الأمر حركة أحرار سمحاء كبيرة تعطف على الجمهورية .

ولسنا بمستطيعين أن ننبئك فى أى تفصيل حديث القتال الذى قامت به فرنسا فى السنوات القليلة التالية ضد تحالف أوربى . فأزاحت النمسويين إلى الأبد من بلجيكا . وحولت هولندا إلى جمهورية . وسلم الأسطول الهولندى وقد تجمد حوله الماء فى نهر التكسل لحفنة من الفرسان دون أن يطلق من مدافعه قذيفة واحدة . وتوقفت هجمات الفرنسيين نحو إيطاليا ردحا من الزمان ، ولم يحدث إلا فى عام ١٧٩٦ أن جنرالا جديداً هو نابليون بونابرت ، اقتاد الجيوش الجمهورية الجائعة المهلهلة الثياب مظفرة عبر بيدمونت إلى مانتوا وفيرونا . ولا يستطيع كتاب معالم فى التاريخ أن يصور تلك الحملات بدقة ؛ غير أنه ملزم أن يلحظ الصفة الجديدة التى ظهرت فى الحرب . كانت الجيوش المحترفة القديمة تحارب لا غاية لها إلا القتال فى بطء وتراخ ، كالعمال الذين يشتغلون بالساعة ، وكانت هذه الجيوش الدهشة الجديدة تحارب من أجل النصر --

وإن كانت جائعة ظمئة . وكان أعداؤهم يسمونهم « الفرنسيين الجدد » . يقول س . ف . أتكنسون[1] : « كان أشد ما أدهش الحلفاء هو عدد هؤلاء الجمهوريين وسرعتهم . فالواقع أنه ما كان ليعوق هذه الجيوش المرتجلة أى عائق . فكان من المتعذر الحصول على الخيام بسبب انعدام المال . وكان فى غير الإمكان نقلها بسبب العدد الهائل من العربات التى لا مفر من الاحتياج إليها ، وكانت كذلك غير ضرورية لأن المتاعب التى طالما سببت تسلل الجند زرافات لواذاً من الجيوش المحترفة ، كان يتحملها رجال ١٧٩٣ — ١٧٩٤ مسرورين مغتبطين . كما أن المدد لهذه الجيوش التى لم يسمع الناس حتى ذلك الحين بمثل حجمها لم يكن من المستطاع حمله فى قوافل بحرية ، وسرعان ما تعلم الفرنسيون فكرة العيش على حساب البلاد . وبذا شهدت ١٧٩٣ مولد طريقة الحرب العصرية : سرعة الحركة والتطور الكامل للقوة الوطنية والهجود

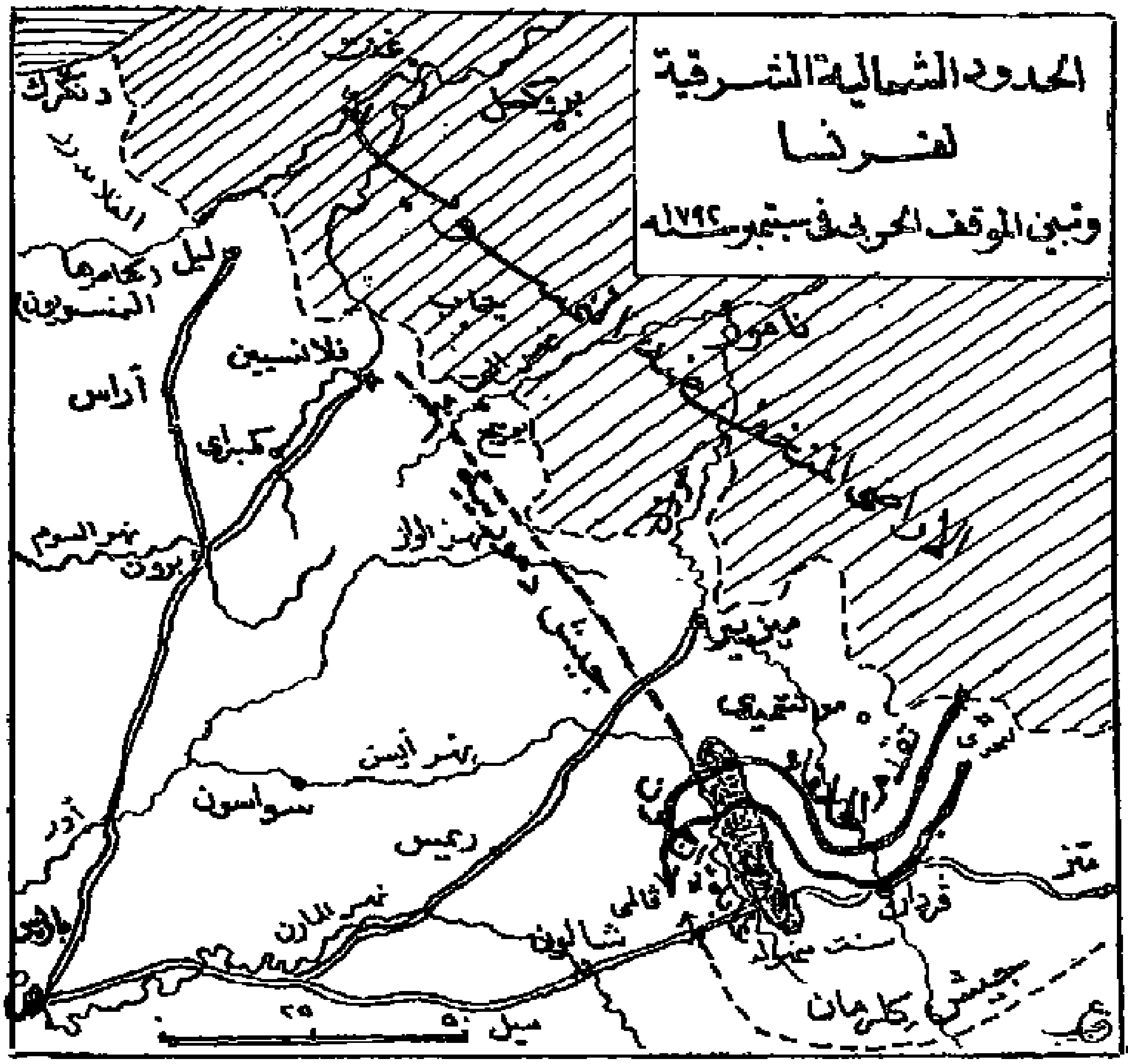

(شكل ١٨٥)

فى العراء (أى مبيت الجنود على الأرض دون خيام) وإجبار الأهالى على تقديم ما يلزم للجيش الغازى لهم والقوات — بوصفها بأجمعها مقابلا للمداورات الحذرة ، والجيوش الصغيرة المحترفة ،

(١) فى مقالته « الحروب الفرنسية الثورية » بالموسوعة البريطانية الطبعة الثانية عشرة .

والخيام والجرايات الكاملة والألاعيب الدنيئة . وكان الأولون يمثلون الروح التى تستلزم الحسم فى الأمر ، ويمثل الآخرون روح الخطار بالقليل للحصول على القليل » .

وبينما كانت هذه الجيوش العرمرم المكونة من متحمسين فى أسمال بالية تنشد «المارسيليز» وتقاتل من أجل فرنسا — وظاهر أنه لم يكن متضحاً تمام الوضوح فى أذهانهم هل كانوا ينتهبون الأقطار التى انثالوا إليها أو يحررونها — فإن الحماسة الجمهورية فى باريس كانت تستنفد نفسها بطريقة أقل مجداً وكرامة بكثير . وكان مارا وهو الرجل الوحيد ذو الذكاء القاهر بين أفراد اليعاقبة قد أصابه الجنون بسبب دائه العضال ، وسرعان ما قتل . وكان دانتون سلسلة من الصواعق الوطنية ، وتسيطر على الموقف التعصب الثابت المكين لروبسپيير . ومن العسير أن يقضى الإنسان فى هذا الرجل برأى ، كان رجلا ضعيف البنية خوافا بطبعه مغروراً صلفاً . ولكن كان فيه ألزم مواهب القوة وهى الإيمان . كان يعتقد لا فى رب يألفه الناس ، بل فى كائن علىّ بعينه ، وكان يرى روسو نبيا لذلك الكائن . فنصب نفسه لإنقاذ الجمهورية على الشاكلة التى يراها ، وكان يتوهم أنه ليس فى مستطاع أحد إلا إياه أن ينقذها . وبذا أصبح يعتقد أن بقاءه فى دست الحكم إنقاذٌ للجمهورية . وكان يلوح أن الروح الحى فى الجمهورية قد نشأ عن مذبحة الملكيين وعن إعدام الملك . وحدثت ثورات كثيرة : واحدة منها فى الغرب فى مديرية لافانديه ، حيث ثار الأهالى ضد الاقتراع على الجندية وضد طرد رجال الدين الأصليين من ممتلكاتهم ، وكان يقودهم فيها بعض النبلاء والقسيسين ؛ وأخرى فى الجنوب حيث ثارت ليون ومارسيليا وسمح ملكيو طولون لحامية إنجليزية وأسبانية بالنزول فيها . وكأنما ليس هناك أى جواب فعال على هذه الثورات إلا مواصلة قتل الملكيين . ولم يكن هناك شىء أحب من هذا إلى أفئدة سكان أحياء باريس الوضيعة . وأخذت محكمة الثورة تعمل بجد ، وابتدأت عملية ذبح متواصلة .

وقد نفذ حكم الإعدام فى مدة الثلاثة عشر شهراً السابقة على يونية ١٧٩٦ فى ١٢٢٠ شخصاً ونفذ الإعدام فى الأسابيع السبعة التالية فى ١٣٧٦ شخصاً . وجاء اختراع المقصلة فى أنسب الأوقات لهذه الحالة التى ألمت بمزاج الناس . وقضت المقصلة على الملكة ، وكذلك قضت المقصلة على معظم خصوم روبسپيير ؛ وقضت المقصلة على الملحدين الذين أنكروا وجود أى كائن أسمى ؛ وقضت المقصلة على دانتون لأنه رأى أن قد بولغ فى استعمال المقصلة ، وكانت هذه الآلة الجديدة الجهنمية تحز يوما بعد يوم ، وأسبوعا بعد أسبوع ، الرؤوس ثم المزيد من

الرؤوس ثم المزيد . وكان حكم روبسبيير يعيش فيما يبدو على الدم ، ويتطلب منه المزيد فالمزيد ، كما يتطلب مدمن الأفيون المزيد منه فالمزيد .

وكان دانتون ما زال هو دانتون ، إذ كان غضنفراً وكان موقفه فوق المقصلة مثالياً . قال « لا ضعف يا دانتون ! » .

وأعجب شيء وأدعاه إلى الضحك أن روبسبيير كان شريفاً شرفا لا يتطرق إليه الشك . بل لقد كان أشرف بكثير من أى من جماعة الرجال الذين خلفوه . وكان يطيف به إلهام يبث فيه رغبة حارة فى نظام جديد للحياة الإنسانية . وأخذت لجنة الأمن العام وهى حكومة الاثنى عشر للطوارئ وهى التى كانت عند ذاك دفعت بالمؤتمر جانباً ، تقوم بعمل إنشائى بالقدر الذى استطاع أن يستنبطه لها . وكان المعيار الذى حاولت أن تنشىء عليه هائلا ضخما . فإن كل المسائل المعقدة التى لا بد لنا اليوم من الكفاح وإياها قوبلت بحلول سريعة سطحية ضحلة . وبذلت محاولات للتسوية بين الناس فى العقار . قال القديس جوست «الثراء شنعة» . فضربت الضرائب على أملاك الأغنياء أو صودرت أملاكهم لتقسيمها بين الفقراء . وكان لا بد من أن يحصل كل رجل على منزل آمن ومورد رزق وزوجة وأولاد . وكان العامل جديراً بأجره ، ولكن ليس له الحق فى الحصول على منفعة من المنافع . وجرت محاولة لإلغاء الربح إلغاء تاما ، وهو الحافز الخشن لمعظم أعمال التجارة بين الناس منذ ابتداء الجماعة الإنسانية . والربح هو اللغز الاقتصادى الذى ما زال يُشكل علينا إلى اليوم . وصدرت قوانين عنيفة ضد الاستغلال بالسوق السوداء بفرنسا فى ١٧٩٣ . ووجدت انجلترا فى ١٩١٩ أن من الضرورى أن تصدر قوانين أشبه ما تكون بتلك . ولم يقتصر همّ حكومة اليعاقبة فقط على مجرد إعادة تخطيط النظام الاقتصادى — فى معالم صريحة — بل تجاوزته إلى النظام الاجتماعى كذلك . فجعل الطلاق فى نفس سهولة الزواج ، وأُلغى التمييز بين الأطفال الشرعيين وغير الشرعيين . واستحدث تقويم جديد ، مع أسماء جديدة للشهور وأسابيع مكونة من عشرة أيام وما إلى ذلك — وقد أزيل كل ذلك منذ زمن بعيد ، وكذلك أخلت العملة السمجة والموازين والمقاييس المعقدة بفرنسا القديمة مكانها للطريقة العشرية البسيطة الواضحة التى لا تزال موجودة . . . . وتقدمت بعض الفئات المتطرفة تقترح إلغاء « الله » فيما يلغى من النظم الأخرى تمام الالغاء ، واستبدال عبادة العقل به . وأقيمت بالفعل حفلة للعقل بكاتدرائية نوتردام اتخذت فيها إحدى حسان الممثلات ربة للعقل . ولكن روبسبيير وقف فى وجه هذه الحركة إذ أنه لم يكن ملحداً . قال « إنما الإلحاد نزعة أرستقراطية » فأما الفكرة القائلة بذلك

الكائن العلىّ الذى يراقب البرىء المظلوم ويكافؤه ويعاقب المجرم الظافر ، إنما هى بالضرورة فكرة الشعب . ولذا قضى بالمقصلة على هبرت Hebert . الذى احتفل بعيد العقل . كما قضى على كل أفراد جماعته .

وألمّ روبسبيير مع تقدم صيف ١٧٩٤ شىء ملحوظ من الاضطراب الذهنى . كان مهتما أعمق الاهتمام بديانته . (وكان اعتقال المشتبه فيهم وإعدامهم يجرى آنذاك على أتم نشاط . فكان « الإرهاب » يجلجل فى شوارع باريس فى كل يوم بعرباته المليئة بالمحكوم عليهم) . وقد حمل المؤتمر أن يصدر مرسوماً بأن فرنسا تؤمن بكائن أسمى ، وبذلك المبدأ المدخل للارتياح على الناس وهو مبـدأ خلود الروح . وفى يونيه أقام حفلة عظيمة لـكائنة الأسمى . وسار إلى الشان دى مارس موكب ترأسه وهو فى ثياب زاهية يحمل باقة عظيمة من الأزهار وسنابل القمح . وأحرقت فى مشهد وقور رهيب تماثيل من مادة قابلة للاحتراق تمثل الإلحاد والرذيلة ، ثم نهض فى مكانها بطريقة آلية ماهرة وبشىء قليل من الصرير ، تمثال للحكمة غير قابل للاحتراق . وألقيت الخطب — ألقى منها روبسبيير أهمها — ولـكن ظاهر أنه لم تجر أية عبادة .

ومنذ ذلك الحين بدت على روبسبيير بوادر الرغبة فى التأمل بمعزل عن شئون العالم . فظل شهراً كاملا بمنأى من المؤتمر . وحدث فى أحد أيام شهر يوليه أنه حضر وألقى خطبة عجيبة أنذرت بشكل واضح بقرب حدوث محاكمات جديدة . وإذ شخص بتصره متفكراً فى مجموع تلك الرذائل التى قوضها سيل الثورة الجارف ، صاح فى آخر خطبة عظيمة له فى المؤتمر قائلا ، « لقد كنت فى بعض الأحيان تأخذنى رعدة الخوف من أن أتدنس من جيرة الشريرين النجسة . . . وإنى لأعرف أن من السهل على عصبة الطغاة فى العـالم أن يتكاثروا على فرد بمفرده ، غير أنى أعرف كذلك ماهو واجب الرجل الذى يقدر أن يموت دفاعاً عن الانسانية » .

وهكذا استطرد حتى وصل إلى عبارات مبهمة كان يبدو أنها تهدد كل إنسان .

واستمع المؤتمر هـذه الخطبة فى صمت وسكوت ؛ ثم حدث عند ما قُدم اقتراح بطبعها وتوزيعها ، أن جأر بصياح الغضب وأبى السماح بذلك . وخرج روبسبيير فى استياء مرير وذهب إلى نادى أنصاره ، وأعاد تلاوة خطبته عليهم . وامتلأت تلك الليلة بالـكلام والمقابلات والاستعداد للغد ، وفى اليوم التالى انقلب المؤتمر على روبسبيير . وهدده شخص اسمه تاليان بخنجره . ولما حاول أن يتكلم صاح به الأعضاء حتى أسكتوه ، ودق الرئيس الجرس فى وجهه . وقال روبسبيير « يا رئيس السفاحين إنى أطلب الـكلمة ! » وأبيت عليه الـكلمة . وخانه

صوته . فأخذ يسعل ويصخب . وصاح بعضهم « إن دم دانتون يخنقه » . فوجهت إليه التهمة واعتقل هناك للوقت ومعه أهم أعوانه شأنا .

وعند ذلك ثارت ضد المؤتمر ثائرة دار البلدية وكانت لا تزال بعقوبية قوية . وأخذ روبسپيير ورفقاؤه عنوة من أيدى آسريهم . ومرت ليلة حدث فيها التجمع والزحف ثم الزحف المضاد ، وأخيراً التقت قرابة الساعة الثالثة قوات المؤتمر بقوات بلدية باريس خارج دار البلدية .

وكان هنريو ، قائد اليعاقبة يرقد مخموراً فى الطابق الأعلى إثر يوم قضاه منهمكا فى العمل ، وعقبت ذلك مفاوضات ، ثم انحازت جنود البلدية بعد تردد قليل إلى صف الحكومة . وتصايح القوم فى انفعال وطنى وأطل أحدهم من نافذة بدار البلدية . وألفى روبسپيير وآخر من بقى معه من إخوانه أن جنودهم انفضوا من حولهم وخانوهم وأوقعوهم فى الفخ . وألقى اثنان أو ثلاثة من هؤلاء الرجال بأنفسهم من إحدى النوافذ ، وأحدثوا بأنفسهم إصابات مروعة على الأسوار الحديدية دون أن يقتلوا أنفسهم ، وحاول آخرون الانتحار . والظاهر أن أحد الجنود أصاب روبسپيير برصاصة فى الفك الأسفل . فقد وجدوه يحملق بعينين شاخصتين وسط وجه شاحب كان نصفه الأسفل من الدم .

وعقب ذلك سبع عشرة ساعة قضاها فى الألم المبرح قبل أن تحين نهايته . ولم ينبس بكلمة طوال تلك المدة ؛ إذ كان فكه مربوطا ربطا خشناً بقماش قذر . وأخذ هو ورفاقه ، والأجسام المهشمة المحتضرة لأولئك الرجال الذين قفزوا من النوافذ — وكانوا فى مجموعهم اثنين وعشرين رجلا — إلى المقصلة بدل الذين قضى بإعدامهم فى ذلك اليوم . وكانت عيناه فى الغالب مغمضتين ، ويقول كارليل إنه فتحهما فرأى السكين العظيمة ترتفع من فوقه وأخذ يقاوم ويتملص . كذلك حدث فيما يظهر أنه صرخ عندما رفع الجلاد عنه ضمادته ، ثم هوت السكين سريعة رحيمة . وانتهى عهد الإرهاب . ومنذ البداية حتى النهاية كان عدد المحكوم عليهم والمعدمين أربعة آلاف إنسان .

١٢ — حكومة الإدارة

مما يشهد بالحيوية الهائلة والخير العميم فى طوفان المثل العليا والمقاصد الجديدة التى أطلقت الثورة الفرنسية أسارها إلى عالم الجهد العملى ، أنها كانت لا تزال تستطيع أن تفيض بسيل خلاق بعد أن رأى الناس لها صورة ممسوخة وسخروا منها حين تمثلت فى شخصية روبسپيير وحياته المضحكتين . وكان قد أظهر أعمق أفكارها ، وأبدى المتوقع من طرائقها وثمارها ،

خلال العدسات النيرة المشوّهة التى صيغت منها كبرياؤه وأنانيته الخارجة عن كل معقول ؛ وكان قد سود ولطخ بالدم والرعب كل آمالها وما ينتظر منهـا ، ومع ذلك فإن قوة هـذه الفكرات لم تدمر . فإنها تحملت الاختبارات القاسية التى ألمت بهـا أثناء عرضها على تلك الصورة المضحكة البشعة ، وكانت الجمهورية بعد سقوطه ما تزال تحكم حرة لا يهاجمها مهاجم منيعة لا ينال منها أحد منالا . ولـكن لم يكن لها من زعيم يقودها ، وذلك أن خلفاءه كانوا جماعات من رجال مكرة أو عاديين ، وواصلت الجمهورية الأوربية كفاحها مدة من الزمان ، ثم لم تلبث حتى سقطت ونهضت ثانية ، ثم سقطت ونهضت وما تزال تـكافح ، وهى تلقى العراقيل غير أنها منيعة لا تقهر .

ومن الخير أن نذكّر القارئ فى هذا المقام بالحجم الحقيقى لدور الأرهاب هـذا ، الذى يروع الأخيلة أيما ترويع ، والذى بولغ فيه بناء على هذا مبالغة هائلة بالقياس إلى بقية الثورة . فمنذ ١٧٨٩ إلى أخريات ١٧٩١ كانت الثورة الفرنسية عمليـة منتظمة ، ومنذ صيف ١٧٩٤ كانت الجمهورية دولة منتظمة مظفرة . ولم يكن الإرهاب من عمل البلاد بأكملها ، بل مما جنته أيدى رعاع المدينة الذين كانوا مدينين بوجودهم ووحشيتهم إلى سـوء الحـكم والظلم الاجتماعى فى الدولة البائدة ؛ وما كان انفجار حـكم الإرهاب ليحدث لولا إصرار الملـكيين على خيانتهم وعدم ولائهم ، الذى ترتب عليه أنه بينما يثير المتطرفين إلى درجة الجنون ، كان يحمل كتلة الجمهوريين المعتدلين على عدم التدخل . وكان خيرة الرجال مشغولين بقتال النمسويين والملـكيين على الحدود .

ولا بد لنا أن نتذكر أن مجموع المقتولين فى حكم الإرهاب وصل فى غاية جملته إلى بضع آلاف قليلة ، وكان بين هؤلاء الأعداد ولا ريب عدد كبير من الخصوم العاملين ، الذين كان يحق للجمهورية قياساً على معايير ذلك الزمان أن تقتلهم . وكانت تضم من الخونة وصناع الشر أمثال فيليب دوق أورليان ، صاحب الباليه رويال الذى أعطى صوته محبذاً موت لويس السادس عشر .

ولقد ضاع من الأنفس على يد القواد الإنجليز وحدهم فى يوم افتتاح ما يسمى باسم هجوم السوم فى يولية ١٩١٦ ، أكثر مما ضاع فى كل الثورة الفرنسية منذ بدايتها إلى خاتمتها .

وإنا لنسمع كثيراً عن الشهداء فى حكم الإرهاب لأنهم كانوا أقواماً من ذوى المـكانة والمصاهرة والقرابة الطيبة ، ولأنه حدث ضرب من الدعاية حول ما يقاسون ، ولـكن علينا أن نوازن فى أذهاننا بين ذلك وبين ما كان يجرى فى سجون العالم عامة فى ذلك الزمان . ففى

انجلترا وأمريكا إبّان حكم الإرهاب فى فرنسا كان يقتل من الناس لجرائم غالبا ما كانت جرائم تافهة ضد الممتلكات عدد يفوق كثيراً عدد من حكمت عليهم محاكمُ الثورة فى فرنسا بسبب الخيانة للدولة . وبديهى أنهم كانوا فى الواقع أناسا عاديين جداً ، ولكنهم قاسوا آلاما على طريقتهم الخشنة . فقد حدث مرة أن شنقت فتاة فى ماساشوستس فى ١٧٨٩ لأنهـا أخذت بالإكراه قبعة وحذاء ومشابك من فتاة أخرى لقيتها فى الطريق . كذلك وجد هوارد محب الإنسانية (قرابة ١٧٧٣) عدداً من الأفراد التامى البراءة محجوزين فى السجون الإنجليزية بعد أن حوكموا وحكم ببراءتهم ولم يستطيعوا أن يدفعوا أجرة السجان . وكانت تلك السجون أماكن قذرة لا تظللها رقابة فعالة . وكان التعذيب لا يزال يستعمل فى الممتلكات الهانوفارية لصاحب الجلالة البريطانية الملك چورچ الثالث . وكان يستعمل فى فرنسا حتى أوان الجمعية الوطنية . وتشير كل هذه الأمور إلى مستوى العصر عامة .

وليس فيما سجل ما يدل على أن أى امرئ قد عذبه عمداً رجال الثورة الفرنسية أثناء حكم الإرهاب . فإن هؤلاء المئات القلائل من السراة الفرنسيين قد تردّوا فى حفرة كان يطيب معظمهم نفساً بأن تحفر للآخرين . كان الأمر محزنا لا جرم ، ولكن لم يكن فيه إذا قيس بمعيار التاريخ العام مأساة عظيمة . فإن الرجل العامى فى فرنسا كان أوسع حرية وأوسع رزقا ، وأشد سعادة إبان حكم الإرهاب مما كان فى ١٧٨٧ .

وتصبح قصة الجمهورية بعد صيف ١٧٩٤ قصة معقدة من الطوائف السياسية التى ترمى إلى كل شىء ، ما بين جمهورية راديكالية إلى حركة رجعيـة ملكية ، غير أنها كانت تظللها رغبة عامه فى إقامة تنظيمة ما محددة فعالة وإن كلفها ذلك قدراً جسيما من الإذعان والتساهل . وأحدث اليعاقبة والملكيون سلسلة من الفتن إذ يلوح أنه كان هناك فى باريس ما عسانا أن نسميه اليوم باسم طبقة مشاغبى الشوارع . وهى على أتم الاستعداد للخروج للقتال والنهب فى صف أى من الطرفين . ومع هـذا فإن المؤتمر أنتج حكومة ، هى حكومة الإدارة وهى مكونة من خمسة أعضاء ، حافظت لفرنسا على تماسكها أمد خمس سنوات . وقضى على آخر فتنة وأشدها خطراً فى أكتوبر ١٧٩٥ ، بمهارة فائقة وحزم نافذ على يد چنرال صغير ناهض هو نابليون بونابرت .

كانت الإدارة مظفرة فى الخارج ، غير أنها كانت خاملة غير خلاقة فى الداخل ، إذ كان أعضاؤها أحرص على الاستمساك بحلاوة الوظيفة وعظمتها ، من أن يجهزوا دستوراً يخليهم من العمل ويحل غيرهم محلهم ، وكانوا أخون من أن يسلموا مقاليد عمليـة إعادة الإنشاء

الاقتصادية والمالية التي تتطلبها حالة فرنسا . ولسنا بحاجة أن نذكر إلا اسمي رجلين منهم — أحدهما كارنو (Carnot) الذي كان جمهوريا شريفا ، وبارّا (Barras) الذي كان لصاً بشكل ملحوظ . وقد كون حكمهم هذا الممتد خمس سنوات قصة عجيبة مثلت بين فصول هذا التاريخ ، الحافل بالتغييرات العظيمة . فإنهم تناولوا الأمور كما وجدوها . وحملت حماسة الدعاة للثورة الجيوش الفرنسية إلى هولندا ، وبلجيكا ، وسويسرا وجنوب ألمانيا ، وشمال إيطاليا . كان الملوك يطردون في كل مكان وتقام في أماكنهم الجمهوريات .

ولكن حماسة تلك الدعاية التي أثارتها حكومة الإدارة لم تحل دون انهاب كنوز الشعوب المحررة بغية تخفيف ما تلقاه الحكومة الفرنسية من الاضطراب والعسر المالي . وأخذت تقل من حروبهم رويداً رويداً صفتها بأنها حرب الحرية المقدسة ، وأخذت تقترب أكثر فأكثر من شكل حرب الحكم البائد العدوانيـة . وكان آخر مظهر للملكية العظمى كانت فرنسا ترغب في التجرد منه هو سياستها الخارجية . غير أنا نكتشف تلك السياسة وهي على نفس قوتها الأولى أثناء حكم حكومة الإدارة كأنما لم يحدث هناك أية ثورة .

١٣ — توقف التعمير وفجر الاشتراكية العصرية

كان انحسار هذا الفيض من الثورة في العالم ، ذلك الفيض الذي خلق جمهورية أمريكا العظيمة وهدد بأن يغمر بطوفانه كل الملكيات الأوربية — قد أوشك عند ذاك على بداية جزره ، وكأن شيئاً قد اندفع من دون سطح الشئون الإنسانية ، وبذل جهداً جباراً ، ثم ما لبث أن تلاشى بددا إلى حين . وجرف أمامه كثيراً من الأشياء المهجورة الضارة ، ولكن بقيت من بعده أمور كثيرة ضارة غير عادلة . نعم إنه حل مسائل كثيرة ، ولكنه ترك الرغبة في الزمالة والنظام تواجه مسائل أكثر ضخامة لم يبد عليه أنه تجاوز حد هتك الستر عنها . وذهبت أشكال معينة من الامتيازات ، كما ذهب الكثير من ألوان الاستبداد والاضطهاد الديني . وعند ما اختفت أشياء الحكم البائد هذه ، بدت كأنما لم تكن لها أبداً أية أهمية . وكل ما كان يهم فعلا هو أن الرجال العاديين بالرغم من كل أصواتهم الانتخابية واقتراعهم ، وبالرغم من كل رغباتهم وجهودهم ، كانوا ما يزالون لا هم بالأحرار ولا هم بالمستمتعين بالسعادة المتساوية ، وأن الوعد الهائل الموعود وتفيؤ أكناف عالم جديد وهما الأمران اللذان جاءت الثورة بهما ظلا وهماً لا ظل له من الحقيقة .

ومع هذا فإن موجة الثورة هذه قد حققت تقريباً كل شيء فكر فيه الناس تفكيراً جلياً

قبل مجيئها . ولم تكن تفشل الآن بسبب امتناع الدافع ، بل بسبب امتناع الفكرات المدروسة المصقولة . فقد جُرفت إلى الأبد كثير من الأشياء التى طالما ظلت الإنسانية . والآن وقد جُرفت وانتهى أمرها ، أصبح من الجلى كم كان الرجال غير مستعدين للنهزات الخلاقة التى أتاحتها لهم هذه الإزالة . وإنما فترات الثورة فترات عمل ، وفيها يحصد الرجال ثمار الفكرات التى نمت أثناء أدوار فترات الهدوء بين الثورات ، إنها لتترك الحقول نظيفة مستعدة لموسم جديد من مواسم النماء ، ولكنها لا تستطيع أن تنتج فجاءة فكرات جديدة منضجة لتقابل بها لغزاً غير متوقع .

وكان طرد الملك والنبيل ، والقسيس ومحكمة التفتيش ، وصاحب الأراضى وجابى الضرائب وملاحظ الأشغال قد غادر كتلة الناس يواجهون لأول مرة بعض نواحى معينة جوهرية جداً للتركيب الاجتماعى ، وهى العلاقات التى سلموا بها من قبل ولم يدركوا البتة ضرورة التفكير الشديد وإطالة النظر فيها . وظهر أن النظم التى كانت تبدو قطعة من طبيعة الأشياء ، والأمور التى كان يبدو أنها تحدث على نفس منوال ذلك النوع من الضرورة التى تُطلع الفجر وتأتى بالربيع — ظهر أنها كانت أموراً اصطناعية يمكن التصرف فيها ، لولا ما هى عليه من التعقيد المربك ، كما ظهر أنها الآن وقد ألغيت الروتينات القديمة وتخلص الناس منها ، — فى أمس الحاجة إلى يد تهيمن عليها . ووجد النظام الجديد نفسه تواجهه ألغاز ثلاثة ، كان على تمام عدم الاستعداد لحلها : وهى الملكية والعملة والعلاقات الدولية .

ولنتناول هذه المسائل الثلاثة بالترتيب ، ونسأل عن ماهيتها وكيف نشأت فى الشئون الإنسانية ؟ فإن كل حياة إنسانية تتصل بها اتصالا عميقاً ، كما أن حلها يمسها مساً مباشراً . وإن بقية هذا التاريخ لتغدو بشكل يتزايد وضوحاً كل يوم ، تطوراً للمجهود المبذول لحل هذه المسائل ؛ أو بمعنى آخر أنه يصبح جهداً غايته تفسير الملكية ، وتأسيس العملة ، وإدارة دولاب العلاقات الدولية ، — على شاكلة تجعل فى الإمكان إنشاء مجتمع سعيد للإرادة متقدم يعم العالم أجمع . فهن الألغاز الثلاثة التى يرمز لها « أبو هول » القدر ، والتى يجب على الدولة الإنسانية أن تجد لها جواباً أو تهلك .

وتنشأ فكرة المِلكية عن غرائز المقاتلة فى الجنس البشرى . فقبل أن كان الرجال رجالا بزمان مديد كان القرد الجد مالكا . والملكية البدائية هى ما يقاتل الوحش من أجله . فالكاب والعظمة والببرة ووجارها والغزال الهادر وسربه ، كل هذه مِلْكيات يتوهج أوارها . وليس ثمة تعبير أسخف فى علم الاجتماع من عبارة «الشيوعية البدائية» . فإن الرجل

المسن فى قبيلة العائلة فى الأزمان الباليوليثية الأولى كان يصر على ملكيته فى زوجاته وبناته ، وفى آلاته وفى عالمه المرئى المحيط به . فلو دخل أى رجل إلى عالمه المرئى المحيط به لقاتله ، ولذبحه إن استطاع . ونمت القبيلة على مر العصور ، كما بين ذلك أتكنسون تبيانا مقنعاً فى كتابه « القانون البدائى » ، بالتسامح التدريجى الذى يبديه الرجل المسن نحو وجود الشبان الأصغر منه سناً ، وفى ملكيتهم للزوجات اللائى يمسكون من خارج القبيلة ، وفى الآلات وفى الحلى التى كانوا يصنعونها والصيد الذى كانوا يقتاتون . ونمت الجماعة الإنسانية بسبب التوفيق بين ملكية هذا الفرد وملكية ذاك . كان فى أكبر شأنه توفيقاً وتحالفا اضطر الرجال إليه بسبب ضرورة دفع قبيلة أخرى إلى خارج عالمهم المرئى المحيط بهم . فلئن لم تكن التلال والغابات والأنهار أرضك أو أرضى ، فذلك لأنه كان لزاماً أن تكون أرضنا . وإن كلا منا ليؤثر لو أنها كانت « أرضه هو » ، ولكن هذا لا يمكن العمل به ، ففى تلك الحالة يقوم الرجال الآخرون بتدميرنا . وإذن فالجماعة الإنسانية إنما هى منذ بداياتها تخفيف لغلواء الملكية . والملكية فى الوحش الضارى وفى المتوحش البدائى كانت أشد حدة منها فى العالم المدن اليوم . فهى منغرسة غرساً قوياً فى غرائزنا أكثر منها فى عقولنا .

وليس هناك تحديد لنطاق الملكية فى المتوحش الفطرى وفى الرجل غير المهذب اليوم ، ذلك أنه من الخير أن نتذكر أنه ما من إنسان يزيد بعده اليوم على أربعمئة جيل من المتوحش البدائى . فأى شىء تستطيع أن تقاتل من أجله فشىء أنت قادر على امتلاكه : من النساء ، وممن تبقى عليهم من الأسرى ومن الضوارى المصيدة ، ومن مسالك الغابة ومن مآخذ الحجر إلى غير ذلك . ومع نمو المجتمع وتولى ضرب من القانون الحد من القتال الفتاك ، طور الناس طرائق خشنة سريعة لإقامة الملكية . وكان الناس يقدرون أن يملكوا ما كانوا أول من صنعه أو وضع يده عليه أو ادعاه . وكان يبدو طبيعياً أن كل مدين لا يستطيع تسديد دينه لا بد أن يغدو ملكا لدائنه . ويعادل هذا فى كونه طبيعياً أن الرجل بعد ادعائه رقعة من الأرض ، لا بد له من تحتيم دفعات مالية على كل رجل آخر يريد استعمالها . ولم يحدث إلا ببطء ، ومع بزوغ فجر احتمالات الحياة المنظمة وظهور بوادرها على الناس ، أن ابتدأ الناس يرون فى هذه الملكية غير المحدودة لأى شىء كان — مصدر إزعاج ومضايقة لهم . وألفى الرجال أنفسهم يولدون إلى عالم مملوك كله ومدعى ملكيته كله — بل ألفوا أنفسهم يولدون مملوكين أو مدعى ملكيتهم . ومن العسير الآن علينا أن نقفو أثر الكفاحات الاجتماعية فى الدنيات الأشد قدماً ، غير أن التاريخ الذى حدثناك به عن الجمهورية الرومانية يكشف لك مجتمعاً

يستيقظ على فكرة أنه ربمـا غدا الدين مضايقة عامة ، ولا بد عند ذاك من إنكاره والامتناع عن أدائه ، وأن الملـكية غير المحدودة للارض إنمـا هى كذلك مضايقة من المضايقات . وإنا لنجد أن مملـكة بابل (بابلونيا) عمدت فى عهدها المتأخر إلى تحديد حقوق الفرد فى امتلاك الأرقاء تحديداً شديداً . وأخيراً نجد فى تعليم ذلك الثورى المظيم ، يسوع الناصرى ، هجوماً وطعناً فى الملـكية لم يوجد مثله قبل ذلك أبداً . قال « أيسر أن يمر الجمل من ثقب الإبرة من أن يدخل مالك العقارات العظيمة ملـكوت السموات » .

ويلوح أنه كان يحدث فى العالم طوال الخمسة والعشرين أو الثلاثين قرناً الأخيرة نقد ثابت متواصل للمقدار الذى يمكن السماح به من الملـكية . وها نحن بعد انقضاء تسع عشرة مئة من السنين على يسوع الناصرى نجد كل العالم المستظل بالتعاليم المسيحية مقتنعا بأن الملـكية فى الأشخاص ليست شيئاً فى الإمكان . إذ حدث من ناحية هذا الأمر انقلاب فى الضمير العام . وكذلك الفكرة القائلة « بأن الرجل يستطيع أن يفعل ما يشاء فيما يملك » قد هزت اهتزازاً واضحاً كبيراً وضعفت ضعفاً ملموساً بالعلاقة إلى أنواع أخرى من الملـكية . على أن هذا العالم فى نهاية القرن الثامن عشر لم يبلغ بعد إلا مرحلة الشك والاستفسار : أن لم يكن بين يديه شىء واضح وضوحاً كافياً ، وأقل من هذا أن لم يكن لديه شىء مستقر استقراراً يكفى للعمل من فوقه . وكان بين أوائل دوافعه حفظ العقار من أن يعبث به شره الملوك وتبذيرهم ومن استغلال النبلاء المغامرين . وكان أن ابتدأت الثورة من أجل الحفاظ على العقار الخاص . ولـكن مبادىء المساواة التى اتخذت دفعت بها فى تيار نقد للملـكية التى نهضت لحمايتها . إذ كيف يستطيع الرجال أن يكونوا أحراراً متساوين بينما العدد الجم منهم ليس لديهم أرض يعيشون عليها ولا شىء يطعمونه ، ولن يرضى الملاك بإطعامهم ولا بإيوائهم ما لم يكدحوا كدحاً مفرطاً — تلك هى شكاية الفقراء .

وكان رد اليعاقبة على ذلك اللغز أن شرعوا فى التقسيم . فإنهم أرادوا أن يشدوا أزر الملـكية ويعمموها . وكان هناك من قبل فى القرن الثامن عشر قوم يرمون إلى نفس الغاية وإن كان ذلك بطريق آخر ، هم جماعة بدائية بعينها من الاشتراكيين — أو بمعنى أدق من الشيوعيين — كانوا يريدون أن يلغوا الملـكية الخاصة إلغاء تاماً . وكان على الدولة فى رأيهم أن تملك كل الملـكيات . ولم يكن إلا بعد مضى فترة كبيرة من القرن الثامن عشر أن شرع الناس يدركون أن الأملاك ليست شيئا واحداً بسيطا ، بل هى مركب عظيم من الملـكيات ذوات القيم والأهميات المختلفة ، وأن كثيراً من الأشياء (من أمثال بدن الإنسان وأدوات

الفنان والثياب وفرش الأسنان) إنما هى ممتلكات شخصية عميقة جداً ولا علاج لها أبداً ، وأن هناك نطاقاً عظيما من الأشياء أمثال السكك الحديدية والآلات ذوات الأنواع المختلفة والمنازل والحدائق المزروعة وزوارق المتعة وكل منها بحاجة أن تأملها تأملا خاصا جدا لتقدّر إلى أى درجة وتحت أى قيود يمكن أن توضع تحت اسم الملكية الخاصة ، وعلى أى بعد تقع فى نطاق الملكية العامة ويمكن أن تديرها وتؤجرها الدولة وتضمها إلى المصلحة الجماعية .

وبين أيدينا اليوم ذخر كبير من الجدل الذى دار فى مدى المئة والثلاثين السنة الأخيرة حول الجيل الثوروى الأول ، ولكن حتى فى هذا اليوم لا يزال هذا النقد الموجه للملكية اختباراً هائلا حاى الوطيس أكثر منه علماً مقرراً . فكان من المستحيل والحالة هذه أن تستطيع فرنسا القرن الثامن عشر أن تنتج أى مشهد آخر عدا مشهد الحركات الشعبية الغامضة المرتبكة الراغبة فى إخراج الملاك من أملاكهم ، ومشهد طبقات من الملاك الصغار والكبار يستمسكون بما لهم استمساك الغاضب المتجهم مطالبين قبل كل شيء بضمان الملكية .

ومما يتصل أوثق اتصال بغموض فكرة الملكية فى أذهان الناس غموض فكراتهم عن العملة . فإن كلا من الجمهوريتين الأمريكية والفرنسية أصيبت من جراء هذا الأمر بمتاعب خطيرة . وإنا لنعالج هنا أيضاً أمراً ليس بالهين ، بل هو غمرة من العرف المتبع والأوضاع التقليدية والقوانين والعادات العقلية الفاشية ، التى تنشأ عنها مسائل لا تُسلم بأى حل يقوم على أسس بسيطة ، والتى هى مع ذلك صاحبة أهمية حيوية فى حياة المجتمع اليومية . وصحة الاعتراف الذى يتناوله الرجل مقابل اشتغاله يوماً ذات أهمية أولية تماماً كما هو بيّن — فى عمل الآلة الاجتماعية .

ومن المؤكد أن نمو الثقة فى المعادن النفيسة ونمو النقود نمواً فشا به بين الناس عملياً ، الاطمئنان إلى أن النقود الجيدة كان فى الإمكان أن يطمئن الناس إلى امتلاكها قوتها الشرائية فى أى مكان ، كان نمواً تدريجياً فى التاريخ الإنسانى .

ولما كان استقرار ذلك الاطمئنان متوسطا ، فإنه تعرض لتأزمات وارتباكات جسيمة جدا ، نتجت عما كانت تعمد إليه الحكومات من خفض العملة ومن استبدال النقود المعدنية الفعلية بالوعود الورقية بالدفع . فلا تكاد تحدث تزلزلات سياسية واجتماعية ، حتى يأخذ نظام النقود فى العمل عملا متأزما غير مضبوط .

وقد ابتدأت كل من الولايات المتحدة والجمهورية الفرنسية حياتهما فى دور عسر مالى . وكانت كل من الحكومتين تقترض النقود وتصدر وعودا ورقية بدفع الأرباح ، وهى أرباح

تفوق ما كانتا تستطيعان جبايته فى غير مشقة . وأفضت كل من الثورتين إلى الشىء الكثير من الإنفاق والاقتراض العام المستيئس ، وأدت فى نفس الوقت إلى انقطاع فى عملية الزراعة والإنتاج زاد فى الإنقاص من الثروة الحقيقية التى يستطاع فرض الضرائب عليها . وإذ أن كلا من الحكومتين لم تستطع أن تواصل الدفع بالذهب ، فقد لجأت إلى إصدار النقود الورقية ، تعد فيها بأن تدفع بضمان الأراضى غير المتطورة (فى أمريكا) أو أراضى الكنيسة المصادرة حديثاً (فرنسا) . وتجاوز القدر الصادر فى كل من الحالتين حد ثقة الناس فى الضمان الجديد تجاوزاً بعيداً . وكان الذهب يجمع ويخفيه مكرة الناس ، أو يرسل إلى الخارج لدفع ثمن المستوردات ، ووجد الناس أنفسهم وإذا فى أيديهم أنواع مختلفة من الصكوك والعملة الورقية بدل العملة وكلها ذات قيمة متناقصة غير محققة .

ومهما يكن شأن أصول العملة من التعقيد ، فإن آثارها العملية والغاية التى لابد لها من خدمتها فى المجتمع يمكن أن تذكر هنا إجمالا بطريقة بسيطة . فإن النقود التى يتلقاها الرجل عن عمله (عقلياً كان أم جثمانياً) ، أو عن التخلى عن ملكيته فى منفعة مستهلكة ، لابد فى النهاية أن تشترى له ولاستعماله قدراً يعادل ذلك بالتقريب من السلع المستهلكة . (ولفظة « السلع المستهلكة » عبارة يجب أن تفهم على أوسع معانيها وأن تمثل حتى بأمثال إحدى الرحلات ، وحضور المسارح أو السكنى والاستشارة الطبية وما إليها من الأشياء) . فإذا ضمن كل فرد من المجتمع هذا ، وضمن أن النقود لن تنحط قوتها الشرائية ، فإن العملة وتوزيع البضائع بالتجارة — تكون عند ذاك فى حالة سليمة مرضية . وعند ذلك ، وعند ذلك فقط — يشتغل الرجال مسرورين راضين .

والحاجة الحتمية إلى ذلك الثبات وذلك الضمان فى العملة ، إنما تقوم بناء على هذا فى الحقائق المحققة الثابتة (الداتا) التى منها يجب أن تبدأ الدراسة العلمية للعملة والرقابة عليها . ولكن لابد دائماً من وجود الترجحات فى قيمة العملة وإن فى ظلال أثبت الأحوال وأرسخها . فإن صافى جملة السلع القابلة للشراء والاستهلاك فى العالم وفى أقطار متنوعة تختلف من سنة إلى أخرى ومن فصل إلى فصل ، ولعل الخريف زمن رخاء ووفرة بالموازنة إلى الربيع ، فإذا حدثت زيادة فى السلع التى يمكن الحصول عليها فى العالم تزداد القوة الشرائية للعملة ، مالم يرافق ذلك زيادة فى مقدار العملة . فإن كان هناك من الناحية الأخرى نقص فى إنتاج السلع الاستهلاكية أو تدمير عظيم غير مربح فى السلع الاستهلاكية ، شأن ما يحدث فى الحروب ، فإن نصيب جملة السلع الاستهلاكية ممثلا فى مبلغ من المال لابد أن ينقص ، ثم تعلو لا محالة

الأسعار والأجور . فربما حدث فى الحروب العصرية أن انفجار قنبلة كبيرة واحدة ، وإن لم تصب شيئاً ، يدمر من العمل والمواد ما يعادل لدى أحد الرجال بالتقريب أجرة منزل ريفى ظريف أو نفقة عطلة سنوية . فإن أصابت القنبلة شيئاً ما ، وجبت إضافة ذلك التدمير الآخر إلى النقص فى السلع الاستهلاكية . ولقد كانت كل قنبلة تنفجر فى الحرب العظمى تنقص جزءاً يسيراً من القوة الشرائية لكل عملة فى العالم بأجمعه . فإن كان هناك أيضاً زيادة فى العملة أثناء فترة تستنفد فيها السلع الاستهلاكية ولا تستبدل تمام الاستبدال بغيرها — وضرورات الحكومات الثورية والعاملة على الحرب تكاد تتطلب ذلك على الدوام — تكون الزيادة عند ذلك فى الأسعار والهبوط فى قيمة العملة المدفوعة أجوراً — أكبر وأكبر .

وقد جرت العادة كذلك بأن الحكومات تضطر مدفوعة بتلك الشدائد إلى اقتراض المال ، أعنى أنها تصدر أوراقاً تحمل الفائدة بضمان رغبة المجتمع العام ومقدرته على تحمل الضرائب .

وتكون مثل هذه العمليات على درجة كبيرة من الصعوبة إن كان من يقوم بها رجالاً على تمام الشرف يقومون بها فى صراحة ، تحت كامل ضياء العلانية والمعرفة العلمية . ولكن هذا الأمر لم يحدث البتة حتى يومنا هذا ، ففى كل آن ومكان تجد الأنانى البارع أى الصنف الشرير من الرجل الغنى ، يحاول أن ينحرف بالأمور قليلا نحو مصلحته الخاصة . كذلك يجد الإنسان فى كل مكان الأنانى الغبى ، على أهبة الاستعداد للتشرب بالخوف والتخاذل ذعراً . ومن ثم تتكشف لنا الدولة على الفور وقد فدحتها وفرة فى العملة ، التى هى فى واقع الأمر بمثابة دين لا يدفع الفوائد ، ولشد مايبهظها كذلك عبء فوائد القروض . وتبدأ كل من الائتمان (Credit) والعملة فى أن تتمايح تمايحاً عظيما مع تبخر (تناقص) الثقة العامة . وقد نستطيع أن نقول عنهما إنهما فى حالة انحلال معنوى .

والعاقبة النهائية لعملة أصيبت بتمام الانحلال المعنوى هى إيقاف كل عمل وكل تجارة ليس فى المستطاع مواصلة العمل فيها بالدفع عيناً أو مقايضة . فإن الرجال يرفضون عند ذلك أن يعملوا ، اللهم إلا مقابل الطعام والثياب والمسكن والدفع عيناً . والنتيجة المباشرة لعملة منحلة انحلالا معنوياً جزئياً هى رفع الأسعار وجعل التجارة أمراً مخيفاً مخطراً ، وملء نفوس العمال بالريب والشكوك والتهيؤ للهياج . ففى مثل هذه الظروف يميل الرجل الذكى إلى إبقاء النقود فى حوزته إلى أقصر أمد ممكن ؛ فهو يطلب أقصى ما يستطيع فى مقابل حقيقته التى بين يديه ، ويشترى مرة ثانية حقيقة أخرى بأسرع مستطاعه لكى يباعد ما بينه وبين تلك المادة القابلة للهلاك ، وأعنى بها ورق العملة . ويكابد كل من لهم دخل ثابت ورصيد مدخر ويقاسون من غلاء

الأسعار ، ويجد الأجـراء ولهيب غضبهم يزداد فى كل آن أوارا ، أن القيمة الحقيقية لأجورهم فى تناقص مطرد .

ومن الواضح أن تلك حالة يحتم فيها الواجب على كل شخص ذكى أن يبذل العون ويقوم بجهد فى سبيل الإحكام وبث الطمأنينة . على أن كل تقاليد السعى الخاص ، وكل فكرات الجزء الأخير من القرن الثامن عشر ، اتجهت إلى تبرير أعمال ذوى الذكاء الشديد والمهرة من الناس الذين نصبوا أنفسهم لتجميع الادعاءات ، والألقاب والأملاك المحسوسة فى ظلال العواصف والزلازل والتقلقلات التى تحدث أثناء انهيار هذه العملة . ومن عجب أن الرجال المدركين للحقائق فى العالم والذين كانوا ينصبون أنفسهم فى إخلاص وبساطة لإعادة ما للعملة والائتمان من أحوال شريفة يمكن التعامل فى ظلالها ، كانوا رجالا قليلى العـدد ، عديمى الأثر . فإن معظم رجال المال والمضاربات فى ذلك الزمان كانوا يلعبون دور رجال كورنوال[1] دون أن يصدر عنهم ذلك فيما يبدو عن عدم شرف متعمد مُدْرَك ، بل بأتم أنواع الاستحسان الذاتى وأكمل مظاهر رضى زملائهم . وكان هدف كل شخص ذكى ماهر أن يجمع أكثر ما يستطيع من الثروة القابلة للتداول ، وعند ذلك ، وعنـد ذلك فقط يعمد إلى تدبير وسيلة من وسائل التوطيد السياسى تغادر له ملـكية ما جمع أعود ما تكون عليه نفعاً . هنالك تنشأ عوامل جو اقتصادى ردىء ملىء بالشكوك ، والعصبية ، والجشع ، والمضاربات . . . . .

فأما الاتجاه الثالث الذى اتجهته الثورة دون أن تستمد له بفكرات نيرة واضحة ، وهو مسألة العلاقات الدولية ، فقد قدر عليها أن تحدث لها فيه تطورات تفاعلت أسوأ التفاعل وأجلبه للـكوارث مع هذه الحالة ، حالة المغامرة المـالية والاقتصادية ، أى هذا التخاطف والارتباك ، وهذا الذى ألمّ بالرجال من انشغال بالهم بما أصاب ملـكيتهم الخاصة ومركزهم التقدى فى بلادهم ، من حال تزلق مربك للعقول . وجدت الجمهورية نفسها يوم ميلادها مشتبكة فى حرب . وقد ظل المجندون الجدد ردحاً من الزمن يخوضون غمار هذه الحرب بوطنية وحماسة لم ير العالم لهما فى تاريخه نظيراً . ولـكن لم يكن فى الإمكان أن يستمر هذا الحال . ووجدت حكومة الإدارة نفسها على رأس بلاد فاتحة ، ولـكنها كانت من الناحية الداخلية فى احتياج واضطراب لا يطاقان ، ووجدت نفسها تحتل أراضى أجنبية غنية مليئة بثروة يمكن الاستيلاء عليها ، عامرة بالثروة الملموسة والفرص المادية والمالية . ويحمل كل منا

(١) يشير الـكاتب ها هنا إلى ما كان يفعله سكان كورنوال بغرب انجلترا ؛ إذ يستدرجون السفن ويخدعونها بالأنوار لتتدمر على شاطئهم فينهبوها .

فى طياته طبيعة مزدوجة ، ويلوح أن الفرنسيين بوجه خاص قد تطوروا بشكل منطق متناسق (سيمترى) يحمل كلتا الطبيعتين . فقد جاءت فرنسا إلى هذه الأقاليم المغزوة محرراً ومعلما وكانت أستاذ الإنسانية فى الروح الجمهورية . ومن ثم أصبحت هولندا وبلجيكا الجمهورية الباتاقية ، وأصبحت جنوا وملحقتها الرڤيرا الجمهورية الليجورية ، وغدا شمال إيطاليا الجمهورية السيزألبينية ، وغير اسم سويسرا إلى الجمهورية الهلڤاتية (Hilvatian Repuplic) ، وسميت روما وميلوز (Mulhausen) ونابولى جمهوريات . فإذا تجمعت هذه الجمهوريات حول فرنسا فإنها كانت على أن تكون مجموعة من كواكب الحرية اللوامع تقود العالم وتهديه . تلك هى الناحية الثالية فى الموضوع . وفى نفس الوقت تقدمت الحكومة الفرنسية ، والأفراد الفرنسيون مجتمعين مع الحكومة للقيام باستغلال كامل استنفادى لموارد تلك البلاد المحررة .

وبذا تبدأ فرنسا الجديدة فى مدى عشر سنوات من اجتماع مجلس الطبقات أن تتخذ لها شبهاً عجيباً بفرنسا القديمة . بل هى أشد عنفواناً وأنشط قوة ، وترتدى فوق رأسها قلنسوة الحرية فى مكان التاج ؛ ولديها جيش جديد غير أن لديها أسطولا محطما ؛ وإن فيها لأناساً أغنياء جداً مكان الأغنياء القدماء ، وفيها فلاحون جدد يكادون يكدحون أشد من سابقيهم ويدفعون ضرائب أفدح ؛ وفيها سياسة خارجية جديدة عجيبة الشبه بالسياسة الخارجية القديمة الملغاة ؛ ولم يظهر فيها عهد المسيح المنتظر .

الفصل السادس والثلاثون

سيرة نابليون بونابرت

١ — أسرة بونابرت فى كورسيكا .
٢ — بونابرت قائداً جمهورياً .
٣ — نابليون قنصلا أول ١٧٩٩ — ١٨٠٤ .
٤ — نابليون الأول إمبراطوراً من ١٨٠٤ — ١٨١٤ .
٥ — المئة يوم .
٦ — خريطة أوربا فى ١٨١٥ .
٧ — طراز الإمبراطورية .

١ — أسرة بونابرت فى كورسيكا

وها نحن أولاء نصل الآن إلى شخصية من أشد شخصيات التاريخ إشراقاً وسطوعاً ، هى شخصية مغامر ومُحَـطِّم ، يبدو أن قصته تُظهر فى نصاعة خارقة للعادة النضال العام الخفى الدقيق بين الأنانية والكبرياء والشخصية ، وبين مدعيات المصلحة المشتركة الأشد ضعفاً والأكثر اتساعاً . وإنك لتلحظ قبالة خلفية هـذه الصورة المكونة من الارتباك والمحنة والأمل ، أى قبالة هذه القارة الأوربية والدولة الفرنسية المنهكتين اللاهثتين ، وهذا الفجر العاصف الضخم ، — ظهور هذه الشخصية الضئيلة القدعة بعالما من الصلابة والتماسك والكفاية وعدم الاستمساك بمبادئ الشرف مع الرغبـة فى المحاكاة والسوقية المتقنة . ولد فى ١٧٦٩ بجزيرة كورسيكا التى كانت ما تزال نصف همجية ، وكان ابناً لرجل غير ذى شأن تقريباً ، وهو محام كان فى بادئ أمره وطنياً يناضل الملكية الفرنسية ، التى كانت تحاول أن تخضع كورسيكا ، وكان أبوه قد انضم عند مولده إلى صف المغير الغاصب . وكانت أمه ذات طبيعة أقوى ، محتدمة الوطنية ولهـا قوة شكيمة ومقدرة على الإدارة . (كانت تضرب أولادها بالمقرعة ، حتى لقد ضربت نابليون ذات مرة وهو فى السادسـة عشرة) وكان هناك إخوة وأخوات كثير ، ولاحقت العـائلة الحكومة الفرنسـية بالإلحاف فى طلب المكافآت والوظائف . وفيما عدا نابليون فإن العائلة تبدو عائلة جائعة عادية تماماً . كان ماهراً ذكياً سيء الخلق متكبراً غطريساً . اكتسب من أمه وطنية (رومانسية) كورسيكية .

حصل بفضل رعاية محافظ كورسيكا الفرنسى على تعليم ابتـدأ بمدرسة برين Brienne

العسكرية ثم بالمدرسة الحربية بباريس ، ومنها انتقل إلى الدفعية فى ١٧٨٥ . كان دارساً مجتهداً لكل من الرياضيات والتاريخ ، وكانت ذاكرته قوية قوة خارقة ، وكان يدون ملحوظاته فى دفاتر كبيرة ما تزال موجودة . ودفاتر المذكرات تلك لا تظهر فيه أى ذكاء استثنائى ، كما أنها تحتوى كذلك على قطع صغيرة من الإنشاء الأصيل — حول الانتحار وما عاثله من موضوعات المراهقين ، وقد وقع فى حبائل سحر روسو منذ زمن مبكر ، ثم تزايدت حساسيته رهفاً وتطور فى نفسه الاحتقار لفاسد الدنية . وكتب فى ١٧٨٦ نشرة ضد قسيس سويسرى هاجم روسو . وكان يحلم بكورسيكا المستقلة المتحررة من نير الفرنسيين . ثم أصبح مع شبوب الثورة جمهورياً متحمساً ونصيراً للنظام الجديد فى كورسيكا . وظل يعقوبياً بضع سنوات حتى سقوط روبسبيير .

٢ — بونابرت قائداً جمهورياً

وسرعان ما ذاع صيته بأنه ضابط نافع مقتدر ، وقد استطاع بوساطة أخى روبسبيير الأصغر أن يحصل على أول فرصة يبز بها أقرانه فى طولون . وكان الملكيون قد سلموا طولون للبريطانيين والأسبان ، واحتل أسطول متحالف ميناءها . وأعطيت لبونابرت قيادة المدفعية ، واستطاع الفرنسيون بتوجيهه أن يرغموا الحلفاء على مغادرة الميناء والمدينة .

ثم عين بعد ذلك قائداً للمدفعية فى إيطاليا ، ولكنه قبل أن يتسلم مقاليد عمله اكفهر الجو وبدا فى الأفق أن موت روبسبيير قد يجر إلى وفاته أيضاً ؛ فوضع تحت الإعتقال بوصفه يعقوبياً ، وظل خطر المقصلة محدقاً برقبته ردحاً من الزمان . ثم انقشع ذلك الخطر . وعين قائداً للمدفعية فى غارة عقيمة على كورسيكا ، ثم ذهب إلى باريس (١٧٩٥) وهو فى حال رثة . وتصف مدام جونو فى مذكراتها وجهه الهزيل ومظهره الرث فى ذلك الزمان ، وشعره الأشعث سيء التذرير يتدلى فوق معطفه الرمادى ، ويداه العاطلتان عن القفاز وحذاءه السيء الدهان . كان ذلك زمان إجهاد وانتكاس عقبا قساوات الجمهورية اليعقوبية . يقول هولاندروز « كان نجم الحرية قد أخذ يأفل فى باريس تجاه المشترى (Mercury) وعطارد (Mars) والزهرة (Venus) » أى المالية والثياب العسكرية والسحر الاجتماعى . وكان خيرة الرجال العاديين فى الجيوش ، وراء الحدود . ولقد سبق أن لاحظنا من قبل آخر ثورة للملكيين فى ١٧٩٥ . ومن حسن طالع نابليون أنه كان فى باريس ، فلقى نهزته الثانية فى هذا الشأن . فأنقذ جمهورية الإدارة .

وأثرت كفاياته فى كارنو أيما تأثير ، وهو أشد المديرين استقامة . زد على ذلك أنه تزوج من أرملة شابة حسناء ، هى مدام جوزفين دى بوهارنيه ، وكان لها سلطان عظيم على بارا ، والراجح أن هذين الأمرين هما اللذان ساعداه على الحصول على القيادة فى إيطاليا .

وليس أمامنا هنا متسع لقصة حملاته الزاكية فى إيطاليا (١٧٩٦ — ١٧٩٧) ، ولكن لا بد لنا من قول كلمة أو اثنتين عن الروح التى تمت بها تلك الحملات على إيطاليا ، لأنه يبين أنصع تبيان تلك الروح المزدوجة لفرنسا ونابليون ، وكيف أخذت الفكرة المثالية الجمهورية فى الشعوب تلقاء الظروف العملية القاهرة . فإنه أعلن على الإيطاليين أن الفرنسيين إنما يقدمون لتحطيم أغلالهم — وكانوا عند قولهم ! فإنه يكتب إلى حكومة الإدارة يقول : « لسوف نجبى عشرين مليوناً من الفرنكات مما نحتم على الأهالى دفعه فى هذه البلاد ؛ فإنها من أغنى بلاد العالم » . فأما جنوده فإنه خاطبهم بقوله إنكم جياع وتكادون تكونون عراة . . . وإنى لأقودكم إلى أخصب سهل فى العالم . ولسوف تجدون هناك مدناً عظيمة وولايات غنية ، وشرفاً ومجداً وثروة . . » ونحن البشر لا جرم مفطورون على طبيعة مخلطة كهذه ؛ بيد أن هذه الفقرات التى كتبها شاب فى السابعة والعشرين يلوح أنها تظهر الطلاء الذهبى للمثالية العليا الشريفة وقد انسحق فى سن مبكرة تبكيراً غير عادى .

وكان نجاحه فى إيطاليا زاكيا كاملا . وكانت رغبته فى الذهاب إلى إيطاليا راجعة إلى أنه كان يجد فيها أشد الأعمال اجتذاباً له ؛ نخاطر بوظيفته فى الجيش برفضه أن يقبل العمل المضنى فى قيادة حملة على العصاة فى لافنديه . وكان قد أكب طويلا على قراءة تراجم بلوتارك[1] والتاريخ الرومانى ، فكان خياله البالغ النشاط ملتهباً عندذاك بالأحلام ، أحلام ابتعاث الفتوح الشرقية للإمبراطورية الرومانية . تخلص نابوليون من جمهورية البندقية بأن مزقها بين فرنسا والنمسا ، محتفظاً لفرنسا بالجزائر الأيونية والأسطول البندقى . وقد أثبتت الأيام فيما بعد أن هذا الصلح صلح كامبوفورميو كان صفقة خاسرة لكل من الطرفين . فقد اشتركت جمهورية فرنسا الجديدة فى قتل جمهورية قديمة — ونفذ نابليون رأيه مخالفاً بذلك صيحة شاهقة تعالت فى فرنسا — وحصلت النمسا على مقاطعة ڤينسيا ، وهى الأراضى التى قدر عليها فى ١٩١٨ أن تنزف فيها حتى تموت . وكانت هناك كذلك فقرات سرية اتفقت فيها فرنسا

(١) تراجم بلوتارك : وهو كاتب إغريقى ولد فى خيرونيا ، كان يلقى المحاضرات بروما فى عصر هادريان . وكتابه « التراجم المتماثلة » يتكون من أزواج متقابلة من سير القادة والسياسيين الإغريق والرومان تعقبها مقارنات بين كل اثنين .

والتمسا على الحصول فيما بعد على الأراضى الألمانية الجنوبية . ولم يكن الحلم بالتوسع الرومانى نحو الشرق هو الذى كان آنذاك يعمل عمله فى عقل نابليون . فهذه هى أرض قيصر نفسها ، وكان قيصر مثالاً سيئاً لذلك الجنرال الموفق فى جمهورية غير وطيدة .

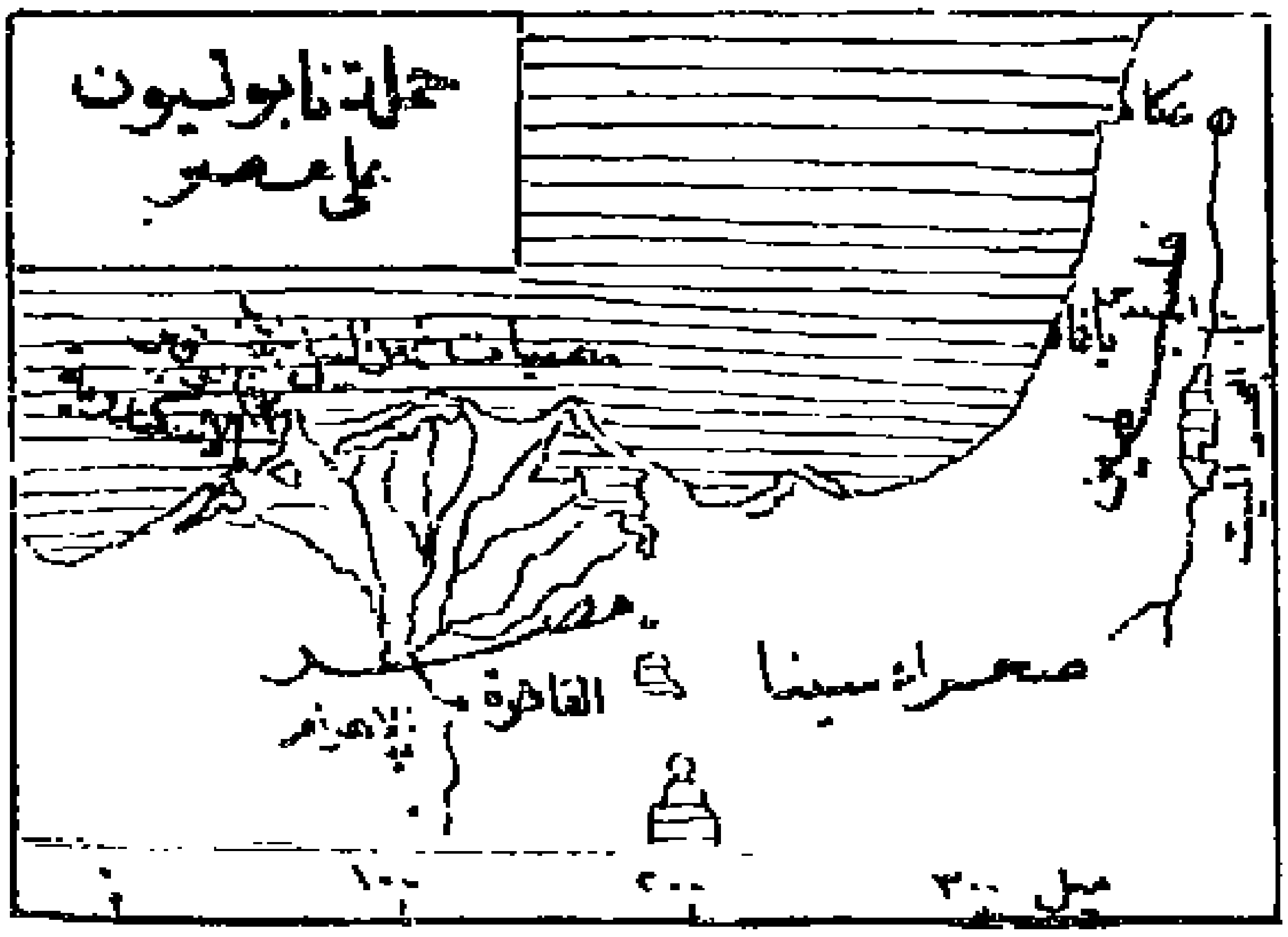

(شكل ۱۸٥)

وكان قيصر قد عاد إلى روما من بلاد الغال بطلا وفاتحاً . وإن مقلده ليعود من مصر والهند مظفراً كذلك ، ومن ثم تكون مصر والهند هى بلاد الغال الخاصة نابليون . وكانت عناصر الفشل تحملق بعينيها فى وجهه . إذ كان الطريق إلى مصر والهند بحريا ، وكان البريطانيون بالرغم من حدوث تمردين بحريين قريبى العهد ، أقوى منة فى البحر من الفرنسيين . زد على ذلك أن مصر كانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية ، ولم تكن هذه بأى حال دولة يستهان بها فى تلك الأيام . ولكنه مع ذلك أقنع حكومة الادارة ، التى كانت تبهرها فى إيطاليا أعماله العظيمة بالسماح له بالذهاب . وخرجت أرمادا[1] من طولون فى مايو ۱۷۹۸ واستولت على مالطه ، ومن حسن طالعها أن تجنبت الأسطول البريطانى ووصلت إلى الإسكندرية . فأنزل جنوده على عجل ، وجعلته معركة الأهرام سيداً على مصر .

وكان الأسطول البريطانى الرئيسى فى ذلك الوقت فى ظاهر المحيط الاطلسى قبالة قادس ، ولكن أمير البحر كان قد أفرد قوة من خيرة سفنه ، بقيادة القيس أميرال نلسون — وهو نابغة عظيم فى الشئون البحرية نبوغ نابليون فى الأمور العسكرية — أرسله ليتعقب العمارة الفرنسية صغيرة السفن وينازلها . وطفق نلسون حيناً من الزمان يبحث عن الأسطول الفرنسى

(۱) عمارة بحرية من سفن الحرب

بلا جدوى ، حتى وجده أخيراً فى مساء يوم أول أغسطس راسياً فى خليج « أبى قير » فأخذه على غرة ؛ إذ كان كثير من الرجال على البر وكان ثمة مجلس منعقداً فى سفينة القيادة . ولم تكن لديه خرائط ، وكانت قيادة السفن فى مياه ضحلة تحت أنوار الأصيل الكابية أمراً محفوفاً بالمخاطر . ومن ثم استنتج الأميرال الفرنسى أن البريطانيين لن يهاجموه قبل طلوع الصبح ، ولذا لم يتعجل فى استدعاء رجاله الموجودين على البر إلى سفنهم حتى فات الأوان . ومهما يكن من شىء فإن نلسون أخذ يضرب من فوره مخالفاً بذلك نصيحة كثير من ربابنته . ولم تشحط منه إلا سفينة واحدة فقط ، فدلت بقية الأسطول على المنطقة الضحلة . وتحرك الأميرال بسفنه هاجماً فى خط مزدوج قرب غروب الشمس ، فوضع الفرنسيين بين نارين . وأرخى الليل سدوله وقد التحم الطرفان فى المعركة ؛ وكان القتال يهدر ويهزم تحت جنح الظلام حتى أضاء المكان من فوره بلهيب السفن الفرنسية المحترقة ، ثم وميض سفينة القيادة الفرنسية الأوريَنت (L'Orient) وقد انفجرت ، ولم ينتصف الليل حتى كانت معركة النيل قد انتهت ، وكان أسطول نابليون قد تدمر . وبذلك انقطع الطريق على نابوليون إلى فرنسا .

ويقول هولاندروز نقلا عن تيير Thiers ، إن هذه الحملة المصرية كانت « أشد المحاولات التى سجلها التاريخ هوجا وتسرعا » . فقد خلف نابليون فى مصر والترك يتجمعون عليه والطاعون يفتك برجاله . ومع هذا فإنه استمر ردحا من الزمان يواصل هذه الخطة الشرقية فأحرز فى يافا نصراً ، وإذ كانت تعوزه الميرة فإنه ذبح كل أسراه . ثم حاول أن يستولى على عكا ، حيث استعملت ضده مدفعية الحصار الخاصة به ، وكان البريطانيون استولوا عليها فى البحر قبل ذلك بزمن يسير . حتى إذا عاد إلى مصر خائب المسعى قد أسقط فى يده ، فإنه أحرز فوزاً عظيما على جيش تركى عند أبى قير ، ثم تخلى بعد ذلك عن جيش مصر — الذى صمد حتى ١٨٠١ ، حين استسلم لقوة بريطانية — وفر بجلده إلى فرنسا ١٧٩٩ ، وقد نجا بأعجوبة من أن تأسره طرادة بريطانية بالقرب من صقلية .

وقد لقى فى هذا المشروع من الإخفاق ما يسقط كل ثقة بأى قائد — لو أن أمر ذلك الإخفاق عرف . بيد أن الطرادات البريطانية بذاتها التى أوشكت أن تلقى عليه القبض أعانته حين منعت تسرب أى علم بحقيقة الموقف فى مصر من الوصول إلى مسامع الشعب الفرنسى . فاستطاع أن يقيم ضجة عظيمة حول معركة أبى قير وأن يخفى خسرانه عكا . ولم تكن الأمور فى فرنسا فى ذلك الحين على ما يرام . إذ منيت بالهزائم العسكرية فى مواطن عدة ، فضاع منها أكثر إيطاليا ؛ وإيطاليا مما غرسته يدا بونابرت ؛ فأدى هذا إلى اتجاه الأنظار إليه بوصفه

النقد الطبيعي للموقف ، هذا إلى أنه حدث الشيء الكثير من الاختلاس ، وأن أخبار بعضها أخذت تتسرب إلى الناس . فكانت فرنسا فى أحد أدوار فضائحها المالية ، ولم يكن نابليون قد امتدت يده إلى أى مال ، فكان الجمهور فى تلك الحالة الكليلة حالة التعب المعنوى التى يطلب عندها الرجل القوى الأمين ، وهو الرجل المدهش الفذ المستحيل المثال الذى ينزل على قلب الأمة نزول البلسم والترياق ، ويقوم بكل شيء لكل إنسان . وأخذ الناس يقذفون فى روع أنفسهم أن هذا الفتى الحسن الظواهر ذا الوجه الجامد ، الذى أعادته إرادة القادر من مصر — إنما هو الرجل القوى الأمين المنشود — وأنه واشنجتون آخر .

واستجاب نابليون لمطلب زمانه وفى مؤخرة ذهنه صورة يولوس قيصر أكثر منها صورة واشنجتون . ودبرت مؤامرة محكمة لاستبدال حكومة الإدارة بثلاثة « قناصل » — وكأنى بكل إنسان فى ذلك الزمان مقلباً أكثر مما ينبغى فى صفحات التاريخ الرومانى يقرأها ويستوعب ما فيها ، — وكان على نابليون أن يكون كبيرهم . والقيام بهذه المؤامرة عمل أعقد من أن يتسع هذا المكان : وكانت تتضمن تشتيتاً على طريقة كروميل للمجلس الأدنى (أى مجلس الخمسمئة) وفى هذا الأمر فقد نابليون رباطة جأشه . فإن النواب صاحوا به ودفعوه ، حتى ليلوح أن الخوف داخله ، فكاد أن يغمى عليه وأخذ يتمتم ويتلجلج وأُرْتِجَ عليه فلم يحر كلاماً ، ولكن أخاه لوسيان أنقذ الموقف ، بأن استقدم الجنود وفَرَّقَ المجلس . وهذه الغمزة الصغيرة لم تؤثر فى نجاح الخطة النهائى . ونزل القناصل الثلاثة فى بناء قصر لوكسمبرج ، ومعهم قوميسيران إثنان لإعادة وضع الدستور .

وأخذ نابليون يعمل حيال زميليه والقوميسيرين بمنتهى الجرأة والقوة بعد أن عادت إليه كل ثقته وبعد أن تحقق من نصرة الشعب له . وأنشىء دستور كان فيه الموظف التنفيذى الأكبر على أن يسمى القنصل الأول ، وعلى أن تكون له سلطات هائلة . وكان لزاماً أن يكون هو نابليون ، إذ كان ذلك منصوصاً عليه فى صلب الدستور . وكان على أن يعاد انتخابه أو يستبدل بغيره بعد انقضاء عشر سنوات . وكان على أن يساعده مجلس للدولة ، يعينه هو بنفسه ، ويكون من حقه أن يبتدء التشريعات وأن يرسل مقترحاته إلى هيئتين ، هما الهيئة التشريعية (التى كانت تستطيع أن تعطى أصواتها دون أن تناقش) ،ومجلس التريبون The Tribunate (وكان يستطيع أن يناقش دون أن يعطى أصواته) ، وكانتا ينتخبهما مجلس للشيوخ أعضاؤه معينون من بين أفراد طبقة خاصة هى ذوو المكانة فى فرنسا الذين

كان ينتخبهم « ذوو المكانة فى المديرية » الذين كان ينتخبهم « ذوو المكانة فى الكوميون[١] » الذين كان ينتخبهم الناخبون العاديون . وكان الاقتراع على انتخاب ذوى المكانة فى الكوميون اقتراعاً عاماً . فكان هذا هو المظهر الوحيد للديموقراطية فى هذا الهرم المذهل المحير .

وكان هذا الدستور فى معظم أمره الثمرة المشتركة لفيلسوف جليل هو سايس — الذى كان أحد القناصل الثلاثة — بالاشتراك مع بونابرت . على أن فرنسا بلغ بها الإعياء من متاعبها وجهودها ، وبلغ من ثقة الناس فى فضيلة واقتدار هذا الرجل مبعوث المقادير ، أنه عند ما حدث فى مستهل القرن التاسع عشر أن قدم هذا الدستور إلى البلاد أقره ٠٠٧ و٠١١ و٣ صوتاً ضد ١٥٦٢ . وضعت فرنسا نفسها بين يدى بونابرت وضعاً مطلقاً وأعدت العدة لأن تعيش فى سلام وسعادة ومجد .

٣ — نابليون قنصلا أول ١٧٩٩ — ١٨٠٤ .

وليس هناك من وجه للشك فى أنه سنحت هنا فرصة لم تسنح قط لرجل فى العالم من قبل . فهنا منصب قد يتقوس له ظهر امرىء إشفاقاً من نفسه على نفسه ، وأن يبحث فى زوايا قلبه ، وأن يخدم الله والإنسان بأقصى مستطاعه . وكان النظام القديم قد قضى أو كاد ؛ وكانت قوى عجيبة جديدة تندفع فى أرجاء العالم تبحث عن شكل تصوغ فيه نفسها وقائد يوجهها . وكان الوعد والأمل بجمهورية عالية وبسلام عالمى دائم يهمس فى آذان جمهور غفير من الأذهان المنزعجة . وكانت فرنسا بين يديه وكانت أداة طيّعة له يفعل بها ما يشاء وهى أرغب ما تكون فى السلام ، غير أنها شاحذة للحرب شحوذ مهند ممتاز . ولم يكن ينقص هذه الفرصة العظيمة إلا الخيال النبيل . وإذا فات نابليون ذلك فإنه لم يكن ليستطيع إلا أن يتبختر على قنة جبل النهزات ذاك كما يتبختر الديك الفرخ فوق تل من الروث . فإن الشخصية التى يكونها لنفسه فى التاريخ شخصية بها ما لا يكاد يصدقه عقل من الغرور بالنفس والاحتقار الوقاح وعدم الاكتراث بكل من يثقون به ، وجنون عظمة يقلد به قيصر والاسكندر وشرلمان تقليداً قردياً ، لولا أنه مخضب بالدماء الإنسانية الزكية لكان مبعث السخرية والاستهزاء . حتى جاء كما يقول فكتور هوجو فى طريقته الهائلة « أو أن ضاق فيه الله به ذرعاً » ، فقذف به ركلا بالأرجل ليختم أيامه فى ركن منعزل يشرح ويشرح كم كانت أشنع أخطائه مسرحاً للذكاء والمهارة ، وهو يتربص فى أرجاء جزيرته الحارة الموحشة متصيدا الطيور ويتشاجر شجاراً

---

(١) الكوميون : هى المجالس البلدية .

وضيعاً مع سجان منحط التربية لم يكن يوليه الاحترام اللائق .

ولعل عمله كقنصل أول أقل أدوار حياته معرة . فإنه تناول فى يده الشئون العسكرية التى تقوضت أثناء حكم الإدارة ، وبعد حملة معقدة فى شمالى إيطاليا ، بلغ بالأمور إلى نصر حاسم عند مارينجو قرب أليساندريا فى (١٨٠٠) . وكان نصراً قارب فى بعض أوقاته أن يكون كارثة كبيرة . وفى ديسمبر من السنة نفسها أوقع الجنرال مورو Moreau هزيمة ساحقة منكرة بالجيش النمسوى عند هوهن لندن ، فى ظروف تكنفته فيها عوامل الثلج والوحل والجو الفظيع الرهيب . فلو أن نابليون فاز بهذه المعركة لاحتسبت من بين أبرز مآثره وأعلاها كعباً . وبهذه الأمور صار السلم المرجو أمراً ممكناً . وفى ١٨٠١ تم التوقيع على الخطوة الأولى الممهدة مع انجلترا والنمسا . وانتهى الصلح مع انجلترا بمعاهدة أميان فى ١٨٠٢ . وصار نابليون مطلق اليدين يستطيع أن يتفرغ لفن السياسة والتدبير الخلاق المبتدع الذى كانت فرنسا وأوربا بأجمعها من وراء فرنسا ، فى أشد الحاجة إليه . وكانت الحرب قد أمدت البلاد بحدود موسعة ، وأعادت المعاهدة مع انجلترا إمبراطورية فرنسا فى المستعمرات وتركتها فى حالة أمنة تتجاوز أقصى ما كان يحلم به الملك لويس الرابع عشر . وكان الباب مفتوحاً أمام نابليون لكى ينتج ويدعم نظام الأمور ويصنع دولة عصرية تكون نبراساً ومصدر وحى وإلهام على كل أوربا والعالم قاطبة .

على أنه لم يحاول أن يعمل شيئاً من هذا القبيل . إذ كان خياله الهزيل المقلد مليئاً بحلم أن يكون هو قيصر من جديد . فكان يدبر الخطط لجعل نفسه إمبراطوراً حقيقياً يضع على رأسه التاج ويجعل منافسيه وزملاءه فى المدرسة وأصدقاءه عند موطىء قدميه . ولم يكن ليمنحه هذا أية قوة جديدة ليست فى يديه حتى آنذاك ، على أن ذلك يكون شيئاً أعظم أبهة وأشد فخامة ، يكون شيئاً يدهش أمه . فيا لها من استجابة يستجيب بها رأس من هذا النوع للتحدى الرائع الخلاق فى ذلك الزمان ؟!!

ولكن لا بد أن تدرج فرنسا قبل كل شىء فى مدارج الرخاء . إذ من المحقق أن فرنسا الجائعة لا تطيق وجود إمبراطور . فنصب نفسه لتنفيذ مشروع قديم للطرق كان لويس الخامس عشر أقره ؛ وأنشأ الترع تقليداً منه للترع الإنجليزية ، ثم أعاد تنظيم البوليس ووطد شئون الأمن فى البلاد . وإذ أخذ يعد الأهبة لمشهد درامته الشخصية ، نصب نفسه لجعل باريس تبدو فى شكل روما بما لها من عقود كلاسيكية وعمد كلاسيكية . ونشأت فى تنظيم البنوك خطط جديدة تستدعى الإعجاب ، فاستعملها . وكان فى كل هذه الأمور مسايراً لزمانه ،

فإنها أمور كانت لا بد آتية مع قدر من الاستبداد أقل ، وقدر من التمركز أضأل لو أنه لم يولد قط . ونصب نفسه لإضعاف الجمهوريين الذين كان يدبر الخطط للعدوان على معتقداتهم الجوهرية . فأرجع المهاجرين على شريطة أن يقدموا التوكيدات المرضية على احترام النظام الجديد . وكان منهم كثير يرغبون أشد الرغبة في العودة على مثل تلك الشروط وأن يدعوا آل بوربون وشأنهم ويعدوهم في خبر كان . ثم توصل إلى صلح عظيم أبرم به ميثاقا مع روما . تعهدت به أن تناصره وتعهد أن يعيد سلطانها في الأ وشيات . إذ كان يرى أن فرنسا لا يمكن أن تكون طيعة سلسلة القياد ، وأنها لا تستطيع أن تطيق ملكية جديدة من غير الدين . قال : « كيف تستطيع أن تجد في دولة نظاما من غير الدين ؟ فالجماعة الإنسانية لا تستطيع أن تعيش من غير التفاوت في الثراء ، الأمر الذي لا يمكن أن تقوم له قائمة مستديمة بمعزل عن الديانة . فعند ما يوشك أحد الرجال أن يقضي نحبه جوعا إلى جوار آخر مريض بالكظة والبشم ، فإنه لا يستطيع أن يرضى بهذا الفارق ما لم تكن هناك سلطة تعلن أن الله إنما يريد ذلك كذلك ؛ ولا بد من أن يحوى العالم الفقير والغني ؛ ولكن تقسيم الأشياء في العالم الآخر وفي كل الأبدية الخالدة سيكون على أساس مخالف » . وكانت الديانة في رأيه وبخاصة الديانة من الصنف الكاثوليكي المتأخر ، مادة ممتازة يستطاع بها تسكين العامة . وكان في أيامه اليعقوبية الأولى قد طعن في الدين لنفس ذلك السبب .

وهناك عمل جليل آخر يدل على مجال خياله وتقديره للطبيعة الانسانية وذلك هو نظام جوقة الشرف (Legion of Honour) ، وهي خطة للإنعام على الفرنسيين بقطع من الشريط ، خطة دبرت تدبيراً محكماً ممجباً بقصد تحويل نظر ذوى الطموح من الرجال عن التصرفات الخفية .

كذلك اهتم نابليون بالدعاية المسيحية . وها هي ذى فكرة نابليون عن فوائد المسيح السياسية ، وهي فكرة تلطخت بها كل البعثات الدينية الفرنسية منذ ذلك الحين . قال : « قد اتجهت رغبتي إلى إعادة إنشاء مؤسسة الإرساليات الأجنبية ؛ إذ أن المرسلين الدينيين ربما كانوا ذوى نفع كبير لي في آسيا ، وأفريقا ، وأمريكا ، وذلك أني سأكلفهم بتعرف كل الأراضي التي يزورونها . ولسوف لاتقف قداسة ثيابهم عند حد حمايتهم بل سوف تخفي أبحاثهم السياسية والتجارية . ولن يكون مستقر رئاسة مؤسسة المرسلين روما بعد اليوم ، بل باريس » .

ألا ترى في هذا فكرات تاجر لص لا فكرات رجل دولة ؟ وعلاجه لمسألة التعليم يُظهر في وضوح عمايته عن حقائق الفجر المنبثق من حوله . فأما التعليم الأولى فإنه أهمله اهمالا يكاد يكون تاماً ؛ فتركه لضمير السلطات المحلية ، كذلك قرر أن المعلمين يجب أن تدفع رواتبهم

من مصروفات التلاميذ ؛ وواضح أنه لم يكن يرغب فى أن يتعلم عامة الناس العلم ؛ إذ لم تكن لديه أية بارقة إدراك ولو خاطفة عن السبب الذى من أجله يجب أن يتعلموا ؛ ولكنه كان يهتم بتزويد المدارس الفنية والعليا بالمال ، لأن دولته كانت فى حاجة إلى خدمات رجال أذكياء واسعى الاطلاع يهتمون بأنفسهم . وكان هذا تراجعا يبعث الذهول ، عن الخطة العظيمة التى كتب مسودتها للجمهورية كوندورسيه[1] فى ١٧٩٢ ، رغبة فى إقامة نظام كامل من التعليم المجانى للشعب بأكمله . وتحقق الأيام فى بطء ولكن بثبات واستمرار مشروع كوندروسيه ، فإن الأمم العظيمة فى العالم تضطر أن تضعه موضع التنفيذ والتحقيق رويداً رويداً ، وتخرج وسائل نابليون من نطاق اهتمامنا . أما تعليم زوجات وأمهات جنسنا فدونكم حكمة نابليون فيه : « لست ممن يعتقدون أن بنا حاجة إلى أن نتعب أنفسنا بعمل خطة لتعليم الإناث الصغيرات ، فليس فى المستطاع أن يربيهن أحدٌ خيراً من أمهاتهن . وليس التعليم العام مناسباً لهن ، لأنهن لايطلبن قط للعمل العام ، وإنما الأخلاق هى الكل فى الكل لهن ، والزواج كل غايتهن » .

ولم يكن القنصل الأول أعطف على النساء فى قوانين نابليون (Code Napoléon) . إذ لم يكن للزوجة مثلا أن تتصرف فى أملاكها ؛ بل كانت (أى الزوجة) فى يد زوجها . وكان هذا القانون فى معظمه من عمل مجلس الدولة . ويلوح أن نابليون كان يعطل مناقشات ذلك المجلس ويعتاقها أكثر مما يساعدها . وإنه ليجتاح الجلسات غازيا بلا سابق إخطار ، ويتكرم على أعضائه بإلقاء محاضرات طويلة مسهبة ، كثيراً ما كانت تخرج عن الموضوع قيد الدرس خروجاً تاماً . وكان المجلس يستمع إليه باحترام عميق ، إذ كان ذلك هو كل ما يستطيع المجلس أن يفعله . وإنه ليستبقى مستشاريه إلى ساعات متأخرة من الليل ، لا تكاد تمت إلى الأرض بصلة ، ويظهر افتخاراً ساذجاً بيقظته الفائقة . وقد تذكر تلك المناقشات بارتياح عجيب إبان سنيه الأخيرة ، ولاحظ فى إحدى المناسبات أن مجده وفخاره لايقوم على كسبه أربعين معركة بل على إنشائه قانون نابليون . . . وكان قانونه هذا شيئاً حسناً ، بقدر ما استبدل بالمعميات القانونية العسيرة ، الواضح البين من البيانات ، فإنه جمع شتات مجموعة هائلة غير منتظمة من

---

(١) كوندورسيه (١٧٤٣ — ١٧٩٤) : فيلسوف ورجل دولة فرنسى . اشترك فى إنشاء الموسوعة وأكسبته مقالاته فى نظرية الإمكانيات شهرة واسعة ، انضم إلى الثورة وانتخب عضواً فى الجمعية التشريعية (١٧٩١ — ١٧٩٢) ، وكانت خطته التى كتبها عن واجب الدولة فى التعليم أساساً لخطة فرنسا التعليمية . عارض وإن كان من رجال الثورة فى قتل الملك ، فأهدر دمه . ولما قبض عليه فى النهاية وجد ميتاً ، ولعله تجرع السم .

القوانين القديمة والجديدة ثم نقحها ووضحها . والقانون شأن كل عمله الإنشائى ، كان يهدف إلى الكفاية المباشرة ، فإنه وضع التعاريف للأشياء والعلاقات ، حتى يشرع الناس فى العمل عليها بلا مناقشة جديدة . ومما يقلل من أهميته المباشرة العملية أنه كثيراً ما كان يُعَرِّفُ تلك الأشياء تعريفا خاطئاً . ولم يكن وراء عملية التقنين هذه أية قوة ذهنية تتميز عن النشاط الذهنى — إذ أنها سَلَّمت بكل شىء قائم : «إن جلالته لايعتقد إلا فى الموجود[1]» . وكانت الفكرات الجوهرية الأساسية للمجتمع المدنى ، وقواعد التعاون الإنسانى تمر فى دور تعمير وإعادة بناء قطبه ومداره نابليون — ولكنه لم يشعر بذلك الأمر أبداً . وكل ما فعله أنه قبل دوراً من أدوار التغير . وحاول أنه يثبته إلى الأبد . ولا تزال فرنسا إلى يومنا هذا تئن مغلولة الأيدى مُقَمَّطةً بهذا الصُّدرى الضيق الذى يرجع به العهد إلى أوائل القرن التاسع عشر ، والذى حشرها فيه نابليون . ذلك بأنه ثبت أحوال النساء وثبت أحوال العمال ، وأحوال الفلاحين ، لا يزالون جميعا يكافحون إلى يومنا هذا بين خيوط شبكة تعريفاته الجامدة .

وتقدم نابليون فى نشاط وقوة فنصب ذهنه الجامد الصافى الضيق الأفق لكى يجمع قوة فرنسا ويشدها . ولم يكن ذلك الشد إلا جزءاً من الخطط الأعظم شمولا التى كانت تملأ جوانب نفسه وتتسلط عليها . فقد اتجه خياله اتجاه الإصرار والعزم إلى قيصرية جديدة . وفى ١٨٠٢ جعلهم يعينونه قنصلا أول مدى الحياة مع إعطائه حق تعيين خلف له ، وترتب على مراميه الواضحة إلى إلحاق هولانده وإيطاليا بفرنسا بالرغم من التزاماته فى المعاهدات بأن يتركهما منفصلتين ، أن أخذت معاهدة أميان تترنح ترنحاً شديداً منذ البداية بذاتها . ولما كان من الضرورى أن تثير عليه خططه حرباً مع انجلترا ، فقد كان يجدر به أن يتريث بأى ثمن حتى يرتفع ببحريته إلى حد التفوق على البحرية البريطانية . وكان مطلق اليد فى موارد عظيمة لبناء السفن ، وكانت الحكومة البريطانية حكومة واهنة ، وكانت سنوات ثلاث أو أربع كفيلة بتحويل كفة الميزان . ولكنه بالرغم مما لقى فى مصر من تجربة خشنة ، لم يدرك قط أهمية القوة البحرية . وفى ١٨٠٣ عجل احتلاله لسويسرا بالأزمة ، ونشبت الحرب من جديد مع انجلترا ، وأخلى الوزير الضعيف أدينجتون فى انجلترا مكانه لوليم بت الأعظم منه قدراً . وتدور سائر قصة نابليون حول تلك الحرب .

وكان القنصل الأول أثناء مدة القنصلية ناشطاً يعمل على زيادة ثروات إخوته وأخواته . وكان هذا الأمر شيئاً يتصل إلى النفس الإنسانية بسبب وعت إلى حب العشيرة وإلى المزاج

(١) من اقتباس لهولاند روز عن جورجو : "Sa Majesté ne croit que ce qui est." .

الكورسيكي ، وهو ينفعنا فى أن نفهم بالضبط كيف كان الرجل يقدر منصبه والنهزات الماثلة بين يديه . وهناك عامل ضخم فى تكوين نابليون هو الرغبة فى أن يذهل ويدهش ويروع أذهان آل بونابرت وجيرانهم . فكان يرقى إخوته بشكل يثير الضحك إذ أنهم كانوا رجالا عاديين جداً . ولكن شخصاً واحداً كان يعرفه حق المعرفة لم تخالجه الدهشة ولا داخلته الروعة ، وكان ذلك الشخص أمه . كان يرسل المال لتنفقه وتدهش به جيرانها ، وكان يحضها على أن تتخذ لنفسها مظهراً عظيما ، وأن تعيش العيش الذى يتناسب وأم مثل هذا الإبن العجيب الذى يهز العالم هزاً .

غير أن السيدة الوقور التى قرعت بالمقرعة رجل الأقدار وهو فى سن السادسة عشرة ، لأنه لحس وجهه لجدته، لم تنبهر ولم تنخدع له عند سن الثانية والثلاثين . قد تستطيع فرنسا أن تعبده ولكن الأم لم يساورها أى وهم من قبله فكانت تضع النقود التى يرسلها جانباً وتواصل اقتصادها المعتاد . قالت : « عند ما ينتهى كل شيء سيكون ادخارى هذا موضع سرورك » .

٤ — نابليون الأول ، إمبراطورا ١٨٠٤ ـــ ١٨١٤

لن نفصل لك القول فى الخطوات التى غدا بها نابليون إمبراطورا . وكان تتويجه ابتعاثا للقديم هو أشد ما قد يتصوره العقل من ابتعاث القديم خرقا للمعتاد . ولم يعد قيصر هو نموذجه المحتذى ، بل كان نابليون عند ذاك هو شارلمان . فإنه توج إمبراطورا ، حقا إنه لم يتوج فى روما ، بل فى كاتدرائية نوتردام بباريس ؛ واستحضر البابا بيوس السابع من روما للقيام بطقوس الاحتفال ؛ ولما بلغ الأمر أوجه أخذ نابليون الأول التاج بيده ودفع بالبابا جانباً ، وتوج نفسه بنفسه . وبذلك تكون نصيحة شرلمان للويس قد أوتيت آخر الدهر ثمارها . وفى ١٨٠٦ ابتعث نابليون قطعة أخرى وقورة من الماضى السحيق ، إذ أنه لما كان ما يزال يتعقب خطى شرلمان فإنه توج نفسه بتاج لومباردى الحديدى فى كاتدرائية ميلان .

وكان على الجمهوريات بنات فرنسا الأربع أن يصبحن عند ذاك ممالك : فى ١٨٠٦ نصب الأخ لويس فى هولندا والأخ جوزيف فى نابولى . على أن قصة الممالك التابعة التى خلقها فى أوربا — وإن جاء هذا التصرف المطلق فى الحدود عونا على ما تلا ذلك من توحيد إيطاليا وألمانيا — قصة أعقد وأقصر عمرا من أن تتحملها هذه المعالم .

وهذا الحلف الذى تم بين شرلمان الجديد وليو الجديد لم يدم زمنا طويلا جداً . فى ١٨٠٧

شرع يتحدى البابا ويضغط عليه ، وفى ١٨١١ جعل منه أسيراً مضيقا عليه فى فونتينبلو . وليس يلوح أن هذه الإجراءات تنطوى على حكمة كبيرة . فإنها نفرت منه الرأى العام الكاثوليكى ، كما نفر منه توجيه الرأى العام الأسمحى (١) . وبذلك كف عن أن يكون نصيرا وممثلا للقديم والجديد على السواء . فأما الجديد فقد خان ، وأما القديم فقد فشل فى اكتسابه . وأخيرا لم يكن ليناصر أو يمثل أحدا إلا نفسه .

ويلوح أنه لم يكن هناك إلا مايعادل ذاك من الروية الضئيلة والتعقل الطفيف فى السياسة الخارجية التى غمرت آنذاك أوربا فى غمرة دورة جديدة من دورات الحرب . ولما كان قد اختلف مع بريطانيا العظمى فى أوان مبكر جداً فإنه حشد جيشا عرمرما فى بولونيه (Boulogne) ليغزو به انجلترا ، غير ناظر إلى الموقف البحرى ، بل لقد بلغ به الأمر أن صك مدالية وأقام عموداً فى بولونيه تخليداً لذكرى نصره فى غزوته المنتظرة . وكان قد دبر على شاكلة نابليونية محضة أن يخدع الأسطول البريطانى ويستبعده ، وأن يهرب جيش بولونية ، ذاك على أسطول صغير من الأرماث والزوارق ، وأن تؤخذ لندن قبل أن يعود الأسطول . وفى نفس الوقت اضطرت النمسا والروسيا إزاء اعتداءاته فى جنوب ألمانيا ، إلى التحالف تحالفا وطيداً مع بريطانيا ضده . وفى ١٨٠٥ وقعت ضربتان قاتلتان على كل أمل له فى النصر النهائى ، أنزلهما به أميرا البحر البريطانيان كالدر ونلسون . فإن الأول أنزل فى يوليه هزيمة خطيرة على الأسطول الفرنسى فى خليج بسكى ، وفى أكتوبر دمر الثانى أسطول فرنسا وأسبانيا المشترك فى معركة الطرف الأغر . ومات نلسون ميتة رائعة وهو مظفر فوق سفينته النصر . ومن بعدها أصبح نابليون وأمامه بريطانيا تناصبه عداء مريراً لارحمة فيه ، وهى فى منعة لايستطيع أن يصل إليها ولا أن يقهرها ، بينما تستطيع هى أن تضربه هنا أو هناك على امتداد كل شواطىء أوربا .

وأخفى جرح الطرف الأغر القاتل بضع سنين عن الفرنسيين إخفاء تاما . وكل ما سمعوه هو أن « العواصف قد سببت لنا أن نفقد بعض السفن الحربية بعد قتال أخرق . » وبعد انتصار كالدر سحب نابليون جيشه من مدينة بولونيه على عجل ، واندفع به عبر أوربا وهزم

---

(١) تعبر كلمة Liberal فى الإنجليزية عن معنيين أحدهما عام وهو الذى يدل على السماحة فى الخلق والتسامح مع الغير وعدم التعصب ضده مع التحرر من قديم التقاليد والنزوع إلى الاستنارة والتقدم وقد أطلقنا على هذا المعنى كلمة أسمحى وجمعها أسماح والمصدر منها أسمحية (Liberality) وأما الكلمة بمعناها الخاص فإنها تدل على حزب الأحرار ومذهبه .

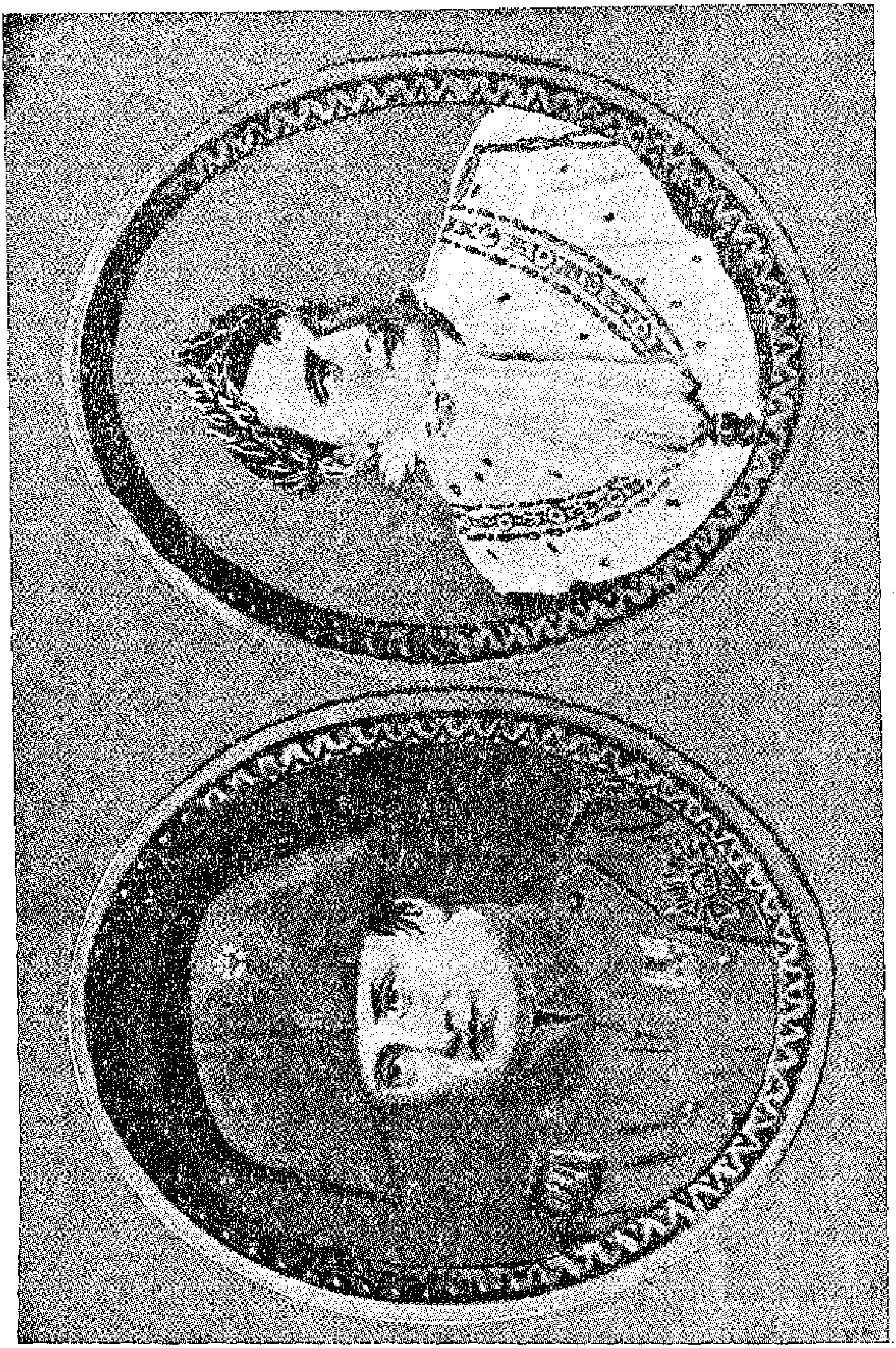

(شكل ١٨٦) نابليون امبراطوراً

النمسويين فى « أولم » « وأوسترلتز » . ودخلت بروسيا الحرب ضده فى هـذه الظروف المشئومة ، فهزمت هزيمة تامة وحطمت قواها فى معركة يينا (١٨٠٦) . ومع أن النمسا وبروسيا قد كسرتا فإن الروسيا كانت ما تزال قوة مقاتلة ، وخصصت السنة التالية لذلك الخصم الأصعب مراساً الأبعد منالا الأعسر مدخلا . ولسنا بقادرين أن نتعقب فى أى تفصيل صعوبات الحملة البولندية على الروسيا ، ولقى نابليون شراً كبيراً فى بَلْتَسك — التى أُعلن فى باريس أنها نصر عظيم — وكذلك لقى مثل هذا الشر فى إيلاو (Eylau) . ثم دحر الروس فى فريدلاند ١٨٠٧ . ولم يكن حتى ذلك الوقت قد مس الأرض الروسية بقدمه ، وكان الروسيون لا يزالون غير مقهورين كالبريطانيين سواء بسواء . ولـكن سنحت عند ذلك لنابليون بارقة عجيبة من الحظ الحسن ، فإنه استطاع بواسطة خليط من التفاخر والخداع والداهنة ، أن يضم إلى جانبه قيصر الروسيا الشاب إسكندر الأول — إذ كان سنه لا يتجاوز الثلاثين — وأن يحمله على عقد تحالف معه . وتلاقى الإمبراطوران على عوامة فى وسط نهر النيمن عند تِلْست (Tilsit) ، حيث تفاها .

وكان الإسكندر قد تشرب بالشيء الـكثير من نزعة الأسمحية أثناء تعلمه فى بلاط كاترين الثانية . وكان يناصر بكل قواه الحرية والتعليم ونظام العالم الجديد — الخاضعة لاستعلائه هو . قال أحد خلطائه لأول عهده « إنه يسره أن يرى كل إنسان حراً ، على شريطة أن يكون كل إنسان مستعداً أن يفعل بحرية ما يريده بالضبط » . وقد أعلن أنه مستعد أن يلغى نظام موالى الأرض وإن كلفه ذلك رأسه ثمناً — لو حدث فقط أن تقدمت بذلك الحضـارة . وقال إنه يخوض الحرب مع فرنسا لـكى يحرر الشعب الفرنسى — لأن نابليون كان طاغية مستبداً . وبعد معركة فريدلاند أخذ يبصر نابليون تحت ضياء جديد . تلاقى هذان الرجلان بعـد تلك الهزيمة بأحد عشر يوما ، وكان الإسكندر يمر ولا ريب فى حالة من التعظيم التبريرى الموافقة لطبيعة أبناء طرازه وهم فى حالة مزاجية من حالات التغير .

ولا بد أن المقابلة كانت مرضية تمام الإرضاء لنابليون . فقد كان ذلك أول لقاء له مع إمبراطور على أساس من التكافؤ . وحلـق فى الجو خيالان من فوق ظهر تلك العوامة فى تلـست . قال الاسكندر : « ما هى أوربا ؟ إنما نحن أوربا » . تناقشا فى شئون بروسيا والنمسا متأثرين بهذه الروح ، وتقاسما تركيا مقدماً ، ودبرا أمر غزو بلاد الهند ، بل الواقع أنهما دبرا غزو معظم آسيا وأن تأخذ الروسيا فنلندا من السويديين ؛ وأغفلا تلك الحقيقة المرة

القائلة بأن القسم الأكبر من العالم مكون من بحر ، وأن الأسطول البريطانى كان عند ذاك يبسط قلوعه فى البحار غير منازع . وكانت بولندا قاب قوسين أو أدنى ، وهى على أتم استعداد لأن تثور وتكون حليف فرنسا المتحمس لو أن نابليون رغب فقط فى هذا . على أنه كان عن بولندا فى عماية . كان يوم رُؤًى لا رؤية فيه . وقد أخفى نابليون فيما يلوح حتى فى ذلك اليوم ، تلك الفكرة الجريئة بأن يتزوج يوما ما أميرة روسية ، أميرة حقيقية . ولكن ذلك — كما تعلم بعد ذلك فى ١٨١٠ — كان تجاوزا لحدوده بعد الشيء .

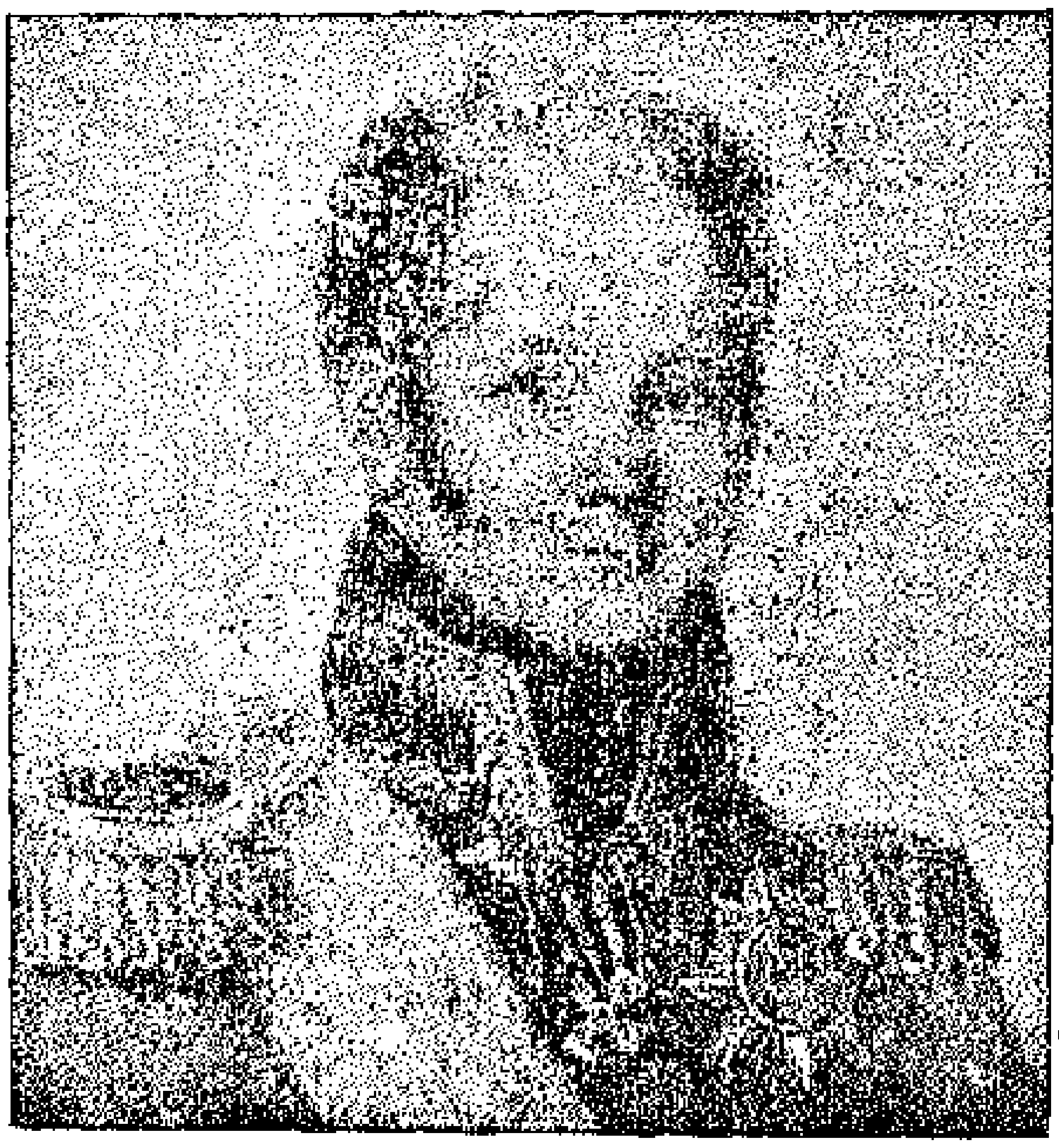

(شكل ١٨٧) قيصر إسكندر الأول

وحدث بعد تلست تقوض ملحوظ فى أخلاق نابليون ؛ فإنه أصبح أكثر اندفاعا وأقل صبراً على العقبات ، وتزايدت لديه فكرة سيد العالم الذى هيأته الأقدار وتزايدت مضايقته لكل من لقيه . وفى ١٨٠٨ زل زلة خطيرة . فإن أسبانيا كانت حليفه الذليل ، وكانت تحت مطلق تصرفه تماما ، ولكنه رأى من المناسب أن يخلع ملكها البوربونى لكى يرقى إلى عرشه أخاه جوزيف من عرش الصقليتين [1] . وكان قد فتح البرتغال آنفا ، وكانت كل من المملكتين البرتغالية والأسبانية على أن توحدا . ومن ثم ثار الأسبان فى حالة حنق وطنى ، وأحاطوا بجيش فرنسى فى بايلن ، وأجبروه على التسليم . وكان ذلك ثلمة مدهشة فى سيرة النصر الفرنسى المتواصل .

ولم يتباطأ البريطانيون عن التقاط ذلك الموطىء الذى أتاحته لهم تلك الثورة . فقد نزل فى أرض البرتغال جيش بريطانى بقيادة السر آرثر ولزلى (المسمى بعد ذلك باسم الدوق ولينجتون) وهزم الفرنسيين فى ڤيميرو ، وأجبرهم على الانسحاب إلى أسبانيا . وأثارت أخبار هذه الهزائم هياجاً فى الخواطر فى ألمانيا والنمسا ، واتخذ القيصر إزاء حليفه وضعاً فيه قدر أكبر من الكبرياء .

---

(١) الصقليتين : مملكة كانت تتكون من صقليه وجنوبى إيطاليا (نابولى) .

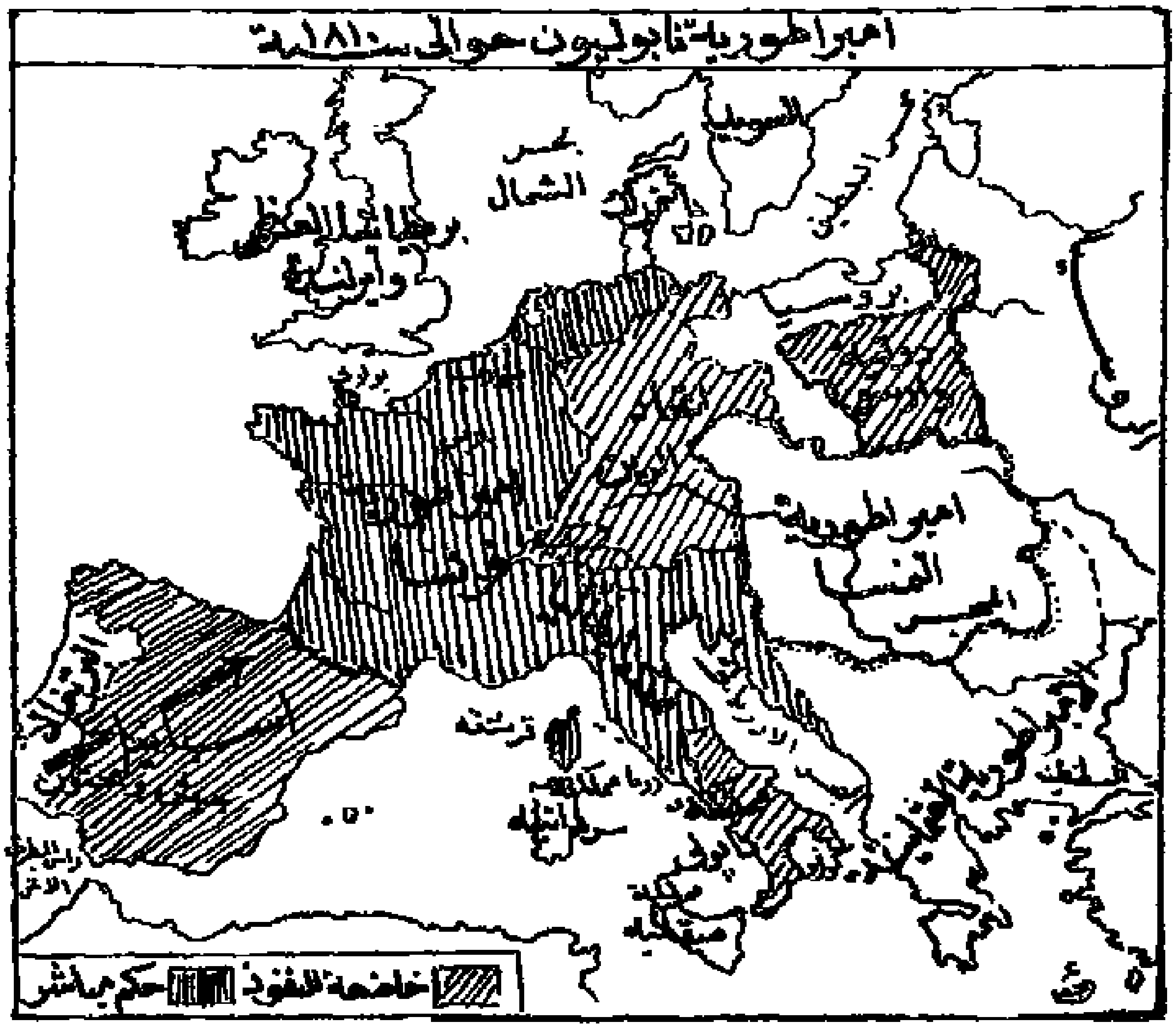

(شكل ١٨٨)

وحدثت مقابلة أخرى بين هذين العاهلين فى إرفورت Erfurt ، تجلت فيها من القيصر رغبة ظاهرة فى أن يكون أقل من ذى قبل ، انبهارا بخطط نابليون . وعقبت ذلك أربع سنوات قضتها فرنسا فى رفعة مُقَلْقَلَة غير ثابتة ، على حين كانت الحدود على خريطة أوربا ترفرف رفرفة الثياب على حبل الغسيل فى يوم رائح . ونمت إمبراطورية نابليون الشخصية بما ألحق بها صراحة من أقطار ، حتى تضمنت هولندا ، وكثيراً من ألمانيا الغربية وكثيراً من إيطاليا وكثيراً من الشاطىء الأدرياتى الشرقى . ولكن المستعمرات الفرنسية كانت تسقط فى أيدى البريطانيين واحدة تلو أخرى ، وأخذت الجيوش البريطانية فى شبه الجزيرة الأسبانية تدفع بالفرنسيين فى بطء نحو الشمال يساعدها فى ذلك المتطوعون الأسبان . وكانت أوربا بأجمعها قد أخذت تمل نابليون أشد الملل ؛ ولم يعد خصومه عند ذلك مجرد الملوك والوزراء ، بل شعوباً بأكملها كذلك . وكان البروسيون بعد كارثة يينا (Jena) فى ١٨٠٦ قد هبوا للعمل على تنظيم بيتهم . فإنهم قاموا بقيادة الفريهر فون شتين وطرحوا نظامهم الإقطاعى جانباً ، وألغوا الامتياز ونظام موالى الأرض ، ونظموا التعليم الشعبى ، والوطنية الشعبية ، وأتموا تقريبا — وكان هذا فى واقع الأمر بلا نزاع داخلى — كل شىء حصلت عليه فرنسا فى ١٧٨٩ . ولما

وافت ١٨١٠ كانت هناك روسيا جديدة ، هي نواة لألمانيا جديدة . وعند ذلك أخذ الإسكندر وقد قذفت فى روعه فيما يبدو أحلام السيادة العالمية — يتخذ من جديد وضع صديق الحرية. وفى ١٨١٠ حدث احتكاك جديد بسبب اعتراض الإسكندر على مطامع نابليون فى الزواج . ذلك أن نابليون كان قد أخذ عند ذلك بأسباب الطلاق من معينته القديمة جوزفين ، لأنها لم تعقب ولداً يضمن استمرار أسرته الملكية . والآن وقد أبيت على نابليون أميرة روسية بل الواقع أن الإسكندر حقره وذكره بضعة مولده ، فإنه اتجه شطر النمسا وتزوج الأرشيدوقة مارى لويز . ذلك أن رجال السياسة النمسويين قرأوه قراءة صادقة . وكانوا على أشد الاستعداد لإلقاء أميرتهم إليه . وبهذا الزواج أوقع نابليون نفسه فى أيديهم من أجل نظام الأسرة المالكة. وربما كان يستطيع أن يكون مكون عالم جديد ، ولكنه فضل أن يكون ختن العالم القديم .

وفى السنتين التاليتين داخل الوهم والانحطاط شئونه . فلم يعد بعد ذلك قائد الثورة ومكمل ما قالها ، ولم يعد بعد ذلك هو الروح المجسد لعالم مولود من جديد ، بل كان مجرد صنف جديد من أصناف الأوتوقراطى أشد فجاجة . وكان نفر منه كل ذوى النفوس الحرة من الرجال ، وكان قد استدعى عداوة الكنيسة . فكان الملوك والبعاقبة على رأى واحد متفق ضده عند ما بلغ الأمر حد عزله . وكانت بريطانيا عند ذاك هى خصمه اللدود ، على حين كانت تتأجج فى أسبانيا روح لا بد أنها ميسورة الفهم لكل كورسيكى ، ولم يكن الأمر بحاجة إلا إلى شىء واحد هو الانفصال عن الإسكندر الأول لكى تدفع هذه الإمبراطورية، إمبراطورية الخداع والمناظر المسرحية دفعاً يدعثرها ويسقطها . وجاء الخلاف . وكانت مشاعر الإسكندر نحو نابليون على الدوام مبهمة مخلطة جداً ، فإنه كان يحسد نابليون بوصفه منافساً ويحتقره بوصفه عصامياً . زد على ذلك أنه كان يحيط بالإسكندر نوع من العظمة المبهمة العاطفية ، وكان كلفاً بالتدين التصوفى ، وكانت تساوره فكرة رسالة إلى الروسيا وإليه إذ يجلبان السلام إلى العالم — بتحطيم نابليون . على أن اجتلاب السلام إلى أوربا ، كان يبدو لناظريه شيئاً على تمام الاتساق مع ضم فنلندا إليه ، واستلحاقه معظم بولندا وأجزاء عظيمة من الإمبراطورية التركية !! وكان يرغب بوجه خاص أن يعيد التجارة مع بريطانيا ، التى كان نابليون مصرا على انقطاعها . وذلك أن تجارة ألمانيا جمعاء تقلقلت ، وأن الطبقات المتجرة الألمانية كانت فى غيظ شديد من « النظام القارى النابليونى » ، الذى يرمى إلى القضاء على بريطانيا بطرد كل البضائع البريطانية من كل أقطار أوربا . وكابدت الروسيا عناء كثيراً ولعلها قاست أكثر من ألمانيا .

وجاء الافتراق فى ١٨١١ ، عنـد ما انسحب الإسكندر من النظام القارى . وفى ١٨١٢ اجتمعت جموع هائلة من الجنود تبلغ فى مجموعها ٦٠٠٠٠٠ مقاتل ، وأخذت تتحرك نحو الروسيا تحت القيادة العليا للإمبراطور الجديد . وكان نصف هذه القوة تقريباً من الفرنسيين على حين جمع الباقون من حلفاء فرنسا والشعوب الخاضعة لها . كان جيشاً مخلطاً أشبه شىء بجيش دارا أو جيش قباذ . وكانت الحرب الأسبانية ما تزال على قدم ، ولم يقم نابليون بأى جهد لإنهائها . وقد اقتطعت من فرنسـا قوة يبلغ مجموعها ربع مليون رجل . فشق طريقه مقاتلا عبر بولندا والروسيا إلى موسكو قبل حلول الشتاء — وظلت الجيوش الروسية تمتنع فى جل شأنها عن قتاله — وأصبح مركزه خطراً خطورة واضحة حتى قبل أن يطبق عليه الشتاء . فاستولى على موسكو متوقعا أن يضطر ذلك الإسكندر إلى عقد الصلح . ولم يرغب الإسكندر فى عقد الصلح ، ووجد نابليون نفسه فى مركز هو أشبه شىء بمركز دارا فى جنوب الروسيا ، قبل ذلك بألفين وثلاثمئة من السنين . وكان الروسيون وهم ما يزالون بعد غير مغلوبين يهاجمون مواصلاته ، ويفنون أفراد جيشه — يساعدهم فى ذلك المرض ، فهلك من رجاله خمسة عشر ألفاً حتى قبل أن يصل إلى موسكو . ولـكن كانت تعوزه حكمة دارا فلم يرغب فى التقهقر . وظل الشتاء معتدلا مدة طويلة طولا غير عادى — فكان فى مقدوره أن ينجو . ولـكنه بدلا من ذلك أقام فى موسكو يدبر الخطط المستحيلة . وكان سعيد الحظ سعادة عجيبة فى كل مغامراته السابقة مع القدر ؛ وكان قد نجا من مصر نجاة لا يستحقها ، وأنقذه من التحطيم فى بريطانيا النصر البحرى البريطانى ، ولـكن ها هو ذا قد وقع فى الفخ مرة أخرى ، وما كان لينجو هذه المرة . ولعله كان يبغى أن يقضى الشتاء فى موسكو ، ولـكن الروسيين طردوه بسحب الدخان طرد النحل من أكواره ، إذ أضرموا النار فى المدينة وأحرقوا معظمها .

تأخر به الأوان فى أكتوبر ، بل تأخر به أكثر مما ينبغى ، قبل أن صح عزمه على العودة . فحاول محاولة غير مجدية أن يخترق طريقه إلى خط تراجع جديد إلى الجنوب الغربى ، ثم حول وجهة من تبق له من جيشه اللجب نحو القطر الذى عاثوا فيه فساداً أثناء تقدمهم . وكانت المسافات الشاسعة تفصلهم عن كل أرض موالية . ولم يكن الشتاء متعجلا ، وظل الجيش العرمرم أسبوعا وهو يكافح بين الوحول ثم جاء الصقيع الشديد ، ثم تهاطلت أوائل ندف الثلج ، ثم الثلج فالثلج . وأخذ النظام ينحل رويداً رويداً ، وانتشر الجيش الجائع يبحث عن الميرة حتى أصبح مجرد ثلل من المغيرين . وقام الفلاحون عليهم للدفاع عن النفس على الأقل وأخذوا يكمنون لهم فى الطرقات ويقتلونهم . وكانت غمامة من الراكبة

الخفيفة ما تنفك تلاحقهم وتصيب منهم على الشاكلة الإسكيذية(١) وهذا التقهقر من أكبر مآسى التاريخ .

وأخيراً ظهر فى ألمانيا نابليون وهيئة قيادته وثلة من الحرس والأتباع ، ولم يحضر معه جيشه ، وإنما كانت تتبعه فقط شراذم تجر سيقانها جراً وقد فقدت كل معنوياتها . ووصل الجيش العرمرم وهو يتقهقر بقيادة موراه إلى كونجسبرج فى حالة منتظمة ، ولكن لم يتبق

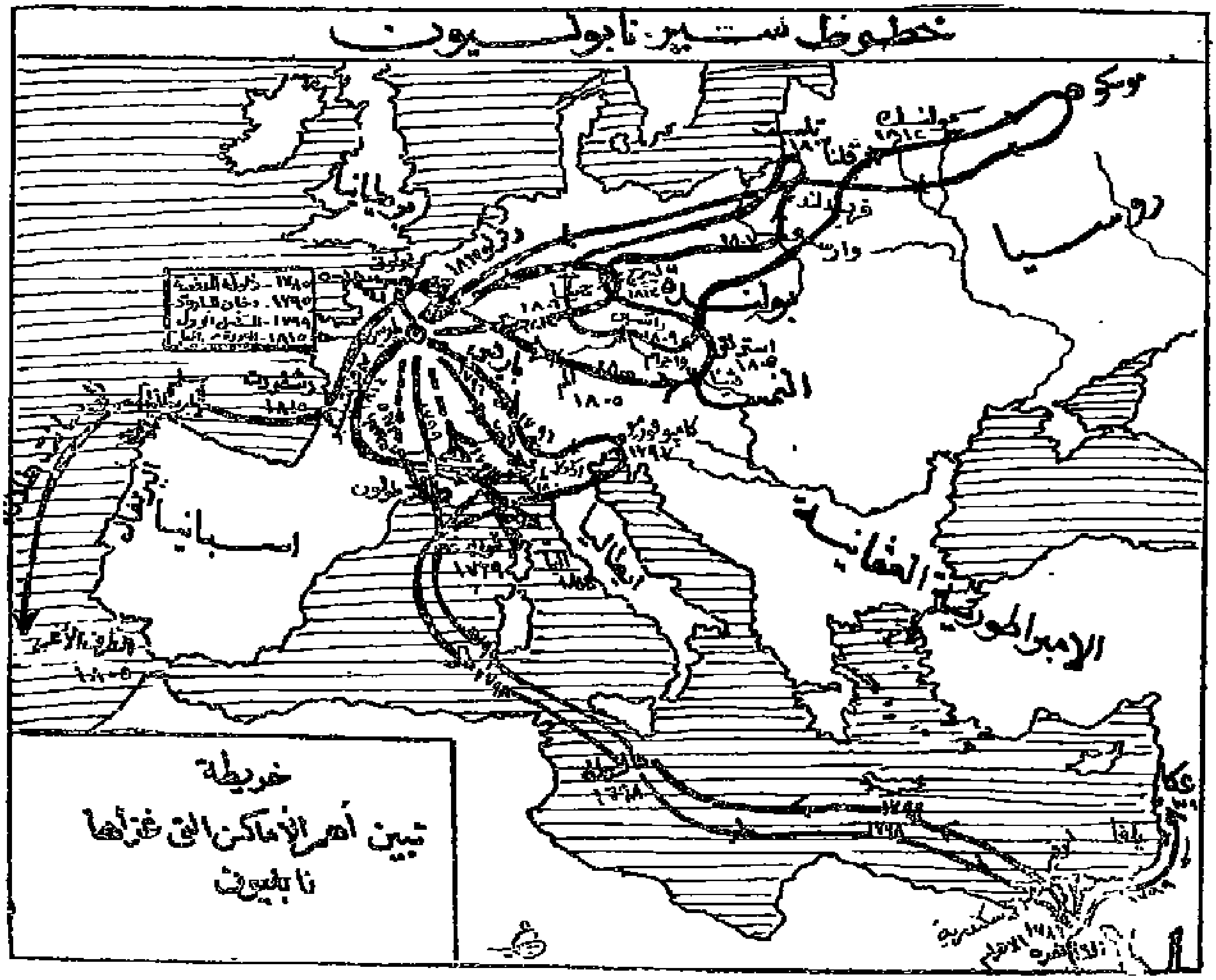

(شكل ١٨٩)

منه إلا ألف من الرجال من قرابة الستمئة ألف . وتراجع موراه من كونجسبرج إلى بوزن . وكانت الفصيلة البروسية قد استسلمت للروسيين ، وكان النمسويون اتجهوا جنوبا نحو وطنهم . فكان اللاجئون المتنأرون الرثو الثياب المهزيلو الأجساد الذين عضهم الصقيع ينشرون فى كل مكان أخبار الكارثة .

---

(١) الإسكيذية : الأشقوذية أنظر ص ٣٠٢ ج ٢ من المعالم .

وكان سحر نابليون قد انتهى أو كاد . ففر مهطعا إلى باريس . وشرع ينظم مجندين جدداً ويجمع جيوشا جديدة بين حطام إمبراطوريته العالمية . وانقلبت عليه النمسا ١٨١٣ ؛ وكانت أوربا بأكملها تواقة إلى الثورة على مؤتمن الحرية الذى قصّر فى حقوقها وفرّط فى أمانتها ، ولم يخرج عن مجرد مغتصب محض . تخلى عن النظام الجديد ، فالآن نهض النظام القديم ، الذى أنقذ وبعث يعمل على تدميره . وثارت روسيا ، وابتدأت حرب تحرير ألمانيا . وانضمت السويد إلى زمرة أعدائه . وثارت هولاندا بُعيد ذلك . وكان موراه قد جمع حول نواته المنظمة فى بوزن أربعة عشر ألف فرنسى ، وتراجعت هذه القوة خلال ألمانيا ، كما قد يتراجع رجل تجرأ على المرور وسط قفص ملىء بالسباع المخدّرة فوجد آثار التخدير قد أخذت تتبخر . وفى الربيع تناول نابليون القيادة العليا على جيوش جديدة ، ثم كسب معركة عظيمة عند درسدن ، ثم يلوح أنه قد أصيب ردحا من الزمان بتشتت فى قواه الذهنية والمعنوية . فأصبح سريع التأثر بشكل جنونى ، ثم إنه ليصاب أحيانا بحالات جمود . فانه لم يفعل إلا القليل أو لم يفعل شيئاً يشفع به معركة درسدن . وفى سبتمبر نشبت معركة الأمم حول ليبزج وبالقرب منها ، وانضم السكسون فى أعقاب ذلك إلى الحلفاء وكانوا حتى ذلك اليوم يتبعون نجمه . وشهدت نهاية السنة الفرنسيين وهم يتراجعون إلى فرنسا مندحرين .

وكانت ١٨١٤ هى حملة الختام . فاجتيحت فرنسا من الشرق والجنوب . فعبر الرين السويديون والألمان والنمسويون والروسيون ، وجاءت بريطانيا وأسبانيا من فوق جبال البرانس . وأخذ نابليون يقاتل مرة أخرى قتالا ذاكيا رائعا ، ولكنه كان يقاتل الآن قتالا غير مجدٍ . على أن الجيوش الشرقية لم تستطع أن تهزمه قدر ما استطاعت أن تشق طريقها إلى جواره ، واستسلمت باريس فى مارس . ولم يمض طويل حتى تنازل الامبراطور فى فونتينبلو عن العرش . وكادت تقضى على حياته جماعة من الرعاع الملكيين فى بروفانس وهو فى طريقه إلى الخارج .

٥ — المئـــة يوم

تلك هى الخاتمة الطبيعية الصائبة لحياة نابليون . فقضى عليه آخر الأمر . فلو كانت هناك أية حكمة فى تصريف الشئون الانسانية ، لوجب علينا الآن أن نحدثك عن تمركز العلم الإنسانى والإرادة الإنسانية ، وتوفرهما على أداء الواجب الذى قطعت حياته أداءه وأعنى به واجب إنشاء نظام عالمى للعدالة والجهد الحر بدل النظام القديم المفلس . ولكنا لسنا بمخبريك

عن شيء من هـذا القبيل . فقد كان العلم والحـكمة غائبين غيابا ظاهراً ملموساً عن مجلس الحلفاء العظيم . ووافت النزعة الإنسانية المبهمة والغرور الحالم عند القيصر الإسكندر ، وجاء آل هابسبرج النمسويون الضعفاء ، وآل هوهنزولرن البروسيون المغضبون ، ووفدت على المجلس تقاليد بريطانيا الأرستقراطية وهى ما تزال وجلة الروع من الثورة ، وضميرها لا يبرح منحرفا انحرافا أدبيا بما يبهظه من أراض عامة مغتصبة وأطفال مصانع مكدودين عملا . لم يحضر المؤتمر أى شعب من الشعوب بل توافى له الملوك ووزراء الخارجية دون غيرهم . ولم يكد المؤتمر يجتمع حتى أقبل الديبلوماتيون على العمل على إنشاء الصفقات والمعاهدات السرية كل من وراء ظهر أخيه . وما كان شيء ليستطيع أن يعلو على الفخامة والجلال اللذين ظللا المؤتمر الذى اجتمع فى ڤيينا بعد زيارة شرف فخمة أداها ملوك الحلفاء للندن . وكانت الناحية الاجتماعية من المؤتمر قوية جداً ؛ فقد كثرت السيدات الجميلات ، وكانت هناك مجموعة زاهرة من النجوم والبدلات الرسمية ومالا نهاية له من المآدب وحفلات الرقص ، وفيض جارف من النوادر الزاهرة والنكات اللألاءة . وكان أذكى أفراد المجتمعين روحا شخص بعينه اسمه تاليران ، وهو أحد أمراء نابليون ، كان حقا رجلا ذكياً جداً ، كان قبل الثورة قسيساً ، وهو الذى اقترح ما قامت به الثورة من مصادرة أملاك الـكنيسة ، وهو الذى كان الآن داعية إلى إعادة آل بوربون .

وأضاع الحلفاء الثمين من الزمان فى منازعات تجلى فيها الطمع والشره متزايداً ، وعاد آل بوربون إلى فرنسا . وعاد معهم بقية المهاجرين ، وهم أشوق ما يكونون إلى التشفى والانتقام . وكأنما دُفعت أنانية عظيمة جانباً — لا لشيء إلا لـكى تكشف الستر عن حشد من الأنانيات الأكثر دناءة وخسة . كان الملك الجديد أخا للويس السادس عشر ، وما كان أشد تلهفه إلى التسمى باسم لويس الثامن عشر بمجرد أن علم بوفاة ابن أخيه (لويس السابع عشر) فى المعبد . كان مصابا بالنقرس ، وبليداً . ولعله لم يكن من ذوى المقاصد السيئة ، غير أنه رمز يمثل النظام القديم البالى ، فأحس كل ما هو جديد فى فرنسا بنذير الرجعية الثقيل الذى لازم مجيئه . لم يكن ذلك تحرراً ، بل استبداداً وطغيانا جديداً ليس غـير — بل هو طغيان ثقيل وضيع بدلا من آخر نشيط رائع .

أليس أمام فرنسا من أمل غير هذا ؟ وأظهر آل بوربون حقداً خاصا ضد كبار ضباط الجيش العظيم ، وكانت فرنسا فى ذلك الحين غاصة بأسرى الحرب العائدين ، الذين وجدوا أنفسهم فى ظل غمامة قاتمة . وكان نابليون أُرْسِلَ إلى امبراطورية صغيرة فى جزيرة إلبا

يتعزى بها ، عما أصابه . وكان على أن يظل ملقبا باللقب الإمبراطورى وأن تكون له دولة ، بعينها . فإن فروسية الإسكندر ... أو هوائيته !... أبت إلا أن يعامل منافسه المخلوع هـذه المعاملة . وانتزع آل هابسبرج إمبراطورتهم الهابسبرجية — فذهبت راضية قريرة العين إلى ڤيينا ، ولم يرها نابليون بعد ذلك أبداً .

وبعد أن قضى نابليون فى إلبا أحد عشر شهراً قدّر أن فرنسا ضاقت ذرعا بآل بوربون ، فاحتال حتى أفلت من السفن البريطانية التى كانت تراقب جزيرته وظهر فى كان بفرنسا ليقوم بآخر لعبة له مع القدر . وكان مسيره إلى باريس موكب نصر عظيم ، وطأ فيه القبعات البوربونية البيضاء . ثم غداً ، أمدَ مئة يوم « وهى فترة المئة يوم » سيداً على فرنسا من جديد .

وأثارت عودته حالة ارتباك لدى كل فرنسى شريف . فمن ناحية كان ثمة هذا المغامر الذى تخلى عن الجمهورية ، وكان هناك من الناحية الأخرى ذلك العبء السمج الذى جلبته عودة الملكية القديمة . ولم يكن الحلفاء ليقبلوا أن تحدث أى تجارب جديدة فى موضوع الجمهورية ؛ فكان الاختيار إذن إما على نابليون أو آل بوربون . أعجيب إذن أن تكون فرنسا على الإجمال فى صف نابليون ؟ وها هو ذا قد عاد معترفا بأنه تغير وأصبح رجلا آخر ، فلن يكون ثمة أى طغيان ، ولسوف يحترم النظام الدستورى .

جمع جيشاً ، وبذل بعض المحاولات فى سبيل السلام مع الحلفاء ؛ على أنه ما لبث عندما وجد هذه الجهود غير مجدية ، أن تقدم فضرب البريطانيين والهولنديين والبروسيين فى البلجيك ضربة سريعة ، مؤملا أن يهزمهم قبل أن ينضم إليهم النمسويون والروس . فأوشك أن يصل إلى غرضه هذا تقريبا . فإنه كسر البروسيين عند لجنى (Ligny) ، وإن لم يكن ذلك كسراً كافياً ، وعند ذلك هزم هزيمة لا أمل له بعدها نتيجة لصلابة عود البريطانيين بقيادة ولنجتن عند وترلو (١٨١٥) ، على حين وصل البروسيون بقيادة بلوخر وأطبقوا على جناحه الأيمن وقد تقدم النهار . وانتهت معركة وترلو بتشتيت شمل جيشه ، وغادرت نابليون بلا معين وبلا أمل . وأعرضت عنه فرنسا مرة ثانية . وكان كل إنسان انضم إليه تواقا عند ذاك إلى مهاجمته والتبرؤ منه حتى يمحو الغلطة التى ارتكب . وأمرته حكومة مؤقتة فى باريس أن يغادر البلاد ، وأمهلته أربعا وعشرين ساعة يتم فيها ذلك .

فحاول أن يذهب إلى أمريكا ، ولكن ميناء روشفور التى وصل إليها كانت تراقبه الطرادات البريطانية . والآن وقد رفعت عن أعين فرنسا غشاوة الأوهام ، وعادت فأصبحت على مضض ملكية من جديد ، فإنها قامت تلاحقه فى حرارة . فاعتلى ظهر مدمرة بريطانية ،

هى البليروفون طالبا أن يُقبل لاجئا لائذاً ، ولـكنه فى الواقع عومل كأسير . فأخذ إلى بليموث ثم حُمل من بليموث مباشرة إلى جزيرة سانت هيلينا المدارية الموحشة .

وهناك بقى حتى وافته منيته بالسرطان فى ١٨٢١ ، بعد أن كرّس نفسه بوجه رئيسى لتحضير مذكراته ، التى كانت خطته فيها أن يعرض كبريات حوادث حياته تحت ضياء ساطع جذاب ، وكان رجلان ممن معه يسجلان محادثاته ، ويثبتان انطباعاتهما عنه .

وراجت هذه المؤلفات رواجا عظيما فى فرنسا وأوربا . وظلت المحالفة المقدسة بين ملوك الروسيا ، والنمسا وبروسيا (التى دعى ملوك آخرون للانضمام إليها) تعمل عملها فى ظلال وهم باطل بث فى روعها أنها يوم هزمت نابليون هزمت الثورة ، وأرجعت ساعة القدر أدراجها ، وأعادت الملكية العظمى إلى أبد الآبدين . ويقال إن الوثيقة الرئيسية لخطة المحالفة المقدسة رسمت بوحى من البارونة ڤون كرودنر ، التى يلوح أنها كانت نوعاً من المدبر الروحى للإمبراطور الروسى . وكانت بدايتها كما يأتى : « باسم الثالوث القدس الذى لا تنفصم عراه » ، وكانت تلزم الملوك المشتركين فيها ، « بأن يعدوا أنفسهم نحو رعاياهم وجيوشهم فى مكان الوالد من العائلة » ، وأنهم « إذ يعدّ أحدهم الآخر مواطناً له » ، يشد أحدهم أزر الآخر ، ويحمون الدين الحق ويحضون رعاياهم على تقوية أنفسهم وتدريبها على القيام بالواجبات المسيحية . وهى تصرح أن المسيح هو الملك الحق لـكل الشعوب المسيحية ، وعسانا نستطيع أن نلاحظ أنه كان بناء على هذا ملكا ميروڤنجيا مفرطا ، يكون هؤلاء الملوك المتربعون فى دست الأحكام بمثابة محافظين[1] للقصر لديه . ولم يكن لملك بريطانيا أى سلطة تخول له أن يوقع هذه الوثيقة ، ولم يطلب أحد إلى البابا والسلطان أن يوقعاها ، وانضم إليها سائر ملوك أوربا بما فيهم ملك فرنسا . على أن ملك بولندا لم يوقع لأنه لم يكن ثمة ملك لبولندا ، !! وذلك لأن الإسكندر قام وهو فى حالة من حالات الذهول الورع فألحق ببلاده معظم بولندا !! . . . ولم تصبح المحالفة المقدسة أبداً محالفة قانونية بين الدول ، بل أخذت مكانها لعصبة أمم حقيقية ، هى إتحاد أوربا الذى انضمت إليه فرنسا فى ١٨١٨ ، والذى انسحبت منه بريطانيا فى ١٨٢٢ .

وعقبت ذلك فترة سلام وعسف فى أوربا . وكان كثير من الناس يميلون فى تلك الأيام التى انقطع فيها حبل الأمل أن يرمقوا حتى نابليون نفسـه بنظرة إحسان ، وأن يقبلوا منه

---

(١) محافظ القصر : فى ذلك إشارة إلى تاريخ ببين وشارل مارتل فليرجع إليها القارئ ص ٦٧٤ ج ٣ من المعالم . حيث كان الملك للأسرة الميروڤنجية ومقاليد الحكم كلها بيد محافظ القصر الذى يتولاها باسم الملك .

إدعاءه بأنه عندما كان يؤيد حقه ، كان يؤيد حق الجمهورية ، وفرنسا ، على طريقة لايمكن تفسيرها . وتمت بعد وفاته نحلة تعده شيئاً ذا بطولة صوفية دينية .

٦ — خريطة أوربا فى ١٨١٥

ظلت فكرة المحالفة المقدسة ، والاتحاد الأوربى الذى تمخضت عنه ، وسلسلة المؤتمرات والاجتماعات التى عقبت الاتحاد ، محافظة مدة أربعين عاما على سلام مزعزع الأركان فى أوربا التى خرجت من الحروب منهوكة القوى . وهناك أمران رئيسيان حالا بين هذه الفترة وبين أن تكون سلاما اجتماعياً ودولياً كاملا ، ومهدا السبيل لدورة الحروب التى وافت بين ١٨٥٤ ، ١٨٧١ . وكان أول هذين الأمرين هو ميل البلاطات الملكية المختصة إلى استرداد الامتيازات غير العادلة ، والتدخل فى حرية الفكر والكتابة والتعليم . وكان الثانى هو مجموعة الحدود المستحيلة التى رسمها الدبلوماسيون فى ڤيينا .

وكان ميل الملكية إلى الرجوع إلى الأحوال المواضى واضحاً أولا وبوجه أخص فى أسبانيا . حتى لقد بلغ الأمر هناك أن أعيدت محاكم التفتيش . فأما عبر المحيط الأطلسى فإن المستعمرات الأسبانية حذت حذو الولايات المتحدة وثارت ضد نظام الدول الكبرى الأوربى ، عندما نصب نابليون أخاه چوزيف ملكا على أسبانيا فى ١٨١٠ . وكان زعيم الاستقلال وواشنجتون أمريكا الجنوبية هو الجنرال بوليڤار . ولم تستطع أسبانيا أن تقمع هذا العصيان ، فطال به الأمد مثلما طال بحرب استقلال الولايات المتحدة ، وأخيراً تقدمت النمسا باقتراح يتسق وروح المحالفة المقدسة ، تذكر فيه أن من واجب ملوك أوربا أن يساعدوا أسبانيا فى كفاحها ذاك . فعارضت فى ذلك بريطانيا فى أوربا ، فأما فى أمريكا فإن العمل السريع الذى قام به رئيس الولايات المتحدة الرئيس مونرو فى ١٨٢٣ ، هو الذى قضى على مشروع هذا الاسترداد لسلطان الملوك قضاء نهائياً . فإنه أعلن أن الولايات المتحدة تعد أى بسط للنظام الأوربى فى نصف الكرة الغربى عملا عدائياً . وبذا نشأ مبدأ مونرو ، الذى صد نظام الدول الكبرى عن أمريكا قرابة مئة من السنين ، وسمح للدول الجديدة فى أمريكا الأسبانية بأن تكون مقدراتها على الشاكلة التى ترضيها . ولئن فقدت الملكية الأسبانية مستعمراتها ، فقد كانت على الأقل تستطيع تحت حماية الحلف الأوربى أن تفعل ما تشاء فى أوربا . وأخمد جيش فرنسى فتنة شعبية فى أسبانيا فى ١٨٢٣ ، بانتداب من أحد المؤتمرات الأوربية ، وفى الوقت ذاته قمعت النمسا ثورة فى نابلى .

وفى ١٨٢٤ مات لويس الثامن عشر ، وخلفه كونت أرتوا الذى رأيناه مهاجراً يرفرف ويحوم من فوق الحدود الفرنسية فى ١٧٨٩ فاتخذ لقب شارل العاشر . ونصب شارل نفسه لتدمير حرية الصحافة والجامعات ، وإعادة الحكومة المطلقة ؛ وأخذ الصوت بالموافقة على اعتماد بليون فرنك لتعويض النبلاء عن إحراق قصورهم ومصادرة أملاكهم فى ١٧٨٩ . وفى ١٨٣٠ ثارت باريس ضد هذا الملك الذى يتمثل فيه النظام المهيد ، وتبدلت به لويس فيليب ابن فيليب دوق أورليان المعروف ، الذى حكم عليه بالإعدام أثناء حكم الإرهاب . ولم تتدخل فى هذا الشأن بقية الملكيات الأخرى بأوربا ، إذ واجهها استحسان علنى من بريطانيا العظمى واختمار حر قوى فى ألمانيا والنمسا . ومهما يكن من شىء فإن فرنسا كانت ما تزال ملكية . وظل هذا الملك الشاب لويس فيليب (١٨٣٠ — ١٨٤٨) هو ملك فرنسا الدستورى أمد ثمانية عشر عاما . ولكنه سقط فى ١٨٤٨ ، وهى سنة عظيمة الأحداث فى أوربا ، وسنحدثك عنها فى الفصل التالى .

تلك هى الأمور المتأرجحة القلقة التى ألمت بصلح مؤتمر فينا ، والتى أثارتها التصرفات الرجعية لدعاة الملكية . فإن التأزمات التى نشأت عن خريطة الدبلوماسيين غير المدروسة دراسة علمية تسببت فى تجمع القوى بتعمد أكثر ولكنها كانت أشد خطراً على سلام الإنسانية . فإن من أكثر الأمور عسراً ومضايقة أن يدبر السياسى شئون أقوام مختلفين يتكلمون لغات مختلفة ويقرءون من ثم أدباً مختلفاً ولهم فكرات عامة مختلفة ، وخاصة إذا بلغت هذه الفروق والاختلافات حد التسخط بسبب المنازعات الدينية . وليس فى طوق أى شىء اللهم إلا بعض المصالح القوية المتبادلة (من أمثال احتياجات الدفاع المشترك لدى جبلى سويسرا) ، أن يبرر إقامة ترابط وثيق بين شعوب متباينة فى لغاتها وعقائدها ، بل حتى سويسرا ذاتها يوجد بها أقصى درجات الحكم الذاتى المحلى . وعند ما تموت فى النهاية تقاليد الدولة الكبرى وتوارى التراب ، فعسى هؤلاء السكان السويسريون ، أن ينجذبوا نحو وشائجهم الطبيعية فى ألمانيا وفرنسا وإيطاليا . وعند ما يكون الحال كشأنه فى مقدونيا تخلطا بين أنواع السكان المنقسمين إلى رقاع صغيرة من القرى والنواحى ، فإن نظام الكانتون مطلوب طلباً حتمياً . ولكن إذا نظر القارئ إلى خريطة أوربا كما رسمها مؤتمر فينا ، رأى أن هذا المجلس كان كأنما يرسم خطة الوصول بالسخط المحلى الى أقصاه . فإنه دمر الجمهورية الهولندية ، ثم راح بغير ما داع ، فجمع بين الهولنديين البروتستانت وبين الكاثوليك المتكلمين بالفرنسية الذين كانوا فى الأراضى المنخفضة الأسبانية (النمسوية) وأقام بها مملكة

للأراضى المنخفضة . ولم يكتف بأن يسلم جمهورية البندقية القديمة فقط ، بل كل شمال إيطاليا حتى ميلان للنمسويين الناطقين بالألمـانية . وأدمج الساڤويا الناطقة بالفرنسية مع أجزاء من

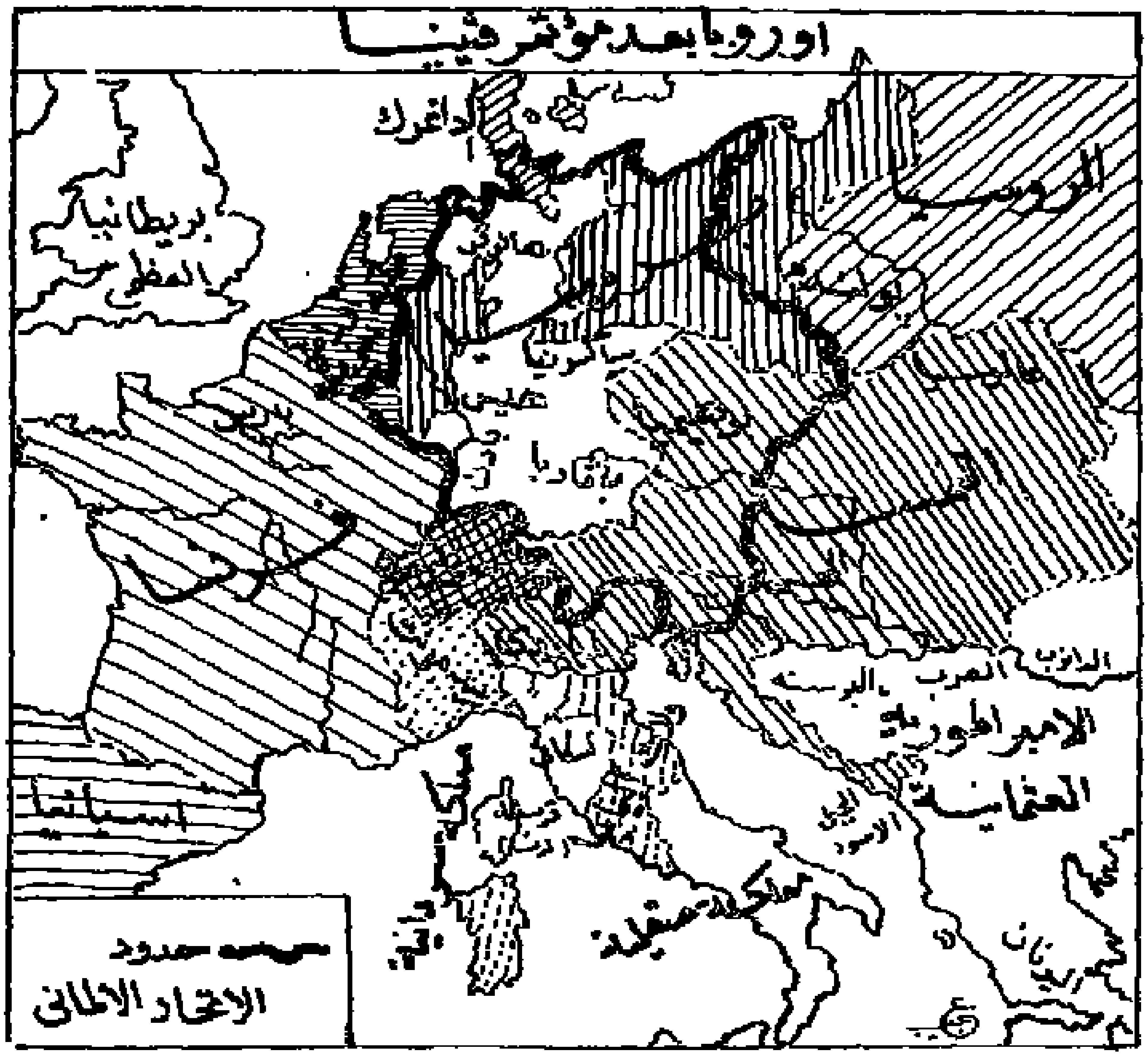

(شكل ١٩٠)

إيطاليا بغية إرجاع مملكة سردينيا . وكانت إمبراطورية النمسا والمجر من قبـل ذلك خليطاً به ما يكفيه من عوامل التفجر من الجنسيات غير المتسقة ما بين ألمـانيين ومجريين ، وتشيكوسلوفاك ويوغوسلاف ورومانيين وانضم إليهم الآن الإيطاليون ، فجعلت فى ١٧٧٢ ، ١٧٩٥ أكثر استحالة ممـا كانت . فأما البولنديون الـكاثوليك ذوو الروح الجمهورية فقد سُلموا بصفة رئيسية إلى حكم القيصر الأقل حضارة وصاحب الدين اليونانى الأرثوذكسى ، عدا أن أجزاء هامة منها ذهبت إلى بروسيا البروتستانتية . كذلك ثبت قدم القيصر فيما احتازه من بلاد الفنلنديين المختلفين عنه اختلافاً كلياً . ورُبط الشعبان غـير المتشابهين النرويجى والسويدى تحت حكم ملك واحد . وتُركت ألمانيا كما سيرى القارئ فى حالة ارتباك خطرة بوجه خاص . فقد كانت كل من بروسيا والنمسا داخلتين جزئياً وخارجتين جزئياً فى احتلاف (Confederation) ألمانى كان يضم عدداً كبيراً من الدول الصغرى . ودخل ملك الدانمارك

على مائدة الاحتلاف الألمانى بسبب بعض ممتلكات له بعينها تتكلم الألمانية فى هولشتين . وأدخلت لكسمبورج فى الاحتلاف الألمانى ، مع أن حاكمها كان كذلك هو ملك الأراضى المنخفضة ومع أن كثيراً من سكانها كانوا يتكلمون الفرنسية . وهنا نلمس إغفالاً تاماً لحقيقة أن القوم الذين يتكلمون الألمانية ويبنون فكراتهم على الأدب الألمانى ، وأن القوم الذين يتكلمون الإيطالية ويبنون فكراتهم على الأدب الإيطالى ، وأن القوم الذين يتكلمون بالبولندية ويبنون فكراتهم على الأدب البولندى — سوف يكونون جميعاً على أحسن ما يرام ويكونون من أعود الناس على سائر الإنسانية نفعاً ومعونة وأقلهم بها شراً وضراً ، إذا هم أداروا شئونهم على تراكيب لغتهم داخل نطاق لسانهم الخاص . أعجيب إذن أن تكون من بين أشد الأغنيات ذيوعاً فى الناس فى ألمانيا أثناء تلك الفترة ، أغنية تصرح بأنه حيثما كان اللسان الألمانى يتكلم كانت أرض الأجداد الألمانية !

ولا يزال الناس حتى فى يومنا هذا كارهين أن يعترفوا بأن مناطق الحكومات ليست من الشئون التى تجوز فيها المساومات والتفاعلات بين القياصرة والملوك ووزارات الخارجية . وهناك خريطة سياسية للعالم تقوم على طبيعة الأشياء وضروراتها وتتعالى فوق كل هذه الأمور . وثمة طريقة مستطاعة هى أحسن الطرق يقسم بها أى جزء من أجزاء العالم إلى مناطق إدارية ، بالنظر إلى لغة وجنس سكانها ، وإنه لما يهمنا جميعاً أن نضمن وجود هذه الأقسام وأن تؤسس أشكال الحكومة تلك بصرف النظر تماماً عن الدبلوماسيات والرايات والمدعيات والولاء الميلودرامى المؤثر ، وعن خريطة العالم السياسية الموجودة اليوم . . . وخريطة العالم السياسية المخططة حسب الطبيعة تأبى إلا أن تنفذ . وهى تضطرب وتتحرك تململا من دون الخريطة السياسية الاصطناعية كما يتململ جبار فى وضع لا يريحه . ففى ١٨٣٠ قامت البلجيك الناطقة بالفرنسية وقد حفزتها الثورة فى فرنسا فثارت على شريكتها الهولندية فى مملكة الأراضى المنخفضة . وسارعت الدول إلى تسكين هذا الموقف وقد أرعبها إمكان قيام جمهورية بها أو استلحاقها إلى فرنسا ومنحت البلجيكيين ملكا هو ليوبولد الأول أمير ساكس كوبرج جوثا . وحدثت كذلك ثورات غير مجدية فى إيطاليا وألمانيا فى ١٨٣٠ ، وفتنة أشد خطورة بكثير فى بولندا الروسية . وقامت فى وارسو حكومة جمهورية صمدت عاماً كاملا حيال نيقولا الأول (الذى خلف الإسكندر فى ١٨٢٥) ، ثم قضى عليها عند ذاك بعنف وقساوة كبيرين . وصدر قرار الحرمان على اللغة البولندية ، واستبدلت بالكنيسة الرومانية الكاثوليكية الكنيسة اليونانية الارثوذكسية بوصفها الديانة الرسمية للدولة .

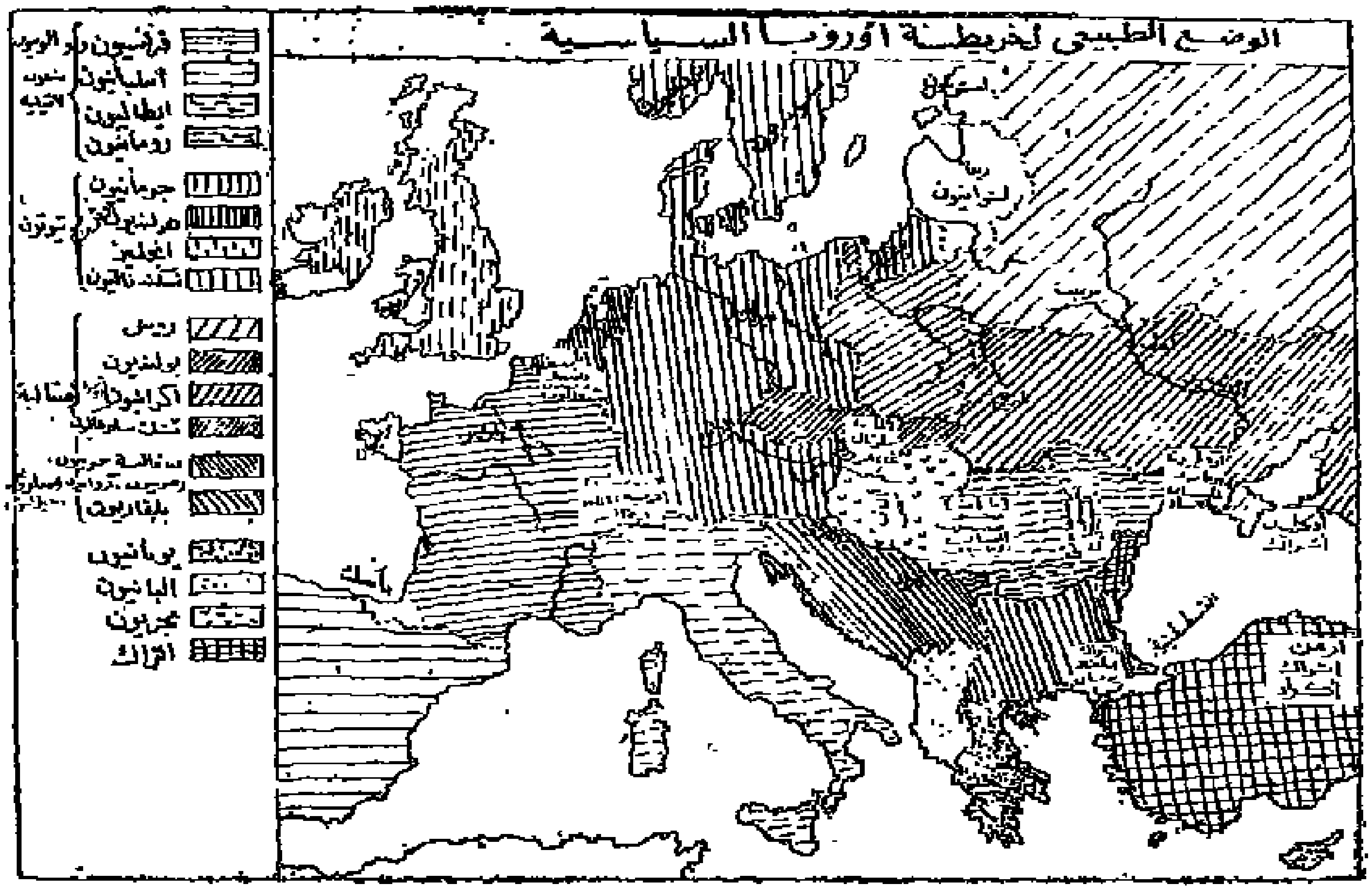

(شكل ١٩١)

وهناك انفجار فى خريطة العالم السياسية المطابقة للطبيعة حدث فى ١٨٢١ ، وانتهى بالحصول على مناصرة انجلترا وفرنسا والروسيا . وكان ذلك الانفجار هو ثورة اليونان ضد الأتراك . فظلوا يقاتلون فى حرب المستيئس أمد ست سنوات على حين وقفت حكومات أوربا تنظر إليهم متفرجة . واحتج الرأى الأعمى على هذا الجمود ، وانضم إلى الثوار المتطوعون من كل دولة أوربية ، وانتهى الأمر بأن قامت بريطانيا وفرنسا والروسيا بعمل مشترك . فدمر الأسطولان الإنجليزى والفرنسى الأسطول التركى فى معركة نوارين (١٨٢٧) وغزا القيصر تركيا . وأعلنت حرية بلاد اليونان بمعاهدة أدرنة (١٨٢٩) ، ولكن لم يسمح لها بأن تواصل تقاليدها الجمهورية العهيدة . فعثروا لبلاد اليونان على ملك ألمانى هو أمير باڤارى اسمه أوتو — فغلبت عليه أوهام اعترته حول حقه المقدس ، ونبذ فى ١٨٦٢ . وأقيم حكام مسيحيون فى الولايات الداتوبية (التى هى الآن رومانيا) ، وسربيا (وهى جزء من منطقة يوغوسلافيا) . وكان هذا إذعانا جزئيا للخريطة السياسية الموافقة للطبيعة ، ولكن كان لابد من سفك الدم الكثير قبل أن يطرد التركى طرداً تاماً من هذه الأراضى . وبعد ذلك بزمن يسير قامت الخريطة السياسية المحتذية الطبيعة تنادى بحقوقها فى ألمانيا وإيطاليا .

٧ ــ طراز الإمبراطورية

انعكست محاولة نابليون إعادة الدولة الرومانية انعكاساً تبدت فيه الأمانة البالغة فى فن العمارة والثياب والأثاث وفن التصوير فى تلك الفترة . وقد قاموا فى كل هذه الأمور بمحاولة ابتعاث الأشكال والروح المطابقات لواقع روما الإمبراطورية . وكأنما أفلتت ألبسة الرأس النسائية وثياب السيدات من المتاحف وخرجت تسعى فى الطرقات . وأخذت مجاميع الأعمدة وأقواس النصر تتبختر فى طريقها إلى أعظم مواقع المدن الكبرى كافة . وفازت باريس بقوس النصر وقلدتها لندن على الفور فكان لها قوس الرخام (Marble Arch) . واختفت من الوجود تطورات الباروك[١] والروكوكو[٢] فى مبانى النهضة لتفضيل واجهات أخرى عليها أقسى وأعبس مظهراً . وكان كانوفا الإيطالى هو المثال المظيم لذلك الزمان . وكان تافيد يطرب لأشكال الأبطال العراة . وخلد إنجرس (Ingress) أميرات نابليون على صورة ربات منازل رومانيات وربات رومانيات . وتماثيل لندن العامة تمثل ساسة تلك الفترة وملوكها الموقرين فى أشكال أعضاء السناتو أو الأباطرة . وعندما اختارت الولايات المتحدة تصميما لخاتمها الأعظم ، كان من الطبيعى أن تختار فيه النسر وأن تضع فى مخالبه أغلال المشترى[٣] .

---

(١) كلمة باروك مأخوذة عن الكلمة البرتغالية Barroco ومعناها الجوهرة غير المنتظمة الشكل وتدل فى الاصطلاح الفنى على طراز خاص شديد الزخرف شاع فى أوربا بين عامى ١٦٠٠ — ١٧٢٠ أو ١٧٦٠ والكلمة من أصل عربى هو لفظ « براق » .

(٢) روكوكو : مأخوذة عن الكلمة الفرنسية Rocaille ومعناها الحصاة على شكل الصدفة وهو اصطلاح فى الفنون الزخرفية يطلق على زخرف يتألف من الأصداف والأحجار وقد شاع منذ عام ١٨٣٠ عند ختام الطراز الباروكى .

(٣) المشترى : أكبر آلهة الرومان .

الفصل السابع والثلاثون

حقائق القرن التاسع عشر وأخيلته

---

١ — الانقلاب الآلى .
٢ — العلاقة بين الانقلابين الآلى والصناعى .
٣ — انهيار الفكرات فى ١٨٤٨ .
٤ — تطور فكرة الاشتراكية .
٥ — عيوب الاشتراكية بوصفها خطة للجماعة الإنسانية .
٦ — كيف أثر مذهب داروين فى الفكرات الدينية والسياسية .
٧ — فكرة القومية .
٨ — العرض الكبير فى ١٨٥١ .
٩ — سيرة حياة نابليون الثالث .
١٠ — لنكولن والحرب الأهلية فى أمريكا .
١١ — الحرب الروسية التركية ومعاهدة برلين .
١٢ — التدافع الثانى على الإمبراطوريات وراء البحار .
١٣ — السابقة الهندية فى آسيا .
١٤ — تاريخ اليابان .
١٥ — ختام فترة التوسع وراء البحار .
١٦ — الإمبراطورية البريطانية فى ١٩١٤ .
١٧ — التصوير والنحت والعمارة فى القرن التاسع عشر .
١٨ — الموسيقى فى القرن التاسع عشر .
١٩ — نهوض القصة إلى المرتبة العليا فى الأدب .

---

١ — الانقلاب الآلى

تبدو حياة نابليون الأول وشخصيته فى تواريخ القرن التاسع عشر ضخمة لا تتناسب وأهميته . فإنه كان قليل الأهمية بالنسبة للحركة الرحيبة السائرة نحو الأمام للشئون الإنسانية . ولم يزد على أن كان مقاطعاً لتلك الحركة ومذكراً بالشرور الكمينة ، كما كان أشبه شىء بياكتريا بعض الأوبئة . ولو نظرنا إليه حتى من زاوية الأوبئة واعتبرناه كذلك ، فإنه لم يكن منها فى المقام الأول ، فإنه قضى على عدد من الأنفس يقل عما قضى عليه وباء الأنفلونزا فى ١٩١٨ ، وأنتج من التمزيق السياسى والاجتماعى أقل مما أنتجه الطاعون فى عصر جوستنيان .

وكان لا بد من تمثيل قصته الصغيرة بين فصول المسرحية الكبرى ، وكان لا بد من حدوث أمثال تلك التسوية الأوربية المرقعة التى تتبدى فى الاتحاد الأوربى ، ذلك أنه لم يكن هناك نظام للفكرات مدروس مفصل يمكن أن ينشأ عليه عالم جديد . بل إن الاتحاد الأوربى

نفسه كان ينطوى على عامل من عوامل التقدم ، فإنه على الأقل اطرح جانباً روح الفردية فى الملكية المكيافلية وأعلن أنه توجد دولة إنسانية أو على الأقل دولة أوربية . فلئن قسم العالم بين الملوك ، فإنه قام بأداء تحية التجلة والإكبار نحو الوحدة الإنسانية وخدمة الله والإنسان .

والواجب الدائم الأثر الذى كان على الإنسانية أداؤه ، قبل أن يكون فى الامكان إقامة أى بناء سياسى واجتماعى جديد مستديم ، وهو الواجب الذى ما تزال الفطنة الإنسانية منشغلة به مع حدوث كثير من المقاطعة له والتشويش عليه وتبدّى الغضب عليه والعناء فيه — كان وما ينفك هو واجب إنتاج ، وتطبيق علم المِلكية بوصفه أسا تبنى عليه الحرية والعدالة الاجتماعية ، وعلم للعملة يضمن ويحفظ وسيطاً اقتصادياً كفئا وعلم حكومة وعمليات حشدية (جمّاعية) يستطيع به الناس فى كل مجتمع أن يتعلموا كيف يتعقبون مصلحتهم المشتركة تعقباً رائده التوافق والانسجام ، وعلم لسياسة العالم يمكن أن يُقضى به على ما فى الحروب بين الجنس والجنس ، والشعب والشعب ، والأمة والأمة ، من الإسراف الشديد والقساوات الفظيعة ، ويمكن به أن توضع مصالح البشرية المشتركة تحت رقابة مشتركة وأن يقام قبل كل شىء نظام للتعليم شامل للعالم قاطبة يدعم إرادة الناس ومصالحهم فى مغامراتهم الإنسانية المشتركة .

فأما صناع التاريخ الحقيقيون فى القرن التاسع عشر ، وهم القوم الذين سوف تحدّد عواقب أعمالهم الحياة الإنسانية مقدما لمدة قرن من الزمان ، فقد كانوا هم أولئك الذين يدفعون إلى الأمام بهذا الجهد الإنشائى الخماسى الأركان ويضيفون إليه ثمار أعمالهم . فلو قيس إليهم وزراء الخارجية ورجال الدولة والسياسيون فى تلك الفترة لما زادوا عن فئة من التلاميذ الشّغبين الذين يصلون أحياناً إلى حد الإتلاف والإحراق — أو بضع نفر من سراق المعادن — الذين يعبثون هنا وهناك ويحدثون شراً موقوتاً بين المواد المجمعة على أرض بناء عظيم لم يفهموا كنهه.

وعلى حين كان ذهن المدنية الغربية فى القرن التاسع عشر بأكمله ، وهو الذهن الذى أطلقته النهضة من عقاله ، يُجمّع نفسه لأداء واجب التعمير (: إعادة الإنشاء) الاجتماعى والسياسى الخلاق الذى ما يزال عليه عبء القيام به — فقد مرت فى العالم موجة تغيير عام فى القوة الإنسانية وفى أحوال الحياة المادية جعلتها الجهود العلمية الأولى لهذا العقل المحرر أمراً ممكناً .

وابتدأت نبوءات روجر باكون تعيش فى عالم الحقيقة . فإن العرفان والثقة المتجمعة لدى الأجيال القليلة المتعاقبة من الناس الذين كانوا يواصلون العمل فى تطور العلم والنهوض به ، قد

أخذت عند ذاك تؤتى ثماراً كان فى مستطاع العامة من الناس أن يفهموها . وكانت الآلة البخارية هى أشد تلك الثمار الأولى وضوحاً . كانت أولى الآلات البخارية المستعملة فى القرن الثامن عشر مضخات تستعمل فى صرف المياه خارج مناجم الفحم الجديدة . وكانت مناجم الفحم هذه تُشغَّل لاستخراج الكوك بغية استعماله فى صهر الحديد الذى كان الفحم النباتى المتخذ من الخشب يستعمل له آنفا . وإلى جيمس وات وهو صانع آلات رياضية فى جلاسجو ، يرجع الفضل فى تحسين المضخة البخارية تلك ، وجعْل استعمالها لدفع الماكينات أمراً ممكناً . وقد وضعت أول آلة استعملت لهذا الغرض ، فى مصنع لنسج القطن بنوتنجهام فى ١٧٨٥ .

وفى ١٨٠٤ كيَّف تريفيثيك آلة وات لأعمال النقل ، وأنشأ أول قاطرة . وفى ١٨٢٥ فُتح للسفر أول خط حديدى بين ستوكتون ودارلنجتون . وما تزال الآلة الأصلية وهى « القاطرة رقم ١ ، ١٨٢٥ » تزين رصيف محطة دارلنجتون . وما وافى منتصف القرن حتى كانت شبكة من الطرق الحديدية قد عمت كل أرجاء أوربا .

هنا حدث انقلاب فجائى فيما ظل زماناً طويلا حالة ثابتة فى الحياة الإنسانية ، وأعنى به موضوع أقصى سرعة للنقل البرى . وقد سافر نابليون بعد كارثة الروسية من قرب فيلنا إلى باريس فى ٣١٢ ساعة . وكانت تلك رحلة تقارب الألف والأربعمئة من الأميال . كان يسافر مستمتعاً بكل ما تتصوره العقول من الميزات ، وكان معدل مسيره يقل عن خمسة أميال فى الساعة . ولم يكن الراكب العادى ليستطيع أن يقطع هذه المسافة فى ضعف هذا الوقت . وكانت هذه تقارب نفس سرعات السفر القصوى التى كانت فى الإمكان بين روما وبين بلاد الغال فى القرن الأول الميلادى ، أو بين سارديس وسوسا فى القرن الرابع ق . م .

ثم جاء على الفجاءة تغيير هائل . فإن السكك الحديدية خفضت هذه الرحلة لأى راكب عادى إلى ما يقل عن ثمانية وأربعين ساعة . أى أنها خفضت المسافات الأوربية الرئيسية إلى ما يدانى عشر ما كانت عليه . وجعلت فى الإمكان القيام بالعمل الإدارى فى مناطق تكبر بعشرة أضعاف ما كان فى الأمكان إدارته حتى ذلك الحين بواسطة إدارة واحدة . وما برح المغزى الكامل لهذا الاحتمال فى أوربا ينتظر الأيام التى تحققه . فإن أوربا ما برحت تقسمها شبكة حدود رسمت فى عصر الحصان والسكة الزراعية . وكانت آثار ذلك فى أمريكا سريعة مباشرة . وكان معنى ذلك لدى الولايات المتحدة الأمريكية الزاحفة غربا ، هو إمكان وجود اتصال مستمر بواشنجتون ، مهما تكن المسافة التى تنقلها الحدود عبر القارة . وكان معنى ذلك هو الوحدة التى تصان على معيار كان لولاها من أضرب المستحيل .

وكان الزورق البخارى أسبق قليلا من الآلة البخارية فى مراحلها الأولى . وكان هناك زورق بخاري هو « شارلوت دنداس » ، فى قناة « الفورث والكلايد بانجلترا » فى ١٨٠٢ ، وفى ١٨٠٧ كان لأمريكى يدعى فالتون باخرة معدنية ، هى الكليرمونت بها آلات مصنوعة ببريطانيا ، وكانت تسير فى نهر الهدسون أعلى نيويورك وكانت أول سفينة بخارية وضعت فى البحر أمريكية كذلك هى « الفينيكس » التى كانت تسير من نيويورك « هوبوكن » إلى فيلادلفيا . وكذلك كان شأن أول سفينة تستعمل البخار (وكان لها أيضا قلوع) عبرت الأطلسى وهى الساقانا ١٨١٩) . وكانت كل هذه زوارق ذات عجلة رفاصة وليست زوارق العجلة الرفاصة مما كُيف للعمل فى البحار الثقيلة . فإن الرفاصات تنكسر بسهولة وعند ذلك يصبح الزورق عاجزاً أشلّ .

وعقب ذلك السفينة البخارية ذات الداسر اللولبي[١] وكان لابد من التغلب على كثير من الصعاب قبل أن أصبح الداسر شيئاً عملياً يمكن الانتفاع به . ولم تشرع حمولة السفن البخارية فى أن تعلو على حمولة السفن الشراعية إلا بعد أن بلغ القرن منتصفه . وبعد ذلك أمسى التطور فى النقل البحرى سريعاً . وأخذ الناس لأول مرة يعبرون البحار والمحيطات وهم على شىء من التحقق من موعد وصولهم . وزادت السرعة فى عبور الأطلسى الذى كان قبل ذلك مغامرة غير محققة تمتد أسابيع كثيرة قد تترامى إلى الشهور ، حتى خفض فى ١٩١٠ فى حالة أسرع البواخر ، إلى أقل من خمسة أيام ، مع وجود ساعة وصول يكاد يخطر عنها بالدقة . وحدث كذلك على كل المحيطات نفس النقص فى الوقت ونفس الزيادة فى التحقق من المواصلات الإنسانية .

وساير تطور البخار على سطح الأرض وفى عباب الماء ، ظهور أمر آخر جديد رائع أضيف إلى تسهيلات التواصل الانسانى ، نشأ عن أبحاث « ڤولتا » و « جالڤانى » و « فاراداى » فى الظواهر الكهربية المتنوعة . وظهر التلغراف الكهربى إلى عالم الوجود فى « ١٨٣٥ » . ووضع أول سلك (كابل) تلغرافى تحت أطباق البحر فى « ١٨٥١ » بين انجلترا وفرنسا . ولم تمض بضع سنوات حتى كان نظام التلغراف قد عمّ العالم المتمدن بأكمله ، وأصبحت الأخبار التى كانت حتى ذلك اليوم ترحل متباطئة من موضع إلى موضع تنتشر فى كل أرجاء المعمورة فى وقت واحد تقريباً .

وقد كانت هذه الأشياء وأعنى بها السكك الحديدية البخارية والتلغراف الكهربى أشدّ

---

(١) الداسر اللولبي (Screw) أو الدافع اللولبي : ويستعمل فى دفع السفن أو الطائرات .

المستحدثات روعة وثورة لدى أذهان عامة الناس فى منتصف القرن التاسع عشر ، على أنهما لم يكونا إلا أبرز وأبهج تباشير عملية أشد منهما اتساعاً وعظماً . وكانت البراعة والمعرفة الصناعية تتطور فى سرعة غير مألوفة ، وإلى حد غير مألوف إذا قيس تقدم ذلك العصر بتقدم أى عصر سابق عليه .

وكان انبساط قوة الإنسان على المواد الإنشائية المتنوعة فى البداءة أقل ظهوراً بكثير فى حياته اليومية ، ولكنه أصبح آخر الأمر على درجة عظيمة من الأهمية . وقبل أن ينتصف القرن الثامن عشر كان الحديد يستخلص من خامه بوساطة فحم الخشب ، وكان يتناول قطعاً صغيرة ثم يطرق ويصاغ فى الشكل المطلوب . كان مادة تقدم ليشتغل بها الصانع صاحب الحرفة . وكانت الجودة والمعالجة تعتمد اعتماداً هائلا على خبرة وفطنة صانع الحديد الفرد . وكانت أكبر كتل الحديد التى يستطاع معالجتها فى مثل تلك الظروف تصل فى أعظم شأنها فى « القرن السادس عشر » إلى طنين أو ثلاثة . (فكان هناك إذن حد أعلى محدود جداً لحجم الدفع) . ونشأ الفرن اللافح (Blast-furnace) فى القرن الثامن عشر وتطور مع استعمال الكوك . ولسنا نجد قبل القرن الثامن عشر صفائح الحديد المسحوبة (بين الأساطين) (١٧٢٨) ، ولا الأسياخ والقضبان المسحوبة (بين الأساطين) (١٧٨٣) . وجاءت مطرقة « نازميث » البخارية فى زمن متأخر هو « ١٨٣٩ » .

ولم يستطع العالم القديم بسبب تأخره فى المعدنيات أن يستعمل البخار . فأما الآلة البخارية حتى المضخة البدائية ، فلم تستطع أن تتطور قبل أن تتيسر صفائح الحديد . وتبدو الآلات الأولى لعين الرائى العصرى قطعاً من الحديد الخردة مجمعة مستوجبة لأشد الرثاء ، ولكنها كانت أقصى ما يستطيع علم المعدنيات أن يخرجه فى ذلك الزمان . وجاءت طريقة « بسمر » فى زمن يقارب فى تأخره (١٨٥٦) ، ثم تلتها على الفور (١٨٦٤) ، عملية الوقد المفتوح التى كان فى المستطاع إذابة الصلب وكل أنواع الحديد فيه ، وتنقيتها وصبها بحالة وعلى مقياس لم يسمع الناس بهما حتى آن ذاك . ولقد يستطيع الإنسان اليوم أن يرى فى الفرن الكهربائى أطناناً من الصلب الوهاج المبيض بالحرارة وهو يهدر هدير اللبن المغلى .

وليس فى مراحل التقدم الإنسانى العملية السابقة ما يعدل فى عواقبه ما بلغه الإنسان اليوم من تلك السيادة التامة على كتل هائلة من الصلب والحديد وعلى تكوينها ودرجة جودتها . وكانت السكك الحديدية الأولى والآلات المبكرة بجميع أصنافها مجرد انتصارات

أولى لطرائق المعدنيات الجديدة . وسرعان ما وفدت سفن الحديد والصلب والكبارى الضخمة ، وطريقة جديدة للبناء بالفولاذ على معيار هائل . وأدرك الناس بعد فوات الزمن الطويل أنهم كانوا يصممون سككهم الحديدية على مقياس سعة (مسافة بين القضبان) يتجلى فيه الخوف المفرط ، وأنه كان فى مستطاعهم أن ينظموا أسفارهم على أساس القدر الأوفى من الثبات والراحة باستعمال معيار سعةٍ أعظم كثيراً من الموجود .

ولم تكن هناك فى العالم قبل القرن التاسع عشر أية سفن تتجاوز حمولتها ألفين من الأطنان . وليس هناك اليوم أى عجب فى وجود ماخرة (١) ذات خمسين ألف طن . ومن الناس من يهزءون بهذا التقدم بوصفه تقدماً فى مجرد الحجم فقط ، ولكن هذه الزراية لا تتعدى حد تسجيل ما عليه أولئك الذين يروقهم ذلك ، من جهل وضيق ذهنى .

فليست السفينة العظيمة ذات الهيكل المبنى من الصلب كما يتوهمون صورة مضخمة من سفينة الماضى أو بناء الماضى ، وإنما هى شىء مختلف فى نوعه ، فإنها تبنى بناء أخف وأقوى ، من مواد أجود وأمتن . وبدل أن تكون شيئاً يعتمد على السوابق والحساب التقريبى ، إذا بها شىء يرجع إلى حسابات دقيقة معقدة . ففى المنزل أو السفينة القديمة ،كانت المادة هى المتسلطة — فكان الحال يقتضى أن تطاع المادة وما يلزمها طاعة العبيد ، فأما الجديد منهما فقد قُبض فيه على ناصية المادة وغُيرت معالمها وضبطت أحوالها . تصور ذلك الفحم والحديد والرمل المستخرجة من المحاجر والمناجم ، وهى تؤخذ وتشغل ، وتصهر وتصب لكى تقام آخر الأمر مثبراً (٢) . رفيعاً راقاً من الصلب والزجاج ، يعلو على المدينة المزدحمة بست مئة قدم !

أدلينا إليك بهذه التفاصيل فى تقدم معرفة الإنسان بمعدنيات الفولاذ ونتائجها على سبيل المثال والتوضيح . وفى إمكاننا أن نروى لك قصة مماثلة لهذه عن معدنيات النحاس والقصدير وعن عدد غفير من المعادن لا نذكر لك منها إلا اثنين هما النيكل والألومنيوم ، ولم يكونا معروفين قبل انبثاق فجر القرن التاسع عشر .

وإنما يعود إلى هذه السيادة العظيمة النامية على المواد ، أعنى على الأنواع المختلفة من الزجاج وعلى الصخور وأنواع (البياض) الملاط وما إليها ، وعلى الألوان والتكوين ، الفضل فى إحراز الإنسان أهم انتصاراته فى الثورة الميكانية حتى هذا الأوان . ومع هذا فإنا

---

(١) الماخرة ، المواخر (Liners) : هى بواخر الركاب الضخام التى تكون خط مواصلات منتظم .
(٢) المثبر (Pinnacle) : هى أبراج رفيعة عالية تعلو المبانى .

ما نزال فى مرحلة اجتناء أول بواكير ذلك الأمر. لدينا القوة، ولكن ما يزال علينا أن نتعلم كيف نستعمل قوتنا. فإن كثيراً من أضرب استخدام هبات العلم تلك كانت سوقية أو سمجة الذوق مبهرجة أو حمقاء أوشنيعة فظيعة. ولم يكد الفنان ولا المكيِّف الفنى[1] أن يشرعا حتى الآن فى العمل فى الأضرب اللانهائية للمواد التى هى الآن بين أيديهما.

ونما علم الكهرباء الجديد نمواً مماثلا لهذا التوسع فى الاحتمالات الميكانية. ولم يحدث إلا فى العقد الثامن من القرن التاسع عشر أن شرع هذا المنحى من مناحى البحث أن يؤتى ثمار الذهن السوقى. ثم جاء بغتة النور الكهربائى والجر الكهربائى؛ وشرع الناس العاديون يدركون تحويل (Transmutation) القوى، أعنى احتمال إرسال القوة التى يمكن تحويلها إلى حركة ميكانية أو ضوء أو حرارة حسبما يختار الإنسان، على امتداد سلك من النحاس، كما ترسل المياه داخل الأنابيب.

وكان البريطانيون والفرنسيون فى مبدأ الأمر هما الشعبان القائدان للعالم فى مضمار هذا الإخصاب العرفانى العظيم. ولكن ماعتم الألمان الذين تعلموا الذلة فى حكم نابليون أن أظهروا للوقت من الحماسة والدأب فى البحث العلمى ما جعلهم يدركون هؤلاء القادة. وكان العلم البريطانى فى معظم أمره من خلق رجال من الإنجليز والإسكتلنديين[1] يشتغلون خارج مراكز الحذلقة العادية.

وقد أخبرناك من قبل كيف أن الجامعات فى انجلترا كفت بعد الاصلاح الدينى على أن يكون عليها إقبال شعبى فسيح، وكيف أنهما أصبحت وقفاً تعليمياً على النبلاء والأعيان كما صارت الحصن المنيع للكنيسة الرسمية. وتغلبت على أهلها روح ادعاء كلاسيكية فيها التفاخر بالفخامة وفيها الغباء، ثم إنهم كانوا يتسلطون على مدارس الطبقتين الوسطى والعليا. وكان العرفان الوحيد المعترف به إلماماً بنصوص لمختارات من الأدب الكلاسيكى اللاتينى والإغريقى، لاينطوى على نقد، وكانت أمارة حسن الأسلوب هى وفرة ما فيه من اقتباسات وإشارات وعبارات متحجرة جامدة.

ومن ثم اتصل التطور المبكر للعلم البريطانى، بالرغم من تنظيمة التعليم الشكلية، ورغم أنف المداوة المريرة التى أبداها أصحاب مهنتى التعليم والكهنوت. كذلك تسلطت على التعليم الفرنسى تقاليد اليسوعيين الكلاسيكية، وترتب على ذلك أنه لم يعسر على الألمان أن ينظموا هيئة

---

(١) المكيف الفنى (Adapter) : المنفذ لخطة المهندس.

(٢) ولكن لاحظ بويل والسير و. م. هملتون بوصفهما من رجال العلم البرزين الإرلنديين. (المؤلف).

من البحاثة ، وإن صغيرة بالعلاقة إلى احتمالات الموضوع ، ولكنها كبيرة بالنسبة إلى الفئة القليلة من المخترعين والتجريبيين البريطانيين والفرنسيين . ومع أن هـذا العمل عمل البحث والتجريب كان آخذاً بأسباب جعل بريطانيا وفرنسا أغنى بلاد العالم وأقواها ، فإنه لم يكن بجاعل رجال العلم والابتداع أغنياء ولا أقوياء . وهنـاك ضرب ضرورى من الروح غير الدنيوية يحيط برجل العلم المخلص لعلمه . فإنه أكثر انشغالا بمباحثه من أن يدبر ويخطط كيف يستطيع أن يجر من ورائها المغانم .

وبناء على ذلك تقع عملية الاستغلال الاقتصادى لمكتشفاته بشكل سهل جداً وطبيعى جداً فى أيدى طراز من الناس أكثر ميلا إلى الاقتناء والاحتياز . ولذا نجد أن المحصول الدائم التجدد من الأغنياء الذين كان ينتجهم فى بريطانيا العظمى كل دور جديد من أدوار التقدم العلمى والتكنيكى ، كانوا — وإن لم يظهروا بالضبط نفس الرغبة الحامية فى إهانة وقتل الأوزة التى كانت تبيض البيضات الذهبية القومية ، كما فعل الدرسانيون ورجال الأكليروس — راضين تمـام الرضا بأن يتركوا ذلك المخلوق المفيد يموت جوعاً . كانوا يرون أن المخترعين والمكتشفين يجيئون بحكم الطبيعة لكى ينتفع من ورائهم من هم أشد منهم ذكاء ومهارة .

وكان الألمان أكثر منهم حكمة بقليل فى هذا الأمر . فإن العلماء الألمان لم يظهروا نفس الكراهية العنيفة نحو العلم الجديد . بل سمحوا له بالتطور . كذلك لم يكن يخالج الألمانى صاحب الأعمال والمصنع نحو مواطنه العالم نفس ما كان يخالج منافسه البريطانى من احتقار للعلماء . كان هؤلاء الألمان يعتقدون أن العرفان ربمـا أصبح محصولا مزدرعا يستجيب للمخصبات . لذلك سلموا للذهن العلمى بقدر معين من الفرصة ينتهزه ، فكانت مصروفاتهم العامة على أعمال البحث أكبر نسبياً ، وجوزى هذا الإنفاق جزاء وفيراً .

وما بلغ القرن التاسع عشر نصفه الثانى حتى كان العـالم الألمانى قد جعل اللغة الألمانية لغة ضرورية لكل طالب علوم يرغب فى أن يكون على الدوام فى الطليعة مماشيا آخر إنتاج فى فرع علمه ، واكتسبت ألمـانيا فى الكيمياء بوجه خاص تفوقاً عظيما جداً على جيرانها الغربيين . وأخذ الجهد العلمى فى ألمانيا فى العقدين السابع والثامن يحدث آثاره فى العقد التاسع من القرن ، وأخذ الألمـان يسبقون بريطانيا وفرنسا سبقاً متواصلا فى النجاح التطبيقى الفنى (التكنيكى) والصناعى . ومن المستحيل فى معالم للتاريخ مثل هذه أن نتعقب شبكة العمليات العقلية المركبة التى أدت إلى التوسع الذى لا ينقطع فى العرفان والقوة الذى يجرى الآن فى العالم . وكل ما نستطيع أن نفعله ها هنا أن نسترعى التفات القارئ إلى أبرز نقاط التحول

التى اقتادت آخر الأمر زلاّقة الشئون الإنسانية إلى ما هى عليه من حال التقدم السريع .

وقد حدثناك عن أول فكاك للتطلع الإنسانى ، وعن بدايات البحث والتجريد المنظم . كذلك حدثناك كيف حدث عند ما جاء النظام الرومانى البلوتوقراطى (١) . وما ترتب عليه من روح استعمارية ثم ذهب من العالم ثانية — أن تجددت عملية البحث هذه . وحدثناك عن إفلات البحث من الاستخفاء والاستفادة الشخصية إلى فكرة النشر وإلى الأخوّة فى العرفان ، ولاحظنا تأسيس الجمعية الملكية البريطانية ، والجمعية الفلورنسية ، وأشباههما بوصفهما نتيجة لهذا التنظيم للفكر على أسس الاشتراكية . كانت هذه الأمور هى جذور الانقلاب الميكانى ، وما دام جذر البحث العلمى الصرف حياً فلن يقف تقدم ذلك الانقلاب عند حد .

وربما جاز لنا أن نقول إن الثورة الميكانية ذاتها ابتدأت باستهلاك الخشب فى مصانع الحديد فى انجلترا . وأفضى ذلك إلى استعمال الفحم ، وأدى منجم الفحم إلى المضخة البسيطة ، وأدى التحول بالمضخة على يد وات إلى آلة تدفع الماكينات ، إلى القاطرة والسفينة البخارية . وكان ذلك هو الدور الأول من أدوار توسع عظيم فى استعمال البخار . وابتدأ دور ثانٍ للثورة الميكانية بتطبيق العلم الكهربى على المسائل العملية وعلى تطوير الإضاءة الكهربية ونقل القوة والجر .

وثمة دور ثالث لابد من تمييزه ، جاء عند ما ظهر فى العقد التاسع طراز جديد من طرز الآلات ، وهى آلة حلت فيها قوة التمدد فى خليط متفجر محل قوة التمدد فى البخار . وطبقت الآلات الخفيفة العالية الكفاية التى أصبحت بذلك فى حيز الإمكان على السيارة (الأوتومبيل) ، وتطورت آخر الأمر حتى بلغت درجة عالية من الخفة والكفاية تجعل الطيران — وكان معروفاً منذ زمن مديد بأنه ممكن — شيئاً عملياً .

وكان جهد إخوان (رايت) فى أمريكا ذا أهمية أولية فى هذا الميدان . ثم إن آلة (ماكينة) للطيران — وإن لم تبلغ من السعة حد حمل جسم إنسانى — قد صنعها الأستاذ لانجلى ، التابع لمعهد سميثسن بنيويورك فى زمن يرجع فى قدمه إلى ١٨٩٧ . فأما مجهوده الثانى وهو طائرة كاملة الحجم ، فقد فشل فى تجربته الأولى ، ولكن كورتيس وفق بعد إدخال تغييرات عظيمة جداً عليها ، إلى الطيران بها بنجاح بعد ذلك ببضع سنين . حتى إذا وافت ١٩٠٩ أصبح فى إمكان الطائرة أن تعمل فى النقل الإنسانى .

---

(١) البلوتوقراطى : القائم على حكم الأثرياء .

وكانت لاحت هناك بوادر توقف فى زيادة السرعة الإنسانية مع إحكام السكك الحديدية والانتقال بالأوتومبيل فى الطرق ؛ ولكن جاءت مع آلة الطيران تخفيضات جديدة فى المسافة الحقيقة بين نقطة على سطح الأرض ونقطة أخرى . وقد كانت المسافة بين لندن وإدنبره فى القرن الثامن عشر تستغرق ثمانية أيام . وفى ١٩١٨ قدمت لجنة النقل الجوى البريطانية تقريراً تقول فيه إن الرحلة من لندن إلى ملبورن وهى نصف الدورة الكاملة حول الأرض ، يرجح أن تتم فى بضع سنين فى نفس مدة الأيام الثمانية .

وينبغى ألا نبالغ فى التشديد على هذه التخفيضات الرائعة فى المسافات الزمنية بين مكان وآخر . فما هى إلا مجرد مظهر واحد من مظاهر تكبير الاحتمالات الإنسانية أعظم عمقا وأشد ضخامة . وأصاب علم الزراعة والكيمياء الزراعية مثلا أطوارا من التقدم مماثلة لهذه تماما إبان القرن التاسع عشر . وبلغ من تعلم الناس تخصيب الأرض أن أنتجوا أربعة أضعاف وخمسة أضعاف المحاصيل التى كانوا يحصلون عليها من المساحة نفسها فى القرن السابع عشر . وكان هناك تقدم أشد خرقا للمعتاد فى العلوم الطبية . فارتفع معدل متوسط الحياة وزادت الكفاية اليومية وتناقص ضياع الحياة بددا بسبب سوء الصحة .

وترى لدينا الآن ذلك التبدل التام فى الحياة الإنسانية الذى يتكون منه طور جديد فى التاريخ . فقد أوجد الإنسان هذه الثورة الميكانية فيما يربو على القرن بقليل . وقام الإنسان إبان ذلك الزمن بخطوة فى أحوال حياته المادية أسرع مما أنتجه فى جميع الفترة الطويلة المحصورة بين المرحلة الباليوليثية (العصر الحجرى القديم) وعصر الزراعة ، أو بين أيام بيبى فى مصر وأيام جورج الثالث . وظهر إلى عالم الوجود هيكل جديد هائل للشئون الإنسانية . ومن الواضح أنه يتطلب إعادة تنسيق طرائقنا الاجتماعية والاقتصادية من جديد . بيد أن هذا التنسيق الجديد المطلوب قد ترتب بالضرورة على تطور الثورة الميكانية ، وهو ما يزال اليوم فى مراحله الافتتاحية لما يتجاوزها .

٢ — العلاقة بين الانقلابين الآلى والصناعى

تشاهد فى كثير من كتب التاريخ نزعة إلى التخليط بين ما سميناه هنا باسم الانقلاب الآلى ، الذى كان شيئا جديدا تمام الجدة فى الخبرة الإنسانية ناشئا عن تطور العلم المنظم ، وهى خطوة جديدة تشبه اختراع الزراعة أو اكتشاف المعادن ، — وبين شىء آخر مختلف تمام

الاختلاف فى مصادره ، شىء كان له من قبل سابقة تاريخية ، هو التطور الاجتماعى والمالى الذى يسمى الثورة الصناعية .

كانت العمليتان تسيران جنباً إلى جنب ، وكانتا تتفاعلان بعضهما مع بعض تفاعلا مستمرا ، ولـكنهما كانتا مختلفتين أساساً وروحا . وكان لابد أن يحدث انقلاب صناعى من نوع ما ، ولو لم يوجد الفحم ، ولو لم يوجد البخار ولا المـاكينات ، ولعله فى هذه الحالة كان يصبح أشد دقة فى التزام خطى التطورات المالية والاجتماعية فى السنوات المتأخرة للجمهورية الرومانية . وكان لا بد معيـدا قصة المزارعين الأحرار الشردين عن أملاكهم ، وقصة مناسر العمال والمزارع الـكبيرة ، والثروات المالية الـكبرى ، وإحـدى العمليات المالية المقوّضة للمجتمع .

ولقد جاءت طريقة المصنع ذاتها قبل ظهور القوة والماكينات . فـكانت المصانع ثمرة لا للآلات ، بل « لتقسيم العمل » . فإن العمال المدربين المـكدودين ، كانوا يصنعون أشياء من أمثال قبعات السـيدات وصناديق الورق المقوى ، والأثاث ويقومون بتلوين الخرائط ، وصور الـكتب ، وما إليها قبل أن تستعمل العجلات المائية نفسها فى العمليات الصناعية . وكانت هناك مصانع فى روما فى أيام أوغسطس . فإن الـكتب الجديدة مثلا كانت تملى على صفوف من النساخ فى مصانع الوراقين ، وسوف يدرك كل لبيب من دارسى ديفو ونشرات فيلدنج السياسية أن فـكرة جمع الفقراء كالقطيع فى أماكن ليشتغلوا أحشاداً فى كسب رزقهم ، كانت أمراً سبقت معرفته فى بريطانيا قبل نهاية القرن السابع عشر . وهناك من الإشارات ما يدل على هذا حتى فى زمان يرجع فى قدمه إلى أيام اليوتوبيا[1] التى ألفها مور (١٥١٦) . كان الانقلاب تطوراً اجتماعيا وليس ميكانيا .

وكان تاريخ أوربا الغربية الاجتماعى والسياسى إلى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر ، يترسم فى الحقيقة نفس الطريق الذى سارت فيه الدولة الرومانية فى القرون الثلاثة السابقة على ميلاد المسيح . وكانت أمريكا من نواح كثيرة أسبانيا جديدة . وكانت الهند والصين مصراً جديدة . على أن الانقسامات السياسية فى أوربا ، والفورات السياسية ضد الملـكية ، وعناد العامة ورعا أضيف كذلك قابلية الذكاء الأوربى الغربى العظيمة لتلقى الفكرات والمستحدثات الميكانية ، قد قلبت العملية إلى وجهات جديدة تمام الجدة . وقد انتشرت فـكرات الترابط

---

(١) اليوتوبيا : جزيرة خيالية تصورها السـير توماس مور حاوية لأكمل النظم السياسية والدينية والقانونية والاقتصادية .

الإنسانى بفضل المسيحية بوجه خاص ، انتشاراً أعم وأعظم فى هذا العالم الأوربى الأحدث جدَّة ، ولم تكن القوة السياسية مركزة إلى هذا الحد . ومن ثم سارع النشيط من الرجال لرغبته فى الثراء ، فوجه كلَّ همه عن طيب خاطر منصرفاً عن فكرة الرقيق ومناسر العمال إلى فكرة القوة الميكانية والماكينة .

وكانت الثورة الآلية (: الميكانية) أى عملية الاختراع والاكتشاف الآلى ، شيئا جديدا فى الخبرة الإنسانية ، وقد سارت فى سبيلها غير عابئة بالعواقب الاجتماعيـة والسياسية والاقتصادية والصناعية التى عسى أن تترتب عليها . فأما الثورة الصناعية من الناحية الأخرى ، شأن معظم الشئون الإنسانية الأخرى ، فقد ألم بهـا وما يزال يلم بها العميق المتكاثر من التغير والانحراف بسبب التغير المستمر فى الأحوال الإنسانية الناشىء عن الثورة الميكانية . وينحصر الفارق الضرورى بين اختزان القناطير المقنطرة من الأموال ، وإبادة صغار المزارعين وصغار رجال الأعمال ، طور المالية الكبيرة فى القرون المتأخرة للجمهورية الرومانية من ناحية ، وبين الحالة الشديدة المماثلة لتلك والتى قوامها تركز رءوس الأموال فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر من الناحية الأخرى ، — ينحصر فى الفارق العميق فى خصائص العمل التى كانت الثورة الميكانية تحدثها .

كانت القوة فى العالم القديم هى قوة الإنسان ؛ فكان كل شيء يعتمد اعتماداً مطلقاً على قوة الدفع فى العضل الإنسانى ، عضل الجهلة والمقهورين من الرجال . وكان قليل من العضل الحيوانى قوامه ثيران الجر ، وجر الخيول ، وما إليها يضاف إلى عمل الانسان . فأنى كان هناك حِمْل لا بد من رفعه كان الرجال هم الذين يرفعونه ؛ وأنى وجب أن يقطع حجر ، كان الرجال يقدُّونه ؛ وأنى لزم حرث حقل من الحقول ، كان الرجال والثيران يحرثونه ؛ وكان المعادل الرومانى للسفينة البخارية هو الغليون (الجالى) أى السفينة القديمة بما فيها من صفوف المجدفين المكدودين .

وكانت نسبة ضخمة من أفراد الإنسانية فى المدنيات الأولى تستعمل فى العمل الشاق الآلى البحت . والماكينات المدفوعة بالقوة لم يبد فيها عند البداية ما يبشر بأى أمل فى فكاك من ربقة مثل هذا العناء الذى لا ذكاء فيه . فكانت جماعات عظيمة من العمال تستخدم فى حفر القنوات ، وفى عمل قطوع السكك الحديدية وجسور الأنهار وما إليها . وتزايد عدد عمال المناجم تزايداً هائلا . ولكن اتساع التسهيلات وإنتاج السلع تزايد أكثر من ذلك جداً . ومع مضى الزمن بالقرن التاسع عشر ، أخذ المنطق البسيط الواضح للموقف الجديد

يثبت وجوده ويقيم حقه بشكل أشد وضوحاً . ولم تعد الكائنات الإنسانية تطلب بعد ذلك بوصفها مصدراً لمجرد قوة لا يميز بين مفرداتها أحد . فكان ما يمكن صناعته آلياً بواسطة الكائن الإنسانى ممكناً صناعته أسرع وأجود بواسطة الآلة . فأصبحت الحاجة إلى الكائن الإنسانى الآن حيث يتطلب الاختيار والذكاء فحسب . فكأن الكائنات الإنسانية أخذت تطلب فقط بوصفها كائنات إنسانية لا غير . فأما ذلك العسيف[1] المشتغل بالأعمال الشاقة الذى قامت على أكتافه كل المدنيات السالفات ، ذلك الكائن المخلوق لمجرد الطاعة ، ذلك الإنسان الذى كان عقله هناة لا لزوم لها — فقد أصبح غير ضرورى لرفاهة الإنسانية .

وصدق هذا على تلك الصناعات العتيقة أمثال الزراعة واستخراج المعادن صدقه على أحدث العمليات المعدنية . فأما الحرث والبذر والحصاد فقد ظهرت لها آلات سريعة تعمل عمل عشرات الرجال . وفى هذا الميدان تزعمت أمريكا العالم القديم . وكانت المدنية الرومانية تقوم على كائنات إنسانية رخيصة منحطة عن مكانتها ، والمدنية العصرية يعاد بناؤها على قوة ميكانية رخيصة . وجاءت مئة من السنين اطرد فيها رخص القوة وغلاء العامل . فلئن اضطرت الماكينات أمد جيل أو بعض جيل أن تنتظر دورها فى المنجم ، فإن ذلك كان لمجرد أن الرجال لبثوا ردحاً من الزمان أرخص من الماكينات . فكانوا يقدرون فى نورثمبرلند و دِرهام فى أيام استخراج الفحم الأولى تقديراً يبلغ من الرخص والحطة أنه لم تجر العادة بإقامة التحقيق حول أجساد القتلى فى كوارث المناجم . وكانت الحاجة إلى نقابات العمال ماسة لتغيير حالة الأمور هذه .

ولكن هذا الاتجاه العام نحو إكمال العمل اليدوى والقضاء عليه بواسطة الآلات ، كان انقلاباً ذا أهمية من الدرجة الأولى تماماً فى الشئون الانسانية . وكان أهم ما يشغل بال الغنى والحاكم فى المدينة القديمة أن يحتفظ بعدد متواصل من العسفاء المشتغلين بالأعمال الشاقة . إذ لم يكن هناك أى مصدر آخر للثراء . وبتطاول العهد بالقرن التاسع عشر أخذت تزداد وضوحاً لدى القوم الأذكياء الموجهين للآخرين ، الفكرة القائلة بأن الرجل العادى لا بد له الآن من أن يكون شيئاً أحسن من فاعل عسيف يكدح . فكان لابد من تعليمه للحصول على « الكفاية الصناعية على الأقل » . وكان لا بد له من أن يفهم ما عليه حال الدنيا .

وقد كان التعليم الشعبى منذ أيام الدعاية المسيحية الأولى ، ناراً تتقد تحت الرماد فى أوربا ،

(١) العسيف (Drudge) : فاعل تساء معاملته ويرهق بالباهظ الحقير من الأعمال .

كما كانت متقدة تحت الرماد فى آسيا حينما وضع الإسلام قدمه ، بسبب ضرورة جعل المؤمن على شىء من الفهم للعقيدة التى تنقذ روحه ، وتمكينه من قراءة قليل من الكتب المقدسة التى تحول بها اعتقاده . وقد أدت الخصومات المسيحية وما يصحبها من تنافس على الأنصار ، إلى حرث التربة وتمهيدها لبذر بذور التعليم الشعبى العام .

ففى انجلترا مثلا حدث عند ما ضرب القرن التاسع عشر فى عقديه الرابع والخامس ، أن أنتجت منازعات الطوائف وضرورة الاستحواذ على الأنصار صغاراً ، وفرة فى المدارس الليلية ، ومدارس الأحد وسلسلة من التنظيمات التعليمية للأطفال ، والمدارس البريطانية غير المنتمية إلى هيئة دينية ، والمدارس القومية التابعة للكنيسة ، وحتى المدارس الأولية الكاثوليكية .

وكان أصحاب المصانع الأقدمون عهداً والأقل استنارة وعلماً يكرهون هذه المدارس ويعارضونها لعدم استطاعتهم أن يلقوا نظرة رحيبة على مصالحهم الخاصة . ولكن ألمانيا الفقيرة تزعمت فى هذا المجال أيضاً جيرانها الأكثر منها ثروة . وسرعان ما وجد المعلم الدينى فى بريطانيا طالبى المكاسب إلى جواره ، وهم فى شغف لم يتوقعه أحد ، إن لم يكن إلى تعليم عامة الناس ، فإلى تدريبهم إلى مستوى أعلى فى الكفاية الاقتصادية .

وكان النصف الثانى من القرن التاسع عشر فترة تقدم سريع فى التعليم الشعبى العام فى كل أرجاء العالم المصطبغ بالصباغ الغربى . ولم يصحب هذا تقدم مماثل فى تعليم الطبقات العليا — ولا ريب أن قد حصل شىء من التقدم ولكنه ليس شيئاً يعادل ذاك ويقابله — وبذا لم يعد ذلك الجون العظيم الذى كان حتى حين يقسم العالم إلى الطبقة القارئة والمجموعة غير القارئة ، يزيد كثيراً عن فارق ضئيل جداً فى المستوى التعليمى . وكان من خلف هذه العملية الثورة الميكانية ، وهى تسير غير عابئة فى الظاهر بالظروف الاجتماعية ، ولكنها مصرة فى الحقيقة إصراراً عنيداً على إلغاء الطبقة التامة الأمية فى كل أرجاء العالم إلغاء كاملا .

ولم يفهم عامة سكان روما أبداً الثورة الاقتصادية فى الجمهورية الرومانية فهما واضحاً . فإن المادن الرومانى العادى لم ير قط التغيرات التى كان يعيش فيها رؤية واضحة مفهومة كما نراها نحن الآن . على أن الثورة الصناعية وهى تسير نحو نهاية القرن التاسع عشر ، كان يراها العامة الذين كانت تؤثر فيهم رؤية جلية مميزة أكثر فأكثر ، لأنهم كانوا قد أخذوا للوقت يعرفون القراءة والمناقشة والتواصل ، ولأنهم كانوا يضربون فى الأرض ويرون الأشياء على شاكلة لم تصل إليها فئة من العامة قبلا .

ولقد حرصنا فى معالم التاريخ هذه أن نومئ لك إلى الظهور التدريجى للعامة بوصفهم طبقة لها إرادة مشتركة وفكرات مشتركة . ومن رأى الكاتب أن الحركات الضخام لعامة الناس فوق مساحات جسيمة ، لم تصبح فى الإمكان إلا نتيجة لديانتى الدعاة ، أعنى بهما المسيحية والإسلام وإصرارهما على الاحترام الذاتى للفرد .

وقد سقنا قصة حماسة العامة للحرب الصليبية مميزاً لدور جديد من أدوار التاريخ الاجتماعى . ولكن هذه الحركات الضخام بذاتها قبل القرن التاسع عشر ، كانت محدودة نسبياً . وكانت فتن دعاة المساواة من الفلاحين ، ابتداء من زمان ويكليف فما عقبه ، مقصورة على مجتمعات للفلاحين فى مواضع محلية محدودة ، ولم تنتشر إلا على بطء إلى نواح تؤثر فيها مؤثرات مشابهة . حقاً أن صناع[1] المدينة قد شغب ، ولكن كان ذلك محلياً لا غير .

ولم يكن إحراق القصور فى الثورة الفرنسية من عمل فلاحين قد قلبوا حكومتهم ، بل من عمل فلاحين أطلقهم من قيودهم قلب حكومتهم . وكان مجلس بلدية (: كوميون) باريس أول ظهور فعال لصناع المدينة بوصفه قوة سياسية ، وكان الجمهور الباريسى فى الثورة الأولى جمهوراً شديد التخلط بدائى التفكير متوحشاً ، بالموازنة إلى أى جمهور أوربى بعد ١٨٣٠ .

على أن الثورة الميكانية لم تقتصر على إدخال التعليم قسراً على السكان كافة ، بل كانت مؤدية إلى رأسمالية كبيرة وإلى إعادة تنظيم كبير المدى للصناعة قدر له أن ينتج فى العامة نظاما من الفكرات جديداً مميزاً بدلا من مجرد العناد القلق والثورات الأولية التى تحدث من دهماء أميين .

ولقد سبق أن لاحظنا كيف شقت الثورة الصناعية الطبقة الصانعة ، التى كانت حتى حين ضربا من طبقة متوسطة منوعة ، — إلى نوعين من الطبقات ، هى المستخدمين (أصحاب الأعمال) الذين بلغوا من الثراء ما مكنهم من الاختلاط بالطبقات المالية والمتجرة وصاحبة الأراضى ؛ والمستخدَمين (العمال) الذين كانوا ينتقلون إلى حالة تقرب رويداً رويداً من حالة مجرد عمال المناسر والزراعة . وبينما كان المستخدَم الصانع يهبط ، كانت ترتفع قيمة العامل الزراعى بسبب إدخال الآلات الزراعية والزيادة فى قوة إنتاجه الفردى .

وعند منتصف القرن التاسع عشر ، كان كارل ماركس (١٨١٨ — ١٨٨٣) وهو يهودى ألمانى بلغ بسطة عظيمة من العلم ، قد أخذ يشير إلى أن تنظيم الطبقات العاملة على يد

---

(١) الصناع (Artisan) : هو الصانع الحاذق فى صنعته .

جماعة ملاك رأس المال المتزايدى التركز تزايداً متواصلا مستمراً ، كان يطور تصنيفاً اجتماعياً جديداً يحل محل أنظمة طبقات الماضى الأكثر تعقيدا . ذلك أن الأملاك بالقدر الذى هى به قوة ، كانت تجمّع بعضها إلى بعض فى أيدٍ قليلة نسبياً ، هى أيدى كبار الأغنياء ، أى طبقة الرأسماليين ؛ على حين كان ينتج هناك اختلاط عظيم فى العمال الذين لديهم القليل أو ليس لديهم شيء من الأملاك ، الذين كان يسميهم باسم «أصحاب الأملاك سابقاً» أو «البروليتاريات»[١] — وهو استعمال خاطىء لهذه الكلمة — وهم الذين لا مناص لهم بسبب تنازع مصالحهم ومصالح الأغنياء من أن يطوروا وعيا مشتركا بين أفراد طبقتهم .

وقد جاء على الناس ردح من الزمان بدا لهم فيه أن الفوارق فى التعليم والتقاليد بين العناصر الاجتماعية المتنوعة الأقدم عهداً ، والتى كانت تعرقل عملية الصهر والخلط بعضها ببعض لتصبح الطبقة الجديدة طبقة (أصحاب الأملاك سابقاً) ، — قد أخذت تناقض هذا التعميم الجارف . فكانت تقاليد أصحاب الحرف وصغار أصحاب العمل والمزارعين الفلاحين ومن إليهم تختلف جميعاً بعضها عن بعض وعن التقاليد الحرفية المتنوعة للعمال . ولكن هذا التعميم الماركسى يصبح الآن مقبولا أكثر فأكثر مع انتشار التعليم وترخيص ثمن الكتب .

هذه الطبقات التى لم يكن يربطها فى أول الأمر رابط غير فقر مشترك أصابهم جميعاً على السواء ، كانت ولا تزال تنخفض عن نفس مستوى الحياة أو ترتفع إليه وتجبر على قراءة نفس الكتب والاشتراك فى نفس المضايقات . ومن ثم فإن شعوراً من التماسك بين كل أنواع الرجال الفقراء الذين لا أملاك لهم ، ضد الطبقة التى تكدس الأرباح وتركز الثروة ، قد يأخذ يزداد وضوحاً أكثر فأكثر فى عالمنا هذا . فإن الفوارق القديمة تذوى ، فيذهب الفارق بين رب الحرفة والعامل فى العراء وبين الموظف صاحب السترة (الجاكتة) السوداء والعامل صاحب معطف العمل الواق ، وبين القسيس الفقير ومعلم المدرسة الأولية وبين رجل البوليس وسائق الأومنيبوس . فلا بد لهم جميعاً من مشترى نفس الأثاث الرخيص ولا بد لهم من سكنى البيوت الرخيصة المتشابهة . ولا بد أن يختلط أبناؤهم وبناتهم جميعاً ويتزوجوا بعضهم من بعض . ويصبح النجاح فى المستويات العليا أمراً ينقطع دونه أكثر فأكثر أمل عامة الناس . وتبرر الحوادث كل يوم أكثر فأكثر آراء ماركس الذى لم يدافع عن حرب الطبقات — أعنى حرب كتلة (أصحاب الأملاك سابقاً) ضد الأقلية التى لا تنى عن امتلاك

---

(١) البروليتاريات (Proletariat) : هى الطبقات الدنيا أو عامة الشعب أو العمال .

الأملاك ، — قدر ما تنبأ بها . وقد يدفع بعضهم أحياناً فى جدله ضد ماركس بأن نسبة الناس الذين لهم مدخرات مستثمرة قد تزايدت فى كثير من المجتمعات العصرية . فهذه المدخرات هى من الناحية الفنية (التكنيكية) ، « رأسمال » وأصحابها إنما هم « رأسماليون » على ذلك المنوال ، ويظن أولئك أن هذا يناقض بيانات ماركس القائلة بأن الملكية تتمركز فى أيد تنتقل فى عددها من القليل إلى الأقل . وكان ماركس يستعمل كثيراً من مصطلحاته بلا عناية ويسيء اختيارها ، وكانت فكراته خيراً من ألفاظه . فقد كان عندما يكتب (الأملاك) يعنى الأملاك إلى الحد الذى هى به قوة . والمستثمر الصغير قوة صغيرة صغراً ملحوظاً على رأسماله المستثمر .

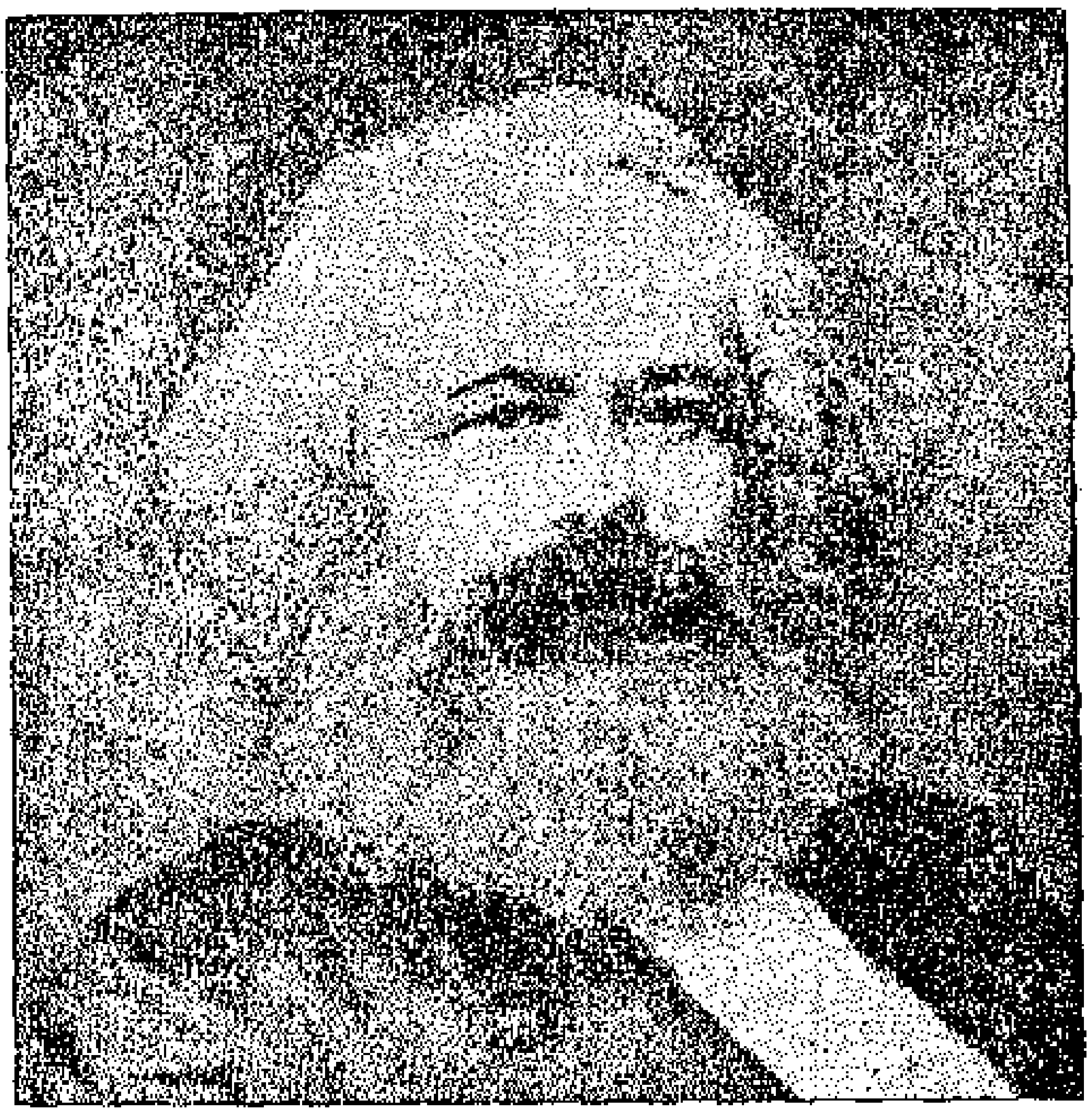

(شكل ١٩٢) كارل ماركس

٣ — اختمار الفكرات فى ١٨٤٨

من العسير علينا جداً أن نتعقب أية معالم إجمالية لاختمار الأفكار ، الذى كان يحدث أثناء الانقلابين الآلى والصناعى فى القرن التاسع عشر . على أنه لزام علينا أن نحاول ذلك إن نحن شئنا أن نربط بين ما سبق حدوثه فى هذا التاريخ وبين حال عالمنا اليوم .

ومن المناسب أن نميز بين فترتين رئيستين فى المئة سنة بين ١٨١٤ ، ١٩١٤ . فقد جاءت أولا الفترة من ١٨١٤ — ١٨٤٨ ، وفيها حدث قدر جسيم جداً من التفكير الأسمحى والكتابة الأسمحية فى دوائر محدودة ، ولكن لم تحدث فيها أية تغييرات عظيمة أو تطورات كبيرة فى الفكر بين كتلة الشعب العامة . وكانت شئون العالم طيلة تلك الفترة تعيش — إن جاز لنا مثل هذه العبارة — على رأسمالها الذهنى القديم ، وكانت تجرى وفاق الفكرات الرئيسية للثورة والثورة المضادة (الرجعية) . وكانت الفكرات الأسمحية السائدة هى الحرية وضرب مبهم

بعينه من فكرة المساواة . وكانت فكرات المحافظين هى الملكية ، والديانة المنظمة ، والامتيازات الاجتماعية والطاعة .

وكانت روح المحالفة المقدسة حتى ١٨٤٨ ، وهى روح مترنيخ تكافح لمنع أى انتعاش للثورة الأوربية التى خانها نابليون وأرجعها أدراجها . ومن الناحية الأخرى كانت الثورة فى أمريكا بجزأيها الشمالى والجنوبى ، قد انتصرت وكانت أسمحية القرن التاسع عشر تسودها لا ينازعها هناك منازع . وكانت بريطانيا قطراً قلقاً ، لا هى تميل بولائها تمام الميل إلى الرجعية ولا تميل به تمام الميل إلى حركة التقدم ، ولا هى صادقة فى روحها الملكية ولا صادقة فى روحها الجمهورية ، فكانت أرض كرومويل وكذلك كانت أرض الملك المرح شارل ، وكانت مضادة للنمسا ، ومضادة لآل بوربون ، ومضادة للبابا ، ومع ذلك فإنها ذات قوة كبح ضعيفة . ولقد أخبرناك عن أول سلسلة من عواصف الأسمحية فى أوربا فى ١٨٣٠ وحوالها . وصدر فى بريطانيا فى ١٨٣٢ مشروع قانون إصلاح يوسع حق الاقتراع توسيعاً عظيما ويعيد إلى مجلس العموم شيئاً كثيراً من خصيصته التمثيلية ، فخفف كثيراً من توتر الموقف .

وجاءت قرابة (١٨٤٨) وحوالها مجموعة ثانية من الانفجارات أشد من الأولى خطورة بكثير ، أفضت إلى خلع ملكية آل « أورليان » ، وتأسيس جمهورية ثانيـة فى فرنسا (١٨٤٨ — ٥٢) ، وأثارت شمال إيطاليا والمجر ضد النمسا ، وأهاجت البولنديين فى « بوزن » على الألمان ، وجعلت البابا يفر من وجه جمهوريى روما . وتسلف مؤتمر شائق جداً عُقد فى براج هو مؤتمر الكتلة السلافية كثيراً من تلك التسويات والتعديلات الإقليمية التى حدثت فى ١٩١٩ . وانفض المؤتمر بعد أن قمت الجنود النمسوية عصياناً شب فى براج . فأما العصيان المجرى فكان أشد قوة فواصل الكفاح سنتين . وكان زعيمه الأكبر هو لويس كوسوث . ولم يبرح بعد أن دُحر ونفى يواصل دعاية عظيمة فى سبيل حرية وطنه وقومه .

وقد أخفقت كل هذه الفتن فى النهاية إخفاقاً تاماً . وترنح النظام المعمول به ولكنه ظل واقفاً على قدميه . وكانت هناك ولا ريب تذمرات اجتماعية خطيرة من دون هذه الفتن ، ولكن لم تكن لهذه الثورات حتى آن ذاك ، اللهم إلا فى حالة باريس ، أية صورة واضحة ملموسة . وأحسن ما تُنعت به عاصفة ١٨٤٨ هذه — بالقدر الذى يهم بقية أوربا — أن تنعت فى كلمة باسم ثورة الخريطة السياسية الطبيعية ضد التنظيمات الاصطناعية لديبلوماسى فيينا ، وضد نظام القمع الذى ترتب على تلك التنظيمات .

ومن ثم يكون تاريخ أوربا من (١٨١٥ — ١٨٤٨) على وجه العموم ، لاحقا لتاريخ

أوربا من (١٧٨٩ — ١٨١٤) . ولم تكن هناك أية فكرات أساسية جديدة حقاً فى تكوينه . وما برح رأس المتاعب هو الكفاح ، وإن يكن فى الكثير من الأحايين كفاحاً أعمى سيء التوجيه، — بين مصالح الرجال العاديين وبين نظام الدولة العظمى التى قيدت وأرهقت بالضغط حياة البشرية .

ولكن حدث بعد (١٨٤٨) ، أى من (١٨٤٨ إلى ١٩١٤) أنه وإن تواصلت عملية إعادة تسوية الخريطة إعادة تتجه إلى إيجاد إيطاليا حرة موحدة ، وألمانيا موحدة ، — حدث أن بدأ دور جديد فى عملية التكيف الذهنى والسياسى وفق ما بلغته البشرية من العرفان الجديد والقوى المادية الجديدة . وجاء طوفان عظيم للفكرات الجديدة الاجتماعية والدينية والسياسية ، تغلغل بها فى العقل الأوربى العام . ولسوف نتأمل فى الأقسام الثلاثة التالية مصادر هذه الهجمات ونوعها . ذلك بأنها وضعت لنا الأسس التى نبنى عليها اليوم فكرنا السياسى ، غير أنها ظلت زمناً طويلا وليس لها كبير أثر على السياسة المعاصرة . فاستمرت السياسة المعاصرة تجرى على السنن القديمة ، وإن داخل الوهن المتواصل دعامتها فى الاعتقادات الذهنية وفى ضمائر الناس .

ولقد وصفنا لك آنفا الطريقة التى قوضت بها إحدى العمليات الذهنية القوية نظام الملكية العظمى بفرنسا قبل (١٧٨٩) . وثمة عملية تقويض مماثلة كانت تجرى فى أرجاء أوربا إبان فترة الدول الكبيرة من (١٨٤٨ — ١٩١٤) . إذ انتشرت فى كل أرجاء الهيئة الاجتماعية شكوك عميقة حول نظام الحكومة وحول مدى الحريات التى لكثير من أشكال الملكية فى النظام الاقتصادى . ثم جاءت أعظم حروب التاريخ وأشدها تدميراً ، حتى أنه ما يزال مستحيلا على الناس أن يقدروا قوة ومجال الفكرات الجديدة التى تجمعت فى هذه السنوات الست والستين . فلقد مررنا فى ملمة نازلة أعظم كثيراً ، حتى من الكارثة النابليونية ، وما نحن إلا فى فترة راكدة بين المد والجزر تقابل فترة (١٨١٥ — ٣٠) وتمت إليها بسبب . وما يزال أمامنا أن تأتينا سنتا ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ الخاصتين بنا وبالقرن العشرين فتكشفان لنا أين نحن وقوف .

٤ — تطور فكرة الاشتراكية

قفونا فى كل أرجاء هذا الكتاب التضييق التدريجى الذى حاق بفكرة الملكية منذ الادعاء الأول غير المحدود للرجل القوى على ملكية كل شيء ، ومنذ إدراك الناس تدريجيا

لفكرة الأخوة بوصفها شيئاً يسمو على البحث الشخصى عن الذات . وقد أخضع الناس فى بادىء الأمر فانضووا تحت شىء يمظم الجماعات القبيلية بوازع من الخوف من الملك والله . ولم يحدث إلا فى خلال ثلاثة الآلاف أوعلى الأكثر أربعة الآلاف الأخيرة من السنين أن أصبح لدينا أى برهان واضح يدل على أن نكران الذات الاختيارى فى سبيل غاية أعظم ، وبغير أجر يرجى أو ثواب ينتظر ، كانت فكرة مقبولة لدى الناس ، أو أن أى إنسان قد قام بطرحها على الناس .

ثم إننا نجد شيئاً ينتشر على سطح الشئون الإنسانية ، كما تنتشر رقاع من ضياء الشمس ثم تمر فوق جوانب التلال فى يوم رائع من أيام الربيع ، هو الفكرة القائلة بأن هناك فى تكريس النفس سعادة أعظم من أى إرضاء ذاتى أو انتصار شخصى ، وحياة للبشرية مختلفة وأعظم قدرا وأكثر أهمية من صافى مجموع حياة الأفراد الذين يوجدون فى نطاقها . ورأينا هذه الفكرة تصبح وهاجة كالنبراس ، ناصعة نصاعة ضياء الشمس حين تلتقطه إحدى النوافذ وتعكسه على منظر برى يبهر الأبصار ، رأيناها فى تعاليم « بوذا » ، « ولاوتسى » وبوجه أشد ما يكون وضوحا فى تعاليم « يسوع » الناصرى .

ولم تفقد المسيحية قط تمام الفقدان أثناء كل ما ألم بها من التغيير والمفاسد ، التلويح بالإخلاص لملكوت الرب الذى يجعل البذخ للملوك والحكام يلوح لعين الرائى وقاحة خادم مفرط أناقة الثياب ، والذى يجعل ما عليه الأثرياء من أبهة وإشباع للشهوات أشبه شىء بتبذير اللصوص . وما من رجل يعيش فى مجتمع مسته أنامل ديانة مثل المسيحية أوالإسلام ، يستطيع أن يكون عبداً تام العبودية . فإن فى هاتين الديانتين صفة لا يمكن أن تمحى تجبر الرجال على إصدار الأحكام على سادتهم وعلى تحقيق مسئوليتهم الخاصة نحو العالم .

وبينما كان الناس يتلمسون طريقهم نحو حالتهم الذهنية الجديدة منتقلين إليها من حالة الشره العنيف وروح القتال الغريزية الشرسة المركزة حول النفس فى جماعة العائلة الباليوليثية الأولى ، فإنهم جهدوا أن يعبروا عن انتقال أفكارهم وضروريانهم تعبيراً متخالفا جـداً . ووجدوا أنفسهم على اختلاف وفى نزاع مع الفكرات القديمة المقررة ، وكانت بهم نزعة طبيعية لمناقضة هذه الفكرات مناقضة صريحة ، وإلى الوثوب من فوقها إلى عكسها المطلق .

وقدر للحركة الأولى المتململة ضجراً وتسرعا وقد واجهها عالم كان فيه الحكم والطبقات والنظام تلوح كأنما لا تتجاوز فى عملها إلا أن تتيح للأنانية الشخصية النهزات والظلم الفاجر ، أن تعلن المطالبة بالمساواة العامة وبالفوضى العملية . وإذ واجهها عالم تبدو فيه الملكية أنهـا

لاتزيد إلا قليلا عن وقاية للأنانية ووسيلة إلى الاستعباد، فقد كان من الطبيعى أيضا أن تجحد كل ملكية .

ويبين لنا تاريخنا دافعا متزايداً من الرغبة فى الثورة على الحكام وعلى الملكية . وقد تعقبنا ذلك الدافع فى القرون الوسطى ، وهو يحرق قصور الأغنياء ويجرب التجاريب فى الثيوقراطية[1] والشيوعية وكان هذا الثوران المزدوج واضحاً جليا فى الثورات الفرنسية . فإنا نجد فى فرنسا رجالا يصرحون وأعينهم مسلطة على ضرائب الحكام ، بأن الأملاك يجب ألا تنتهك حرمتها ، وآخرين ممن يصرحون وأبصارهم شاخصة إلى مساومات صاحب العمل القاسية أنه يجب أن تلغى الملكية ، — وهم يعيشون جنبا إلى جنب ويلهمهم جميعاً نفس الروح الواحدة ، كما أنهم أعضاء طبيعيون فى الحركة الثورية نفسها ، ولكن ما كانا فى كلا الحالين ثائرين عليه إنما هو أن الحاكمين والمستخدم صاحب العمل ، لايزالون شأن معظم البشرية أفراداً يبحثون عن خير أنفسهم ويظلمون الناس بدل أن يكونوا خداماً للمجتمع .

وإنا لنجد هذا الاعتقاد ينمو فى أذهان الناس على مر العصور ؛ وهو أن فى الإمكان أن يكون هناك ذلك التنظيم الجديد للقوانين والقوى الذى يقدم للناس الحكم والنظام بينما هو لايبرح يصد أنانية أى حاكم وأية طبقة حاكمة قد تكون ضرورية ، وأن يوجد ذلك التعريف للملكية الذى يمنح الحرية من غير قوة ظالمة . وإنا لنبدأ أن ندرك فى أيامنا هذه أنه ليس فى المستطاع بلوغ هذه الغايات إلا بمجهود إنشائى مركب ، فإنها تنشأ بسبب منازعات الحاجات الإنسانية الجديدة ضد الجهالة والطبيعة الإنسانية القديمة ، بيد أنه كان هناك طوال القرن التاسع العشر ميل مستمر ثابت إلى حل المسألة ببعض الحلول البسيطة . (لتكن سعيدا فى قابل أيامك ، غير عابئ بحقيقة أن كل الحياة الإنسانية ، بل والحياة ليست بأسرها على مر العصور جميعاً إلا الحل المتواصل لمشكلة معقدة مستمرة) .

وقد شهد النصف الأول من القرن التاسع عشر عدداً من التجارب فى تكوين جماعات إنسانية تجريبية ذات نوع جديد . ومن أهم تلك التجارب من الناحية التاريخية ، تجاريب وفكرات روبرت أوين (١٧٧١ — ١٨٥٨) ، وهو غزال قطن من مانشستر . وهو يعد بوجه عام المؤسس للاشتراكية العصرية . ونشوء كلمة الاشتراكية لأول مرة إنما كان بالعلاقة إلى عمله حوالى ١٨٣٥ . ويلوح أنه كان رجلا من رجال الأعمال على غاية من الكفاية . فإنه

(١) الثيوقراطية (Theocracy) : حكومة قسوس تدعى أن الله مصدر سلطتها .

استحدث عدداً من المستحدثات فى صناعة غزل القطن ، وجمع ثروة لا بأس بها فى سن مبكرة . وقد أحزنه ضياع الاحتمالات الإنسانية بين عماله بددا ، فنصب نفسه لتحسين حالهم وتحسين العلاقات بين صاحب العمل المستخدِم والعامل المستخدَم . فجهد أن ينفذ ذلك أولا فى مصنعه بمانشستر ثم فى نيولانارك بعد ذلك ، حيث ألفى نفسه متصرفا بالفعل فى مصانع تستخدم ألفين من الأفراد .

(شكل ١٩٣) روبرت أوين

وأحرز بين ١٨٠٠ ، ١٨٢٨ أموراً جسيمة جداً : فإنه أنقص ساعات العمل ، وجعل مصنعه صحياً مقبولا ، وألغى استخدام الأطفال الصغيرى السن جداً ، وحسن تدريب عماله ، وزود العمال بأجور البطالة أثناء فترة انحطت فيها أحوال التجارة ، وأسس مجموعة من المدارس ، وجعل من نيولانارك مثالا يحتذى لحركة عمالية صناعية أحسن وأطيب ، على حين كانت فى نفس الوقت تحافظ على رخائها التجارى . كتب كتابات قوية مدافعاً عما كانت تتهم به أغلبية البشرية من الإفراط فى المسكرات وعدم التبصر فى العواقب ، التى كان أهل العصر يتخذون منها مبرراً يبررون به مظالم الزمان . وكان يرى أن الرجال والنساء هم فى أكبر شأنهم ثمرة لبيئتهم التعليمية ، وهى مسألة لا تحتاج فكرتها اليوم إلى من يحامى عنها . ثم نصب نفسه للقيام بدعاوة للنظريات التى أثبتتها نيولانارك .

وهاجم ما عليه إخوانه أصحاب المصانع من تكاسل أنانى ، وفى ١٨١٩ صدر أول قانون للمصانع بناء على إلحاحه فى غالب الشأن ، وهو أول محاولة لصد أصحاب المصانع من اجتناء الفوائد بأشد مظاهر الغباء الذى لا يطاق وجر المغانم من وراء فقر عمالهم . وإن من بين قيود ذلك القانون ما يُدخل اليوم إلى أذهاننا أعظم الذهول . إذ يكاد يكون مما لا يصدق به عقل أن تقوم يوماً ما ضرورة تدعو إلى حماية الأحداث الذين فى التاسعة من العمل فى المصانع ، أو تحديد ساعات العمل الاسمية لمثل أولئك العمال باثنتى عشرة ساعة

وربما أخطأ بعض الناس فجنح إلى الكتابة عن الثورة الصناعية كأنما كانت هي السبيل إلى استرقاق الأطفال المساكين وتشغيلهم فوق طاقتهم . وأنهم كانوا حتى ذلك الحين سعداء أحرارا . على أن هذا أمر يفسر التاريخ تفسيرا خاطئا . إذ أن الأطفال الفقراء الصغار ظلوا منذ بدايات المدنية ذاتها يجبرون دائما على القيام بأي عمل يستطيعون أداءه . ولكن نظام المصنع جمع عناء الأطفال هذا كله في صعيد واحد وجعله شيئا نظاميا بارزا يجر من ورائه العار والشنار . وتحدى نظام المصنع في هذه النقطة ضمير الإنسانية الناهض الآخذ بأسباب الانتعاش . وكان قانون المصانع البريطاني في ١٨١٩ ، وإن بدا لأعيننا ضعيفا هزيلا ، هو « المهد الأعظم » Magna Charta للطفولة . ومن بعدها ابتدأت عملية حماية أطفال الفقراء ، من الكد في أول الأمر ثم من الجوع الجثماني الشديد ومن الجهل .

ولسنا بمستطيعين أن نفصل لك في هذا المقام القصة الكاملة لحياة أوين وأفكاره . فإنه كان يحس أن عمله في نيولانارك لا يتجاوز مجرد محاولة على أساس نموذج صغير للعمل . كان يذهب إلى أن ما يستطاع عمله لمجتمع صناعي ، يمكن أن ينسحب على كل مجتمع صناعي آخر في البلاد . وكان يدافع مطالبا بإعادة إقامة السكان الصناعيين في مدن على غرار ما حدث في نيولانارك .

وقد لاح ردحا من الزمان أنه استولى على خيال العالم . فناصرت صحيفتا التيمس والمورننج بوست مقترحاته . وكان من بين زوار نيولانارك الغراندوق نقولا ، الذي خلف الإسكندر الأول على عرش الروسيا ؛ وكان دوق كنت ابن جورج الثالث ووالد الملكة فكتوريا صديقا حميما له . ولكن كل أعداء التغيير وكل من يوسوس له الشيطان حسد الفقراء — وقلما خلا زمان من عدد وفير من هؤلاء — وكل أصحاب المصانع الذين كانوا عرضة للمضايقة بسبب مقترحاته كانوا يتلمسون ذريعة يهاجمونه بها ، وقد وجدوها في تعبيره عن آرائه الدينية ، التي كانت معادية للمسيحية الرسمية ، وهذا المأخذ نجح به أعداؤه في رفع الثقة عنه . ولكنه واصل عمله في تطوير مشروعاته وتجاريبه ، التي كان أهمها مجتمعا في نيوهارموني بولاية إنديانا بالولايات المتحدة ، أضاع فيه معظم رأسماله . فاشترى منه شركاؤه نصيبه في مصنع نيولانارك وأخرجوه في ١٨٢٨ .

وقد انتشرت تجارب أوين ومقترحاته انتشارا فسيحا جدا ، وليست تقع تحت مبدأ بمفرده . ولم يكن يحيط به شيء من جو الرجل النظري غير العملي . وكانت تجربته في نيولانارك أول تجربة في عدد عديد من الأعمال الخيرية في العالم . وإنما تجيء مدينة اللورد

ليفر هولم بورت سانلايت ، ومدينة كادبورى المسماة بورنفيل ومصانع فورد فى أمريكا أمثلة عصرية واقترابا نحو الشيوعية . وكانت مقترحاته المتعلقة بالتسويات التى تقوم بها الدولة هى ما قد نسميه اليوم باسم اشتراكية الدولة . وتشير تجربته الأمريكية وكتاباته الأخيرة إلى شكل للاشتراكية أكثر كمالا فيه مزيد من التقدم عن حالة الأمور الراهنة .

وواضح أن لغز العملة قد شغل بال أوين . فإنه أدرك أننا لا نستطيع أن نأمل فى العدالة الاقتصادية الحقة ، بينما نحن ندفع مقابل العمل نقوداً ذات قيمة متأرجحة ، إلا بمقدار ما نرجو وجود عالم منتظم المواعيد مع حدوث تغيير متواصل غير ثابت فى طول الساعات الزمنى . وكانت إحدى تجاربه محاولته نشر وترويج أوراق للعمال تمثل ساعة واحدة أو خمس ساعات أو عشرين ساعة من ساعات العمل . وقد نشأت الجميات التعاونية لهذا الزمان — وهى جميات رجال فقراء تتحد للشراء والتوزيع الجمعى للضروريات أو للصناعة الحشدية أو صنع الألبان أو أشكال أخرى من أشكال الزراعة ذات اللون الجمعى ، — نشأت مباشرة عن ابتداعاته ، وإن انتهت الجميات التعاونية الرائدة فى زمانه إلى الفشل . وقد انتشر خلفاؤها فى كل أرجاء العالم ، ويبلغ عدد أنصارها اليوم ثلاثين أو أربعين مليوناً .

وهناك نقطة جديرة بالملاحظة فى شأن اشتراكية أوين المبكرة هذه هى أنها لم تكن فى البداية ديموقراطية إصالة . بل مزجت بها الفكرة الديموقراطية فيما بعد . بل كانت دوافعها الأولى خيرية ، وكانت صورتها المبكرة قائمة على نظام الأبوة . كانت شيئاً يرتفع إليه العمال بالتعليم على يد ذوى الأسمحية من أصحاب المصانع والزعماء . فلم تكن الاشتراكية الأولى حركة عمال . بل حركة سادة . وقد كانت المباحث المذهبية فى الاشتراكية فى كل تاريخها بأجمعه من عمل رجال ليسوا من العمال فى شىء . ويصف بير (Beer) كارل ماركس بأنه أرستقراطى ، وكان آنجلز من التجار ، وكان لينين عضوا منفياً من عائلة من أصحاب الأراضى .

وكانت تساير عمل « أوين » هذا سلسلة أخرى من التطورات مستقلة تمام الاستقلال ، كانت تحدث فى أمريكا وبريطانيا ، وقدر لها آخر الأمر أن تتصل بفكراته الاشتراكية . فقد كان القانون الإنجليزى حظر من أمد بعيد اندماج الجماعات بقصد حصر التجارة واحتكارها ، والاندماجات الهادفة لرفع الأسعار أو الأجور بوساطة العمل الجمعى . ولم تكن هناك أى صعوبات كبيرة فى هذه المحظورات قبل أن تطلق التغيرات الزراعية والصناعية فى القرن الثامن عشر فكاك أسراب عظيمة من العمال يشتغلون « من اليد إلى الفم » ويتنافسون على قدر من الأعمال غير كاف . وكان العمال يجدون أنفسهم تحت هذه الظروف الجديدة فى

حال من الضيق والضغط لا تطاق . وكان أرباب الأعمال يلعبون بأحدهم ضد الآخر . وكان كل منهم يقضى أيامه بل ساعاته فى قلق لا يدرى ما يكون من زميل له من الإذعان والتنازل ، وما قد يترتب أو لا يترتب على ذلك من التنقيص الجديد فى الأجور أو الزيادة فى العناء .

فأصبح من الضرورى ضرورة حيوية للعمال أن يقوموا باتفاقات وإن تكن غير قانونية — ضد مثل هذا التخفيض فى الأجور . وكان لا بد لهذه الاتفاقات فى مبدأ الأمر من أن تتم وتصان على يد جمعيات سرية ، أو نواد مؤسسة فى الظاهر لأغراض مختلفة تماماً ، أمثال النوادى الاجتماعية وجمعيات الجنائز وما إليها ، التى كانت تقوم بستر الاندماجات الواقية للأجور . وكانت حقيقة كون هذه الجمعيات غير قانونية تجعل أعضاءها ينزعون إلى العنف . كانوا كالوحوش ضد المتسللين(١) والفيران من إخوانهم الذين لا ينضمون إليهم ، وكانوا أكثر وحشية مع الخونة .

وفى (١٨٢٤) اعترف مجلس العموم بأن من المرغوب فيه تخفيف التوتر فى هذه الأمور بتسليمه بحق العمال فى تكوين اندماجات « للمساومة الحشدية » مع السادة . ومكن هذا اتحادات العمال (Trade unions) من التطور على مجال كبير من الحرية . وقد ارتقت نقابات العمال بالتدريج — وكانت فى مبدأ الأمر تنظيمات سمجة شديدة البدائية ذات حرية محدودة جداً ، حتى أصبحت (طبقة) حقيقية رابعة فى البلاد ، أى مجموعة عظيمة من الهيئات تمثل كتلة العمال الصناعيين .

نشأت تلك النقابات فى بريطانيا وأمريكا أولا ، ولكنها ما لبثت — مع تعديلات قومية منوعة ، وتحت أحوال قانونية مختلفة متغيرة — أن انتشرت إلى فرنسا وألمانيا وكل المجتمعات الغربية الصبغة .

وإذ نظمت فى الأصل للحفاظ على الأجور ودعمها ومنع عدد الساعات الذى لا يطاق ، فإن حركة اتحادات العمال كانت فى البداية شيئاً مميزاً تمام التميز عن الاشتراكية . فكان العضو فى نقابة العمال يحاول أن يستخلص لنفسه أحسن الغنم من الرأسمالية الموجودة ومن أحوال العمل الموجودة . على حين كان الاشتراكى يرمى إلى تغيير النظام .

وإلى خيال « كارل ماركس » وقوته التعميمية يرجع الفضل فى ربط هاتين الحركتين برباط العلاقة والاتصال . كان رجلا ، الاحساس بالتاريخ فيه قوى جداً ؟ وكان

---

(١) المتسللين والفيران : العمال الذين يقبلون العمل وإخوانهم فى إضراب رسمى أو يقبلون أجوراً أقل من إخوانهم .

من أوائل من أدرك أن الطبقات الاجتماعية القديمة التي استدامت منذ بداية المدنية ، كانت تعتريها عملية حلٍّ وعودةٍ إلى التجمع . وقد جعلت منه الروح التجارية المستقرة في عنصره اليهودي خير من يدرك العداء بين الملكية والعمل أوضح إدراك . وجعلته تنشئته في ألمانيا — وكان نزوع الطبقة « كما أشرنا آنفاً » إلى التجمد والتحول إلى طائفةمن الطوائف أشد وضوحاً في ألمانيا منه في أي قطر أوربي آخر — جعلته يتخيل العامل شخصاً يصبح من فوره ذا وعي طبقي[1] معادياً عداء حشدياً (جماعياً) للطبقات المركزة للملكية . وقد اعتقد يرى في حركة اتحادات العمال التي كانت تنتشر في العالم أجمع — أنه هذا التطور الخاص بالعامل صاحب الوعي الطبقي .

كان يتساءل قائلا : ماذا تكون نتيجة حرب الطبقات بين الرأسمالية والبروليتاريات ؟ فقد كان يدفع بأن مغامرات الرأسماليين المغامرين ، بسبب ما افتُطروا عليه من الشراهة وحب المقاتلة ، لابد أن تجمع التسلط على رأس المال في أيد تقل وتقل ، حتى ينتهي الأمر بهم إلى تركيز كل وسائل الإنتاج والترانسيت (Transit) وما إليها إلى شكل يستطيع العمال أن يقبضوا عليه ، أولئك العمال الذين يتطور بالمثل وعيهم الطبقي وتماسكهم بوساطة عملية تنظيم الصناعة وتركيزها .

وإنهم ليستولون على ذلك الرأسمال ويشغّلونه لحساب أنفسهم . ويكون ذلك هو الثورة الاجتماعية . وعند ذلك تُسترجع الملكية الفردية والحرية الفردية ، مؤسستين على الملكية المشتركة للأرض ، وقيام المجتمع على وجه الإجمال بإدارة الخدمات الإنتاجية الكبيرة التي سبق أن نظمها وركزها الرأسمالي الخاص . وتكون تلك هي نهاية نظام الرجل الرأسمالي ولكنها لا تكون نهاية النظام الرأسمالي . إذ عند ذلك تُحل رأسمالية الدولة محل رأسمالية المالك الخاص .

وفي هذا انحراف كبير عن اشتراكية « أوين » . وكان « أوين » — شأن أفلاطون — يشخص ببصره إلى حسن تمييز الرجال في أي طبقة أو في كل الطبقات ، راجيا فيه أن يقوم بإعادة تنظيم السياسي الاقتصادي الاجتماعي العارض الخاطئ . واكتشف « ماركس » شيئا آخر قوامه طبيعة القوة الدافعة في العداوة بين الطبقات يقوم على انتزاع الأملاك وعلى الظلم . على أنه لم يكن مجرد نظري متنبيء . بل كان كذلك من دُعاة ثورة العمال ، ثورة من يقال لهم البروليتاريات . وقد أدرك أن للعمال مصلحة مشتركة ضد الرأسمالي في كل مكان ، وإن أظهر

---

(١) الوعي الطبقي (Class Consciousness) : شعور الإنسان بطبقته في المجتمع وتعصبه لها ضد الطبقات الأخرى .

أثناء تجربة حروب الدول الكبرى لذلك الزمان ، وبوجه خاص حروب تحرير إيطاليا ، أنه قد فاته أن يفهم الحقيقة القائلة بأن العمال فى كل مكان لهم مصلحة مشتركة فى سلام العالم . ولكنه نجح فعلا — والثورة الاجتماعية نصب عينيه — فى الإيحاء بفكرة إنشاء عصبة دولية للعمال ، هى الدولية الأولى (The First International) .

وكان ما عقب ذلك من تاريخ الاشتراكية يترجح بين ظلال تقاليد « أوين » البريطانية وبين « الشعور الطبقى » الألمانى عند « ماركس » . وقد لقى ما يسمى باسم الاشتراكية الفابية[1] وهو تفسير الاشتراكية الذى قامت به الجمعية الفابية بلندن — قبولاً من الرجال المعقولين فى كل الطبقات ، ثم إن ما كان يسمى باسم « مذهب المراجعة » (Revisionism) فى الاشتراكية الألمانية ، كان يميل صوب نفس ذلك الاتجاه . غير أنه يمكن القول على الجملة أن « ماركس » هو الذى فاز على (أوين) ، فكانت النزعة العامة للاشتراكيين فى كل أرجاء العالم هى الاعتماد على تنظيم العمال ، والعمال دون أى شىء آخر ، ليكونوا مصدراً للقوى القاتلة التى سوف تقوم بإخلاء سبيل التنظيم السياسى والاقتصادى للشئون الإنسانية من أيدى الملاك والمغامرين الخصوصيين الذين هم على درجة ما من عدم المسئولية والذين كانوا يتصرفون فيها .

تلكم هى المظاهر الإجمالية للمشروع المسمى باسم الاشتراكية وسوف نناقش فى قسمنا التالى ما فيها من نقص وعدم كفاية . وربما كان أمراً لا مندوحة منه أن تضطرب الاشتراكية اضطرابا كبيراً وأن تنقسم وتتفرع ، إذ تتناولها يد الشكوك والمنازعات والشيع والمدارس . وما هذه إلا أعراض النمو شأن البقع على وجه شاب من الشبان . وما نحن بمستطيعين هنا إلا أن ننظر نظرة لامحة إلى الفارق بين اشتراكية الدولة ، التى تنزع إلى إدارة الجهد الاقتصادى فى البلاد بوساطة حكومتها السياسية ، وبين مدارسها الأخرى المتأخرة ، مدارس اشتراكية أرباب الأموال (أعنى المنتجين) (Syndicalism) ، واشتراكية النقابات (guilds) ، التى تكل نصيباً كبيراً من إدارة كل صناعة ، بالعمال المشتغلين فى تلك الصناعة أيا كانت درجتهم بما فى ذلك المديرين والمراقبين . فهذه الاشتراكية النقابية إنما هى فى الحقيقة نوع جديد من الرأسمالية ، تحل فيها لجنة من العمال والموظفين فى كل صناعة محل الرأسماليين الخصوصيين الأحرار فى تلك الصناعة . وتصبح هيئة الموظفين الصناعية هى الرأسمالى الحشدى .

---

(١) الفابيانية : مذهب اشتراكى ظهر فى القرن التاسع عشر يعتمد على وسائل التطور التى كان يأمل أن يبلغ بها الاشتراكية بوساطة مجموعة متعاقبة من الإصلاحات التدريجية .

٥ — عيوب الاشتراكية بوصفها خطة للجماعة الإنسانية .

قال السير « وليم هاركورت » منذ سنوات عدة : إننا جميعاً الآن اشتراكيون ، وهذا القول يصدق اليوم صدقاً مرسلا غير محكم . فقلما وجد امرؤ يفوته أن يدرك الطبيعة الموقوتة والتقلقل الخطر اللذين يتسم بهما نظامنا السياسي والاقتصادي الحاضر ؛ وأقل منهم كذلك وجوداً من يعتقدون اعتقاد الفرديين النظريين غير العمليين ، والقائلين أن اقتناص الربح أو سياسة « إذهب كيفما شئت واصنع ماشئت » سوف تقود البشرية إلى مرفأ من مرافىء الرغد والسعادة . بل ينبغي للأمور أن يعاد تنسيقها تنسيقاً عظيما ، وأن يتم لها إخضاع البحث الشخصي عن الذات إخضاعاً منهجيا قانونياً بحيث يوجه إلى المصلحة العامة .

ومعظم الرجال المعقولين إنما هم إلى هذا الحد اشتراكيون ، على أن هذه ما هي إلا مقترحات بدائية . فإلى أي حد وصلت الاشتراكية والفكر العصري بوجه عام إلى إنتاج الفكرة الذهنية لهذا النظام السياسي والاجتماعي الجديد ، الذي يقف عالمنا باعتراف الجميع وهو في أمس الحاجة إليه ؟ ونحن مضطرون أن نجيب أنه ليس هناك تصور واضح للحالة الجديدة التي نكافح نحوها كفاحا مبهما ، وأن علمنا بالعلاقات الإنسانية ما يزال بالغاً من الفجاجة والإمعان في النظرية إلى حد لانجد فيه هداية محدودة في عشرات من النقاط الأساسية الهامة . ولسنا اليوم في مركز يجعلنا نقيم في العالم نظاماً سياسياً متصوراً تصوراً علمياً إلا بقدر ما كان الناس يستطيعون أن يقيموا محطة كهربائية في (١٨٢٥) . فإنهم لم يكونوا عند ذاك ليستطيعوا ذلك وإن ترتب عليه إنقاذ حياتهم .

وتشير الطريقة الماركسية إلى تراكم للقوى الثورية في العالم العصري . وهذه القوى سوف تنزع باستمرار إلى الثورة . ولكن ماركس افترض بغاية التعجل أن الدافع الثوري ينتج بالضرورة دولة منظمة ذات نوع أحدث وأحسن . فإن الثورة قد تقف في منتصف الطريق عند مجرد التدمير . ولم تقم أية شيعة اشتراكية حتى الآن بتعريف حكومتها المقترحة تعريفاً واضحاً . ويلوح أن البلاشفة كانوا يسترشدون في تجربتهم الروسية بعبارة « ديكتاتورية البروليتاريات » . ومن الناحية العملية أثبت « تروتسكي » و « لنين » فيما يقال أنهما يعدلان في أوتوقراطيتهما القيصر إسكندر الأول الأقل منهما ذكاء والمعادل لهما في حسن المقاصد .

ولقد مسنا بعض المكروه والنصب في أن نبين لك أثناء دراستنا الموجزة للثورة الفرنسية أن ليس في مستطاع ثورة من الثورات أن تؤسس أي شيء ثابت لم يقتل تفكيراً

قبل ذلك ولم يفهمه العقل العام . فالجمهورية الفرنسية ، وقد واجهتها صعوبات غير متوقعة فى الاقتصاديات ، والعملة ، والعلاقات الدولية — انهارت إلى يد أنانيات رجال الإدارة الحديثى الثراء ، ثم انهارت آخر الأمر إلى أنانية نابليون . والمحافظة فى ثبات على القانون وعلى خطة مرسومة ، أشد ضرورة فى أزمان الثورات منها فى أيام الهدوء العادية ، لأن الجماعة الإنسانية تتدهور منحلة — بغاية السرعة فى أزمنة الثورات إلى مجرد تخاطف تحت سيادة الأقوياء العنيفين والمكرة المحتالين .

فلو قدرنا العلم السياسى والاجتماعى فى عصرنا هذا ، قدرنا شيئاً من الواجب التمهيدى الذهنى الذى ما زال على البشرية أن تعمله قبل أن نأمل فى أن نشهد أى أعمال عظيمة إنشائية دائمة تنتج عن مجرد المغامرة والروح التقليدية اللتين تسيطران على شئوننا الحشدية اليوم . فهذه الاشتراكية التى تزعم أنها نظرية كاملة لنظام اجتماعى جديد ، تنكشف لنا ونحن نتفحصها عن شىء لا يتجاوز نظرية جزئية — مرشدة لنا جهد اتساع مجالها فى شئون الملكية .

ولقد بحثنا قبل ذلك علاقة التطور الاجتماعى بالتقييد الخاص بفكرة الملكية . فإن هناك مذاهب متنوعة للفكر تتفاوت فى تقييد الملكية قوة وضعفاً . فالشيوعية إنما هى الاقتراح بإلغاء الملكية إلغاء تاماً ، أو بعبارة أخرى جعل كل شىء مشاعا . وتميز الاشتراكية العصرية — أو « الحشدية »[1] إن صح أن نعطيها هذا الاسم الأدق الأضبط — تمييزاً فعلياً واضحاً بين الملكية الشخصية والملكية الحشدية . وزبدة مقترحات الاشتراكيين هى أن الأرض ، وكل وسائل الإنتاج الطبيعية ، والترانسيت والتوزيع يجب أن تملكها الجماعة ملكا حشديا . ولسوف يكون هناك داخل هذه الحدود كثير من الملكية الخصوصية والحرية الشخصية غير المقيدة . فلو أتيح لهذا المقترح إدارة ذات كفاية ، فلعل من المشكوك فيه أن كثيراً من الناس ينازعون فيه . بيد أن الاشتراكية لم تدخل قط فى امتحان كامل لذلك الشرط القاضى بوجود إدارة ذات كفاية .

ومن وجه آخر ، ما هو ذلك المجتمع الذى سوف يحرز الملكية الجماعية — أهو الملك أو المدينة أو المقاطعة أو الأمة أو البشرية ؟ وليست تعطيك الاشتراكية أية إجابة واضحة . والاشتراكيون يستعملون كلمة « تأميم Nationalization » استعمالا غير محدود ، ولكنا أقنا على جعل كلمتى « الأمم Nations » و « القومية Nationalism » هدفا لشىء من النقد

(١) انظر الهامش ص ٩٥٠ .

المدمر في هذا الكتاب . فلو اعترض الاشتراكيون على ادعاء فردي لشخص واحد بأن منجما أو متسعاً عظيما من الأرض الزراعية إنما هو ملكه الفردي ، وله حق رفض المبادلة على استعماله وغله الربح للآخرين ، فلماذا يسمحون لأمة واحدة أن تحتكر المناجم أو الطرق التجارية أو الثروة المعدنية في الأراضي التي تعيش فيها ، مضادة في ذلك البشرية جمعاء ؟

ويلوح أن النظرية الاشتراكية في هذه المسألة على اضطراب عظيم . وما لم تصبح الحياة الإنسانية اجتماعا عظيما للجنس البشري ينعقد في دورة مستمرة ، فكيف يستطيع المجتمع أن يعين موظفيه الذين يقومون بتنفيذ شئونه الحشدية ؟ وفضلا عن ذلك فليس المالك الخاص للأرض أو للعمل أو ما أشبهه إلا ضربا من الموظف العام بالقدر الذي يسمح فيه المجتمع بوجود ملكيته وحمايتها له . فبدل أن تدفع إليه المرتبات أو الأجور ، يسمح له بأن ينال ربحاً .

والسبب الصحيح الوحيد لطرده من ملكيته هو أن الهيمنة الجديدة التي ستحل محل الأولى سوف تكون أكثر كفاية وأعود نفعاً وأدعى لرضى المجتمع . وبعد أن يطرد يكون له على أقل تقدير نفس الحق في المطالبة بنفس رعاية المجتمع التي أظهرها هو نفسه من قبل للعامل المطرود من العمل بسبب اختراع ميكاني .

وهذه المسألة مسألة الإدارة ، وهي العائق السليم الصحيح لكثير من ألوان التشريك التوى[1] ، توصلنا إلى تلك المسألة التي لم تبرح غير محلولة إلى حد كبير ، مسألة الترابط الإنساني . فكيف نستطيع أن نحصل على خير توجيه للشئون الإنسانية وأن نحصل مع ذلك التوجيه على النهاية القصوى من التعاون الطواعي ؟ فهذه مسألة سيكولوجية بلغت غاية التعقيد ، ولكن من السخف أن يدعى المرء أنها مسألة عويصة لا حل لها . ولا بد من أن توجد حالة يمكن تعريفها وتحديدها هي خير الحالات وهي الشيء الصحيح في هذه الأمور . ولكنها إن لم تكن ولا حل لها فإن الادعاء بأنها قد حلت لا يقل عن ذلك سخفاً . فالمسألة وهي في أتم صورها تحتوي على إنتاج أحسن الطرائق في المناحي الآتية وترابطها التام : —

١ — التعليم : وهو إعداد الفرد ليتعاون تعاون الفاهم الراغب في شئون العالم .

٢ — الإخبار : عرض الشئون العامة عرضاً صادقاً ومستمراً على الأفراد ليصدروا حكمهم فيها ويوافقوا عليها ومما يتصل اتصالا وثيقاً بهذه الحاجة إلى الإخبار المتواتر أمر جمع

(١) التشريك التوى (Immediate Socialization): الصبغ المباشر بالصبغة الاشتراكية .

القوانين وتنسيقها ، وهى مسألة جعل القانون على الدوام صريحاً واضحاً هين المدخل على الجميع .

٣ — التمثيل : وهو اختيار الممثلين والوكلاء الذين يعملون فى المصلحة الحشدية فى انسجام مع الإرادة العامة المبنية على ذلك التعليم وذلك الإخبار الصريح .

٤ — الهيئة التنفيذية : تعيين الوكلاء التنفيذيين والاحتفاظ بالوسائل التى تجعلهم على الدوام مسئولين أمام المجتمع — دون أن يعوق ذلك فى نفس الوقت ابتداهات ذوى الذكاء .

٥ — الفكر والبحث : وهو النقد المنتظم للشئون والقوانين لتكون مادة علمية (دائما) تكون موضع الحكم العام الشعبى ، وضمان التحسين الدنيوى للتنظيمة الإنسانية بواسطة هذه الأحكام .

تلك هى الرءوس الخمسة التى تعرض علينا فيها نفسها المسألة الإجمالية للجماعة الإنسانية . وإنا لنرى فيما يحيط بنا من العالم وسائل يقصد بها إلى مجرد « سد خانة » أو إيجاد بديل مؤقت ، وهى تعمل عملها فى كل هذه الفروع ، وكلها وسائل سيئة التناسق إحداها مع الأخرى ، كما هى فى ذاتها غير مرضية . وإنا لنرى نظاماً للتعليم يتجلى فى تمويله وتجهيزه الشح والدناءة ، وفى تنظيمه سوء الإدارة ، ويقعده تدخل الهيئات الدينية وعداوتها ؛ ونرى الإخبار العام تقدمه بوجه رئيسى صحافة مرتشية تعتمد على الإعلانات والإعانات المالية . وإنا لنشهد طرائق للانتخاب هزلية تعيد إلى السلطان سياسيين يبلغون فى عدم تمثيلهم للشعب مبلغ أى حاكم وراثى أو أى فاتح عرضى . وإنك لترى القوة التنفيذية فى كل مكان تتأثر نوعاً ما أو يتصرف فيها تصرفاً تتفاوت درجته ، جماعات من الأغنياء المغامرين ، ونرى الاشتغال بالعلم السياسى والاجتماعى والنقد العام ما يزال من عمل أفراد متكرسين ذوى أطوار غريبة أكثر منه عملا من أعمال الدولة مكرماً معترفاً به .

وإن هناك لواجباً ضخماً ينتظر الرجال ذوى التفكير الصحيح لكى يقوموا بتنظيف وتجميل حظيرة السياسيين . فحتى تتحقق هذه الغاية فإن من المستحيل أن يتم فهم الاشتراكية فهماً تاماً . وما دام المغامرون الخصوصيون يهيمنون على حياة الدولة السياسية ، فإن من المضحك أن يفكر الناس فى أن تضطلع الدولة بالمصالح الاقتصادية الحشدية من يد المغامرين الخصوصيين .

ولم تقتصر الحركة الاشتراكية على الفشل إلى هذا الحد فى إنتاج خطة مدروسة على أساس علمى لإيجاد الترابط فى التعليم ، والقانون وممارسة السلطة العامة ، بل إنها حتى فى الميدان الاقتصادى كما سبق أن بينا لك ، ما تزال واقفة حيال قوى خلاقة تنتظر منها فكرة

تصوغها عن تنظيم صحيح للائتمان (Credit) وطريقة صحيحة للدفع والتبادل (Interchange) .
ومن البدهيات الأولية أن رغبة العامل وإقباله تتوقف فيما تتوقف عليه من أمور على ثقته التامة فى القوة الشرائية للعملة التى يقبض أجره منها . ومتى ذهبت تلك الثقة يبطل العمل اللهم إلا فى الحالة التى يمكن فيها أن يكافأ العامل بدفع الأجور عيناً . ولكن ليس هناك القدر الكافى من علم العملة وعلم النفس الخاص بالأعمال لرد الحكومات عن التدخل فى الائتمان العام وفى التداول ، تدخلا يزعج الناس أيما إزعاج . ويؤدى مثل هذا التدخل مباشرة إلى التوقف عن الأعمال ، أى التوقف عن إنتاج الأشياء الضرورية .

فى مثل هذه المسائل الحيوية العملية يكاد ألا يكون من المبالغة أن يقال إن أغلبية هؤلاء الاشتراكيين الذين يرغبون فى إعادة صوغ العالم ليست لها أية فكرات محددة إصالة . ولكن الناس سواء أكانوا فى عالم اشتراكى أم فى أى نوع آخر من العوالم ، يجب أن يقبضوا نقوداً مقابل عملهم أكثر من أن يقبضوا أجورهم عيناً ، إن كان يجب أن يستمر شىء اسمه الحرية الفردية . وهنا أيضاً ينبغى أن يكون هناك شىء محقق صحيح يجب على الناس أن يسماوه ، فحتى يتحدد ذلك فلن يستمر التاريخ فى هذه الأمور فى أن يكون سجلا للتجاريب قدر ما يكون سجلا للتخبطات .

ومن جهة أخرى كان التفكير الاجتماعى والسياسى فى القرن التاسع عشر ، وهو يواجه ما عليه الثورة الميكانية من ضخامة ، وجلا خائفاً ، محدوداً ، غير كاف ، وكان ذلك بالنظر إلى العلاقات الدولية . وسوف يجد قارىء الأدب[1] الاشتراكى ، الاشتراكيين وهم يكتبون ويتكلمون عن « الدولة » بلا انقطاع ، دون أن يبدو عليهم أن « الدولة » قد تكون كل أنواع التنظيمات وأنها تحددها جميع المساحات ، ابتداء من جمهورية سان مارينو إلى الإمبراطورية البريطانية . حقاً إن كارل ماركس كانت لديه فكرة عن تماسك المصالح بين العمال فى كل الأقطار المصنعة ، ولكن لاتكاد اشتراكية ماركس تحوى إشارة إلى النتيجة المنطقية لهذا ، وهى تأسيس حكومة دعوقراطية عالمية متحدة (Federal) (بل حكومات قومية أو إقليمية للدول) بوصفها نتيجة طبيعية لثورته الاجتماعية المقترحة .

وليس هناك شىء أكثر من أمل مبهم . ولكن إذا كان الماركسى على شىء من المنطق وجب أن يكون ذلك هو غايته السياسية الصريحة العلنية التى يجب أن يعمل فى سبيلها

---

(١) كلمة الأدب هنا مستعملة بمعناها العام ، ومعناها ما كتب فى تلك المادة من كتب وصحف ومجلات ونشرات .

بلا انقطاع . ولكن اشتراكيي الأقطار الأوربية تقريباً قد أظهروا يوم هجمت عودهم حرب (١٩١٤) ، أن ما لديهم من الوعى الطبقى بالدولية كان لعمرى ضئيل الحظ من التوقير والكرامة ومن الإيثار الجدى على مشاعرهم الوطنية القومية ، التى لم تحل تلك الروح الدولية بأى حال محلها . وكان الاشتراكيون فى كل مكان أثناء الحرب الألمانية ينعون على تلك الحرب أنها قد أشبتها حكومات رأسمالية . ولكن لا يكاد ينتج أثر مستديم إذا طعن الناس فى حكومة أو نظام عالى ما لم تكن لديهم فكرة عملية عن حكومة من طراز أحسن ونظام أحسن تحل محلها .

ونحن إنما نذكر هذه الأمور فى هذا المكان لأنها حقائق ، ولأنها جزء حى ضرورى من نظرة شاملة معاصرة إلى التاريخ الإنسانى . وليس من واجبنا الآن أن ندافع عن الاشتراكية ولا أن نختصمها . ولكن مما لا يخرج بنا عن الصورة القائمة بين أيدينا أن نلحظ أن الحياة السياسية والاجتماعية إنما هما ، ولا بد لهما من أن تظلا — فى حال من الفوضى والتعرض للكوارث ما لم يحدث تطور لبعض الخطط الإنشائية من أضراب ما تخططه الاشتراكية ، وأن تظهرا بوضوح مقدار بعد العالم فى الوقت الحاضر عن أى خطة من أمثال تلك الخطط . ولا بد من أن يحدث قدر هائل من العناء الذهنى والمناقشة والتعليم ، ولا بد من انقضاء السنوات العديدة ، إما بالعشرات وإما بالقرون ، إذ لا يستطيع أحد أن يعرف مدى ذلك — قبل أن يشمل سطح الأرض بأكملها نظام جديد مصمم كما تصمم السفن والسكك الحديدية ، — وأن يجرى كما تجرى خطوط التلغراف البحرية وأعمال التوزيع فى البريد فحتى يستطيع مثل هذا النظام أن يضم بشبكته شتات البشرية بعضها إلى بعض ، فلا بد للحياة الإنسانية كما سنعرضها عليك من فورنا بقصة الحروب الأوربية منذ (١٨٥٤) ، من أن تصبح عرضية ، خطرة ، تعسة ، قلقة ، مليئة بالكوارث بسبب هذه الوسائل الحربية التى لا تبرح تغدو أشد قوة وتدميراً فى كل يوم بسبب الثورة الميكانية المتواصلة .

٦ — كيف أثر مذهب دارون فى الفكرات الدينية والسياسية[١]

بينما كانت الثورة الميكانية[٢] التى نتجت عن نمو علم الفوزيقا (الطبيعة) آخذة بأسباب

(١) إن شئت وجهة نظر دينية دقيقة وثيقة المماثلة لهذه المذكورة ها هنا فانظر كتاب « مقالات الأسقف إنج » الصريح الواضح ، المقالات رقم ٨ و ٩ عن القديس بولس وعن التمسك بالنظم (Institutionalism)، وعن التصوف (Mysticism) .

(٢) الثورة الميكانية والانقلاب الآلى بمعنى واحد .

تدمير التصنيف الاجتماعى القديم للدولة المدنة التى تطورت طيلة آلاف من السنين ، وشارعة فى إنتاج احتمالات جديدة ومثل عليا جديدة لمجتمع إنسانى بر صالح ، ونظام عالمى بر صالح — كان يجرى فى حقل الفكر الدينى تغيير هو على أقل تقدير معادل لتلك فى العظم والجدّة . وكان نفس هذا النمو فى العرفان العلمى الذى نشأت عنه الثورة الميكانية هو الدافع المحرك لهذه الاضطرابات الدينية .

ولقد قدمنا إليك فى الفصول الافتتاحية من هـذا الـكتاب القصة الرئيسية لسجل الصخور ؛ وصورنا الحياة على حقيقتها إذ هى بداية وعى صغيرة ، مظهرين إياها وهى لا تزال تسبح فى ضخامة ما أمامها من فراغ ينتظرها بين الفضاء والزمان . ولـكن قبل أن يشارف القرن الثامن عشر نهايته كان مشهد الماضى الضخم هذا — الذى يملأ الذهن العصرى بالذلة وبما لا حد له من الأمل ، — شيئاً خافياً مستتراً على الوعى العام لجنسنا . إذ كان يستره عن الأعين سجف من أسطورة سومرية . فإن السماوات لم تـكن لتزيد على خلفية مسرح من المسارح تقوم من وراء تمثيلية ملوك . وكان الناس أشد انشغالا بشهواتهم الخاصة وشئونهم الشخصية من أن يأبهوا بما يلوح لهم من المقدرات العظيمة التى كانت تحيط بهم من كل ناحية .

ولقد علموا مركزهم الحقيقى فى المـكان قبل أن يضعوا أنفسهم فى الزمان بأمد بعيد . وسبق لنا أن حكّينا لك الفلـكيين الأقدمين ، وأخبرناك كيف أجبر « جاليليو » على إنكار قوله أن الأرض تدور حول الشمس ، أجبرته الـكنيسة على أن يفعل ذلك ، ومدفوعة باعتقادها أن أى شك يحيط بأن الأرض مركز العالم ضربة قاتلة تزلزل سلطان المسيحية .

فمن يقص التاريخ العصرى مضطر فى هذا الموضوع أن يصطنع الحذر والجرأة فى آن واحد . ولا بد له من أن يتحسس موطىء قدميه ، بين التملص الجبان من ناحية والتعصب من ناحية أخرى . ولا بد له من أن يقصر نفسه جهد طاقته على الحقائق وأن يغل ما يرى من آراء . ومع ذلك فمن الخير أن نتذكر أن التضييق المطلق على الآراء أمر ليس فى الإمكان . ولـكاتب هذه السطور آراؤه التى يقتنع بها بقوة وتحديد شديدين ، ولا بد للقارىء من أن يعى ذلك فى ذاكرته .

وإنها لحقيقة مقررة فى التاريخ أن تعاليم يسوع الناصرى كان فيها شىء جديد عميق الجدة خلاق قوى الخلـق . فإنه بشّـر بمملـكة جديدة للسماوات فى قلوب الناس ودنياهم . ولم يكن فى تعاليمه شىء — إلا بالقدر الذى نستطيع به أن نحكم عليها فى هذا البعد الزمنى — يتعارض أو يتدخل مع أى اكتشاف أو توسع فى تاريخ العالم والبشرية . ولـكن يعادل هذا فى

حقيقته التاريخية أن القديس بولس وخلفاءه قد أضافوا إلى تعاليم يسوع الصريحة الممعنة فى الثورية ، أو أكلوها أو فرضوا عليها أو تبدلوا بها مبادىء أخرى — (واختر لنفسك من هذه الألفاظ ما تشتهى)— وذلك بيسطهم نظرية للخلاص دقيقة معقدة ، وهو خلاص يمكن الحصول عليه فى معظم الأمر بالإيمان والشكليات ، دون تغيير جدى فى مألوف عادات المؤمن وأعماله العادية ، وأن تلك التعاليم البولسية كانت تحتوى فعلا على معتقدات محددة جداً حول تاريخ العالم والإنسان .

وليس من شأن المؤرخ أن يختصم هذه الأمور أو يشرحها . فإن مرد قيمتها النهائية إلى علماء اللاهوت . أما اختصاص المؤرخ فينحصر فى أن المسيحية الرسمية فى جميع أرجاء العالم تبنت وجهة نظر القديس بولس ، التى عبر عنها فى رسائله بأجلى بيان ، والتى يستطاع قص آثارها فى الأناجيل ، وهى وجهة النظر القائلة بأن معنى الديانة لا ينحصر فى المستقبل وإنما ينحصر فى الماضى ، وأن يسوع لم يكن معلما لأشياء جديدة رائعة ، قدر ما كان قربانا دمويا مقدساً عامراً بالخفايا العميقة والقدسية البالغة ، هيأه القدر كفارة عن حدث تاريخى خاص من أحداث عصيان الخالق اقترفه والدنا الأولان ، آدم وحواء استجابة لإغراء أفعى فى جنة عدن . وقد بنت المسيحية المذهبية مبادئها على هذا الاعتقاد فى تلك « الخطيئة » باعتبارها حقيقة ، لا على شخصية يسوع الناصرى ، وعلى نظريات بولس لا على وصايا يسوع .

وقد لاحظنا آنفاً ، أن هذه القصة ، قصة الخلق الخاص للعالم وآدم وحواء والأفعى ، كانت كذلك قصة بابلية قديمة ، ولعلها كذلك قصة سومرية أقدم عهداً وأبعد أمداً ، وأن الكتب اليهودية المقدسة كانت الوسيط الذى أدخل المسيحية أسطورة الأفعى العتيقة هذه البدائية « الهليوليثية »[1] الأصل وقد حملت المسيحية الرسمية هذه القصة معها حيثما حلت . ذلك أنها ربطت نفسها بهذه القصة .

وكان العالم المصطبغ بالمسيحية يشعر إلى قرن سلف أو أقل بأنه ملزم أن يعتقد بل كان يعتقد فعلا أن الكون خلق خلقاً خاصا فى ستة أيام بكلمة من الله صدرت قبل بضع آلاف من السنين أى سنة ٤٠٠٤ ق . م . — كما يقول الأسقف « أشر » . (وكتاب « التاريخ العام » الصادر فى اثنين وأربعين سفراً الذى نشرته فى (١٧٧٩) جماعة من تجار الكتب فى لندن يبحث هل كان التاريخ الدقيق للخلق هو ٢١ مارس أو ٢١ سبتمبر سنة ٤٠٠٤ ق . م ، ويرجح التاريخ الثانى) .

---

(١) الهليوليثية : عصر الحضارة الحجرية الشمسية . انظر المعالم س ٧٩ ج ١ .

وعلى هــذا الفرض التاريخي كان ينهض الصرح الديني للمدنية الغربية والمدنية الغربية الصباغ ، ومع ذلك فإن العالم بأجمعه كانت ترحه الأدلة ، فإن التلال والجبال والدلتاوات والبحار كانت تنفجر صائحة بالسخافة المطلقة لهذه النظرية . وكانت الحياة الدينية لدى كبريات الأمم وهي ما تزال حياة دينية حادة جدا عامرة بالإخلاص ، تجرى فى دار تاريخية بنيت على أس من الرمل .

وإن الأدب الـكلاسيكي ليحوى من الشواهد الـكثيرة الورود فيه ما يدل على وجود مباحث فى بدء الخليقة أصح وأسلم . فإن أرسطو تنبه للمبادىء الإجمالية للجيولوجيا العصرية ، وإنها لتلمع فى ثنايا تأملات لوكريشيوس ، كذلك لاحظنا التفسير النير الذى فسر به ليوناردو دافنشى (١٤٥٢ — ١٥١٩) الحفريات . وقد ارتأى الفرنسى العظيم ديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠) الآراء الجريئة حول بداية كرتنا الأرضية ، إذ هى مبيضة من التوهج بالحرارة ، وبدأ دانماركى اسمه ستينو (١٦٣١ — ١٦٨٦) العمل فى جمع الحفريات ووصف الطبقات الأرضية . ولـكن حدث — وقد أشرف القرن الثامن عشر على نهايته — أن خطت الدراسة المنظمة للجيولوجيا تلك الخطوات الفساح التى تؤثر فى الاعتماد العام على رواية الـكتاب المقدس وعلى القصة السومرية العتيقة .

وعاصر كتاب التاريخ العام الذى اقتبسنامنه آنفا ، عالم فرنسى طبيعى هو بوفون (Buffon) كان يكتب عن « حقب الطبيعة » (١٧٧٨) ، ويمد عمر العالم فى جرأة إلى سبعين ألفاً أو خمسة وسبعين ألفا من السنين . وقد قسم قصته إلى ستة أحقاب تقابل الأيام الستة فى قصة الخليقة . وجادل الرجل بأن هذه الأيام الستة إنما هى أيام مجازية ، كانت فى حقيقتها عصوراً . وحاولت الجيولوجيا بهذه الحيلة المريحة أن تخلق السلام بينها وبين التعاليم الدينية التقليدية التى استمرت إلى منتصف القرن التاسع عشر .

ولسنا نستطيع هنا أن نقص ما أداه رجال من أمثال هاتون وبلايفير وسير شارل ليال ، والفرنسيين لامارك وكوفييه من جليل الخدمات فى كشف اللثام عن سجل الصخور[1] وفى تطوره والنهوض به . ولم يحدث إلا ببطء أن أخذ الذكاء العام فى العالم الغربى يستيقظ على حقيقتين تقضان مضجعه : أولاهما ، أن تعاقب الحياة فى السجل الجيولوجى لم يكن مما يقابل الأعمال التى جرت فى أيام الخليقة الستة ، وثانيتهما ، أن السجل فى اتساق منه مع مجموعة

---

(١) سجل الصخور : راجع المجلد الأول من العالم ص ٢١ .

كبيرة من الحقائق البيولوجية ، يشير إلى عكس ما يقرره الكتاب المقدس من خلق منفصل لكل نوع ويطابق فى خط مستقيم القول بعلاقة توالدية بين كل أشكال الحياة علاقة كانت تضم الإنسان نفسه ! ! وكانت أهمية هذه النقطة الأخيرة لدى النظام المذهبي الموجود بينة واضحة . فلو أن كل الحيوانات والإنسان كان نصيبها النشوء والارتقاء على تلك الشاكلة المتصاعدة ، ترتب على ذلك أن لم يكن هناك أبوان أولان ، ولا عدن ولا خطيئة . وإذا لم تكن ثم خطيئة فإن كل الصرح التاريخى للمسيحية ، وقصة الخطيئة الأولى السبب الداعى إلى الكفارة ، التى أسس على أركانها التعليم السارى للعواطف المسيحية والأخلاق المسيحية ، تنهار كبيت من ورق اللعب .

فلا عجب إذاً أن تتبع جماهير عظيمة من الرجال الشرفاء ذوى النفوس المتدينة فى شيء عائل الرعب عمل العالم الطبيعى الإنجليزى شارل دارون (١٨٠٩ — ١٨٨٢) . ففى ١٨٥٩ نشر كتابه أصل الأنواع بواسطة الانتخاب الطبيعى ، وهو عرض قوى لاتبلى قيمته لهذه الفكرة الخاصة بتغير الأنواع وتطورها التى رسمناها لك فى إيجاز فى الفصل الثانى . وفى ١٨٧١ أتم معالم عمله بكتابه أصل الإنسان ، الذى أرجع الإنسان إرجاعا محدداً إلى خطة التطور نفسها مع سائر الحياة .

ولا يزال على قيد الحياة رجال ونساء كثيرون يستطيعون أن يتذكروا الرعب والحزن الذى استولى على الأذكياء العاديين فى المجتمعات الغربية بينما كانت تتكشف للناس القضية التى لا تقهر ، قضية البيولوجى والجيولوجى ضد « مبحث بدء الخليقة » فى المسيحية السلفية(١) وقاومت عقول كثير منهم المعرفة الجديدة مدفوعين بالغريزة وعدم التعقل . ذلك لأن صرحهم المعنوى كله كان مشيداً على دعامة من التاريخ الزائف ، وقد كانوا أكبر سناً وأشد جموداً من أن يرفعوا بناءه مرة أخرى ، وخالوا هذه الحقيقة الجديدة لا تتمشى مع ما كانوا يحسونه من الصدق العملى فى معتقداتهم المعنوية ، واعتقدوا أن فى التسليم بها تمهيدَ السبيل لتقوض العالم من الناحية الخلقية . وهكذا أدت أفكارهم إلى انهيار خلق .

ولما كانت الجامعات فى انجلترا بخاصة دينية فى تكوينها قبل كل شيء ، فإنها قاومت العلم الجديد مقاومة جد مريرة . فكانت أرجاء العالم المدن تغلى بالخصومة العاصفة إبان العقدين الثامن والتاسع . ولعل مما يدل على نوع المناقشات وعلى الجهالة القتالة للكنيسة أن

---

(١) المسيحية السلفية : أى المحافظة على التقاليد المذهبية الصحيحة .

نقتبس لك من كتاب « الأمور العادية » بقلم هاكت ، وصفاً لجلسة للجمعية البريطانية فى ١٨٦٦ ، هاجم فيه الأسقف ويلبرفورس العلامة هكسلى (Huxley) ، النصير العظيم لآراء دارون ، على هذه الشاكلة :

وإذ اتجه نحو هكسلى فى ابتسامة وقحة فإنه رجاه أن يعرفه ، هل كان ادعاؤه الانحدار من أحد القرود عن طريق جدته أو جده ؟ والتفت هكسلى إلى جاره وقال « إن الرب قد أسلمه لى فى يدى » . ثم وقف أمامنا ونطق بهذه الكلمات الهائلة « إنه ليس يخجله أن يكون جده قرداً ، ولكن يخجله أن تكون له صلة برجل يستعمل المواهب الكبيرة فى تعمية الصدق » . (وثمة رواية ثانية تنقل ذلك على هذا النحو : « من المحقق أنى قلت : إنه ليس هناك ما يدعو رجلا من الرجال أن يخجل من أن يكون جده قرداً . فلئن كان هناك جد أخجل من تذكره ، فأحرِ بذلك أن يكون رجلا ذا ذهنية قلقة قلابة يخوض غمار مسائل علمية ليست له بها دراية صحيحة لا لشىء إلا لإدخال الخفاء والغموض عليها باستعمال بلاغة لا تستهدف غرضا ، وأن يحول التفات سامعيه عن النقطة الحقيقية التى هى مدار النزاع بواسطة الانحراف عن الموضوع بفصاحته واللجوء الماهر إلى روح التحامل والتحيز » ولا شك أن هذه الكلمات قد نطقت فى حدة . فكان المشهد مشهد انفعال عظيم . فأغمى على إحدى السيدات كما يقول هاكت . . . وذلك هو طراز الخلق العنيف فى هذه الخصومة .

وقد أخذت الحركة الداروينية ، المسيحية الرسمية على غرة . فووجهت المسيحية الرسمية بغلطة فى بياناتها اللاهوتية يمكن إثباتها والبرهنة عليها . ولم يؤت اللاهوتيون المسيحيون حظاً كافياً من العقل والحكمة ولا من نشاط الذهن يحملهم على قبول الصدق الجديد ، وعلى تعديل قانون الإيمان ، وأن يصروا على الحيوية الخالدة التامة التامة التى لم ينقص شىء منها حيوية الحقيقة الدينية التى كانت قوانين الإيمان حتى ذلك الحين كافية للتعبير عنها . فإن اكتشاف انحدار الإنسان عن أشكال شبه إنسانية لا يمس وإن من بيعد تعاليم ملكوت السموات . ومع هذا فإن القساوسة والأساقفة ثاروا بدارون ، وقام بعضهم بمحاولات حمقاء لمصادرة مؤلفاته وإهانة أنصار الآراء الجديدة وشراحها . وتبادل القوم قدراً كبيراً من جارح القول فى الخصومة بين الدين والعلم .

والحق إنه لم يخل عصر من العصور من متشككة فى المسيحية . فإن الإمبراطور فردريك الثانى كان على وجه التحقيق أحد المتشككين ، وفى القرن الثامن عشر كان جيبون وڤولتير ينكران المسيحية صراحاً وجهاراً ، وأثرت كتاباتهما فى عدد من القراء مبعثرين هنا وهناك . على أن هؤلاء كانوا أناساً غير عاديين . . . . فأما الآن فقد أصبحت كل المسيحية

بوجه الاجمال متشككة . إذ مست هذه الخصومة الجديدة كل إنسان قرأ كتاباً أو سمع محاورة بين أذكياء . ونما جيل جديد من الشباب ، فوجدوا المدافعين عن المسيحية فى حالة من الشراسة ، يحاربون من أجل قضيتهم بلا كرامة ولا إنصاف . وكان الذى زُجَّ فى مأزق الخطر بسبب تقدم العلم الحديث هو اللاهوت التقليدى السلفى ، غير أن اللاهوتيين الغضاب كانوا يصرحون بأن الخطر إنما يحدق بالدين .

وقد يكتشف الناس فى النهاية أن الدين سوف يزيد بريق صقاله عند ما يفقد كل ما هو ملفف به من مبادئ مذهبية ، فأما الشباب فخيل إليهم أنه كان هناك نزاع فعلا بين العلم والدين ، وأن العلم كان المظفر فى ذلك النزاع . وكان الأثر المباشر لهذا النزاع الكبير ، فى فكرات الناس وطرائقهم فى طبقات الموسرين وذوى النفوذ فى كل أرجاء العالم الغربى الصبغة ، أثراً هداماً بالغاً فى الواقع . ولم يأت العلم البيولوجى الجديد حتى ذلك الحين بشىء إنشائى يحل محل الأشياء المعنوية القديمة التى أطرحت جانباً . وتلا ذلك انحلال خلقى حقيقى .

وكان المستوى العام للحياة الاجتماعية فى تلك الطبقات أعلى كثيراً فى بداية القرن العشرين منه فى بداية القرن السابع عشر ، ولكن هناك منحى واحداً لعل النعم فيه فى العصر الأقدم كان أحسن منه فى العصر الأحدث هو منحى امتناع المصلحة الذاتية ومراعاة الضمير فى تلك الطبقات . ويرجح أنه كان فى طبقات الملاك والناشطين فى القرن السابع عشر ، بالرغم من وجود عدد قليل من الكفرة حقاً — نسبة مئوية أعلى كثيراً ، من الرجال والنساء الذين كانوا يصلون بإخلاص ، والذين كانوا يبحثون فى زوايا نفوسهم ليعرفوا هل أحدثوا شراً ، كما كانوا على استعداد لتلقى الآلام والقيام بتضحيات عظيمة فى سبيل ما يظنونه الحق ، أكثر مما كان سنوات مدخل القرن العشرين .

وقد أصيب العالم بنقص حقيقى فى الإيمان بعد ١٨٥٩ . وكثيراً ما كان ذهب الكنيسة الإبريز ينبذ ويطرح مع الكيس البالى الذى طالما ضمه بين دفتيه ذلك الزمن الطويل ، ولكن أحداً لم يسترجعه حتى إذا شارف القرن التاسع عشر نهايته كانت صورة ممسوخة فجة للداروينية قد غدت المادة العقلية الجوهرية عند جماهير غفيرة من « المتعلمين » فى كل مكان . وكانت عند ملوك القرن السابع عشر وملاكه وحكامه وزعمائه فكرة فى مؤخرة أذهانهم توحى إليهم بأنهم إنما يتولون ما يتولون بإرادة الله . وكانوا يخشونه حقاً ، وكانوا يطلبون القسوس لكى يصلحوا الأمور بينهم . وبينه فإن كانوا من الأشرار اجتهدوا ألا يفكروا فيه . ولكن العقيدة القديمة عقيدة ملوك مفتتح القرن العشرين ، وملاكه وحكامه

اضمحلت تحت ذلك الشعاع النورانى الذى يلقيه النقد العلمى .

وكان السادة عند ختام القرن التاسع عشر يعتقدون أنهم يسودون بحكم تنازع البقاء ، الذى يتغلب فيه القوى الماكر على الضعيف الواثق المخدوع . وكانوا يعتقدون فضلا عن ذلك بأنه كان لابد لهم من أن يكونوا أقوياء ناشطين قساة ، عمليين أنانيين ، لأن الله مات ، وكان على الدوام فيما يخالون ميتاً — وهذا شىء يتجاوز تماماً ما تبرره المعارف الجديدة .

وسرعان ما تجاوزوا الفهم الخاطىء الأول الفج الشعبى لمذهب دارون ، وهو الفكرة القائلة بأن كل إنسان يعيش من أجل نفسه وحدها . ولكنهم تردوا فيما هو أسوأ . ذلك أنهم قطعوا بأن الإنسان حيوان اجتماعى مثل كلب الصيد الهندى . وهو أكثر كثيراً من كلب عادى ، ولكنهم لم يبصروا تلك الحقيقة . وكما يحدث بالضبط فى سرب الكلاب من ضرورة إخضاع الأصغرين والأضعفين وإرهابها فى سبيل الصالح العام ، فكذلك بدا فى أعينهم من الصواب أن تقوم الكلاب الكبيرة فى السرب الانسانى بإرهاب الغير وإخضاعه . ومن ثم نشأت زراية جديدة بفكرات الديموقراطية التى سادت أوائل القرن التاسع عشر ، وبعث إعجاب مجدد بالمتبجحين والقساة .

وكان مما يوافق خصيصة ذلك الزمان تمام الموافقة أن يقتاد المستر كبلنج(١) أطفال الطبقتين الوسطى والعليا فى الجمهور الإنجليزى عائداً بهم إلى الأجمة ليتعلموا « القانون » ، فهو فى كتابه ستوكى وشركاه يقدم وصفاً كله التقدير للتعذيب الذى ناله ولدان على يد ثلاثة آخرين ، كانوا قد اختدعوا ضحاياهم حتى ربطوهم ربطاً مؤلماً لا فكاك لهم منه قبل إظهارهم مقاصدهم العدائية .

ويجدر بنا أن نوجه شيئاً من الالتفات إلى هذه الحادثة فى كتاب « ستوكى وشركاه » ، لأنها تنير لنا غوامض السيكولوجيا السياسية للإمبراطورية البريطانية عند نهاية القرن التاسع عشر إنارة ناصعة جداً . وليس فى المستطاع فهم تاريخ نصف القرن الأخير دون تفهم للالتواء الذهنى الذى تعد هذه القصة مثلا من أمثلته . والولدان اللذان يعذبان مشاغبان شريران ، وذلك هو العذر الذى يعتذر به معذبوهما ، هذا فضلا عن أن أحد القساوسة حرض هؤلاء الأخيرين على ذلك العمل الفاضح . ولا يستطيع شىء أن يحد المرح الذى شرعوا ينفذون به (ومعهم المستر كبلنج) عملهم . ويلوح أن التعليمات كانت بأنه قبل اللجوء إلى

---

(١) كبلنج : هو جوزيف رديارد كبلنج (١٨٦٥ — ١٩٣٦) شاعر وكاتب استعمارى شهير . ولد بالهند وله مؤلفات كثيرة وحصل على جائزة نوبل (١٩٠٧) .

التعذيب ، يجب عليهم أولاً أن يستدرجوهم فى الحديث حتى يزل لسانهم زلة تستثير شيئاً من النعرة الأخلاقية التى يمكن تبريرها . فإنكم إذا ضمنتم أن تكون السلطات إلى جانبكم ، لم يكن هناك وجه لتوجيه اللوم إليكم . وواضح أن ذلك هو المبدأ البسيط لهذا الاستعمارى النموذجى . ولكن ترى أن كل معتد أثيم قد اتبع ذلك المبدأ على أحسن ماتتيحه له مقدرته ، منذ أن تطور فى الحيوان الذكاء الكافى لجعله قاسياً قساوة واعية .

وهناك نقطة أخرى فى القصة ذات مغزى كبير جداً فى الواقع . فإن كلا من الناظر ومساعده القسيس يُمثلان بوصفهما عاملين خفيين . فإنهما ليرغبان فى حدوث هذا الشجار والتعدى . وبدلا من أن يستعملا ما فى أيديهما من سلطان ، تراهما يستعملان هؤلاء الصبيان أبطال المستر كبلنج ليعاقبوا الضحيتين . وإن الناظر والقسيس ليعيران شكاة الأم الغاضبة أذناً صماء . يعرض المستر كبلنج هذا كله بوصفه أقصى المرغوب من الأحول .

وإنا لنلمس فى هذا مفتاح أقبح فكرة للاستعمار العصرى وأشدها رجعية وأعظمها فى النهاية خطراً عليه وقتلا له ، وهى فكرة « مؤامرة مضمرة بين القانون والعنف غير الشرعى » . وكما أن القيصرية الروسية دمرت نفسها آخر الأمر بتشجيعها سراً سفاحى « المئات السوداء » الذين كانوا يذبحون اليهود وأقواماً آخرين ممن زُعم أنهم معادون للقيصر ، فكذلك تلطخ الاسم الطيب للحكومة الإمبراطورية البريطانية — وما يزال ملطخاً — بغارة غير مشروعة قام بها الدكتور جيمسون[1] ، على الترنسفال قبل حرب البوير ، وبما سوف نصف لك من فورنا من مغامرات السير إدوارد كارسون (المعروف فيما بعد باسم اللورد كارسون) فى إرلنده وبإغضاء الحكومة البريطانية الضمنى فى إرلنده عما يسمونه « بأخذ الثأر » الذى قام به « الموالون » للحكومة ضد مرتكبى أو من يزعمونهم مرتكبى ثورات السين فين[2] .

وإنما تدمر الإمبراطوريات نفسها بمثل هذه الخيانات التى ترتكبها ضد رعاياها . فإن القوة الحقة للحكام والإمبراطوريات تقوم لا على أساس الجيوش والبحريات ، بل على اعتقاد الرجال بأنهم صُرحاء صادقون قانونيون لا تلين قناتهم فى الصراحة والحق والقانون . فلا تكاد حكومة تخرج عن ذلك المعيار ، حتى تكف عن أن تكون شيئاً يتجاوز « النسر المتملك » وتصبح أيامها معدودة .

---

(١) الدكتور جيمسون (١٨٥٣ — ١٩١٧) : سياسى بالمستعمرات ولد بإدنبره . وكان طبيباً بكمبرلى حيث أصبح صديقاً لسسل رودس . وفى أوائل ١٨٩٦ قاد حملة جيمسون من ميفكنج إلى الترنسفال .

(٢) السين فين : الحزب الوطنى الإرلندى أسسه آرثر جريفث ١٩٠٥ وسياسته مقاومة الحكم البريطانى . وانتقلت زعامته عند ١٩١٧ إلى ديفاليرا كبير الحركة الجمهورية ، وقد تغلب فى ١٩١٨ على الحزب القديم الداعى إلى الحكم الذاتى ، وزال من الوجود بعد ١٩٢٢ .

٧ — فكرة القومية

سبق أن أشرنا إلى أنه لابد من وجود خريطة سياسية طبيعية للعالم تقدم خير ما فى المستطاع من التقسيم الجغرافى للإدارة الإنسانية . فأما أى تقسيم سياسى آخر للعالم غير هذه الخريطة السياسية المطابقة للطبيعة ، فسوف يكون بحكم الضرورة شيئاً مقلقلا تعوزه التسوية ، ولا بد أن يفضى إلى تشديد العداوات والفتن التى تنزع إلى تحريك الحدود فى الاتجاه الذى تشير إليه الخريطة السياسية الطبيعية .

وقد تلوح هذه مقترحات واضحة من تلقاء نفسها لولا أن الدبلوماسيين فى ڤينا لم يكونوا يعتقدون ولا يفهمون كما هو واضح من تصرفاتهم شيئاً من ذلك القبيل ، وظنوا أنفسهم أحراراً فى أن يقطعوا أوصال العالم فى حرية من يقطع مادة لينة كالجبن لا عظم فيها . ومعظم الثورات والمنازعات التى ابتدأت فى أوربا عند ما أفاق العالم مما غشيه من إعياء بسبب الغارات النابليونية ، كانت كما هو واضح تمام الوضوح محاولات يبذلها الرجال العاديون للتخلص من الحكومات التى هى من عدم المطابقة لرغباتهم بدرجة تجعلها فى كثير الأحايين شيئاً لا يطاق . وعلى وجه العموم كانت الحكومات القائمة على غير ما يهوى الناس فى كل أرجاء أوربا ، لأنها لم تكن تمثل الناس تمثيلا اجتماعياً ، وبذا كانت تعوق الإنتاج وتضيع الاحتمالات الإنسانية بدداً . حتى إذا أضيف إلى تلك المضايقات العامة ، الاختلافات فى الدين وفى الثقافة العنصرية بين الحكام والمحكومين (كما فى معظم إرلنده) ، والفوارق فى العنصر واللغة (كما هو الحال فى إيطاليا الشمالية النمسوية وفى معظم أرجاء الإمبراطورية النمسوية) ، أو الفوارق فى كل هذه النواحى مجتمعة (كما فى بولنده والإمبراطورية التركية فى أوربا) فقد بلغ التسخط حداً دفع الناس إلى سفك الدماء .

كانت أوربا مجموعة من الآلات الحكومية بشعة التركيب . وعن ضغط سوء التركيب هذا ، استقت الحركات « القومية » المنوعة التى لعبت ذلك الدور الكبير فى تاريخ القرن التاسع عشر ، قوتها المحركة .

ما هى الأمة ؟ وما هى القومية ؟ فلئن أظهرت قصتنا عن العالم شيئاً ، فلقد أظهرت تمازج الأجناس والشعوب ، وعدم ثبات التقسيمات الإنسانية ، وتنوع المجموعات الإنسانية والفكرات الخاصة بالترابط الإنسانى تنوعا دواراً . فلقد قيل إن الأمة إنما هى تجمع من الكائنات الإنسانية يظنون أنهم شعب واحد . ولكن يخبروننا أن إرلنده أمة ، ومن المحقق أن آلستر

البروتستانتية لا تشاطر أصحاب هذا الرأى رأيهم . وكذلك لم تكن إيطاليا تعتقد أنها شعب واحد حتى مضى على تحقيق وحدتها زمن طويل . وعند ما كان المؤلف فى إيطاليا فى (١٩١٦) سمع الناس يقولون : « ستجعلنا هذه الحرب شعباً واحداً » .

وكذلك — هل الإنجليز أمة ؟ أم هم قد انغمروا فى « قومية بريطانية » ؟ . وليس يلوح على الإسكتلنديين أنهم يعتقدون كبير الاعتقاد فى هذه القومية البريطانية . وليس فى الإمكان أن يحدث أن مجتمعاً للجنس أو اللغة يكوّن أمة ، وذلك لأن الجيليين[1] (Gaels) واللولنديين (Lowlanders) هما قوام الأمة الإسكتلندية . كما أنه ليس فى الإمكان أن يكون أساس هذا المجتمع هو الديانة العامة لأن بانجلترا عشرات من الديانات ؛ ولا أدباً عاما ، وإلا فلماذا ترى بريطانيا منفصلة عن الولايات المتحدة ، وجمهورية الأرجنتين منفصلة عن أسبانيا ؟ وربما ذهبنا إلى أن الأمة إنما هى فى الواقع أية جماعة أو خليط أو حشد مضطرب من الناس إما أن يكون منكوبا بوزارة خارجية أو يرغب فى أن يكون منكوبا بوزارة خارجية خاصة به ، حتى تتصرف بكامل جماعتها كأنما كانت حاجاتها ورغباتها وكبرياؤها أشد أهمية من المصلحة العامة للإنسانية بوجه لا مجال للمقارنة فيه .

وقد سبق أن تعقبنا من قبل تطور الملكيات المكيافلية حتى انتقلت إلى حكم وزارات خارجيتها وهى تلعب دور الدول . ولم تكن « القومية » التى تسلطت على الفكر السياسى فى القرن التاسع عشر لتزيد فى حقيقتها عن المبالغات الرومانسية والعاطفية فى التأزم الناتج عن الخلافات بين الخريطة السياسية الطبيعية وبين التنظيمات السياسية غير المناسبة داخل مصالح مثل تلك الدول .

وقد كان يجرى فى أثناء القرن التاسع عشر كله ، وفى نصفه الثانى بوجه خاص ، إنضاج عظيم لهذه القومية فى العالم . أجل إن كل الناس إنما هم بحكم الطبيعة متعصبون محبون لأوطانهم ، ولكن الروح القبيلية الطبيعية للناس فى القرن التاسع عشر ، كانت روحا مبالغاً فيها مبالغة غير طبيعية ، كانت روحا غاضبة منبّهة فوق ما ينبغى كما كانت ملهّبة ومضغوطة قسراً فى قالب القومية .

كانت القومية تعلم فى المدارس ، وتؤكدها الصحف وتُثبت فى نفوس الناس بالتبشير والسخرية والغناء ، حتى غدت أغنية فظيعة سودت وجه كل الشئون الإنسانية . حتى لقد

(١) الجيليين : هم السكان المسمون فى إسكتلندا باسم الهايلنديين ولغتهم هى الجيلية وهى فرع من الكلتيه .

دُفع الناس إلى الشعور بأنهم من غير قومية يكونون من عدم اللياقة على حال من يخرج عارياً على زحمة الناس . وأولعت بالقومية الشعوب الشرقية التي لم تسمع بها أبداً ، مثلما أولعت بسجائر الغرب وقبعاته المستديرة ، حتى لقد أصبحت الهند أمة — وهى ذلك الخليط المكون من متباين الأجناس والديانات والثقافات ما بين دراڤيدية ومغولية وآرية . وبديهى أن الأفراد كانوا يضطربون بين أحوال مرتبكة كما قد يحدث عندما يضطر أحد الشبان اليهود بحى هوايت شابل[1] أن يفصل فى هل هو ينتمى إلى الأمة البريطانية أواليهودية .

ولعبت الصور الساخرة الكاريكاتورية والرسوم الهزلية (الإيجازية)(Cartoons)السياسية دورا كبيراً فى هذا الاستعلاء الذى رفع نحلة تلك الأرباب القبيلية الأحدث عهـداً والأكبر حجما — فالحق أن الأمم العصرية لا تخرج فى الواقع عن ذلك — إلى ما وصلت إليه من عزة وتسلط على خيال القرن التاسع عشر . فلو تصفح أحدنا مجلة (Punck) تلك السجل العجيب المعاصر للنفس البريطانية ، التى تعيش إلى اليوم منذ (١٨٤١) ، لوجد أشكال بريطانيا ، وهيبرنيا[2]، وفرنسا ، وجرمانيا وهى تتعانق وتتنازع وتتعاتب ، وتفرح وتحزن .
ومما ساعد الديبلوماسيين مساعدة عظيمة على مواصلة لعبتهم الخاصة بالدول الكبرى

(شكل ١٩٤) الأرباب القبليون فى القرن التاسع عشر

حملهم السياسة فى شكلها هذا إلى الفطنة العامة المرتابة . فإذا غضب الرجل العامى لأن ابنه أرسل إلى الخارج لكيما يقتل ، أخذوا يوضحون له أنه بدلا من أن يكون ذلك مجرد نتيجة لعناد اثنتين من وزارات الخارجية وشراهتهما ، كان فى الحقيقة جزءاً ضروريا من كفاح

(١) هوايت شابل (White Chapel) : حى من أحياء شرق لندن يقوم به برج لندن .
(٢) Hibernia : الاسم القديم الذى كان الرومان يطلقونه على إرلندة .

هائل يستهدف البر والخير ولا مندوحة عنه بين اثنتين من هذه الذوات القدسية المبهمة الضخمة . لقد أساءت جرمانيا إلى فرنسا ، أو كانت إيطاليا تظهر للنمسا الروح الواجبة .

وكف مقتل الإبن عن أن يكون انتهاكا للعقل والحكمة ؛ واتخذ سمة تشبه سمة ما للرطازات من كرامة . وكان العصيان يستطيع أن يتشح بنفس الثوب الرومانسى الذى تكتسى به الدبلوماسية . فأصبحت إرلنده ربة تشبه « سندرلا » ، وكاثلين نى هوليهان (Cathleen ni Houlihan) ، المنكوبة بالإساءات التى تمزق القلوب والتى لا تمكن اغتفارها . وسمت الهند الفتاة مرتفعة فوق حقائقها بعبادتها باندى ماترام (Bande mataram).

وقد كانت الفكرة الجوهرية لقومية القرن التاسع عشر هى « الادعاء المشروع » لكل أمة بالسيادة التامة ، وهو ادعاء كل أمة بإدارة شئونها الخاصة داخل حدود أراضيها الخاصة . بصرف النظر عن أية أمة أخرى . وكان عيب هذه الفكرة هو أن شئون كل مجتمع عصرى ومصالحه إنما تمتد إلى أقصى أجزاء الأرض فإن الجريمة التى حدثت فى سراجيفو فى ١٩١٤ مثلا ، والتى تسببت عنها الحرب العظمى ، قد ترتب عليها نزول أشد المحن بهنود لبرادور ، لأن تلك الحرب أوقفت الاتجار بالفراء ، الذى يعتمدون عليه فى الحصول على الضروريات من أمثال الذخيرة ، التى لم يكونوا يستطيعون بدونها أن يحصلوا على القدر الكافى من القوت .

وإن عالما من الأمم المستقلة ذات السيادة ليعنى إذن عالما من الإساءات المستديمة ، عالما من دول مستعدة على الدوام للحرب أو مشعلة نارها أبداً . على أنه كان يساير التبشير بتلك القومية ويناقضها دعاوة قوية بين الشعوب الأقوى منّة ، لمجموعة أخرى من الفكرات ، هى فكرات الاستعمار (الأمبريالية) الذى يُسلّم فيه لأمة قوية ومتقدمة ، بالحق فى التسلط على أمم أخرى أقل تقدما أو أمم أو شعوب أقل حظا من التطور السياسى ، لما تتطور قوميتها ، وتتوقع منها الشعوب الكبيرة أن تشكر لها صنيعها فى حمايتها إياها وتسلطها عليها .

وواضح أن هذا الاستعمال لكلمة الأمبريالية إنما هو استعمال مختلف عن معناها العام السابق . فإن الإمبراطوريات الجديدة لم تدّع أنها استمرارا لإمبراطورية روما العالمية . بل هى فقدت آخر الصلات التى تربط بين فكرة الإمبراطورية وبين سلام العالم ..

وهاتان الفكرتان فكرتا القومية ، ثم « الإمبراطورية » بوصفها تاجا على مفرق النجاح القومى — غلبتا على الفكر السياسى الأوربى ، بل غلبتا فى الواقع على الفكر السياسى للعالم فى كل آناء النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وغلبتا عليه حتى نبذتا نبذاً عمليا كل فكرة ذهنية أوسع منهما حول موضوع الخير الإنسانى المشترك . كانتا فكرتين مستحسنتين

وكانتا فكرتين عمليتين غير سليمتين بشكل خطر . ولم تكونا لتمثلا أى شىء جوهرى أو لا يمكن تغييره فى الطبيعة الإنسانية كما أنهما فشلتا فى أن تواجها الحاجات الجديدة للهيمنة العالمية ، والأمن العالمى اللذين جعلتهما الثورة الميكانية كل يوم ألزم وأحتم .

وقد قُبلتا لأن الناس عامة لم تكن لديهم الآراء الجارفة التى تتيحها دراسة التاريخ العالمى ، كما لم يعد لديهم بعد ذلك الخير الشامل الذى تتيحه ديانة عالية . ولم يدرك الناس خطرها على جميع مناهج الحياة اليومية العادية إلا بعد فوات الأوان .

٨ — المعرض الكبير فى ١٨٥١

بعد أن تخطى القرن التاسع عشر منتصفه ، انفجر هذا العالم ، عالم الدول الجديدة والفكرات القديمة ، هذا النبيذ الجديد المختمر فى الزجاجات القديمة للديبلوماسية — مفلتاً من القيود الركيكة الهزيلة التى أنشأتها معاهدة ڤينا — ومنقلباً إلى سلسلة من الحروب . بيد أنه كان من سخرية المصادفات أن سبق مجموعة الاضطرابات الجديدة احتفال سلمى أقيم فى لندن هو المعرض العظيم فى ١٨٥١ ، وهذا المعرض يستحق منا فقرة أو ما إليها .

كان الروح المحرك فى هذا المعرض هو البرنس ألبرت أمير ساكس كوبرج جوثا ، وهو ابن أخى ليوبولد الأول ، الملك الألمانى الذى وضع على العرش البلجيكى فى ١٨٣١ ، والذى كان كذلك خال الملكة الصغيرة ڤيكتوريا الإنجليزية . وكانت اعتلت العرش فى ١٨٣٧ وعمرها ثمانية عشر عاماً . وما لبث الأميران الشابان — وكانا فى سن واحدة — حتى تزوجا فى ١٨٤٠ تحت رعاية قريبهما ، وكان الأمير ألبرت يعرف عند البريطانيين باسم الأمير الزوج (Prince Consort) . كان شاباً ذا ذكاء وافر سليم وتعليم ممتاز غير عادى ، ويلوح أنه صدم صدمة كبيرة بسبب ذلك الركود الذهنى الذى انحدرت انجلترا إليه .

وكانت أوكسفورد وكامبردج ، هذان المركزان المؤتلفان ما زالان تفيقان على بطء من ذلك التدلى الذهنى الذى أصابهما فى أواخر القرن الثامن عشر . ولم يكن عدد الناجحين سنوياً فى شهادة الدراسة الثانوية ليزيد فى أى من الجامعتين عن أربعمئة عداً . وكانت الامتحانات فى معظم أمرها رسميات شفوية ، وإذا استثنينا كليتين فى لندن (هما جامعة لندن) ، وكلية فى ديرهام ، فإن ذلك كان كل التعليم الذى تقدمه انجلترا فى المستوى الجامعى .

وقد كان لابتداهات هذا الأمير الألمانى الشاب المظلوم ، الذى تزوج الملكة البريطانية ، الأثر الأكبر فى إنتاج لجنة الجامعة ١٨٥٠ ، وكانت له من تزكيته إقامة المعرض الدولى الأول

وجهة نظر يرمى بها إلى إيقاظ انجلترا أكثر وأكثر ، وبذلك تتاح الفرصة لعمل موازنة بين المنتجات الفنية والصناعية لدى الأمم الأوربية المختلفة .

على أن المشروع لقى فى انجلترا اعتراضاً مريراً . وتنبأ بعضهم فى مجلس العموم بأن يجتاح الأفاقون والثوريون الأجانب انجلترا ثم يفسدوا أخلاق الناس ويحطموا كل عقيدة وولاء فى البلاد .

وعقد المعرض فى هايدبارك داخل مبنى كبير من الحديد والزجاج ، بنى فيما بعد مرة ثانية تحت اسم قصر البلّور . فأوتى من الناحية المالية نجاحا عظيما . كما جعل كثيراً من الإنجليز يدركون أن بلادهم ليست البلاد الصناعية الوحيدة فى العالم ، وأن الرخاء التجارى ليس احتكارا بريطانيا أمرت به العناية الإلهية . كما تجلت أمام العيون أوضح الشواهد على أن أوربا تتعافى باستمرار مما ألم بها من دمار الحروب النابليونية ، وأنها أخذت تتغلب سريعاً على زعامة البريطانيين فى التجارة والصناعة . وبعد ذلك المعرض مباشرة أنشئت وزارة للفنون والعلوم (١٨٥٣) ، لتدارك ما فات بريطانيا من تأخر فى التعليم ، إن كان إلى دركه من سبيل .

٩ — سيرة حياة نابليون الثالث

أطلق المعرض الكبير فى ١٨٥١ أسار قدر جسيم من الأحاديث والمشاعر الدولية . وكان قبل ذلك قد وجد لسانا يترجم عنه فى شعر الشعراء الشبان من أمثال تنيسون الذى ألقى نظرة نحو آفاق المستقبل حين قال :

« حتى لا تعود طبول الحرب إلى الدق مرة أخرى
وحتى تلتف رايات القتال وتطوى ،
فى برلمان الإنسان وفى دولة العالم المتحدة » .

على أن تلك الرؤيا كانت مبتسرة . فمن دون السلام الظاهرى فى تلك الفترة ، فترة الأسمحية والاستنارة السطحية ، كانت تنبت بذور محصول جديد من المنازعات الدولية . فكانت فرنسا جمهورية أسمحية اسما . ولكن رئيسها كان من أسرة بونابرت وابن أخى نابليون الأول ، كان شخصا ذا دهاء عظيم وإقدام كبير ، وكان مقدراً له أن يجلب على فرنسا وأوربا نوازل تكاد تكبر ما أنزله عمه قبل ذلك بنصف قرن .

ذلك بأنه تهيأ للجمهورية الفرنسية التى حلت محل ملكية آل أورليان فى ١٨٤٨ ، حياة وجيزة مضطربة . وكان يثقلها منذ البداية مقترحات اشتراكية فجّة ترتب عليها قدر كبير

من الاضطراب الاقتصادى وقدر أكبر من القلق فى الأعمال . فأما نابليون بونابرت الجديد — وقد لبس مسوح الأمين على الأممية وملجئها ، الذى تعود على يديه الثقة والذى يقوم بتثبيت أركان الأمور ، فإنه استطاع أن يفوز بالانتخاب لمنصب الرياسة فى أكتوبر من تلك السنة . وأقسم اليمين باعتباره رئيسا بأن يظل مخلصا وفياً للجمهورية الديموقراطية ، وأن يعدّ كل من يحاول أن يغير شكل الحكومة عدوا له . ولم تمض سنتان (ديسمبر ١٨٥٢) حتى غدا إمبراطورا على الفرنسيين .

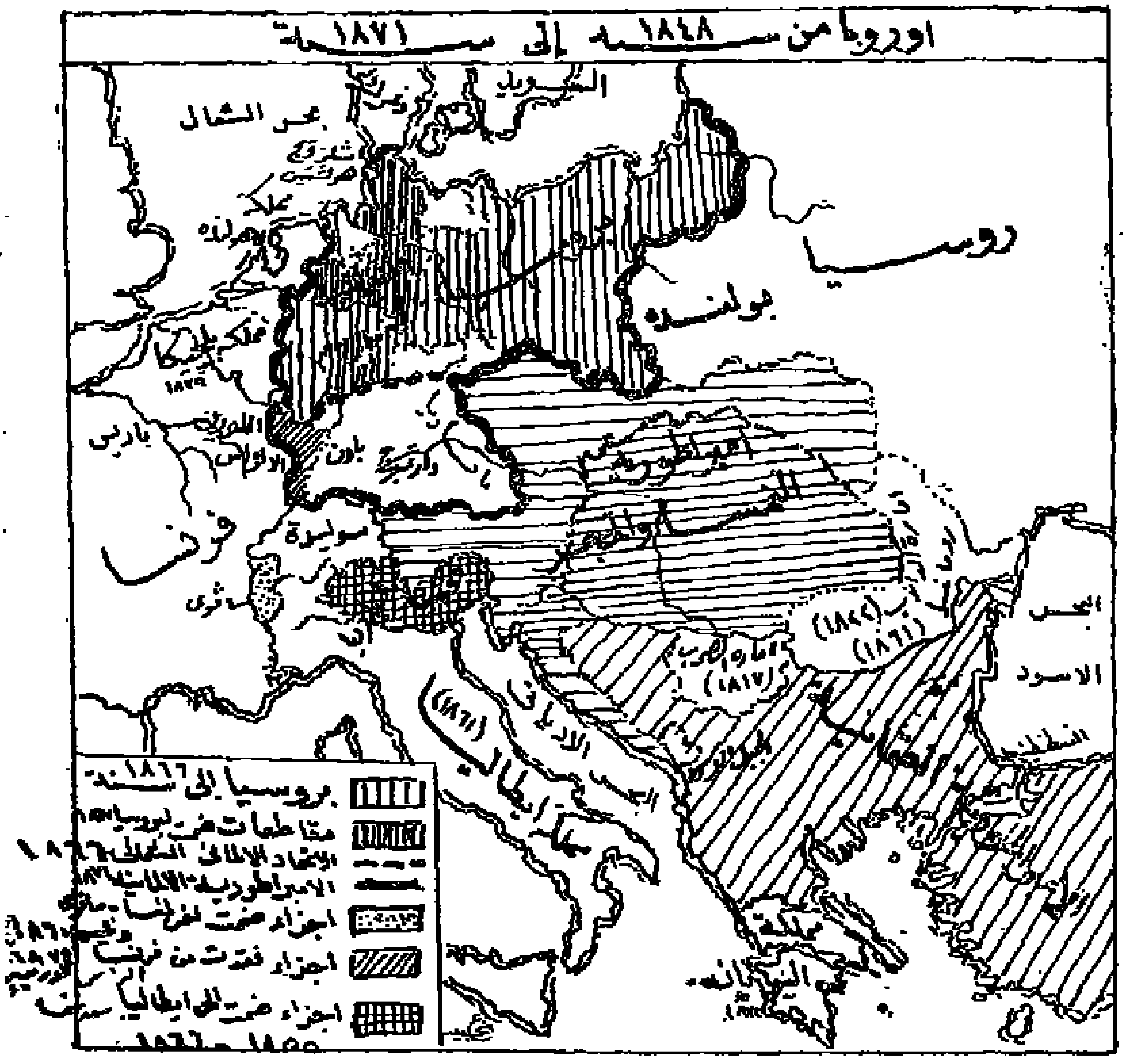

(شكل ١٩٥)

وقد نظرت إليه الملكة ڤكتوريا فى أول الأمر نظرة يخالطها كثير من الارتياب ، أو قل نظر إليه تلك النظرة البارون ستوك مار ، صديق الملك ليوبولد البلجيكى وخادمه ، والحفيظ على الضمير الدولى للملكة البريطانية وزوجها الملكى . وكانت هذه المجموعة من آل ساكس كوبرج جوثا كلها حماسة معقولة كرعة لوحدة ألمانيا وحسن حالها — على أسس من الأممية —

وقد جنحوا إلى الانزعاج من انتعاش آل بونابرت من جديد . غير أن اللورد بلمرستون كان من الجهة الأخرى يعطف على المغتصب منذ البداية ؛ فاستوجب استياء الملكة بإرساله الرسائل الودية للرئيس الفرنسى ، دون أن يعرضها عليها لتفحصها ، وأن يعطيها بذلك المهلة الكافية لاستشارة ستوك مار فيها ، فأجبر على التخلى عن منصبه . على أن البلاط البريطانى ما لبث بعد ذلك أن دار دورة جعلته فى وضع أدنى إلى المودة نحو المغامر الجديد .

وبشرت السنوات الأولى لحكمه بملكية أصحية أكثر منها بسيرة نابليونية ، وبحكومة تقوم على « الخبز الرخيص والأعمال العامة العظيمة والأجازات[1] » ، وقد عبر بحرارة عن عطفه على فكرة القومية ، التى كانت بحكم الطبيعة فكرة مقبولة جداً لدى أى ألمانى ذكى أصحى . وقد حدث أن برلانا وجيز الأمد يمثل ألمانيا كلها التأم فى فرانكفورت فى ١٨٤٨ ، ورفضه فى ١٨٤٩ ملك بروسيا .

وقبل ١٨٤٨ كانت كل البلاطات الأوروبية الكبيرة صاحبة تسوية ڤينا تجتمع على نوع من المحالفة خشية اندلاع ثورة ثانية ديموقراطية أوسع انتشاراً . وبعد إخفاق الحركات الثورية فى ١٨٤٨ وعودة الملكية إلى فرنسا ، ارتفع هذا الخوف ، وأصبح الجميع أحراراً فى أن يرجعوا إلى ما كانوا فيه من تدبير الخطط وأضدادها شأنهم فى الأيام السابقة على ١٧٨٩ — بالجيوش والأساطيل الأكثر قوة والأضخم عدداً التى أتاحها لهم الطور النابليونى الأول . وابتدأت من جديد لعبة الدول الكبرى فى حمية ونشاط ، بعد فترة دامت ستين عاماً ، واستمرت حتى أنتجت كارثة ١٩١٤ .

وسار نابليون الجديد على حذر ردحاً من الزمان . وكان نقولا الأول قيصر الروسيا هو الذى قام بالخطوة الأولى نحو الحرب . فإنه عاد إلى الطمنة التقليدية طمنة بطرس الأكبر نحو القسطنطينية . واخترع نقولا كلمة « رجل أوربا المريض » يطلقها على السلطان ، وإذ وجد عذراً يتكىء عليه فى سوء إدارة الدولة حيال السكان المسيحيين فى الإمبراطورية التركية ، فإنه احتل الإمارات الدانوبية فى ١٨٥٣ .

كان ذلك نكسة دولية حقيقية . فإن الدبلوماسيين الأوربيين وجدوا أنفسهم حيال « مسألة » من طراز القرن الثامن عشر بالضبط . وكان مفهوماً أن خطط روسيا تصطك بمرامى فرنسا فى سوريا ، وتهدد طريق بريطانيا العظمى إلى الهند عبر البحر الأبيض ، وكانت

(١) نقلا عن ألبرت توماس فى للوسوعة البريطانية .

النتيجة هى قيام محالفة بين فرنسا وانجلترا تعضيداً لتركيا ، وشبت حرب هى حرب القرم انتهت بطرد الروسيا . وربما زعم المرء أن الحد من تصرفات الروسيا كان أحرى به أن يكون من عمل ألمانيا والنمسا ، ولكن شهوة وزارتى الخارجية فى فرنسا وانجلترا إلى إحراق أصابعهما فى الشئون الروسية كانت على الدوام شهوة لاسبيل إلى كبح جماحها . ووجد نابليون الجديد فى هذه الحرب فرصة يقوى بها روابط صداقته غير الوطيدة مع بريطانيا والبلاط البريطانى ، الذى كان حتى ذلك الحين يترفع عليه .

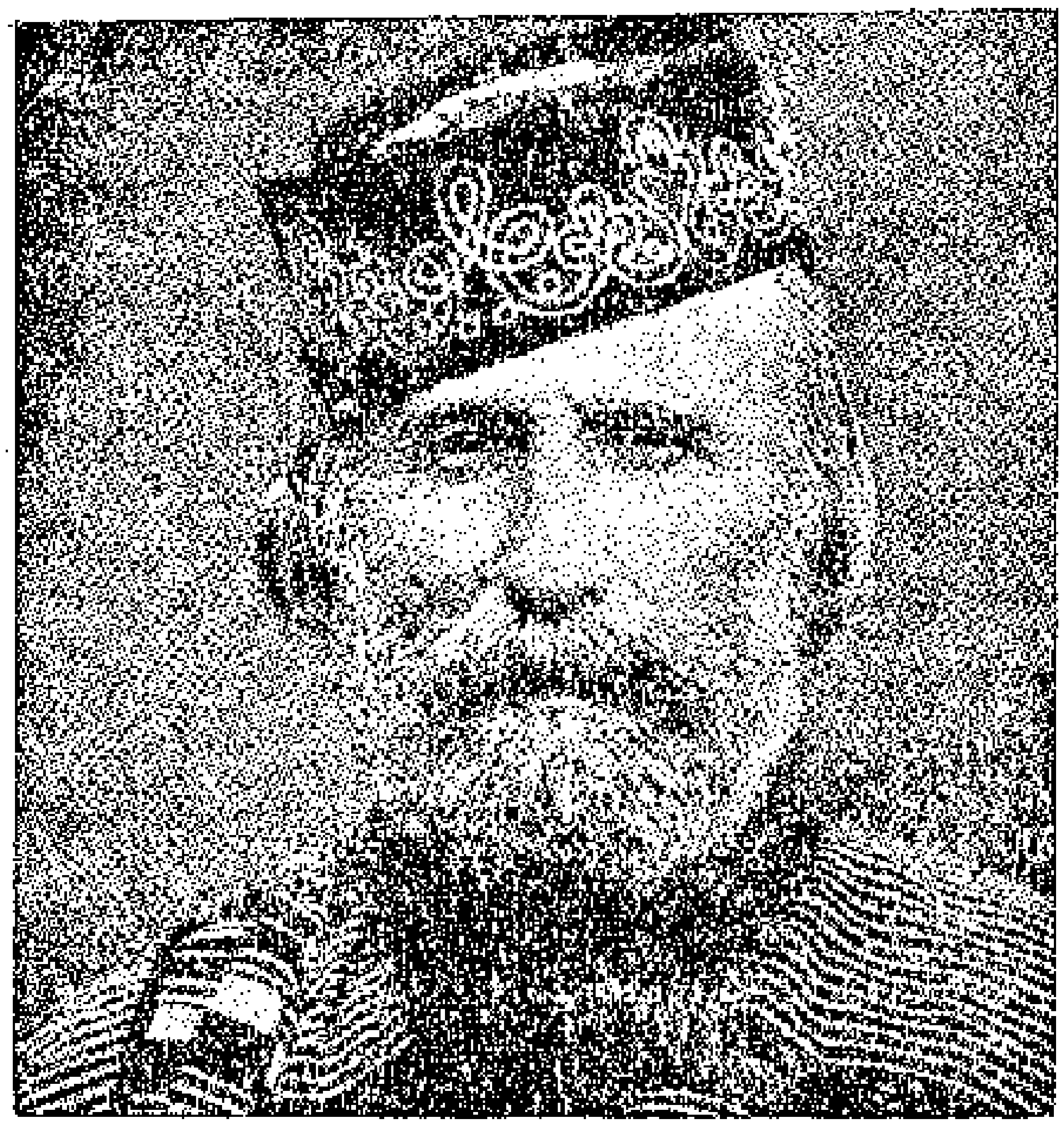

(شكل ١٩٦) غاريبالدى

والطور الهام الثانى من أطوار هذا الانتعاش فى مسرحية الدول الكبرى ، كان استغلال الإمبراطور نابليون الثالث وملك سردينيا الصغيرة بشمال إيطاليا ، لما تنطوى عليه حالة إيطاليا الممزقة من متاعب وشقاوات ، وبوجه خاص للحكم النمسوى فى الشمال . وقام ملك سردينيا فكتور عمانويل بصفقة من صفقات الزمان القديم للحصول على مساعدة نابليون مقابل ولايتى نيس وساقوى ، اللتين تأخذهما فرنسا ، على أن تجازى سردينيا على ذلك فى إيطاليا . وما لبثت الحرب حتى شبت بين فرنسا وسردينيا من جهة والنمسا من جهة أخرى فى ١٨٥٩ ، وانتهت فى بضع أسابيع . فهزم النمساويون هزيمة منكرة فى ماجنتا وسلفرينو . وعمد نابليون إلى عقد الصلح لأن بروسيا هددته على نهر الرين ، وبذلك ترك لسردينيا غنيمة عظيمة هى لومباردى .

وكانت الحركة الثانية فى لعبة فكتور عمانويل ووزيره الأول كافور حركة ثورية فى صقلية يقودها الوطنى الإيطالى العظيم غاريبالدى . وحررت صقلية ونابولى ، وانتقلت إيطاليا بأجمعها إلى يد ملك سردينيا فيما عدا روما (التى ظلت على ولائها للبابا) وسقطت البندقية (التى كانت فى يد النمسويين) فى قبضة ملك سردينيا . واجتمع فى تورينو برلمان إيطالى عام فى ١٨٦١ ، وبذلك أصبح فكتور عمانويل أول ملك لإيطاليا .

ولـكن انتقل حينذاك مركز الاهتمام فى لعبة هـذه الدبلوماسية الأوربية إلى ألمانيا . وكان معقول الخريطة السياسية الطبيعية ومنطقها قد أخذ قبل ذلك يقوم على حقه ويدفع عنه . ففى ١٨٤٨ اتحدت كل ألمانيا بما فى ذلك بالطبع النمسا الألمانية ردحاً من الزمان تحت ظلال

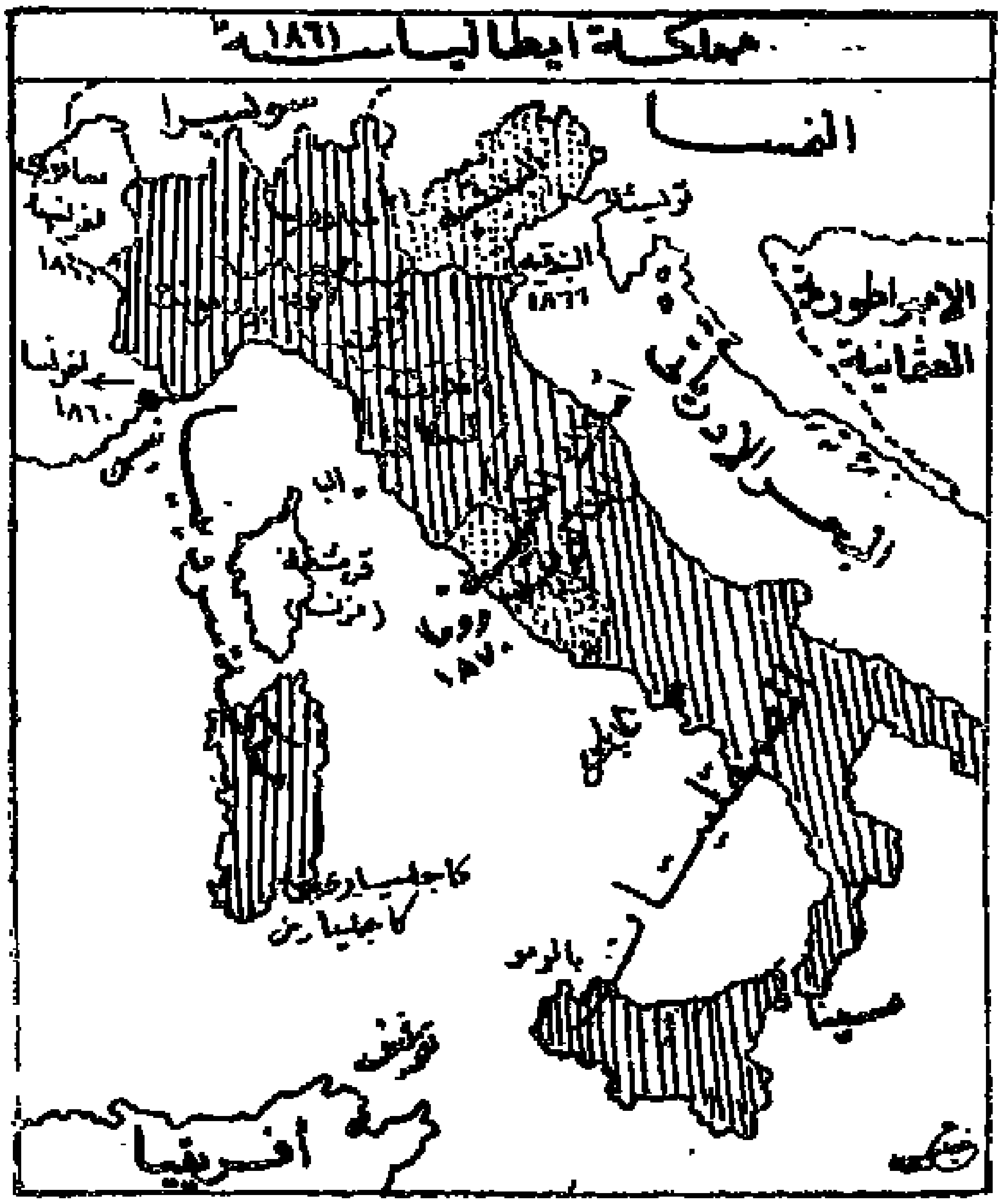

(شكل ١٩٧)

برلمان فرنكفورت . ولـكن هذا النوع من الاتحاد كان مزعجاً لـكل البلاطات ووزارات الخارجية الألمانية بنوع خاص ؛ فإنهم لم يكونوا يرغبون فى قيام ألمانيا متحدة بإرادة أهلها ، بل يريدون أن تتحد ألمانيا بواسطة جهود الملوك والدبلوماسيين كما اتحدت إيطاليا .

وفى (١٨٤٨) أصر البرلمان الألمانى على أن ولايتى شلزويج ، وهولشتين الألمانيتين فى معظم أمرها ، اللتين كانتا عضوين فى الحلف الألمانى ، لابد أن تنتميا إلى ألمانيا . وأمر الجيش البروسى باحتلالها ، فأبى ملك بروسيا أن يتلقى الأوامر من البرلمان الألمانى ، وبذلك عجّل بتداعى تلك الهيئة . وعندئذ أقبل ملك الدانيارك كريستيان التاسع لا لسبب معقول سوى ما فطر عليه الملوك من حماقة ، فأقدم على حملة معكرة لصفو الألمان فى هاتين الدوقيتين . وكانت شئون بروسيا آنذاك موكولة فى غالب الشأن إلى وزير من طراز القرن السابع عشر ، هو

فون بسمارك (لقّب كونتاً فى ١٨٦٥ وأميراً فى ١٨٧١) ورأى فى هذا الخلاف فرصاً ذهبية يجب انتهازها . فأصبح نصير القومية الألمانية فى هاتين الدوقيتين — ولزام عليك أن تتذكر أن ملك بروسيا رفض أن يقوم بهذا الدور لحساب ألمانيا الديموقراطية فى ١٨٤٨ — وأقنع النمسا بأن تنحاز إلى بروسيا وتتدخل تدخلا عسكريا .

(شكل ١٩٨) بسمارك

ولم تكن أمام الدانيمارك أية فرصة إزاء هاتين القوتين الكبيرتين . فهزمت فى سهولة وأجبرت على التخلى عن هاتين الدوقيتين .

وعند ذلك تلمس بسمارك خلافاً مع النمسا فى شأن امتلاك هاتين المقاطعتين الصغيرتين . ولذا أحدث حرباً لا ضرورة لها ، يقتل فيها الألمانى أخاه ، ولم يكن يرمى بها إلا إلى استجلاب المجد العظيم إلى بروسيا وإلى رفعة آل هوهنزولرن فى ألمانيا . ثم وحد بين أجزاء ألمانيا بزعامة آل هوهنزولرن البروسيين . ولقد يذهب الكتاب الألمان ذوو الاتجاه الذهنى الرومانسى ، إلى تمثيل بسمارك على صورة رجل دولة عظيم يدبر خطة وحدة ألمانيا ؛ ولكنه لم يكن فى الواقع يقوم بأى شىء من ذلك القبيل . فإن وحدة ألمانيا كانت حقيقة واقعة فى ١٨٤٨ . كانت ومازال جزءاً من طبيعة الأشياء . ولم تكن الملكية البروسية تفعل شيئاً إلا مجرد تأخير ما لا مندوحة عنه ، لكى تبدو صاحبة الفضل فى إحرازه على الطريقة البروسية . ولهذا السبب حدث أنه عند ما توحدت ألمانيا آخر الأمر ، فإنها بدلا من أن تتخذ هيئة شعب عصرى ممدن ، قدمت نفسها للعالم ، بوجه ذلك البسمارك العتيق البالى ذى الشارب المستحد ، والحذاء الطويل الضخم والخوذة ذات الأسلة والسيف .

وفى هذه الحرب بين بروسيا والنمسا كانت إيطاليا ظهيرة لبروسيا ، على حين كان غالب الولايات الألمانية الأدنى شأناً ، والتى تخاف خطط بروسيا ، تقاتل فى صفوف النمسا .

وطبيعى أن يرغب القارىء فى أن يعرف لماذا لم يلتقط نابليون الثالث لصالحه الخاص هذه المناسبة البديعة الموائمة لصناعة السياسة ، ويدخل الحرب ؟ وكانت كل قواعد لعبة الدولة الكبرى تطالب بضرورة دخوله . فإنه كان يسمح لمنافس خطر لفرنسا أن ينهض فى أوربا على صورة بروسيا . وكان ينبغى له أن يقوم بشىء ما للحيلولة دون ذلك . ولكن نابليون كان لسوء حظه واضعاً أصابعه فى مصيدة على الجانب الآخر من الأطلسى ، ولم يكن فى مركز يسمح له أن يتدخل .

(شكل ١٩٩) نابليون الثالث

فقد أغرته أمريكا إغراء مؤلماً . فإن الشقاق بين مصالح ولايات الجنوب والشمال فى اتحاد أمريكا الشمالية ، ذلك الخلاف الراجع إلى الفوارق الاقتصادية القائمة على الرقيق ، أدى آخر الأمر إلى الحرب الأهلية الصريحة . وسنعالج فى قسمنا التالى موضوع هذه الحرب الأهلية ببيان أوفى . ولن نزيد هنا عن القول بأنها دامت أربع سنوات ، وانتهت آخر الأمر بالولايات المتحدة وقد عاد إليها اتحادها . وشمل الفرح كل عناصر الرجعية فى أوربا أثناء سنوات الخلاف الأربع هذه . وانضمت الأرستقراطية البريطانية صراحة مع الولايات الجنوبية المختلفة ، وسمحت الحكومة البريطانية لسفن حربية كثيرة يملكها أفراد بأعيانهم كما سمحت للسفينة الالاباما بوجه خاص بأن تصنع وتنزل إلى البحر فى انجلترا لمهاجمة سفن الولايات المتحدة .

وكان نابليون الثالث أشد هوجا واندفاعا بزعمه أنه مهما يكن من شىء فإن العالم الجديد

قد سقط أمام القديم . وكانت الولايات المتحدة حظرت حتى ذلك الحين كل تدخل أوربى فى قارة أمريكا . وكانت تلك على وجه الإجمال قاعدة ثابتة للسياسة الأمريكية . وكانت الجنّة الواقية التى هى مبدأ مونرو ، قد ألقيت آنذاك جانباً إلى الأبد فيما خاله نابليون ، وبذا جاز للدول الكبرى الآن أن تتدخل ، مرة ثانية فى أمريكا ، وأن تعود بركات الملكية المغامرة سيرتها الأولى هناك

والتمست المعاذير للتدخل . . . فوُجدت فى بعض التصرفات المتخذة حيال أملاك الأجانب من رئيس جمهورية المكسيك . واحتلت بعثة عسكرية مشتركة من الفرنسيين والبريطانيين والأسبان ثغر ڤيرا كروز ، على أن مشروعات نابليون كانت أجرأ من أن يطيقها حلفاؤه ، فانسحبوا عند ما اتضح لهم أنه لم يكن يدبر شيئاً يقل عن تأسيس إمبراطورية مكسيكية . وقد توصل إلى ذلك فعلا بعد الشيء الكثير من القتال العنيف ، جاعلا الأرشيدوق ماكسمليان النمسوى إمبراطوراً على المكسيك فى ١٨٦٤ . على أن القوات الفرنسية ظلت مع هذا متملكة البلاد تملكا فعلياً ، وانهال إلى بلاد المكسيك حشد من المغامرين الفرنسيين بُغية استغلال مناجمها ومواردها .

إلا أن الحرب الأهلية انتهت فى الولايات المتحدة فى أبريل ١٨٦٥ ، ووجدت الفئة القليلة من الأوربيين المتلهفين المتملكين للمكسيك ، نفسها تواجه حكومة الولايات المتحدة المظفرة وهى فى حالة تجهم وعبوس تام ، وبين يديها جيش عظيم ينذر منظره بالشر . وخُير الاستعماريون الفرنسيون تخييراً صريحاً بين الحرب مع الولايات المتحدة أو الانسحاب من أمريكا . والواقع أن هذه كانت إشارة تلوح لهم بالرحيل . تلك هى الورطة التى حالت بين نابليون الثالث وبين التدخل فيما بين بروسيا والنمسا فى ١٨٦٦ ، وكان هذا هو السبب الذى من أجله عجّل بسمارك بنزاعه مع النمسا .

وعلى حين كانت بروسيا تقاتل النمسا كان نابليون الثالث يحاول أن يخرج بكرامته من مآزق المكسيك الشائكة . فاخترع خلافا حقيراً على مسائل مالية مع ماكسمليان وسحب الجنود الفرنسية . وكان الواجب يقضى على ماكسمليان حسب كل قواعد الملكية أن يتنازل عن العرش . ولكنه بدلا من ذلك ، أخذ يقاتل من أجل إمبراطوريته . فهزمه رعاياه المعاندون وقبضوا عليه وأعدموه فى ١٨٦٧ رمياً بالرصاص بوصفه مصدراً للقلق العام . وبذا أعيد سلام الرئيس مونرو إلى العالم الجديد .

وبينما كان نابليون مشغولا فى مغامرته الأمريكية الفاشلة ، كانت بروسيا وإيطاليا

يختطفان النصر على النمسويين (١٨٦٦) . حقاً إن إيطاليا أصيبت بهزيمة شديدة فى كاستوزا وفى معركة ليسّا البحرية ، ولكن الجيش النمسوى بلغ من الانحطام على يد البروسيين فى معركة سادوّا أن سلمت النمسا تسليما ذليلا . وكسبت إيطاليا مقاطعة البندقية ، وبذلك خطت خطوة أخرى جديدة نحو الوحدة — ولم تبق خارج المملكة إلا روما وتريستا ومدن قليلة صغيرة على الحدود الشمالية ، والشمالية الغربية — وأصبحت بروسيا رأساً لاحتلاف(١) ألمانى شمالى أخرجت منه بافاريا ، وورتنبرج وبادن ، وهيس والنمسا .

وترتب على انتصار بروسيا هذا وعلى قمع النمسا الذى ترى ، بوصفها على الأقل الرأس الاسمى للأمور الألمانية ، وعلى هذه الرجعة لسلطان مملكة فردريك الكبير — أن أصبحت بروسيا وفرنسا وجها لوجه . وأصبح من الأمور الواضحة أنهما ستشتبكان فى منافسة عظيمة ، وهى منافسة قُدر لها أن تنتج آخر الأمر أعظم الحروب وأشدها تدميراً وإفساداً على مر التاريخ . لم يكن الأمر إلا أمر زمن لا بد أن تصطك بعده ألمانيا وفرنسا . وكان كل من الطرفين يعد العتاد الحربى ، ولكن بروسيا تفوقت على فرنسا فى أن لديها مدرسين خيراً من مدرسيها ومستوى من الطاعة والكفاية أعلى مما لدى فرنسا .

وكادت الحرب أن تنشب فى ١٨٦٧ ، يوم حاول نابليون بمجرد أن أفلت من المكسيك أن يثير مع بروسيا خلافا على مسألة لوكسمبرج . ثم وافت الحرب فى ١٨٧٠ على أسس تمت إلى القرن الثامن عشر بأوثق الأسباب ، بسبب منازعة حول المرشحين لعرش أسبانيا الشاغر . وكانت تساور نابليون فكرة ما مستترة فى قرارة ذهنه بأن النمسا وبافاريا وورتمبرج والولايات الأخرى فى خارج الاحتلاف الألمانى الشمالى سوف تنحاز إليه ضد بروسيا . ولعله ظن أن ذلك لابد أن يحدث لأنه أراده أن يحدث . ولكن الألمان منذ ١٨٤٨ ، كانوا فى روحهم من ناحية موضوع التدخل الأجنبى شعباً متحداً ، وكان كل ما عمله بسمارك أنه فرض ملكية أسرة هوهنزولرن ، فى جو من الفخامة والرسميات وسفك الدماء ، على حقائق قد تحققت . وانحازت ألمانيا كلها إلى بروسيا ضد فرنسا .

وفى أوائل أغسطس ١٨٧٠ اجتاحت القوات الألمانية المتحدة فرنسا . وأثبتت أنها خير من الفرنسية فى عددها ونظامها وعتادها وقيادتها . وكان انهزام فرنسا سريعا تاما .

وبعد معركتى ورث (Worth) وجرافيلوت ، اضطر جيش فرنسى بقيادة بازين (Bazaine)

---

(١) احتلاف (Confederation) : هو اتحاد مفكك تحتفظ فيه كل ولاية باستقلالها الداخلى والخارجى .

أن يرتد إلى داخل متز ثم أحيط به هناك ، وفى أول سبتمبر اضطر جيش آخر كان معه نابليون ، أن يسلم بعد أن هزم فى سيدان . وأخذ نابليون أسيرا . ووجدت باريس نفسها مكشوفة أمام الغزاة . وللمرة الثانية خذلت الوعود النابليونية فرنسا خذلانًا ماحقا .

وفى اليوم الرابع من سبتمبر أعلنت فرنسا نفسها جمهورية من جديد ، وإذ عادت إليها فتوتها على هذه الشاكلة ، فإنها استعدت للقتال من أجل البقاء ضد البروسية المظفرة . ذلك أنه ، مع أن ألمانيا التى تغلبت على الروح الإمبراطورية الفرنسية كانت ألمانيا المتحدة ، فقد كانت بروسيا منها على صهوة السرج . وسلم الجيش المحصور فى متز فى أكتوبر . وخضعت باريس بعد حصار وبعد ضربها بالقنابل فسلمت فى يناير ١٨٧١ ، والتمست فرنسا الصلح . وهناك فى قاعة المرايا بقصر فرساى بين مظاهر الأبهة والاحتفال الرسمى ووسط تشكيلة عظيمة من البدلات العسكرية نودى بملك بروسيا إمبراطورًا لألمانيا ، ووقف بسمارك وسيف آل هوهنزولرن يدعيان الفضل فى تلك الوحدة الألمانية التى طالما أكدها منذ زمن مديد لغة مشتركة وأدب مشترك .

وكان صلح فرانكفورت الذى عقب ذلك صلحا لآل هوهنزولرن . وكان بسمارك قد أفاد من شعور ألمانيا القومى واستغله فى الحصول على عون الولايات الألمانية الجنوبية ، ولكن لم تكن له سلطة على القوى الضرورية التى حبته وحبت سيده الملكى بالنصر . فإن القوة التى دفعت ألمانيا إلى النصر كانت قوة خريطة أوربا السياسية الطبيعية المصرة على وحدة الشعوب الناطقة بالألمانية . وكانت ألمانيا فى الناحية الشرقية ترتكب من قبل الخطايا ضد الخريطة الطبيعية بإدارتها لبوزن ولنواح بولندية أخرى . والآن وقد أعماها الشره إلى الأراضى وبوجه خاص إلى مناجم الحديد ، فإنها ألحقت بها قدراً جسيما من اللورين الناطقة بالفرنسية بما فى ذلك متز ، والألزاس التى كانت بالرغم من لغتها الألمانية فرنسية العاطفة فى غالب شأنها . ولم تكن ثمة مندوحة من أن يحدث التصادم بين الحكام الألمان والرعايا الفرنسيين فى هذه الولايات المستلحقة . وكان لا مندوحة من أن تتردد ظلامات ومرارة فرنسا المقهورة ومذلة اللورين مدوية الصدى فى باريس وأن تجعل غضب فرنسا الشديد مضطرما محتدما على الدوام . وسوف نقص عليك فيما بعد كيف تأجج هذا متسعرا فى لهيب انتقام عظيم . وأخفى نابليون الثالث رأسه المتداعية فى انجلترا ، ومات هناك بعد انهياره بسنة أو مايقاربها . وهكذا انتهت الدولة البونابرتية الثانية بفرنسا .

١٠ — لنكولن والحرب الأهلية فى أمريكا

مما يريح الفؤاد أن ينتقل الإنسان من هـذا المغامر البونابرتى ومن أعماله التى جلبت الكوارث على فرنسا، ومن النصر المؤقت الذى أحرزه آل هوهنزولرن على الحركة الشعبية فى ألمانيا، — إلى شخص أعظم تماماً وأكبر أهمية وأبلغ قيمة، هو شخص أبراهام لنكولن الذى يمكن أن تجمع حوله بغاية اليسر والراحة حوادث الحرب الكبرى الأهلية فى أمريكا.

وقد كان النصف الأول من القرن التاسع عشر الذى هو عصر رجعية وانتعاش فى أوربا، كان فى أمريكا فترة من فترات النمو الباذخ المسرف. فإن وسائل المواصلات الجديدة وأعنى بها الزورق البخارى والسكة الحديدية ثم التلغراف الكهربائى الذى عقبهما من فوره، جاءت فى أشد الأوقات مناسبة لدفع السكان قُدما عبر القارة. ولولا هذه الوسائل الميكانية المساعدة فلربما لم تصل الولايات المتحدة غربا حتى فى يومنا هذا إلى ما يتجاوز جبال روكى وربما كان شعب يخالف من نرى تمام المخالفة يكون هو المتملك على الشاطىء الغربى.

ولا يزال أمراً لا يفهمه السياسيون إلا فهما أبتر قاصراً، مسألة إلى أى حد تبلغ درجة اعتماد المساحات المحوطة بالحدود الحكومية والإدارية على وسائل المواصلات المستعملة وعلى خصيصة القطر بالعلاقة إلى النقل. فإن الوديان المفتوحة إذا أتيحت لها الطرق والكتابة، تنزع إلى الارتباط فى ظل حكومة واحدة. فأما الحواجز الجبلية فما كانت لتفصل الشعوب فحسب بل الحكام؛ وكانت الإمبراطورية الرومانية إمبراطورية طريق سلطانى وعجلة[1] وكان تقسمها وتفرقها وسقوطها راجعاً إلى استحالة إقامة مواصلات سريعة بين الجزء منها والجزء. وكانت أوربا الغربية التى خرجت من غمرة العاصفة النابليونية، مقسمة إلى دولات قومية، لعلها وصلت إلى أقصى اتساع تستطيع أن تبلغه دون فقدان التماسك، على حين كانت قوة جر الحصان على الطرق أسرع وسائل الارتباط لديها.

فلو أن سكان الولايات المتحدة انتشروا فوق القارة الأمريكية وليس لديهم إلا جر الحصان، والطريق الخشن الوعر وكتابة الرسائل، وسيلة لترابطهم بعضهم ببعض، فإنه يلوح أمراً لا مندوحة منه أن الفوارق فى الأحوال الاقتصادية المحلية كانت لا بد متطورة فمنتجة طرزاً اجتماعية مختلفة، وأن الافتراق الفسيح كان لا بد له من أن يقوى فروقا فى اللهجات وأن يزيل التعاطف، وأن العناء الذى يقاسيه من يريد حضور جلسات الكونجرس

---

(١) طريق سلطانى (High-road): أى طريق كبير بين المدن والأقطار.

بواشنطون، كان لا بد مزداداً مع كل تقدم للحدود صوب الغرب ، حتى يتراى الأمر بالولايات إلى التفرق فى عصبة منحلة العرى مكونة من أمم متباعدة مستقلة تقريباً . وإذن لكانت الحروب على الثروة المعدنية والمنفذ إلى البحر وما إليها ، تعقب ذلك ولا مناص ، وكانت أمريكا تغدو أوربا أخرى .

(شكل ٢٠٠) لنكولن وحفيده

غير أن الزورق البخارى النهرى ، والسكة الحديدية والتغراف ، وصلت فى أوانها لمنع هذا التفرق ، وأصبحت الولايات المتحدة هى الأولى فى طراز جديد من الدولة ذات النقل

العصرى ، وهى أكبر تماماً وأشد قوة وأبلغ إدراكا لوحدتها من أية دولة رآها العالم من قبل . إذ أن النزعة السائدة اليوم فى أمريكا ليست إلى التفرق والتباعد بل التمثل ، حتى ليزداد المادنون فى الأجزاء المختلفة من الولايات لا اختلافا بعضهم عن بعض بل اتفاقا فى الحديث والفكر والعادة . حقاً إن الولايات المتحدة لا تقارن بدولة أوربية مثل فرنسا وإيطاليا . بل إنها طراز من التنظيمة السياسية أجد عهداً وأكبر حجما .

وقد جاءت فى العالم إمبراطوريات تضاهى فى المساحة وعدد السكان الولايات المتحدة ، ولكنها كانت مجرد تجمع من شعوب دافعة للجزية لا يوحدهم شىء إلا حكومة من الحكومات . فأما وحدة الولايات المتحدة ففطرية . فهى مجتمع قائم على اتجاه ذهنى لشعب يربو على مئة مليون من الناس . فالسكك الحديدية التى زادت منازعات أوربا ومشاحناتها حدة ، والمخترعات التى أنقصت مسافة الضربة التى تضربها الجيوش الأوربية ، وأتاحت لهم قوى مدمرة تزداد على مر الأيام ، إلى حد أنه يلوح الآن أنه لا اختيار أمام أوربا الغربية بين التوحيد طوعا أو كرها تحت سلطان إحدى الدول الغالبة ، وبين الفوضى والدمار ، هذه السكك الحديدية ، وهذه المخترعات قد مكنت ورسخت الوحدة الحرة لأمريكا الجمهورية . وقد اجتلب البخار على أوربا الاحتقان وجلب لأمريكا الفرص السوانح .

ولكن الشعب الأمريكى مر فى طريقه إلى هذه العظمة الراهنة والأمنة الحاضرة ، فى دور من أدوار النزاع الرهيب . ذلك أن الزوارق البخارية النهرية والسكك الحديدية ، والتلغراف ، وما أشبهها من تسهيلات ، لم تصل بالسرعة التى تمكنها من تجنب النزاع المتزايد عمقاً ، فى المصالح والفكرات بين الولايات الجنوبية المالكة للرقيق وبين الشمال الصناعى الحر . بل الواقع أن الزوارق البخارية والسكك الحديدية لم تتم فى مبدأ الأمر إلا زيادة أوار وعنف الفارق الثابت من قبل والراسخ من قبل . كان هناك فارق عميق فى الروح بين قسمى الولايات المتحدة ، وترتب على تزايد توحيد البلاد الناجم عن وسائل النقل الجديدة ، أن أصبحت مسألة هل يسود روح الشمال أو روح الجنوب ، ذات خطورة تزداد على الدوام . وكان الأمل فى التقارب والصلح ضئيلا . فإن الروح الشمالى كان روحاً حراً فردياً ؛ واتجه الروح الجنوبى إلى الضياع الكبيرة وإلى سادة مدركة لنفسها تحكم حشداً أسمر خاضعاً من الرعايا . وكانت عواطف الراديكاليين والأسمحيين البريطانيين منضمة إلى أهل الشمال ؛ بينما كانت عواطف أصحاب الأملاك البريطانيين والطبقة الحاكمة البريطانية منحازة إلى أهل الجنوب .

وأصبحت كل قطعة من الأرض تنظم فى شكل ولاية ، وكل إضافة جديدة إلى المجموعة

الأمريكية السريعة النمو ، ميداناً للنزاع بين الفكرتين ، فهل يجب أن تكون ولاية من الميادين الأحرار أم ينبغي أن يشملها نظام الضياع الكبيرة ذاك ؟ وتدرجت نقطة النزاع هذه ببطء حتى تسلطت على الشئون الأمريكية بعد تأسيس ولاية مسورى فى ١٨٢١ وأركنساس فى ١٨٣٦ بوصفهما ولايتين تملكان الرقيق . ومنذ ١٨٣٣ كانت هناك جمعية لمنع الرقيق لم يقتصر أمرها على مقاومة التوسع فى ذلك النظام ، بل كانت تحرك البلاد من أقصاها إلى أقصاها بغية إلغائه إلغاء تاماً . واستمر الخلاف نزاعاً حول إدخال تكساس إلى حظيرة الاتحاد . وكانت تكساس فى الأصل جزءاً من جمهورية المكسيك ، ولكن كان معظم من يستعمرها أمريكيين من الولايات المتملكة للرقيق ، فانفصلت عن المكسيك وأسست استقلالها فى ١٨٣٦ . وعقب ذلك اضطراب قوى من أجل استلحاق تكساس ، وألحقت تكساس فى ١٨٤٤ ، وأدخلت ولاية فى الاتحاد فى ١٨٤٥ . وكان الرقيق محظوراً فى تكساس فى ظل القانون المكسيكى ، ولكن الجنوب طالب الآن بتكساس من أجل الرقيق وحصل عليها .

زد على ذلك أن الحرب التى شبت بينهم وبين المكسيك بسبب استلحاق تكساس ، أدت إلى إضافة نيومكسيكو ومساحات أخرى إلى الولايات المتحدة ، وفى هذه المناطق كذلك كان الرقيق مباحا وصدر قانون العبدان الآبقين فزاد فى كفاية وسائل إمساك العبدان الذين يهربون إلى الولايات الحرة وإعادتهم . وفى نفس الوقت كان تطور فن الملاحة فى المحيطات يجتلب أسرابا متزايدة من المهاجرين من أوربا يزيدون فى عدد سكان الولايات الشمالية الآخذين فى الانتشار ، وأدى رفع إيووا ، وويسكونسين ، ومينيسوتا ، وأريجون ، وهى كلها أراضى مزارع شمالية ، إلى مرتبة الولايات إلى منح الشمال المعارض للرقيق إمكان التسلط فى كل من مجلسى الشيوخ والنواب . وإذ ثارت ثائرة الجنوب الزارع للقطن لهذا التهديد المتزايد الذى يصدر عن حركة الداعين إلى التحريم ، وإذ خشى هذا التسلط فى الكونغرس ، فإنه راح يتكلم فى الانفصال عن الاتحاد ، وشرع أهل الجنوب يحلمون الأحلام بضم ما يقع جنوبيهم من أراضى فى بلاد المكسيك وجزائر الهند الغربية ، وبدولة عظيمة للعبدان منفصلة عن الشمال وممتدة من خط ماسون وديكسون إلى بناما .

وأصبحت كنساس مسرح البت النهائى فى الأمر . فإن الكفاح على الرقيق غمر منطقة كنساس فيما أوشك أن يكون حرباً أهلية بين المستقرين فيها من أهل الولايات الحرة والمهاجرين إليها من أهل ولايات الرقيق ، وهى حرب استمرت حتى ١٨٥٧ وانتهت بفوز المستقرين أنصار منع الرقيق . ولكن كنساس لم ترفع إلى درجة ولاية حتى ١٨٦١ . وكان

التوسع فى الرقيق هو نقطة الخلاف الرئيسية المطروحة على البلاد فى انتخابات الرياسة فى ١٨٦٠ ، وكانت عودة أبراهام لينكولن بوصفه رئيساً مناهضاً للتوسع ، عاملا حاسماً حفز الجنوب على أن يقرر فصم عرى الوحدة .

فأصدرت كارولينا الجنوبية مرسوماً بالانفصال واستعدت لخوض غمار الحرب . وانضمت إليها فى أوائل ١٨٦١ ولايات مسيسبى وفلوريدا وألاباما وجورجيا ولويزيانا وتكساس ، واجتمع مؤتمر فى مونتجومرى بولاية ألاباما ، واختار جيفرسون دافيز رئيساً لولايات أمريكا الاحتلافية وتبنى دستوراً يشابه دستور الولايات المتحدة ولكنه كان يؤيد بنوع خاص نظام استرقاق الزنوج .

ذلك هو الموقف السياسى الذى دعى أبراهام لينكولن لمعالجته باعتباره رئيساً للاتحاد . وكان بمحض الصدفة رجلا نموذجياً تماماً للشعب الجديد الذى نما بعد حرب الاستقلال . وكان أهله أناسا من العاديين تماماً ، فلم يكن أبوه ليعرف القراءة أو الكتابة إلا بعد زواجه ، وكانت أمه فيما يقال ابنة غير شرعية . وكانت امرأة أوتيت عقلية وأخلاقا استثنائية غير اعتيادية .

وقد قضى سنيه الأولى بوصفه جزيئاً صغيراً يتنقل مع فيض السكان العام المتجه غرباً . ولد فى كنتكى فى ١٨٠٩ ، وحمل إلى إنديانا وهو غلام ، ثم أخذ بعد ذلك إلى إلينويس . وكانت الحياة خشنة فى تلك الأيام فى غابات إنديانا البعيدة عن العمران ؛ فكان المنزل مجرد كوخ من الكتل الخشبية يقام فى البرية ، وكان تعليمه فى المدرسة ضئيلا عارضاً . على أن أمه علمته القراءة فى بواكير حداثته ، ثم أصبح قارئاً هائلا يلتهم كل شىء .

وكان عندما بلغ السابعة عشرة شابا رياضياً ضخم الجثة ، مصارعا عظيما وعداءاً قويا . ولما بلغ التاسعة عشرة انحدر فى النهر إلى نيو أورليان أجيراً فى زورق . واشتغل بعض الزمان كاتباً فى أحد المخازن ، وعمل متطوعا فى الجيش فى حرب ضد الهنود ، ودخل ميدان الأعمال فأنشأ متجراً مع شريك سكير ، فوقع فى دين لم يستطع أن يسددها تماما أمد خمسة عشر عاما . ثم حصل أخيراً عندما قارب الرابعة والعشرين على عمل يشتغل فيه وكيلا لمساح مقاطعة سانجامون ، وهو عمل قال عنه « أنه أبقى له الجسد والروح مجتمعين معاً » .

وكان مكباً على القراءة كل ذلك الزمان . وكانت الكتب الأولى التى قرأ — تلك التى تكوّن الذهن — قليلة ولكن من الصنف الجيد فيما يلوح ؛ كان يقرأ كل ما تصل إليه يده ، وكان يعرف شاكسبير وبيرنز جيد المعرفة ، وحياة واشنجتون وتاريخ الولايات

المتحدة الخ . وكان التعبير لديه غريزة فطرية ، فكان منذ يفاعته يكتب مثلما يدرس ، منتجاً الشعر والمقالات وما أشبهها . وكان الكثير من إنتاجه هذا مادة خشنة متواضعة . وسرعان ما اجتذبته السياسة إليها . ففي ١٨٣٤ يوم كانت سنه لا تزيد على خمسة وعشرين من السنين انتخب عضواً في مجلس النواب عن ولاية إلينويس ، وقرأ الحقوق وانتظم في سلك المحاماة في ١٨٣٦ . وانقضى عليه زمان اشتغل فيه بالقانون أكثر من السياسة .

ولكن المسألة العظمى أمام شعب الولايات المتحدة كانت تصر على شغل انتباه كل رجل أوتي الاقتدار . ولم يفت هذا الرجل الضخم المقتدر الملم نفسه بنفسه ، والذي كان مثالا نموذجياً بالغاً لرجل الغرب الأوسط ، أن يتأثر تأثراً عميقاً بالتطور المستمر في الخلافات على الرق والانفصال . وكانت المسألة ملتهبة الأوار في إلينويس بوجه خاص لأن الزعيم العظيم في الكونغرس لحزب التوسع في الرقيق كان هو السناتور دوجلاس وهو من إلينويس . وكانت هناك منافسة شخصية بين الرجلين . إذ كان كلاهما قد خطب السيدة التي أصبحت المسز لنكولن . وكان دوجلاس رجلا ذا اقتدار ومقام عظيمين ، وظل لينكولن بضع سنين يحاربه بالخطابة والنشرات ، في إلينويس بادئ الأمر ثم في الولايات الشرقية برمتها ، وهو يرتفع في ثبات إلى مركز خصمه القوى والمنتصر آخر الأمر . وبلغ كفاحهما الأوج بحملة انتخابات الرياسة في ١٨٦٠ ، وفي ٤ مارس ١٨٦١ احتفل بلينكولن رئيساً ، والولايات الجنوبية في حالة انفصال فعال وهي ترتكب أعمالا حربية .

وكان أول إجراء قام به الانفصاليون هو استيلاؤهم على جميع حصون الاتحاد ومخازنه الموجودة داخل حدودهم . وكانت هذه المراكز التابعة للاتحاد مبنية على أراض تملكها الولايات التي كانت هي فيها ، وادعت هذه الولايات لنفسها الحق في العودة إلى ملكيتها . وقاومت حامية فورت سمتر في شارلستون ، وابتدأت الحرب بإطلاق القنابل على هذه القلعة في يوم ١٢ أبريل ١٨٦١ . ولم يكن لدى أمريكا في ذلك الوقت سوى جيش نظامي صغير جداً ، أقام على ولائه للرئيس ، ومن ثم كان يقوم للاحتلاف (أي ولايات الجنوب) بهذه العمليات الافتتاحية الأولى مجندون جمعوا من الولايات . واستدعى الرئيس لنكولن على الفور خمسة وسبعين ألفاً من الرجال ، وانضمت تنسي وأركنساس وكارولينا الشمالية وفرجينيا مباشرة إلى الاحتلاف[1] الذي كان آنذاك قد رفع علمه الخاص به المكون من « النجوم والخطوط الرأسية مقابل النجوم والشقق الأفقية » .

(١) يلحظ القارئ أننا سمينا (Confederacy) باسم الاحتلاف أي الولايات ذات الرابطة المفككة ، على حين جعلنا الاتحاد مقابلا كما هو معلوم لكلمة (Federacy) ، (Union) .

وبذلك ابتدأت الحرب الأهلية فى أمريكا . يقوم بالقتال فيها جيوش مرتجلة أخذت تنمو نمواً مطرداً من عشرات قليلة من الآلاف إلى مئات الآلاف — حتى أربت قوات الاتحاد آخر الأمر على مليون من الرجال ؛ وكانت الحرب تتقلب فوق مساحات هائلة تمتد بين نيومكسيكو والبحر الشرقى . وكانت واشنجتون وريتشموند هما الهدفان الرئيسيان . وإنه لما يتجاوز مجالنا الراهن أن نحدثك عن تلك الهمة المتزايدة لذلك الكفاح الحافل بالبطولة والذى كان يهدر متدحرجاً ذهاباً وجيئة عبر التلال والآجام فى تنسى وڤرچينيا وينحدر مع وادى المسيسبى ، وقد جرى هناك الشىء الفظيع من الدمار ومن قتل الرجال . وكانت الطعنة تتلوها الطعنة المضادة ؛ وكان اليأس يحل محل الرجاء ، ثم يعود الأمل فيفرخ ثم يعود القنوط فيخيم . وكانت واشنجتون تبدو فى بعض الأحايين فى متناول يد الاحتلاف . ثم تعود جيوش الاتحاد فتنساب نحو ريتشموند .

وكان المختلفون وهم أقل عدداً وأفقر كثيراً فى الموارد ، يقاتلون بقيادة قائد ذى كفاية فائقة اسمه الجنرال لى . وكانت قيادة الاتحاد أدنى كثيراً من ذلك مرتبة . وظل لنكولن متعلقاً زمناً طويلا بالجنرال ماك كليلان ، « نابليون الصغير » وهو قائد مدع ميال للتسويف مخيب لما يعقد عليه من آمال . وطفق القواد يطردون وآخرون جدد يعينون ، حتى انتهى الأمر بأن جاء الفوز على يد شرمان وجرانت على الجنوب الرث الناهك القوى . وفى أكتوبر ١٨٦٤ اخترق جيش للاتحاد بقيادة شرمان ميسرة المختلفين ثم تقدم من تنسى عبر جورچيا إلى الشاطئ ، مخترقا بذلك بلاد المختلفين أكمل اختراق ، ثم عرج خلال الكارولينتين الشمالية والجنوبية حتى أطبق على مؤخرة جيوش المختلفين . وفى نفس الوقت كان جرانت يوقف لى أمام ريتشموند حتى أطبق عليه شرمان .

وفى اليوم الثانى من ابريل ١٨٦٥ ، أخلت جيوش المختلفين مدينة ريتشموند ، وفى اليوم التاسع من ابريل ، سلم لى وجيشه عند أبو ماتوكس كورت هاوس ، ولم يمض شهر حتى كانت جيوش الانفصاليين الباقية قد وضعت السلاح جميعاً وحتى كانت دولة الاحتلاف قد انتهت .

ولكن هذا الكفاح الذى دام أربع سنوات أصاب شعب الولايات المتحدة بإجهاد هائل جثمانى وخلقى . فكان الرأى منقسما انقساماً حاداً فى شأن الحرب فى كثير من الولايات من أمثال مارى لاند وكنتكى . وكان مبدأ الحكم الذاتى فى الولاية عزيزاً جداً على أذهان كثيرة ، وكان الشمال يبدو فى الواقع فى زى من يقسر الجنوب على إلغاء الرقيق . كان الكثير من

الرجال يضادون فكرة الرقيق ، ولكنهم كانوا كذلك ضد التدخل فى شأن السلطان الحر لكل ولاية على سكانها . فأما الولايات التى على الحدود فإن الأخوة وأبناء العم ، بل حتى الآباء والأبناء كانوا ينضوون تحت ألوية متضادة ويجدون أنفسهم فى جيوش متقاتلة متعادية . وكان الشمال يشعر بأن قضيته قضية بر وخير ، ولكن هذا البر والخير لم يكن فى عدد عظيم من الناس براً كاملا غير منقوص متيناً لا يمكن تحديه .

ولكن لنكولن لم تساوره خلجة شك . فإنه كان رجلا صافى الذهن وهو فى غمرات هذا الارتباك . وكان الاتحاد مبدأه الذى يناهض من أجله ؛ وكان سلام أمريكا المظيم عقيدته الراسخة . كان يعارض الرقيق ، ولكنه يرى أن الرقيق إنما هو مسألة خلاف ثانوى . وكان غرضه الأول هو ألا تمزق الولايات المتحدة إلى قسمين متباينين متناحرين . ولذا فإنه ظل طوال سنوات الكفاح الأربع المديدة ، صامداً كأنما كان عقيدة لاتلين وعزيمة ثابتة لاتهن .

وعند ما حدث فى مراحل الحرب الأولى أن الكونغرس وقواد الاتحاد شرعوا فى إصدار إعتاق للرقيق عليه طابع العجلة ، اعترض لنكولن على ذلك وخفف من حدة حماستهم . فإنه كان يرى وجوب الاعتاق على مراحل ومع التعويض . ولم يصل الموقف إلا فى يناير (١٨٦٥) إلى درجة النضوج التى تسمح للكونغرس بأن يقترح إلغاء الرقيق إلغاء أبدياً بتعديل دستورى ؛ وكانت الحرب قد انتهت آنفاً قبل أن تصدق الدولة على هذا التعديل .

وبينما كانت الحرب تسير متثاقلة أثناء سنتى ١٨٦٢ ، ١٨٦٣ ، خبت الحدة الأولى والحماسات السابقة ، وتعلمت أمريكا علم كل أدوار سآمة الحرب والاشمئزاز من الحرب . وحل الاقتراع محل التطوع وبدّل من روح القتال فى كل من الجنوب والشمال . وأصبحت الحرب كفاحاً مديداً عبوساً يقتل فيه الأخ أخاه .

وشهد شهر يوليو ١٨٦٣ مدينة نيويورك تشغب على مشروع التدابير الحربية المقدم إلى الكونجرس ، وحاول الحزب الديموقراطى فى الشمال أن يفوز فى انتخابات الرياسة بحجة أن الحرب قد فشلت وأنها يجب أن توقف . وكان معنى هذا بالبديهة نصراً عملياً للجنوب . ونظمت المؤامرات لهزيمة المشروع بالكونجرس . وألفى الرجل النحيف الطويل صاحب البيت الأبيض نفسه إزاء دعاة هزيمة وتردد وخونة وقواد معزولين ، ووجد من ورائه سياسيين حزبيين لولبيين ، وشعباً متشككا متعباً ، وشهد أمامه قواداً غير ملهمين وجنوداً منحطة الروح المنوية . ولا بد أن أكبر سلوته كانت فى أن چيفرسون دافيز فى ريتشموند لا يمكن أن يكون أحسن منه حالاً .

وأساءت الحكومة البريطانية السلوك ، فسمحت لوكلاء الاحتلاف فى انجلترا أن ينزلوا إلى البحر وأن عوّنوا بالرجال ثلاث سفن حربية خاصة سريعة — كانت ألاباما أشهر ما يتذكره الناس منها — وكانت تتعقب سفن الولايات المتحدة وتطاردها فى البحار . وكان الجيش الفرنسى فى المكسيك يمرغ مبدأ مونرو فى الوحل . ثم جاءت من ريتشموند مقترحات خبيثة للتجاوز عن الحرب ، وأن دعوا الخلافات المؤدية إلى الحرب إلى مناقشات تالية ، وانقلبوا مختلفين واتحاديين إلى التحالف ، على الفرنسيين فى المكسيك . ولكن لنكولن يأبى أن يصغى إلى مثل هذه المقترحات ما لم يحافظ الكل على سيادة الاتحاد . فقد يستطيع الأمريكيون أن يفعلوا ذلك كشعب واحد لا كشعبين .

فضم الولايات المتحدة بعضها إلى بعض خلال شهور طويلة مضنية ، شهور من الهزائم والجهود غير الفعال ، وخلال أدوار سوداء حالكة من الفُرقة والشجاعة المتداعية . وليس هناك أى سجل يسجل أنه تردد يوماً فى مراميه . ومرت به أزمان لايستطاع فيها عمل شىء ، يوم كان يجلس فى البيت الأبيض صامتاً جامداً لايتحرك ، وكأنما هو تمثال جهم للعزم والإصرار ؛ وأزمان كان يُجِمُّ فيها ذهنه بالمزاح والنوادر غير اللائقة . كان عامر النفس بالفكاهة الساخرة ، لكنه كان شديد رقة الإحساس لآلام الآخرين . وعندما جاءه بعض أعداء جرانت ليخبروه أن ذلك الجنرال يشرب الخمر ، سأل من فوره عن ماركة الويسكى الذى يشرب — «خدمة للآخرين» . فأما هو فى حد ذاته فكان رجلا متقشفاً فى كل عاداته ، يتحمل كلا من الجهد الهائل فى العمل والصبر الهائل على المكاره .

وأخيراً أصبح من الجلى فى شهور ١٨٦٥ الأولى أن بوادر النصر أخذت تقبل عليهم ، فنصب نفسه بكل قواه ليجعل التسليم سهلا ومعاملة المقهورين بداية للتراضى . فإن مذهبه وعقيدته كانت هى « الاتحاد » . وسرعان ما دخل حومة نزاع مع متطرفى حزبه هو ، الذين كانوا يرغبون فى صلح انتقامى .

وشهد الاتحاد منصوراً مظفراً . ودخل ريتشموند فى اليوم التالى لتسليمها وسمع بتسليم « لى » . ثم عاد إلى واشنطون وفى اليوم الحادى عشر من إبريل ألقى خطبته العامة الأخيرة . وكان محور فكرته فيها هو الصلح والتراضى ثم إعادة إنشاء الحكومات الموالية فى الولايات المهزومة . وفى مساء ١٥ إبريل ذهب إلى مسرح فورد بواشنطون ، وبينما هو جالس ينظر إلى التمثيل أصيب برصاصة فى مؤخر الرأس ، وقتل على الفور من يد ممثل اسمه « بوث » ، كان يحمل فى قلبه شيئاً من الضغن عليه ، وكان قد تسلل إلى المقصورة دون أن يشعر به أحد .

فلئن أتلفت عملية البرء ، ولئن أصيبت الولايات المتحدة بالمزيد من المتاعب والمرارات فى السنوات التى عقبت الحرب أكثر مما كانت الأمور تقتضيه ، فإن ذلك راجع إلى أن لنكولن قدمات . ولكن عمله كان قد تم ، وكان الاتحاد قد أنقذ ، وأنقذ إلى أبد الآبدين . ولم تكن هناك عند بداية الحرب سكة حديدية تمتد إلى ساحل الباسيفيكى (الهادى) . فأما الآن فقد انتشرت السكك الحديدية وتفرعت تفرع نبات سريع النماء حتى أمسكت كل أراضى الولايات المتحدة المترامية وربطتها ونسجتها فى ما هو اليوم وحدة ذهنية ومادية لايمكن أن تنفصم عراها .

ومنذ ذلك الزمان اتصل تماسك بنيان الولايات المتحدة اتصالا راسخاً مستمراً . ولم يمض عليها نصف قرن حتى كان سكانها قد تجاوزوا حد المئة مليون عداً . وليس هناك أى دلالة تدل على أن النماء والتطور بلغا حتى الآن أوجهما . فهذه الديموقراطية الجبارة التى لا ملك لها ، ولا سياسة خارجية تفصيلية لها إنما هى — ونكرر لك هذا القول — شىء جديد فى خبرة العالم . وهى ليست « دولة عظمى » بالمعنى الذى تستعمل فيه تلك الكلمة فى أوربا . وإنما هى شىء أكثر عصرية فى طبيعته ، وأضخم حجماً ، وله مقدرات أعظم وأبلغ .

١١ — الحرب الروسية التركية ومعاهدة برلين

ابتدأت فى ١٨٧٥ ثورة جديدة ، لما سميناه فى هذا الكتاب باسم الخريطة الطبيعية ، ضد الترتيبات الديبلوماسية التى وضعتها معاهدة فيينا ، عندما دب دبيب الاضطراب والعصيان بين الأجناس المسيحية فى البلقان وبخاصة البلغار . واتخذ الأتراك حيالهم تدابير قمع عنيفة ، ثم لجأوا إلى إعمال التقتيل فى البلغاريين على نطاق هائل .

وعند ذلك تدخلت الروسيا فى (١٨٧٧) ، وأجبرت الأتراك بعد عام قضى فى حرب باهظة النفقة على توقيع معاهدة سان استفانو ، التى كانت فى مجملها معاهدة معقولة ، تمزق الإمبراطورية التركية الصناعية ، وتؤسس الخريطة الطبيعية إلى حد كبير . ولكن كان قد أصبح من تقاليد السياسة البريطانية أن تعترض « خطط الروسيا » — لسبب لا يعلمه إلا الله وحده — كلما بدا أن للروسيا خطة . فتدخلت وزارة الخارجية البريطانية وكان رئيس الوزارة آنذاك هو اللورد بيكونزفيلد — مهددة بالحرب إن لم تسترجع تركيا إلى حد كبير ما كاما كانت تحظى به من ابتزاز الأموال والاضطهاد والتقتيل . وانقضى بعض الزمان كانت فيه الحرب محتملة جداً . وأخذت قاعات الموسيقى البريطانية ، وهى المصابيح المنيرة للسياسة البريطانية ، توقد وتنار

بنيران الوطنية وألهم الغلام الساعى فى لندن وهو يسير فى جولاته ، بأن يتغنى وقد أخذته الكرامة البسيطة ، لشعب عظيم مدرك لقدراته العالية ، أغنية تعلن أن : —

« لسنا نريد القتال ، ولكنى أقسم بجنجو(1) (بالله) لئن قاتلنا ، فلدينا السفن ، ولدينا الرجال ، ولدينا الذخيرة أيضاً » .

وهكذا : حتى تصل الأمور إلى ذروتها فى قوله : —

« لن يأخذ الروس القسطنطينية »

وكانت نتيجة تلك المعارضة البريطانية ، أن اجتمع فى ١٨٧٨ مؤتمر فى برلين لتنقيح معاهدة سان استفانو ، تنقيحاً يتجه بوجه رئيسى إلى مصالح ملوك تركيا والنمسا . وأحرز البريطانيون جزيرة قبرص ، التى لم يكن لهم فيها أى حق مطلقاً ، والتى لم تمد عليهم أبداً بأقل فائدة ؛ وعاد اللورد بيكونز فيلد مظفراً من مؤتمر برلين ، يحمل ما جنح البريطانيون فى ذلك الزمان إلى الزعم بأنه « السلام مع الشرف » . وكانت معاهدة برلين هذه هى العامل الرئيسى

(شكل ٢٠١)

(١) جنجو هو لفظ بمعنى الله فى هذه الأغنية الحربية ومن ثم أطلقت جنجو على أى وطنى مهووس يدعو إلى الحرب . (المؤلف)

الثانى — إذ كانت معاهدة فرنكفورت هى العامل الأول — الذى أدى إلى الحرب العظمى حرب ١٩١٤ — ١٩١٨

١٢ — التدافع الثانى على الإمبراطوريات وراء البحار

ألمعنا أن الثورة الميكانية لم تنتج أى تغييرات جد ثورية فى تاريخ أوربا السياسى بين سنتى ١٨٤٨ ، ١٨٧٨ . فإن الدول الكبرى التى عقبت الثورة كانت فى الواقع ما تزال داخل حدود من نفس الحجم ومحتفظة بكثير من الشكليات عينها التى كانت عليها فى الأزمنة السابقة على الثورة . ولكن السرعة المزادة والتأكد من ثبات النقل والمواصلات التلغرافية كانا ينتجان من قبل تغييرات جسيمة جداً فى الأحوال والأسلوب — حيث قامت المشروعات وراء البحار لبريطانيا والدول الأوربية الأخرى ، وحيث أحدثت آسيا وأفريقيا رد فعلهما على أوربا .

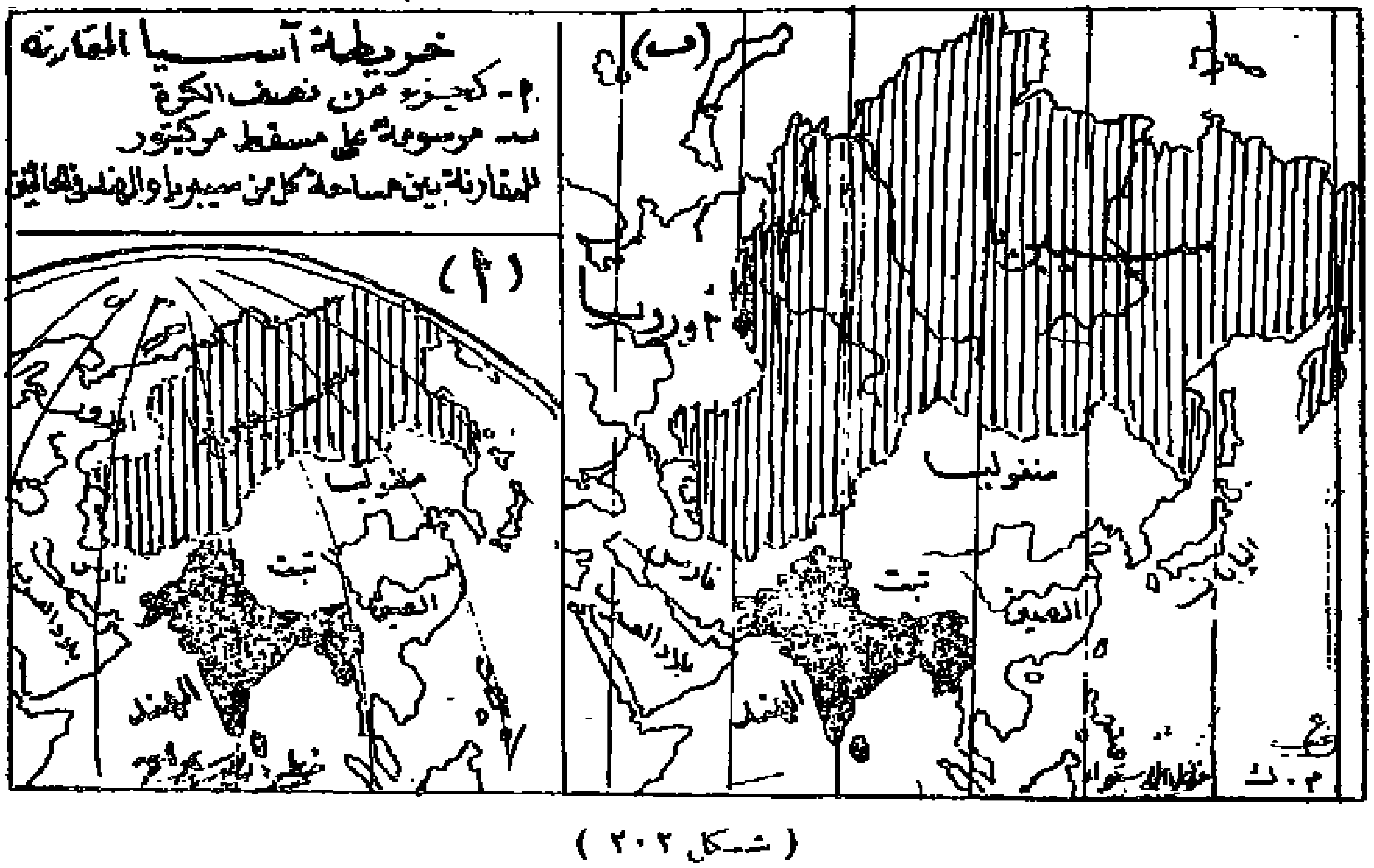

(شكل ٢٠٢)

وكانت نهاية القرن الثامن عشر فترة تمزيق للإمبراطوريات ورفع لغشاوة الخداع عن أبصار دعاة التوسع . فإن الرحلة الطويلة المملة بين بريطانيا وأسبانيا ومستعمراتهما فى أمريكا منعت أى ذهاب ومجىء حر حقيقى بين أرض الوطن الأم وبين بناتها التوابع ، وبذا انفصلت المستعمرات وتحولت إلى مجتمعات جديدة مميزة ، ذات فكرات ومصالح مميزة بل حتى ذات

طرائق للنطق خاصة . وكانت مع نموها تزداد شداً ووتراً لتلك الرابطة الواهنة غير المحققة رابطة السفن التى كانت همزة الوصل بينهما . وربما كانت مراكز التجارة الضعيفة فى البرية أمثال ما كان لفرنسا فى كندا ، أو المؤسسات التجارية فى المجتمعات الأجنبية الكبيرة ، أمثال ما كان لبريطانيا فى الهند ، تتشبث متعلقة من أجل البقاء المحض بالأمة التى تمد لها يد العون وتقيم لها سبب الوجود . ذلك على الأكثر دون أى شيء آخر هو ما كان يلوح فى أعين كثير من المفكرين فى القسم الأول من القرن التاسع عشر الحد الذى يحد الحكم وراء البحار .

وفى ١٨٢٠ كانت العالم غير البينة للإمبراطوريات الأوربية العظمى خارج أوربا ، التى طالما ظهرت على صورة لافتة للنظر فى خرائط منتصف القرن الثامن عشر ، قد تقلصت فأصبحت ذات مساحات صغيرة جداً . وكانت الإمبراطورية الروسية هى وحدها التى ترحف كأوسع ما يكون الزحف عبر آسيا . ولكنها كانت ترحف فى أخيلة كثيرين من الأوربيين أكثر مما ترحف فى حقيقة الأمر ، بسبب ما جرت به عادتهم من دراسة جغرافية العالم على مشروع مركاتور (١) ، الذى يبالغ مبالغة هائلة فى حجم سيبريا .

وكانت الإمبراطورية البريطانية فى ١٨١٥ تتكون من أقاليم النهر والبحيرات الساحلية القليلة السكان بكندا ، ومن أرض عظيمة داخلية مكونة من برية ، المستقرات الوحيدة فيها إلى ذلك الحين هى محطات تجارة الفراء التابعة لشركة خليج هدسن ، وقرابة ثلث شبه الجزيرة الهندية تحت حكم شركة الهند الشرقية ، والنواحى الساحلية عند رأس الرجاء الصالح : التى يسكنها السود والمستقرون الهولنديون ذوو الطبع الثائر ، وبضع محطات تجارية على ساحل إفريقيا الغربية ، وصخرة جبل طارق ، وجزيرة مالطة وجمايكا ، وممتلكات صغرى قليلة عمالها من العبيد فى جزائر الهند الغربية ، وغيانا البريطانية بأمريكا الجنوبية ، ثم فى الجهة الأخرى من العالم محطتى تفريغ للمجرمين عند خليج بوتانى بأستراليا وفى تسمانيا .

وكانت أسبانيا محتفظة بكوبا ومستقرات قليلة فى جزائر الفلبين . وكانت للبرتغال فى أفريقيا بعض آثار تدل على مزاعمها القديمة . وكانت لهولندا جزائر وممتلكات مختلفة بجزائر الهند الشرقية وبغيانا الهولاندية ، كما كان للدنمارك جزيرة أو ما إليها فى جزائر الهند الغربية . فأما فرنسا فكان لها جزيرة أو اثنتان من جزائر الهند الغربية وغيانا الفرنسية . وكان

(١) مشروع مركاتور : طريقة لرسم الخرائط تنسب إلى الجغرافى ورسام الخرائط الفلمنكى جيراردوس مركاتور (١٥١٢ — ١٥٩٤) .

هذا فيما يلوح هو القدر الذى تحتاج إليه الدول الأوربية أو القدر الذى يحتمل أن تحرزه من بقية العالم . ولم يكن أحد عدا شركة الهند الشرقية يظهر أى نزوع للتوسع .

وكانت إمبراطورية ذات سمة خاصة عجيبة تتكون فى بلاد الهند كما أسلفنا ، لا يكونها الشعب البريطانى ولا الحكومة البريطانية ، بل تكونهـا تلك الشركة ، شركة المغامرين الخصوصيين بمـا لديهم من احتكار ومرسوم ملكى . وقد اضطرت الشركة أن تصبح قوة حربية وسياسية أثناء سنى الانقسام الهندى وعدم الأمنة الذى عقب تجزؤ الهند بعد وفاة أورانغزيب فى ١٧٠٧ . وكانت تعلمت أن تتجر فى الولايات والشعوب أثناء القرن الثامن عشر . فأسس كلايف ، هذا النوع العجيب من الإمبراطورية وتولى وارن هاستنجس تنظيمها ، وقهرت المنافسة الفرنسية ، كما سبق أن أخبرناك ، ولما وافت ١٧٩٨ كان اللورد مورنجتون الذى أصبح فيما بعد الركيز ولزلى ، وهو الأخ الأكبر لذلك الجنرال ولزلى الذى أصبح دوق ولنجتون ، حاكما عاماً على الهند ، فأقام سياسة الشركة بصورة محدودة على أساس إقامة حكمها هى فى مكان إمبراطورية المغولى العظيم الغاربة .

وكانت حملة نابليون على مصر هجمة مباشرة على إمبراطورية هذه الشركة البريطانيه . وبينما كانت أوربا مشغولة بالحروب النابليونية ، راحت شركة الهند الشرقية تحت فئة متعاقبة من المديرين العامين ، تلعب فى الهند نفس الدور الذى كان يلعبه من قبل التركمان ومن إليهم من الغزاة النازحين من الشمال ، ولـكنها كانت تلعبه على مرتبة من الـكفاية أعظم وفى عنف وقساوة أقل وأدنى . واستمرت فى عملها بعد معاهدة فيينا تجمع إيراداتها ، وتشن الحروب وتبعث بالسفراء إلى الدول الأسيوية ، كانت دولة شبه مستقلة ، وهى مع ذلك دولة ذات ميل ملحوظ إلى إرسال الثروة نحو الغرب .

وقد سبق فى فصل مضى ، أن خططنا لك تحطم إمبراطورية المغولى العظيم وظهور ولايات المهراتا ، والإمارات الراجبوتية ، ومملـكتى أود والبنغال الإسلاميتين ونشوء السيخ . ولسنا بقادرين أن نخبرك هنا فى أى تفصيل ، كيف شقت الشركة البريطانية طريقها نحو السيادة ، تارة بوصفها حليفاً لتلك الدولة وتارة لتلك الأخرى ، وأخيراً بوصفها قاهرة للجميع . وانتشر سلطانها إلى آسام والسند وأود . وأخذت خريطة الهند تتخذ صورة العالم المألوفة لدى التلاميذ الإنجليز اليوم ، وهى رقاع كثيرة من الولايات الوطنية تضمها وتربطها بعضها إلى بعض الولايات الـكبيرة التى تحت الحـكم البريطانى المباشر .

والآن ، وبينما كانت هـذه الإمبراطورية العجيبة التى لم يسبق لها مثيل فى التاريخ ،

إمبراطورية الشركة تنمو فى المدة بين ١٨٠٠ ، ١٨٥٨ ، كان الانقلاب الآلى يلغى فى غير ضجيج المسافة العظيمة التى كانت يوما ما تفصل الهند عن بريطانيا . وكان حكم الشركة فى الأيام القديمة قليل التدخل فى الحياة الداخلية للولايات الهندية ؛ وكانت منحت الهند سادة أعلين أجانب ، ولكن الهند كانت ضرية بالسادة الأعلين الأجانب ، ولطالما تعلمتهم حتى ذلك الحين ؛ فأما هؤلاء الإنجليز فكانوا ينزلون البلاد شبانا ويعيشون فيها معظم حياتهم ، ويصبحون جزءاً من نظامها . ولكن الانقلاب الميكانى كان قد أخذ فى تغيير حالة الأمور هذه . فأصبح أيسر كثيراً على الموظف البريطانى أن يذهب إلى وطنه وأن يقضى أجازته فى أوربا ، وأصبح أيسر عليهم أن يجتلبوا زوجاتهم وعائلاتهم ؛ وكفوا عن أن يصطبغوا بالصبغة الهندية ؛ وظلوا بشكل أوضح أجانب وغربيين وزاد عددهم . ثم إنهم شرعوا يتدخلون فى العادات الهندية تدخلا أقوى وأشد ووصلت أشياء سحرية فظيعة من أمثال التلغراف والسكك الحديدية . وأصبحت البعثات المسيحية منشغلة انشغالا مكدراً للنفوس . فلئن لم يحوّلوا عدداً وافراً من الرجال عن دينهم ، لقد أوجدوا على الأقل التشكك بين أتباع الديانات الأقدم عهداً . وشرع شبان المدن يصطبغون بالصبغة الأوربية ، ويا لرعب آبائهم العظيم !! . . .

ولطالما تحملت الهند من قبل تغييرات كثيرة أو حكاما كثيرين ، ولكن لم تتعرض

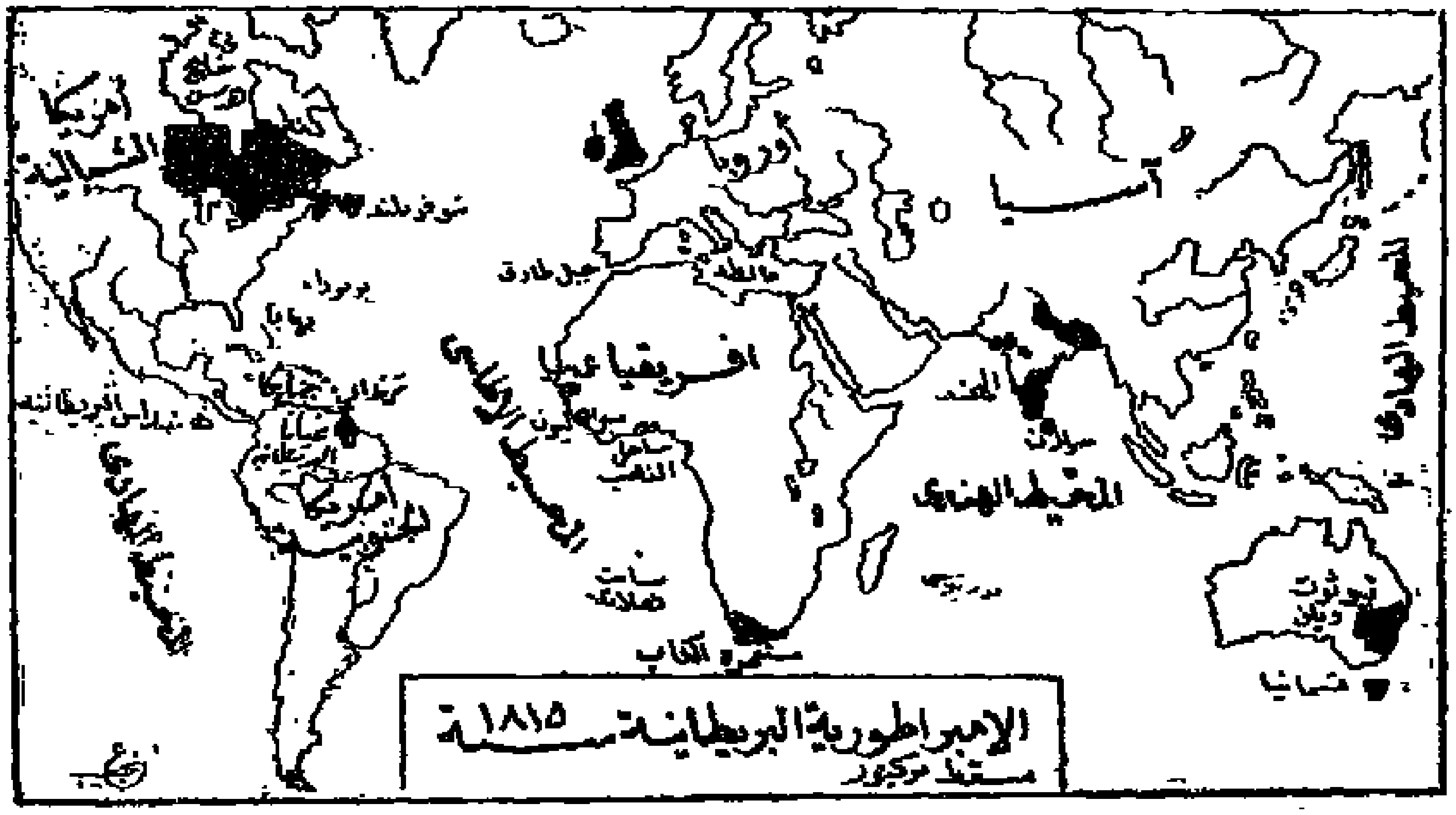

(شكل ٢٠٣)

أساليبها قط لمثل هذا النوع من التغيير الذى كانت تؤذن به هذه الأمور . واستولى الجزع على كل من العلماء المسلمين والكهنة البراهمة على السواء ، ولم البريطانيون على تقدم الإنسانية .

وأخذت المنازعات على المصالح الاقتصادية تصبح أشد حدة مع ازدياد قرب أوربا ، ولقيت الصناعة الهندية وبخاصة الصناعة القطنية المهيدة العتيقة كل الشر من التشريعات التي كانت يؤازر صاحب المصانع البريطاني .

وعجلت باندلاع الانفجار قطعة من الحماقة التي لا يصدقها عقل أظهرتها الشركة . فإن البقرة لدى البرهمي مقدسة ؛ والخنزير عند المسلمين نجس . وصرفت لجنود الشركة الهنود بندقية جديدة تحتاج إلى خرطوشات مدهونة بالدهن ولا بد للرجال من قضمها ، ووجدت الجنود أن خرطوشاتها مزيتة بدهن البقر والخنازير . وأدى هذا الاكتشاف إلى التعجيل بتمرد جيش الشركة الهندي ، وهي الفتنة الهندية (١٨٥٧) . فتمرد الجنود أولا في ميروت . ثم ثارت دلهي تبغي استعادة إمبراطورية المغولي العظيم . . .

وعلى حين بغتة اكتشف الجمهور البريطاني بلاد الهند ، فتنبهوا إلى تلك الحامية الصغيرة من الرعايا البريطانيين ، وهم على تلك المسافة الشاسعة في تلك الأرض العجيبة ذات الغبار الثاري والشمس المحرقة المنهكة ، وهم يقاتلون في سبيل الحياة من يهاجمهم من جماهير سوداء . فكيف بلغوا ذلك المكان ؟ وأي حق لهم هناك ؟ لم يسأل الجمهور البريطاني هذين السؤالين . فإن العطف على بني الجلدة الواقعين في الخطر يتغلب على مثل تلك الأسئلة . وكانت ثمة مذابح وقساوات . وكانت ١٨٥٧ سنة قلق عظيم في بريطانيا العظمى . واستطاع الزعماء البريطانيون ، نذكر منهم بوجه خاص لورنس ونيكولسون أن يقوموا بالعجب العجاب على يد فئات من الجنود لا تكاد تملأ بضع حفنات . فإنهم لم يكونوا يضيعون الوقت في الجلوس في أماكنهم حتى يحاصرهم العدو على حين ينظم المتمردون صفوفهم ويقوون نفوذهم ، فإن ذلك إنما كان يؤدي بهم إلى فقد الهند فقدانا أبديا . وكانوا كثيراً ما يغيرون على عدو هائل جارف الجموع . قال لورنس : « يجعل سره في أضعف خلقه » .

ولزم الجنود السيخ والجركا والبنجاب جانب البريطانيين . وظل الجنوب هادئاً . وعلى كتب تاريخية أخرى أن تخبرك بمذابح كونبور ولكنو في أود ، وكيف استطاعت قوة بريطانية يتفوق عليها العدو في العدد تفوقا عظيما أن تحاصر دلهي وتأخذها عنوة . ولما حل إبريل ١٨٥٩ كانت آخر جمرات في ذلك اللهيب قد أطفئت وديست بالأقدام ، كان البريطانيون قد عادت إليهم السيادة على الهند . ولم يكن ذلك العصيان بأي حال ثورة شعبية ، بل كان مجرد تمرد في الجيش البنغالي ، يرجع في معظم شأنه إلى سوء تصرف موظفي الشركة صغار الأحلام . وقصة تلك الفتن مليئة بالأمثلة على المساعدة الهندية والرفق الهندي اللذين كان يحاط بهما

اللاجئون البريطانيون . غير أنها كانت تحذيراً ونذيراً .

وكانت النتيجة المباشرة للفتنة هى إلحاق الإمبراطورية الهندية بالتاج البريطانى . وبمقتضى القانون الموسوم «قانون إصلاح حكومة الهند» ، أصبح الحاكم العام نائب ملك يمثل الملك ، وحل محل الشركة وزير للهند مسئول أمام البرلمان البريطانى . وفى ١٨٧٧ حمل اللورد بيكونزفيلد (رغبة منه فى استكمال هذا العمل) ، الملكة ڤكتوريا على أن ينادى بها إمبراطورة للهند .

وعلى هذه الأسس الخارقة للعادة ترتبط الهند وبريطانيا فى هذا الزمان . وما تزال الهند هى إمبراطورية المغولى العظيم ، بعد أن وُسعت أطرافها ، غير أن المغولى العظيم حلت محله جمهورية بريطانيا العظمى المتوجة . وأصبحت الهند دولة استبدادية مطلقة من غير عاهل مطلق . ويجمع الحكم فيها بين عيوب الملكية المطلقة وبين عدم الشخصية وعدم المسئولية اللذين تتسم بهما الإدارة الديموقراطية . فإن الهندى الذى له ظلامة لم يكن أمامه ملك ظاهر يلجأ إليه ، وكان إمبراطوره رمزاً ذهبياً . ولابد له من أن يذيع النشرات فى انجلترا أو يوحى إلى من يسأل له فى مجلس العموم سؤالا وكلما زادت مشغلة البرلمان بالشئون البريطانية ، نقص حظ الهند من التفاته وزاد وقوعها تحت رحمة فئتها الصغيرة من كبار الموظفين .

وواضح أن هذا كان حالا مستحيل الدوام ، فإن الحياة الهندية أيّا كانت عوامل التضييق عليها آخذة فى التحرك أماما مع بقية العالم ، وكانت للهند صحافة آخذة فى النمو ، وعدد متزايد من المتعلمين المتأثرين بالفكرات الأوربية ، وإحساس متزايد بالألم المشترك ضد حكومتها . ولم يحدث هناك أى تقدم يقابل هذا فى تعليم الموظف البريطانى ونوعه فى الهند أثناء ذلك القرن . وكانت تقاليده عالية ، وكثيراً ما كان رجلا ذا صفات غير عادية ، ولكن النظام كان نظاماً أحمق سقيم الخيال جامداً لا لين فيه ، زد على ذلك ، أن القوة العسكرية التى كانت تقف من خلف هؤلاء الموظفين لم تتطور فى خلقها ولا فى ذكائها أثناء هذا القرن . وليست هنالك طبقة بلغت من الركود الذهنى مابلغته الطائفة العسكرية البريطانية .

وإذ واجهته هند أكثر تعلما ، فإن الرجل العسكرى البريطانى وهو يدرك فى قلق نقائصه التعليمية ويخشى الهزؤ به على الدوام ، أظهر ميلا متزايدا إلى العنف التشنجى الذى كانت له بعض النتائج المستوجبة لشديد الأسى .

وقد أظهرت تعاليم المستر كبلنج الداعية إلى العنف والتى سبق أن أشرنا إليها ، نوعا من الاستصواب لقلة المعرفة والقدرة وضبط النفس .

ولم يكن نمو الإمبراطورية البريطانية فى اتجاهات أخرى عدا الهند سريعاً إلى هذا الحد

بأى حال أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر . وكانت مدرسة كبيرة من المفكرين السياسيين فى بريطانيا ميالة إلى اعتبار الممتلكات وراء البحار مصدراً لضعف المملكة . وتطورت المستقرات الأسترالية تطوراً بطيئاً ضعيفاً إلى أن أدى اكتشاف مناجم قيمة للنحاس فى ١٨٤٢ ومناجم للذهب فى ١٨٥١ ، إلى عودة الاهتمام بها من جديد . وكانت التحسينات المتزايدة فى وسائل النقل تجعل كذلك الصوف الأسترالى سلعة مطلوبة فى السوق الأوربى طلباً متزايداً . كذلك كندا فإنها لم تتقدم تقدما ملحوظا حتى ١٨٤٩ ؛ إذ كانت تؤخرها الخلافات بين سكانها الفرنسيين والبريطانيين ، وحدثت فيها ثورات خطيرة عديدة ، ولم يحدث إلا فى ١٨٦٧ أن دستوراً جديداً لكندا أوجد ممتلكة مستقلة (دومنيونا) اتحادية خفف توتراتها الداخلية . وكانت السكك الحديدية هى صاحبة الفضل فى تغيير مستقبل كندا . فإنها مكنت كندا ، كما مكنت الولايات المتحدة ، من أن تمتد غربا ، وأن تبيع قمحها ومنتجاتها الأخرى فى أوربا ، وأن تبقى بالرغم من نمائها السريع الفسيح — مجتمعاً واحداً فى لغته وتعاطفه ومصالحه . وكانت السكك الحديدية والسفينة البخارية والسلك التلغرافى البحرى تغير فى الواقع كل أحوال التطور الاستعمارى .

وكانت مستقرات إنجليزية قد ابتدأت قبل ١٨٤٠ فى نيوزيلنده ، فتأسست شركة لأراضى نيوزيلندا لاستغلال ما قد يكون فى الجزيرة من إمكانيات . وفى ١٨٤٠ أضيفت نيوزيلندا أيضاً إلى الممتلكات الاستعمارية للتاج البريطانى . وكانت كندا كما لاحظنا أول الممتلكات البريطانية استجابة كريمة خصيبة للمحتملات الاقتصادية الجديدة التى كانت تفتح أبوابها وسائل النقل الجديد . وسرعان ما أخذت جمهوريات أمريكا الجنوبية وبخاصة الأرجنتين تشعر فى تجارة ماشيتها وفى زراعة بنها بتزايد قربها من السوق الأوربى . وكان رأس السلع التى تجتذب حتى الآن الدول الأوربية إلى الأقاليم الهمجية (البربرية) غير المسكونة الذهب أو المعادن الأخرى ، والأفاوية والعاج أو العبدان . ولكن تزايد السكان فى أوربا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر أخذ يجبر الحكومات إلى الرمى ببصرها فى الخارج بحثاً عن مواد الطعام الأساسية ؛ وكان نمو الصناعة القائمة على العلم يخلق الطلب على مواد خام جديدة ، أمثال الشحوم والدهون بجميع أنواعها ، والمطاط ومواد أخرى كان يغفل شأنها إلى حين . وكان جلياً أن بريطانيا العظمى وهولانده والبرتغال كن يحصدن ثمار مزية تجارية عظيمة متزايدة نامية من سيطرتهن الجسيمة الضخمة على المنتجات المدارية ودون المدارية . وبعد ١٨٧١ شرعت ألمانيا ثم فرنسا وإيطاليا فيما بعد فى البحث عن مناطق للمواد الخام

لم تلحق بأحد ، أو عن أقطار شرقية تستطيع أن تعود بالربح من وراء صبغها بالصبغة المصرية .

وبذلك ابتدأ تدافع جديد شمل الأرض قاطبة — اللهم إلا البلاد الأمريكية حيث كان مبدأ مونرو يحول عند ذلك دون مثل هذه المغامرات — على البلاد التي لم ترزق حماية سياسية كافية . وكانت قارة إفريقيا على مقربة من أوربا ، وهي مليئة بإمكانيات يشوب الغموض العلم بها . وكانت في ١٨٥٠ قارة خفايا سوداء ؛ ولم يكن معروفاً منها إلا مصر والشاطىء . ولا بد أن تظهرك خريطة من الخرائط على ضخامة الجهالة الأوربية في ذلك الزمان . ولن يفي هذه القصص الرائعة حقها من التقدير إلا كتاب يقارب في الطول هذا الكتاب يسرد ما أسداه المكتشفون والمغامرون الذين اخترقوا لأول مرة غيابة الظلماء هذه ، ويذكر الوكلاء السياسيين والمديرين والمتجرين والمستقرين ورجال العلم الذين ترسموا خطاهم . وكُشف القناع عن أجناس من الناس عجيبة من أمثال الأقزام ودواب غريبة كالأوكابي (Okapi)[(1)] ، وثمار وأزهار وحشرات مدهشة وأمراض وبيلة ومناظر للغابات والجبال تذهب بالألباب وبحار داخلية ضخمة وأنهار هائلة ومساقط مائية عظيمة كشف الستر عنها جميعاً — وهي وحدها عالم جديد بأكمله ، بل لقد كشفت في زمبابو آثار لحضارة بائدة غير معروفة ، وهي جهد جنوبي لشعب قديم .

وإلى هذا العالم الجديد هبط الأوربيون ، فوجدوا البنادق موجودة من قبل في أيدي تجار الرقيق العرب ، ووجدوا حياة الزنوج في اضطراب وخلل . وعند ١٩٠٠ كانت كل إفريقيا قد رسمت خريطتها وارتيدت أرضها وقدرت وقسمت بين الدول الأوربية ؛ قسمت في كثير من الزمجرة والشحناء إلى أجزاء تركت كل دولة قلقة أو متذمرة غير راضية ، ولكنها ظلت على نفس حالها تقريباً حتى ١٩١٤ . ولم يراع أحد إلا قليلا مصالح الأهالي الوطنيين أثناء هذا التدافع . نعم إن النخاس العربي قد أبيد أكثر مما طرد ؛ ولكن النهم في طلب المطاط الذي كان منتجاً طبيعياً يجمعه الوطنيون قسراً في الكنغو البلجيكية — وهو نهم بلغ حدّ التسخط بشح ملك البلجيك الذي لا رحمة فيه — والتصادمَ بين المديرين الأوربيين الأغمار غير المحنكين وبين السكان الوطنيين ، كانا أمرين أفضيا إلى فظائع شنيعة . وليست هناك دولة أوربية واحدة تستطيع أن تقول إن يديها طاهرتان تماماً في هذا الصدد .

ولسنا بقادرين أن نذكر لك هنا في أي تفصيل كيف استطاعت بريطانيا أن تستولى على مصر في ١٨٨٣[(2)] ، وظلت فيها بالرغم من أن مصر كانت من الناحية الفنية (التكنيكية) ،

(١) الأوكابي : حيوان من ذوات الأربع يشابه الزرافة يعيش في إفريقيا الغربية .

(٢) الصحيح هو ١٨٨٢ .

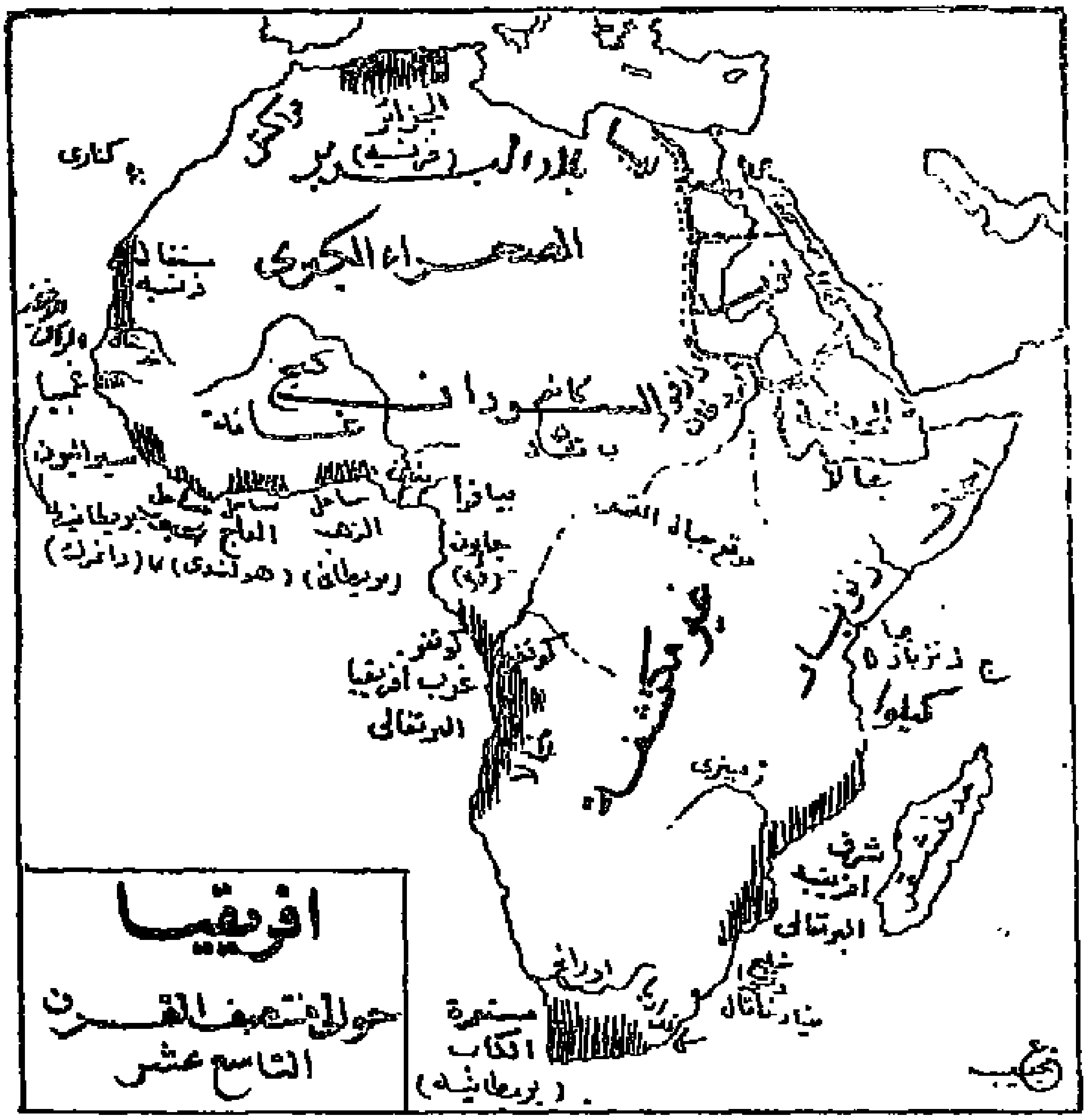

(شكل ٤٠٢)

جزءاً من الإمبراطورية التركية — ولا كيف أوشك هذا التخاطف أن يؤدى إلى الحرب بين فرنسا وبين بريطانيا العظمى فى ١٨٩٨ ، عندما حاول كولونيل فرنسى بعينه اسمه مارشان وهو يعبر إفريقيا الوسطى من الساحل الغربى أن يستولى عند فاشوده على النيل الأعلى . فأما فى أوغنده فإن البعوث الكاثوليكية الفرنسية والإنجليكانية الإنجليزية نشرت صورة للمسيحية مُثقلة بأعباء الروح النابليونية ، وملحة فى النهاية على صغار الفروق فى العقيدة ، إلى حد أن مدينة منجو عاصمة أوغندا بعد سنوات قلائل من أول بصيص للمدنية الأوربية فيها ، قد ملئت شوارعها بالقتلى من البروتستانت والكاثوليك ، الذين يعسر عليك أعظم العسر أن تميز بينهم وبين المقاتلة غير الروحانيين فى النظام القديم .

كذلك لانستطيع أن نخبرك كيف سمحت الحكومة البريطانية فى البداية للبوير أو المستقرين الهولنديين بمنطقة نهر الأورانج وفى بلاد الترنسفال ، بأن يقيموا جمهوريتين مستقلتين بالمناطق الداخلية بجنوب إفريقيا ، ثم عادت فندمت على ذلك وضمت إليها جمهورية

الترنسفال فى ١٨٧٧ ؛ ولا كيف قاتل بوير الترنسفال من أجل الحرية وفازوا بها بعد معركة تل ما چوبا ١٨٨١ . ولا كيف تسببت حملة صحفية ملحة فى جعل معركة تل ماچوبا تتقرح فى ذاكرة الشعب الإنجليزى . ونشبت حرب مع كل من الجمهوريتين فى ١٨٩٩ ، وهى حرب ثلاث سنوات باهظة النفقة على الشعب البريطانى ، انتهت آخر الأمر بتسليم الجمهوريتين كلتيهما .

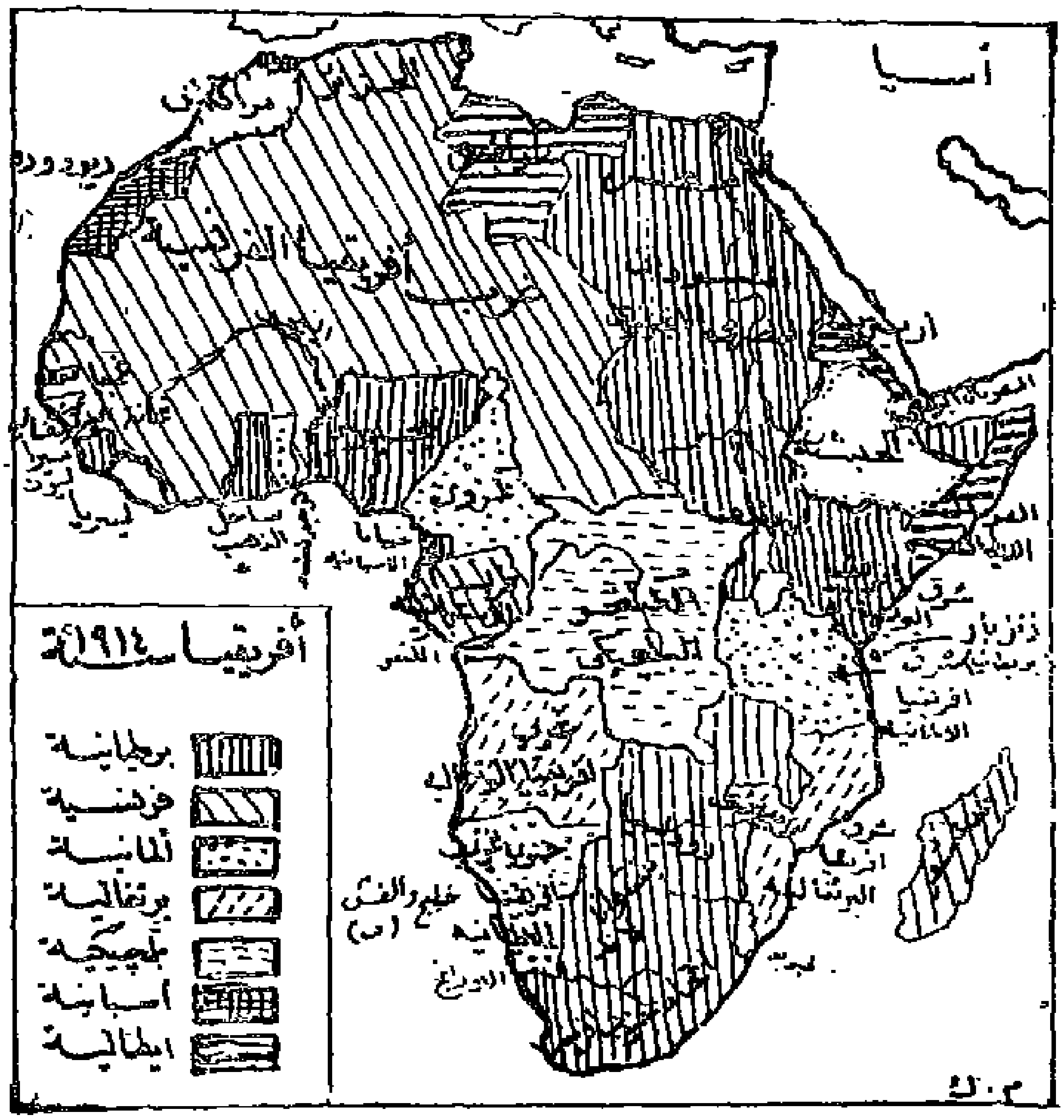

(شكل ٢٠٥)

وكانت فترة إخضاعهما وجيزة . فقد حدث فى ١٩٠٧ بعد سقوط الحكومة الاستعمارية التى قهرتهما ، أن تناول الأحرار مسألة جنوب إفريقيا ، وأصبحت هاتان الجمهوريتان السابقتان حرتين وصارتا برغبتهما تقريباً أختين (صنوين) لمستعمرة الرأس وناتال فى احتلاف يضم كل ولايات إفريقيا الجنوبيـة بوصفها جميعاً جمهورية واحدة تحكم نفسها بنفسها تحت التاج البريطانى .

وانتهى العمل فى تجزئة إفريقيا واقتسامها فى مدى ربع قرن . وظلت أقطار ثلاثة صغيرة نسبياً غير ملحقة بأحد هى : ليبيريا ، وهى مستقرة على الساحل الغربى للرقيق الزنوج المعتقين ،

ومراكش ويحكمها سلطان مسلم ، والحبشة وهى قطر همجى ، به نوع من المسيحية قديم عجيب ، وقد نجحت فى الاحتفاظ باستقلالها سلميا من يد إيطاليا فى معركة عدوة فى ١٨٩٦ .

١٣ — السابقة الهندية فى آسيا

من العسير أن يعتقد الانسان أن أى عدد عظيم من الناس قد قبل حقيقةً هذا الصبغ الأهوج لخريطة إفريقيا بالألوان الأوربية بوصفه تسوية مستدعة جديدة لشئون العالم ، على أن من واجب المؤرخ أن يسجل أنّ التقسيم قُبل على ذلك الأساس .

ولم يكن هناك من وراء العقل الأوربى فى القرن التاسع عشر إلا خلفية تاريخية ضحلة ، ولم يكد أن يكون لديه أى شعور بالمكونات التى تقوّم نظاماً سياسياً مستديماً ، وليس لديه أى عادة اعتادها من النقد النفاذ . وإن المزايا الوقتية البحتة التى آثرت بها بداية الثورة الميكانية فى الغرب الدول الأوربية الكبرى على سائر العالم القديم ، كانت تعد فى نظر الناس ، ممن يجهلون كل الجهل غزوات المغول العظيمة فى القرن الثالث عشر وما عقبه من قرون ، أمارات تدل على زعامة الأوربيين المستديمة المحققة للجنس البشرى . ولم يكن لديهم أى إدراك لقابلية العلم وثماره للانتقال . ولم يدر بخلدهم أن الصينيين والهنود كان فى مستطاعهم أن يواصلوا العمل فى الأبحاث بنفس الاقتدار الذى عليه الفرنسيون أو الإنجليز . فإنهم كانوا يعتقدون أن هناك نوعا من الدافع الذهنى الفطرى موجوداً فى الغرب ، ونوعا من التراخى والمحافظة الفطريين فى الشرق يؤكدان للأوربيين السيادة الأبدية على العالم .

وكانت عاقبة هذا الجنون هى أن وزارات الخارجية الأوربية المختلفة نصبت نفسها لا لمجرد التدافع مع البريطانيين على الأقاليم الهمجية غير المتطورة على سطح الكرة الأرضية ، بل نشطوا كذلك لتقطيع أقطار آسيا المتمدنة الآهلة بالسكان ، كأنما لم تكن هذه الشعوب أيضاً تزيد على مواد خام تنتظر الاستغلال الأوربى . فإن استعمار الطبقة البريطانية الحاكمة للهند ، ذلك الاستعمار المقلقل فى داخله الباذخ فى ظاهره ، وإن أملاك الهولنديين الواسعة المربحة فى جزائر الهند الشرقية — ملأت قلوب الطبقات الحاكمة والتجارية فى الدول الأوربية المنافسة بأحلام عظمة مماثلة ، فى بلاد فارس ، وفى الإمبراطورية العثمانية المتفككة ، وفيما بقى من الهند وفى الصين واليابان .

وفى أثناء السنوات الختامية للقرن التاسع عشر — كما قد يستطيع القارئ أن يحقق ذلك بفحصه أدب (: مؤلفات) تلك الفترة المتداول — كان الناس يفترضون أن من الطبيعى

الذى لا مفر منه أن يقع العالم بأجمعه تحت السيطرة الأوربية . وأعد الذهن الأوربى نفسه فى شىء من روح الخير المتكرهة لتناول ما سماه المستر « رديارد كيلنج » « واجب الرجل الأبيض » وأعنى به السيادة على الأرض . ونصبت الدول نفسها لهذا المشروع فى حالة منافسة متدافعة بالمناكب ، وسكانها بأرض الوطن متعلمون نصف تعليم أو جهلة أميون ، وليس فى جعبتها غير فئة قليلة من الرجال لا تزيد على الحثوة عداً ، أو لا تتجاوز فى أقصاها آلافا قليلة من الرجال ، مشتغلين بالبحث العلمى ، بينما نظمها السياسية الداخلية فى حالة توتر أو تغير تشنجى ، ونظامها الاقتصادى ضعيف متداع ، كما أنه وقتى طارئ غير مستقر إلى أقصى حد ، وبينما دياناتها قد بلغت من التصدع والانحلال كل مبلغ . كانوا يعتقدون اعتقاداً حقيقياً أن فى الإمكان إخضاع سكان آسيا الشرقية الهائلى العدد إخضاعا مستديماً لمثل أوربا هذه .

ولا يزال يوجد فى العالم حتى فى هذه الأيام رجال كثيرون يفوتهم أن يقبضوا على الحقائق الضرورية فى هذا الموقف . فإنهم لا يدركون أن معدل الذكاء فى آسيا ليس أدنى فى نوعه ذرة واحدة عن معدل ذكاء العقل الأوربى . وأن التاريخ يظهر الآسيويين وهم من الجرأة والقوة والكرم ، والتضحية بالذات ، والاقتدار على العمل الحشدى القوى كالأوربيين سواء بسواء ؛ وأنه يوجد — ولا بد أن يظل يوجد — من الآسيويين عدد عظيم يفوق كثيراً عدد الأوربيين فى العالم .

وقد كان من العسير على الدوام الحيلولة دون ترشح العرفان من شعب إلى آخر ، وها هو منع الترشح يصبح اليوم أمراً مستحيلا . فالظروف العصرية الراهنة تجعل المساواة الشاملة بين أجزاء العالم عامة فى الشئون الاقتصادية والتعليمية أمراً لا مندوحة منه على ممر الزمان . وإن هناك لدعوة ذهنية وخلقية لاستنهاض الآسيويين فى هذا الزمان . فإن ما أفسدته فترة الانحراف اليسيرة التى امتدت قرنا أو ما يقارب القرن ، تصلحه عشرات قليلة من السنين . فإنه يوجد فى العصر الحاضر مثلا ، مقابل كل إنجليزى يعرف الصينية معرفة تامة ، أو له أى إلمام وثيق بالحياة الصينية والفكر الصينى ، مئات من الصينيين ممن يعلمون كل شىء يعلمه الإنجليز .

وربما كان رجحان ميزان العرفان فى ناحية الهند أكبر من هذا وأعظم . فإلى بريطانيا ترسل الهند الطلاب ، على حين ترسل بريطانيا إلى الهند الموظفين — وهم فى معظم الحالات رجال غير مدربين على الملاحظة العلمية . وليس هناك منظمة أيا كانت لإرسال الطلاب الأوربيين بوصفهم طلابا — لفحص تاريخ الهند ، وآثارها وثقافتها القديمة ، وشئونها السارية وللقيام

فيها بالمباحث ، أو لإيجاد وسيلة يتصل بها العلماء الهنود بالطلاب البريطانيين فى بريطانيا .

ومنذ (١٨٩٨) وهى سنة استيلاء ألمانيا على كياوشاو واستيلاء بريطانيا على واى هاى واى وتأجير بورت آرثر للروسيا — تحركت الأحداث فى الصين أسرع مما تحركت فى أى قطر آخر فيما عدا اليابان . فإن كرها عظيما للأوربيين قد اجترف الصين اجتراف النار ، ونمت جمعية سياسية ترمى إلى طرد الأوربيين ، هى جمعية البوكسر ، التى تحولت إلى العنف فى ١٩٠٠ . وكان هـذا اندلاعا لهيب الغضب والشر على شاكلة قديمة الطراز تماما . فى ١٩٠٠ قتل البوكسر ٢٥٠ أوربياً كما قتلوا فيما يقال ما يقارب ٣٠٫٠٠٠ مسيحى . وكانت الصين ، ولم يكن ذلك لأول مرة فى التاريخ ، تحت حكم إمبراطورة أرملة ، وكانت امرأة جاهلة ، ولـكنها كانت على درجة عظيمة من قوة الخلق كما كانت تعطف على البوكسر عطفاً وثيق العرى . فناصرتهم وحمت من تسببوا فى الاعتداء على الأوربيين . وكان كل ذلك هو ما عسى أن يحدث إزاء الهون فى ٥٠٠ ق . م أو ما يقاربها .

ووصلت الأمور إلى أزمة فى ١٩٠٠ . فإن البوكسر تزايد خطرهم وتهديدهم للأوربيين فى الصين . واتخذت محاولات ترمى إلى إرسـال حراس إضافيين إلى السفارات الأوربية فى بيكين ، ولـكن لم تكن لذلك من نتيجة إلا التعجيل بتفاقم الأمور . فإن السفير الألمانى قد قتله بالرصاص فى شوارع بيكين جندى من الحرس الإمبراطورى . واجتمع بقية الممثلين الأوربيين ، وجعلوا من السفارات التى كانت ذات موقع أنسب وأحسن من غيرها — حصناً وقاوموا حصاراً دام شهرين . ومن ثم سيرت على بيكين قوة متحدة متحالفة بقيادة جنرال ألمانى ، وخلصت السفارات مما كانت فيه ، وفرت الإمبراطورة إلى سيان فو ، وهى عاصمة تاى تسونج القديمة فى شانسى . وارتـكب بعض الجنود الأوربيين فظائع خطيرة فى السكان المدنيين الصينيين . وهذا يرجعنا إلى قرابة مستوى ١٨٥٠ ، على وجه التقريب .

وعقب ذلك أن قامت الروسيا فعلا باستلحاق منشوريا إليها ، ثم نشب نزاع بين الدول ، ثم غزو بريطانى فى ١٩٠٤ لبلاد التبت ، وكانت حتى ذاك الحين قطراً محظوراً . ولـكن الشىء الذى لم يظهر على سطح هذه الأحداث ، والذى جعل كل هذه الأحداث مختلفة اختلافا جوهريا ، إنما هو أن الصين كانت تحتوى آن ذاك على عدد جسيم من الناس المقتدرين الذين تعلموا تعليما أوربيا وعرفوا العرفان الأوربى .

وهدأت فتنة البوكسر ، ثم أخذ سلطان هذا العامل الجديد يظهر فى الحديث عن إنشاء دستور ١٩٠٦ ، وفى منع تدخين الأفيون ، وفى الإصلاحات التعليمية . وظهر إلى عالم الوجود

فى ١٩٠٩ دستور على الطراز اليابانى ، يجعل الصين ملكية مقيدة ، ولكن لايجوز أن تصب الصين على الغرار اليابانى ، واستمرت الحركة الثورية . وكانت اليابان أثناء العود إلى تنظيم نفسها وعلى اتساق منها مع مزاجها الخاص ، قد حولت وجهها إلى الغرب ذى النظام الملكى ، ولكن الصين كانت تنظر عبر المحيط الهادى . وفى ١٩١١ ابتدأت الثورة الصينية الجوهرية . وفى ١٩١٢ تنازل الإمبراطور عن العرش، وأصبح أكبر مجتمع فى العالم جمهورية . وكان خلع الإمبراطور هو فى الوقت ذاته خلع أسرة مانشو ، وكفت الضفيرة المغولية التى كان يرسلها الصينيون منذ ١٦٤٤ ، عن أن تكون شيئاً إلزامياً .

ومن الراجح أنه فى هذا الزمن الراهن يوجد من المادة الذهنية المتعقلة الجيدة ومن الرجال المخلصين الذين يشتغلون فى صبغ المدنية الصينية بالصبغة المصرية وإعادة تنظيم تلك المدنية عدد أكبر مما قد نراه موجهاً لمصلحة أى شعب أوربى بمفرده . وسوف يكون للصين للفور كتابة عصرية عملية ، وصحافة ، وجامعات عصرية جديدة عفية ، ونظام صناعى قد أعيد تنظيمه ، ثم هيئة نامية من البحاثين فى العلم والاقتصاد . وسوف يطلق سراح الاجتهاد الطبيعى والمهارة الفطرية فى شعبها الهائل حتى يتعاون على قدم من المساواة مع العالم الغربى .

نعم ما يزال أمامها بعد صعاب داخلية عظيمة ، ولا يستطيع أى إنسان أن يقضى فى هذا الشأن برأى . ولا مندوحة من مرورها فى دور حرب أهلية وفتنة . ومع هذا فقد لا يكون بعيداً ذلك الزمان الذى تصبح فيه ولايات الصين المتحدة يداً واحدة مع الولايات المتحدة الأمريكية ومع أوربا المتسالمة المتصالحة ، وتكون معواناً فى إقامة صرح السلام المنظم فى العالم .

١٤ — تاريخ اليابان

غير أن القطر السباق إلى الانتعاش بين الشعوب الآسيوية لم يكن مع ذلك هو الصين بل اليابان . وقد تعجلنا مسير قصتنا حين تحدثنا عن الصين . ولم تلعب اليابان حتى الآن إلا دوراً صغيراً فى هذا التاريخ ؛ فإن مدنيتها المنعزلة لم تقم بالشىء الكثير فى الصوغ العام للمقدرات الإنسانية ؛ نعم إنها تلقت الشىء الكثير ، ولكنها لم تعط إلا قليلا . ولعل السكان الأصليين فى الجزائر اليابانية كانوا شعباً شمالياً له وشائج نوردية بعيدة ، وهم الأينو (Ainu) الشعرون . ولكن اليابانيين الأقحاح إنما هم من عنصر منغولى . وإنهم ليشبهون من الناحية الجثمانية الأمرنديين (Amerindians) (أى الهنود الأمريكيين) ، وإن هناك لمواضع شبه غريبة بين الخزف قبل التاريخى وما إليه فى اليابان وما يماثلها من المنتجات المصنوعة فى بيرو .

وليس من المستحيل أنهم جدول خلفى متراجع عن تيار الثقافة النيوليثية فى مسيره عبر المحيط ، ولعلهم امتصوا كذلك من الجنوب عنصراً من الملايو أو حتى عنصراً من النجريتو[1].

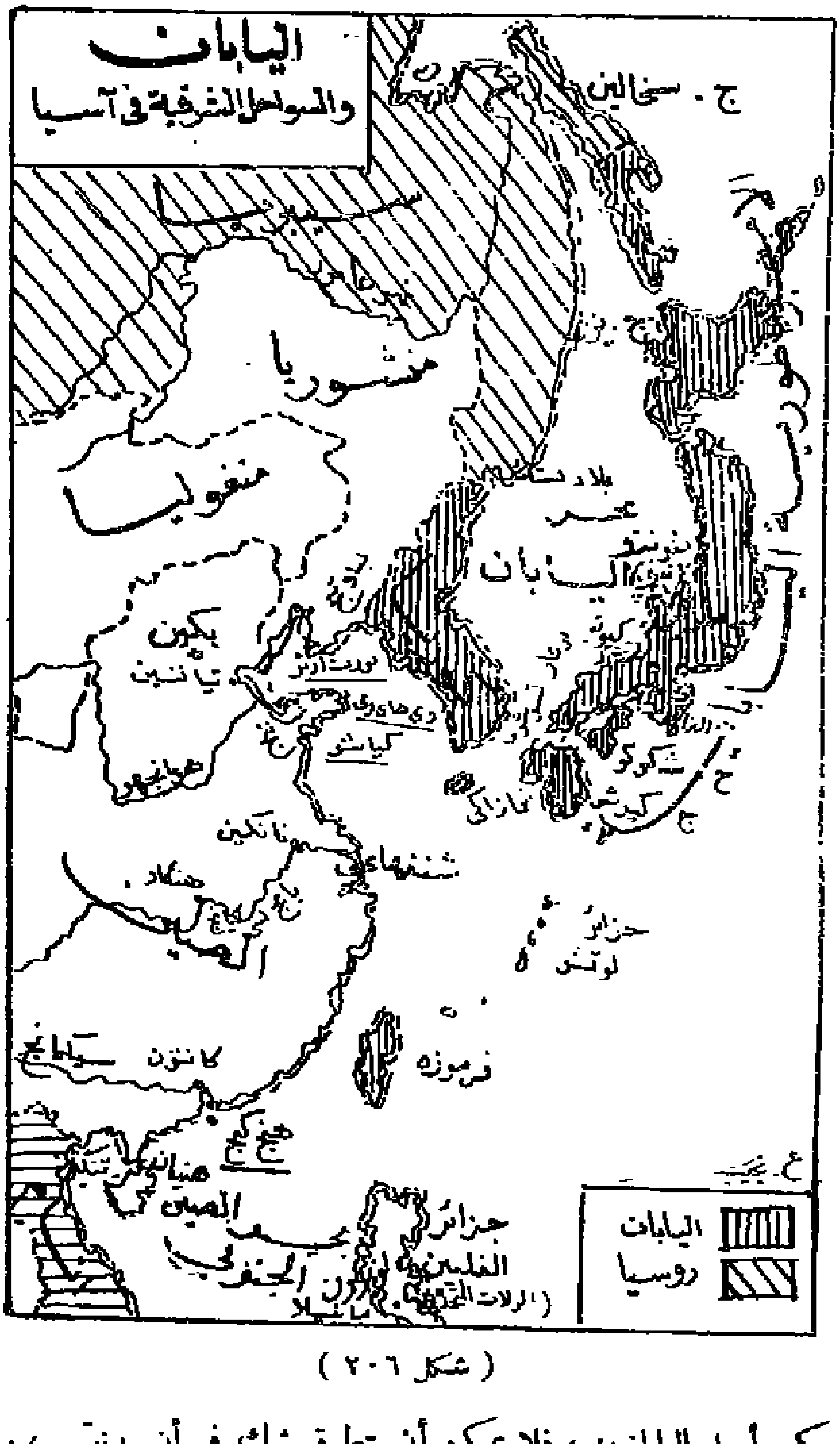

(شكل ٢٠٦)

ومهما يكن أصل اليابانيين ، فلا يمكن أن يتطرق شك فى أن مدنيتهم ، وأن كتابتهم وأن تقاليدهم الأدبية والفنية مشتقة من الصينية . كانوا قد أخذوا ينفضون عنهم غبار الهمجية فى قرنى الحقبة المسيحية الثانى والثالث ، وكان من أقدم أعمالهم — بوصفهم شعباً — خارج

(١) النجريتو : أو النجريللو : شعب متأخر من الأقزام يسكن شبه جزيرة الملايو وجزائر الفيليبين.

بلادهم غزوهم لبلاد كوريا تحت حكم ملكة قد نلقبها جنجو[١]، يلوح أنها لعبت دوراً كبيراً فى تأسيس مدنيتهم . وتاريخهم تاريخ شائق رومانسى ، فإنهم طوروا نظاماً إقطاعياً وتقاليد للفروسة ، وما هجماتهم على كوريا والصين إلا ممادل شرقى للحروب الإنجليزية فى فرنسا .

وقد حملت اليابان لأول مرة على الاتصال بأوربا فى القرن السادس عشر . إذ حدث فى ١٥٤٢ أن بعض البرتغاليين وصلوا إلى برها فى سفينة صينية ، وفى ١٥٤٩ شرع مرسل يسوعى اسمه فرانسيس زاڤير يقوم بالتبشير هناك . وتصف بيانات اليسوعيين بلادهم بأنها بلاد خربتها الحروب الإقطاعية المستديمة تخريباً كبيراً . وظلت اليابان ردحاً من الزمان ترحب بالعلاقات مع أوربا ، واستطاعت الإرساليات المسيحية أن تدخل فى الدين المسيحى عدداً كبيراً من الناس . وأصبح شخص بعينه اسمه وليم آدمز من جلنجهام فى كنت ، أوثق مستشار أوربى تطمئن له نفس اليابانيين ، وعلمهم كيف يبنون السفن الكبيرة . وقام اليابانيون بسفن مبنية فى اليابان برحلات إلى الهند وبيرو .

ثم نشأ شقاق معقد بين الدومينيكيين الأسبان ، واليسوعيين البرتغاليين ، وبين البروتستانت الإنجليز والهولنديين ، وكان كل يحذر اليابانيين من خطط الآخرين السياسية الخبيثة . وعمد اليسوعيون ، وهم فى دور من أدوار التسلط إلى اضطهاد البوذيين وإهانتهم فى شيء كثير من الشراسة . واشتبكت هذه الفتن مع منازعات الزمان الإقطاعية . وانتهى اليابانيون إلى الحكم بأن الأوربيين ومسيحيتهم آفة لاتطاق وأن المسيحية الكاثوليكية بوجه خاص مجرد ستار يُلقى على أحلام البابا السياسية وأحلام ملك أسبانيا السياسية — الذى كان قد تملك من قبل جزائر الفليبين ، وحدث اضطهاد حاسم عظيم للمسيحيين ، وفى ١٦٣٨ أصبحت اليابان باستثناء مصنع هولاندى تعس على جزيرة ديشيما الضئيلة فى ميناء نجازاكى ، مقفلة إقفالا تاماً فى وجوه الأوربيين ، وظلت مقفلة زماناً يربو على مئتى سنة .

وتعرض الهولنديون القاطنون ديشيما لإهنات لاتكاد تطاق . ولم يكونوا يتصلون بأى يابانى اللهم إلا الموظفين المختصين المعينين للتعامل معهم . وظل اليابانيون قرنين من الزمان منقطعين تمام الانقطاع عن بقية العالم كأنما كانوا يعيشون على ظهر كوكب آخر . وكان محظوراً عليهم أن يبتنوا فلكا يكبر عن محض زورق ساحلى . ولم يكن فى مستطاع أى يابانى أن يسافر إلى الخارج ، ولا أى أوربى أن يدخل البلاد .

(١) جنجو : داعية إلى الحرب .

وظلت اليابان قرنين وهى بمنآة عن تيار التاريخ ومجراه الأكبر . وإنما واصلت العيش فى حال من الإقطاع الجذاب التى ينعشها النزاع الدموى ، كان فيه جماعة من السكان يقاربون الخمسة فى المئة هم الساموراى (أعنى رجال الحرب) والنبلاء وعائلاتهم ، يظلمون سائر السكان ظلماً فاحشاً لاحد له . وكان جميع العامة من الرجال يجثون كلما مرّ بهم أحد من النبلاء ؛ وكان إبداء الرجل أيسر قدر من عدم الاحترام للنبيل معناه أن يضربه (ساموراى) أى جنود ذلك النبيل بالسياط إلى أن يقضى نحبه وكانت الطبقات الممتازة تقضى حياتها فى مغامرة رومانسية لايتسرب إليها أى شعاع من الجدة ينقذها مما هى فيه من إملال ، كانوا يعشقون ويقتتلون ويتّسمون بضروب من الشرف ممتازة — ولعل ذلك كان يُدخل أشد السآمة على أذهان الأذكياء منهم . ومن اليسير علينا أن نتصور تعاسة الذهن الطُّلعة ، حين يعذبه التلهف على الرحلة والمعرفة وهو مصفد بالأغلال فى جزائر الرومانس الجوفاء تلك .

وفى نفس الحين كان العالم الكبير فى الخارج يسير قُدُماً إلى دُوَى أرحب وقوى أحدث . وأمست السفن العجيبة أكثر عدداً ، وهى تمر برؤوس الأراضى اليابانية الممتدة فى البحر ، وكانت بعض السفن تتحطم فى الأحايين ويحمل ملاحوها إلى الشاطىء . وجاءت النذر بطريق ديشيما الحلقة الوحيدة التى تصلهم بالعالم الخارجى ، تقول إن اليابان تساير قوة العالم الغربى . وفى ١٨٣٧ دخلت خليج يدو سفينة رافعة علماً غريبا من الخطوط والنجوم ، تحمل بعض بحارة يابانيين التقطتهم وقد قذف بهم التيار قذفا بعيداً فى المحيط الهادى . ودفعت السفينة خارج الميناء بقذيفة مدفع .

وسرعان ما عادت هـذه الراية إلى الظهور على سوارى سفن أخرى . جاءت إحداها فى ١٨٤٩ للمطالبة بإخلاء سبيل ثمانية عشر ملاحا أمريكيا تحطمت بهم سفينتهم . ثم وصلت فى ١٨٥٣ أربع سفن أمريكية بقيادة القومودور پرى (Perry) ، ورفضت أن تنسحب إلى خارج الميناء . وألقى القومودور مراسيه فى مياه محظورة ، وأرسل الرسائل إلى الحاكمين اللذين كانا آنذاك يشتركان فى حكم اليابان . وفى ١٨٥٤ عاد ومعه عشر سفن ، سفن مدهشة يدفعها البخار ، وهى مزودة بالمدافع الضخام ، فقدم مقترحات يطلب بها التجارة والتبادل والتواصل ، ولم يكن لدى اليابانيين قِبَلٌ بمقاومتها . ونزل إلى البر يحف به حرس مكون من خمسمئة رجل لكى يوقع المعاهدة . واصطفت الجماهير وهى بين مصدق ومكذب ووقفت ترقب هذه البعثة النازحة من العالم الخارجى وأفرادها يسيرون فى الشوارع .

ثم قفت الروسيا وهولنده وبريطانيا خطوات أمريكا . ودخل الأجانب إلى بلاد اليابان

وتبع ذلك وقوع المنازعات بينهم وبين الأذكياء من سراة اليابان . فقتل أحد الرعايا البريطانيين فى إحدى مشاجرات الشوارع ، وأطلق البريطانيون مدافعهم على إحدى المدن اليابانية فى ١٨٦٣ . ورأى أحد كبار النبلاء الذى تستشرف أملاكه مضيق شيمونوسيكى ، أن من المناسب أن يطلق النار على السفن الأجنبية ، فكان عاقبة ذلك أن قام أسطول ثان مكون من سفن بريطانية وفرنسية وهولندية وأمريكية بقذف بطارياته بالقنابل وتدميرها وتشتيت شمل سائقته . وأخيراً جاءت عمارة بحرية متحالفة (١٨٦٥) ، فألقت مراسيها خارج أوساكا ، وفرضت على اليابان التصديق على المعاهدات التى فتحت أبوابها للعالم .

وكان تحقير هذه الأحداث وإذلالها لليابانيين شديداً حاداً ، ولقد يلوح أن خلاص الشعوب ينحصر إلى حد كبير فى مثل هذه الإهانات . فقام اليابانيون قومة تجلى فيها العجب العجاب من النشاط والذكاء ونصبوا أنفسهم لرفع ثقافتهم وتنظيماتهم إلى مستوى الدول الأوربية . ولم يحدث قط فى التاريخ الإنسانى بأجمعه أن خطا شعب خطوة كالتى خطاها الشعب اليابانى يوم ذاك . ذلك أنها كانت فى ١٨٦٦ شعباً ينتمى إلى القرون الوسطى ، وكانت صورة هزلية مضحكة للإقطاع الرومانسى المتطرف . وفى ١٨٩٩ كان شعبها قد أمسى شعباً تام الاصطباغ بالصبغة الغربية ، على نفس مستوى أشد الدول الأوربية تقدما ، بينما كانت تسبق الروسيا بمراحل كثيرة . فأزالت من الأذهان تماما ذلك الاعتقاد القائل بأن آسيا متأخرة عن أوربا بطريقة قاطعة ، تأخراً لا رجاء فى إصلاحه . فجعلت كل التقدم الأوربى يبدو بالمقايسة متوانياً عارضاً .

ولسنا بمستطيعين أن نذكر لك هنا فى أى تفصيل وقائع حرب اليابان مع الصين فى ١٨٩٤ — ١٨٩٥ . فإنها كشفت عن مدى اصطباغها بالصبغة الغربية . فكان لها جيش غربى ذو كفاية وتدريب وأسطول سليم التكوين وإن يكن صغيراً . ولكن مغزى نهضتها ، وإن كانت تقدره بريطانيا والولايات المتحدة حق قدره — وكانتا آنفاً قد أخذتا تعاملانها كأنما هى دولة أوربية — لم تفهمه الدول الكبرى الأخرى المشتغلة بالبحث عن « هند » عظيمة أخرى فى قارة آسيا . فكانت الروسيا تشق طريقها دفعاً خلال منشوريا إلى كوريا ، وكانت فرنسا قد وطدت آنفا أقدامها فى الجنوب الأقصى فى تونكين وأنام ، وكانت ألمانيا تتربص تربص الجياع بحثاً عن مستقر تركن إليه . واتحدت الدول الثلاث لمنع اليابان من اجتناء أية ثمرة من الحرب الصينية ، ولمنعها بوجه خاص من توطيد أقدامها على أرض القارة فى المناطق

المستشرفة على بحر اليابان . وكانت الحرب مع الصين استنفدت قواها ، فهددوها بإعلان الحرب عليها .

وفى ١٨٩٨ هبطت ألمانيا أرض الصين ، وإذ اتخذت من مقتل اثنين من المبشرين ذريعة ، فإنها ضمت إليها جزءاً من مقاطعة شان تونج . وعند ذلك استولت الروسيا على شبه جزيرة لياوتونج ، وانتزعت من الصين قسراً قبولها مد خط سكة حديد سيبيريا إلى بورت آرثر ؛ وفى ١٩٠٠ احتلت منشوريا . ولم تستطع بريطانيا أن تقاوم النزوع إلى المحاكاة ، فقبضت على ميناء واى هاى واى ١٨٩٨ .

وإن نظرة واحدة إلى الخريطة لتدلك إلى أى حد كانت هذه الحركات ولا بد مجلبة للفزع فى قلب كل يابانى زكى الفؤاد . فأدت تلك الحركات إلى حرب مع الروسيا تتأذن بحقبة جديدة فى تاريخ آسيا ، هى حقبة انتهاء فترة الكبرياء الأوربى . ومن البديه أن الشعب الروسى لم يكن له علم ولا جريرة فى هذه التدابير التى كانت تصنع له فى تلك الشقة السحيقة من العالم ، وكان رجال السياسة الروسيون الأكثر حكمة واتزانا يناهضون هذه الضربات الحمقاء ، ولكن عصابة من المغامرين الماليين كانت تتكنف القيصر ، من بينهم أبناء عمومته الغراندوقين . وكانوا قد انغمسوا حتى الأذقان فى مقامرتهم التى يرمون بها إلى ما سوف يصيبون من نهب منشوريا والصين ، ولم يسمحوا لأنفسهم بأن يتراجعوا عن خططهم أدنى تراجع . ومن ثم شرعت اليابان فى إرسال الجيوش الجرارة من الجنود اليابانية عبر البحر إلى بورت آرثر وكوريا ، ونهضت الروسيا لإرسال عدد لا حصر له ولا نهاية من أحمال القطارات المثقلة بالفلاحين الروسيين على طول خط سكة حديد سيبريا لكى يموتوا فى ميادين القتال النائية هذه .

وهزم الروسيون فى البر والبحر على السواء لما كانوا عليه من سوء القيادة وعدم الأمانة فى التموين . ودار أسطول الروسيا بالبلطيق حول إفريقيا لكى يحطم عن آخره فى مضيق تسوشيما . وقامت حركة ثورية بين العامة من سكان الروسيا الذين أحنقتهم هذه المذابح الجسيمة التى لا مسبب لها ، فأجبرت القيصر أن ينهى الحرب فى ١٩٠٥ ، فرد النصف الجنوبى من جزيرة سخالين التى كان استولى عليها فى ١٨٧٥ ، وأخلى منشوريا وتنازل عن كوريا لليابان . فالرجل الأبيض قد شرع بذلك ينفض عن نفسه عبئه وتبعته فى آسيا الشرقية . وظلت ألمانيا مع هذا تمتلك كياوتشاو امتلاكا قلقاً غير مطمئن .

١٥ – ختام فترة التوسع وراء البحار

لاحظنا آنفاً كيف أن مغامرة إيطاليا فى الحبشة صُدت فى معركة عدوة الرهيبة فى ١٨٩٦ ، التى قتل فيها مايربو على ثلاثة آلاف إيطالى وأُخذ فيها أكثر من أربعة آلاف أسير . وكان دور التوسع الاستعمارى على حساب الدول المنظَّمة غير الأوربية قد أخذ يدنو من خاتمته دنواً بيناً . وكان قد ورط شئون بريطانيا العظمى وفرنسا وأسبانيا وإيطاليا وألمانيا والروسيا السياسية والاجتماعية التى تحمل ما يكفيها من التعقيد والعُسر ، وشبكها بشئون أمم غريبة متكرهة غير قابلة للتمثل . كانت بريطانيا قد أخذت مصر (وإن لم تلحقها بها حتى ذلك الحين رسمياً) ، والهند وبورما وعدداً من مثل تلك المشاكل الصغرى أضراب مالطة وشنغهاى ، وكانت فرنسا قد أبهظت نفسها بتونكين وأنام بالإضافة إلى الجزائر وتونس ، وكانت أسبانيا مشتبكة حديثاً فى بلاد مراكش ، وكانت إيطاليا قد أوجدت لنفسها المتاعب بطرابلس ، وكانت الروح الاستعمارية الألمانية وراء البحار وإن بدا مركزها « تحت الشمس » هزيلا ، تتعلل بكل ما تستطيع من أمانى فى التعلق بفكرة القيام فى المستقبل بحرب مع اليابان على كياو شاو .

وكانت كل هذه الأراضى المحكومة تضم سكاناً على مستوى من الذكاء والتعليم يقل قليلا جداً عن مستوى القطر المتملك ، وكان تطور الصحافة الوطنية ، والوعى الذاتى الحشدى ، والمطالبة بالحكم الذاتى ، أمراً لامحيص منه فى كل حالة من الحالات ، وكان رجال السياسة فى أوربا فى شغل شاغل بالحصول على هذه الإمبراطوريات ، حتى لم تكن لديهم فكرة صحيحة عما ينتوون أن يفعلوا بها عند حصولهم عليها .

ذلك أن الديموقراطيات الغربية وجدت نفسها مستعمرة لغيرها ، وهى بعد ما تزال تستيقظ على ضياء الحرية ، فأربكها ذلك الوجدان إرباكا جسيما . وجاء الشرق إلى عواصم الغرب يحمل طلبات محيرة . فى لندن أخذ الرجل الانجليزى العادى وهو أشد ما يكون شغلا بالإضرابات ، والألغاز الاقتصادية والتأميم ، وإقامة اللامركزية ، بإنشاء البلديات وما إليها ، يجد من يقطع عليه الطريق ومن يغشى مجالسه العامة من رجال مهذبين كثيرين متزايدين فى عددهم ، رجال سُمر يرتدون الطرابيش والعمائم وأنواعاً أخرى عجيبة من لباس الرأس ، وكلهم يقول ما معناه الواقعى « لقد استحوذتم علينا . والرجال الذين يمثلون حكومتكم قد حطموا حكومتنا ، وهم يحولون بيننا وبين إنشاء حكومة جديدة فماذا أنتم فاعلون بنا ؟ . »

١٦ – الإمبراطورية البريطانية فى ١٩١٤ .

ولعلنا نلحظ هاهنا فى إيجاز تام الطبيعة الشديدة الاختلاف للأجزاء التى تتكون منها الإمبراطورية البريطانية فى ١٩١٤ . فإنها كانت وما تزال خليطاً سياسياً فريداً فى نوعه تماما . إذ لم يظهر على وجه البسيطة قط شىء من قبيلها . فهى شىء جديد فى التاريخ السياسى ، جدة الولايات المتحدة ، وهى شىء أكبر وأشد تعقيدا من أى دولة من تلك الدول القومية المذهب أضراب فرنسا وهولنده والسويد .

وكانت الأولى والمراكز فى تلك المجموعة بأسرها هى الجمهورية المتوجة فى المملكة المتحدة البريطانية ، المحتوية إرلنده (على غير إرادة فريق جسيم من الشعب الإرلندى) . وكانت غالبية البرلمان البريطانى ، وقوامه البرلمانات الثلاثة المتحدة لانجلترا واسكتلندة وإرلنده ، تحدد رياسة الوزارة وصفتها وسياستها ، وتحددها إلى حد كبير ، بناء على اعتبارات ناشئة عن السياسة البريطانية الداخلية . وهذه الوزارة هى الحكومة الفعالة ، وبين يديها قوة التصرف فى السلم والحرب ، على سائر أجزاء الإمبراطورية .

وكان يلى هذه الولايات البريطانية فى الأهمية السياسية ، الجمهوريات المتوجة ، أستراليا وكندا ونيوفوندلند (أقدم ممتلكة بريطانية ١٥٨٣) — ونيوزيلنده وجنوب إفريقيا ، وكلها دول مستقلة تقريبا تحكم نفسها بنفسها متحالفة مع بريطانيا العظمى ، على أن بكل منها ممثل للتاج تعينه الحكومة التى فى الحكم . ثم تجىء الإمبراطورية الهندية وهى توسعة الإمبراطورية المغولى الكبير ، وتمتد الآن بما فيها من ولايات تابعة ومحمية ، من بلوخستان إلى بورما ، كما تضم عدن ، وكان التاج البريطانى فى كل أرجاء تلك الإمبراطورية ، ووزارة الهند (تحت الرقابة البرلمانية) يقومان فى كل هذه الإمبراطورية بدور الأسرة التركمانية الأصلية .

ثم تجىء ممتلكة مصر الغامضة ، وهى ماتزال من الناحية الإسمية جزءاً من الإمبراطورية التركية ، وماتزال تحتفظ بعاهلها الخاص وهو الخديو ، ولكنها تحت حكم للموظفين البريطانيين يكاد يكون استبداديا . وليلحظ القارئ أن مصر جعلت مملكة شبه مستقلة متحالفة مع بريطانيا فى ١٩٢٢ . ثم تأتى ولاية السودان المصرى الإنجليزى التى هى أشد غموضا ، والتى يحتلها ويحكمها الحكومتان البريطانية والمصرية مشتركتين .

وثم عدد من المجتمعات التى تحكم نفسها حكما جزئيا ، بعضها بريطانى الأرومة وبعضها غير بريطانى ، ولها مجالس تشريعية منتخبة وهيئات تنفذية معينة ، من أمثال جمايكا وجزائر

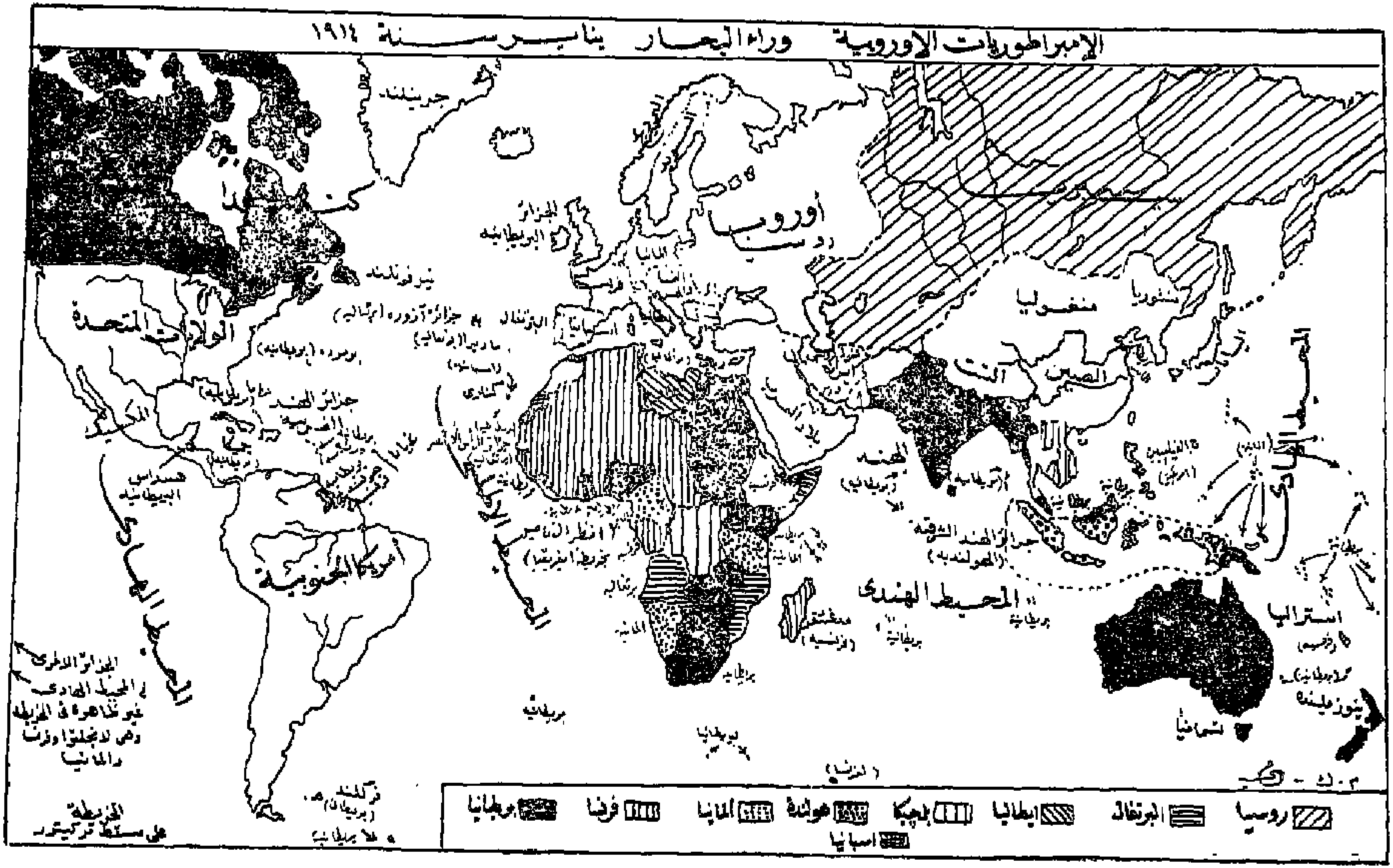
الإمبراطوريات الأوروبية وراء البحار يناير سنة ١٩١٤
كندا
جرينلند
نيوفوندلند
الولايات المتحدة
المكسيك
جزائر الهند الغربية
هندوراس البريطانية
أمريكا الجنوبية
أوروبا
روسيا
الجزائر البريطانية
منغوليا
الصين
التبت
منشوريا
الهند
جزائر الهند الشرقية (الهولندية)
الفليبين (أمريكا)
المحيط الهندي
مدغشقر (فرنسا)
استراليا
نيوزيلنده
تسمانيا
روسيا
البرتغال
ايطاليا
بلجيكا
هولندة
المانيا
فرنسا
بريطانيا
اسبانيا
الجزائر الأخرى في المحيط الهادى غير ظاهرة في الخريطة وهى لانجلترا وفرنسا والمانيا
الخريطة على مسقط مركيتور

(شكل ٢٠٧)

الباهاما وبرمودا ومالطة . وقد أعلن فى يونية ١٩٢٠ دستور مالطى جديد أكثر أسمحية ، ويكاد يضع مالطة فى مستوى مستعمرة تحكم نفسها بنفسها .

ثم مستعمرات التاج ، التى يكاد فيها حكم الحكومة البريطانية الأصلية فى بريطانيا (بواسطة وزارة المستعمرات) يقارب الحكم المطلق ، كما فى سيلان وترينيداد وفيجى (حيث كان هناك مجلس معين) وجبل طارق وسانت هيلانه (حيث كان هناك حاكم) ، ثم مناطق عظيمة من أراض مدارية (فى معظم الأمر) ، وهى مناطق تنتج المواد الخام ولها مجتمعات من البلديين ضعيفة سياسياً وناقصة فى المدنية ، كانت من الناحية الاسمية محميات ، وكان يديرها إما مندوب سام ينصب فوق الرؤساء الوطنيين كما هو الحال فى باسوتولاند ، أو من فوق شركة ذات مرسوم كما هو الحال فى روديسيا . وكانت وزارة الخارجية فى بعض الحالات وكانت وزارة المستعمرات فى بعض الحالات ، وكانت وزارة الهند فى بعض الحالات ، هى الوزارة ذات الشأن فى الحصول على الممتلكات التى تقع تحت هـذا الصنف الأخير الذى هو أقل الأصناف تحديداً ، ولـكن وزارة المستعمرات كانت فى معظم الشأن المسئولة الآن عنها .

وعلى هذا فن الجلى أنه ما من وزارة بمفردها وما من عقل بمفرده قد تفهم قط الإمبراطورية البريطانية فى مجملها . كانت خليطاً من ضروب النمـاء والتوسع يختلف اختلافاً كلياً عن أى شىء سمى من قبل باسم إمبراطورية . وكانت تضمن للناس سلماً مترامى الأطراف وأمنة شاملة ، فمن أجل ذلك يعينها ويناصرها ويحتملها كثير من رجال الشعوب المحكومة — بالرغم مما يقاسون من استبداد الموظفين وعدم كفاياتهم وعظيم التهاون الذى يبديه جمهور بريطانيا فى أرض الوطن .

وهى شأن الإمبراطورية الأثينية ، إمبراطورية تمتد وراء البحار ، طرقها هى الطرق البحرية ، ورابطتها المشتركة هى الأسطول البريطانى . وتماسكها شأن كل الإمبراطوريات يقوم من الناحية التكوينية على وسيلة من وسائل المواصلات . وقد أدى التطور فى فن الملاحة البحرية وبناء السفن والسفينة البخارية فيما بين القرن السادس عشر والتاسع عشر إلى جعل ذلك السلم وأعنى به «السلم البريطانى» أمراً ميسوراً مريحاً ؛ وربما أدت التطورات الجديدة فى النقل الجوى أو البرى السريع أو فى فن الحرب فى أعماق البحار إلى جعله أمراً غير مريح أو شيئاً معرضاً للخطر تعرضاً لا مرد له .

١٧ — التصوير والنحت والعمارة

كنا نكتب عبارة القرن التاسع عشر لأن ذلك لفظ متداول يسهل علينا استعماله ، ولكن من الجلي للقارىء أن فترة هذا الفصل ليست فى الحقيقة محصورة بين ١٨٠٠ ، ١٩٠٠ بل بين ١٨١٥ ، ١٩١٤ . فلم تحدث بين هذين التاريخين كوارث ساحقة ولا أزمات قلابة جائحة . أجل كانت التغيرات الجارية جسيمة جداً فى واقع الأمر ، بيد أنها لم تكن تغيرات فجائية ولا هى كانت بأى حال نقضاً وعكساً لسيرة الأمور العامة .

وقبل أن نعالج ذلك التشنج الذى ختم به قرن التقدم والاختراع هذا ، فإن من الخير أن نجرد ثلاثة أقسام للصور التى عبر بها الفن عن نفسه . ولقد سبق أن عالجنا تطور معارفه العلمية وفلفسته السياسية ، وسننظر الآن أولا إلى فنى التشكيل والتصوير فيه ، ثم نتجه بأبصارنا إلى حياته الموسيقية ، ثم إلى أدبه الخلاق المبدع .

وتعكس لنا قصة التصوير الأوربى إبان النصف الأول من القرن التاسع عشر صورة التغيرات الاجتماعية فى ذلك الأوان . وهو زمان أخذت فيه الطبقة الوسطى وأعنى بها الطراز التجارى الجاد من الناس تزداد ثروة وأهمية بسرعة فائقة . فكان ذاك زمان أصحاب مصانع أثروا واغتنوا وزمان ماليين جدد أصابوا من التوفيق المالى حظاً كبيراً . وسرعان ما ظهرت السكك الحديدية والسفن البخارية والتجارة الخارجية فى مواد الطعام الرئيسية كما ظهرت الثروات المشتغلة بالمضاربة والناتجة عن هذه الأمور بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . وكان يساور البلاطات الأوربية التى أعيدت إلى الحكم نزوع إلى استرضاء أصحاب هذه الثروة الجديدة والاختلاط بهم . وأمسى الموسرون من أرباب المصانع هم رعاة التصوير والعمارة النموذجيون ، وكانوا يحاولون أن يدخلوا فى عداد الجنتلمانية والسراة . فكانوا يرغبون فى أن تكون لهم الصور التى يعملها الجنتلمان للجنتلمان ، أكثر مما تشخص أبصارهم إلى احتياز على القوة الرائعة أو الجمال المحير . وإن أحدهم ليرغب فى صور يستطيع أن يتناول بإزائها طعامه أو يحتسى شايه وقد امتلأ صدره بشعور الارتياح والرضا ، وكان على استعداد أن يبذل فيها المال بسخاء . ومضى عن هذا العالم الفنان الأسبانى المتقلب المدهش جويا (١٧٤٦ — ١٨٢٨) ومصورا المناظر البرية الإنجليزية العظيمان : كونستابل (١٧٧٦ — ١٨٣٧) وترنر (١٧٧٥ — ١٨٥١) ثم داقيد وإنجرس اللذان حدثناك عن كونهما المعبرين عن روح الإمبراطورية الفرنسية ، مضوا جميعاً ولم يبق لهم على ظهر البسيطة من ضريب . على أن عمل التصوير أصبح مهنة رائجة .

وكانت الأكاديمية الملكية البريطانية والصالون[١]، الفرنسى يقيمان المعارض السنوية للصور المرسومة بغية إدخال اللذة والسرور على الأفئدة ، وكان الفنانون يشترون الدور الكبيرة الفخمة ويعيشون عيش الترف الكريم . بل لقد بلغ أمرهم فى انجلترا أن أنعم على العديد منهم بلقب سير . وسار النحت فى نفس الاتجاه . ولئن كف تقدير الناس للصور عن أن يكون عميقا شديد العمق ، فلقد أصبح منتشراً واسع الانتشار . وأوشك الرحيل السنوى إلى لندن لرؤية الأكاديمية أن يصبح أمراً إلزامياً على جموع كبيرة من الجمهور الإنجليزى .

ولكن حدث مع تجاوز القرن لسنيه الوسطى ، أن ظهر فى عالم الفن نفس الميل إلى القلق وعدم الاستقرار ، ذلك الميل الذى كان السبب فيما حل بالنظام الدينى والاجتماعى فى أوربا من اضطراب . ففى انجلترا شرع رسكن (١٨١٩ — ١٩٠٠) ووليم موريس (١٨٣٤ — ١٨٩٦) ، ينتقدان خواء الأكاديمية وتفاهتها فى الفنون والزخارف المعاصرة انتقاداً كان له تأثير مزعج . وحدث بين رجال التصوير تصدع وانقسامات .

وظهرت مدارس جديدة ، نخص بالتنويه منها أصحاب مذهب « ماقبل رافائيل » الذين شرعوا يبحثون عن السوابق والأساليب فى عمل تلك الأيام القديمة أى قبل أن يصبح التصوير رشيقاً . فولوا وجوههم يظللهم استحسان رسكن وموريس شطر العصور الوسطى ، وأخذوا يصورون صوراً تمثل أبطال الملك آرثر[٢] والعذارى المباركات . ووجه آخرون منهم من ذوى النفوس الأكثر ثورة أنظارهم إلى العالم المحيط بهم . وظل كوروت (١٧٩٦ — ١٨٧٥) محتفظا بكل قوة بصيرته طوال سنين الركود تلك ، وشهدت فرنسا بعد كارثة (١٨٧٠ — ١٧٧١) فى عمل الأساتذة من أضراب ديجاز ومانيه ورنوار رجعة كبيرة إلى سوابق رامبراندت وڤلاسكويز . ولابد لنا من أن نذكر مع هؤلاء الفرنسيين اسم هويسلر الامريكى العظيم (١٨٣٤ — ١٩٠٣) . ودب فى الناس وهم لا يكادون يعون — دبيب البرم بالصورة المحتشمة ، ثم ظهر طراز من عمارة الدور لم يكن ليسمح بترك فراغ من الجدران للصورة الزيتية ذات الإطار . حتى إذا اقتربت تلك الفترة من نهايتها تناقص ما تنتجه يد المصور من صور تباع وتعلق على الجدران فى أى موضع كان ، تناقصاً محسوساً ، وأخذ المسئولون يوجهون ذلك السيل المنهمر من طلاب الفنون توجيهاً مضطرد النجاح — إلى طلب الفن الزخرفى الأكثر تواضعا والأقرب إلى النفوس .

---

(١) الأكاديمية البريطانية والصالون الفرنسى : جمعيتان تهتمان بالفنون الجميلة .

(٢) الملك آرثر : ملك بريطانى قديم وبطل فى الأساطير ، كتب عنه اللورد تيسون قصة « موته آرثر » نقلا عن أساطير القرون الوسطى .

وظهرت عند مختتم القرن التاسع عشر بوادر كثيرة تدل على أن الفن قد تخطى أوج حالة التمثيل الدقيق المضبوط . فاختفت من البُسط والسُدف وأقمشة الثياب ، الصور التى تمثل الأزهار والأشكال الإنسانية ، وأصبح التمثيل صفة ثانوية خافتة فى فنى التصوير والنحت . ولقد لاحظنا فيما سلف فترة اتجاه سابقة ترمى إلى إظهار الواقع أثناء حكم أخناتون فى مصر وأخرى فى العهد الإغريقى الرومانى ، كما لاحظنا كيف انحدر هـذا الدور الأخير سريعاً إلى الجمود وقلة العمق والرمزية فى الآثار البيزنطية والقوطية وإلى الطريقة الشكلية والهندسية فى الزخرفة الإسلامية . وأقدم من ذلك كثيراً أن الروح التأثرية (الانطباعية Impressionism) المشرقة فى الفترة الباليوليثية المتأخرة قد عقبها المذهب الشكلى الذى كان فى الفن النيوليثى الأول . وهنا أيضاً عن الواقع نرى الفن فى العقدين الأولين من القرن العشرين وهو يغير سبيله وكأنما أصابته التخمة منتقلا صارفا النظر عن الشكل الخارجى إلى ترسم الحركة ، عائداً من جديد إلى التحليل والرمز . ومن المحتمل أن يضطرد الفن فى سبيله هـذا . ومما يعينه الآن كذلك كفاية (الفوتوغرافية) التصوير الشمسى فى أمور الدقة العارضة البحتة . وإن العالم ليضيق ذرعا بالحقائق غير المهضومة .

وقد افتتح ذلك القرن بدور من أدوار الجمود فى العمارة . فإن التقاليد الكلاسيكية التى كان يناصرها غلبة المتحذلقة الكلاسيكيين على المدارس ، قد تسلطت شيئاً فشيئاً وصدت بالتدريج تيار التطور الحر لطراز النهضة ، وظهر على معظم البنيّات الجديدة مظهر الأسف على عصر مضى منذ ألفين من السنين . فكانت تظهر فى كل مكان واجهات من الزخارف الجصية[1] بيضاء معمدة . ثم ظهر — مع النهضة الرومانسية فى الأدب ، التى سوف نناقشها من فورنا بإسهاب كبير ، ومع انهيار محاولة نابليون ابتعاث روما الإمبراطورية — أن انتقل التفات هذه الفترة الشديدة التقليد والمحاكاة صوب العصور الوسطى . وحدث بعـد الانتعاش الكلاسيكى انتعاش قوطى تبدت قوته بوجه خاص فى بريطانيا ، وأنتج فيما أنتج من مآثر عظيمة باهرة كثيرة ، دارى البرلمان الحاليين . ثم استعيدت فترة الملكة آن ، التى تميزت بتطور خاص فى طرائق (عصر النهضة) ، التى ما تزال قائمة . وإن المهندسين المعماريين فى بريطانيا ليبنون لك قصرا أو داراً على الطراز الكلاسيكى أو القوطى أو الاسكتلندى الباروني أو طراز الملكة آن ، فأما الطراز الوحيد الذى لم يظهر على ظهر الأرض البتة فهو طراز القرن التاسع

---

(١) الزخارف الجصية (Stucco) : استعيرت هذه الكلمة للدلالة على طراز بذاته أكثر مما استعيرت على مادة بعينها ، وهى تطلق عادة على النقوش البارزة وأمثالها من زخارف البناء . وهى تصنع من الجبس أو الأسمنت المبلط أو لاصوق الجير .

عشر . كان رجال الإنجليز يغـدون ويذهبون فى سراويل وقبعات عاليـة وثياب دكناء يحرصون فيهـا على أن تكون عصرية محترمة إلى حد كبير ، ولـكن بيوتهم ومبانيهم العامة كانت تكسى فى ثياب الماضى الموات الخالى من الروح ، كأنما كانت تستعد لحضور حفلة رقص تنكرية تظللها الغرابة والـكآبة .

على أنه ظهر فى فرنسا وألمانيا قدر أوفى وأكثر من البادهة والابتكار فى فن العمارة ، فإن طراز « عصر النهضة » كان ما يبرح يعيش ويتطور فى فرنسا . ومع هذا فإن تلك المشاكل الشائقة التى يواجهها فن العمارة فى أشياء من أضراب محطات السكك الحديدية وكبارى السكك الحديدية والمستودعات والمصانع وما إليها ، لم يجرب فيها إنسان واحد مقدرته فى أى مكان تجربة جدية ، اللهم إلا ألمانيا فيما يحتمل . وكان القبح الدال على عدم الـكفاية المعمارية هو القاعدة فى إقامة أمثال تلك المبانى ، وكأنمـا كان اندفاع الاحتياجات الجديدة والمواد الجديدة والغرض الجديد قد غلب المهندس المعمارى على أمره وسلبه شجاعته فى ذلك العصر . ومن أعجب منتجات دور التخوف ذاك وأشدها دلالة على عصرها قنطرة برج لندن ، التى خُلط فيها بين هيكل متين خفيف من الصلب وبين لمحات من طريقة النحت الفلمنكى للأحجار وبين ذكريات لقنطرة رافعة[١] من قناطر العصور الوسطى . على أن جميع مبانى بريطانيا فى القرن التاسع عشر طافحة بذكريات تاريخ ردىء بالٍ .

ولعلك تستطيع أن تقول أن قد انحط فن عمارة المنازل أكثر مما انحدر فن عمارة المبانى العامة ، إبان شطر كبير من القرن . فإن الزيادة الضخمة فى عدد السكان فى دول أوربا وهى الزيادة التى استنفدت قدراً طائلا من موارد ذلك العصر المزيدة ، قد أدت إلى زيادة مخيفة فى بناء البيوت المنحطة الرتبة حول المدن النامية ؛ فأقيمت صفوف لاحصر لها من البيوت الصغيرة الوضيعة فى بريطانيا ، وبيوت حكر قبيحة فى معظم الأقطار الأوربية الأخرى . ولم يحدث إلا عند ما قارب القرن غايته وهبطت نسبة المواليد وظهر أثر السيارة فى إعادة توزيع السكان الذين كانوا يتوالدون ويتزاحمون حول محطات سكة الحديد ، أن انبعث اهتمام عام بفن عمارة المنازل وأن ظهرت أنماط عصرية لطيفة من الدور الخلوية الصغيرة وبيوت الريف .

وكانت أمريكا قد أنتجت أيام الاستعمار طرازا من طرز البيوت الريفية ملاءما تمام الملاءمة ، كان بوجه أخص فى فرجينيا وبلاد الجنوب ، وهو تكييف لفن عمارة البيت الريفى البريطانى طبق الأحوال المحلية ، وقد نشأ هـذا الأول متفرعاً من جذع شجرة النهضة المثمرة . ولقد

(١) قنطرة توضع على الخندق المحيط بإحدى القلاع وقطعة تحركها فى نهايتها ، فإذا أريد إغلاقها رفعت .

سبق أن أشرنا إلى فضل السير كريستوفر رنّ على هذا التطور . وفيما عدا هذا المنحى المنزلى ترى فن العمارة الأمريكى لا يزيد فى معظمه حتى أخريات القرن التاسع عشر عن تصميمات أوربية منقولة ، مثال ذلك أن الكابيتول القام فى واشنجتون إنما هو من عمل الفرنسيين . وربما كان فى الإمكان أن يشاد فى باريس أو بروكسل . وكان الشىء الكثير من مبانى المنازل هزيلا عادياً . وعندما اقتبست بريطانيا نافذة شرائح الزجاج (Sash Window) احتفظت أمريكا بالشباك المستعمل فى القارة الأوربية . على أنه حدث والقرن فى عقديه التاسع والعاشر أن الثروة المتزايدة والاعتماد النامى على الذات فى العالم الجديد فجّرا ابتكارات معمارية جديدة قوية . وشرعت أمريكا فى استعمال مبانى الفولاذ والزجاج والخرسانة ، استعمالا تجلى فيه قدر متزايد من الجرأة والنجاح . وكان من أثر هذه المواد واختراع المصعد وإحكامه أن أصبح من الميسور بناء مبان ذوات ارتفاع واتساع ليس لها مثيل سابق . ففى ١٨٧٠ لم يكد يكون هناك شىء اسمه فن العمارة الأمريكى ؛ وعند ما حلت ١٩١٠ كانت أمريكا قد سبقت العالم بمراحل فيما تجلى عمائرها من جدة وجرأة . وبرزت ألمانيا فترة قبيل ذلك . وتبرز أسماء ريكاردسون (١٨٣٨ — ١٨٨٦) وستانفورد وايت (١٨٥٣ — ١٩٠٦) بين أسماء المهندسين المماريين الأمريكيين فى هذا العهد الجديد .

وإلى أمريكا فى القرن العشرين يجب أن تشخص الأبصار لترى التعبير التدريجى فى البناء وإعداد المنازل للناس ذلك التعبير عن القوى والموارد الجديدة التى كشفها القرن التاسع عشر لأنظار الإنسانية . وربما جاز لنا بالعلاقة إلى هذا التطور فى فن العمارة أن نتوقع هنالك تطورات أخرى جديدة جديرة بالتنويه فى النحت والتصوير والفسيفساء (الموزاييك) وفى فنون الزخرفة عامة . ولسوف تكون فى تلك القارة الفرصة الكبرى ، والثروة الكبرى وحرية الفكر الكبرى .

١٨ — الموسيقى فى القرن التاسع عشر .

لم يلق فيض الخلْق والإبداع الموسيقى الذى اطرد إبان القرن الثامن عشر شيئاً يذكر لا من الموانع ولا من العراقيل طيلة فترة هذا الفصل . وقد سبق أن ذكرنا أسماء موزار وبيتهوفن بوصفهما كوكبين بلغا بالقرن الثامن عشر الذروة . ويحملنا بيتهوفن قُدُماً إلى صميم القرن التاسع عشر ، ولابد لنا من أن نذكر بإزائه معاصره ويبر (١٧٨٦ — ١٨٢٦) وهو رجل أخذ نفسه بالمذهب التجريبى واستحدث مستحدثات ذات أهمية جوهرية ، ثم خلف بعدها

بقليل شخصيات شوبرت (١٧٩٧ — ١٨٢٨) ، ومندلسون (١٨٠٩ — ١٨٤٧) وشومان (١٨١٠—١٨٥٦) الجليلة القدر . وليس فى مستطاعنا كذلك أن نغفل شأن «كاتدرائيات النغم» لسيزار فرانك (١٨٢٢ — ١٨٩٠) .

وكانت الموسيقى قد أخذت تنتقل رويداً رويداً من موضعها الأول تحت رعاية الملوك والنبلاء إلى قاعة[١] العزف وإلى الاستقامة لأذواق جمهور مهذب تهذيباً خاصاً . وكان هناك إلى جوار الأوبرات عدد متزايد من قطع الغناء والبيانو أنشئت للمنازل المهذبة الأذواق وقطع من موسيقى الرقص للحفلات الاجتماعية . ولم يكن ثمة تقدم مقابل لهذا فى الموسيقى الدينية بعد أيام هاندل وباخ . على أن الرعاية الملكية كانت ماتزال ذات أهمية كبرى لمؤلفى ألحان الأوبرات ، وكانت بلاطا باڤاريا والروسيا بوجه خاص مثابة لنوع جديد من دراما الأوبرا ولفكرة جديدة عن رقص الباليه[٢] .

وإنك لتستطيع أن تتأثر فى موسيقى ذلك القرن مهمات[٣] العصر ومصالحه المتزايدة الأفق . فأخذ الملحنون يطلبون موضوعات جديدة وفكرات طريفة وروحا جديدة يتغنونها فى موسيقى العامة من سكان أوربا الشرقية والشعوب الشرقية .

فاستعمل شوپان الموسيقى البولندية (١٨٠٩ — ١٨٤٩) ، واتخذ لست (١٨١١ — ١٨٨٦) وجوا كيم (١٨٣١ — ١٩٠٧) من الهنغارية موردا للوحى يردانه ، وتجاوز براهمس (١٨٣٣ — ١٨٩٧) هذا الميدان حين عرّج على الهند يطلب مادة يُدخلها على ألحانه التى هى بطبيعتها كلاسيكية . وولد ڤاجنر فى ١٨١٣ وتوفى فى ١٨٨٣ ، فتأثر خطى ويبر ومزق تقاليد الأوبرا الراسخة ، فأدخل الروح الدرامية على موسيقى الآلات ووسع مجالها إلى حدٍ بعيد ، وحملها قوة جديدة وعاطفة جديدة . ثم أعقبه فى الروسيا تشايكوفسكى (١٨٤٠ — ١٨٩٣) وموسورجسكى (١٨٣٥ — ١٨٨١) وومسكى كورساكوف (١٨٤٤—١٩٠٨) فكشفوا عن عوالم جديدة من البهجة واللون . ولسنا بمستطيعين فى هذا المجال الضيق الذى بين أيدينا إلا أن نقتصر على ذكر اسم داڤوراك التشيكى (١٨٤١ — ١٩٠٤) وأن ننوه بالإقدام الحيوى الذى كان عليه ريكارد ستراوس (الذى ولد فى ١٨٦٤) والجمال البهيج لدى ديبوسى (١٨٦٢ — ١٩١٨) .

(١) قاعة العزف (Concert Hall) : قاعة تقام فيها الحفلات الموسيقية للجمهور .

(٢) رقص الباليه : سلسلة متقنة من الرقصات تتم على نغمات الموسيقى ، وتمثل فيها الأفعال والشخصيات والمشاعر الخ .

(٣) المهمات : هى الموضوعات التى يهتم بها الناس .

ولم تنتج أمريكا حتى اليوم إلا الشيء القليل من الموسيقى العظيمة المشهورة . وكما أن أمريكا وثبت فجأة من حالة اللاشيئية فى العمارة إلى فن العمارة العظيم مع قدوم الأحوال الجديدة ، وأعنى بذلك المبنى الفولاذى والمواد التى لم تسبق تجربتها حتى أخريات القرن التاسع عشر ، فمن المحتمل أن يبزغ عن الغرب (أمريكا) فى أى وقت فجرُ صور موسيقية جديدة وتحرر جديد . ومنذ أمد غير بعيد « والجلبة » تنتقل من أمريكا إلى أوربا بدرجة متزايدة الارتفاع — وهى فى الأحايين « جلبة » مرحة كل المرح . وقد أثر الروح الزنجى أثره فظهر فى حجرة الرقص وفى قاعات الموسيقى . وليس بمستبعد أن يأتى ذلك اليوم الذى يصبح فيه الأمريكى فى الكونسرتو — على الأقل — فخوراً سعيداً بهذا الينبوع الأسود فى الجنوب . على أنا لا نستطيع أن نتحدث ها هنا عن موسيقى الجاز (Jazz) وما يتصل بها من تطورات .

ولسنا بعاودين القول فى الموسيقى فى هذه « المعالم » . والفترة الحالية تتميز بانتشار فسيح المدى لشيء كان فى قديم الزمان امتيازاً لطبقة مثقفة . فإن الحاكى والبيانولا[1] وجهاز الراديو يجعل العالم بأجمعه ضريبا بخير الملحنين وأعظمهم .

١٩ — نهوض القصة إلى مرتبة الصدارة فى الأدب

من المحال فى هذا المكان الذى بين أيدينا الآن أن ندلى إليك إلا بشيء لا يتجاوز أيسر البيانات وأشدها تبسيطاً نذكرها عن ذلك الفيض العظيم فى المناشط الأدبية التى حاولت القوى الجديدة فى قرن التوسع ذاك أن تعبر بها عن نفسها . وقد سبق أن عالجنا الفكرات الرئيسية لمؤسسى الاشتراكية ومكونيها وتأثير النظرة العلمية النامية على الفكرات الدينية والسياسية والاجتماعية . على أنه من المستحيل علينا أن نفى بكامل حقوق الأهمية الدائمة والتأثير التواصل لمفكرين عمليين من أضراب آدم سميث (١٧٢٣—١٧٩٠) ومالثوس ، (١٧٦٦ — ١٨٣٤) وخلفائهما ، أو لذلك النظر والتأمل العميق النفاذ أمثال ما جاد به شوبنهور (١٧٨٨ — ١٨٦٠) ونيتشا (١٨٤٤ — ١٩٠٠) فى ألمانيا . ثم يجىء هيجل (١٧٧٠ — ١٨٣١) وهو أشبه ما يكون بصنف جذاب مغرد فى أسفل قائمة أطعمة طويلة جداً ، ولا بد لنا من تركه ، ولقد انحرف بتيار الفكر العصرى انحرافا عجيباً جداً ، ولكنه ينتعش من تأثير انحرافه .

كذلك ليس فى طوقنا أن نناقش ها هنا مفارقات الذوق وسخافات التأويل التى جملت

---

(١) البيانولا : هى البيانو الأوتوماتيكى الذى تشغله البدالات ، ويجوب به بعض الناس فى الطرقات .

من اللورد بيرون (١٧٨٨ — ١٨٢٤) ذلك الهجاء الركيك الشعر الذى يضم بين جوانحه فلسفة متسكع من رجال المدن ولا يزيد ، — شخصية عظيمة فى فكرة القرن التاسع عشر عن الأدب فى كل أرجاء أوربا ، كذلك لسنا بواضعين جيته (١٧٤٩ — ١٨٣٢) فى كفة الميزان ، وهو من ظل طيلة سنين عديدة رب ألمانيا الذهنى والجمالى ، فلقد فقد تلك المنزلة الرفيعة من زمن بعيد بعد أن نثر على العقل الألمانى ثروة عظيمة من الأدب الكلاسيكى المنقول كان عظيما وشيقاً مجتهداً كان هو الجامع النبيل فى ميادين الأدب كما كان بيرون فيها هو الثائر النبيل .

وقد استهل القرن بتفجر جسيم فى ينابيع الشعر ، فى بريطانيا بوجه خاص . كان شعرا ذا خصائص مميزة خاصة به ، إذ يتجلى فيه إدراك جديد للطبيعة بوصفها ذات علاقة عاطفية بالإنسان ، وإغفال للعقائد غير مقصود ولا مدرك ثم اقتراب مطلق إلى أعمق مسائل الحياة ليس إلى رده من سبيل ، وكأنما انفلت الشاعر وهو لايكاد يشعر من صلب المعتقدات المقررة المتنفة إلى عالم طليق . وإن لقصائد هذا الدور عامة للمسة قصصية رعا رقت فأصبحت نسيا هفهافا — وإنها لتتهادى وعليها من الرشاقة وحب الجدل وكثرة التنوع أبراد جميلة زاهية . وأسماء شيلى (١٧٩٢ — ١٨٢٢) وكيتس (١٧٩٥ — ١٨٢١) ووردسورث (١٧٧٠ — ١٨٥٠) إنما هى أبرز أسماء فى هذا العصر عصر التعبير الشعرى الانجليزى . ولقد كان وردسورث بما جبل عليه من روح فنان منوعة الأشكال هو الطائر المغرد بالمذهب التصوفى الحلولى الذى يعبد الله فيما أبدعته يده من طبيعة ، والشادى بذلك الإحساس العميق بالله فى الطبيعة . وكان شيلى أول الشعراء العصريين وأعظمهم ، وكان مشبع الذهن بالفكرات العلمية ، وكان إدراكه للسمة الوقتية التى عليها النظم السياسية فى زمانه يسبق فكرة كل معاصريه بمراحل عديدة . ثم اطرد الدافع الشعرى فى انجلترا فى الجيل التالى بقدر أعظم من الألحان والجمال وحظ أدنى من بعيد التضمين على يد تنيسون (١٨٠٩ — ١٨٩٢) ، الذى نال محبة عظيمة من الناس ، وتزلف الملكة فكتوريا ، وكان أول من نال لقب اللوردية من أجل شعره من الشعراء الانجليز . وقصيدته « موت آرثر » خليقة أن تقف بإزاء فن عمارة ذلك الزمان . ولم تكن شهرة لونجفلو (١٨٠٧ — ١٨٨٢) راجعة إلى أنه الكفو الأمريكى لتنيسون قدر ما تعود إلى ترجيعه صوته .

وارتقى الشكل المسمى بفن القصة النثرى — متطوراً على درجة أعظم بطئا وفى وجه

معارضة وتثبيط من الهيئات المدرسانية[١] والأكاديمية[٢] والنقدية — فسما شيئاً فشيئاً حتى أصبح والشعر بمنزلة سواء ثم مالبث أن استعلى عليه . وكان ذلك الشكل هو ما كان الناس يقرأون حقاً وكان هذا هو مايطلبه الزمان . وأخذ الكتاب النثرى العظيم المتحدث عن الحياة ، والذى يخالط التسلسل القصصى مادته ، والذى تسلفه من قبل رابليه ونهض به ما أنتجه فيلدنج وسترن من روايات غير مطردة السياق ، يبرز فى مهل إلى حال من الاكتمال وإلى منزلة اعتراف الناس به مع تقدم الزمن بالقرن . ومع اطراد نموه طولا وقوة ظهرت القصة القصيرة والأقصوصة إلى جواره .

وكانت القصص الأولى قصص حوادث ودراسات للأخلاق . وترجع بنا فانى برنى (١٧٥٢ — ١٨٤٠) إلى عالم الدكتور جونسون . وجاءت جين أوستن (١٧٧٥ — ١٨١٧) تعمل داخل حدود ضيقة ، فواصلت النهوض بتقاليد الملاحظات النسوية حين آن فى النهاية أوان التعبير عنها . ومن قيود وتضييقات هذا الضرب من الحكاية المتعلقة بالأخلاق والإحساسات ، تمضى القصة الإنجليزية فتحطم أغلالها بالتدريج مع خروج ذهن ذلك العصر على ما كان يحده من أصفاد .

وهناك شخصية عظيمة جداً كبيرة الأثر فى توسيع الرواية تتمثل فى الكاتب الألمانى جان بول ريختر (١٧٦٣ — ١٨٢٥) . فإن قصصه مجرد سمط تسلك فيه انحرافات عن السياق مزخرفة مرصعة بالجوهر . وثمة كاتب ألمانى كبير آخر هو هينى (١٧٩٧ — ١٨٥٦) . وقد أثر ريختر فى مؤلفات الكاتب الإنجليزى توماس كارليل أعمق التأثير . وعن طريق كارليل اتصل تأثير ريختر الجذل غير المطرد السياق بشارلس ديكنز (١٨١٢ — ١٨٧٠) وجورج مرديث (١٨٢٨ — ١٩٠٩) . وكان ثاكارى (١٨١١ — ١٨٦٣) المنافس الكبير لديكنز يحمل قراءه ويهيم بهم فى الأرض ويغمرهم بالتفلسف ممسكا بتلابيبهم على شاكلة أقرب إلى الانتهال من طريقة سترن منها من الطريقة الألمانية . وقد أمثل شارلس ريد فى روايته الدير والبيت النزاع الذى ما يزال قائماً بين البروتستانت والكاثوليك فى أوربا فى ثنايا رومانس عظيمة . وألفى كل من ثاكارى وكارليل نزعتهما إلى مناقشة الحياة مناقشة حرة تقتادهما مبتعدة بهما عن أشكال الرواية الصريحة إلى التفسير والتعليق على الأدوار التاريخية . وإن هناك لرابطة طبيعية ضرورية بين الرواية العظيمة ذات الطراز الإنجليزى وبين التاريخ .

---

(١) المدرسانية : هيئات التدريس المتحذلقة بجامعات القرون الوسطى .

(٢) الأكاديمية : العلمية .

وكان كتابا كارليل الثورة الفرنسية وفردريك الكبير يقرآن كما تقرأ الروايات ، ولقى ما كولى (١٨٠٠ — ١٨٥٩) نجاحاً باهرا بكتابه تاريخ الفترة الاستيوارتية الأخيرة . والحق إن الذنب فى عدم إقبال جمهرة الناس على قراءة التاريخ يقع على عاتق المؤرخين لا الجمهور . فإن أمثال ليتون ، واستراكى ، وجود الله وبيلوك من نوابغ كتاب التاريخ محبوبون فى انجلترا وأمريكا كحب مؤلفى الروايات سواء بسواء .

فأما فى فرنسا فإن نفس الضرورات والتطلعات التى وسعت الرواية الإنجليزية من قصة مجردة إلى صورة للحياة وتفسير لهـا ، قد ألهمت بلزاك (١٧٩٧ — ١٨٥٠) إلى القيام بذلك الجهد الجليل : « الكوميديا الإنسانية » . وعلى مبعدة مسافات كبيرة أدنى من بلزاك يجىء خلفه زولا (١٨٤٠ — ١٩٠٢) . ويكتب كتابه طبقات عائلة روچون ما كار — الشبيه بمؤلفات بلزاك ، وهو مجموعة من الروايات تتأثر حظ أسرة فرنسية وفيرة العدد مدى أجيال عديدة . ويقف شخص ڤكتور هوجو (١٨٠٢ — ١٨٨٥) فريداً فى زمانه وهو صاحب ذهن فياض جرىء زاهر يبلغ فى بعض الحين حـد البهرجة المسرفة ، فيقذف بالتمثيليات ، والقصائد والروايات والبحوث السياسية . ولـكن الواقع أنه حدث فى فرنسا أن سلطان الأكاديمية والتقاليد الكلاسيكية وتقاليد النظام المدرسانى ، قد روضت على الجملة فن الرواية وأخضعته رغم أنها لم تستطع أن تكبح هذه الحالات الاستثنائية . قال البيداجوجيون[1] ينبغى للرواية أن تتخذ شكلا ، ولا بد لها من أن تكون صحيحة ، ويجب ألا تخرج عن مطرد السياق ، ويجب أن تكون مؤدبة غير شخصية فى منوالها . وبذلك اعتيقت الرواية الفرنسية وهى فى طريقها إلى حريات التجريب المحدودة ، التى كان يتمتع بها الروائيون الإنجليز . وفلوبير (١٨٢١ — ١٨٨٠) وهو يكتب مُضيَّقاً عليه بهذه الحدود الثابتة — هو أشد الكتاب الفرنسيين لبـاقة وصقلا وإتقاناً .

وينتمى توماس هاردى (١٨٤٠ — ١٩٢٨) آخر الروائيين العظام فى العصر الڤيكتورى إلى هذه المدرسة الفرنسية الكلاسيكية أكثر مما ينتمى إلى تقاليد الرواية الإنجليزية . ولقد ثارفى أخريات أيامه على القيود التى غل نفسه بأغلالها ، ثم هجر الرواية هجرانا تاماً ، ثم بلغ أوج عظمته الفنية بكتابه الأمراء وهو تمثيل وعرض للمعاصرة النابليونية بأكملها فى صورة دراما ، وهذا مثال جديد على الوشائج الوثيقة التى تربط بين الروائى العظيم وبين المؤرخ المفسر للتاريخ .

فالرغبة فى المعرفة بالحياة وما يحدث لها ، والنزوع إلى استجواب الحياة استجواباً وثيقاً

---

(١) وهم المتحذلقة من العلماء والمدرسين .

حاداً ، تلك الرغبة التى جعلت البريطانيين يضيقون ذرعاً بقيود الشعر وتضييقاته الشكلية ورفعت الرواية (: القصة) وأشكالها القريبة إلى مرتبة السيادة الأدبية ، — قد انتشرت فى كل الأقطار الأوربية . فأنتجت ألمانيا والروسيا ، وإسكنديناوة بوجه خاص ، أدباً عظيما صاغته فى شكل روايات . وأبرز اسم يبدو بين حشد حاشد من الروائيين المبدعين الألمان هو اسم جوستاف فريتاج (١٨١٦ — ١٨٩٥) . وأنتجت النرويج مؤلفها بيورنسون (١٨٣٢ — ١٩١٠) ؛ وأشرقت فى الروسيا مجموعة كبيرة من النجوم المتألقة تبدأ بجوجول (١٨٠٩ — ١٨٥٢) وتنتهى بدستوفسكى (١٨٢١ — ١٨٨١) وترجنيف (١٨١٨ — ١٨٨٣) وتولستوى (١٨٢٨ — ١٩٠٠) ، وتشيكوف (توفى ١٩٠٤) .

على أنه لم يكن جميع القراء فى القرن التاسع عشر تواقين مستطلعين . إذ كان يمازج الأنماط والطبقات المليئة الأذهان بالشكوك والتقدم ، أنماط وطبقات اجتماعية غير ناشطة تقاوم الفكرات الداعية إلى التقدم مقاومة فعالة .

وإلى جوار ذلك ، وفى قدر عظيم نام متزايد من التآليف التى كانت تستثير العقول وتنبهها ، ظهر فى أوربا وأمريكا على السواء ، إنتاج ضخم من المادة المكتوبة فى كل مستوى من مستويات التقدم الفنى (التكنيكى) .

وكان الناس قد تعلموا القراءة ، إذ وجد لديهم الزمن الوفير والحاجة الكبيرة إلى القراءة ، وكانوا يقرأون رغبة منهم فى كبح تيارات أذهانهم لا فى تشجيعها على الفيض .

والسير والتر سكوت شخصية سوف يحير الأجيالَ المقبلةَ نفوذها الهائل على معاصريها ، كما حيرهم نفوذ اللورد بيرون . فإنه بدأ حياته الأدبية شاعراً ، وكان يكتب قصائد قصصية مسهبة ثرثارة ؛ ثم انقلب يكتب سلسلة من الرومانس التاريخية ، يُمجد فيها الماضى الرومانسى ، ويُشيد بالولاء للملكيات ، وبثراء التقاليد وجذالتها .

ولشد ما راقت هذه النغمة الأثرياء والجنتلمانية ، وكان الجزع قد أخذ يدب فى نفوسهم لما يرونه من جمود لا يطمئنون إليه ، يشهدونه فى الحاضر المتغير المتشكك . كان أبا لموجة من الروايات الرومانسية المليئة بالأسف ، لا فى كل العالم المتكلم بالإنجليزية فقط ، بل فى كل أرجاء أوربا .

فأما فى قارة أوربا فإن هذين الكاتبين — وكانا يُترجمان أو يكتب شعرهما نثراً إلى حد عجيب — كانا يستعملان رمزاً لموجة عظيمة مبهمة من التأثيرات ، موجة معقدة فى أصولها مترابطة فى أغراضها وكنهها ، موجة قد تبددت اليوم لحسن الحظ وفرغ الناس من أمرها

وأعنى بها الحركة الرومانسية ، وكان معناها عودة روح القرون الوسطى ، وكان معناها عودة الألوان الدسمة الزاهية ، وكان معناها إظهار الاتجاه إلى المغامرة فى الدروع السوابغ وعدم الارتياح للأساليب والمصالح المعاصرة ، وكان معناها قيام الغريزة ضد العقل والعاطفة ضد العلم. وكان يخفف من حدة نزوعها إلى اللغة العتيقة المهجورة ما كان عليه حملة لوائها من تراخ وخمول . وكان يخالطها شىء من طبيعة حالة السكر التى تعقبها العربدة أكثر من طبيعة دور من أدوار التقدم الذهنى والجمالى . ولم يقف الأمر بها عند تعارضها مع حقائق الزمن الحاضر بل تجاوزته إلى التضاد والماضى الكلاسيكى ، كانت حركة كاثوليكية كما كانت تنزع منزع المذهب الفردى ، وكانت هى المبتعثة للفيرى[1] والرائعة فى أساطير مفتعلة زائفة ؛ كانت أى شىء ، وكانت إذا قدرتها تقديرها النهائى مجرد لا شىء .

وقد كتب عنها الكاتبون فى ألمانيا كتابات هائلة غزيرة ، ولكنها عمت كل أوربا . وادعى بعضهم أن شكسبير كاتب رومانسى ، وقامت كذلك فلسفة رومانسية ولاهوت رومانسى تجلى فيهما السخف والغباء . وظهر فى الإنجليزية قدر جسيم من روايات فى أزياء القرون السالفة ، وهى القرن الذهنى لعملية ابتعاث العمارة القوطية فى انجلترا ، واستطاع سماسرة البورصة والمتعبون من رجال الأعمال أن يجدوا فرجة ينسون بها مسئوليات مناشطهم التجارية ، وينسون بها الوجود كله والوضع الذى يسيرون إليه — إن كان ثمة موضع يظنون أنهم يسيرون إليه — بأن يستغرقوا فى أحلام يرون فيها أنفسهم الصليبيين البواسل والجنود الكماة والقراصنة المخيفين والمنقذين للآنسات اللواتى ألمت بهن النوازل ، وهى الشخصيات التى كانت تلك القصص تتخذ منها أبطالها . ولم يكن هناك من يدعى تحليل مظاهر ومغزى زمان تلك القصص المرتدية أزياء الماضى . وكان ذلك هو موطن السحر فيها ، فكانت هى الملجأ الذى تلتجىء إليه عقول ترغب بكل قوتها فى ألا تفكر . وكانت عقلية أبطال القصة هى عقلية الطبقة الوسطى الغنية ، بعد تصفيتها ورفعها إلى المثل العليا .

وقد اعترف روبرت لويس ستيفنسون (١٨٥٠ — ١٨٩٤) آخر أفراد أسرة سكوت من الكتاب الرومانسيين ، بأنه كان يستطيع أن يأتى بخير مما أتى ، ونعت نفسه بلقب « البغى العقلى » وهو ما كان عليه شأنه فى واقع الأمر . وهذا القصص المرتدى للأزياء العتيقة كتب أيضاً فى قارة أوربا ، ولكنه لم يصبح هناك البتة صناعة جدية كما أصبح فى بلاد

---

(١) الفيرى (Fairy) : كثير من الآداب الأوربية عامرة بقصص الفيرى التى يفترضون أنها كائنات فوق إنسانية صغيرة الحجم ويزعمونها على صورة الإنسان وأن فى يديها قوة سحرية خارقة .

المجموعة الانجليزية ، لأن التطور السريع لطبقة متوسطة ثرية ميالة إلى القراءة ، حدث في القارة الأوربية في زمن متأخر وفي ظروف أشد استثارة للأذهان .

وهناك تطور حديث جداً ربما لحظنا فيه أنه بعد حدوث فترة توقف في نمو القصة ، يشير إليه ظهور شيء من النزوع إلى جمع ثلاث روايات في مجلد أو توسيعها بتتمات لها ، ظهر توسيع آخر قشيب لهذا الشكل . ويلوح أن القصة متجهة فيما يحتمل إلى أن تصبح صورة للعالم بأجمعه ترى خلال أعين فرد طرازى . وأشد هذه الروايات الطويلة الجديدة جدارة بالإعجاب رواية جان كريستوف من تأليف رومان رولاند[1] ، التي نشرت في عشر مجلدات متعاقبة . ومما يتصل اتصالا وثيقا بهذا التوسيع ، ظهور الكتب الهائلة التي لاشكل لها ولا نهاية ، كتب الذكرى والتعليق والوصف ، التي يمثل طرازَ كتابها بروست (المتوفى ١٩٢٢) . وهناك شخص يكاد يقف وحيدا في أدب العالم أجمع في هذا العصر هو أناتول فرانس (١٨٤٤ — ١٩٢٤) — الذي تبدى روايته « قصص برجريه المسلسلة » نفس النزعة إلى أن يحل محل الرواية المعزولة تعليق سيار على الأشياء عامة . والآنسة دوروثى ريكاردسون التي تكتب بغزارة مشرقة معبرة عن جدول ضيق من الخبرة الرقراقة ، كاتبة ربما جاز لنا أن نسميها « چين أوستن » القصة غير المحدودة .

وهناك تغير شائق يتداخل القصة مع انتقال الزمن بالقرن التاسع عشر إلى العشرين ، هو الزيادة المطردة في المناقشات الاجتماعية والسياسية والدينية . وذلك أن الروائيين من طراز ديكنز وثاكارى كانوا يكتبون لجمهور فكراته وقيمه الاجتماعية مستقرة أتم استقرار . فإنهم لايناقشون شيئاً ؛ بل يفترضون المناظر الأخلاقية ويركزون الاتجاه على الخلق أعنى على الجبلات والطباع الشخصية . ولم يكن ثاكارى يناقش بل يعظ ؛ والوعظ أمر يخالف المناقشة أكبر الخلاف . وكانت الشخصيات ومسلكها في رواية القرن التاسع عشر قوام مادة الموضوع كلها . على أن حالة عدم الاستقرار الذهنى في الزمن الحاضر تجد نفسها منعكسة في القصص على صورة مناقشة للفكرات . وتدخل الفكرات والنظريات إلى صميم الدراما . فتجعل الاهتمام واللذة أوفى وأتم ، وإن أسدلت شيئاً من الغموض على ذلك الصنف المشدد من صوغ الشخصية على قدر من الحياة يعظم ماله في الواقع وهو أعلى ما تمتاز به القصة في العهد الفكتورى .

---

(١) رومان رولاند (١٨٦٦ — ١٩٤٤) كاتب فرنسي قصصي ومسرحي ومدرس تاريخ الموسيقى بجامعة السوربون . كتب كتباً عن بيتهوفن وهاندل . وحصل على جائزة نوبل ١٩١٥ مكافأة على قصة جان كريستوف الضخمة .

وليس هناك من يشك أن فى الإمكان أن يلمس الإنسان فى أدب العصور الخوالى ابتداء من « الحمار الذهبي » فما تلاه ؛ تسلفا وتوقعا لكل هذه التطورات فى القصة العصرية فى اتجاه نقد جوال سهل هين للحياة ووجهات النظر فيها ؛ ولكن شيئاً من هذه التوقعات فى ناحيتى الشكل والحجم لم يظهر فى أى شيء يماثل الأضرب المنوعة والحجم الضخم الخاصين بكتابات القرن التاسع عشر التى هى روايات إلى حد ما ، ولا يكاد يكون لأى منها تلك الصفة الخاصة ، وأعنى بها الحكم الحر غير الموجه فى شئون الحياة جملة وتفصيلا ، وهى الصفة التى تميز الذهن فى القرن التاسع عشر عنه فى كل الأدوار السابقة .

وكان قيام المسرحية (الدراما) يعتمد حتى ذلك الحين على وجود جماعة إنسانية مستقرة ، لها عادات ومعتقدات ثابتة ، تستطيع أن تمدها بجمهور نظارة مستمر عامر القلب بالعطف عليها . وكان من الطبيعى الموائم لعصر من الفوضى ومن إعادة التعمير فى المسائل الاجتماعية ، أن يتقوض ما استقر فى الناس من عادات الذهاب إلى المسارح ، وأن ينقضى نصف قرن أو يزيد تكاد تنقطع فيه الحشود المنوعة الأشكال من الناس الذين كانوا يفكرون ويناقشون ويبحثون عن الجديد من الأشياء عن أن يكون لهم من يمثلهم فى جمهور نظارة ذلك الزمان . ومر المسرح الأوربى فى دور تفاهة وانحطاط كرامة وقيمة . وأخذ يدارج الروايات والرومانسيات الشعبية فى نزعتها إلى تمكين الناس من قضاء الوقت فى سمر لطيف .

وكانت المسرحية (الدراما) الفرنسية وشيقة وإن جوفاء . وكذلك كان شأن الدراما فى انجلترا ، وإن لم تصل مطلقاً إلى درجة الرشاقة الفرنسية . وإنما أخذت القوى العظيمة التى كانت تطالب بالمناقشة والفكرات تبدى أثرها فى العالم الدرامى بنهاية التدرج وفى وجه معارضة هائلة من النقاد . وكان إبسن النرويجى (١٨٢٨—١٩٠٦) هو الشخصية الفعالة المركزية التى بفضلها عادت الدراما إلى الاتجاه نحو مناقشة الحقيقة المعاصرة . وكان لنزوة بارى (Barrie) اللطيفة أثر كبير فى تحطيم التقاليد الجامدة للمسرحية المحبوكة كما كانوا يسمونها فى انجلترا ، ثم شرع برنارد شو (Shaw)[1] المولود (فى ١٨٥٦) يكافح فى بطء مرتفعاً إلى أوج التفوق والنفوذ . ومن أبرز الدراميين الألمان فى هذا الدور الجديد دور الاخلاص والقوة ، هوبتمان المولود (فى ١٨٦٢) وسودرمان المولود (فى ١٨٥٧) . وقد أوقفت الحرب حركة النشاط الدرامى ردحاً من الزمان ، ولكن انتهاءها أطلق فيضاً عميماً من النشاط الحى المبشر بالخير على

(١) جورج برنارد شو : المتوفى فى نوفمبر ١٩٥٠ وهو الكاتب القصصى والمسرحى العظيم . ولد بدبلن وانتقل إلى لندن حيث ذاع صيته وراجت مؤلفاته التى تعد بالمئات وحصل على جائزة نوبل ١٩٢٥ .

كل من جانبى المحيط الأطلسى . وينعم المسرح فى كل من أوربا وأمريكا فى الوقت الحاضر بظل وارف قوى من الاستحداث والتجديد .

فإذا وجهنا النظر إلى تطور الأدب الأمريكى ، وجب علينا أن نميز بين دورين متباينين أشد التباين ، أولهما دور السيادة الأوربية ، مابين إنجليزية وفرنسية ، وثانيهما دور الفكاك وانطلاق السراح . فقد مضى على المناشط الأدبية الأمريكية حين طويل من الدهر كانت فيه تتركز فى نيوانجلند ، ولم تكن إلا محض فرع ، وإن يكن فرعاً عفياً جداً — من الأدب العام الإنجليزى والأوربى ، وكان مركز ذلك مدينة بوسطون . وأكثر كتاب هذا الدور من الحديث فى إعلان الاستقلال ، ولكن ليس يلوح عليهم أنهم أدركوا أن الاستقلال قد حدث ورقع طالما كان سلطان الشكل والمنهاج باسطاً جناحه . وكانت لأمريكا أذواقها المميزة ، وكانت أسرع إلى التقاط كارليل من انجلترا ، وأخذت ترسل نغمة من عندياتها تتجلى فى مقالات إمرسون (١٨٠٣ — ١٨٨٢) ؛ على أن لونجفلو لم يكن إلا مجرد شاعر إنجليزى تصادف أن ولد فى أمريكا وكان يكتب فى موضوعات أمريكية . وكان إدجار ألان پو (١٨٠٩ — ١٨٤٩) يتبع طرائق أوربية أكثرمنها إنجليزية ، وأبدى هوثورن (١٨٠٤ — ١٨٦٤) أن به لمسة من شعوذة تيوتونية لها وعيها الذاتى . وكذلك كتب و . د . هاولز (١٨٣٧ — ١٩٢٠) سلسلة من الروايات المترمتة الممتازة بطريقة تدرجه مع توماس هاردى تحت جنس المدرسة الفرنسية فى تصنيف عام للرواية . وكان هنرى چيمس (١٨٤٣ — ١٩١٦) أمريكياً ولكنه لم يكن يكتب على شاكلة الانجليز ولا شاكلة الأمريكان ، بل كأمريكى انتقل إلى بيئة أوربية ، وكانت مناظره على الدوام أوربية ، وكان موضوعه الأثير لديه هو الاصطدام بين الأمريكى الساذج وبين معقدات المدنيات القديمة . ولعل أشد كتاب القرن التاسع عشر اصطباغاً بالروح الأمريكية مارك توين[١] .

ولم يحدث إلا بعد بزوغ فجر القرن الجديد أن شرع الكتاب الأمريكيون بوصفهم هيئة فى مواجهة ظواهر الحياة الاجتماعية الجديدة ومشكلاتها فى أمريكا ، مُواجهة يتجلى فيها شىء يشبه القوة الطليقة الموجودة فى خير ما أُثر عن أوربا من تقاليد . وإنما تُظهر كتب من أمثال (Main Street) شارع مين وبابيت لسنكلير لويس والتراچيديا الأمريكية لدرايزر ، الذكاء الأمريكى مهتما بأمريكا اهتماماً مباشراً بحثاً غير ناظر بعد ذلك أبداً صوب الشرق يطلب

(١) مارك توين : اسم القلم الذى أطلقه على نفسه الكاتب الأمريكى صمويل لانجهورن كليمنز . المولود فى فلوريدا ، وكان كاتباً فكهاً مسلياً .

المنهاج والاستحسان من أوربا . والواقع أن الشعر ورسائل الغرام الأمريكية قد أصبحت مستقلة استقلالا توشك أن تبدو فيه روح العدوان . ويحاول أمثال منكن من الكتاب الناقدين أن يروعوا العالم بما يمتازون به من القشابة ورقة الرؤيا ، بمحاولات يتجلى فيها الجد والإجلاب . والحدة . وكذلك يتكشف كتاب من أمثال شروود أندرسون وجيمس برانش كابل عن جدة وقوة ابتكار تبشر بكل خير . ومع أنه لا يوجد حتى الآن فى عالم الأدب الأمريكى المصرى أسماء عظيمة ممتازة تلفت الأنظار ، ولا إنتاج متقن إتقانا كبيرا ، فإنه من العسير على المرء إذا راعى ما عليه حال ذلك الجمهور الكبير الجديد من القراء ، من الثراء والوفرة والتطلع الضخم ، أن يعتقد أنه لن يكون هناك للفور هيئة جسيمة لإنتاج أدبى من الطراز الأول تظهر استجابة لطلب الفرص الأمريكية .

وليس من اليسير فى الوقت الحاضر على كاتب أوربى أن يقدر درجة جودة الأدب الهندى إبان القرن الأخير . فإن الحكم البريطانى يجنح إلى تجاهل الجهد الذهنى الهندى أو التقليل من شأنه ، وليست توجد إلا ترجمات قليلة من بين ذلك العدد الجسيم من الحكايات والقصص المكتوبة باللغة الوطنية حول الحياة المعاصرة والتى أنتجت فى السنوات الأخيرة . ولرابندرانات طاغور[1] المولود فى ١٨٦١ شهرة عظيمة فى الغرب ، أنه على معروف بوصفه شاعراً أكثر منه روائياً وكاتباً فى شئون الحقوق الشرعية الدولية ويلوح أن الشرق يتعقب خطى الغرب فى تطوراته الاقتصادية والاجتماعية ، ويوم تصبح القوى العظيمة التى كونت القصة العظيمة والقصة القصيرة والأقصوصة ، والقصيدة الغنائية القصيرة ، وهى الأشكال القائمة للتعبير الأدبى فى الغرب ، — ذات أثر فعال فى آسيا ، فلعلها تنتج نتائج مماثلة . وتنطوى اليابان والصين على حركة اختمار ذهنى كبيرة جدا . وما يزال فن الترجمة والتأويل وتنظيمها بين الشرق والغرب — فجين غير متطورين ، ولكنها أمور يلحقها التحسين والتوسع السريع ، وقد لا يكون بعيدا ذلك الزمن الذى يصبح فيه كتاب المنثور على الأقل إن لم يكن كتاب الشعر الغنائى يتقدمون منذ فجر حياتهم العملية تقريبا إلى جمهور من القراء يعم أرجاء العالم كلها .

فأما البحث العلمى والفكر الفلسفى والنشاط الأدبى العام فى هذه المدة التى تأملناها ، فكانت أوفر كثيرا ، وأعلى كثيرا فى كنهها عامة وتصل إلى يد عدد أوفر من الناس ، ونسبة أكبر من سكان العالم تفوق ما كان عليه الحال من قبل . وليس هناك أبدا ما يدل على أى توقف جسيم فى هذا الفيض الذهنى المطرد الاتساع .

---

(١) طاغور (١٨٦١ — ١٩٤١) كاتب هندى ، ولد فى كلكتا . وكان من أعظم رجال الهند الحديثة ، وكان كاتباً وقصصياً ومربياً ووطنياً عظيما . وكانت مثله العليا تدعو إلى البساطة فى العيش وإلى إيجاد علاقة بين التربية الغربية والفلسفة الشرقية . حصل على جائزة نوبل ١٩١٣ .

الفصل الثامن والثلاثون

كارثة التسلطية العصرية(١)

١ — السلام المسلح قبل الحرب العظمى .
٢ — ألمانيا التسلطية (الإمبراطورية) .
٣ — التسلطية فى بريطانيا وإرلنده .
٤ — التسلطية فى فرنسا وإيطاليا والبلقان .
٥ — الروسيا تصبح ملكية عظمى .
٦ — الولايات المتحدة والفكرة التسلطية .
٧ — الأسباب المباشرة للحرب العظمى .
٨ — خلاصة للحرب العظمى حتى ١٩١٧ .
٩ — الحرب العظمى منذ انهيار الروسيا إلى الهدنة

---

١ — السلام المسلح قبل الحرب العظمى

احتفظت أوربا طوال ستة وثلاثين عاماً بعد معاهدة سان استفانو ومؤتمر برلين ، بسلم مقلقل داخل حدودها ، ولم تنشب أية حرب بين واحدة من الدول الكبرى إبان تلك المدة . بل كانت إحداها تحتك بالأخرى وتخيفها وتهددها ولكنها لا تصل إلى الحرب الفعلية . وكان الناس عامة بعد ١٨٧١ يدركون أن الحرب العصرية أمر أشد خطورة بكثير من الحرب التى كان يقوم بها المحترفون فى القرن الثامن عشر ، وأنها مجهود للشعوب بكلياتها ربما عض على التكوين الاجتماعى عضاً عنيفاً ، وأنها مغامرة يجدر بالناس ألا يتهوروا بالإقدام عليها . ذلك أن الانقلاب الآلى ما برح يقدم أسلحة مطردة القوة متزايدة النفقة فى البر والبحر ، ووسائل للمواصلات أسرع ، كما كان يزيد كل يوم فى تعذر مواصلة الحرب بدون إحداث زعزعة تامة لحياة المجتمع الاقتصادية . بل لقد بلغ الأمر أن وزارات الخارجية نفسها كانت توجس من الحرب خيفة .

ومع أن الناس كانوا يخشون الحرب كما لم يخشوها قط فى العالم فيما سلف ، لم يقم أحد بعمل يرمى إلى إقامة رقابة اتحادية لمنع الشئون الإنسانية من أن تسير فى طريق الحرب . حقاً إنه حدث فى ١٨٩٨ أن القيصر الشاب نيقولا الثانى (١٨٩٤ — ١٩١٧) أصدر تصريحاً

---

(١) أطلق المجمع اللغوى كلمة التسلطية لتكون مقابلا للفظة (Imperialism) وهى المبدأ الداعى إلى توسيع رقعة الدولة بالإستعمار والاستلحاق والإضافة كلما وكيفما أمكن ذلك ، وإلى ربط الدولة أو الإمبراطورية بمختلف ممتلكاتها حتى تصبح وحدة وثيقة الترابط ؛ وتطلق أيضاً على حكم إحدى الدول بوساطة إمبراطور . وقد استعملنا لفظة الاستعمار أحيانا حين رأينا المقام يقتضيها .

ملكيا « يدعو به الدول الكبرى الأخرى إلى عقد مؤتمر دولى يرمى إلى تمكين الفكرة الكبرى فكرة السلام العام من التعمر على عناصر الشغب والفُرقة . » ويذكرنا تصريحه هذا بالإعلان الذى أعلنه سلفه إسكندر الأول والذى كان يدعو فيه لفكرة المحالفة المقدسة ، ولكن أفسده ذلك الفرض القائل بأن السلام يمكن أن يؤسس بين حكومات ذات سيادة ، أكثر منه باللجوء الشامل إلى حاجات وحقوق شعب البشرية الواحد . فأما درس الولايات المتحدة الأمريكية وعظتها التى أظهرت أنه من المحال أن توجد وحدة فى العمل أو سلام حتى تتغلب على النعرة القائلة بشعب فرجينيا وشعب ماساشوستس فكرةُ شعب الولايات المتحدة جمعاء — فقد أغفل إغفالا تاما فى كل مابذل من محاولات للسلام فى أوربا .

وعقد مؤتمران فى لاهاى بهولنده ، أحدهما فى ١٨٩٩ والثانى فى ١٩٠٧ ، وكانت كل دول العالم ذات السيادة ممثلة تقريبا فى ذلك المؤتمر الثانى . مثلت تلك الدول تمثيلا دبلوماسيا ، ولم يصــدر أى توجيه يلفت فطنة العالم العامة إلى مناقشات المؤتمر وأعماله ، بل إن الرجل العادى لم يكن ليعرف حتى مجرد أن هذه المؤتمرات كانت تنعقد ، وكان المثاون المجتمعون يقومون فى معظم أمرهم بمراوغات ثعلبانية حول نقط فى القانون الدولى تمس الحرب ، مهملين موضوع إلغاء الحرب زعماً منهم أنها وهم مخيف لاظل له من الحقيقة . ولم يسفر هذان المؤتمران عن ثمرة ما تبدد الفكرة القائلة بأن الحياة الدوليه إنما هى حياة منافسة بحكم الضرورة . فإن المؤتمرين فيهما سلموا بهذه الفكرة . ولم يقوموا بأى شيء يطورون به الوعى الخاص بالدولة العامة العالمية التى تعلو هامات الملوك ووزارات الخارجية . وكان رجال السياسة والمحامون الدوليون الذين حضروا هذين الاجتماعين غير ميالين إلى الإسراع بإنشاء دولة عالمية على مثل هذا الأساس ، شأنهم فى ذلك شأن رجال السياسة البروسيين فى ١٨٤٨ فى رغبتهم عن الترحيب ببرلمان يمثل ألمانيا كلها ويتخطى حقوق وسياسة ملك بروسيا .

فأما فى أمريكا فإن سلسلة من ثلاث مؤتمرات ترمى إلى إنشاء كتلة أمريكية فى ١٨٨٩ ، ١٩٠١ ، ١٩٠٦ قد سارت شوطا ما فى طريق إنشاء خطة غايتها إيجاد تحكيم دولى فى القارة الأمريكية بأجمعها .

ولن نناقش هنا فى أى إسهاب شخصية وحسن نية نيقولا الثانى الذى ابتدء مؤتمرى لاهاى هذين ، فلعله زعم أن الزمان كان حليف الروسيا . على أنه لاسبيل البتة إلى الشك فى أن الدول العظمى قد شملها جميعاً عدم الرغبة فى مواجهة احتمال وجود قوة تتعلى على الدول ذوات السيادة وتكون غامراً لها ، وهى قوة لاتكون مشروعات السلم الدائم بدونها

إلا سخفا . ولم يكن ما يرغبون فيه هو إيقاف التنافس الدولى ومرحلته الحادة العنيفة وأعنى بها الحرب ، بل يبتغون تخفيض نفقات الحرب التى أخذت تصبح باهظة ثقيلة . وكان كل يرغب فى الاقتصاد فيما ينتج عن المنازعات والحروب الصغرى من سرف ، وتشريع قوانين دولية تربك أقوى خصومه أثناء الحرب دون أن يضايق نفسه بشىء . تلك هى الغايات العملية التى كانوا يطلبون من مؤتمر لهاى . كان اجتماعا حضروه ليرضوا نيقولا الثانى ، على نفس الشاكلة التى اشترك بها ملوك أوربا فى المقترحات الدينية المسيحية الخاصة بالمحالفة المقدسة لكى يرضوا إسكندر الأول ، ولما أن حضروه حاولوا جاهدين أن يحصلوا منه على ما ظنوه شيئاً من الإفادة به .

٣ — ألمانيا التسلطية (الإمبراطورية)

غادر صلح فرانكفورت ألمانيا موحدة مصطبغة باللون البروسى ، وخلفها أشد دول أوربا الكبرى منة . وكانت فرنسا قد أصبحت ذليلة عاجزة . وكان تحولها إلى الجمهورية يكاد يفضى إلى مغادرتها دون أى صديق فى أى من البلاطات الأوربية . وكانت إيطاليا حتى آنذاك مجرد دولة حديثة المهد . وأخذت النمسا تتدهور سريعاً آنذاك إلى مرتبة الولاية التابعة للسياسة الألمانية . وكانت الروسيا ضخمة غير مطورة ولامنظمة . ولم تكن الإمبراطورية البريطانية ذات بأس إلا على صفحة البحر . فأما خارج أوربا فإن الدولة الوحيدة التى تحسب ألمانيا حسابها هى الولايات المتحدة ، وقد أخذت تنمو عند ذاك وتصبح أمة صناعية كبيرة ، وإن لم يكن لها جيش ولا أسطول جديران بأن ينظر إليهما حسب المعايير الأوربية بأى اعتبار .

وكانت ألمانيا الجديدة التى ضمتها الإمبراطورية التى خلقت فى فرساى ، مزيجاً مركباً مدهشاً من قشيب القوى الذهنية والمادية فى العالم ، مع أضيق ما للنظام الأوربى من تقاليد سياسية . اتجهت إلى التعليم بقوة ، فكانت أشد دول العالم قاطبة اهتماما بالتعليم . فكانت صاحبة السبق فى التعليم والقائدة لكل جيرانها ومنافسيها .

وفى هذا الوقت الذى نقدم فيه حساب ألمانيا ، ربما ساعد القارئ البريطانى على تكوين فكرة متزنة أن يتذكر ذلك التقدم والمنبه التعليمى المدينة به بلاده للأمير الزوج الألمانى أولاً ثم للمنافسة الألمانية . فإن تلك الغيرة الوضيعة من الرجل العادى المتعلم التى كانت تخالج طبقة ولاة الأمور فى بريطانيا ، والتى لم يستطع أى شعور بالكبرياء الوطنى أو بالدافع السمح الكريم

أن يتغلب عليها أبداً ، قد تقوضت إزاء ذلك الخوف المتزايد من الكفاية الألمانية . وحملت ألمانيا نظام البحث العلمى ونظام تطبيق الطريقة العلمية فى التطورات الصناعية والاجتماعية ، على شاكلة من الإيمان والنشاط والهمة لم يظهرها مجتمع آخر من قبل قط .

فكانت ألمانيا طيلة كل فترة الهدنة المسلحة هذه تحصد وتبذر من جديد ثم تعود وتحصد المحاصيل ، المحاصيل المضمونة ، من العرفان المنثور نثراً طليقاً . وسارت ألمانيا بخطى سريعة حتى أصبحت دولة صناعية وتجارية كبرى . وقد بزّ إنتاجها فى الصلب إنتاج بريطانيا ، وأصبحت ألمانيا قائدة العالم ورائده فى مئات من الميادين الجديدة للإنتاج والتجارة ، حيث المعوّل الأول على الذكاء والنظام أكثر منه على مجرد مكر التاجر ، من أمثال صناعة زجاج المناظير ، والأصباغ وعدد كبير من المنتجات الكيماوية ، وفيما لايحصى من العمليات المستحدثة . فأما أصحاب المصانع البريطانيين الذين اعتادوا أن يروا المخترعات تنحدر إلى مصانعهم — مع رجاء قبولها واستعمالها — دون أن يعرفوا من أين جاءت تلك المستحدثات ولالماذا جاءت — فكانوا يرون فى هذا الأسلوب الألمانى الجديد الذى يحتفظ برجال العلم ويدفع لهم المرتبات ، معاملة ظالمة ظلماً بشعاً . وكانوا يشعرون بأن ذلك ضرب من اجتذاب الأموال قسراً ، أو قل إن ذلك فى نظرهم كان ضرباً من رصّ أوراق اللعب للغش بها . وكان ذلك أمراً ينطوى على تشجيع طبقة دنسة من ذوى العقليات الذكية أن يتدخلوا فى شئون رجال الأعمال الشرعيين . وكان العلم غادر موطنه الأول إلى الخارج كما يغادر الطفل المكروه دار أبيه . إذ أن صناعة ألمانيا الكيمائية الفاخرة إنما كانت تقوم على عمل السير وليم باركن ذلك الرجل الإنجليزى ، الذى لم يجد من بين رجال الأعمال الإنجليز رجلا عملياً يناصره .

كذلك قادت ألمانيا العالم فى كثير من أشكال التشريعات الاجتماعية . إذ أدركت ألمانيا أن العمال « رصيد » قومى ، وأن ذلك الرصيد تبليه العطالة ، وأنه لابد من أجل الخير المشترك من أن يُعنى به خارج المصانع . وكان صاحب العمل البريطانى مايزال متأثراً بالخدعة القائلة بأنه ليس من شأن العامل أن يعيش خارج المصنع ، وأنه كلما ساء حال عيشه الخارجى ذاك ، كان ذلك خيراً له على شاكلة ما . زد على ذلك أنه بسبب أمّيته العامة كان فردياً حاد الفردية ، فكان مالديه من منافسة هى المنافسة الحمقاء التى يتميز بها العقل السوقى . إذ كان يكره من يحيطون به من أصحاب المصانع قدرما كان يكره عماله وزبائنه . وكان المنتجون الألمان من الناحية الأخرى ، مقتنعين بالفوائد الكبيرة التى تعود من التضامن والدمائة . وكانت مشروعاتهم تنزع إلى السير كتلة واحدة وإلى صبغ أعمالهم أكثر فأكثر بفكرة العمل القومى .

وكانت ألمانيا هذه المعلمة لشعبها والعلمية الروح والمنظمة لأعمالهـا هي التطور الطبيعى لألمانيا الأسمحية الفكر فى ١٨٤٨ ؛ وكانت جذورها ترجع إلى عهد قديم بعيد وإلى ذلك الجهد الناجع الذى كان يستمد الدافع من الخجل من الفتوح النابليونية . فكل ما نالها من خير ، وكل ما أصابت من عظمة ، فألمانيا العصرية هذه تدين به لمدرسيها بالفضل الكبير .

على أن هـذا الروح العلمى المنظم لم يكن إلا واحداً من العاملين اللذين كونا الإمبراطورية الألمانية الجديدة . فأما العامل الثانى فهو أسرة هوهنزولرن التى بقيت بعد معركة يينا ، والتى كانت خدعت ثورة ١٨٤٨ وتغلبت عليها ؛ والتى ارتفعت الآن بقيادة بسمارك إلى مرتبة الرياسة الشرعية لألمانيا بأجمعها فيما عدا النمسا . وفيما عدا الروسيا القيصرية لم تحافظ دولة أوربية أخرى على تقاليد ملكية القرن الثامن عشر العظمى كما فعلت الدولة البروسية . فكان مكيافللى عند ذاك هو المسيطر على ألمانيا بطريق تقاليد فردريك الأكبر . وعلى ذلك فإنه لم يكن يجلس على عرش هذه الدولة العصرية الجـديدة الممتازة ، أى عقل

(شكل ٢٠٨) الإمبراطور غليوم الثانى .

عصرى ممتاز[1] يقودها إلى السيادة العالمية فى خدمة العالم ، بل كان يتولاها عنكبوت عجوز

---

(١) مابال الكاتب يطالب الشعوب الأخرى بتلك العقلية والسياسة الممتازة ولا يدعو إليها حكومته وقومه وهم أشد الناس إمعاناً فى الأخذ بمذهب مكيافللى واستهانة بمصالح الشعوب الأخرى

يتحرق شوقاً إلى القوة . فكانت ألمانيا البروسية هي فى نفس الوقت أحدث وأقدم شيء فى أوربا الغربية . كانت خير الدول فى زمانها وأشدها شراً .

ولم تزل سيكولوجية الشعوب علماً بدائياً ليس غير . فإن علماء النفس لم يكادوا يبدأون بعد فى دراسة ناحية «المادن» فى الرجل الفرد . على أنا نرى من الفائدة القصوى لموضوعنا أن يوجه دارس التاريخ العام شيئاً من تفكيره إلى النمو العقلى فى أجيال المتعلمين الألمان منذ انتصارات ١٨٧١ . فمن الطبيعى أن يداخلهم الغرور لما أصابوه من انتصارات جارفة ليسوا أهلا لها ، ولما نالوه من انتقال سريع من الفاقة النسبية إلى الثراء المطلق . ولعلنا نكلفهم ضد طبيعة الإنسان إذا توقعنا منهم ألا يتغلب عليهم شيء من الإفراط فى الغرور الوطنى . ولكن هذا رد الفعل قد أُمسك به قصداً وتُعهد ونُمِّىَ بواسطة استغلال منظم له ورقابة مُحكمة للمدرسة والجامعة ، والأدب والصحافة لمصلحة آل هوهنزولرن .

فكل مدرس أو أستاذ فى الجامعة لا يُدرّس ولا يبشر بمناسبة وبغير مناسبة باستعلاء الألمانيين العنصرى والذهنى والخلقى والجثمانى على بقية الشعوب جميعاً ، وتعلقهم غير العادى بالحرب وأسرتهم المالكة ، ومركزهم الذى لا محيص للأيام من أن تُبوأهم إياه تحت هذه الأسرة فى قيادة العالم ، فشخص ملحوظ ظاهر مقدر عليه الفشل وضياع المستقبل . وأمسى تعليم التاريخ فى ألمانيا تزييفاً هائلا منظماً لماضى البشرية ، ينظر إلى مستقبل آل هوهنزولرن . وكانت كل الشعوب الأخرى تُمثَّل لأنظارهم فى صورة المنحلّة غير ذات الكفاية ، وأن البروسيين هم قادة الجنس البشرى ومجددو شبابه .

فيقرأ شباب ألمانيا هذا القول فى المدرسة ويسمعونه فى الكنيسة ، ويجدونه على صفحات كتب الأدب ، ثم يصبه فيهم بحمية وإيمان وثيق أستاذهم ، ويبثه فيهم كل أساتذتهم بلا استثناء . وإن المحاضرين فى علم البيولوجيا والرياضيات لينفلتون من موضوعاتهم الأصلية لينمموا بفقرات طويلة من الهذر الوطنى . ولم يكن ليستطيع أن يقاوم مثل هذا السيل المنهمر من الإيحاء إلا من أوتوا عقولا قوية ذات أصالة غير عادية . وهكذا أقيمت فى الذهن الألمانى دون أن يشعر فكرة تصور ألمانيا وإمبراطورها فى صورة الشيء المستعلى الفاخر الفخم الذى لم ير العالمُ مثله من قبل ، صورة شعب صيغ على غرار الآلهة وألبس دروعا سابغات صقيلة وهو يهز الحسام الألمانى البتار ، وسط عالم من شعوب أدنى مرتبة ذات نفوس ميالة إلى الشر .

ولقد أخبرناك بقصة أوربا ، حتى ليستطيع القارىء أن يحكم هل كان بريق السيف الألمانى يخطف الأبصار بشكل ليس له من ضريب . فإن « جرمانيا » كانت تُعطى المسكر عمداً ،

ثم تستبق غلة بطريقة مرتبة منظمة ، بواسطة هذا الضرب من البلاغة الوطنية . وإن أكبر جريمة اقترفها آل هوهنزولرن أن تاجهم كان يعبث بالتعليم عبثاً متواصلا ملحاحا ، وبوجه خاص بتعليم التاريخ . ولم تقترف أية دولة عصرية أخرى مثل هذا الاثم فى حق التعليم . وربما يكون حكم القلة (الأوليجاركية) فى الجمهورية البريطانية المتوجة قد عرقل التعليم ومنع عنه القوت ، ولكن آل هوهنزولرن قد أفسدوه واتخذوا منه بغيًّا .

ولسنا نغالى مهما بالغنا فى توضيح تلك الحقيقة — التى هى أعظم حقائق تاريخ النصف القرن الأخير أهمية — إذا قلنا أن الشعب الألمانى قد بثت فيه بطريقة منهاجية الفكرة القائلة بسيادة ألمانيا العالمية المؤسسة على القوة والجبروت ، وبالنظرية القائلة بأن الحرب ضرورة من ضروريات الحياة . وانك لتعثر على مفتاح السياسة الألمانية فيما أثر عن الكونت مولتكه من قوله : « إن السلام الدائم حلم من الأحلام بل إنه ليس حلماً جميلا . وإنما الحرب عنصر من عناصر نظام العالم أمر به الله ، وإن العالم ليأسن بغير الحرب ويفقد نفسه فى الروح المادية . » كذلك وجد الفيلسوف الألمانى نيتشه نفسه متفقاً فى الآراء مع هذا الفيلد مارشال الورع . فيقول « إن من محض الوهم وجميل العاطفة ، أن يتوقع المرء شيئاً كثيراً ، بله أى شىء من البشرية إذا هى نسيت كيف تشب نار الحرب . ولا يعرف الناس حتى يومنا هذا وسيلة تدعو كل شىء إلى الحركة والنشاط قدر ما تفعل إحدى الحروب الكبرى : تلك الطاقة الخشنة التى يتمخض عنها المعسكر ، وذلك الضرب العميق من فناء الشخصية الذى يستقى من الكراهية وذلك الضمير المستقى من القتل والقسوة ، وتلك الحمية الراجعة إلى الجهد المبذول فى إبادة الأعداء ، وذلك الكبرياء الذى يوحى بعدم الاكتراث بالخسائر ، بل بوجود المرء نفسه ، بل بوجود زملائه أيضاً ، وذلك الضرب من رج النفوس رج الزلزال الذى يحتاجه الشعب إذا هو فقد حيويته » .

وكان حتما أن يلحظ الناس فى الخارج ذلك النوع من التعليم الذى كان يأخذ بأطراف الإمبراطورية الألمانية من أقصاها إلى أقصاها ، وكان حتما أن تنزعج له كل دولة أخرى وأن ينزعج له كل شعب آخر فى العالم ، وكان حتما أن يستثير تحالفاً ضد الألمان ، صحبته مظاهرة من استعدادات القوة العسكرية ، سرعان ما عقبها استعدادات للقوة البحرية ، هددت فرنسا والروسيا وبريطانيا على السواء . كما أنها أثرت فى أفكار وأخلاق ومعنويات الشعب الألمانى .

فبعد ١٨٧١ كان الألمانى فى الخارج يبرز صدره ويرفع عقيرته . فنزل العالم يحيط به جو من الدفع من بالمناكب والدوس بالأقدام حتى فى العمليات التجارية . وجاءت آلاته إلى

أسواق العالم وغمرت سفنه البحار فكان لهـا رشاش من التحدى الوطنى . بل لقد طالما استعمل مناقبه ومحاسنه نفسها وسيلة لتكدير صفو من عداه . والراجح أن معظم الشعوب الأخرى ، ما كانت لتسلك إلا مثل هذا السبيل ، لو أنهـا لقيت مثل تجاربهم ودربت نفس تدريبهم .

وقد حدث بسبب بعض ما يحدث فى التاريخ من مصادفات تتقمص الكوارث وتعجل بها ، أن حاكم ألمانيا وأعنى به الإمبراطور غليوم الثانى كان يتجسم فيه التعليم الجديد لشعبه والتقاليد الهوهنزولرنية بأكمل أشكالها . تولى العرش فى ١٨٨٨ وهو فى التاسعة والعشرين ، وكان أبوه فردريك الثالث قد عقب جده غليوم الأول فى مارس ولكنه توفى فى يونية من تلك السنة نفسها . وكان غليوم الثانى حفيداً للملكة ڤكتوريا من ناحية أمه ، ولكن لم يبد على مزاجه أى أثر للتقاليد الألمانية الأسمحية ، التى تميز عائلة ساكس كوبرج جوتا . بل كانت رأسه مليئة بذلك الزبد الأجوف عن «التسلطية» الجديدة . وقد ميز توليته العرش بخطاب وجهه إلى جيشه وأسطوله ، وجاء خطابه إلى شعبه بعد ذلك بثلاثة أيام . وبذلك ارتفعت فى الجو نغمة عالية من الاحتقار للديموقراطية : « إن الجندى والجيش وليس الأغلبيات البرلمانية هما اللذان التحمت على أيديهما أجزاء الإمبراطورية الألمانية بعضها ببعض ، وإنى لأضع ثقتى فى الجيش » . وهكذا أنكر الإمبراطور عمل المدرسين الألمان الذى قاموا به بصبر وجلد ، وأعلن آل هوهنزولرن على الملأ انتصارهم وغلبتهم .

وكانت ثانية مآثر الملك الشاب أن تشاجر مع مستشاره الشيخ بسمارك ، الذى كون الإمبراطورية الألمانية الجديدة وأن عزله فى ١٨٩٠ . ولم تكن هناك أية خلافات عظيمة فى الرأى بينهما ، ولكن الأمر كان كما عبر عنه بسمارك ، أن الإمبراطور قد انتوى أن يكون مستشاراً لنفسه .

تلك هى فاتحة حياة تجلى فيهـا النشاط والعدوان . وكان غليوم الثانى هذا يرى إلى إحداث ضجة فى العالم ، ضجة أعلى صوتاً ممـا أتاه أى ملك آخر فى العالم . وسرعان ما عرف فى كل أوربا شخص العاهل الجديد ، وهو على الدوام فى زى عسكرى كأشد ما يكون بريقاً والتماعاً ، ويتفرس بعينيه تفرس الكمى الشجاع وقد فتل شارباه فتلا عنيفاً ، وقد أخفى بمهارة ذراعه الأيسر الأكتع الصغير الحجم . وكان يضع على صدره لوحات من المعدن الفضى البراق ويرتدى عباءات طويله بيضاء . وتجلت فى الأفق سحائب عظيمة من القلق . وكان واضحاً أنه يرى فى نفسه شخصاً وضعت بين يديه مقدرات أمور عظيمة ، ولكن انقضى على

الناس زمن لم يتبينوا فيه ماهى تلك القدرات الخاصة العظيمة . فلم يكن هناك هاتف يهتف فى دلفى أنه لابد محطم إمبراطورية عظيمة(١).

وقد داخل الازعاج كثيراً من رعاياه لما شهدوه عليه من مظاهر مسرحية عقبها عزل بسمارك ، ولكن اطمأنت قلوبهم من فورهم إلى أنه إنما يستعمل نفوذه فى توطيد السلم وفى تمكين الروابط المتينة بين أجزاء ألمانيا . ولقد أكثر من السفر ، إلى لندن وڤينا وروما (حيث قام بمحادثات خاصة مع البابا) وإلى أثينا ، (حيث تزوجت شقيقته من الملك فى ١٨٨٩) وإلى القسطنطينية ، فكان أول عاهل مسيحى حل ضيفاً على سلطان . كذلك ذهب إلى فلسطين . وثقبت له فى سور بيت القدس القديم بوابة خاصة حتى يستطيع أن يدخل المدينة راكباً ، إذ كان الدخول إليها على القدم أمراً لايتناسب ومكانته . وحمل السلطان على البدء بإعادة تنظيم الجيش التركى على أسس ألمانية وبقيادة ضباط ألمان .

وفى ١٨٩٥ أعلن أن ألمانيا دولة عالمية كبرى ، وأن مستقبل ألمانيا يقوم فى صفحة البحر — غير عابىء إلى أن البريطانيين كانوا يعدون أنفسهم على سطحه من قبل وأصحاب الحق فيه . وأخذ يهتم أكثر فأكثر ببناء بحرية عظيمة ، كذلك وضع الفن الألمانى والأدب الألمانى تحت رعايته ، واستعمل نفوذه للاحتفاظ بالحروف الألمانية الخاصة السوداء المتعبة للبصر دون الحروف اللاتينية التى تستعملها بقية أوروبا الغربية ، كذلك ناصر حركة الكتلة الألمانية الكبرى التى تدعى انضواء الهولنديين والاسكندناويين وفلمنكي البلچيك وألمان سويسرا فى عضوية أخوة ألمانية عظيمة — وهى فى الواقع مادة طيبة يمكن تمثلها فى إمبراطورية جائعة صغيرة تريد أن تكبر وتنمو ، وغطى ضياؤه الباهر على ضياء كل عاهل فى أوربا .

واستغل العداء العام الذى فشا فى كل أوربا ضد بريطانيا بسبب الحرب بينها وبين جمهوريتى البوير ، لكى يواصل خططه الرامية إلى تكوين أسطول عظيم ، وذلك عدا النمو السريع والتحدى الظاهر فى اتساع مستعمرات الإمبراطورية الألمانية فى أفريقيا والمحيط الهادى ، فأزعج ذلك البريطانيين وأثار خواطرهم أيما استثارة . وألفى أصحاب الرأى السمح بوجه خاص فى بريطانيا أنفسهم تحت ضرورة محنقة ، تضطرهم أن يناصروا فكرة الاستمرار فى زيادة البحرية البريطانية زيادة متواصلة . قال « لن يهدأ لى بال حتى أرفع بحريتى إلى نفس

(١) يشير المؤلف ها هنا إلى النبوءة التى تلقاها كروسوس من وحى دلفى عندما استشاره فى أمر محاربة قورش (أنظر ص ٢٩٧ ج ٢ المعالم) .

المستوى الذى يتبوأه جيشى » . ولم يكن أشد الناس فى الجزائر البريطانية حباً فى السلام ليستطيع أن يتجاهل هذا التهديد . وكان قد أخذ فى ١٨٩٠ جزيرة هليجولند الصغيرة من بريطانيا ، فحولها إلى قلعة بحرية عظيمة .

وكان كلما كبرت بحريته كثرت مشروعاته ومطامحه . فأعلن أن الألمان هم « ملح الأرض . » وأنهم يجب « ألا يسهم فى خدمة المدنية كلل ، وأن ألمانيا شأن روح روما الإمبراطورية يجب أن تتسع وأن تفرض على الناس نفسها . » وقد قال هذا فى الأراضى البولندية لينصر به ما تبذله ألمانيا من مجهودات متواصلة للقضاء على اللغة البولندية والثقافة البولندية ، ولصبغ نصيب ألمانيا من بولنده بالصبغة الألمانية . ولقد نعت الله بأنه « حليفه المقدس . » وكان الملك فى الدول الاستبدادية القديمة إما هو الرب نفسه أو وكيل الرب المختار ، فأما القيصر فكان بعد الله تابعه المؤتمن . قال فى كثير من مظاهر المحبة والتودد « ربنا الشيخ » . وعند ما استولى الألمان على كياوتشاو انطلق يتكلم عن « القبضة الفولاذية الألمانية » . وعندما ناصر النمسا ضد الروسيا تكلم عن ألمانيا فى « دروعها اللامعة » .

ولما أصيبت الروسيا بالكوارث فى منشوريا فى ١٩٠٥ انطلق روح التسلطية الألمانية من عقاله ليقوم باعتداءات أكثر جراءة . إذ بدا شبح الخوف من هجوم مشترك من جانبى فرنسا والروسيا أمراً أخذ خطره يزول . وقام الإمبراطور بشىء يشبه الرحلة الملكية فى الأراضى المقدسة ، ونزل فى طنجه ليؤكد لسلطان مراكش مناصرته له ضد الفرنسيين ، ثم أنزل بفرنسا إهانة بليغة بإجبارها على عزل وزير خارجيتها ديلكاسيه تحت التهديد بإعلان الحرب عليها . كذلك زاد فى شد الروابط بين النمسا وألمانيا ، وفى ١٩٠٨ تحدت النمسا بمناصرته كل أوربا بأن أخذت من الترك الولايتين اليوغوسلافيتين البوسنة والهرسك . وبهذا التحدى البحرى لبريطانيا وبهذه الاعتداءات على فرنسا والسلافيين أجبر بريطانيا وفرنسا والروسيا على إنشاء تفاهم دفاعى ضده . وكان لضم البوسنة أثر آخر هو تنفير إيطاليا ، التى كانت حليفة له حتى ذلك الحين .

تلك هى الشخصية التى شاء شؤم طالع ألمانيا أن يجلسها على عرشها لكى يستثير وينظم ويجعل من المستحيل على العالم أن يُطيق الكبرياء الطبيعى والاعتداد بالذات فى شعب عظيم أفلت آخر الأمر بعد قرون طويلة قضاها يرزح تحت الفرقة والضعف ، من حُكم متفرق لثُلة من الأمراء فاتحدت كلمته وحاز احترام العالم . وكان طبيعياً أن قادة ألمانيا الجديدة هذه فى ميادين التجارة والصناعة الذين أخذوا عند ذلك يثرون ، وأن الماليين المهتمين بأعمال الاستغلال

وراء البحار ، وأن الموظفين والسوقة، — لابد واجدون فى هذا الزعيم شخصاً يروقهم كثيراً . والكثير من الذين كانوا يظنونه أهوج شديد الهرج فى قرارة نفوسهم ، كانوا ينصرونه فى العلن لأنه كانت له نغمة نجاح أخاذة كل أخاذة (Hock der Kaiser) .

ومع هذا فإن ألمانيا لم تسلم نفسها دون كفاح للسيل الإمبراطورى القوى المنهمر . فإن عناصر هامة فى الحياة الألمانية كانت تكافح ضد هذه الأوتوقراطية الجديدة المختالة . فرفضت الشعوب الألمانية القديمة والباڤاريون بوجه خاص أن تبتلعهم الروح البروسية . وكذلك حدث مع انتشار التعليم وانتقال ألمانيا السريع إلى الصناعة ، أن طورت هيئات العمال المنظمة فكراتها وأن ظهرت حركة عداء مطرد لشقشقة عاهلها فى شئون العسكرية والوطنية . وكان حزب سياسى جديد أخذ ينمو فى داخل الدولة ، هو حزب الديموقراطيين الاشتراكيين الذى كان يقول بمبادىء ماركس . ونما هذا الحزب متحدياً أقصى أنواع المعارضة من ناحية الهيئات الرسمية والدينية ، وبالرغم من قوانين القمع الصارمة التى صدرت ضد دعايته وضد اندماجات الفروع .

وراح القيصر يتوعده المرة بعد الأخرى . وسيق زعماؤه إلى السجون أو طردوا خارج ألمانيا . ومع هذا فإن الحزب تزايد ونما . فإن عدد ناخبيه عندما تولى الإمبراطور لم يكن يتجاوز نصف المليون . وأربى ناخبوه فى ١٩٠٧ على الثلاثة الملايين عداً . فحاول أن يقبل أشياء كثيرة من أمثال التأمين على الشيخوخة والمرض متخذاً منها منحة يمن بها عليهم ، وهى أشياء كان الحزب يطالب بها للعمال بوصفها حقاً أصيلا لهم . وكان اعتناقه مذهب الاشتراكية أمراً ملحوظاً ولكنه لم يكسب مذهب التسلطية أنصاراً جدداً . وشرع الحزب يشهر بأطماعه البحرية تشهيراً تجلت فيه الكفاية والمرارة . وأخذ هذا الحزب المعتمد على حسن تبصر الرجل العادى يهاجم مغامرات الرأسماليين الألمان الجدد فى بلاد المستعمرات مهاجمة متواصلة لا انقطاع لها . على أن الحزب الاشتراكى الديموقراطى كان يولى الجيش مناصرة متوسطة ، لأنهم مهما بلغت كراهيتهم للأوتوقراطى المستبد الذى يتضخم فى أرض الوطن ، فلشدما كانوا يكرهون ويخشون غائلة الأوتوقراطية الروسية الهمجية (المتبربرة) الرجعية على حدودهم الشرقية .

وكان الخطر البارز أمام ناظرى ألمانيا هو أن ترغم هذه الروح الاستعمارية المختالة ، بريطانيا والروسيا وفرنسا على القيام ضدها بهجوم متحد مشترك ، وخطة عسكرية هجومية دفاعية . وكان القيصر يتأرجح بين اتخاذ موقف الشدة حيال بريطانيا وبين محاولات سمجة لاسترضائها ،

على حين كان أسطوله ينمو وكان يدبر التدابير للقيام بكفاح مبدئى بينه وبين الروسيا وفرنسا . وعند ما اقترحت الحكومة البريطانية فى ١٩١٣ امتناع الجانبين عن إقامة المنشئات البحرية لمدة عام واحد ، رفض الاقتراح .

ومن نكد طالع القيصر أن نكبته الأيام بولى عهد ووريث أشد تعصباً لآل هوهنزولرن ، وللاستعمار والكتلة الألمانية من أبيه نفسه . تغذى بلبان الدعاية الاستعمارية . وكانت لعبه جنوداً وبنادق ومدافع . فحاول أن يختطف قبل الأوان محبة شعبه بأن يبز أباه فى اتخاذ المظاهر الوطنية والعدوانية . وكان الناس يشعرون أن أباه قد دلف إلى الكهولة وإلى ما رافقها من زيادة حذر واحتراس . فجدد ولى العهد شباب أبيه . ولم تكن ألمانيا بلغت قط من قبل مثل هذه الدرجة من القوة والاستعداد لمغامرة جديدة كبيرة ولحصول جديد من الانتصارات . وقد عُلِّم أن الروس فى انحلال وأن الفرنسيين فى تدهور وفساد وأن الانجليز مشرفون على حرب أهلية .

ولم يكن هذا الولى العهد الشاب إلا نموذجا لشباب الطبقة العليا الألمانية الوثاب الوفير العدد فى ربيع ١٩١٤ . إذ كانوا بأجمعهم نهلوا من كأس واحدة . فكان أساتذتهم ومعلموهم ، وخطباؤهم ، وزعماؤهم وأمهاتهم وحبيباتهم ، يعدونهم للمناسبة العظيمة التى كانت عند ذاك وشيكة فى متناول الأيدى . وكان يملأ نفوسهم شعور فياض هزاز بالكفاح الدانى الوشيك ، وبالنفير يدعوهم إلى القيام بأعمال جسام هوائل ، وبالنصر على البشرية فى الخارج ، والفوز على العمال المعاندين فى الداخل . وكانت البلاد متوترة تتحفز للحرب كما يتوثب مُتبار رياضى عند نهاية تدريبه . .

٣ — التسلطية فى بريطانيا وإرلنده

كانت ألمانيا طيلة فترة المدنية المسلحة هى البادىء بكل شىء والقدوة المحتذاة فى كل شىء فى أوربا بأجمعها . وكان تأثير مبادئها الجديدة الخاصة بالاستعمار العدوانى قوياً بوجه خاص فى الذهن البريطانى ، الذى كان مُعدا أسوأ إعداد لمقاومة طعنة ذهنية قوية من خارج بلاده . وكان النشاط التعليمى الذى وهبها إياه الأمير الزوج قد ذهب بوفاته ، وعُرقلت جامعتا أوكسفورد وكمبردج فى قيامهما بواجبهما فى شأن مراجعة تعليم الطبقة العليا مراجعة فعالة ، إذ قامت فى سبيلهما ألوان المخاوف والتحيز التى ثارت بسبب ما يسمونه باسم « الكفاح بين العلم والدين » — فى نفوس رجال الدين الذين كانوا يتسلطون عليهما بوساطة المجامع

الإكليروسية ، وأدت الخصومات الدينية إلى تعجيز التعليم العام وخلفته كسيحاً هزيلا ، وزاد حاله سوءاً شدة تقتير السلطات العامة عليه ، ورغبة أصحاب الأعمال فى العمال الأطفال ، واعتراض أصحاب مذهب الفردية على « تعليم أبناء الناس الآخرين » .

وكانت تقاليد الإنجليز القديمة ، وأعنى بها تقاليد الصراحة فى القول واحترام القانون والرغبة فى العدالة ، وقدر بعينه من الحرية الجمهورية ، قد ذوت ذوياً جسيما لما لقيت من ويلات إبان الكفاح ضد نابليون ، وكانت الروح الرومانسية ، التى كان بطلها الأكبر هو الروائى الكبير السير والترسكوت ، قد دست فى الخيال القوى عدوى التلهف على الزاهى البراق والجميل الرائع . وكان المستر ريجز الشخصية الكوميدية الإنجليزية فى مجلة بنش (Punch) فى ١٨٥٠ ، ١٨٦٠ ممثلا تمثيلا لا بأس به لروح الحركة الجديدة باتخاذه زى أهل المرتفعات الاسكتلندية واقتفائه أثر الغزلان .

وسرعان ما خطر على بال المستر ريجز شيء عده حقيقة زاهية الألوان جديرة بالتصديق لم يلحظها من قبل ، هو أن الشمس لا تغرب عن ممتلكاته أبداً !!.. فالقطر الذى قدم للمحاكمة كلايف ووارن هاستنجس لمعاملتهما الآثمة لأهل الهند قد اقتنع الآن تمام الاقتناع بأن يعدهما شخصين من أهل الفروسية التامة والإخلاص المطلق . إذ أنهما من « بناة الإمبراطورية » وحدث بتأثير سحر خيال دزرائيلى الشرقى الذى جعل من الملكة فكتوريا إمبراطورة ، أن التفت الرجل الإنجليزى راضياً مسروراً نحو الأبهات الغامضة التى تنطوى عليها « التسلطية » العصرية .

وأخذت الإثنولوجيا[1] المحرفة والتاريخ المشوه اللذان كانا بصدد إقناع الخليط المكون من العناصر الألمانية السلافية والكلتية والتيوتونية بأنها جنس عجيب قائم بذاته ، أن تكون مثلا يحتذيه الكتاب الانجليز الذين أنشأوا يفخمون اختراعا اثنولوجياً جديداً هو « الأنجلو ساكسون » . قدم هذا المزيج العجيب بوصفه الأوج الذى بلغته الإنسانية ، والتاج والثواب الأوفى للجهود المتراكمة التى بذلها الإغريق والرومان والمصريون والأشوريون واليهود والمغول وأمثالهم من السلف المنحط السابق على نخامته البيضاء . وكان للأسطورة السخيفة الخاصة بالفوق الألمانى أثر كبير فى إيغار صدور البولنديين فى بوزن والفرنسيين فى اللورين . ولم يقتصر أمر الأسطورة التى تكاد تكون أشد هزلا ، أسطورة تفوق الأنجلوساكسون على مجرد زيادة الحنق من الحكم الإنجليزى فى إرلنده ، بل إنها حطت من روح المعاملات البريطانية مع الشعوب الخاضعة فى كل أرجاء العالم قاطبة . ذلك أن انقطاع حبل الاحترام والامتناع عن

---

(١) الإثنولوجيا : علم السلالات البشرية وتفرعاتها .

ازدواج الفكرات الرفيعة معناها امتناع وجود الأدب والعدل .

ولم تنته محاكاة الفكر الخاطىء الألمانى فى الوطنية بهذه الخرافة الأنجلوساكسونية . فإن النابهين من الشبان فى الجامعات البريطانية إبان العقدين التاسع والعاشر عمدوا وقد برموا بما يتبدى فى السياسة الداخلية من تفاهة وقلة إخلاص ، إلى تقليد ومنافسة هذه التعاليم الجديدة التى كان ينشرها خصم استعمارى قوى النزعة صلف ، خبيث قوى ، وأعنى به ذلك المزيج بين مكيافللى وأتيلا الذى كان يُفرض على فكر ومناشط ألمانيا الفتية . فقد رأى شباب بريطانيا أنها كذلك يجب أن تكون لها دروعها اللوامع وأن تُلوح بحسامها البتار .

وقد وجد الاستعمار البريطانى الجديد شاعره فى شخص المستر كبلنج ووجد مناصرة عملية من جانب عدد من أرباب المصالح المالية وأصحاب الأعمال الذين كان يضىء لهم نور الاستعمار طريق الاحتكار والاستغلال . وحمل هؤلاء الإنجليز المصطبغون بالصباغ البروسى ما نقلوه بالتقليد عن ألمانيا إلى أبعد الغايات وأقصاها . ولا مراء فى أن أوربا الوسطى هى مجموعة اقتصادية واحدة متصلة الحلقات ، تُشغّل على أحسن حالٍ بوصفها وحدة واحدة ، وكانت ألمانيا الجديدة فازت باتحاد جمركى عظيم الشأن وهو اتحاد زولفران[1] (Zollverein) يضم كل أعضاء أسرتها الألمانية . وطبيعى أن يصبح مجموعة متماسكة تماسك قبضة اليد المقبوضة . على حين كانت الإمبراطورية البريطانية مفتحة الجنبات مثل يد مبسوطة فى كل أجزاء العالم ، وكان أعضاؤها مختلفين فى الطبيعة والحاجات والعلاقات ، لا تربطهم مصلحة مشتركة اللهم إلا الضمان المشترك للأمنة والدفاع . على أن التسلطيين الجدد كانوا عمهين عن هذا الفارق . فلئن كان لألمانيا الجديدة اتحاد جمركى فإن الإمبراطورية البريطانية يجب أن تجارى العصر والزى ؛ ولا بد لها أن تعرقل فى كل مكان التطور الطبيعى لعناصرها الأولى بواسطة التفضيلات والتمييزات الإمبراطورية وما إليها .

ومع هذا فإن الحركة التسلطية فى بريطانيا العظمى لم تبلغ قط من السلطان والإجماع ما بلغته فى ألمانيا . فإنها لم تكن نتاجا طبيعياً لأى من الشعوب البريطانية الثلاث المتحدة وإن تفارقت ، فلم تكن مما يشاكل طبائعهم . ولم تكن الملكة فكتوريا وخلفاؤها إدوارد السابع وجورج الخامس عياليين لا بحكم الجنس (بين ذكر وأنثى) ولا بحكم الشخصية والمظهر أو المزاج أو التقاليد ، أن يرتدوا دروعا لامعة وأن يلوحوا بقبضات من حديد وأن يهزوا سيوفا بتارة على

(١) زولفران : تطلق هذه الكلمة على الاتحاد الجمركى الذى تم بجهود بروسيا فى ١٨٣٤ متدرجا من إدماج اتحادات جمركية صغرى بعضها ببعض إلى تكوين الاتحاد القومى الألمانى .

شاكلة آل هوهنزولرن . وكان لهم من الحكمة ما حملهم على الامتناع عن القيام بأى تدخل صريح فى الفكرات العامة . كذلك أثارت هذه الحركة التسلطية البريطانية منذ أول نشوئها عداوة العديد الكبير من الكتاب الإنجليز والإرلنديين والإسكتلنديين الذين أبوا أن يعترفوا بهذه القومية البريطانية الجديدة أو أن يقبلوا النظرية القائلة بأنهم هم الأنجلوساكسون أصحاب مزتبة السوبرمان هذه . كذلك كانت كثير من المصالح الكبيرة فى بريطانيا ، نخص بالذكر منها شركات الملاحة قد أقيمت على أساس التجارة الحرة ، وكانت ترمق المقترحات المالية للتسلطيين الجدد ، والمغامرين الماليين والتجاريين الجدد الذين كانوا يرتبطون بهم ، — بنظرة ارتياب لها ما يبررها .

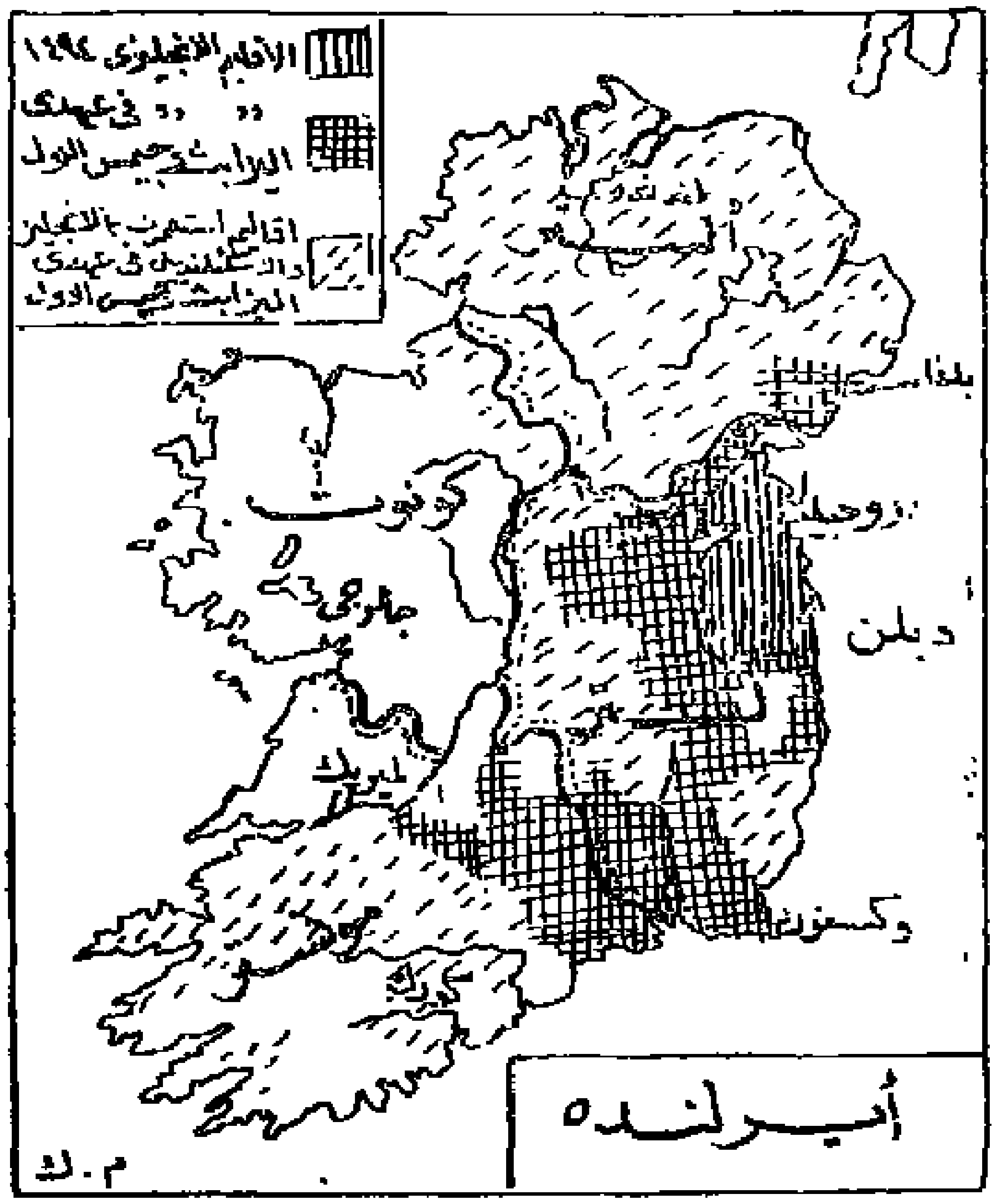

(شكل ٢٠٩)

فأما من الناحية الأخرى فإن هذه الفكرات انتشرت انتشار النار فى الهشيم فى الطبقة العسكرية وهيئات الموظفين بالهند وما إليها . وكان هناك حتى ذلك الحين جو من التماس المعاذير يحيط برجال الجيش فى انجلترا . فإنهم كانوا غرباء عن تلك الأرض . وها قد حانت الفرصة فى هذه الحركة التى تجعلهم على درجة من الأهمية الفاخرة تعادل ما لقرينهم حامل السلاح فى بروسيا . كذلك وجدت فكرة «التسلطية» مناصرة بين صفوف أصحاب الصحف الشعبية الرخيصة التى أخذت عند ذاك فى الظهور لكى تموِّن طبقة القراء الجديدة التى أوجدها التعليم الأولى . وكانت بهذه الصحافة حاجة إلى فكرات صريحة زاهية بسيطة مكيفة وفقاً لحاجات القراء الذين لم يكادوا يشرعون فى عملية التفكير بعدُ .

وبالرغم من هذه المناصرة ومن مواءمتها القوية لكبرياء القوى لم يستطع المذهب التسلطى البريطانى أبدا أن يغمر كتلة الشعوب البريطانية . فليس الإنجليز شعباً طيِّعاً من الناحية

العقلية ، وكان من أثر الحماس الصاخب الذى يكاد يكون قسريا ، ذلك الحماس للمذهب الاستعمارى والتعريفات الجمركية المرتفعة الخاصة بحزب التورى[1] القديم وطبقة العسكريين ورجال الدين فى مناطق الريف وصالات الموسيقى والأجنبى المتجنس بالجنسية الإنجليزية ، والثرى السوقى وأصحاب الأعمال الجدد الكبار ، أن مالت الطبقات العامة البسيطة ، وبوجه خاص العمال المنظمون ، إلى اتخاذ وضع ينطوى على الارتياب . فلئن كانت تلك القروح الداعة التهيج التى أصابتنا من هزيمة ماجوبا سمحت بأن تدفع البلاد إلى ذلك الفتح لجمهوريات البوير فى جنوب إفريقيا الغالى الثمن المتعب الذى لم تكن لنا به حاجة ، فلقد أنتج الإعياء من هذه المغامرة ارتكاسا كافيا نحو الاعتدال والعدالة بلغ من قوته أن أعاد الحكم والسلطان إلى يد حزب الأحرار ، وأن أزال أسوأ آثار الشر بإنشاء اتحاد جنوب إفريقيا .

واضطردت ألوان التقدم الجسيم فى تعليم الشعب وفى استرداد المصالح العمومية والثروة العامة من ملكية القلة ، كذلك حدث فى سنوات الهدنة المسلحة تلك أن أصبحت الشعوب البريطانية الثلاثة على شفا تسوية ما بينها ، على أسس عادلة معقولة نوعاً ما ، لسوء تفاهمهم الذى طال أمده مع إرلنده ، ومن سوء طالعهم أن الحرب العظمى فاجأتهم وهم فى صميم أزمة هذا الجهد . ولم تبرز شخصية إرلنده شأن اليابان ، إلا قليلا فى هذه المعالم التاريخية ، ولهذا السبب نفسه ، أى بسبب أنها أرض جزيرة متطرفة تتلقى الشىء الكثير ولا تعطى حتى اليوم إلا الشىء القليل تهيبه لحل الدراما العامة . وسكانها شعب مخلط جداً ، أساسه وربما مادته الكبرى من نبعة البحر الأبيض القاتمة ، السابقة على النورديين والآريين على السواء ، شأن شعب الباسك وسكان البرتغال وإيطاليا الجنوبية . وقد غمرت هذا الأساس الأصلى ، قرابة القرن السادس ق . م — ولسنا ندرى مدى هذا الغمر — موجه من الشعوب الكلتية ، بلغت على أقل تقدير من القوة ما جعلها ترمى فى البلاد أسس لغة كلتية ، هى اللغة الإرلندية الجايلية . وحدثت روحات وغدوات وغزوات وغزوات أخرى مقابلة ، لهذا أو ذاك من من الشعوب الكلتية والمصبوغة باللون الكلتى بين إرلنده وأسكوتلنده وويلز وانجلترا . ودخلت الجزيرة فى الدين المسيحى إبان القرن الخامس . وتلا ذلك أن أغار أهل الشمال على الساحل الشرقى واستوطنوه ، على أنا لا ندرى المدى الذى بلغوه فى تغيير العنصر .

وجاء الإنجليز النورمان فى ١١٦٩ فى زمان الملك هنرى الثانى وما تلاه . وربما كان العرق

(١) حزب التورى القديم : هو حزب المحافظين فى الزمن الحاضر .

التيوتونى معادلا للكلتى فى القوة أو أقوى منه فى إرلنده العصرية . وقد كانت إرلنده حتى ذلك الحين قطراً قبلياً همجياً به القليل من مواطن الأمنة التى وجدت فيها الميول الفنية فى العنصر الأشد قدماً، مجالا فى أشغال المعادن وتحلية الكتب المقدسة بالصور . وفى القرن الثانى عشر قام التاج البريطانى بفتح البلاد فتحاً غير تام ، وأنشأ الإنجليز والنورمان فى نواح مختلفة من البلاد مستقرات متناثرة هنا وهناك . وكان جليا منذ البداية أن هناك فوارق عميقة فى المزاج بين الإرلنديين والإنجليز ، وهى فوارق زاد فى شدة وطأتها الفوارق اللغوية ، وأصبحت هذه الفوارق أشد وضوحا بعد الإصلاح الدينى البروتستانتى . فأصبح الإنجليز بروتستانت ، وتجمع الإرلنديون بحافز رد الفعل الطبيعى حول الكنيسة الكاثوليكية المضطهدة .

وكان الحكم الإنجليزى فى إرلنده منذ البداية حربا أهلية متقطعه ترجع إلى ما بين الشعبين من الخلاف فى اللغة وإلى الاختلاف فى قوانين ملكية الأراضى والإرث . وما نحن بمستطيعين أن نحدثك فى هذا المقام عن الفتن والمذابح والقهر التى حدثت بالجزيرة التعسة إبان أحكام إليزابث وجيمس الأول ، على أنه حدث فى عهد جيمس خلاف جديد بسبب مصادرة مساحات عظيمة من مقاطعة آلستروسكنى مستوطنين اسكوتلنديين من البرزبتيريين ، فأنشأوا بذلك مجتمعاً بروتستانتيا يتنازع بحكم الضرورة تنازعا مستديما مع سائر إرلنده الكاثوليكى .

ولما حدثت النازعات السياسية فى حكم شارل الأول والجمهورية وحكم جيمس الثانى ووليم ومارى ، كانا الجانبان الإنجليزيان يجدان فى الأحزاب الإرلندية من يعطف عليهما ومن يحالفهما . وهناك فى إرلنده مثل سائر يقول إن مصائب انجلترا فوائد عند إرلنده ، كذلك كان الشغب الإنجليزى الذى أفضى إلى إعدام سترافورد ، مناسبة أخرى لإعمال الذبح فى الإنجليز بإرلنده (١٦٤١) . وحدث فيما بعد أن انتقم منهم كرومويل على هذه المذبحة بأن نكل تنكيلا شديدا بكل رجل وجده يحمل السلاح وهى قساوة لا تزال ذكراها الشديدة المرارة عالقة بأذهان الإرلنديين الكاثوليك . وعادت إرلنده فيما بين سنتى ١٦٨٩ ، ١٦٩١ فرقتها الحرب الأهلية . فإن جيمس الثانى طلب عون الإرلنديين الكاثوليك على وليم الثالث فهزم أنصاره هزيمة منكرة فى معركتى بوين (١٦٩٠) وأوغريم (١٦٩١) .

ثم تمت بين الطرفين تسوية هى معاهدة لمريك ، وهى تسوية مقلقة وعدت فيها الحكومة الإنجليزية وعوداً كثيرة فى شأن التسمح مع الكاثوليك ومن إليهم ، ولكنها لم

تف بوعدها . وما برحت لمعاهدة ليمريك ذكرى مريرة فى قصة الحزازات الإرلندية الطويلة الأمد . وليس بين الإنجليز من سمع قط باسم ليماريك هذه إلا أقلية نسبية ، فأما فى إرلنده فإنها لا تنى تُقرح النفوس إلى يومنا هذا .

وكان القرن الثامن عشر قرنا تجمعت فيه المظالم والإحن . فإن غيرة الإنجليز فى الشئون التجارية وضعت قيودا ثقيلة على التجارة الإرلندية ، ودمرت فى الجنوب والغرب أملا كبيرا فى تطور صناعة الصوف . وما كان أهالى آلستر البروتستانت يلقون معاملة أحسن مما كان يلقاه الكاثوليك ، ومن ثم كانوا فى مقدمة العصاة . وقامت فتن على توزيع الأراضى بين السكان بالتساوى شبت فى الشمال أكثر من الجنوب .

ولنذكر لك بقدر ما يتيح لنا ضيق هـذا المقام من الوضوح وجوه التشابه والتباين بين الإنجليز والإرلنديين فى هذا الزمان . كان لإرلنده برلمان ولكنه كان برلمانا بروتستانتيا ، تكوينه أضيق حدودا ورجاله أشد فسادا من البرلمان الإنجليزى المعاصر له . وقامت فى دبلن وما حولها مدنية جسيمة ، وقدر كبير من النشاط الأدبى والعلمى ، يدور باللغة الإنجليزية ويتمركز فى جامعة ترينتى كولدج البروتستانتية . تلك هى إرلنده سويفت وجولد سميث وبرك وبركلى وبويل . فكانت فى جوهرها قسما من الثقافة الإنجليزية . ولم يكن فيها خصيصة إرلندية واحدة تميزها . ذلك أن الديانة الكاثوليكية واللغة الإرلندية كانت أشياء منبوذة مضطهدة منزوية فى الظلمات فى ذلك الزمان .

ومن إرلنده هـذه التى تغشاها نشأت إرلنده القرن العشرين المتكرهة المعاندة . وكان البرلمان الإرلندى وأدب إرلنده الرفيع وعلمها وثقافتها أمورا كان من الطبيعى أن تنجذب صوب لندن ، لأنها كانت جزءا لا يتجزأ من العالم اللندنى . وكان كبار أصحاب الأراضى يقضون حياتهم فى انجلترا ويعلمون أبناءهم فى ربوعها . وكان معنى هذا هو انتقال مستمر للثروة من إرلنده إلى انجلترا فى شكل إيجار الأراضى ، الذى كان يُنفق أو يستثمر خارج البلاد . وكان من أثر الزيادة فى سهولة المواصلات أن اطردت هذه الحركة فى الزيادة ، وأن استنفضت ما فى دبلن واستنزفت دماء إرلنده . وكان قانون الاتحاد (أول يناير ١٨٠١) هو الائتلاف الطبيعى بين مجموعتين متقاربتين تقاربا تاما ، أعنى بين البرلمان الأنجلو إرلندى والبرلمان البريطانى ، وكلاهما أوليجاركى يعتمد على حكم القلة وكلاهما فاسد من الناحية السياسية فسادا متشاكلا . وقامت ضد الاتحاد معارضة قوية لم تصدر من جانب الإرلنديين الخارجيين المتباعدين بنفس القوة التى صدرت بها عن البروتستانت المستقرين فى إرلنده ،

وحدث فى ١٨٠٣ عصيان فاشل بقيادة روبرت إرمت . وبعد أن كانت دبلن مدينة أنجلو إرلندية رائعة فى منتصف القرن السابع عشر ، غادرتها الحياة الذهنية والسياسية شيئاً فشيئاً ، وغزاها إرلنديو إرلنده الخارجيون . وتحولت حياة الطبقة الراقية فيها بالتدريج إلى عيش موظفين ، يتركز حول نائب الملك بقلعة دبلن ، وخفقت حياتها الذهبية خفقة ثم همدت ردحا من الزمان وهى بين الحياة والموت .

ولكن على حين كانت إرلنده فى عهد سويفت وجولد سمث جزءا لايتجزأ من انجلترا فى زمن بوب (Pope) والدكتور جونسون والسير يوشع رينولدس ، وعلى حين لم يكن هناك قط ولا يوجد حتى اليوم أى فارق محدد ، اللهم إلا الفارق الجغرافى بين الطبقتين الحاكمتين فى كل من انجلترا وإرلنده ، فإن عالم الدهماء الإرلندى وقرينه الإنجليزى كانا متباعدين فى الجوهر غير متشابهين .

كان كفاح الديموقراطية الإنجليزية المتسامى نحو التعليم ، والحصول على الاعتراف بالحقوق السياسية مخالفاً فى كثير من الوجوه لكفاح الطبقات الدنيا الإرلندية . فإن بريطانيا كانت تنتج شعباً صناعياً عظيما إما بروتستانت أو متشككين . حقاً إنه كان بها عمال زراعيون ولكن لم يكن بها فلاحون من صغار الملاك . وكانت إرلنده وهى بلاد خاو من الفحم ولها تربة أضعف وأصحاب أملاك يعيشون فى انجلترا ، قد أصبحت أرض فلاحين من صغار الملاك الذين يدفعون الإيجارات . وسمح المسئولون لزراعتها بأن تنحط انحطاطا مطردا حتى أصبحت عملية زرع للبطاطس وتربية للخنازير . وكان الناس يتزاوجون ويعقبون . ولولا احتساء شىء من الويسكى لمن استطاع إليه سبيلا وقليل من العراك ، فإن تسليتهم الوحيدة كانت فى حياتهم العائلية . ودونكم النتائج الرهينة لذلك الأمر .

فإن عدد سكان إرلنده :

فى ١٧٨٥	كان	٢,٨٤٥,٩٣٢ نسمة
فى ١٨٠٣	كان	٥,٥٣٦,٥٩٤ نسمة
وكان فى ١٨٤٥		٨,٢٩٥,٠٦١ نسمة

وحدث فى تلك السنة أن البطاطس المسكين المكدود انهار تحت حمله المتزايد الضخامة فحدثت مجاعة رهيبة . فمات الكثيرون وهاجر الكثيرون ، انتقلوا إلى الولايات المتحدة بوجه خاص ؛ وابتدأت نوبة من الهجرة جعلت إرلنده ردحاً من الزمان أرض شيوخ وبيوت خاوية .

وكان من نتائج توحيد البرلمانين ، أن الاقتراع كان يحدث بين ظهرانى الإنجليز والإرلنديين فى وقت معاً . وكان معنى منح الكاثوليك حق الانتخاب فى انجلترا هو منحه لهم فى إرلنده . وكان الإنجليز يحصلون على الأصوات لأنهم كانوا يرغبون فيها . وكان العامة الإرلنديون يحصلون على الأصوات لأن الإنجليز حصلوا عليها . وكان تمثيل إرلنده فى برلمان الاتحاد أكثر مما يجب ، لأن الأصل فى القاعد الإرلندية أنها أيسر وأدنى إلى تصرف الطبقة الحاكمة من الإنجليزية ، وبذا حدث أن إرلنده الإرلندية الكاثوليكية هذه التى لم يكن لها قط من قبل أية آلة سياسية أصالة ، والتى لم تطلب أبداً آلة سياسية ، وجدت نفسها فجأة صاحبة القوة على قذف هيئة متينة من الأعضاء فى هيئة بريطانيا العظمى التشريعية .

وبعد انتخابات ١٨٧٤ العامة ، قذف الأعضاء الإرلنديون المأجورون السابقون جانباً ، ووجدت الديموقراطية الإنجليزية الممنوحة حقوقها الوطنية حديثاً نفسها وجها لوجه أمام ديموقراطية إرلندية عجيبة محيرة ، مختلفة فى ديانتها وتقاليدها وحاجاتها ، متحدثة بقصة من المظالم لم يسمع بها عامة الإنجليز من قبل أبداً ، صاحبة تطالب فى حدة بانفصال لم يكن الإنجليز ليفهموا له معنى ، انفصال أشعرهم بوجه خاص أنه تصرف عدائى لا ضرورة له .

والأنانية القومية لدى الإرلنديين حادة شاحذة ، لأن ظروفهم جعلتها كذلك ، فلم يكن فى مستطاعهم أن يقدروا حالة الأمور فى انجلترا ، وجاء الحزب الإرلندى الجديد إلى البرلمان الإنجليزى لكى يعرقل مصالح الإنجليز ويفسد نظامها إلى أن تصبح إرلنده حرة ، وليجعلوا من أنفسهم شجى فى حلوق الإنجليز . وما كان هذا الروح إلا موضع الترحاب الشديد من الأوليجاركية التى كانت ماتزال تحكم الإمبراطورية البريطانية ؛ فتحالفوا مع بروتستانت الشمال الموالين — أعنى الموالين للحكومة الإمبراطورية بسبب خوفهم من تسلط الكاثوليك عليهم فى إرلنده — كذلك راقبوا عن كثب وأخذوا يذكرون نار التسخط التدريجى الذى حل بالعامة الإنجليز بسبب هذه العداوة العمياء التى يبديها عامة إرلنده .

وقصة العلاقة بين إرلنده وانجلترا فى نصف القرن الأخير إنما هى قصة تعكس على الطبقة الحاكمة للإمبراطورية البريطانية أقصى غاية الخزى ، ولكنها ليست شيئاً يحتاج عامة الإنجليز أن يخجلوا منه . فإنهم أبدوا مراراً وتكراراً أعظم الشواهد على حسن النية . والتشريع الإنجليزى بالعلاقة إلى إرلنده طيلة نصف قرن تقريباً يكشف لنا عن محاولات متعجة من جانب الأحرار ، تقوم فى وجه معارضة قوية من جانب حزب المحافظين ونواب آلستر الإرلنديين ، رغبة من الأحرار فى القضاء على الشكايات الإرلندية والوصول بالقطرين إلى قدم الزمالة والأخوة .

ويبرز اسم بارنل وهو إرلندى بروتستانتى بوصفه الزعيم الأكبر لحركة الحكم الذاتى (Home Rule) . وفى ١٨٨٦ جلب غلادستون ، رئيس وزراء الأحرار العظيم ، كارثة سياسية على نفسه بتقديم أول قانون للحكم الذاتى الإرلندى ، وهى محاولة صادقة من جانبه لتسليم الأمور الإرلندية لأول مرة فى التاريخ إلى أيدى الشعب الإرلندى . وانصدع حزب الأحرار شطرين بسبب هذا القانون ، وقامت حكومة ائتلافية ، هى حكومة الاتحاديين ، فحلت محل حكومة المستر غلادستون .

واستطرادنا هذا إلى تاريخ إرلنده يبلغ بنا الآن إلى زمان تفشى عدوى التسلطية فى أوربا . فإن حكومة الاتحاديين التى أخرجت المستر غلادستون كان يسودها عنصر محافظ ، وكانت فى روحها مصطبغة باللون الاستعمارى كما لم تكن أية حكومة بريطانية سابقة قط . والتاريخ السياسى البريطانى فيما عقب ذلك من سنوات هو فى جل أمره تاريخ للنزاع بين مذهب التسلطية الجديد ، الذى حاولت بواسطته نزعة قومية بريطانية صلفة أن تدوس بقية الإمبراطورية مضادة بذلك المزاج الإنجليزى الميال بطبعه إلى الأسمحية والتعقل ، الذى كان ينزع إلى التطور بالإمبراطورية إلى احتلاف مكون من أحلاف أحرار راضين راغبين .

وطبيعى أن أصحاب مذهب التسلطية البريطانيين كانوا يطلبون شعباً إرلندياً خاضعاً مقهوراً ، وكان الأحرار الإنجليز يرغبون بالطبيعة فى شعب إرلندى حر ، يشترك برغبته . وفى ١٨٩٢ كافح غلادستون حتى عادت إليه مقاليد الحكم ومعه أغلبية صغيرة تدين بالحكم الذاتى ، وفى ١٨٩٣ مر قانونه الثانى للحكم الذاتى فى مجلس العموم ، ورفضه مجلس اللوردة . ومع هذا فلم تتول الحكم حكومة استعمارية إلا فى ١٨٩٥ . ولم يكن الحزب الذى تسند إليه الحكومة يسمى حزب التسلطيين (الاستعماريين) بل حزب الاتحاديين ، وهو اسم غريب عن مسماه إذا راعينا الجهود الجهيدة التى واصلوا بذلها لتحطيم كل احتمال يبشر بقيام مصلحة مشتركة بين أجزاء الإمبراطورية . وظل السلطان فى يد هؤلاء الاستعماريين عشر سنوات . وقد سبق أن ذكرنا غزوهم لجنوب إفريقيا . وقد خذلوا فى ١٩٠٥ فى محاولة قاموا بها لإنشاء حاجز من التعريفة الجمركية على الطراز التيوتونى . وعند ذلك حولت حكومة الأحرار التالية الهولنديين المقهورين فى جنوب إفريقيا إلى رعايا زملاء راضين قريرى الأعين بإنشاء دومنيون جنوب إفريقيا الذى يحكم نفسه بنفسه . ثم دخلت فى أعقاب ذلك فى غمرات نزاع طالما تهددها مع مجلس اللوردة المصر دائماً على مبادئه الاستعمارية .

وكان هذا كفاحا جوهريا جدا فى الشئون البريطانية . وإنك لتجد فى ناحية أغلبية أهالى

بريطانيا العظمى الأسمحيين وهم حريصون حرص الحكيم الشريف على أن يضعوا هذه المسألة الإرلندية على أساس جديد يبشر بالأمل ، وأن يحيلوا إن استطاعوا عداوة الإرلنديين إلى مودة ؛ ونجد فى الجانب الآخر كل عوامل هذا الاستعمار البريطانى الجديد وقد صممت أن تعمل بأى ثمن وبالرغم من كل نتائج الانتخابات — وبطريقة قانونية إذا أمكن ، فإن تعذر فبطريقة غير قانونية — على أن تحتفظ بتسلطها على شئون الإنجليز والإسكتلنديين والإرلنديين وسائر أجزاء الإمبراطورية على السواء .

كان هذا هو ماحدث فى داخل المجتمع البريطانى من كفاح دام العصرَ بأكمله وتسمى بأسماء جديدة . وهو نفس النزاع الذى سبق أن عالجناه فيما قلناه عن تحرير أمريكا بين العامة الأحرار ذوى الروح الأسمحية وبين أقوياء من كبار الرجال والمغامرين الكبار والأشخاص المستبدين . وكانت إرلنده كما كانت أمريكا من قبل محض مسرح للقتال . ومن عجب أن الطبقة الحاكمة ومن يرتبط بها من مغامرين كانت فى الهند وإرلنده وانجلترا تدين بمبدأ واحد . ولكن الشعب الإرلندى لم يكن له بفضل فوارقه الدينية ، أى إحساس بالتماسك مع الإنجليز . ومع هذا فإن من بين الزعماء الإرلنديين أمثال ردموند ، زعيم الحزب الإرلندى فى مجلس العموم ، من تسامى عن هذه القومية الضيقة ردحا من الزمان ، وأظهر من جانبه استجابة كريمة لنوايا الإنجليز الطيبة .

وأخذت العقبة المتمثلة فى شخص مجلس اللوردة تتحطم تحطما وئيداً أكيداً ، وتقدم المستر آسكويث رئيس الوزارة فى ١٩١٢ بقانون ثالث للحكم الذاتى الإرلندى . وظل هـذا القانون طوال ١٩١٣ والقسم الأول من سنة ١٩١٤ يلقى هجمات وحملات متكررة فى البرلمان . وكان بادئ الرأى بمنح الحكم الذاتى لإرلنده بأكملها . ولكن سرعان ما أعلنت الحكومة وعداً بإصدار قانون يعدّل القانون الأول ويستبعد آلستر بشروط خاصة . ودام هذا الكفاح فى طريقه حتى شبوب نار الحرب الكبرى . وأقر الملك هذا القانون بعد ابتداء الحرب فعلا ، كما أقر قانونا يوقف تنفيذ الحكم الذاتى الإرلندى حتى تنتهى الحرب . وأضيفت هذه القوانين إلى سجل قوانين الدولة .

على أن المعارضة لقانون الحكم الذاتى الثالث اتخذت منذ تقديمه شكلا عنيفاً مسرفا . فإن السير إدوارد كارسون وهو محام فى دبلن أصبح من رجال المحاماة الإنجليز ، ونال منصباً قضائياً فى وزارة المستر غلادستون (قبل تصدعها بسبب الحكم الذاتى) وكان فى الحكومة التسلطية التالية ، هو المنظم والزعيم لهذه الحركة الرامية إلى مقاومة الصلح بين الشعبين . ثم شرع بالرغم

من أصله الدبلني يتزعم أهالى آلستر البروتستانت ؛ وأدخل فى صميم النزاع ذلك الاحتقار للقانون الذى هو مميز خاص عادى جداً لكل محام ناجح فى عمله ، كما أنزل فى الميدان مواهب تلك المداوة اللجوجة البالغة الصلبة التى كان يمتاز بها طراز معين من الإرلنديين . كان أبعد الناس عن الإنجليز إذ كان أسمر ، وومانسيا عنيفا ؛ وكان منذ مبتدأ الكفاح ، يتكلم فى جذل عن المقاومة المسلحة لهذا الاتحاد الحربين الإنجليز والإرلنديين الذى كان يبشر به قانون الحكم الذاتى الثالث .

وتألفت فى آلستر ١٩١١ جماعة من المتطوعة ، وأخذت الأسلحة تُهرب إلى داخل البلاد ، وشرع السير إدوارد كارسون ومعه محام ناشىء اسمه ف . و . سمث يجوبان آلستر فى زى شبه عسكرى ، ليفتشا على هؤلاء المتطوعة ويُذكيا نار العداوة المحلية . وقد حصل هؤلاء العصاة المنتظرون أول إشارة للثورة ، على أسلحتهم من ألمانيا ، ولطالما لحت أقوال متنوعة صدرت من خلطاء السير إدوارد كارسون إلى مناصرة ملك بروتستانتى عظيم لهم . وعلى النقيض من آلستر ، كان سائر إرلنده فى ذلك الزمان أرض نظام واتزان ، تعتمد على زعيمها العظيم ردموند وعلى الثقة الطيبة بين الشعوب البريطانية الثلاثة .

ولم تكن هذه التهديدات المنذرة بالحرب الأهلية فى إرلنده شيئاً استثنائياً ولا مستغربا مختلفاً عن مسجلات هذه الجزيرة التاعسة وتاريخها ، ولكن الشىء الذى يجعلها ذات قيمة ودلالة فى تاريخ العالم فى ذلك الزمان هو ذلك التعضيد المنيف الذى لقيته بين الطبقات الحاكمة والعسكرية فى انجلترا ، وحصانة السير إدوارد كارسون وأتباعه من كل عقوبة أو تقييد .

ذلك أن اللقاح السام لرد الفعل الذى ترتب على نجاح وأبهة التسلطية الألمانية قد انتشر انتشاراً عظيما ، بين كل الطبقات القوية الغنية فى بريطانيا العظمى كما سبق أن أوضحنا لك . وكان قد نشأ جيل تناسى تقاليد أجداده العظيمة ، وتهيأ للتخلى عن عظمة العدالة والحرية الإنجليزية مقابل أشد أنواع التسلطية زيفا وبهرجة سخيفة . واكتتب الناس فى بريطانيا وبخاصة انجلترا باعتماد مالى قدره مليون جنيه ، لمعاونة ثورة آلستر ، وتكونت لآلستر حكومة مؤقتة ، ونزل إلى الحومة رجال مبرزون من الإنجليز وأخذوا يجوبون بسياراتهم أرجاء آلستر ، وهم يعاونون فى تهريب البنادق ، وهناك من الشواهد ما يدل على أن فريقاً من الضباط والقواد البريطانيين كانوا على استعداد للقيام بأعمال على شاكلة أشبه بأساليب أمريكا الجنوبية منها بالطاعة للقانون .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الخروج على النظام المتفشى فى الطبقات العليا أن عمّ الانزعاج

الجزء الرئيسى من إرلنده ، التى لم تقبل يوماً ما على صداقة انجلترا ، وأن شرعت إرلنده بدورها أيضاً فى تنظيم المتطوعين الوطنيين وتهريب السلاح . وأظهرت السلطات العسكرية اهتماماً بقمع الوطنيين أشد مما أظهرت فى قمع استيراد السلاح لأهالى آلستر ، وفى ١٩١٤ أفضت إحدى المحاولات لتهريب السلاح فى هوث بالقرب من دبلن إلى شبوب القتال وإراقة الدماء فى شوارع دبلن . وبذا كانت الجزائر البريطانية على شفا الحرب الأهلية .

تلك هى معالم قصة حركة الاستعماريين الثورية فى بريطانيا العظمى حتى ليلة الحرب الكبرى . ذلك أن حركة السير إدوارد كارسون وأشياعه هذه كانت ثورية لا جرم . إذ أنها كانت محاولة صريحة لدفع الحكومة البرلمانية جانباً وإزالة ما نالته الشعوب البريطانية من حريات ناقصة نمت فى بطء ومهل ، والقيام بمساعدة الجيش بإحلال طراز من الحكم أقرب إلى البرومى ، مع استعمال النزاع الإرلندى نقطة ارتحال تبدأ منها الحركة أعمالها . وكانت تلك حركة رجعية قام بها عشرات قليلة من آلاف الرجال لإيقاف حركة العالم المتجهة صوب القانون الديموقراطى والعدالة الاجتماعية ، وهى أشد ما تكون مشابهة وأوثق ما تكون عطفاً على الحركة الاستعمارية الجديدة التى قام بها الأشراف والأغنياء الألمان . على أن الروح الإمبراطورية البريطانية والألمانية كانتا تتفارقان من وجهة واحدة هامة جداً . فإنها كانت تتركز فى ألمانيا حول التاج ، وكان أشد أنصارها ضجة وبروزاً هو ولى العهد . فأما فى بريطانيا العظمى فقد وقف الملك موقف المترفع . فلم يحدث أن أبدى الملك جورج الخامس بأى عمل علنى أدنى موافقة على الحركة الجديدة ، وكان سلوك البرنس أوف ويلز ابنه ووريثه يعدل سلوكه سلامة واستقامة .

وفى أغسطس ١٩١٤ هبت على العالم عاصفة الحرب الكبرى . وفى سبتمبر كان السير إدوارد كارسون يطعن فى وضع قانون الحكم الذاتى الثالث فى سجل القوانين . فأوقفت عمليته حتى تنتهى الحرب . وفى نفس اليوم كان المستر جون ردموند زعيم الأغلبية الإرلندية والممثل الحقيق لإرلنده يهيب بالشعب الإرلندى بأن يتحمل نصيبه الأوفى من عبء الحرب ومجهودها . واستمرت إرلنده ردحاً من الزمان تقوم بدورها فى الحرب إلى جوار انجلترا بإخلاص واهتمام حتى حلت فى ١٩١٥ وزارة ائتلاف محل حكومة الأحرار ، ودخل الوزارة هذا السير إدوارد كارسون بسبب ضعف أخلاق المستر آسكويث وشغل منصب النائب العام (بمرتب قدره ٧٠٠٠ جنيه تضاف إليها الأتعاب) ، على أنه استبدل للوقت بزميله فى التغرير بآلستر السير ا . ف . سمث .

وهى إهانة لم يصب بأبلغ منها شعب صديق ، فالعمل على الصلح والتراضى الذى ابتدأه

غلادستون فى ١٨٨٦ ، وأوشك أن يبلغ غايته فى ١٩١٤ ، تحطم تحطما نهائياً تاماً . ففى ربيع ١٩١٦ قامت فى دبلن ثورة فاشلة ضد هذه الوزارة الجديدة ، وأعدم زعماء هذا العصيان وكان الكثيرون منهم مجرد غلمان ، رمياً بالرصاص ، ونفذ الحكم بقساوة سمجة متعمدة ، كان من أثرها وبالنظر إلى المعاملة التى لقيتها الثورة فى آلستر ، أن شعر الناس فى إرلنده بأجمعها بأنها ظالمة ظلماً فظيعاً بالغاً . وحدث أن أحد الخونة وهو السير روجر كاسمنت وكان قد نال لقب فارس لسابق خدماته للإمبراطورية حوكم وأعدم بحق وعدل ولامراء ، ولكن المدعى العام كان هو السير ا . ف . سمث أخو العصيان فى آلستر — وكان اجتماع هذين الشخصين مدعاة للغضب والانزعاج .

ولم يكن عود دبلن لتى الشىء الكثير من التعضيد من إرلنده بعامة ، ولكن حدث أن حركة المطالبة بجمهورية مستقلة نمت من بعده نموا هائلا . وكان ينافح ضد هذا الاندفاع العاطفى القوى أصحاب الفكرات المعتدلة بين رجال السياسة الإرلنديين من أمثال السير هوراس بلانكت ، الذى كان يتمنى أن يرى إرلنده وقد أصبحت دومنيونا أى جمهورية متوجة ، داخل الإمبراطورية ، على قدم المساواة مع كندا وأستراليا .

٤ — التسلطية فى فرنسا وإيطاليا والبلقان

تبرز لنا دراساتنا للنزعات التسلطية العصرية فى ألمانيا وبريطانيا قوى بأعيانها مشتركة بين البلادين ، وسوف نجد نفس تلك القوى وهى تعمل على درجات مختلفة ومع تعديلات متنوعة فى حالة المجتمعات العظيمة العصرية الأخرى التى سوف ننظر الآن فى شأنها . وليست هذه النزعة التسلطية العصرية بحركة إنشائية ترمى إلى توحيد العالم شأن الإمبراطوريات العصرية ، بل هى فى وجودها روح قومية تنطوى على جنون العظمة ، وهى قومية أحالها الثراء عدوانية ، وإنها لتلقى على الدوام أقوى عضد لها بين طوائف الموظفين والجيش ، وبين طبقة المجتمع القدامة صاحبة المشروعات والميالة إلى الاحتياز ، أى فى أصحاب الثراء الحديث والأشغال الكبيرة ، وتجد أشد نقادها بين جماهير الفقراء المتعلمين وأعظم خصومها بين الفلاحين والعمال . وهى تقبل الملكية حيث تجدها ، وإن لم تكن بالضرورة حركة ملكية . ومهما يكن من شىء فإن بها حاجة إلى وزارة خارجية من الطراز التقليدى لكى يهيئ لها أسباب تطورها كاملا . ويبين ذلك بأتم وضوح مصدرها الذى تأثرناه بعناية العناية فى كتابنا هذا المؤرخ لجنسنا . والنزعة الإمبراطورية العصرية إنما هو التطور الطبيعى

لنظام الدول الكبرى الذى نشأ مع منهاج وزارة الخارجية فى السياسة ، ناجماً عن الملوك المكيافيليين بعد تحطم المسيحية . ولن ينتهى أمرها إلا عندما تحل جمعية اتحادية محل ما بين الأمم والشعوب من علاقات قوامها السفارات ووزارات الخارجية .

وكانت التسلطية (الاستعمار) الفرنسية أثناء مدة المدنية المسلحة فى أوربا ، ذات طراز يتجلى فيه بطبيعة الحال قدر من الثقة والاطمئنان أقل مما لدى الألمان . وكانت تسمى نفسها بالقومية أكثر منها بالنزعة التسلطية ، فنصبت نفسها باللجوء إلى الكبرياء الوطنى لكبت جهود أولئك الاشتراكيين والعقليين[1] الذين كانوا يحاولون أن يتصلوا بالعناصر الرسمية فى الحياة الألمانية . وكانت لا تنى تفكر فى الانتقام أى فى الجولة التالية التى تردبها الكيل لبروسيا ، ولكنها بالرغم من هذا الخاطر الذى يشغل بالها نصبت نفسها لمغامرات الضم والاستغلال فى الشرق الأقصى وفى إفريقيا ، حيث نجت بأعجوبة من الحرب مع بريطانيا فى الخلاف على فاشودة (١٨٩٨) ، كذلك لم تتخل قط عن حلم لها بامتلاك سوريا .

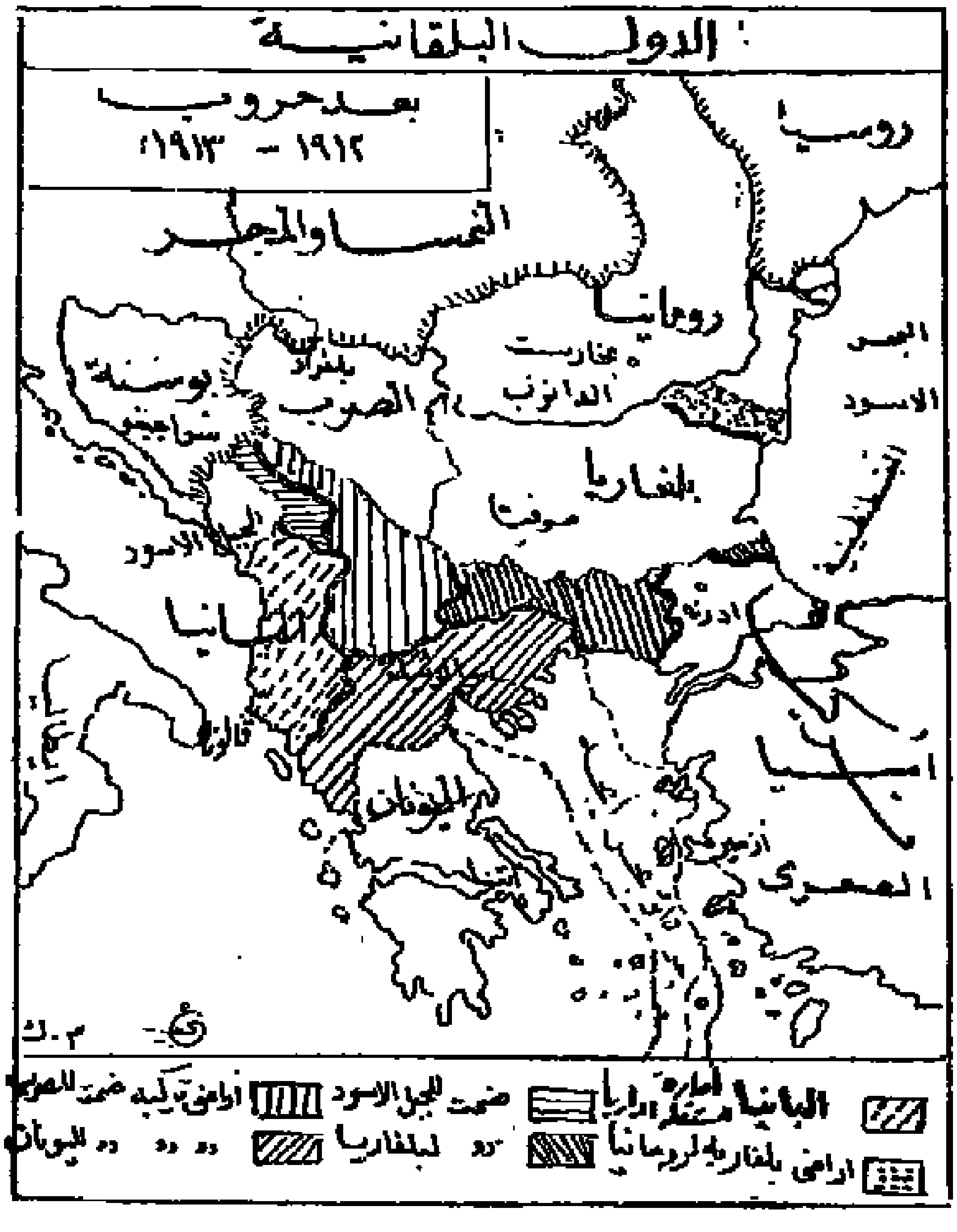

(شكل ٢١٠)

وأصيبت إيطاليا كذلك بحمى التسلطية ، على أن النزف الذى أصيبت به فى عدوه هدأ من ثائرتها بعض الزمان ، ثم عادت إليها السورة فى ١٩١١ بحرب أشبتها ضد تركيا وباستلحاق طرابلس ، وكان الاستعماريون الإيطاليون من دعاة التسلطية يحضون أبناء وطنهم على

(١) العقليون (Rationalists) : الذين يذهبون إلى أن العقل لا الوحى هو مصدر المعرفة .

نسيان مازيني والتعلق بذكرى يوليوس قيصر ، ألم يكونوا هم ورثة الإمبراطورية الرومانية ؟ ومست يد التسلطية بلاد البلقان ، فإن دولا صغاراً لا تبعد عن الاستعباد أكثر من مئة عام أخذت تبدى بوادر مقاصد عالية ، فإن فرديناند ملك بلغاريا اتخذ لقب قيصر ، وهو آخر قيصر مستعار ، وكان الطالب الطلمة يستطيع أن يدرس في نوافذ الدكاكين في أثينا خرائط تبين الحلم بإمبراطورية يونانية ضخمة في أوربا وآسيا .

وفي ١٩١٢ انقضت دولات سربيا وبلغاريا واليونان على تركيا ، وكانت واهنة القوى من قبل بسبب حربها مع إيطاليا ، وطردتها من كل ممتلكاتها الأوربية فيما عدا الأراضي بين أدرنة والقسطنطينية ، وفي السنة التالية دب الخلاف فيما بينهم على تقسيم الغنائم . وانضمت رومانيا إلى اللعبة وساعدت على سحق بلغاريا . واستردت تركيا أدرنة . وأخذت الروح التسلطية الأكبر من هـذا في النمسا والروسيا وإيطاليا يرقب هذا النزاع ويرقب كل منهم الآخر في نفس الوقت .

٥ — الروسيا تصبح ملكية عظمى

بينما كان العالم بأجمعه إلى الغرب منها يتغير تغيراً سريعاً ، كانت الروسيا تتغير في القرن التاسع عشر تغيراً بطيئاً جداً ولا جرم . فإنها كانت في نهاية القرن التاسع عشر ، كما كانت عند بدايته ما تزال ملكية عظمى ذات طراز يرجع إلى النصف الثاني من القرن السابع عشر تقوم على أسس همجية ، ولم تبرح بالمرحلة التي تستطيع فيها دسائس البلاط وحظيو القيصر أن يتصرفوا في علاقاتهـا الدولية . وكانت مدت سكة حديدية عظيمة عبر سيبيريا ، فلقيت في نهايتها كوارث الحرب اليابانية ، وكانت تستعمل الأساليب العصرية والأسلحة العصرية بالقدر الذي يسمح لهـا بها صناعتها غير المتطورة وما لديها من عدد قليل من المتعلمين تعليما كافياً ، وكان كتاب من أمثال ديستوفسكي استحدثوا نوعاً من المذاهب التسلطية التصوفية يقوم على فكرة الروسيا المقدسة ورسالتها ، ويصطبغ بألوان الخداع العنصري والحقد على اليهود ، ولكن هذا ، كما ستبدى لك الحوادث لم يتغلغل كثيراً إلى سويداء خيال الجماهير الروسية .

وكانت تسود حياة الفلاحين الأميين مسيحية مبهمة بسيطة جداً ، يخالطها كثير من الخرافات . وكانت حياتهم شبيهة بحياة فلاحي فرنسا وألمانيا قبل الإصلاح الديني . وكان مفروضاً أن الموجيك (Moujik) أعني الفلاح الروسي يعبد قيصره ويوقره وأنه يحب أن يخدم

أحد السادة السراة ؛ وكان الرجعيون من الكتاب الإنجليز ما يزالون فى ١٩١٣ يثنون على ولائه البسيط غير المتردد ولا المتشكك . ولكن كان يخالط هذا التوقير للملكية فكرة تقول بأن المليك أو النبيل لا بد له من أن يكون طيباً نافعاً شأن ما حدث فى حالة الفلاح الأوربى الغربى فى أيام ثورات الفلاحين ؛ وكان من الميسور أن ينقلب هذا الولاء البسيط — إن تهيأت له النيران الكافية — إلى نفس التعصب القاسى ضد انعدام العدالة الاجتماعية ، ذلك التعصب الذى أدى إلى إحراق القصور أثناء فتنة الفلاحين(١) ، وأقام الدولة الدينية فى مونستر(٢) ، وقد حدث مرة أن دب الغضب فى العامة ، ولم يكن هناك روابط للتفاهم تتمثل فى تعليم واسع الانتشار فى الروسيا حتى يخفف من حدة الانفجار . وكانت الطبقات العليا تبعد عن مرحلة العطف على الدنيا بعدها عن أى جنس آخر من الحيوان . وكانت هذه الجماهير الروسية متخلفة على مبعدة ثلاثة قرون عن تلك النزعات القومية التسلطية التى كانت تبديها ألمانيا .

كذلك اختلفت الروسيا من وجهة أخرى عن أوربا الغربية المعصرية ، وماثلت أطوارها فى القرون الوسطى ، وذلك فى أن جامعاتها كانت مثابة لكثير من الطلبة الفقراء المدقعين الذين لم تكن تربطهم بالحكومة البيروقراطية(٣) ، الاستبدادية أية صلة ولا تعاطف . وقبل ١٩١٧ لم تحس أوربا بالدلائل المؤذنة باقتراب عاملى الثورات الأصليين هذين — وأعنى بهما وقود التذمر وثقاب الفكرات الحرة ، وقل من الناس من كان يدرك أنه كانت توجد فى الروسيا أكثر منها فى أية بلاد أخرى احتمالات نشوب ثورة جوهرية .

٦ — الولايات المتحدة والفكرة التسلطية

إذا انصرفنا عن هذه الدول الكبرى الأوربية بما لها من إرث هو وزارات الخارجية والسياسات القومية ، والتفتنا إلى الولايات المتحدة الأمريكية التى انفصلت انفصالا تاماً عن نظام الدول الكبرى فى ١٧٧٦ ، لوجدنا حالة مناقضة على أعظم درجة من الامتناع تتجلى فى عمل القوى التى تمخضت عنها نزعات التسلط التوسعية فى أوربا .

فقد جلبت الثورة الميكانية على أمريكا كما جلبت على أوربا ، أن أصبح العالم بأجمعه قيد

---

(١) فتنة الفلاحين أو الجاكيرى : هى ثورة الفلاحين بفرنسا فى ١٣٥٨ .

(٢) الدولة الدينية بمونستر . انظر المعالم جـ ٣ ص ٧٨٧ .

(٣) البيروقراطية : هى الحكومة المعتمدة على الموظفين .

رحلة لا تتجاوز بضعة أيام . وكانت للولايات المتحدة شأن الدول العظمى مصالح مالية وتجارية تغشى العالم بأجمعه ، ونشأت فى البلاد حركة صناعية كبرى تضخمت وأمست بحاجة إلى أسواق خارجية وراء البحار ، وحدثت فى العالم الأمريكى نفس الأزمة التى ألمت بالمعتقدات والتى جلجت أركان التماسك المعنوى الأوربى . وكان شعبها عالى الوطنية وثاب الروح كأى شعب آخر . فلم لم تطور الولايات المتحدة إذن الجيوش المسلحة والسياسة العدوانية ؟ ولماذا لا ترفرف النجوم والشقق(١) ، فوق بلاد المكسيك ؟ ولم لم توجد مجموعة هندية أخرى تنمو فى بلاد الصين تحت تلك الراية ؟ وكان للأمريكى فضل فتح مغاليق اليابان . وبعد أن قام بذلك ترك هذه الدولة تسبغ على نفسها اللون الأوربى وتصبح قوية جبارة دون أن يصدر منه أى احتجاج على ذلك . وكان هـذا وحده كافياً لجعل ميكافلى أبى السياسة الخارجية العصرية يتقلب فى رمسه .

فلو أن دولة كبرى مصطبغة بالصباغ الأوربى كانت فى مكان الولايات المتحدة لاضطرت بريطانيا العظمى إلى تحصين الحدود الكندية من أقصاها إلى أقصاها — وهى الآن خالية من السلاح خلواً تاماً — ولاضطرت إلى الاحتفاظ بترسانة عظيمة على نهر السانت لورنس . ولكانت دول أمريكا الوسطى والجنوبية المتقسمة على نفسها غيلت وأخضعت من زمن بعيد ووضعت تحت الرقابة النظامية لموظفى الولايات المتحدة من طبقة الحكام . ولكانت تقوم حملة مستمرة تستهدف ضم أستراليا ونيوزيلندا إلى أمريكا ، هذا إلى مدعٍ جديد بنصيب فى إفريقيا المدارية .

وقد حدث طوعاً لصدفة عجيبة أن أنتجت الولايات المتحدة فى شخص الرئيس روزفلت (الذى تولى الرياسة من ١٩٠١ — ١٩٠٨) رجلاً ذا همة تعادل فى عدم استقرارها حال القيصر الألمانى ، كما يعدله فى التشوق إلى جلائل الأمور وعظائمها وفى الفصاحة وذلاقة اللسان ، فهو رجل مغامر فيه انحياز إلى ناحية السياسة العالمية ، وفيه غريزة تدعوه إلى التسلح والجيوش المسلحة ، وهو خير رجل نستطيع أن نتصور منه أن يقحم بلاده فى التخاطف على الممتلكات وراء البحار .

وليس يبدو لذلك التحرم والامتناع العامين من ناحية الولايات المتحدة أى تفسير يوضح سببه ، اللهم إلا فى نظمهم وتقاليدهم المختلفة عما لدينا اختلافاً جوهرياً . فليس لدى الولايات

---

(١) النجوم والشقق : فى هذا إشارة إلى علم الولايات المتحدة المكون من نجوم بيضاء ومن شقق أفقية من القماش ذى اللونين الأبيض والأحمر .

المتحدة قبل كل شيء وزارة خارجية وهيئة دبلوماسية على الطراز الأوربى ، ولا مجموعة من الخبراء مهمتها الاحتفاظ بتقاليد سياسة عدوانية . وللرئيس سلطات كبيرة ولكن توقفها عند حدها سلطات مجلس الشيوخ الذى ينتخبه الشعب انتخاباً مباشراً . فلا بد لكل معاهدة مع دولة أجنبية من أن تنال أولاً موافقة مجلس الشيوخ . ومن ثم فإن العلاقات الخارجية للبلاد تحت رقابة صريحة علنية عامة . فالمعاهدات السرية مستحيلة إذاً تحت مثل هذا النظام ، وتشكو الدول الأجنبية من صعوبة التفاهم مع الولايات المتحدة وعدم التحقق من نتائجه — وهى حالة للأمور جِدّ بديعة رائعة . وعلى هذا فإن الولايات المتحدة مبتورة الأيدى من الناحية الدستورية ، عن القيام بنوع السياسة الخارجية التى جعلت أوربا طيلة زمان مديد على شفير الحرب باستمرار .

ومن ناحية ثانية لم يوجد فى الولايات المتحدة حتى الآن أية تنظيمة تدير شئون ماقد يسميه الناس باسم « الممتلكات غير القابلة للتمثل » ولا أية تقاليد لمعالجة مثل هاته الممتلكات . وحيث لا يوجد تاج لا يمكن أن توجد مستعمرات للتاج . وكانت الولايات المتحدة إبان امتداد رقعتها عبر القارة الأمريكية قد طورت أسلوباً مميزاً لها تمام التميز فى معالجة شئون الأراضى الجديدة ، وهو مكيف تكييفاً بديعاً للأراضى غير المسكونة ولكنه متعب جداً إذا هو طبق بملء الحرية على مناطق تحوى من قبل سكاناً أجانب . وكان هذا الأسلوب يقوم على فكرة أنه لا يمكن أن يوجد فى مجموعة الولايات المتحدة شعب خاضع خضوعاً أبدياً .

وأول مراحل عملية التمثل العادية هى إنشاء منطقة تحت حكم حكومة الاتحاد ، يكون لها قدر جسيم من إدارة حكمها بنفسها ، وترسل مندوباً (ليس له أن يعطى صوتاً) إلى الكونغرس ، ومحتوم لها فى سير الأمور العادى ، مع استقرار الناس فيها وزيادة عدد سكانها ، أن تزدهر آخر الأمر فتنال كامل حقوق الولاية . تلك هى عملية التطور فى كل ولايات الاتحاد الأحدث عهداً ، وكانت آخر مناطق بلغت مرتبة الولاية هى آرزونا ومكسيكو الجديدة فى ١٩١٢ . على أن برية الاسكا المتجمدة ، المشتراة من الروسيا ، ظلت غير متطورة من الناحية السياسية لمجرد أنها لم تحو عدداً من السكان يكفى للقيام بتنظيم ولاية .

ولما كان ماضمته ألمانيا وانجلترا من أراض فى المحيط الهادى هدد البحرية الأمريكية بالحرمان من محطات للفحم فى ذلك المحيط ، فقد ضمت الولايات المتحدة جزءا من جزائر ساموا (١٩٠٠) كما ألحقت جزائر سندوتش (هواى) (١٨٩٨) . وهنا وجدت الولايات

المتحدة لأول مرة شعوباً محكومة تتعامل وإياها . ولكن أمريكا اتبعت فيها نفس أسلوبها بالمناطق المحلية فى بلادها بسبب غياب أية طبقة تماثل الموظفين الإنجليز فى الهند الذين يتسلطون على الرأى البريطانى . وقد بذل كل مجهود لرفع المستوى التعليمى فى هواى إلى نفس مستواه فى أمريكا ، ونظم مجلس تشريعى داخلى على غرار مجالس الولايات حتى ليخيل إلينا أنه مقدر على هؤلاء الجزريين القائمين أن ينالوا فى النهاية كامل الحقوق المدنية للولايات المتحدة . (ويهيمن على جزائر ساموا الصغيرة مدير من قبل الولايات المتحدة تابع للبحرية .)

فى ١٨٩٥ نشب بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى خلاف على مشكلة ڤنزويلا ، واستمسك الرئيس كليفلند بغاية الشجاعة بمبدأ مونرو . وعند ذلك صرح المستر أولنى [١] بهذا التصريح الهام : « اليوم تصبح الولايات المتحدة صاحبة السيادة عملياً على هذه القارة ، كما أن أوامرها قانون فى الموضوعات التى تقصر عليها تدخلها » . ويشير هذا مجتمعاً مع ما عقد من المؤتمرات المنوعة التى تدعو إلى الجامعة الأمريكية إلى سياسة خارجية حقيقية علنية تقوم على التحالف والمساعدة المتبادلة فى كل أرجاء أمريكا . ومعاهدات التحكيم نافذة المفعول فى كل أرجاء تلك القارة ، وكأنى بالمستقبل مشيراً إلى تطور تدريجى يُلم بتنظيم ما بين الدول من علاقات ، هو « السلام الأمريكى [٢] » الذى يضم الشعوب الناطقة بالإنجليزية والأسبانية وتكون فيه الأولى بمثابة الأخ الأكبر . وهنا نرى شيئاً لسنا بمستطعين حتى أن نسميه إمبراطورية وهو شىء يتجاوز كثيراً التحالف الكبير فى الإمبراطواية البريطانية من ناحية التساوى الصريح بين أجزائه المكونة له .

ومما يتسق مع هذه الفكرة الهادفة إلى الصالح الأمريكى المشترك ، أن تدخلت الولايات المتحدة فى ١٨٩٨ فى شئون كوبا ، التى ظلت فى حالة من العصيان المزمن ضد أسبانيا طيلة سنوات عديدة ، وعقب ذلك حرب وجيزة الأمد انتهت بالاستيلاء على كوبا وبورتوريكو وجزائر الفلبين ، وكوبا الآن جمهورية مستقلة تدير شئونها بنفسها ، وأعطيت بورتوريكو ، وجزائر الفلبين نوعاً خاصاً من الحكم فيه مجلس نيابى أدنى ينتخب الشعب أفراده ومجلس أعلى يحتوى على أعضاء عينهم بادى الرأى مجلس الشيوخ بالولايات المتحدة ، ومن البعيد أن تصبح أى من بورتوريكو والفلبين يوما ما ولايات فى الاتحاد . والأرجح فى شأنهما أن

(١) ريتشارد أولنى (Olney) : (١٨٣٥ — ١٩١٧) سياسى ومحام أمريكى . أصبح وزيراً ، كتب رسالة ١٨٩٥ الشهيرة التى تحتم خضوع بريطانيا للتحكيم فى خلافها مع ڤنزويلا .

(٢) فى ذلك وفى « السلم البريطانى » إشارة للسلم الرومانى (Pax Romana) الذى كان يفرض الأمن والسلام بالعالم إبان عظمة روما .

تصبحا دولا حرة على أساس تحالف شامل مع كل من أمريكا الناطقة بالإنجليزية ، وأختها الناطقة باللاتينية .

ولقد استقبلت كل من كوبا وبورتوريكو التدخل الأمريكي في شئونهما بالترحاب التام ، ولكن ظهرت في جزائر الفلبين حركة مطالبة بالحرية التامة الناجزة بعد الحرب الأسبانية ، كما نشبت مقاومة جسيمة للإدارة العسكرية الأمريكية . وهناك اقتربت الولايات المتحدة أشد اقتراب من طراز استعمار الدول الكبرى ، وأصبح سجلها في هذا المضمار أبعث ما يكون على الريبة ، وأبدت الولايات شيئاً كثيراً من العطف على العصاة . وها كم الآن وجهة نظر الرئيس روزفلت كما كتبها في ترجمته لنفسه ١٩١٣ .

« فأما في صدد الفلبين فقد كان اعتقادي أنه يجب علينا أن ندرب أهاليها على الحكم الذاتي بأسرع ما يستطاع ، ثم نتركهم أحراراً في تقرير مصيرهم . ولم أكن أعتقد بتحديد نهاية ذلك الزمان الذي يجب فيه أن نعطيهم الاستقلال ، لأني لم أكن أرى من الحكمة أن يتنبأ المرء بمقدار السرعة التي يصبحون فيها ذوي أهلية للحكم الذاتي ، فإذا قطعت ذلك الوعد فإني أشعر بأنه من المحتم على أن أبر به . ولم تمض بضعة أشهر على توليتي مهام عملي حتى قضينا على آخر مقاومة مسلحة في جزائر الفلبين التي لم تكن مجرد حركة يعمها التفرق والتباعد ؛ وما أن توطد السلام في البلاد حتى وجهنا كل همتنا إلى تطوير الجزائر لمصلحة أهل البلاد . فأسسنا المدارس في كل مكان ، وأنشأنا الطرق ، وأقمنا عدالة نزيهة ، وفعلنا كل ما في مستطاعنا لتشجيع الزراعة والصناعة ، وأخذنا نزيد باطراد في استخدامنا لأهل البلاد للقيام بحكم أنفسهم وأخيراً زودناهم بمجلس تشريعي .

«نحن نحكم الجزائر وكنا نحكمها لمصلحة أهالي الفلبين أنفسهم . فلو قرر الفلبيون بعد الوقت المناسب أنهم لا يرغبون في أن يحكموا على هاته الشاكلة ، فإني موقن بأننا سنغادر بلادهم عند ذلك . على أننا إذا غادرناهم بالفعل فيجب أن يكون مفهوماً فهما بيناً أننا لا نحتفظ بأي حماية على الجزائر ، وأننا فوق كل شيء لن نساهم في أية حماية مشتركة — ولا نمنحهم أي ضمان بالحياد أو عدم الحياد ، وأننا بالإيجاز خلو خلواً تاماً من المسئولية ، من أي نوع ووصف قبلهم » .

تلك وجهة نظر مخالفة أتم المخالفة لوجهة نظر وزارة الخارجية بريطانية أو فرنسية أو موظف في وزارة المستعمرات . على أنها لا تفارق كثيراً ذلك الروح الذي خلق الممتلكات

المستقلة فى كندا وجنوب أفريقيا وأستراليا ، وأنتج قوانين الحكم الذاتى الثلاثة لإرلنده . وهو شىء مماش للتقاليد الإنجليزية القديمة التى تختص بها والتى يشتق منها إعلان الاستقلال . وهى تنبذ بلا مناقشة تلك الفكرة المقوتة فكرة الشعوب المحكومة . ولسنا بداخلين ها هنا فى المعقدات السياسية التى صحبت إنشاء قنال بناما ، لأنها لا تدخل أى ضياء جديد على هذا الموضوع الشائق موضوع المنهاج الذى تستعمله أمريكا فى السياسة العالمية . وتاريخ بنما تاريخ أمريكى بحت . ولكن من الواضح أنه كما كان التركيب السياسى الداخلى للاتحاد شيئاً جديداً فى العالم ، فكذلك كانت علاقته بالعالم خارج حدوده .

٧ — الأسباب المباشرة للحرب العظمى

لقينا بعض المشقة فى الفحص عن حالة أوربا وأمريكا العقلية بالنظر إلى العلاقات الدولية فى السنوات التى انتهت بمأساة ١٩١٤ العالمية ، لأن تلك الحرب الكبرى وأمثالها — كما أخذ عدد متزايد من الناس يشعر ويدرك — جاءت عاقبة ضرورية لعقلية الزمان . فإن جميع الأشياء التى يأتيها الرجال والأمم إنما هى نتيجة لدوافع غريزية لها رد فعلها على الفكرات التى وضعها فى رءوس الناس الخطابة والكتب والصحف والمدرسون إلى غير ذلك . وربما أخرجت نمو التاريخ الإنسانى عن جادته وانحرفت به وشوهت معالمه أشياء من أمثال الضرورات الطبيعية والأوبئة وتغيرات المناخ وما إليها من أشياء أُخر ، ولكن جذوره الحية إنما هى الفكر .

فالتاريخ الإنسانى بأجمعه إنما هو فى جوهره تاريخ فكرات . فإن ما بين إنسان هذا الزمان ورجل الكرومانيون من فروق جثمانية وعقلية طفيفٌ جداً ، وينحصر الفارق الأساسى بينهما فى سعة ومحتويات الخلفية الذهنية التى حصلنا عليها فى الأجيال الخمسمئة أو الستمئة التى تفصلنا عنهم .

ونحن من الحرب العظمى على مقربة بلغ من شدتها ألا نستطيع أن ندعى أن هذا الكتاب يستطيع أن يسجل حكم التاريخ عليها ، على أنا ربما خاطرنا بأن نزكن أنه عندما تخف انفعالات النزاع ، فستكون ألمانيا صاحبة القسط الأوفى من اللوم على التسبب فيها ، وإنها لتلام لا لأنها كانت من الناحية الذهنية والخلقية مختلفة جداً عن جيرانها ، بل لأنها كانت مصابة بما تشركها فيه الدول جميعا من داء التسلطية ولكنه فيها على أتم صورة وأقواها نشاطاً . وليس هناك من مؤرخ يحترم نفسه مهما بلغت مراميه من السطحية والرغبة فى

استرضاء العامة ، يستطيع أن يقبل تلك الأسطورة التى أنتجتها آلام الحرب وويلاتها ، والقائلة بأن الألمانى نوع من الكائنات الإنسانية أشد قوة وأدعى للكراهية من أى ضرب من ضروب الناس . فإن دول أوربا الكبيرة كافةً كانت فى ١٩١٤ فى حال من القومية المدوانية ، وكانت تسير فى طريق الحرب ، ولم تقم حكومة ألمانيا بأكثر من قيادة الحركة العامة . فكانت الأولى فى الوقوع فى الحفرة وهوت تتخبط فى أعمق أعماقها . وأصبحت المثل الفظيع الذى كان يستطيع زملاؤها فى الإثم أن يشهروا به .

ذلك أن ألمانيا والنمسا ظلتا زماناً طويلا تبحثان عن متسع للنفوذ الألمانى شرقاً خلال آسيا الصغرى إلى بلاد الشرق . وتبلورت الفكرة الألمانية فى عبارة « برلين إلى بغداد » . وكانت أحلام الروسيا عدوة لأحلام ألمانيا ، فالروسيا كانت تدبر الخطط الرامية إلى امتداد السيادة السلافية (الصقلبية) إلى القسطنطينية وللوصول بطريق صربيا إلى البحر الأدرياتى . وكانت هذه الأطماع يقطع بعضها بعضاً ويتعارض أحدها مع الآخر .

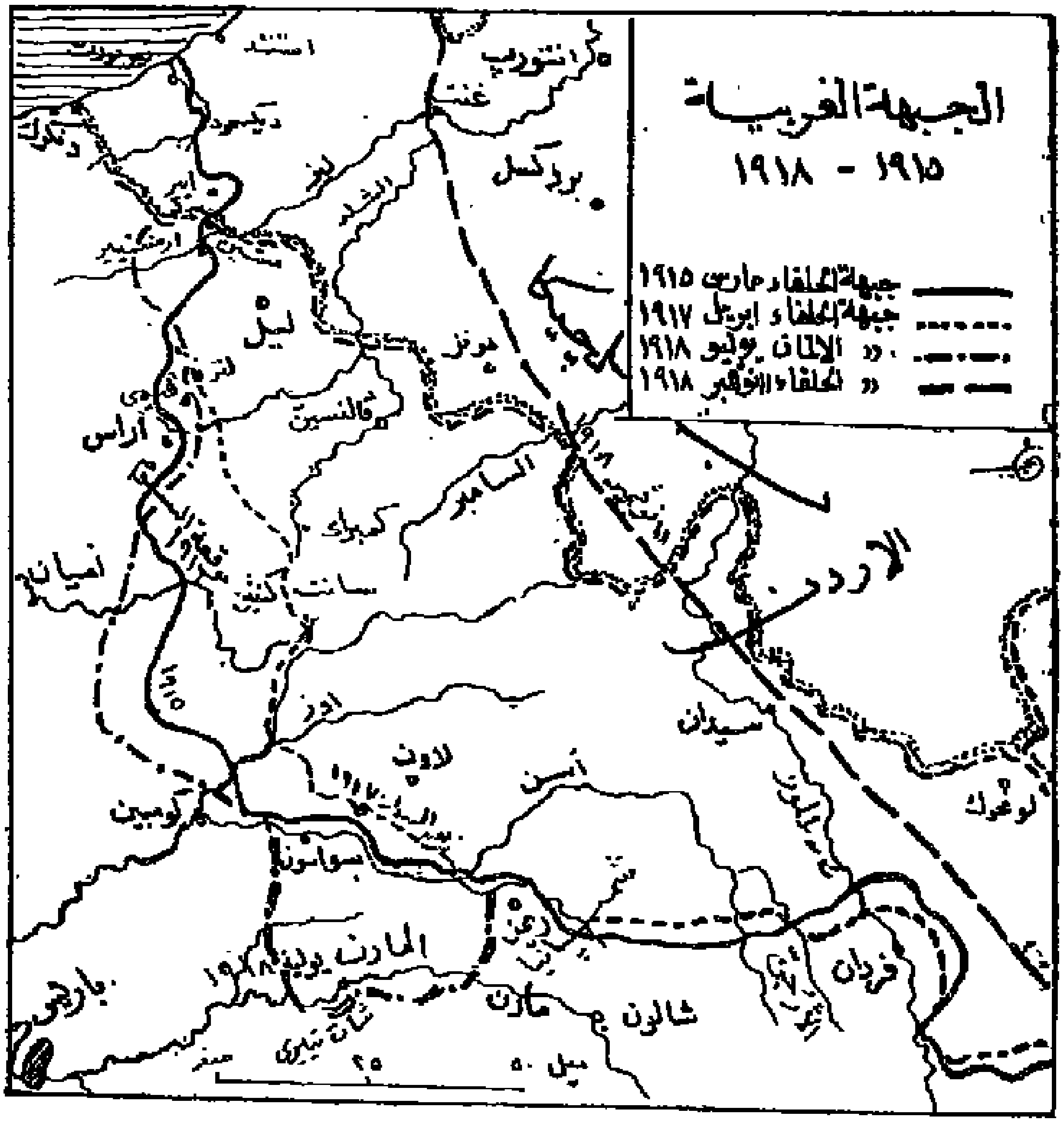

(شكل ٢١١)

وكانت حالة الحمى المتسلطة على شئون البلقان فى معظم أمرها نتيجة للمؤامرات والدعايات التى تناصرها الخطط الألمانية والسلافية . ومدت تركيا يدها إلى ألمانيا تطلب العون والتفتت صربيا صوب الروسيا . واتبعت رومانيا وإيطاليا وكلتاهما لاتينية التقاليد ، وكلتاهما حليف اسمى لألمانيا ، خططا مشتركة بينهما أبعد مجالا وأعمق غوراً . وكان فرديناند قيصر بلغاريا يطلب غايات أشد حلوكة وسوادا ، كما أن خفايا البلاط اليونانى الذى كان ملكه صهراً للقيصر الألمانى تخرج عن مجال مقدرتنا الحالية على البحث والتقصى .

ولكن المعضلة لم تنته بتربص ألمانيا فى جانب والروسيا فى الجانب المقابل . فإن شراهة ألمانيا فى ١٨٧١ جعلت من فرنسا عدواً لدوداً لها .. وإذ كان الشعب الفرنسى عارفا بعجزه عن أن يسترد بقوته وحده مقاطعاته المسلوبة ، فإنه علل نفسه بفكرات مضخمة عن قوى الروسيا ومساعدتها . وقد بادر الشعب الفرنسى إلى الاشتراك فى القروض الروسية اشتراكا هائلا . وكانت فرنسا حليفة للروسيا — فإذا اعتدت قوات الألمان على الروسيا فلا مراء فى أن فرنسا تهاجمهم .

وكانت الحدود الفرنسية الشرقية القصيرة محصنة تحصيناً قوياً جداً . ولم يكن ثمة الا أقل احتمال فى أن تكرر ألمانيا نجاحها فى ١٨٧٠ — ١٨٧١ مع هذا الحاجز . على أن حدود فرنسا البلجيكية كانت أطول وأضعف قوة تحصين . فالقيام بهجوم على فرنسا بطريق البلجيك بقوات جارفة لاقبل لأحد بمقاومتها ، قد يعيد ١٨٧٠ على درجة أكبر وأبلغ . وربما ردت الميسرة الفرنسية نحو الجنوب الشرقى إلى فردان جاعلة منها قطب دوران ، ثم تدفع إلى عينها كما قد يقفل الإنسان مومىً مفتوحة .

دبر الاستراتيجيون الألمان هذه الخطة بعناية وإحكام عظيمين . وكان فى تنفيذها اعتداء على حرمة قانون الأمم ، لأن بروسيا كانت تعهدت بضمان حياد البلجيك ولم يكن بينهما أى خلاف ، وكان فيه خطر إدخال بريطانيا العظمى فى الموضوع (وهى دولة كانت كذلك متعهدة بحماية البلجيك) ضد ألمانيا . ومع هذا فإن الألمان اعتقدوا أن أسطولهم بلغ من القوة مبلغاً يكفى لجعل بريطانيا تتردد فى التدخل ، وقاموا — ناظرين إلى الاحتمالات التى قد تجىء بها الأيام — بإنشاء مجموعة عظيمة من الخطوط الحديدية الاستراتيجية[1] تصل إلى حدود البلجيك ، وأعدوا كل عدة لتنفيذ هذه الخطة . لعلهم بذلك يستطيعون أن يقضوا على فرنسا بضربة

(١) الاستراتيجيا : فن القيادة بصفة عامة وعلم أو فن جمع الموارد العسكرية بعضها الى بعض أو القيام بمناورات الجيوش .

واحدة ، ثم يلتفتون بعد ذلك إلى الروسيا وقيا عليه عليهم هواهم .

وفى ١٩١٤ كان يلوح أن جميع الأمور تسير متكاتفة حسبا تهوى الدولتان الوسطيان . نعم إن الروسيا كانت تستعيد قواها منذ ١٩٠٦ ، ولكن ذلك لم يكن إلا ببطء شديد . وكانت فرنسا مبلبلة الفكر لما أصابها من فضائح مالية . ولم يلبث الحادث العجيب الذى صرع فيه المسيو كالميت محرر جريدة الفيجارو على يد زوجة المسيو كايو وزير المالية ، أن بلغ بهذه الفضائح أوجها فى مارس . فأما بريطانيا ، فإن ألمانيا بأجمعها كانت موقنة بأنها على شفير الحرب الأهلية فى إرلنده . وبذلت جهود متكررة من أقوام أجانب وإنجليز على السواء للحصول على بيان محدد عما تنوى بريطانيا أن تفعله إذا هاجمت ألمانيا والنمسا فرنسا والروسيا . ولكن وزير الخارجية البريطانى السير إدوارد جراى ظل محتفظاً بستار من الغموض حتى نفس اليوم الذى دخلت فيه بريطانيا الحرب . ونتيجة لذلك كان يعم القارة الأوربيه إحساس بأن بريطانيا إما لاتنوى أن تحارب أو هى سوف ترجىء القتال . وربما شجع هذا ألمانيا أن تواصل تهديدها لفرنسا .

ومما تعجل سير الحوادث فى ٢٨ يونيه اغتيال الأرشيدوق فرنسيس فرديناند ، وارث عرش الإمبراطورية النمساوية وهو فى زيارة رسمية لسراجيفو ، عاصمة مقاطعة البوسنة . وعند ذلك لاح أنسب الأعذار لدفع الجيوش إلى التحرك . قال إمبراطور الألمان « إما الآن وإلا فلا » . واتهمت صربيا بالتحريض على القتل ، وبالرغم من أن المندوبين النمسويين قدموا تقريراً يتضمن أنه ليست هناك أدلة على أن للحكومة الصربية ضلعاً فى الجريمة ، فإن حكومة النمسا والمجر دبرت التدابير لتوجيه هذا الاعتداء إلى ناحية الحرب . ففى ٢٣ يوليه أرسلت النمسا إلى الصرب إنذاراً نهائياً ، وبالرغم من تقدم الصرب بالخضوع الفعلى ، ومن جهود السير إدوارد جراى وزير الخارجية البريطانية لدعوة الدول إلى مؤتمر ، فإن النمسا أعلنت الحرب على صربيا فى ٢٨ يوليه .

وعبأت الروسيا جيوشها فى ٣٠ يوليو ، وفى أول أغسطس أعلنت عليها ألمانيا الحرب . وعبرت القوات الألمانية الحدود الفرنسية فى اليوم التالى ، وابتدأت الحركة الكبيرة ، حركة الهجوم على الجناح خلال لوكسمبرج وبلچيكا . وسارت إلى الغرب راكبة الكشافة وحرس الطليعة . وانطلقت إلى الغرب أسراب من السيارات المحملة بالجنود . وتبع ذلك طوابير هائلة من المشاة ذوى البدلات الرمادية ، وكانوا فى معظمهم شباناً ألمانيين جميلى العيون شقر الشعور وهم أحداث متعلمون ممن يطيعون القانون ويحترمونه ولم يحدث لهم أن رأوا من قبل

طلقة تطلق غضباً . لقد أخبروهم أن هذه هى الحرب . وأنهم يجب أن يكونوا شجعاناً لا تجد الرحمة إلى قلوبهم سبيلا . وبذل بعضهم قصاراه فى تنفيذ تعليمات العسكريين هذه على حساب أهالى بلجيكا التعساء .

وقد أثيرت ضجة حول تفاصيل فظائع الألمان فى بلجيكا لاتتناسب فى الحق مع الفعلة الجوهرية الشنعاء التى اقترفت فى أغسطس ١٩١٤ ، وأعنى بها اجتياح البلجيك . فلو سلمنا بهذا فإن كل مايقع بعد ذلك من قتل ونهب ، ومن تدمير طائش للممتلكات ، ومن نهب للفنادق والمطاعم والمشارب يقوم به رجال جياع مكدودون ، وما يترتب على ذلك من اغتصاب للنساء ومن حرائق ، فأمور تعقب ذلك بحكم طبيعة الأشياء . وليس إلا البسيط من الناس من يعتقد بأن جيشاً فى ميدان القتال يقدر أن يحافظ على مستوىً للأمانة واللياقة والعدالة ، كما يقدر أن يحافظ عليها مجتمع مستقر فى وطنه . هذا إلى أن تقاليد حرب الثلاثين سنة كانت ما تزال تؤثر أثرها فى الجيش البروسى (١) . فقد جرت العادة فى البلاد المتحالفة ضد ألمانيا أن يعالجوا هذا الانضاع وسفك الدماء أثناء شهور القتال بالبلجيك كأنما هو أمر لم يحدث من قبل أبدا ، وكأنما كان يرجع إلى نبعة شريرة تتميز بها أخلاق الألمان .

فأطلقوا عليهم اسم الهون تشهيراً بهم . ولكن جرائم الألمان فى بلجيكا أقل الأشياء شبهاً بتدميرات هؤلاء المترحلين المنظمة (الذين فكروا مرة فى إبادة كافة السكان الصينيين لكى يعيدوا بلاد الصين إلى الرعى) . وكان الشىء الكثير من هذه الجرائم وحشية تتسبب عن سكر رجال صاروا لأول مرة فى حياتهم أحراراً فى استعمال أسلحة مهلكة ، وكان الكثير منها هو العنف الهستيرى الذى يصاب به رجال ينزعجون من تصرفاتهم هم أو يلم بهم خوف قاتل من انتقام الأهالى الذين اعتدوا على حرمة بلادهم ، وكان الكثير منها يحدث تحت ظروف من الاضطرار والضيق بسبب النظرية القائلة بأن الرجال يجب أن يكونوا فى الحرب فظيعين وأن خير وسيلة لإخضاع الأمم هى الخوف . وقد جُمع العامة الألمان من حالة طاعة نظامية وأدخلوا هذه الحرب بحال تجعل من المحتم أن يترتب عليها الفظائع . فإن أى شعب يُجهز للحرب ويقاد إلى غمراتها كما حدث للألمان فهو لابد متصرف على شاكلة مماثلة .

---

(١) يحلو لكتاب الإنجليز أن يصموا جيوش غيرهم بكل نقيصة وينسون ما قامت به جيوشهم البريطانية من فظائع وشناعات على مر الأيام يندى لها جبين التاريخ وما مذابح الهند وبورما والعزيزية ببعيدة عن الأذهان .

وفى ليلة ٤ أغسطس ، وبينا أوربا ما تبرح مستغرقة فى آثار نصف قرن من السلم ، وما تبرح تستمتع الاستمتاع العادى ، بالحرية والرخص والوفرة الفسيحة الانتشار التى لن يراها أى حى مرة أخرى ، وكانت تفكر فى إجازاتها الصيفية ؛ كانت قرية ڤيزيه البلچيكية الصغيرة فى أتون من النيران ، ثم أخذ فلاحوها المشدوهون وأعدموا رمياً بالرصاص بدعوى أن أحد الناس أطلق النار على الغزاة . ومن المؤكد أن الضباط الذين أصدروا هذه الأوامر والجنود الذين نفذوها شعروا بالرعب لغرابة ما أتوا . إذ لم يسبق لمعظمهم أن شهد حتى ذلك اليوم موتة عنيفة . وكانوا قد أضرموا النار لا فى قرية بمفردها بل فى عالم بأجمعه . كانت تلك بداية نهاية عصر من الاستجمام والثقة والسلوك الرقيق اللائق فى أوربا .

وما كاد العالم يتحقق أن البلچيك سوف تغزى ، حتى كفت بريطانيا العظمى عن التردد ، وفى الساعة الحادية عشرة من مساء ٤ أغسطس أعلنت الحرب على ألمانيا . وفى اليوم التالى ضبطت سفينة ألمانية من ملقيات الألغام عند مصب نهر التيمز إذ اكتشفتها الطرادة مفيون وأغرقتها — وهى أول مرة التقى فيها الألمان بالإنجليز فى حرب تحت رايتيهما القومية سواء أكان فى البر أم البحر .

وما تزال أوربا بأكملها تتذكر الجو الغريب لأيام أغسطس المشمسة المليئة بالأحداث هذه ، وتتذكر نهاية السلم المسلح . وقد ظل العالم الغربى قرابة نصف قرن وهو ساكن تبدو عليه الأمنة . ولم يكن هناك فى فرنسا إلا القليل من الكهول والشيوخ الذين شربوا لبان الحرب فعلا . وطفقت الصحف تتحدث عن كارثة عالمية ، ولكن هذا كان له معنى ضئيل جداً لدى أولئك الذين كان العالم يبدو فى نظرهم على الدوام فى أمنة وسلام ، ومن كانوا فى الواقع غير قادرين على أن يظنوا فيه شيئاً غير الأمنة والسلام .

وتواصلت فى بريطانيا بوجه خاص أعمال زمن السلم وأحواله العادية تواصلا لايخلو من اضطراب وتردد . كانت الحال تشبه حال رجل ما يزال يمشى فى العالم غير مدرك أنه مصاب بداء عضال سوف يغير كل مجرى حياته وكل عادة فيها . فاستمر الناس فى إجازاتهم الصيفية ؛ وكانت الدكاكين تطمئن زبائنها بإعلانهم بأن العمل يجرى كالمعتاد . وكان الحديث يكثر والانفعال يشتد عندما تظهر الصحف ، ولكنه كان حديثاً وكان انفعالا لنظارة ليس لديهم شعور واضح بالاشتراك فى هذه الكارثة التى أوشكت أن تغمرهم جميعا على الفور .

٨ — خلاصة للحرب العظمى حتى ١٩١٧ .

سنستعرض الآن بمنتهى الإيجاز الأدوار الرئيسية للكفاح العالمى الذى ابتدأ كما رأيت .

وكما دبرت ألمانيا الأمر بدأت الحرب بهجوم سريع يهدف إلى ضرب فرنسا ضربة قاضية ، بينما تكون الروسيا منهمكة بتجميع قواتها فى الشرق . وسارت الأمور على مايرام ردحا من الزمان . وليس العلم العسكرى قط بالعلم الماشى لتقدم زمانه فى ظروفنا العصرية هذه ، لأن العسكريين من الرجال إنما هم بوصفهم طبقة ، رجال واهنو الخيال ، فهناك فى كل آن مخترعات لم تتطور ، تجد الفطنة العسكرية قد رفضتها ، بينما هى تستطيع أن تحطم ما جرى عليه العرف فى فنى التاكتيك[1] والاستراتيجيا .

وكانت الخطة الألمانية مدبرة من سنوات عدة . فهى من ثم خطة عتيقة بالية . ولعلها كانت تحبط منذ البداية باستعمال الخنادق والأسلاك الشائكة والمدافع الرشاشة استعمالا صحيحاً ، ولكن الفرنسيين لم يكونوا بأى حال متقدمين فى فهم العسكرى تقدم الألمان ، فركنوا إلى أساليب الحرب المكشوفة التى كانت متأخرة عن الزمان بما لا يقل عن أربعة عشر عاما . ولم يكن لديهم عتاد مناسب لا من الأسلاك الشائكة ولا من المدافع الرشاشة ، وكان هناك تقليد مضحك يقول بأن الفرنسى لا يحسن القتال وراء المتاريس .

وكان الدفاع عن الحدود البلجيكية موكولا بحصون لييج ، التى كانت قديمة فى طرازها عشر سنوات أو اثنتى عشرة سنة ، وفيها استحكامات زودها بالأسلحة وركبها فى كثير من الحالات مقاولون من الألمان ، وكان العتاد فى الحدود الفرنسية الشمالية الشرقية رديئاً جداً . وطبيعى أن شركة الأسلحة الألمانية المسماة كروب أعدت لهذه الحصون المزيلة معاول تتمثل فى مدافع ذات ضخامة استثنائية تقذف بقنابل شديدة التفجر . وأثبتت هذه الحصون أنها ليست إلا مجرد مصايد لحماتها المدافعين .

وقام الفرنسيون بهجمة فاشلة فى جبال الأردنّ الجنوبية . وتأرجحت الجيوش الألمانية حول الميسرة الفرنسية حتى أيقن الناس أنها جيوش لا قبل لأحد بمقاومتها ، وسقط آخر حصن فى لييج فى ١٦ أغسطس ، وبلغ الألمان بروكسل فى ٢٠ أغسطس ، وأصيب الجيش البريطانى الصغير المكون من سبعين ألفاً والذى وصل إلى بلجيكا بضربة قاضية من قوات محترفة ، ودفع إلى الخلف بالرغم من الدرس القاتل الذى تعلمه من تاكتيك البنادق فى حرب جنوب أفريقيا . ودفعت القوة البريطانية الصغيرة إلى الجنوب . وانحدرت الميمنة الألمانية بشكل يترك باريس فى الغرب ويهرس الجيش الفرنسى بعضه فى بعض .

وبلغ من ثقة القيادة الألمانية فى هذه المرحلة بأنها كسبت الحرب ، أنه قبل نهاية

(١) التاكتيك : فن قيادة الجند فى إحدى المعارك وفق قواعد مقررة وخطة مرسومة .

أغسطس كانت الجيوش الألمانية تسحب وتنقل إلى الميدان الشرقى ، حيث كان الروسيون يهلكون الحرث والنسل فى روسيا الشرقية والغربية . وعند ذلك جاء هجوم الحلفاء المضاد . وأبرز الفرنسيون فى ميسرتهم جيشاً غير منتظر ، وكان الجيش البريطانى الصغير الذى وإن تزلزل قد أمد بالقوات وأصبح قادراً على أن يقوم بدور كريم فى الضربة المضادة . وداست بعض الميمنة الألمانية على بعض ، وقد ضلت فى اتصالها ببعضها ، ثم دفعت عن المارن إلى الأيسن (معركة المارن من ٦ سبتمبر إلى ١٠ سبتمبر) . وربما انتهى أمرها إلى أن تدفع أكثر من ذلك لو لم يكن فن الالتجاء إلى الخنادق احتياطاً احتفظت به لنفسها . ووقفت الميمنة عند نهر الأيسن واحتفرت لنفسها الخنادق . ولم تكن المدافع الثقيلة ولا القنابل العالية التفجر ولا الدبابات التى يحتاج إليها الحلفاء لتحطيم هذه الخنادق ومعاقلها ، قد ظهرت إلى عالم الوجود بعد .

ومزقت معركة المارن الخطة الألمانية الأصلية . ونجت فرنسا إلى حين . ولكن الجيش

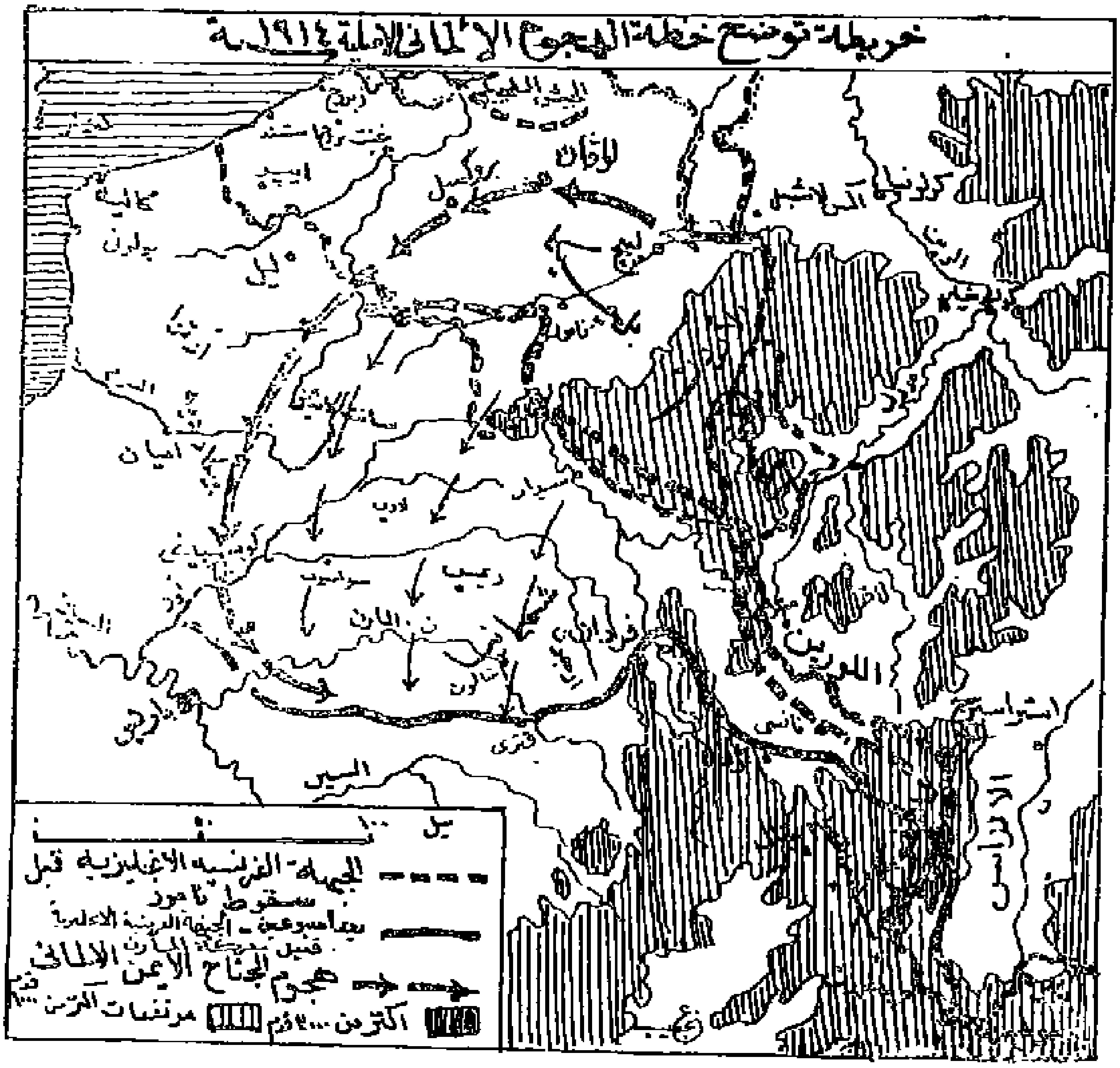

(شكل ٢١٢)

الألمانى لم يهزم ؛ بل كان لايزال لديه الفوق العدوانى العظيم فى المهارة العسكرية والعتاد . وكان خوفه من الجيش الروسى فى الشرق قد زال أو كاد بنصر هائل أحرزه فى تاننبرج . وكان الدور الثانى من أدوار الحرب ، حملة مدبرة تدبيراً أقل إحكاما ترمى إلى تطويق ميسرة جيوش الحلفاء والاستيلاء على ثغور القنال الإنجليزى ومنع المدد الآتى من انجلترا إلى فرنسا . ومن ثم امتد كل من الجيشين غربا وانطلقا إلى الساحل فيما يشبه السباق . ثم انطلق الألمان بما لهم من تفوق فى المدافع والعتاد فأصابوا من الإنجليز فى إيبر وحولها . وكادوا أن يحدثوا ثغرة لولا أن صدهم الإنجليز .

واستقرت الحرب فى الميدان الغربى إلى حالٍ من حرب الخنادق . ولم يكن لدى أحد من الطرفين من العلم والعتاد ما يكفل حلَّ مسألة اختراق الخنادق المصرية وتحصيناتها وأحابيلها ، واضطر كل من الطرفين عند ذاك إلى الالتجاء إلى أهل العلم والاختراع ومن إليهم من غير العسكريين يسألونهم النصح والمعونة فيما هم فيه من ورطة . وفى ذلك الوقت كانت المشكلة الجوهرية فى حرب الخنادق قد حُلت من قبل ، إذ كان يوجد فى انجلترا مثلا نموذج دبابة كانت تمنح الحلفاء ولا ريب نصراً سهلا سريعاً قبل ١٩١٦ . ولكن العقل العسكرى المحترف إنما هو بحكم الضرورة عقلٌ منحط لا خيال لديه ؛ فليس هنالك إنسان رزق مزية ذهنية عالية رضى بمحض اختياره بحبس مواهبه فى مثل هاته المهنة ؛ وجميع العسكريين المتفوق العظمة يكادون أن يكونوا إما من الشبان الأغمار الناضرى الأذهان أمثال الإسكندر ونابليون وهوش[١] أو من السياسيين المنقلبين إلى جنود أمثال يوليوس قيصر أو من المترحلين أمثال قواد الهون والمغول أو هواة من أمثال كرومويل وواشنجتون . على أن هذه الحرب الناشبة بعد خمسين سنة من التهيؤ العسكرى كانت حرب محترفين بشكل يخيب معه كلُّ رجاء ، وكان من المستحيل منذ بدايتها حتى نهايتها استخلاصها من يد القواد العاديين ، ولم يكن أى من قيادة الألمان أو قيادة الحلفاء ميالة إلى أن تنظر بعين التسمح إلى أى اختراع يقضى على أساليبهم التقليدية .

ومهما يكن الأمر فإن الألمان استحدثوا بالفعل بضعة مستحدثات . فإنهم فى ٢٨ فبراير أنتجوا مستحدثة تكاد تكون غير ذات أثر ، هى قاذفة اللهب التى كان من يستعملها فى خطر مستمر أن يحرق حياً ، وفى أبريل وعند افتتاح هجوم عظيم ثان على البريطانيين (معركة إيبر

(١) هوش (١٧٦٨ — ١٧٩٧) قائد فرنسى نابغ ، دخل الجيش جندياً ورقى جنرالا ، وفى ١٧٩٣ تولى القيادة فى اللورين وطرد منها الجيوش البروسية . وقام بمحاولة مخفقة لغزو إرلنده فى ١٧٩٦ .

الثانية من ٢٢ أبريل إلى ٢٤ مايو) استخدموا سحابة من الغاز السام . وقد استعملت هذه الوسيلة الفظيعة ضد جيوش جزائرية وكندية ؛ فزلزلهم العذاب الجسمانى الذى كان يصيبهم منها ، وآلام النزع التى يلقاها الذين يُسلمون الروح منهم ، ولكنها فشلت فى إحداث الثغرة فى صفوفهم . ومضت بضعة أسابيع كان الكيماويون فيها أعظم أهمية من الجنود فى جبهة الحلفاء ، وما مضت ستة أسابيع حتى كان بين يدى الجيوش الدافعة أساليب ومستحدثات وقائية . وانقضى عام ونصف حتى يوليه ١٩١٦ استمر فيها الميدان الغربى فى حالة توتر غير حاسم . وقام كل من الطرفين بهجمات عظيمة كانت تنتهى بصدها بعد إراقة عظيمة من الدماء . وقام الفرنسيون بطعنات غالية الثمن فى آراس وفى شمبانيا فى ١٩١٥ ، وقام الإنجليز بمثلها فى لوس .

وكان يمتد من سويسرا إلى بحر الشمال خطان من الخنادق لا ينقطعان ، لا يفصل بينهما فى بعض الأحايين إلا مسافة ميل أو تزيد ، بل ربما بلغت المسافة بينهما بضعة أقدام (كما كان الحال فى أراس مثلا) ، وفى داخل خطىّ الخنادق هذين ومن حولهما كان ملايين الرجال يكدحون ويقاسون الويلات ، ويغيرون على أعدائهم ، ويعدون عُدة هجمات دموية محتومة الفشل . ولو كانت هذه الجموع الآسنة فى أى عصر سلف لأنتجت الأوبئة الوبيلة ولامناص ، ولكن فى هذا الموطن أيضا استطاع العلم العصرى أن يغير ظروف الحرب . وظهرت أنواع بعينها من الأمراض الجديدة ، مثل « مرض الأقدام الخندقى » ، المترتب على الوقوف طويلا فى المياه الباردة ، وأشكال جديدة من الدوسنتاريا وما أشبهها ، ولكن واحداً لم يتطور تطوراً يؤدى إلى تعجيز أى من القوتين المتحاربتين .

ومن خلف هذه الجبهة كانت كل حياة الأمم المتحاربة تُحوَّل أكثر فأكثر نحو القيام بإنتاج مدد مستمر من الطعام ، والمهمات الحربية ، وللقيام قبل كل شىء بتقديم رجال يحلون يوما فيوما محل من يقتلون أو يفرون . وكان من حسن حظ الألمان أن كان لديهم عدد جسيم من مدافع الحصار الكبيرة المعدة لحصون الحدود . فاستعملوا هذه فى تحطيم الخنادق بالقنابل العالية التفجر ، وكان ذلك الاستعمال من طرفهم أمراً لم يتوقعه أحد . وكان الحلفاء طيلة السنوات الأولى أقل من الألمان بدرجة محسوسة فيما لديهم من المدافع الكبيرة والذخائر ، وكانت خسائرهم على الدوام أعظم من خسائر الألمان .

وواصل الألمان الهجوم على الفرنسيين هجوما هائلا طيلة النصف الأول من ١٩١٦ حول ڤردان . وأصيب الألمان بخسائر هائلة ثم صدوا ، بعد أن تقدموا فى الخطوط الفرنسية بضعة أميال . وعدلت الخسائر الفرنسية خسائر الألمان أو أربت عليها . وكان المشاة الفرنسيون

يقولون وينشدون « لن يمروا منها Ils ne passeront pas » وقد بروا بكلمتهم .

وكانت الجبهة الألمانية الشرقية أطول مدى وأقل انتظامَ خنادقٍ من الجبهة الغربية . واستمرت الجيوش الروسية حينا من الدهر وهي تضغط غربا بالرغم من كارثة تاننبرج فاستولوا من النمسويين على كل غاليسيا تقريباً ، وفتحوا لمبرج فى ٢ سبتمبر ١٩١٤ ، وقلعة برزميل الكبيرة فى ٢٢ مارس ١٩١٥ . على أنه حدث بعد أن فشل الألمان فى اختراق جبهة الحلفاء الغربية ، وبعد هجوم فاشل للحلفاء قاموا به دون الاستعداد بالمواد اللازمة ، أنهم التفتوا إلى الروسيا ، وأصابوا الروسيين بسلسلة من الضربات الفادحة استحدثوا فيها استعمالا جديداً المدفعية المحشودة فهزموهم بها فى جنوب الجبهة الروسية أولا ثم فى شمالها . وفى ٣ يونية استردوا برزميل ، ودفعوا بكل خط القتال الروسى إلى الخلف حتى وقعت فيلنا فى ١٨ سبتمبر فى قبضة الألمان .

وفى ٢٣ مايو ١٩١٥ انضمت إيطاليا إلى الحلفاء وأعلنت الحرب على النمسا . (ولكنها لم تُعلن الحرب على ألمانيا إلا بعد ذلك بأكثر من سنة) . فدفعت حدودها الشرقية نحو جوريتزيا (التى سقطت فى صيف ١٩١٦) ، ولكن تدخلها كان قليل الجدوى فى ذلك الأوان لأى من الروسيا أو الدولتين الغربيتين . وكل ما فعلته أن أقامت خطاً آخر من حرب الخنادق بين الجبال العالية الموجودة على حدودها الشمالية الشرقية الرائعة الجمال .

وعلى حين كانت الجبهات الرئيسية للمتقاتلين الكبار فيما رأيت من حال الجمود والتوقف المنهك للقوى ، كان كل من الطرفين يحاول أن يكيل ضربة يلف بها حول خطوط خصمه . وقام الألمان بسلسلة من الغارات بمناطيد زبلن ثم بالطائرات فيما بعد على باريس وعلى شرق انجلترا ، وكان هدف هذه الغارات الظاهرى هو المستودعات ومصانع المهمات الحربية وما إليها من أهداف ذات أهمية عسكرية ، ولكن الواقع العملى أنهم كانوا يقذفون قذائفهم بلا تمييز على الأماكن المسكونة .

وكان المغيرون بادئ الرأى يسقطون قنابل غير كبيرة الأثر ، ولكن حجم ونوع القذائف أخذ يتزايد شيئاً فشيئاً ، فأصيب من جراء ذلك عدد جسيم من الناس ما بين قتلى ومصابين ، وترتب عليه أيضاً أضرار كبيرة . وثار الشعب الإنجليزى ثورة غضب شديدة لهذه الاعتداءات . ومع أن الألمان كانوا يملكون مناطيد زبلن منذ بضع سنين ، فلم يفكر أحد من ذوى السلطان فى انجلترا فى الطريقة المثلى للتصرف وإياها ، ولم يحدث إلا فى مؤخرات ١٩١٦ أن أُعدت مقادير كافية من المدافع المضادة للطائرات واستعملت استعمالا ناجحا وأن هوجم

هؤلاء المغيرون مهاجمة منظمة على يد الطائرات الإنجليزية .

ثم عقب ذلك أن لحقت سلسلة من الكوارث بمناطيد زبلن ، حتى أنه بعد ربيع ١٩١٧ هبط استعمالها لأى غرض إلا الكشف البحرى ، وحل محلها فى الإغارة الطائرات الكبيرة (من طراز جوتا) . وأصبحت زيارات هذه الآلات للندن ولشرق انجلترا زيارات منظمة بعد صيف ١٩١٧ . وأصبحت لندن خبيرة فى كل ليلة مقمرة من ليالى شتاء ١٩١٧ — ١٩١٨ بإطلاق صواريخ الإنذار وصفير التحذير الحاد من البوليس ، وإخلاء الشوارع سريعاً من المارة ، ودمدمة بعيدة تصدر عن عشرات ومئات من المدافع المضادة للطائرات تعلو بإطراد حتى تصبح عزيفاً فظيعاً من أصوات الاصطدام والتكسر ، وصفير القنابل المنطلقة ، وأخيراً دوى القنابل المتفجرة المكتوم الثقيل إن قدر لإحدى الطائرات أن تتجاوز نطاق الدفاع الجوى . ثم يحدث للوقت إبان تناقص هزيم المدافع أن يُسمع صوت عُدد المطافئ الذى لا يخطئه إنسان وإسراع عربات الإسعاف . . . لقد وصلت الحرب إلى دار كل لندنى بوساطة هذه المحن .

وبينما كان الألمان يهاجمون بهذه الطريقة أعصاب شعب أعدائهم فى قرارة بلادهم ، كانوا كذلك يهاجمون تجارة البريطانيين وراء البحار بكل ما فى مستطاعهم من وسيلة . فكانت لهم فى بداية الحرب مدمرات تجارية منوعة مبثوثة فى كل أرجاء العالم ، وسرب من الطرادات القوية العصرية فى المحيط الهادى ، نذكر منها الطراد شارنهورست ، وجنيسناو وليبزج ونورنبرج ودرسدن . وأتت بعض الطرادات المنعزلة وبخاصة الطراد إمدن قدراً جسيماً من تحطيم السفن التجارية قبل أن يُقضى عليها ، وأمسك السرب الرئيسى بقوة بريطانية أصغر منه بالقرب من ساحل شيلى وأغرق الطرادين جود هوپ ومونموث فى أول نوفمبر ١٩١٤ . وبعد شهر وثبت قوة بريطانية بقيادة الأميرال ستاردى على نفس هذه السفن الألمانية فأغرقتها كلها (ما عدا الطراد درسدن) فى معركة جزائر فوكلاند وبعد ذلك القتال ظل الحلفاء سادة للبحر بغير منازع ، سيادة لم تزلزلها معركة جاتلند البحرية الكبرى (٣١ مايو ١٩١٦) أدنى زلزلة .

وأخذ الألمان يزيدون فى تركيز التفاتهم إلى حرب الغواصات يوماً بعد يوم فأصابوا منذ بداية الحرب انتصارات جسيمة بواسطة الغواصات . ففى يوم واحد هو ٢٢ سبتمبر ١٩١٤ أغرقوا ثلاث طرادات قوية هى أبو قير وهوج وكريسى ومعها ١٤٧٣ رجلا . وظلوا يصيبون من السفن البريطانية طيلة الحرب ، وكانوا بادىء الرأى يستوقفون سفن الركاب والتجارة ويفتشونها ، ولكنهم أهملوا هذه العادة خشية الوقوع فى الأحابيل ، وفى ربيع ١٩١٥ شرعوا يغرقون السفن بلا إنذار .

وفى مايو ١٩١٥ أغرقوا ماخرة الركاب العظيمة لوزيتانيا بلا إنذار ، فغرق بسبب ذلك عدد من الرعايا الأمريكان . فحز ذلك فى نفوس الأمريكيين ، ولـكن احتمال إيقاع الضرر ببريطانيا وربما إخضاعها بحصر بحرى بواسطة الغواصات هدف كان لديهم من العظم بحيث دفعهم إلى الإلحاح فى حملة الغواصات هذه ومواصلة التنكير والعنف ، غير آبهين بخطر جر الولايات المتحدة إلى صفوف أعدائهم .

وفى نفس الوقت كانت الجيوش التركية المزودة بأسوأ عتاد تبدى نحو مصر حركات التهديد خلال شبه جزيرة سيناء . وعلى حين كان الألمـان يكيلون الضربات لبريطانيا على ما رأيت بطريق الهواء ومن تحت أطباق الماء ، وهى خصمهم الأشد قوة والأبعد عن منال أيديهم ، كان الفرنسيون والإنجليز كذلك مقبلين على هجمة جناح جانبية تنذر بالـكوارث فى الشرق هدفها الدول الوسطى بطريق تركيا . وقد دبرت حملة غاليبولى أبدع تدبير ولـكنها نفذت بأكبر معرة . فلو نجحت لاستولى الحلفاء على القسطنطينية فى ١٩١٥ . ولـكن الأتراك أعطوا إنذارا قبل المشروع بشهرين وذلك عندما ضرب الدردنيل بالقنابل فى غير الأوان فى فبراير ، وربما كشف البلاط اليونانى كذلك سر الخطة بخيانته ، وعندما نزلت القوات البريطانية والفرنسية آخر الأمر فى شبه جزيرة غاليبولى فى أبريل ، وجدوا الأتراك قد أعدوا الخنادق كما رأوهم مزودين بما يلزم لحرب الخنادق خيراً منهم .

واعتمد الحلفاء فى ناحية المدفعية الثقيلة على مدافع السفن الضخمة ، التى كانت غير ذات جدوى نسبياً فى تحطيم تحصينات الخنادق ، ومن بين جميع الأشياء الأخرى التى فاتهم أن يقدروا وجودها ، أنهم لم يقدروا احتمال ظهور الغواصات المعادية . فضاعت لذلك سفن حربية عظيمة عديدة ، هوت إلى نفس المياه الصافية التى مرت عليها سفن إجزر سيس يوماً ما إلى مصيرها المحتوم فى سلاميس[١] . وقصة حملة غاليبولى من ناحية الحلفاء تجمع بين ظواهر البطولة وعوامل الأسى ، فهى قصة شجاعة وقلة اقتدار وقصة حياة ذهبت ومواد أهلكت وهيبة ضاعت ، وبلغت حضيضها فى انسحاب تم فى ١٩١٦ .

ومما يتصل اتصالا وثيقاً بتذبذب بلاد اليونان طيلة ذلك الزمان دخول بلغاريا الحرب (فى ١٢ أكتوبر ١٩١٥) . وقد ظل ملك بلغاريا مترددا أكثر من سنة قبل أن اتخذ قراراً حاسما فى الأمر . ولـكن دفعه إلى ناحية الدول الوسطى ما رأى عند ذاك من فشل البريطانيين فى غاليبولى ،

---

(١) سلاميس : انظر المالم ج ٢ ص ٣٠٨ .

وقيام النمسويين والألمان فى الوقت نفسه بهجوم عنيف فى بلاد الصرب وبينما الصربيون فى شغل شديد بالمغيرين النمسويين والألمان على ديارهم الدانوبية ، هاجم الملك صربيا من الخلف ، وما مضت بضعة أسابيع حتى كانت البلاد قد غزيت تماما . وتقهقر الجيش الصربى قهقرة فظيعة عابراً جبال ألبانيا إلى الساحل ، حيث أنقذ فلوله أسطول للحلفاء .

ونزلت قوة متحالفة إلى سالونيك ، واندفعت فى داخلية البلاد نحو موناستر ، ولكنها عجزت عن تقديم أى مساعدة فعالة للصربيين . وكانت خطة سالونيكا هى التى ختم بها مصير حملة غاليبولى . وإلى الشرق من ذلك فى أرض الجزيرة (: العراق) قام البريطانيون مستعملين فى غالب الأمر جنوداً من الهنود بهجوم جناح جانبى أبعد من الأول على جناح الدول الوسطى . فأنزل إلى البر فى البصرة جيش كأسوأ ما تكون الجيوش عُدة وعتاداً فى نوفمبر ١٩١٤، ثم دفع نحو بغداد فى السنة التالية . ففاز بنصر عند المدائن (كتيسيفون) عاصمة الأرشيكيين والساسانيين العتيقة وهى على مبعدة خمسة وعشرين ميلا من بغداد ، ولكن الأتراك تلقوا أمداداً عظيمة ، وتراجع البريطانيون إلى الكويت ، وهناك أحيط بالجيش البريطانى تحت قيادة الجنرال تونشند حتى ألجأه الجوع إلى التسليم فى ٢٩ أبريل ١٩١٦ .

وكانت كل هذه الحملات فى الجو وتحت أطباق البحار وفى الروسيا وتركيا وآسيا ثانوية بالنسبة للجبهة الرئيسية جبهة الفصل فى الأمر ، الممتدة بين سويسرا والبحر . وهناك كانت حشود الملايين الرئيسية ترقد فى خنادقها ، وهم يتعلمون فى بطء الأساليب الضرورية للحرب العصرية العلمية . وحدث تقدم سريع فى استعمال الطائرة . ففى بداية الحرب كانت تستعمل أغلب ما تستعمل فى الكشف ، ثم استعملها الألمان فى إلقاء علامات تسترشد بها المدفعية . ولم يكن الناس قد سمعوا بعد بشىء اسمه النزال الجوى . ولكن فى ١٩١٦ حملت الطائرات المدافع الرشاشة وأخذت تتقاتل فى الهواء ، وكانت أهمية ضربهم الأعداء بالقنابل تتزايد قيمة وكانوا قد طوروا فناً مدهشاً من التصوير الجوى ، كما أن جميع الجانب الجوى من أعمال المدفعية سواء أتم بواسطة الطائرات أم بالونات المراقبة ، قد ألم به تطور هائل . ولكن العقل العسكرى كان ما يزال يقاوم استعمال الدبابة ، وهو السلاح الواضح اللزوم للفصل فى حرب الخنادق .

وكان الكثير من أذكياء الناس خارج الدائرة العسكرية يفهمون هذا الأمر فهما جلياً . فكان استعمال الدبابة ضد الخنادق تدبيراً واضحاً وضوحا مطلقاً . وقديماً اخترع ليوناردو دافنشى دبابة مبكرة . وما أن انتهت حرب جنوب أفريقيا فى ١٩٠٣ حتى ثارت فى المجلات قصص تصف معارك خيالية تظهر فيها الدبابات ، وعُرض على السلطات العسكرية البريطانية

نموذج كامل شغال لإحدى الدبابات قام بصنعه المستر چ . ا . كرى أحد أهالى ليدز ، ولكنها بالطبع رفضته فى ١٩١١ . والواقع أن الدبابات اخترعت ثم اخترعت من جديد قبل أن تبدأ الحرب . ولو أن الأمر كان كله بيد العسكريين لما حدث هناك أى استعمال للدبابات .

وكان المستر ونستون تشرشل وزير البحرية فى ١٩١٥ — ١٩١٦ هو الذى أصر على صنع أول الدبابات ، ولقى إرسالها إلى فرنسا أشد معارضة وأعنفها . فإلى البحرية البريطانية وليس إلى الجيش يدين العلم العسكرى باستعمال هذه المستحدثات . وكان رأى السلطات العسكرية الألمانية مضاداً لها كذلك . وفى يوليه ١٩١٦ شرع السير دوجلاس هايج القائد البريطانى العام فى القيام بهجوم عظيم أخفق فى اختراق صفوف الألمان . وقد تقدم فى بعض الأماكن بضعة أميال ، وهزم فى البعض الآخر هزيمة تامة . وحدثت مذبحة هائلة فى الجيوش البريطانية الجديدة . ومع ذلك لم يستعمل القائد الدبابات .

وفى سبتمبر عند ما أخذ الفصل يصبح غير مناسب للقيام بهجوم متواصل ، ظهرت الدبابات لأول مرة فى الحرب . فقد استعمل القواد البريطانيون عدداً قليلا منها استعمالا لا يتبدى فيه كثير من الذكاء . وكان أثرها فى الألمان عميقاً ، فإنها أنتجت شيئاً أشبه ما يكون بالرعب ، وليس إلى الشك من سبيل أنها لو استعملت فى يوليه بأعداد كافية ، وأدار دفتها چنرال ذو خيال رحيب وهمة عالية ، لأنهت الحرب هناك وعند ذاك . فى ذلك الوقت كان الحلفاء على قوة أعظم من قوة الألمان فى الميدان الغربى . وكانت النسبة على وجه التقريب ٧ إلى ٤ . وكانت الروسيا وإن اقتربت سريعا من مرحلة الإعياء ، لا تبرح تقاتل ، وكانت إيطاليا تضغط على النمسويين ضغطا شديداً ، ورومانيا قد دخلت من فورها الحرب فى صف الحلفاء . ولكن الإسراف فى أرواح الرجال فى شهر يوليه الكارث ذاك أوقف الحلفاء على حافة الكارثة نفسها .

وما أن اطمأن الألمان لفشل البريطانيين فى يوليه ، حتى انقضوا على الرومانيين ، وشهد شتاء ١٩١٦ فى رومانيا نفس المصير الذى لحق بصربيا فى ١٩١٥ . فالسنة التى ابتدأت بالتقهقر عن غاليبولى والتسليم فى الكويت انتهت بسحق رومانيا وبإطلاق مئات الطلقات من جمهور من الحزب الملكى فى شوارع أثينا على فئة من البحارة الإنجليز والفرنسيين نزلوا إلى البر . فكأنما كان قسطنطين ملك اليونان ينوى أن يقود شعبه فى أثر الملك فرديناند البلغارى . ولكن الساحل اليونانى أشد ما يكون تعرضاً للأعمال البحرية . فحصرت بلاد اليونان بحريا واتصلت قوة فرنسية من سالونيكا بقوة إيطالية آتية من ڤالونا لتقطعا على ملك اليونان

خريطة زمنية للحرب العظمى في الشرق ١٩١٤ - ١٩١٨

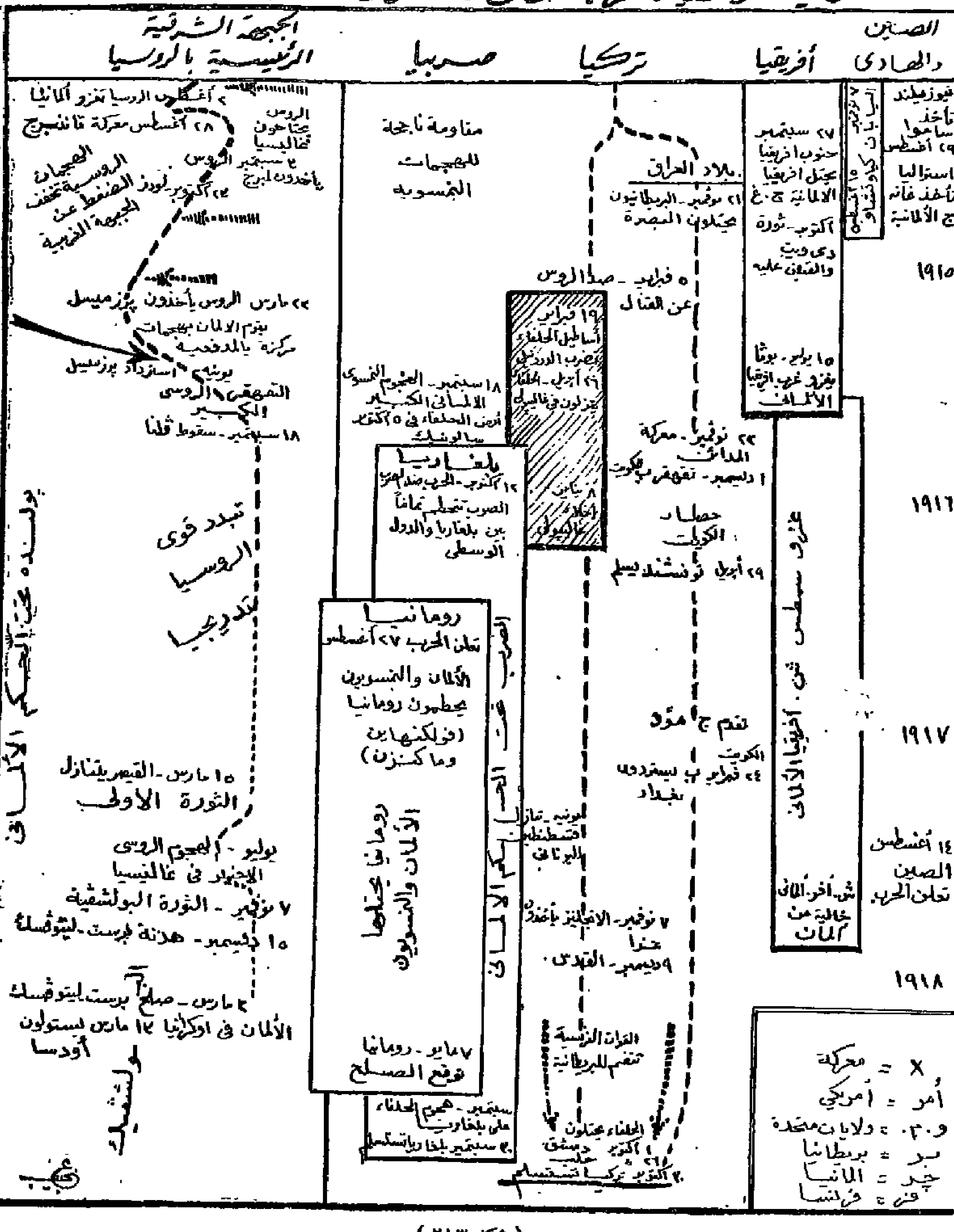

(شكل ٢١٣)

سبيل الاتصال بأصدقائه فى أوربا الوسطى . (وفى يونيه ١٠١٧ أجبر الحلفاء قسطنطين على التخلى عن العرش ، وتولى ابنه إسكندر العرش مكانه) .

وجملة القول أن بوادر الأمور كانت تبدو أقل خطراً على تسلطية آل هوهنزولرن فى نهاية ١٩١٦ مما كانت عليه بعد إخفاق الاندفاع الأول العظيم فى المارن . وكان الحلفاء أضاعوا سنتين من الفرص الذهبية . وكانت بلاد البلجيك وصربيا ورومانيا وأجزاء عظيمة من فرنسا والروسيا تحتلها قوات ألمانية عسوبة . وكانت الضربة المضادة تفشل تلو الضربة المضادة ، وأخذت الروسيا تترنح عند ذاك تهيؤاً للسقوط . فلو كان لدى حكام ألمانيا مسكة من حكمة لأبرموا معها صلحاً معقولا فى تلك الآونة . ولكن لمسة النجاح كانت قد أسكرت استعمارييها . فإنهم لم يريدوا السلامة بل الظفر ولم يريدوا خير العالم بل إمبراطورية العالم . وكانت قولتهم : إمبراطورية العالم أو السقوط ، ولم يكن ذلك ليمنح خصومهم بديلا عن القتال حتى الخاتمة النهائية .

٩ — الحرب العظمى من انهيار الروسيا حتى الهدنة

انهارت الروسيا فى مفتتح ١٩١٧ . وفى ذلك الوقت كانت شدة الحرب الماثلة تؤثر تأثيراً شديداً على كل الشعوب الأوربية . فقد حدث إفساد عظيم لنظام المواصلات فى كل مكان ، وانقطاع عن الإصلاحات العادية وعن استبدال السفن والسكك الحديدية وما إليها بغيرها ، واستنفاد لمواد من جميع الأنواع ، وتدهور فى إنتاج الأطعمة وسحب لجماهير متزايدة من الرجال من الصناعات ، وتوقف فى أعمال التعليم وتناقص مطرد فيما اعتاده الناس من أمن الحياة وأمانيها .

وكان يتزايد فى كل يوم عدد السكان الأوربيين الذين ينقلون من بيئات وأحوال ألفوها ، إلى ظروف جديدة كانت تؤلمهم ، وتضيق عليهم وتستثيرهم وتفسد أخلاقهم . ولكن الروسيا كانت أول الدول وأكثرها مكابدة وعناء من جراء ما أصاب المدنية من زعزعة عامة خلعتها من جذورها . لم تكن الأوتوقراطية الروسية شريفة ولا ذات كفاية . وكان القيصر شأن كثير من أسلافه قد تغلبت عليه حالة تقوى جنونية ، وتسلط على البلاط دجال دينى ، هو راسبوتين الذى كانت نحلته ذات شنعة لا نستطيع التحدث عنها فهى فضيحة صارخة فى وجه العالم . ومن وراء حكم هذه التصوفية القذرة ، كانت النذالة والبلادة تسىء إدارة الحرب .

فكان الجنود الروس العاديون يرسلون إلى ميدان القتال بغير مدافع تعضدهم ، وبدون

حتى ذخائر للبنادق ، وكان ضباطهم وجنرالاتهم يضيعونهم ويلقون بهم فى حالة هذيان من الحماسة العسكرية . وظلوا زمناً ما يلوح عليهم أنهم يتألمون فى صمت كما تتألم البهائم ، ولكن هناك حداً لتحمل الناس حتى من كان منهم أشدهم جهلا . فكان يتسرب فى هذه الجيوش المكونة من رجال يغدر بهم كبارهم ويضيعونهم ، شعور عميق بالاشمئزاز من القيصرية . ومنذ نهاية ١٩١٥ فما بعدها كانت الروسيا مصدراً للقلق المتزايد لدى حلفائها فى الغرب . وظلت طوال ١٩١٦ متخذة فى الغالب خطة الدفاع ، وكانت هناك إشاعات تذكر صلحاً منفرداً مع ألمانيا ولم تلق منها رومانيا إلا مساعدة قليلة .

وفى ٢٩ ديسمبر ١٩١٦ قتل الراهب راسبوتين أثناء مأدبة غداء فى بتروجراد ، وجرت محاولة متأخرة لإعادة تنظيم القيصرية . وما وافى مارس حتى أخذت الحوادث تتطور تطورا سريعاً ؛ فتطور الشغب على الطعام فى بتروجراد إلى عصيان ثورى ، وحاول بعض الناس إلغاء مجلس الدوما ، وهو الهيئة النيابية ، كما قامت محاولات للقبض على الأحرار من أعضائه ، وتكونت حكومة مؤقتة تحت رياسة الأمير لفوف وتنازل القيصر عن العرش فى ١٥ مارس .

ومضى زمان لاح فيه أنه عسى أن تتمخض الأمور عن ثورة معتدلة مقيدة غير جامحة ، وربما كان ذلك فى ظل حكم قيصر جديد . ثم أصبح من الجلى أن تدمير الثقة فى الروسيا قد تجاوز بكثير حدود مثل هاته التسويات . فإن الشعب الروسى كانت روحه بلغت الحلقوم سأما من النظام القديم للأشياء فى أوربا ، ومن القياصرة والحروب والدول الكبرى ، كان يتطلب الراحة ، والراحة السريعة من الشقاوات التى لا تطاق . ولم يستطع الحلفاء فهم حقائق الأمور فى الروسيا ، فإن دبلوماسييهم كانوا أجهل الناس بالروسيين ، فإنهم لما كانوا من المهذبين الذين يوجهون اهتمامهم إلى البلاط الروسى لا الروسيا نفسها فإنهم كانوا يقعون فى الخطأ تلو الخطأ حيال الموقف الجديد . ولم تلق النزعة الجمهورية كثيراً من حسن النية من ناحية الدبلوماسيين . بل ظهر منهم ميل جلى إلى مضايقة الحكومة الجديدة بأكبر قدر مستطاع . وكان على رأس الحكومة الجمهورية الروسية زعيم بليغ جذاب اسمه كيرينسكى وجد نفسه هدفاً لهجمات قوات دفينة لحركة ثورية أبعد غوراً ، هى « الثورة الاشتراكية » فى أرض بلاده وموضع إعراض من الحكومات المتحالفة فى الخارج . ولم يكن حلفاؤه ليسمحوا له بأن يعطى الشعب الروسى مستقراً ولا سلاماً خارج حدودهم . فكانت الصحافة الفرنسية والبريطانية لا تنى تلاحق ذلك الحليف المنهك بالمطالبة بهجوم قوى جديد ، ولكن عندما حدث للفور أن الألمان قاموا بهجوم قوى على ريجا بحراً وبراً ، هلعت وزارة البحرية البريطانية خوفاً من احتمال حدوث حملة فى البلطيق لنجدة الروس .

وكان أن اضطرت الجمهورية الروسية إلى القتال بلا معين . وبالرغم من تسلط الحلفاء البحرى العظيم ومن احتجاجات الأميرال فيشر الانجليزى (١٨٤١ — ١٩٢٠) المرة المذاق ، فإنا نسجل أنهم فيما عدا بعض هجمات من الغواصات ، تركوا للألمان السيادة المطلقة على بحر البلطيق طوال الحرب كلها .

وكانت الجماهير الروسية مصرة على إنهاء الحرب . وكان قد ظهر إلى عالم الوجود فى بتروجراد هيئة تمثل العمال والجنود العاديين ، هى السوفييت ، وكانت هذه الهيئة تصخب مطالبة بمؤتمر دولى من الاشتراكيين يعقد فى استوكهلم . وكان الشغب على الطعام كثيراً ما يحدث فى برلين فى ذلك الزمان ، وكان السأم من الحرب بالغاً أقصاه فى ألمانيا والنمسا ، وليس لدينا شك إذ نستضىء الآن بنور ما عقب ذلك من حقائق ، أن مثل هذا المؤتمر كان لابد معجلا بصلح معقول على أسس ديموقراطية فى ١٩١٧ ومحدثاً ثورة ألمانية سريعا .

وتوسل كيرينسكى إلى حلفائه فى الغرب أن يسمحوا لهذا المؤتمر أن ينعقد ، ولكنهم لخشيتهم من أن يحدث انعقاده انفجاراً للمذاهب الاشتراكية والجمهورية يعم العالم ، رفضوا طلبه ، بالرغم من الاستجابة الحسنة التى أبدتها أغلبية صغيرة لحزب العمال البريطانى . وظلت الجمهورية الروسية المعتدلة تحارب بلا معاونة مادية ، ولا معنوية من الحلفاء ، ثم قامت فى يوليه بجهد هجومى أخير أشبه ما يكون بجهد اليائس . ولكنه فشل بعد أن أصاب شيئاً من النجح المبدئى ، وحدثت مذبحة أخرى كبيرة للروسيين .

وكان أن بلغ احتمال الروس أقصى مداه . فنشبت فى صفوف الجيوش الروسية حركات التمرد ، وبخاصة فى الميدان الشمالى ، وفى ٧ نوفمبر ١٩١٧ ، خلعت حكومة كيرينسكى وتملكت السلطان هيئة السوفييت التى يسودها الاشتراكيون البلاشفة برياسة لينين ، وتعهدت بإبرام الصلح غير آبهة بالدول الغربية . وبذلك خرجت الروسيا من الحرب خروجاً قاطعاً .

وفى أبريل من ١٩١٧ قام الفرنسيون بهجوم فى شمبانيا كلفهم أغلى الأثمان ولم يأت بأية ثمرة ، ففشلوا فى اختراق صفوف الأعداء وأصيبوا بخسائر فادحة . وإذن فقد جاء فى نهاية ١٩١٧ دور من الحوادث أشد ما يكون مواءمة للألمان ، لو أن حكومتهم كانت تحارب من أجل الطمأنينة وحسن الحال لا للفخار والانتصار . ولكن شعوب الدول الوسطى ظلت حتى النهاية نفسها وحتى بلغت أشد إعياء وأقصاه ، موثقة بالأغلال مقيدة بنهاية هى بذل الجهد للوصول إلى النصر التام .

وكان من الضرورى للوصول إلى تلك الغاية أن بريطانيا لا ينبغى أن تُقاوم وحسب بل

أن تُقهر وتُخضع ، ولكى تستطيع ألمانيا أن تبلغ تلك الغاية جرّت أمريكا إلى دائرة أعدائها . فكانت حملة الغواصات تزداد حدة طوال ١٩١٦ ، ولكنها كانت حتى ذلك الحين تحترم السفن المحايدة . وفى يناير ١٩١٧ أعلن على بريطانيا وفرنسا حصر بحرى أشد وأكمل ، وحُذرت جميع الدول المحايدة بأن تسحب سفنها من البحار البريطانية . وابتدأت عملية إغراق لسفن العالم بلا تمييز ، مما اضطر الولايات المتحدة أن تدخل الحرب فى ٦ أبريل ١٩١٧ . وبينما الروسيا تتحطم طيلة ١٩١٧ وتصبح غير قادرة على شىء ، كان الشعب الأمريكى أخذ يتحول بسرعة واطراد إلى أمة حربية عظيمة . ولم تؤت حملة الغواصات غير المحدودة التى من أجلها قبل التسلطيون الألمان خطر ظهور هذا الخصم الجديد — ما كان متوقعاً لها من توفيق . إذ أظهرت البحرية البريطانية أنها أوسع حيلة وأكثر اختراعاً وأملأ جراباً من الجيش البريطانى ، وحدث تطور سريع فى الوسائل المضادة للغواصات تحت الماء ، وعلى صفحته وفى الهواء ، وبعد أن انقضى شهر أو أكثر من التدميرات الخطيرة انخفض أثر الغواصات كثيراً . ووجد البريطانيون أن من الضرورى أن يعيشوا على نظام جرايات الأطعمة ، ولكن القواعد وُضعت وضعاً متيناً وأديرت بكفاءة ، وأظهر الجمهور روحاً رائعة وذكاء كبيراً ، وأبعد عن البلاد خطر المجاعة والفوضى الاجتماعية ، وإن على قيد بضع خطوات .

ومع ذلك فإن الحكومة الإمبراطورية الألمانية واصلت القتال . فلئن لم تقم الغواصة بكل ما كان متوقعا منها ، ولئن كانت جيوش أمريكا تتجمع تجمع الغمام المعتم الراعد ، فقد كان من المحتم أن الروسيا قد انهارت رغم ذلك . وفى أكتوبر وجه نفس النوع من هجوم الخريف الذى أسقط صربيا فى ١٩١٥ ورومانيا فى ١٩١٦ إلى إيطاليا فسحقها سحقا . فانهارت الجبهة الإيطالية بعد معركة كابوريت ، وانثالت الجيوش النمسوية الألمانية فى مقاطعة البندقية حتى أصبحت على مرمى المدافع من مدينة البندقية . ومن ثم شعرت ألمانيا بأن لها ما يبرر التشدد مع مقترحات الصلح الروسية ، وكان من أثر صلح برست ليتوفسك ٢ مارس ١٩١٨ أن أخذ الحلفاء فى الغرب فكرة عن النصر الألمانى ومغزاه ومعناه . كان سلاما ساحقا فادحا ، أملى مع أقصى ما قد يبديه منتصر واثق مطمئن من الصلف والكبرياء .

وكانت الجيوش الألمانية تنقل طوال الشتاء من الميدان الشرقى إلى الغربى ، والآن فى ربيع ١٩١٨ سيقت الحماسة الكليلة الباقية فى ألمانيا الجائعة المكدودة النازفة للقيام بالجهد الفرد العظيم الذى عليه أن يُنهى الحرب حقا وفعلا . وكان قد انقضى على القوات الأمريكية بضعة

أشهر فى فرنسا ، ولـكن كتلة الجيش الأمريكى كانت ما تزال وراء المحيط الأطلسى ، فكان ذلك أنسب الأوقات لتسديد الضربة النهائية للدول الغربية ، إن قدر لهذه الضربة أن تسدد قط .

وكان أول هجوم لهم على البريطانيين فى منطقة السوم . وكان قواد الخيالة غير الـكبيرى الذكاء الذين ما زالوا فى القيادة فى جبهة كانت فيها الخيالة عبثا لا غناء فيه قد أُخذوا على غرة وهم نيام ، وفى ٢١ مارس فى كارثة جوغ (Gough) رُدَّ الجيش البريطانى الخامس فى غير نظام حتى وصل إلى قريب من أميان . وكان التحاسد بين القواد البريطانيين والفرنسيين قد حال دون توحيد القيادة لجيوش الحلفاء فى فرنسا ، ولم يكن هناك أى احتياطى عام أيا كان شأنه خلف جوغ . فقد الحلفاء قرابة ألف مدفع ، وعشرات من آلاف الأسرى . وظل الألمان طيلة شهرى أبريل ومايو يعطرون الجبهة المتحالفة بالهجوم وراء الهجوم . وأوشكوا أن يحدثوا ثُغرة فى الشمال ، ثم دفعوا كل ما أمامهم دفعا عظيما إلى المارن الذى وصلوه فى ٣٠ مايو ١٩١٨ .

وكان هذا أقصى غاية الجهد الألمانى . ولم يكن من ورائه من شىء إلا وطن مُنهك . ووضع المارشال فوش فى القيادة العليا لـكل الجيوش المتحالفة . وكانت هناك جيوش جديدة تسرع من بريطانيا نحو الميدان عبر القنال الإنجليزى ، وكانت أمريكا تصب عند ذاك الرجال بمئات الألوف إلى فرنسا . وفى يونيه قام النمسويون المتعبون بجهد نهائى فى إيطاليا ، وانهاروا أمام هجوم إيطالى مضاد . وفى أوائل يونيه بدأ فوش يقوم بهجوم مضاد . ولما وافى يوليه كان المد قد أخذ ينحسر وأخذ الألمان يرتدون إلى الوراء . وأثبتت معركة شاتو تييرى (١٨ يوليه ١٩١٨) جودة صنف الجيوش الأمريكية الجديدة . وفى أغسطس افتتح البريطانيون طعنة عظيمة موفقة ، وتخاذل الانبعاج فى الخطوط الألمانية نحو أميان ثم انهار . قال لودندورف « كان يوم ٨ أغسطس يوما أسود فى تاريخ الجيش الألمانى » . وأكد الهجوم البريطانى فى سبتمبر على خط هندبرج نصر الحلفاء .

انتهت ألمانيا . وذهب روح القتال عن جيشها ، وكان أكتوبر شهر هزيمة وقهقرى على امتداد الجبهة الغربية بأكلها . وفى أوائل نوفمبر كانت الجيوش البريطانية فى فالنسيين والأمريكيون فى سيدان . وفى إيطاليا كذلك كانت الجيوش النمسوية فى حالة تقهقر غير منتظم . ولـكن قوات آل هوهنزولرن وآل هابسبرج كانت تنهار آنذاك فى كل مكان . وكان التحطم فى النهاية سريعاً سرعة مدهشة . ولم يستطع الفرنسيون والانجليز أن يصدقوا صحفهم وهى تنشر يوما إثر يوم أخبار الاستيلاء على مئات أخرى من المدافع وألوف أخرى من الأسرى .

وفى سبتمبر ترتب على هجوم للحلفاء على بلغاريا اندلاع الثورة فيها وتقديم مقترحات الصلح . وعقبتها تركيا بالتسليم بلا قيد فى نهاية اكتوبر ، والنمسا والمجر فى ٣ نوفبر . وحاولت ألمانيا أن تخرج أسطولها ليقوم بآخر نزال ، ولـكن البحارة تمردوا فى ٧ نوفبر . وفر القيصر وولى العهد فى عجلة وبلا أقل كرامة إلى هولنده . وفى ١١ نوفبر وُقعت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها .

دامت الحرب أربع سنوات وربما بعد أن جرت إلى أتونها بالتدريج كل إنسان تقريباً فى العالم الغربى على الأقل . ويربو عدد من قتل فعلا أثناء القتال على ثمانية ملايين فرداً ، ومات عشرون أو خمسة وعشرون مليونا آخرين بسبب المصاعب والفوضى التى ترتبت عليها . وكان عشرات الملايين يقاسون الأمرّين ويُلم بهم الضعف والهزال بسبب نقص التغذية والشقاء . وكانت نسـبة عظيمة من الناس تشتغل عند ذاك فى أعمال الحرب ، فى التدريب والتسليح وفى صنع المهمات وفى المستشفيات وفى العمل بدلا من الرجال الذين انضموا إلى الجيش ، وما أشبه ذلك من أعمال . وراح رجال الأعمال يكيفون أنفسهم وفقا للأساليب المعتلة التى لا بد منها لجمع الربح فى عالم محوط بالأزمات . وكانت الحرب أصبحت بالفعل جواً وعادة من عادات الحياة ونظاماً اجتماعياً جديداً . ثم انتهت بغتة .

ففى لندن أعلنت الهدنة حوالى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ١١ نوفبر . فأنتجت توقفاً عجيباً فى كل عمل روتينى عادى من أعمال الحياة . فخرج الـكتبة من مكاتبهم ولم يرضوا بالعودة إليها ، وهجر عمال المحلات دكاكينهم ، وأخذ سائقو سيارات الأومنيبوس وسيارات اللورى التابعة للجيش يقومون برحلات من تلقاء أنفسهم مع من يركب معهم من جمهور ذاهل هاتف لا مقصد خاصا له ولا يهمه أنّى ذهب به . وسرعان ما ازدحمت الشوارع بجماهير غفيرة مندهشة ، وتدلت الأعلام من أعلى كل بيت وكل دكان إن كان له علَم . ولما حلّ المساء أنير عدد كبير من الشوارع الـكبرى التى كانت تطفأ أنوارها خشية الغارات الليلية ، أسطع إنارة . وكان من العجيب جداً أن يرى الإنسان حشوداً متزاحمة من الناس تحت الأنوار الصناعية من جديد . وشعر كل إنسان بأنه فقد النابة فى الحياة ، مع ضرب من شعور الارتياح المتأزم المؤلم . لقد انتهت آخر الأمر . ولن يكون هناك أى قتل بعد ذلك فى فرنسا ولا أية غارات جوية ولا بد من أن تتحسن الأمور .

وأراد الناس أن يضحكوا وأن يبكوا فلم يستطيعوا ، وأخذ الشباب الناهض والجنود

الذين فى الراحات يكونون مواكب هزلية صاخبة كانت تشق طريقها خلال الجماهير المتحركة ، وأخذوا يبذلون قصاراهم فى التعبير عن المراح والسرور . وجرَّت الجماهير مدفعاً ألمانيا من الغنائم أخذته من البول مول[1] ، حيث نُصب للعيان عدد عظيم منها (أى الغنائم) ثم جُرَّ إلى ميدان الطرف الأغر حيث أحرقت مركبته . وكانت الصواريخ ومفرقعات الأطفال تلقى فى كل مكان . ولكن كان هناك القليل من مظاهر السرور المتجمع . فقد كان كل إنسان تقريباً قد خسر كثيراً وتألم كثيراً حتى لم يعد يستطيع أن يفرح فى أى حماسة .

---

(١) البول مول : شارع عظيم بلندن بالقرب من حديقة سان جيمس وقصر بكنجهام .

الفصل التاسع والثلاثون

العالم بعد الحرب العظمى

١ — دور إجهاد خلقي .
٢ — الرئيس ولسون في فرساي .
٣ — دستور عصبة الأمم .
٤ — معاهدات ١٩١٩ — ١٩٢٠ .
٥ — البلشفية في الروسيا .
٦ — دولة إرلنده الحرة .
٧ — اضطراب الأمور في الصين .
٨ — اختبار الإسلام .
٩ — الديون والنقود والتثبيت النقدي .
١٠ — التناقض بين فرط الإنتاج والحاجة .
١١ — تنازع التقاليد والتعمير .
١٢ — لن يتم التوحيد إلا بالجهد الواعي .
١٣ — القوى الهادفة إلى توحيد العالم .
١٤ — هل الدولة الاتحادية العالمية أمر مرجح ؟
١٥ — بعض احتمالات الدولة الاتحادية العالمية .
١٦ — ما وراء ذلك من مستقبل البشرية .

١ — دور إجهاد خلقي

كان عالم الحضارة الأوربية الغربية في السنوات التي عقبت نهاية الحرب العظمى أشبه شيء برجل أجريت له عملية جراحية خطيرة الحيوية تمت كأسوأ وأخشن ما تجرى العمليات، حتى لقد أضحى في شك أفي استطاعته أن يواصل الحياة أو أنه قد تزلزل كيانه أو أصيب إلى الحد الذي يقرب بينه وبين منيته . كان عالماً ذاهلاً مأخوذاً مبهوتاً . هزمت فيه الروح التسلطية العسكرية ، ولكن بثمن باهظ فادح ، بعد أن أصبحت ذات يوم قاب قوسين أو أدنى من النصر . وعاد كل شيء إلى مجراه بعد أن زال التأزم الشديد الراجع إلى النزاع . وإن كانت العودة في شيء من التراخي والوهن وبطريقة عاصفة متقلقلة . كان هناك ظمأ عام إلى السلام، وحنين عام إلى ما فقده الناس بالحرب من حرية ورخاء ، دون وجود أي قوة عزيمة تحصل للناس على هذه الأشياء وتحتفظ بها في أمان .

ولقد حل الفساد بكثير من المناحي . وكما حدث في حالة الجمهورية الرومانية إبان محنة الحروب البونية ، فقد انسابت كذلك الآن مظاهر عظيمة من العنف والقساوة . وأصيبت أخلاقيات المالية والاقتصاد بانحلال كبير . فإن أرواحا كريمة ضحت بنفسها رخيصة في سبيل مطالب الحرب المستعجلة ، ولكن مكرة وسفلة عالمي الأعمال والمال ظلوا يراقبون فرص الزمان العصيبة القلابة حتى استطاعوا أن يقبضوا بيد من حديد على موارد بلادهم وعلى

خريطة زمنية للحرب العظمى فى الغرب ١٩١٤ - ١٩١٨

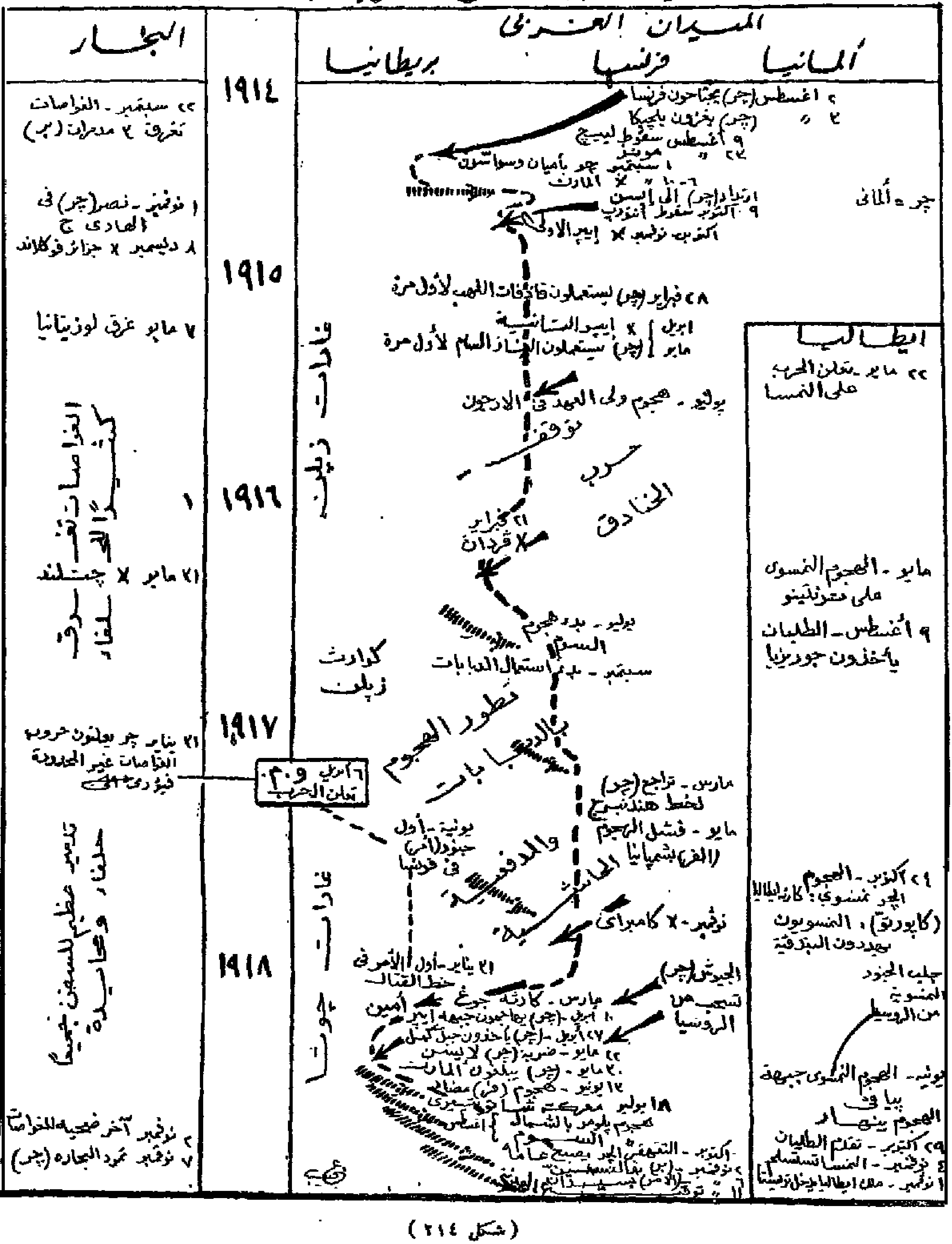

(شكل ٢١٤)

السلطان السياسي فيها . ففي كل مكان كان الرجال الذين يُعدون مغامرين مريبين مغموزاً في سمعتهم قبل ١٩١٤ قد احتازوا القوة والسطان، على حين كان خيار الناس يكدون بلا جدوى . وكان من العسير إيقاف هذه الطبقة ، طبقة الأغنياء المحدثي الغنى والأقوياء الحديثي القوة عند حدهم في هذا الدور من الانهاك الذى عقب الحرب .

وحدثت أثناء الحرب تجارب خارقة للمعتاد في الإدارة الحشدية اتخذت في كل البلدان المحاربة تقريباً . إذ أدرك المسئولون أن الوسائل العادية لتجارة أوان السلم من أمثال المماحكة في السوق والتمسك انتظاراً لصفقة ملائمة ، أمور لاتتسق مع حاجات الحرب السريعة . فوضع تحت الرقابة العامة ، شئون النقل والوقود ومواد الغذاء وتوزيع المواد الخام التي لم يقف الأمر فيها عند حد الثياب وتزويد الناس بالمنازل وما أشبهها وحدها ، بل كل شيء لازم لمهمات الحرب .

ولم يعد من حق الفلاحين أن يزرعوا من باطن غيرهم ، ووضعت الماشية في حدائق الغزلان وحرثت أراضي الكلأ ، سواء برضاء صاحبها أو بغير رضاه . وقيدت عمليات مباني الترف وعمليات تحسين مراكز الشركات في ميدان المضاربة . والواقع أنه تأسس ضرب من دولة الطوارىء الاشتراكية في معظم دول أوربا المتحاربة . كانت عملية تنطوي على الارتجال والفجاجة والإسراف ولكنها كانت أجدى من معقدات اقتناص الربح الذى لا نهاية له ، ومما كان يأتيه أصحاب المشاريع والمساعي الخاصة من احتكار ومن اختزان للمواد ومن إنتاج لا ترابط بين أجزائه .

كذلك عم الناس في سنوات الحرب الأولى في كل الدول المتحاربة شعور عميم بالأخوة وبالحاجة إلى تأدية الخدمة من أجل المصلحة المشتركة . وكان عامة الرجال يضحون في كل مكان بالنفس والصحة من أجل ما اعتقدوه خير الدولة العام . ولطالما تلقوا مقابل هذا وعوداً بأن الظلم الاجتماعي سوف يتناقص بعد الحرب ، وسوف يزداد الإخلاص للمصلحة المشتركة ويصبح أعم وأشمل . ففي انجلترا مثلا كان المستر لويد جورج مصراً بوجه خاص على جعل بريطانيا بعد الحرب أرضاً تليق بالأبطال . وأخذ يتنبأ باستمرار هذه الاشتراكية الجديدة التي نجمت عن الحرب ، ودوامها حتى زمان السلم بخطب ألقاها مليئة بالحماسة والروعة .

وأنشئت في بريطانيا وزارة للتعمير (إعادة الإنشاء) ، كان مفهوماً أنها تدبر خطط نظام اجتماعي جديد أكثر سخاء ، وظروفاً للعمال أحسن ، وإقامة منازل خيراً من الموجودة ، ونشراً للتعليم ومراجعة تامة علمية للنظام الاقتصادي . وكانت كلمة التعمير تضفي على حياة الناس لوناً جميلا وتحيي آمال الجماهير المحزونة في كل مكان . كذلك بُذلت وعود مثل هذه

هذه تبشر بحسن مآل العالم فأحيت آمال عامة جنود فرنسا وألمانيا وإيطاليا وقوت من عزائمهم . وكان كشف ستار هذه الخديعة مبكراً هو الذى أفضى إلى انهيار الروسيا . ولذا كان يسرى فى أدمغة الناس فى أوربا الغربية قرب نهاية الحرب تيارات من الآمال المرتقبة كل منهما خطر على أخيه . فكان الأغنياء وأصحاب المغامرات وبوجـه خاص المستغلون لظروف الحرب يدبرون خططهم لمنع تطورات من أمثال ، أن يصبح النقل الجوى ملـكا للدولة ، ولاختطاف الصناعات والسفن والمواصلات البرية وتجارة مواد الغذاء الرئيسية والخدمة العامة على وجه العموم ، واستردادها من يد الدولة إلى قبضة طلاب الأرباح الخصوصيين — فأخذوا يُعنون مقدماً باحتياز الصحف ويشغلون أنفسهم باللجان الحزبية وما إليها اتجاهاً منهم إلى تلك الغاية . على حين كانت جماهير الناس من الناحية الأخرى ، تشخص أماماً فى سذاجة انتظاراً لحالة جديدة للجماعة الإنسانية يكون الرائد فى رسمها هومصلحتهم فقط ويكون الأساس هو فكرات عامة سخية . وتاريخ ١٩١٩ يغلب عليه هذا الاصطدام بين تيارى الآمال المرتقبة هذين . وسارعت حكومة رجال الأعمال التى فى الحـكم إلى بيع كل مشروع عام مربح إلى المضاربين الخصوصيين .

وعند منتصف ١٩١٩ كانت جموع العمال فى أرجاء العالم كافة خائبة الرجاء خيبة ظاهرة منفعلة غاضبة كل الغضب . ذلك بأن وزارة التعمير البريطانية وضرباتها فى البلدان الأجنبية اتخذت خـدعة للعيون ترمى إلى تهدئة الأعصاب . وشعر الرجل العام بأنه قد غُش . ولن يكون هناك تعمير ، بل استرداد للنظام القديم ليس غير — ولـكن على صورة أشـد كآبة وبشاعة تمليها ظروف الفقر فى هذا الزمان الجديد .

وقد ظلت دراما الحرب أربع سنوات وهى تحجب المسألة الاجتماعية التى كانت تتطور فى المدنية الغربية طوال القرن التاسع عشر . والآن وقد وضعت الحرب أوزارها ، فإن هذه المسألة ظهرت جهمة عارية مجردة ، على صورة لم يرها الناس من قبل .

ومما زاد فى شدة الاستثارات والصعاب وفيما عم العـالم من عدم الأمنة فى هذا الزمان الجديد ، ذلك الاضطراب العميق الذى أصاب النقد والائتمان [1] ، فإن النقود وهى نمو معقد من الأوضاع والتقاليد أكثر منها نظام للقيم ، حُرمت داخل الدول المتحاربة من سند معيار الذهب [2] ، إذ احتفظ الناس بالذهب للتجارة الدولية دون غيرها ، وكانت كل حكومة أفرطت فى إصـدار ورق النقد لاستعماله داخلياً . حتى إذا تحطمت حواجز الحرب بات التداول

---

(١) الائتمان (Credit) : هو الثقة بأن يدفع الشخص أثمـان البضائع مؤجلة .

(٢) معيار الذهب (Gold Standard) : التثبيت القانونى لإحدى العملات على ما يعادلها من الذهب .

الدولى ضرباً من الاضطراب المتأرجح تأرجحات جنونية ، ومصدر غم وكرب لكل الناس فيما عدا عدد قليل من المقامرين والمضاربين . فتصاعدت الأسعار وتصاعدت — وكان لذلك أثر يغيظ كل كاسب أجر . فمن ناحية ترى صاحب العمل يقاوم كل مطالبة بزيادة الأجور ، وكانت شئون الطعام والمسكن والثياب تحتكر لغير مصلحته وتبهظ كاهله . أضف إلى ذلك أمراً هو أخطر ما فى الموقف وهو أنه أخذ يفقد كل ثقة اختلجت فى نفسه قط فى أن أى صبر منه أو إقبال بيديه على الصناعة سوف تخفف حقاً من ذلك النقص وتلك المتاعب التى كان يقاسى من جرائها ما يقاسى .

وكانت الحاجة ماسة إلى المنازل فى معظم الأقطار الأوربية . إذ توقف الناس طيلة الحرب لا عن البناء وحده بل عن الإصلاحات كذلك . وبلغ النقص فى المنازل فى ١٩١٩ إلى رقم يتراوح بين ٢٥٠٫٠٠٠ إلى مليون منزل فى بريطانيا وحدها . وتكاد الأحوال فى ألمانيا وفرنسا أن تكون أسوأ وأنكى . فإن جماهير من الناس كانوا يعيشون فى حال من التزاحم تسخط نفوسهم ، وكان أوقح أنواع الاستغلال الجشع للشقق والبيوت يحدث فى كل مكان. كان الموقف عسيراً وإن لم يكن مستحيلا . فلو أتيحت نفس الحماسة والهمة وتضحية الذات التى غمرت الأزمة الهائلة فى ١٩١٦ ، فإن الواجب الأكثر سهولة بكثير ، واجب إنشاء مليون من المنازل كان أمراً فى الطوق القيام به فى سنة أو ما يقارب السنة . ولكن كانت هناك احتكارات كثيرة فى مواد البناء ، وكان النقل فى حالة غير منتظمة ، ولم يكن بناء المنازل يعود على أصحاب المشروعات الخاصة بأى إيجار يكون فى متناول من يحتاجون إليها من الناس . ولذا فإن أصحاب المشروعات الخاصة[1] ، وهم أبعد ما يكونون عن الاهتمام بالحاجة العامة إلى المبانى ، اقتصروا على الاحتكار والمضاربة بالإيجارات وبالتأجير من باطنهم . وكان الحال عند ذلك يستدعى أن تقدم الحكومة المنح للنهوض بالمشروع لكى يكون بناء المنازل عملا مربحاً .

وإنا لنسوق هنا مثلا آخر على عدم كفاية نظام الاستغلال الجشع فى حل مشكلات ذلك الأوان ، فقد حدث تراكم شديد وتزعزع فى أنظمة البضائع فى المستودعات لأنه لم يكن هناك من وسائل النقل فى الطرق البرية ما يكفى . فكانت الحاجة ماسة إلى السيارات الرخيصة حتى تنقل البضائع والعمال من مكان إلى آخر . ولكن أصحاب المشروعات الخاصة فى صناعة السيارات تصوروا أنه مما يزيد فى أرباحهم كثيراً أن ينتجوا عربات فاخرة غالية من أجل

(١) أصحاب المشروعات الخاصة (Private Interprise) : هم الرأسماليون الذين يقومون باستثمار أموالهم فى الصناعة وغيرها .

أولئك الذين ملأت الحرب جيوبهم بالمال . وكان من أيسر الأمور أن تحول مصانع المهمات وهي مبنية بمال مدفوع نقداً إلى مصانع لإنتاج السيارات الرخيصة بالجملة ، ولكن أصحاب المشروعات الخصوصية أصروا على أن تبيع الدولة تلك المصانع ، ولم يلاقوا حاجة الجمهور بأنفسهم ، ولا هم سمحوا للدولة بأن تفعل ذلك . كذلك أيضاً أصر أصحاب المشروعات الخاصة والعالم في أفظع المحن والمتاعب بسبب نقص السفن ، على اغلاق مصانع السفن التي أنشأتها الدولة حديثاً . وتزعزع النقد في كل مكان ، ولكن أصحاب المسعى الخاص كانوا في شغل بشراء وبيع الفرنكات أو الماركات وزيادة الحال حرجا .

هذه حقائق ، مؤرخ الإنسانية ملزم أن يلحظها بأقل قدر مستطاع من التعليق . فإن صاحب المسعى الخاص في أوربا في ١٩١٩ و ١٩٢٠ لم يظهر الرغبة ولا الكفاية لمقابلة حاجات ذلك الزمان الماسة . ولم يكادوا يشعرون بانطلاق سراحهم من يد الرقابة حتى انسابوا انسيابا طبيعيا إلى المضاربة والاحتكار وإنتاج الترف . وساروا في طريقهم وراء أقصى ما يستطيعون من الأرباح . ولم يظهروا أي إدراك لما يكتنفهم من أخطار ، وكانوا يقاومون كل محاولة للحد من أرباحهم أو جعلها معتدلة ، أو للتحول إلى خدمة الناس ولو كان ذلك في مصلحتهم .

واستمر هذا في وجه أبلغ مظاهر التكره المفرط من جانب جمهرة السكان الأوربيين ، تلقاء ما يقاسونه من الحرمان والمتاعب المطولة الأمد . وكانت هذه الجماهير تعيش في ١٩١٣ كما عاشت منذ مولدها ، وكانوا ألفوا نوع الحياة التي يعيشون . فأما جماهير ١٩١٩ من الناحية الأخرى فإنهم انتزعوا من ديارهم في كل مكان لكي ينخرطوا في الجيوش ولكي يذهبوا إلى مصانع المهمات وهكذا . ففقدوا عادات الرضا ، وغدوا أشد جرأة وأقدر في التصرف تصرف اليائسين . وكانت جماهير عظيمة من الرجال مرت في دور تدريب يبث فيهم الوحشية من أمثال التدريب على السونكي ، وكانوا تعلموا الفظاعة والوحشية ، وقلت مبالاتهم بارتكاب القتل والتعرض له على السواء . ومن ثم أصبح القلق الاجتماعي أشد خطراً .

ولم يكن الأمر أن الجماهير كان لها أو خالت أن لها خطة نظام جديد اجتماعي وسياسي واقتصادي . إذ الواقع أن لم يكن لهم خطة ولم يكونوا يعتقدون بأن لهم خطة . ولم تكن النقائص التي أومأنا إليها في خطة الاشتراكيين خافية عليهم . بل كانت حال الأمور أشد خطراً بكثير من هذا الحال ذلك أنهم بلغ من سخطهم على النظام الحاضر وما فيه من ترف وسرف وتعاسة عامة ، أن أصبحوا لا يأبهون بما يحدث من بعده ما داموا يستطيعون تدميره . كان هذا عودة إلى حال عقلية تقارن بتلك التي مهدت السبيل لتفكك الإمبراطورية الرومانية .

أخذت قوى الثورة الاجتماعية تتحرك فى كل مكان فى أوربا ولا سيما فى إيطاليا وألمانيا . وأبدت الشيوعية فى إيطاليا روحاً عدوانية غير عادية . فظهر عمد شيوعيون فى نواح مختلفة من إيطاليا ، وجرت فى بولونيا محاولة مشفوعة بالقوة لتنفيذ مبادىء الشيوعية عملياً . وفى يوليه ١٩٢٠ تولى جيوليتى وهو من دعاة الحياد الذين عارضوا الحرب رئاسة الحكومة مكان السنيور نيتى . فقام بتجارب متنوعة فى « التشارك » بين عمال الصناعات وأصحابها . وفى سبتمبر استولى العمال على كثير من مصانع الصلب وغيرها من المصانع وأخذوا يديرونها على أسس اشتراكية . ولقيت هذه التصرفات تعضيداً ومصادقة من الحكومة .

واستمر الانزلاق نحو الشيوعية فى ١٩٢١ فى وجه مقاومة متجمعة ، وشبت الفتن والأعمال العنيفة فى فلورنسا وتريستا وبوجليا وبيزا وأماكن أخرى كثيرة . ذلك أن تدابير جيوليتى الرامية إلى صبغ البلاد بالاشتراكية (: تشريكها) أفضت إلى رد فعل عنيف بين الطبقات التى تهمها الملكية الخاصة ، وترعرعت تنظيمة من الشبان هى الفاشست الذين كانت سمتهم الشعر الكثيث والقمصان السود والقومية المفرطة الشدة والمناهضة للاشتراكية . كانوا يقابلون العنف بالعنف ، ويبلغون به درجات من التطرف لا عهد للناس بها ، فأسسوا عهد إرهاب مضاد للاشتراكية . ووجدوا لهم زعيماً ذا همة عالية وروادع أخلاقية واهنة هو بنيتو موسولينى ، وكان فيما قبل صحفياً راديكالياً[1] ، وسرعان ما تغلبت الفاشستية تحت إدارته الماهرة على اعتداءات الشيوعيين المتفرقة العاطفية . وكان الطريق يُقطع على الزعماء والكتاب الأسمحيين ثم يضربون بالهراوات . وكانت هناك طريقة حبيبة إلى الفاشستيين هى أن يُعطوا جرعات كبيرة من زيت الخروع إلى من ينتقدون تصرفاتهم . وأصبح القتل والضرب والتعذيب وإحراق الأملاك الخاصة للمفكرين الأسمحيين هى وسائل الرقابة الاجتماعية فى إيطاليا . وتُبُدِّل واقع حكم المناسر بخيال الشيوعية البعيد .

وبلغ الفاشيون فى أكتوبر ١٩٢٢ حداً من القوة أتاح لهم أن ألفوا جيشاً حقيقياً وأن استطاعوا الزحف على روما . وأعلنت الوزارة الأحكام العسكرية واستعدت للقتال ، ولكن الملك أبى التصديق على هذه التدابير ودعا موسولينى لتولى مقاليد الأمور . فقبل وأصبح رئيساً للحكومة ، ووافق على حل فرق القمصان السود — وهو وعد لم يبر به أبداً . ووضع الفاشيون موضع الهيمنة على البوليس وعلى قوات البلاد المسلحة ، وقضوا على حرية الصحافة

---

(١) الراديكالى : حزب متطرف يدعو إلى التغيير التام فى السياسة والإصلاح الشامل .

وأصبحت الانتخابات مهزلة من المهازل ، وظل الفاشيون يهاجمون أعداءهم السياسيين ، ويلقون فى قلوبهم الرعب ويغتالونهم ، بينما أصبح موسولينى — مستظلا بلقب الدوتشى (١) ديكتاتوراً حقيقياً على حين أخذت أهمية الملك تقل نسبياً .

ومضى زمان استرجعت فيه إيطاليا ضرباً معيناً من الكفاية الاقتصادية الخشنة الساذجة ، ولكن المستقبل الاقتصادى لذلك القطر العظيم لمّا يزل مظلماً غير وطيد الأركان . ويظل الموقف الإيطالى مشوقاً للعالم أعظم التشويق ، لأنه يبدى على أخشن الأشكال وأشدها فجاجة ماهية اليسار المتطرف واليمين المتطرف فى الشئون الإنسانية المعاصرة ، وما عليه الأولون من السمة غير العملية ومن انعدام الكفاية ، كما تتجلى السرعة التى ينحدر بها إلى العنف وقطع الطرق أصحاب الملكيات والمشروعات الخاصة ، عند ما يضطرون إلى التزام خطة الدفاع . وقد أصبحت إيطاليا كالروسيا سجناً لكل إنسان حر العقل .

وإنك لتجد ذلك المرض المتسلل وأعنى به مخالفة القوانين الذى سبق أن ذكرناه فى حديثنا عن رواية ستوكى وشركاه لرديارد كبلنج زاهياً زاهراً فى هذين القطرين . على أن إيطاليا لا تقف بمفردها فى هذا المضمار ، وإنما هى أشد الأمثال نضوج تطور وسط نزعة عمت هذا الزمان كله . فإن الفاشية وجدت فى ألمانيا وفرنسا وبريطانيا العظمى مطاولين ومقلدين ، ولكن نشاطهم فى تلك البلاد وصل حتى اليوم إلى مرتبة المضايقة أكثر منه إلى مرتبة الطغيان .

٢ — الرئيس ولسون فى فرساى

لاحظنا الفوضى العامة الاجتماعيــة والاقتصادية التى لحقت المجتمعات الأوروبيــة فى السنوات التى عقبت الحرب ، قبل أن ندلى إليك بأى بيان عن العمل فى التسوية العالمية التى كان مركزها مؤتمر الصلح فى باريس ، لأن حالة انشغال البال وحمل الهموم التى لحقت كل من يشتغلون بالمشاكل الخاصة من أمثال الدخل والأسعار والعمل وما إليها ، — كافية تماما لتفسير جو الإنهاك الذى تقدم فيه ذلك المؤتمر للواجب الضخم الملقى عليه . وليس فى مقدور الإنسان أن يتوقع حياة عمومية قوية على حين يشمل الغم والإرتباك حياة الأفراد .

وتدور معظم قصة المؤتمر حول مغامرة رجل بعينه ، وهو أحد أولئك الرجال الذين تنتخبهم المصادفة أو الصفة الشخصية وتتخذ منهم طرازاً تقصد به إلى تخفيف العبء عن

---

(١) الدوتشى : معناها الزعيم .

المؤرخ . ولقد أصبنا فى كتابنا هذا شيئاً كثيراً من الراحة فى تركيز انتباهنا على شخص بعينه إما أن يكون بوذا ، أو الإسكندر الأكبر أو يوان شوانج أو الإمبراطور فردريك الثانى ، وشارل الخامس ، أو نابليون الأول مثلا — وأن نتخذ منه نبراسا يعكس النور على الزمان الذى يعيش فيه . وأسهل زاوية تنظر منها خاتمة الحرب العظمى هى زاوية ارتقاء الرئيس الأمريكى ولسون ، مراقى الأهمية العليا فى سماء آمال العالم وانتباهه ، وفشله فى تبرير تلك الرفعة .

وكان الرئيس ولسون (١٨٥٦ — ١٩٢٤) فيما سلف من أيامه عالما مبرزاً ومدرساً ضليعاً للقانون الدستورى والعلوم السياسية عامة . وكان قد شغل مناصب أستاذية كثيرة ، وتولى عمادة جامعة برنستن بنيوجرسى . وإن هناك لقائمة طويلة من الكتب تشهد له بالكفاية وتبدى فيه ذهناً متجهاً اتجاهاً كلياً إلى التاريخ الأمريكى والسياسة الأمريكية . تقاعد عن العمل العلمى وانتخب حاكما لولاية نيوجرسى فى ١٩١٠ — وفى ١٩١٣ رشحه حزب الديموقراطيين لرياسة الجمهورية ، وأصبح رئيساً للولايات المتحدة نتيجة لخلاف عنيف بين الرئيس السابق روزفلت والرئيس تافت ، تصدع بسببه الحزب الجمهورى صاحب السلطان .

وكأنما أخذت أحداث أغسطس ١٩١٤ الرئيس ولسون ومواطنيه على غرة . فإنا نراه يرسل برقية فى ٣ أغسطس يعبر فيها عن استعداده للتوسط . ثم أخذ يرقب النزاع ردحاً من الزمان هو وأمريكا . وقد لاح بادىء الرأى أنه لا الشعب الأمريكى ولا رئيسه كانوا يفهمون فهماً واضحاً جداً أو فهماً عميقاً تلك الكارثة التى تجمعت قواها فى زمن غير قصير . فقد أقاموا قرناً وتقاليدهم هى عدم الاهتمام بأمور العالم القديم ، ولم يكن تغيير هذا الاتجاه بالأمر الهين . على أن الصلف التسلطى الذى أبداه البلاط الألمانى ومازعمه بعض الناس من ميل السلطات العسكرية إلى العنف الميلودرامى المثير ، وغزوهم لبلجيكا ، واستعمالهم للغاز السام ، ومضايقتهم العالم بحملة الغواصات ، قد أوجدت فى الولايات المتحدة عداء للألمان تزداد حدة وعمقاً مع تقدم الزمن بالحرب . ولكن تقاليد عدم التدخل السياسى وذلك الاقتناع العميق الأسس القائل بأن لأمريكا من الخلق السياسى ما يسمو على خلافات أوربا كل السمو ، منعت الرئيس عن التدخل الفعلى . فاتخذ نغمة الترفع والتسامى . وصرح بأنه غير مستطيع أن يحكم على أسباب الحرب الكبرى وعدالتها . وإلى ما أبداه الرئيس من موقف سلمى يرجع أعظم الفضل فى إعادة انتخابه لرياسة الجمهورية مرة أخرى .

ولكن حال العالم لا ينصلح بمجرد النظر إلى فعلة السوء نظرة عدم استحسان شاملة لا تميز بين هذا وذاك . وعند نهاية ١٩١٦ شجع الألمان على الاعتقاد أن الولايات المتحدة لن

تدخل الحرب بأى حال ، وفى ١٩١٧ ابتدأوا حرب الغواصات التى لا تتقيد بشىء وإغراق السفن الأمريكية بلا إنذار . وجرّت هذه الحماقة الأكيدة الرئيس ولسن والشعب الأمريكى إلى الحرب جراً . كذلك دفعوا متكرهين إلى محاولة لتحديد علاقتهم بسياسة العالم القديم على أسس أخرى غير مجرد التعالى والتباعد . وتغيرت أفكارهم وخلقهم بغاية السرعة . فدخلوا الحرب فى صفوف الحلفاء وإن لم ينضموا معهم فى أى حلف . دخلوا الحرب باسم مدنيتهم العصرية بكليتها ، لكى يوقفوا النكال وينتهوا من موقف سياسى وعسكرى لا يطاق .

(شكل ٢١٥) الرئيس ولسن

والأحكام المتريثة المتأنية كثيراً ما تكون خير الأحكام . فإن الرئيس ولسون حاول فى سلسلة من المذكرات أطول وأكثر تنوعا من أن تتحملها المعالجة التفصيلية فى هذا الكتاب ، حاول وهو فى حالة تشبه من يفكر بصوت مرتفع على مسمع من العالم قاطبة ، أن يبين الفروق الجوهرية بين الدولة الأمريكية وبين دول العالم القديمة الكبرى . فبسط للناس فكرة للعلاقات بين الدول هبطت على العالم الشرقى هبوط الإنجيل ، وهبطت على نصف الكرة الشرقى برمته هبوط أمل فى قيام عالم أحسن حالا ومآلا .

وبمقتضى هذه الفكرة تتوقف الاتفاقات السرية ، وتقرر الشعوب مصائرها ، ويكف الناس عن العدوان العسكرى وتصبح طرق البحار حرة مباحة للبشرية كافة . فهذه الأمور العادية المألوفة لدى الفكر الأمريكى ، وهذه الرغبات الخفية المستقرة فى نفس كل سليم العقل ، — هبطت على ما كان يخيم على أوربا من ظلمة الغضب والنزاع هبوط نور عظيم . وأخيراً شعر الناس أن صفوف الدبلوماسية قد تصدعت ، وأن أقنعة سياسة الدول العظمى قد تمزقت إربا . فهنا

عبر الرئيس بغاية الوضوح وبما له من سلطان وما وراءه من قوة شعب قوى جديد عن رغبة الرجل العادى فى العالم بأجمعه .

وواضح أن الأمر كان يستلزم وجود آلة حكومية ذات يد مطلقة لتؤسس القانون العالمى وتحافظ على هذه القواعد العامة الإجمالية الأسمحية فى علاقات الناس بعضهم ببعض . وكم من خطة حلق بها خيال الناس للوصول إلى تلك الغاية . وكانت هناك بوجه خاص حركة ترمى إلى إنشاء نوع ما من العصبة العالمية ، هى عصبة الأمم . فاستعمل الرئيس الأمريكى هذه العبارة وحاول أن يحققها . فإنه صرح بأن الشرط الضرورى للسلام الذى كان ينشد هو إقامة صرح هذه الأداة الاتحادية (الفدرائية) . وكان المفروض أن تكون عصبة الأمم هذه محكمة الاستئناف النهائية فى الشئون الدولية . وكانت على أن تصبح الجسم المادى المحقق للسلام . وهنا كذلك أثار الرئيس صدى هائلا .

وأصبح الرئيس ولسون أمد ردح من الزمان خطيب عصر جديد . واستمر محتفظاً بهذه المكانة الرفيعة فى عين العالم الغربى طوال الحرب وبعد انتهائها بزمن قصير . فأما فى أمريكا حيث كانوا يعرفونه خيراً منا فكانت هناك غمامة من الشكوك . ونحن إذ نكتب كما نكتب الآن وبين أيدينا عظة الأحداث التالية ، نستطيع أن نفهم هذه الشكوك . فإن أمريكا طورت طوال قرن ونصف قرن قضتها فى الاعتزال والأمنة مُثلا عليا جديدة ومبادىء فى الفكر السياسى مستحدثة ، دون أن تدرك إدراكا بعيداً أن هذه المثل العليا والمبادىء قد تستلزم تعضيداً حاراً فى حالات الشدائد والخطر . وكانت أشياء عديدة تعد فى نظر مجتمعها من السخافات بينما تنظر إليها مجتمعات العالم القديم ،

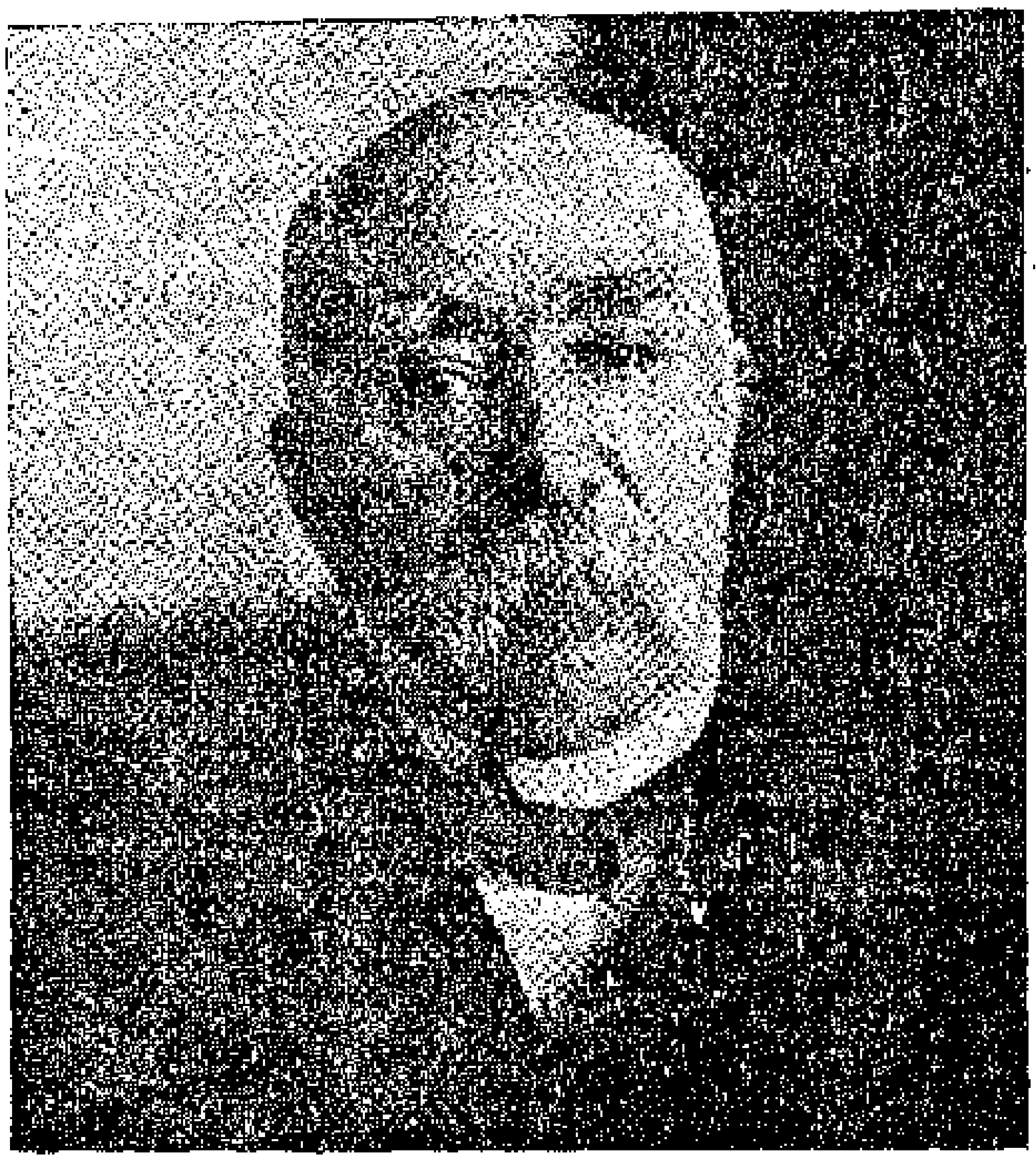

(شكل ٢١٦) كليمنصو

الذى كان لايزال متورطاً فى المعتقدات السياسية العهيدة ، نظرتها إلى إنجيل يخرج الناس من

الظلمات إلى النور . فكان الرئيس واسن مستجيباً لفكر وأحوال قومه ووطنه هو ، المؤسسين على تقاليد أسمحية وجدت لأول مرة أوفى تعبير لها فى اللغة الانجليزية . فأما فى رأى أوربا وآسيا فإنه بان كأنما يقول لأول مرة فى التاريخ أشياء لم تتطور بعد وخفى وجودها على الناس كل الخفاء . ولعله كان يشرك الناس فى هذا الفكر الخاطئ .

وإنا لنعالج هنا أستاذاً للعلوم السياسية ناجحا مقتدراً ، لم يدرك تمام الإدراك ما يدين به لمعاصريه ، ولا عرف الجو الأدبى والسياسى الذى كان يتنفسه طوال حياته ، كما أنه سرعان ما انتقل بعد إعادة انتخابه للرياسة من الحالات العقلية لزعيم سياسى إلى وضعة المسيح المخلص . ومامذكراته إلا عمليات ارتيادواستكشاف لعناصر الموقف العالمى . وعندما أبرز آخر الأمر فى خطابه الذى ألقاه فى الكونغرس فى ٨ يناير ١٩١٨ نقاطه الأربع عشرة بوصفها بيانا محدداً لمقاصد أمريكا فى السلم ، كانت بوصفها بيانا أحسن كثيراً فى روحها منها فى ترتيبها ومادتها .

وكانت هذه الوثيقة تطالب بالاتفاقات الصريحة بين الأمم والكف عن السياسة السرية ، وحرية الملاحة فى أعالى البحاروحرية التجارة ونزع السلاح وعدد من التسويات السياسية تقوم على الاستقلال القومى . وهى تطالب فى النقطة الرابعة عشرة بإنشاء جمعية عامة للأمم بغية ضمان سلام العالم . كان يطلب السلم بلا نصر .

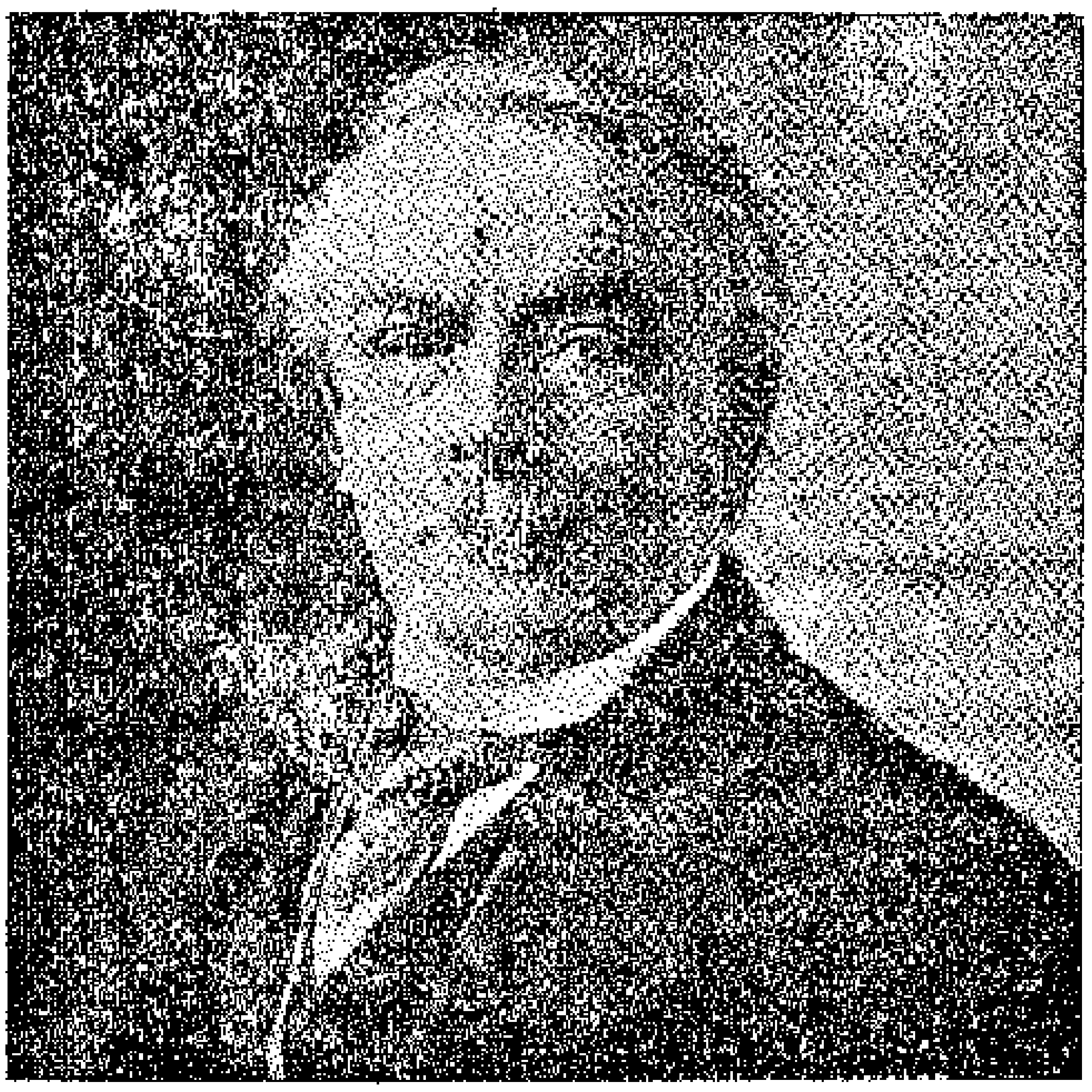

(شكل ٢١٧) لويد جورج

وقد استقبلت هذه المواد الأربع عشرة استقبالا رائعا فى كل أرجاء العالم . وهنا لاح أخيراً شبح سلم يتقبله الراشدون من الناس فى كل مكان ، سلم طيب مقبول لدى خيار الألمان والروسيين وأكارمهم كما هو طيب مقبول لدى خيار الإنجليز والفرنسيين والبلجيك وأكرميهم . وظل العالم بأكمله بضعة شهور ينيره نور الإيمان بولسن . فلو أمكن جعل هذه المواد أساساً لتسوية عالمية فى ١٩١٩ ، لفتحت منذ ذلك الحين حقبة جديدة للشئون الإنسانية عامرة بالآمال .

ولزام علينا أن نخبرك أن الناس لم يقوموا بهذا الأمر . إذ كان يحيط بالرئيس ولسن سحابة بعينها من الأنانية الضيقة ، وكان جيل شعب الولايات المتحدة الذى وافته هذه النهزة العظيمة ، وهو جيل ولد فى بحبوحة الأمنة ، وترَبى فى ظلال الوفرة ، فهو لذلك جيل بمنآة عن المنازعات المؤلمة التى أحزنت قلب أوربا ، — كان ينطوى على قدر بعينه من الطيش والنظرة السطحية للأمور . ولم يكن واقع الأمر أن الشعب الأمريكى كان سطحيا بحكم الطبيعة والضرورة ، بل إن حماستهم لم تحركها بالقدر الكافى فكرة قيام مجتمع عالمى أكبر من مجتمعهم . كان ذلك لديهم فكرة ذهنية ولكنه لم يكن عقيدة روحية . فكنت تجد من ناحية هذا الشعب الجديد بما لهم من فكرات جديدة ، فكرات عن السلم والصلاح العالمى أسمى وأروع ، وتجد فى الناحية الأخرى فى العالم القديم ، شعوبا لدودة متورطة أشد التورط فى نظام الدول الكبرى ، وكان الأولون أنجاجا أغمارا يدانون الأطفال فى قلة خبرتهم المروّعة ، وكان الآخرون مجربين مربرى المذاق معقدى التكوين .

وقد عالج الروائى الكبير هنرى چيمس منذ سنوات عديدة موضوع الاصطدام بين الشباب الغمر المثالى المذهب فى عصر جديد وبين نضوج الشيوخ المجرب فى قصة جد نموذجية تسمى ديزى ميلر ، وهى قصة محزنة لفتاة أمريكية صريحة شديدة الثقة فى الناس رفيعة العقل ولكنها تكاد تبلغ حد البساطة ، وفيها ميل حقيق إلى الصلاح ، ورغبة عظيمة فى الاستمتاع بفترة جميلة من الزمان ، وكيف أنها وصلت إلى أوربا ووقعت فى الحبائل من فورها وتورطت فى الأخطاء ، ثم دفعت أخيراً إلى الترحيب بالموت بسبب ما فى العالم القديم من التواءات مركبة ومن قيود جامدة . وإن فى الحياة نفسها لآلافاً منوعة من أضراب هذا الموضوع ، وآلافاً من أمثال هذه المآسى التى تنحدر عبر الأطلسى ، وما قصة الرئيس ولسن إلا واحدة من هذه . ولكن ينبغى للقارىء ألا يظن ، لما يرى من تغلب الداء القديم على الأداة الجديدة ، أن ذلك هو الحكم النهائى بالقضاء الأخير .

ولعل أحداً من بنى الإنسان المرضين بفطرتهم للزلل لم يصب — وهو يحاول أن يبذل قصاراه وسط ظروف جارفة لا يقوى على احتمالها — بمثل هذا الفحص الدقيق والنقد القاسى الذى أصيب به الرئيس ولسون . وهو يلام لأنه أدار دفة الحرب وما تلاها من مفاوضات الصلح على أسس حزبية محضة . وهم يتهمونه بأنه ظل الرئيس الممثل للحزب الديموقراطى ، على حين كانت تأتمر به الظروف لتجعل منه ممثلا للمصالح العامة للبشرية . ولم يقم بأية محاولة ليضم إلى جانبه بعض الزعماء الأمريكيين الكبار من أمثال الرئيس السابق روزفلت والرئيس السابق تافت ، ومن إليهم . وهو لم يستغل تماما موارد الولايات الخلقية والذهنية ،

بل جعل الموضوع كله أمراً شخصياً وحسب ، وأحاط نفسه بمن هم مجرد أنصار شخصيين له . وكان استقرار قراره على أن يحضر إلى مؤتمر الصلح بنفسه غلطة كبيرة . ويكاد رأى الناقدين المجربين يجمع على أنه كان يجدر به أن يبقى فى أمريكا ، يمثل دور أمريكا وأن يتكلم بين الفينة والفينة كأنما كان الشعب يتكلم . فإنه استطاع طيلة السنوات الأخيرة من الحرب أن يحصل بهذه الطريقة على مكانة لا ضريب لها فى العالم .

ويقول الدكتور ديلون[1] : « كانت أوربا عنـد ما لمست قدما الرئيس أرض ساحلها كصلصال ينتظر لمسة الخزاف المبتدع . ولم يحدث قط من قبل أن كانت الأمم على مثل هذا الشوق إلى اتباع نبى كونى يأخذ بيدهم إلى الأرض الطيبة الموعودة إلى حيث تمنع الحروب ويجهل الحصر البحرى . وكانوا يرون فيه ذلك الزعيم العظيم . وكان الرجال فى فرنسا ينحنون أمامه محبة ورهبة . وأخبرنى زعماء العمال فى باريس أنهم سكبوا دموع الفرح بين يديه ، وأن إخوانهم كانوا على استعداد أن يخترقوا النار ويخوضوا اللجج لـكى يساعدوه على تحقيق خططه . وكان اسمه فى عين الطبقة العاملة فى إيطاليا بوقا سماوياً تتجدد الأرض حين يدوى صوته فيها . وكان الألمان يعدونه ومبادئه الإنسانية آخر ما يلوذون إليه من بر الأمان والسلامة . وقال الهرموهلون ، الشجاع غير الهيابة : « لو أن الرئيس ولسون خطب فى الألمان وحكم عليهم حكماً قاسـياً لقبلوه مذعنين دون أن يتفوهوا بكلمة ولأنشأوا يعملون من فورهم ، وكانت شهرته فى النمسا الألمانية شهرة مخلص منقذ ، وكان مجرد ذكر اسمه بلسما لآلام المنكوبين وترياقاً لأحزان المحزونين » .

تلك هى الآمال الجارفة التى كانت تعتلج فى صدور النظارة الذين استعد الرئيس ولسون للظهور أمامهم . وصل إلى فرنسا على ظهر البارجة چورج واشنطون فى ديسبر ١٩١٨ . وأحضر معه زوجته . ولاشك أن هذا كان يبدو أمراً لا غبار عليه من وجهة النظر الأمريكية . وأحضر عددٌ جم من ممثلى أمريكا زوجاتهم . ومن سـوء الطالع أنه دخلت إلى حظيرة التسوية العالمية بتقدم هؤلاء السيدات سمة اجتماعية لا بل سمة أقرب إلى سمة السائحين . فقد كانت وسائل المواصلات ضيقة الحدود فى ذلك الزمان ، على أن معظمهن وصلن إلى أوربا يحيط بهن جو زاهٍ من الامتيازات . وجئن كمن يريد أن يحضر مأدبة . فكن — كما نوه بعض الناس — يتفرجن على أوربا مستمتعات بظروف شائقة غير عادية . وإنهن ليرغبن فى زيارة شستر أو

---

(١) فى كتابه مؤتمر الصلح .

واروياك أو وندسور إذ قد لاتتاح لهن فى المستقبل فرصة أخرى يرين بها هاته المواضع الشهيرة . ثم لقد تُقطع بعض المقابلات الهامة لكى يُزار قصر ذو أهمية تاريخية .

وربما لاح هذا الأمر أمراً تافهاً لا يليق أن ندونه فى تاريخ للبشرية ، على أن مثل هذه الأشياء الإنسانية المهينة هى التى ألقت على مؤتمر الصلح فى ١٩١٩ ظلا من اليأس فى ثمرته . إذ اكتشف الناس بعد برهة وجيزة أن ولسون أمل البشرية ومعقد الرجاء منها قد تلاشى وأن جميع صحف الطبقة الراقية المصورة أصبحت تضم صوراً لسائح مسرور مع زوجته ، يحيط بهما جو باسم من الرؤوس المتوجة وما إليها من الصحب الذى يُحسد الناس عليه .... ومن أيسر الأمور أن يدعى الإنسان الحكمة بعد وقوع الحادث وأن يشعر بخطئه بعد حدوثه وأن يعرف أنه كان ينبغى له ألاّ يحضر .

وكان الرجال الذين تحتم عليه أن يتصل بهم اتصالا خاصاً أمثال المسيو كلمنصو (فرنسا) ولويد جورج وبالفور (بريطانيا) ، والبارون سونينو والسنيور أورلندو (إيطاليا) رجالا ينحدرون عن تقاليد تاريخية تخالف تقاليده . على أنهم كانوا يشابهونه من وجه واحد يروقون فيه لميوله وعواطفه . فإنهم كذلك كانوا سياسيين حزبيين قادوا أممهم فى الحرب . وقدفاتهم مثله أن يفهموا ضرورة وضع عمل التسوية العالمية فى أيدى رجال أكفاء أكثر منهم أهلية وتخصصاً . « لم يكونوا ليزيدوا عن مجرد صبيان مبتدئين فى الشئون الدولية . وكانت علوم الجغرافيا والإثنولوجيا (علم الأجناس) والفسيولوجيا (وظائف أعضاء الجسم) والتاريخ السياسى صناديق مقفلة دونهم . وعلى شاكلة تشبه ما فعله مدير جامعة لوڤان ، يوم حدث أوليفر جولد سميث بأنه لما كان قد أصبح رئيساً لتلك المؤسسة دون أن يعرف الإغريقية ، فإنه لايدرى لماذا يجب أن تُعلم فيها تلك اللغة ، فإن رؤساء الدول — وقد حصلوا على أعلى المناصب فى بلادهم دون أن يكون لديهم من العلم بالشئون الدولية ما يزيد على قُلامة ظفر — لم يستطيعوا أن يدركوا أهمية التمكن منها ولا استحالة سد هذا النقص فيهم بالدراسة بينما هم ماضون فى طريقهم(١) ....

« ولقد كان فى المستطاع تدارك ما كان ينقصهم إلى درجة محسوسة بضم مساعدين لهم من بين الرجال الذين أسعدتهم الحال بمواهب خير من مواهبهم . ولكنهم عمدوا قصداً إلى اختيار رجال متوسطين غير أفذاذ . ومن دلائل الأرواح الأصيلة أن تجد المعاونين الطيبين .

---

(١) ديلون فى كتابه مؤتمر الصلح.

على أن المندوبين المفوضين فوق العادة فى المؤتمر لم يختصوا بهذه الخصيصة . ولا تنس عاملا فى المؤخرة بعيداً عن الأنظار ، ذلك أنه كان لبعضهم عائلات أو محرضون يتصلون بهم أحياناً وقد اعتادوا أن يصغوا لنصائح هؤلاء وأولئك ، على أن كثيراً من الملحقين الذين كانوا يتحركون على المسرح العالى تحت الضياء الوهاج كانوا أشباحاً لا روح فيها ولا قوة ولا شجاعة .

« ولما كان رؤساء الحكومات الكبرى يدّعون لأنفسهم ضمنياً أنهم هم المتكلمون المفوضون عن الجنس البشرى ، وأن بين أيديهم سلطات لاحد لها ، فإن من الجدير بالملاحظة أن هذه الدعوى لقيت تحديا جريئاً من الصحافة المعبرة عن الشعوب . فإن جميع الصحف تقريباً التى تقرؤها جماهير الشعب اعترضت منذ البداية على ديكتاتورية تلك الثلة من رؤساء الوزارات باستثناء الرئيس ولسون . . . . » ولن يسمح لنا ضيق المقام فى هـذه العالم أن نحدثك ها هنا كيف تقبض مؤتمر الصلح من مجلس لعشرة إلى مجلس أربعة هم (ولسون وكلنصو ولويد چورچ وأورلندو) وكيف أخذ يفقد بالتدريج سمته بوصفه مناقشة صريحة علنية لمستقبل البشرية ، حتى أصبح شيئاً فشيئاً أشبه ما يكون بمؤامرة دبلوماسية قديمة الطراز . كانت الآمال التى انعقدت على باريس وتجمعت فيها عظيمة عجيبة . ويقول الدكتور ديلون « إن باريس إبان ذلك المؤتمر كفت عن أن تكون عاصمة فرنسا ، إذ أصبحت (مسافرخانة) أو دار ضيافة دولية هائلة تعج بمظاهر غير مألوفة من الحياة والاضطراب ، مليئة بأشكال غريبة من الشعوب ، والقبائل والألسن جاءوا من القارات الأربع ليرقبوا وينتظروا ما يُخبئه لهم الغد الخفى .

وقد أضيف إلى تلك الصورة لمسة من لمسات ألف ليلة وليلة بظهور زوار من بلاد التتار وكردستان وكوريا وأذربيجان وأرمينيا وإيران وبلاد الحجاز — ما بين رجال ممن لهم لحى البطارقة وأنوف كالسيف الأحدب ، وآخرون جاءوا من الصحراء والواحة ، ومن سمرقند وبخارى . وما بين عمائم وطرابيش وقبعات شبيهة بأقماع السكر وأغطية الرءوس الشبيهة بقلنسوة الأساقفة والبدل العسكرية القديمة التى فُصلت لجيوش قامت كالجنين فى دول جديدة نشأت ليلة السلام الأبدى ، وبرانس بيضاء شاهقة البياض وجلابيب فضفاضة وثياب رشيقة تشبه التوجا الرومانية ، اجتمعت هناك فساهمت فى إيجاد جو من اللاحقيقة والوهم الحالم فى المدينة التى كان الناس يواجهون فيها ويصطرعون مع أشد الحقائق تجهما .

« ثم جاء أهل الثراء من الرجال ، وأهل الذكاء وأصحاب المشروعات وحملة بذور التنظيم الأخلاقى الجديد ، وأعضـاء لجان اقتصادية فى الولايات المتحدة وبريطانيا وإيطاليا وبولنده

والروسيا والهند واليابان وممثلو صناعات النفط ومناجم الفحم البعيـدة الشاسعة والحجاج والمجذوبون المتعصبون، ومهرجون (شرلتانون) من جميع الأجواء، وقساوسة من جميع الأديان ومبشرون بكل عقيدة، مختلطين بالأمراء والفيلد مارشالات ورجال السياسة، والفوضويين ودعاة الإنشاء والهدم. وكان كل يتحرق شوقا إلى أن يقترب من تلك البوتقة التى ستصهرفيها نظمُ العالم السياسية والاجتماعية ثم تخلق خلقا جديداً.

« وكنت فى كل يوم أثناء مرورى فى الطرقات وفى شقتى وفى المطاعم ألتى مبعوثين عن بلاد وشعوب لم يكد يسمع الناس حتى بمجرد اسمها فى الغرب إلا نادراً. وزارنى وفد من إغريق البونت إيوكسين[1]، وتحادثوا معى عن مدنهم القديمة طرابيزون وصامسون وطرابلس وكيراصوند، التى أقمت بها منذ سنوات عدة، وأخبرونى أنهم كذلك يرغبون فى أن يكوّنوا من أنفسهم جميعاً جمهورية اغريقية مستقلة، وأنهم جاءوا للحصول على طلباتهم. وكان يمثل الألبانيينَ صديقى القديم طرخان باشا من ناحية وصديقى أسعد باشا من ناحية أخرى — وكان الأول يرغب فى حماية إيطاليا ويطالب الثانى بالاستقلال التام. وكان الصينى واليابانى والكورى والهندوسى والقرغيزى واللسغينى[2] والجركسى والنجيريلى والبورياتى والملايى والزنجى والنجرويدى من أفريقيا وأمريكا من بين رجال القبائل والألسن التى اجتمعت فى باريس لتلاحظ عن كثب إعادة بناء نظام العالم السياسى وليعرفوا مكانهم فيه .... »

وإلى باريس هذه المزدحمة الزائمة التى بلغ بها الانذهال كل مبلغ والترقبة للعالم الجديد، جاء الرئيس ولسون، ووجد قواها المتجمعة، تحت سلطان شخصية أضيق منه عطناً من كل وجه وأصغر حدوداً وأقوى منه منة حتى لا مجال للمقايسة بينهما وأعنى به رئيس الوزارة الفرنسية المسيو كلنصو. وانتخب المسيو كلنصو رئيساً للمؤتمر تلبية لرغبة الرئيس ولسون. قال الرئيس ولسون « كان ذلك اعترافاً خاصاً وتقديراً لما لقيت فرنسا من آلام وبذلت من تضحيات ». ولسوء الحظ أن ذلك القول كان البشير المؤذن بنوع نغمات المؤتمر، الذى كان ينبغى ألا يشغل نفسه إلا بمستقبل البشرية.

وكان جورج بنيامين كلنصو صحافياً وسياسياً عالى السن، وكان من أعظم المشهرين بمثالب الناس وأخطائهم، وممن لهم النصيب الأوفر فى قلب الحكومات، وكان طبيباً ظل وهو يشغل

---

(١) البونت إيوكسين (Pont Euxine) : منطقة الساحل الجنوبى للبحر الأسود.

(٢) اللسغينيون (Lesghiens) : شعب يسكن بلاد القوقاز. البوريات : إحـدى الجمهوريات السوفييتية وتقع بسيبريا الشرقية.

منصب الاستشارة فى البلدية محتفظاً بعيادة مجانية ، كما كان مبارزاً عنيفاً ذا دربة وتجربة . ولم تفته واحدة من مبارزاته بالموت ولكنه كان يلقاها ثابت الجأش جم الإقدام. وكان قد انتقل من المهنة الطبية إلى صناعة الصحافة على المذهب الجمهورى فى أيام الإمبراطورية . وكان فى تلك الأيام متطرفاً ينطوى تحت حزب اليسار . واشتغل بالتدريس فى أمريكا ردحاً من الزمان ، حتى لقد تزوج من زوجة أمريكية ثم انفصل عنها . كان فى عام ١٨٧١ الحافل بالأحداث الجسام قد بلغ الثلاثين . ثم إنه عاد إلى فرنسا بعد معركة سيدان ، وألقى نفسه فى المعمعان العاصف المضطرب لذلك الشعب المقهور مُظهراً حمية عظيمة وقوة بالغة . ومنذ ذلك الحين أضحت فرنسا عالمه الخاص ، فرنسا صاحبة الصحافة القوية والخلافات الشخصية الجريئة الحادة والتحديات والمجابهات والخلافات العنيفة والتأثيرات الدرامية ، والنكات تكال مهما تكن النتائج . كان ممن صيغ من مادة حادة ملتهبة فلقبه الناس بالنمر ، ويلوح أنه كان يخالجه بعض الزهو بهذا اللقب . كان وطنياً يحترق الوطنية أكثر منه سياسياً ومفكراً ، ذلكم هو الرجل الذى نهضت به الحرب إلى أعلى علـيين . وأتاحت له أن يمثل عقلية فرنسا الممتازة وروحها الكريهة أسوأ تمثيل .

وكان لضيق عطنه أثر عميق فى المؤتمر ، الذى زاد فى تلونه باللون الدرامى اللجوء إلى جعل مكان التوقيع هو نفس قاعة المرايا بفرساى التى أعلنت فيها ألمانيا وحدتها فى كبرياء الظافر . هناك قضى على الألمان أن يوقعوا .

ولم تعد الحرب تبدو فى هذا الجو فى عين المسيو كلنصو وعين فرنسا حرباً عالمية ، بل كانت مجرد فصل ثان للنزاع القديم الذى قام فى « السنة الفظيعة » (كما يسميها الفرنسيون) وكانت السقوط والنكال الذين حلا بألمانيا الآثمة . قال الرئيس ولسون « كان من الضرورى أن نوطأ السبيل لأمن الديموقراطية فى العالم » . وكان هذا من وجهة نظر المسيو كلنصو التى عبر عنها صراحة « ضرباً من الكلام على طريقة يسوع المسيح » . إذ يجب أن يوطأ الأمن فى العالم من أجل باريس . وكان الكلام على شاكلة يسوع المسيح يلوح أمراً مضحكا جداً فى نظر العدد العديد من أولئك الديبلوماسيين والسياسيين الأذكياء — وحاشاى أن أقول المتزنين — الذين جعلوا سنة ١٩١٩ سنة ممتازة فى تاريخ انعدام الكفاية الإنسانية . (ولعلنا نذكر هنا كذلك وميضاً آخر وهاجاً لذكاء النمر ونكاته اللاذعة ، هو قوله إن الرئيس ولسون ومواده الأربعة عشر كان « أسوأ » من الله القادر على كل شىء . إذ لم تكن لله الطيب Le Bon Dieu إلا عشر وصايا فقط ...) . قال كاينز (Keynes): كان المسيو كلنصو يجلس

هو والسنيور أورلندو فى المقاعد التى تتوسط نصف دائرة تتكون من أربعة أمام الموقدة . كان يرتدى بذلة فراك سوداء وقفازين وماديين من جلد الأروى لم يكن يخلعهما قط أثناء جلسات المؤتمر . وينبغى لنا أن نلحظ أنه كان بين هؤلاء البناة الأربعة للعالم ، الوحيد الذى يستطيع أن يفهم ويتكلم الإنجليزية والفرنسية كلتيهما .

وكانت مرامى المسيو كلنصو بسيطة كما كانت من بعض أوجهها سهلة المتناول . فإنه كان يطالب بنقض كل ما أبرم فى تسوية ١٨٧١ . وكان يطلب معاقبة ألمانيا كأنما كانت شعباً آثماً إثماً فريداً فى نوعه وكأنما كانت فرنسا شهيداً بريئاً . وكان يريد أن يُفسد من حال ألمانيا ويبث فيها من الدمار ما يقعدها بعد ذلك عن أن تقف قبالة فرنسا . وكان يريد أن يؤلم ألمانيا ويحقرها أكثر مما أولت فرنسا وحقرت فى ١٨٧١ . ولم يكن يعنيه إذا كانت أوربا تتحطم إذا انحطمت ألمانيا . فإن ذهنه لم يتجاوز نهر الرين التجاوز الذى يجعله يدرك هذا المحتمل . ولقد قبل عصبة الأمم التى ارتآها الرئيس ولسون ، بوصفها مقترحا عظيما إذا كانت تضمن لفرنسا الأمنة مهما فعلت ، على أنه كان يفضل محالفة ترتبط بها الولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا للمحافظة على فرنسا وتعضيدها وتمجيدها فى أى ظرف كان . كان يريد فرصاً أوسع وأشمل لاستغلال سوريا ، وشمالى إفريقيا وما إليها على يد بعض الجماعات المالية الباريسية .

كان يريد تعويضات يضمد بها جراح فرنسا ، وقروضاً وهبات وجزيات لفرنسا ومجداً وتوقيراً لفرنسا . ذلك أن فرنسا قد قاست ولا بد لها من أن تنال جزاءها الأوفى . وكانت البلجيك والروسيا وسربيا وبولندا وأرمينيا وبريطانيا وألمانيا والنمسا قد تعذبت كلها ، كذلك تعذبت البشرية جمعاء ، ولكن ماذا يهم ؟ فإن ذلك لم يكن شأناً يعنيه . وإنْ هذه إلا أمور سطحية فى دراما تلعب فيها فرنسا فى نظره دور النجمة البطلة . . . وبمثل هذه الروح حاول السنيور أورالندو فيما يلوح أن يتقصى صالح إيطاليا .

ودخل المستر لويد جورج فى المؤتمر ومعه لباقة وخبث الرجل الويلزى ، وتعقيد الرجل الأوربى ، ومن خلفه ضرورة ملحة تقضى عليه بأن يحترم الأنانية القومية التى للتساطين (الاستعماريين) والماليين البريطانيين الذين أعادوه إلى رياسة الوزارة . وإلى خفايا هذا المؤتمر السرى ذهب الرئيس ولسون يحمل بين جنبيه أنبل المقاصد من أجل ما وضعه للعالم من سياسة أمريكية اكتشفها حديثاً ، وأعنى بها نقاطه الأربع عشرة التى يكاد يطبعها طابع التسرع ، ومشروعا عاما أكثر منه خطة تفصيلية لإقامة عصبة للأمم . « وقلما وجد رجل دولة من

الطراز الأول أكثر عجزاً من الرئيس وسط النشاط الجم المتجلى فى قاعة المجلس »[١] . ومن ذلك الهمس فى الظلام ومن المنازعات التى دارت حول الموقدة فى ذلك المجلس ، وبعد غدوات وروحات لا مجال لوصفها فى هذا المقام ، خرج الرئيس آخر الأمر ومعه نقاطه الأربعة عشرة ممزقة مشعثة بحال يبعث على الأسى ، وإنه ليحمل بين يديه طفلا عليلا هو عصبة الأمم ، التى ربما ماتت والتى قد تعيش وتنمو — فما يستطيع إنسان أن يتنبأ لها بشيء . ولكنه استطاع على أقل تقدير أن ينقذ هذه .

٣ — دستور عصبة الأمم

إن هذه القزمة الإنسانية الشوهاء الموضوعة فى قارورة حاضنة والتى ناط بها الناس الأمل فى أن تصبح آخر الأمر « إنسانا كاملا » يحكم الأرض ، هذه العصبة للأمم كما تجسدت فى ميثاق ٢٨ أبريل ١٩١٨ ، لم تكن البتة عصبة شعوب . بل كانت كما تبين العالم عصبة دول ودومنيون ومستعمرات . وكان مشترطا فى هذه كلها أن تكون ممن تحكم نفسها بنفسها أتم حكم . بيد أنه لم يكن هناك البتة أى تعريف لهذه العبارة . ولم يكن هناك أى قيد يحدد الانتخابات المقيدة ولا أى تدبير من شأنه أن يضمن قيام أى رقابة مباشرة لشعب أية دولة من الدول . شخصت فيها الهند على أساس افتراض أنها ولاية تحكم نفسها بنفسها تمام الحكم ! ولا ريب أن دولة استبداد أوتوقراطية ما كانت إلا لتقبل فى عضويتها بوصف كونها ديموقراطية تستمتع بكامل حكم نفسها بنفسها ولها انتخابات وإن كانت قاصرة على فرد واحد . وكانت العصبة التى تألفت بمقتضى ميثاق ١٩١٩ فى الواقع عصبة ممثلين لوزارات الخارجية ، وهى لم تستطع حتى أن تحل محل السفارات فى عاصمة كل دولة .

ظهرت فيها الإمبراطورية البريطانية مرة بوصفها كلا موحداً ، ثم ظهرت الهند والدومنيون الأربع (أى الممتلكات المستقلة كندا وأستراليا وأفريقيا الجنوبية ونيوزيلندا) بوصفها دولا منفصلة ذات سيادة . ثم حصلت إرلنده فيما بعد على مكان منفصل . ومن المحقق أن ممثل الهند لم يكن إلا شخصاً يعينه البريطانيون . فأما ممثلو الدومنيون فيكونون من رجال السياسة فيها . ولكن إذا كانت الإمبراطوريه البريطانية تتشرح على هذا النحو ، وجب أن يُتبدل بممثل الإمبراطورية من يمثل بريطانيا العظمى ، وكان لا بد من أن تعطى مصر أيضاً

---

(١) نقلا عن كاينز (١٨٨٣ — ١٩٤٦) : وهو اقتصادى انجليزى . كان يمثل وزارة المالية البريطانية فى مفاوضات الصلح ، واستقال احتجاجاً على الشروط المالية لمعاهدة فرساى .

حق العضوية . زد على ذلك أن كلا من ولايتى نيويورك وفرچينيا كانت من الناحية التاريخية والقانونية دويلة ذات سيادة مثل نيوزيلندا وكندا سواء بسواء . وترتب على إدخال الهند مطالبات منطقية بدخول أفريقيا الفرنسية وآسيا الفرنسية . بل إن أحد الممثلين الفرنسيين قد اقترح بالفعل منح صوت لإمارة موناكو الصغيرة .

وكان مقرراً أن تلتئم جمعية للعصبة تكون فيها كل دولة عضو ممثلة وتكون أصواتها سواسية ، ولكن الإدارة القائمة بالعمل فى العصبة كانت على أن تخول لمجلس يضم ممثلى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان ومعهم أربعة أعضاء آخرين تنتخبهم الجمعية . ويجتمع المجلس مرة فى كل عام وتكون اجتماعات الجمعية على فترات مسماة ولكن لم تسم تلك الفترات .

وفيما عدا حالات نوعية خاصة لم تكن عصبة هذا الميثاق لتستطيع أن تصدر إلا قرارات إجماعية . فإن فرداً واحداً لا يوافق فى المجلس كان فى إمكانه أن يقف أى مقترح — وهذا أشبه الأشياء بحق النقض المطلق البولندى القديم . وكان ذلك الاشتراط أمراً شديد الضرر بكيان العصبة . فإنه جعل الكثيرين من المفكرين يرغبون فى عدم وجود العصبة أكثر مما يرغبون فى عصبة الميثاق هذه . كانت اعترافا تاما بما للدول من سيادة لا يمكن التصرف فيها ، وكانت رفضاً لفكرة قيام (دولة مشتركة) تظلل البشرية . والواقع العملى أن هذا التدبير كان يسد الطريق على كل إصلاح لدستور العصبة فى المستقبل إلا باللجوء إلى طريقة مرذولة هى انسحاب غالبية الدول الأعضاء من العصبة فى وقت معاً ، ليعيدوا تكوين العصبة على أسس جديدة . وقد جعل الميثاق إيجاد مثل هذه التسوية النهائية للعصبة التى أنشأ أمراً لا مندوحة منه ، ولعل هذا خير ما فيه .

واقترح أن تستبعد من العصبة الأصلية الدول الآتية : وهى ألمانيا والنمسا والروسيا وكل ما عسى أن يتبقى من الإمبراطورية العثمانية . على أن فى الإمكان أن تدخل أى واحدة من هذه الدول فيما بعد بموافقة ثلثى أعضاء الجمعية . وكانت العضوية الأصلية فى العصبة مقصورة على : الولايات المتحدة الأمريكية والبلجيك وبوليڤيا والبرازيل والإمبراطورية البريطانية (كندا وأستراليا وجنوب أفريقيا ونيوزيلندا والهند) والصين وكوبا وإكوادور وفرنسا واليونان وجواتيمالا وهايتى والحجاز وهندوراس وإيطاليا واليابان وليبيريا ونيكاراجوا وبنما وبيرو وبولندا والبرتغال ورومانيا ودولة السرب والكروات والسلوڤان وسيام وتشيكوسلوڤاكيا وأرجواى . ويضم إليها بتوجيه الدعوة الدول الآتية التى لزمت الحياد أثناء الحرب ، وهى :

جمهورية الأرجنتين وشيلى وكولومبيا والدانمارك وهولندا والنرويج وبارجواى وإيران وسلفادور وأسبانيا والسويد وسويسرا وفنزويلا .

ذلكم دستور العصبة ، ومن ثم فلا يكاد يكون هناك مجال للعجب من أن سلطاتها كانت خاصة ومحدودة . وجعل مقرها مدينة چنيف وجعلت لها سكرتارية . ولم يكن لها أى قوة حتى فى التفتيش على الاستعدادات الحربية التى ينشئها أعضاؤها المكونون لها ، أو أن تعطى التعليمات إلى هيئة عسكرية وبحرية لوضع خطة التعاون المسلح اللازم لحفظ السلام فى العالم .

وقد أصر الممثل الفرنسى فى قوميسيون عصبة الأمم وهو المسيو ليون بورچواه فى جلاء وتكرار على الضرورة المنطقية لوجود مثل هذه القوى فى يدها . على أنه كان كخطيب مسهباً مفيضاً وينقصه شىء من حرافة المسيو كلمنصو . وإليك وصفاً محكماً للمنظر الختامى لجلسة ٢٨ أبريل الكاملة ، قبل اتخاذ الميثاق ، كما دبجه المستر ولسون هاريس : « كانت قاعة الاحتفالات المزدحمة فى الكاى دورساى (مقر وزارة الخارجية الفرنسية) بما فيها من صفوف الموائد وما فيها من سكرتارين وموظفين مصطفين بجوار الجدران وكتلة متراصة من الصحفيين فى الطرف الأدنى من القاعة . . . « وجلس الأقطاب الثلاثة فى صدر القاعة يسلون أنفسهم على حساب المسيو ليون بورچواه المحترم وقد أخذ — بمساعدة أكداس من المذكرات لا بد أنها كانت تبدو غير ضرورية بتاتاً ، يلقى لخامس مرة خطابه الذى يناصر به تعديلاته الشهيرة » .

ولقد أكثروا من تسلية أنفسهم بالتهامس وأعنى بهم هؤلاء الثلاثة الذين كان من سخرية الأقدار أن ألقت بين أيديهم مقاليد أعظم فرصة أتاحها التاريخ . ويعطينا كاينز أمثلة أخرى للطيش والطابع السوقى وعدم مراعاة الشعور وقلة الالتفات وهدم الكفايات فى هذه الجلسات .

وعاد هذا الميثاق المسكين الذى وصلوا إليه على هذه الشاكلة إلى أمريكا بصحبة الرئيس ولسون ، وهناك لقى كل رفض ومعارضة من الحزب الجمهورى وكل خصومة من الرجال الذين أهملوا فى الرحلة إلى أوربا . وأبى مجلس الشيوخ أن يصادق على الميثاق ، وعلى ذلك فقد عقد أول اجتماع للعصبة من غير حضور الممثلين الأمريكيين .

وشهدت خاتمة ١٩١٩ وبداية ١٩٢٠ تغيراً عجيباً جداً يلحق الشعور الأمريكى بعد التحمس للإنجليز والفرنسيين إبان الحرب . وقد ذكرت مفاوضات الصلح الأمريكيين ، بطريقة مضطربة مثيرة للغضب ، عما يفرق بينهم وبين الدول الأوربية من الفوارق العجيبة

فى وجهة النظر الدولية ، وهى الفوارق التى ساعدت الحرب على نسيانهم إياها ردحاً من الزمان . إذ أحسوا أنهم دفعوا دفعاً سريعاً إلى أمور كثيرة دون ما يكفى من التروى وإعمال الفكر . ومر بهم تحول عنيف نحو سياسة الانعزال التى حطمت فى ١٩١٧ . وشهدت خاتمة ١٩١٩ دوراً ، دوراً واضح الدلالة مفهوماً من أدوار التمسك بالعزلة الأمريكية حاداً قاسياً يكاد يبلغ العنف ، كانت فيه الاشتراكية الأوربية والتسلطية (الاستعمار) الأوربية على السواء أمرين لعينين . وربما كان هناك عنصر من الخسة فى ميل أمريكا إلى قطع المسئوليات الخلقية التى أثارتها الولايات المتحدة فى شؤون العالم القديم ، وفى إدراك المزايا الهائلة المالية والسياسية التى خولتها الحرب العالم الجديد . على أنه يلوح أن سليقة الأمريكيين كانت فى مجملها سليمة صحيحة فى عدم ثقتهم بالتسوية المقترحة .

٤ – معاهدات ١٩١٩ – ١٩٢٠

تجسدت قرارات فرساى فى مجموعة من المعاهدات . وإنا لنقدم إليك هاهنا أولا خريطة تمثل التقسيمات الأرضية التى أوجدتها معاهدة الصلح مع ألمانيا . ويعطيك قلم المستر هوراَبين الواضح الحقائق الضرورية بشكل أوضح مما يستطيع أن يبلغه أى شرح . زد على ذلك أنه اشترط وجوب نزع السلاح من ألمانيا نزعاً عظيما ، وأنها يجب أن تسلم أسطولها وأن تدفع تعويضات حربية عظيمة ، وأن تدفع مبالغ طائلة لإصلاح ما دمرته الحرب ، وكان على لجنة متحالفة أن ترعى عملية نزع السلاح . وكان الأسطول على أن يُسلم للبريطانيين فى ٢١ يونية ١٩١٩ ، ولكن الضباط والنوتية لم يطيقوا مثل هذه الفعلة ، وبدلا من أن يسلموه أفلتوا به وأغرقوا سفنهم عند (سكا بافلو) على مرأى من البريطانيين .

ومزقت إمبراطورية النمسا والمجر تمزيقا تاماً . وبقى من ورائها دويلة صغيرة هى النمسا التى تعهدت بعدم الانضمام إلى ألمانيا . ودويلة أخرى مشذبة مقطعة الأوصال هى المجر ، وامتدت رومانيا امتداداً بالغاً بعد تخومها الشرعية حتى سويداء ترنسلفانيا . وتلقت بولندا غالب غاليسيا وعادت بوهيميا بعد إضافة سلوفاكيا ومورافيا فظهرت تحت اسم تشيكوسلوفاكيا . وأصبح الصربيون والكرواتيون وسكان الجبل الأسود (مع معارضة ضعيفة من الأخيرين) دولة يوغوسلافية جديدة ، وابتدأ بينها وبين إيطاليا للفور نزاع عنيف على مرفأ فيوى ، الذى ادعى الإيطاليون ملكيته دون أى وجه حق .

وبقيت بلغاريا على قيد الحياة بعد أن أخذت منها اليونان الأراضى التى استولت عليها

حديثاً فى تراقيا . فأما بلاد اليونان فإنها بالرغم من خيانتها لحملة غاليبولى ، ظلت ردحا من الزمان الطفل الذى يدلله الدبلوماسيون فى ڤرساى . فأعطيت أرضاً مأخوذة من بلغاريا وسمح لها بأن تتقدم حتى تصبح على قيد خطوة من القسطنطينية ، وكان من نصيبها قطعة كبيرة من الأرض حول مدينة أزمير . ومع هذا فإنها لم تسترد رودس وجزائر الدوديكانيز ، بالرغم من أنها يونانية صميمة . إذ كانت هذه على أن تكون جزءاً من السلب الإيطالى . وتمسك البريطانيون بقبرص .

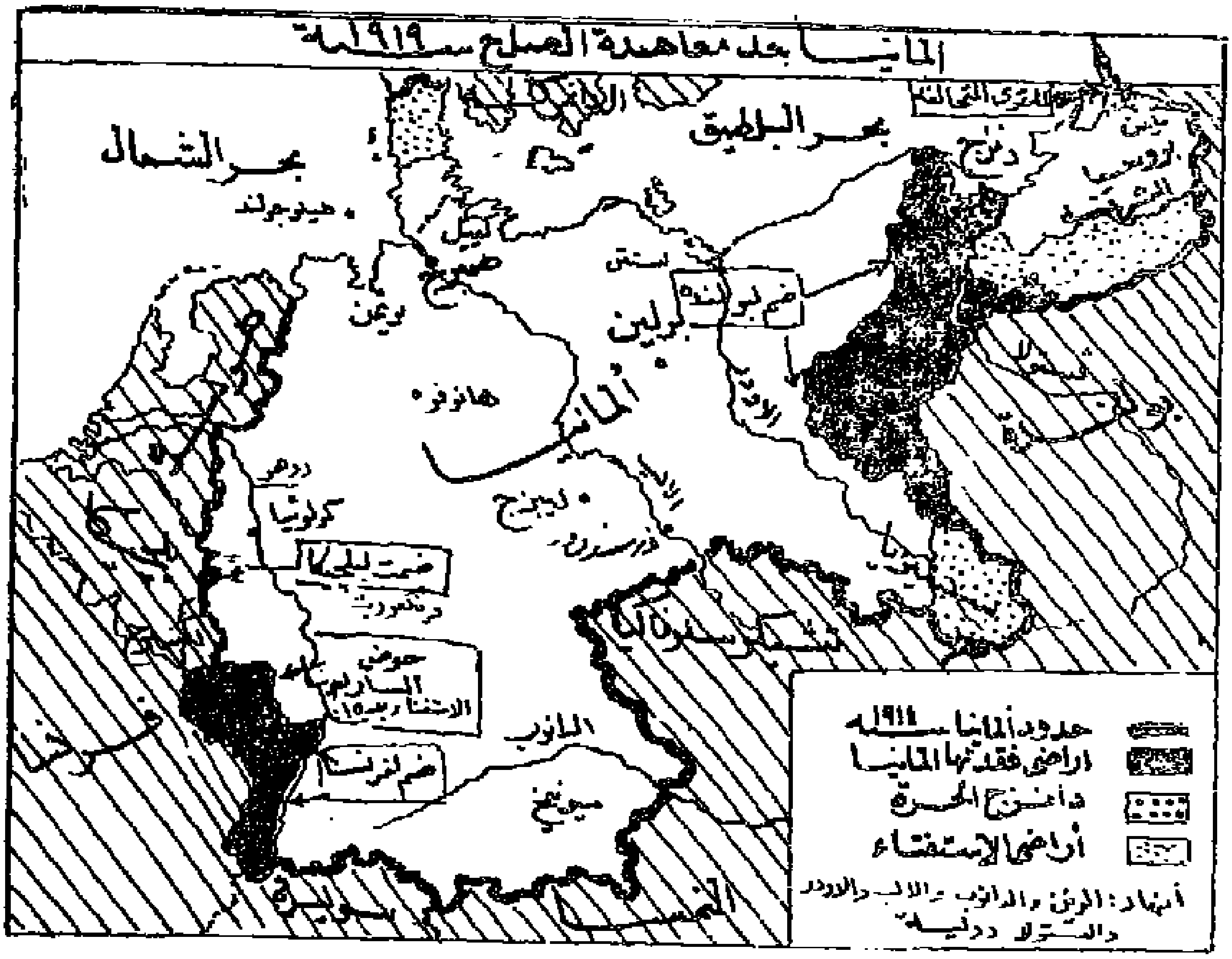

(شكل ٢١٨)

وكانت المعاهدة التركية عسيرة الإنشاء مستحيلة التنفيذ . وقعت عليها حكومة تركية اسمية فى القسطنطينية ، ولكن حكومة تركية حقيقية أخرى تكونت فى أنقرة ورفضت أن توقعها . وغزا جيش روى منطقة أزمير ، وحلت معاهدة تركية أخرى هى معاهدة سيڤر (أغسطس ١٩٢٠) محل المعاهدة الأولى . وعقبت ذلك تنقلات معقدة فى الهيمنة على الأراضى . وأقيم فى القسطنطينية رقابة مشتركة للحلفاء (يناير ١٩٢١) ، وتبخرت حكومة القسطنطينية التركية ، وافتتحت الحكومة التركية الأساسية فى أنقرة علاقات سياسية مع البلاشفة فى موسكو . وزاد عدوان اليونان ، لما كانوا يلقونه من خلفهم من صنوف التشجيع المبهم .

وحاول اليونان فى فترة تضخم الأطماع هـذه أن يستولوا على القسطنطينية . وشرعوا فى هجوم عظيم على أنقرة يرمون من ورائه إلى القضاء على الأتراك إلى الأبد . وتقدم هجومهم حتى اقترب من أنقرة ثم تزلزل وتداعى . ومنذ أغسطس ١٩٢٢ فما عقبها لم يكن منهم إلا التقهقر والفرار أمام الأتراك . وفر مع الجيوش حشود مذعورة من السكان اليونانيين الآسيويين . ولم يبق لليونان شىء فى آسيا . فأخليت أزمير قبل نهاية سبتمبر ، وغادر آسيا ما يقارب المليون عداً من اللاجئين اليونان جنساً ولغة ولم يعودوا إليها بعد ذلك أبداً .

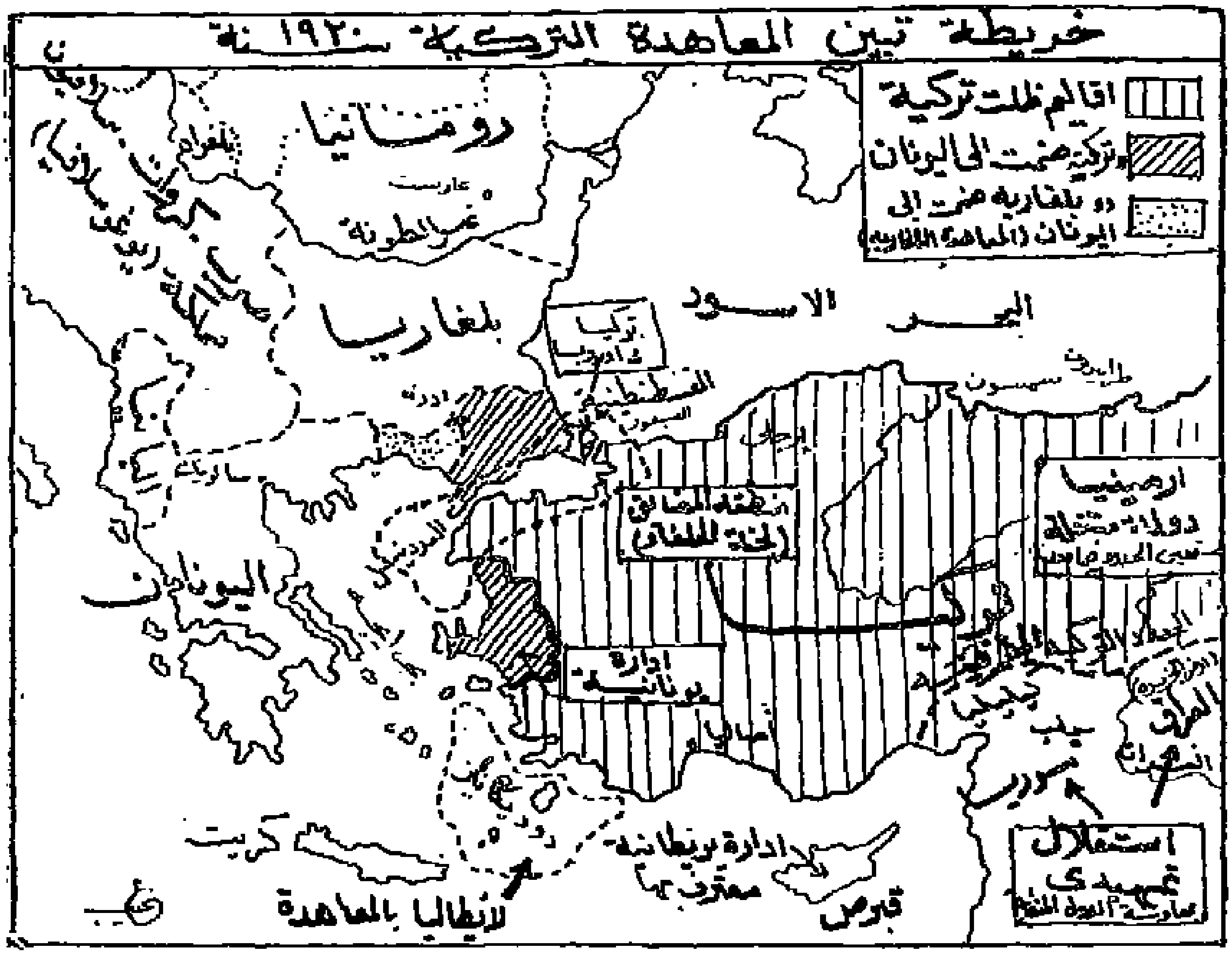

(شكل ٢١٩)

وحيوية الأتراك فى هذا الدور رائعة جديرة بالاعجاب . فإن التركى لم يكن يقوم فحسب بدفع اليونان المعتدين عليه إلى الخلف ، بل كان — جريا على تقاليده التى ورثها أمد العصور — يذبح الأرمن ، كما كان يدفع بالفرنسيين خارج قيليقيا . ومن بين الآيات الكثيرة الدالة على اصطباغهم بالروح العصرية أن تخلص الأتراك من السلطان وأنشئوا حكومة جمهورية الطراز . وأظهروا الرغبة فى القتال فى منطقة المضايق واسترجعوا القسطنطينية . وواضح أنه كان من مصادر القوة لهم لا الضعف ، انقطاعهم تمام الانقطاع عن النزاع الطويل الأمد غير المجدى مع العرب . وفصلت سوريا وأرض الجزيرة فصلا تاما عن الحكم التركى . وجعلت فلسطين ولاية

منفصلة داخل الدائرة البريطانية ، وخصصت وطناً قومياً لليهود . وانهال إلى داخل الأرض الموعودة فيض من فقراء اليهود ماعتم أن وقع فى كفاح خطير فى مع السكان العرب . وكان العرب قد تماسكوا ضد الأتراك وألهموا فكرة الوحدة القومية بوساطة جهود عالم شاب من من أكسفورد هو الكولونيل لورنس . فأما حلمه بقيام مملكة عربية تتخذ دمشق عاصمة لها فقد حطمه للفور سُمار الفرنسيين والإنجليز على مناطق انتداب ، وانتهى الأمر بأن تقلصت مملكته العربية إلى مملكة الحجاز الصحراوية الجرداء ، وإلى إماميات وإمارات وسلطنات أخرى متنوعة ضعيفة . فلو حدث يوما ما أنهم توحدوا وأنهم كافحوا حتى بلغوا المدنية فلن يكون ذلك وظل الرعاية الغربية مبسوط عليهم .

وإذا راعينا تلك السمة الوقتية التى تتسم بها التسويات التى أنجزها الديبلوماسيون ، راعنا على الفور وهن ديبلوماسيتهم وأدركنا القُوى القوية الجبارة التى قضت على مناوراتهم وترتيباتهم . وروعنا أكثر وأكثر ما بدا للمثل الدولية العليا الجديدة التى أدخلها الرئيس ولسون فى العلاقات الأوربية من قلة تأثير تدل على الجهل المطبق . فإن هذه المعاهدات تركت

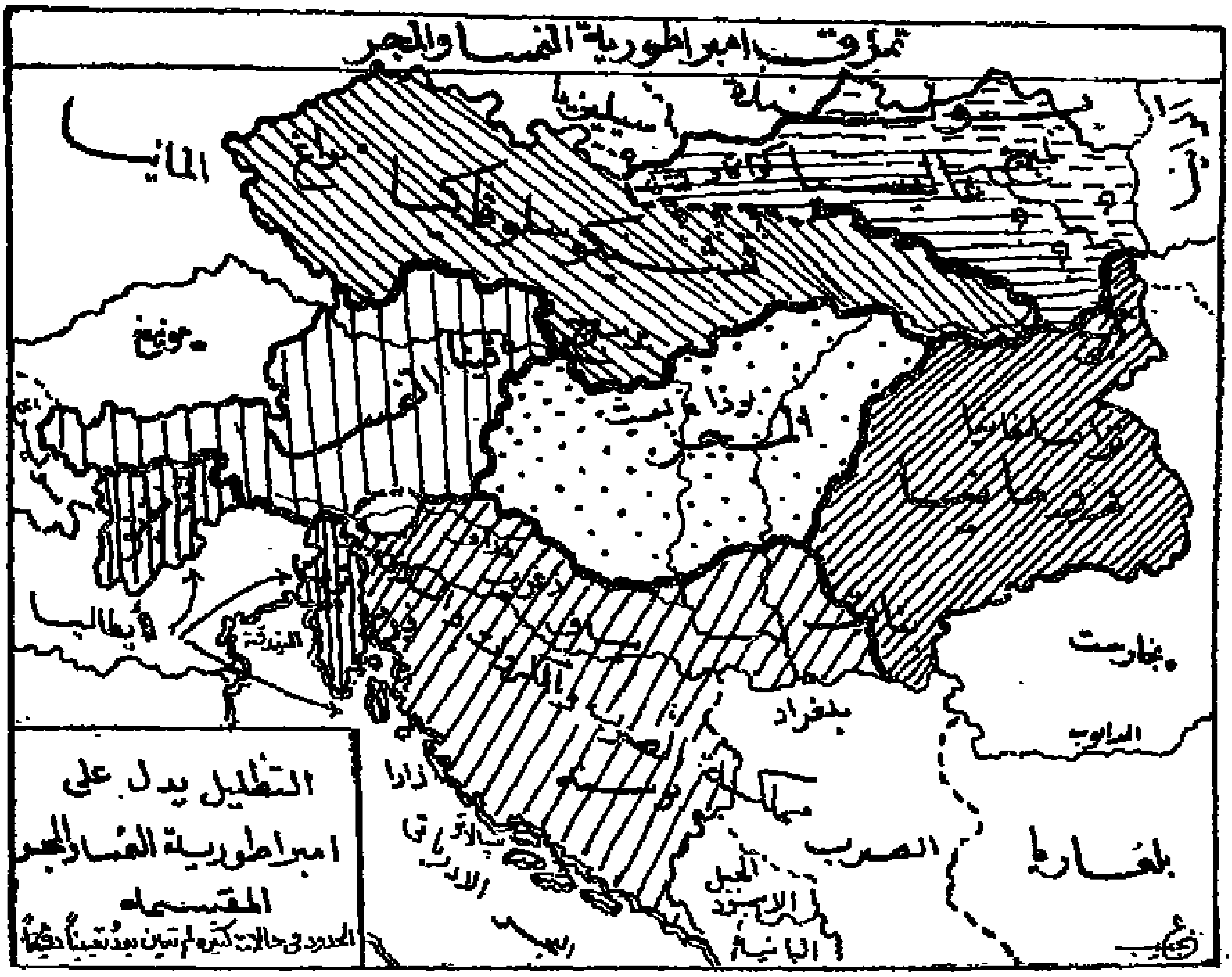

(شكل ٢٢٠)

نقاطه الأربعة عشرة كصف من المنازل المخربة المهدمة فى قرية أصيبت بالقنابل . فذهب بعضها ذهابا لا رجعة له وشوه البعض حتى لا يكاد الناس يميزونه . وضاعت أول محاولة لإنتاج قانون عالمى كما تضيع موجة من الضحك الصاخب فى حانة من الحانات .

ومن أهم العقبات الدائمة التى أدت إلى فشل ذلك المشروع العظيم الهادف لوحدة العالم ، ذلك المشروع المعبر عن الرغبة العالمية فى إيجاد سلم منظم ، ما كان من تمام عدم الاستعداد وتمام عدم الرغبة اللذين أبدتهما الإمبراطورية البريطانية تلك العصبة القديمة للأمم والدول المقهورة والمناطق المستغلة وما كان من عدم قبولها الخضوع لأى تجزئة وتكييف لنظامها ، أو لأى رقابة على تسليحها البحرى والجوى . وثمة سبب مماثل هذا يرجع إليه هذا الفشل هو عدم استعداد الذهن الأمريكى هو أيضاً لقبول أى تدخل فى شأن سيادة الولايات المتحدة على العالم الجديد .

ولعل واحدة من هاتين الدولتين العظيمتين اللتين كانتا بالضرورة الدولتين المتسلطتين الزعيمتين فى باريس ، لم تفكر تفكيراً صحيحاً فيما ينطوى عليه قيام عصبة للأمم بالعلاقة إلى هذه التنظيمات القديمة ، ولذا فقد كان يظلل تعضيدها لهذا المشروع جو عجيب من النفاق فى أعين معظم النظارة الأوربيين . فكأنما كانتا تريدان الاحتفاظ والتمكين لسيادتهما وأمنتهما الخاصة الهائلة مع الحد فى نفس الوقت من تقدم أية دولة أخرى إلى ميدان مثل هاته التوسعات والاستلحاقات والمحالفات تقدما ربما ترتب عليه قيام استعمار آخر منافس مناهض . وكان امتناعهما عن إقامة مثال من الثقة الدولية قاتلا لكل احتمال فى قيام الثقة الدولية فى الدول الأخرى الممثلة فى باريس . وأنكى من هذا وأتعس رفض الأمريكيين الموافقة على طلب اليابان الاعتراف بالتساوى العنصرى بين الأجناس .

زد على ذلك أنه كان يخيم على وزارات الخارجية البريطانية والفرنسية والإيطالية جو خانق من الخطط التقليدية القائمة على اعتداء لا يتسق البتة مع الفكرات الجديدة . وكانت وجهة نظر الفرنسيين والإيطاليين متخلفة أشواطا كثيرة عن وجهة نظر الانجليز والأمريكيين أنفسهم فى حدة أنانيتهم القومية . ولا بد لأى عصبة أمم إذا أريد أن تكون لها أية قيمة للإنسانية من أن تحل محل النزعات التسلطية ، فهى إما أن تكون تسلطية عليا وإمبراطورية عالمية أسمحية من الدول المتحدة ، تشترك بعضها مع بعض أو يتولى الوصاية بعضها على البعض وإلا فهى لا شىء . على أنه قل بين الرجال الذين حضروا مؤتمر باريس من كان له من قوة الذهن ما يهيئ له أن يعبر عن هذه العاقبة الواضحة المنبعثة من مقترح إنشاء العصبة .

ذلك بأنهم أرادوا أن يكونوا مقيدين وأحراراً فى نفس الوقت ، وأن يضمنوا السلام إلى الأبد على أن يحتفظوا بأسلحتهم فى أيديهم . وبناء على هذا فإن المشروعات القديمة التى كانت تستهدف ضم الأراضى فى أيام الدول العظمى قد سُترت فى عجلة بستار رقيق من الخداع بأن وصفت بأنها من التصرفات التى يقترحها ذلك الطفل العليل المولود فى ٢٨ أبريل . ومن ثم صُورت هذه العصبة الحديثة الميلاد الخامدة الأنفاس صورة من يوزع — بكل ما بيديه البابا المأسور من دلائل السخاء الأهوج — الانتدابات على الدول الاستعمارية القديمة ، إلى حد أنها لو كانت تمثلت هيئة هرقل الفتى الجبار الذى كنا نود لو اتخذت صورته حقا — لمات فى مهاده اختناقا . وتقرر أن تعطى بريطانيا انتدابات عظيمة فى أرض الجزيرة وأفريقيا الشرقية ، وأن تعطى فرنسا مثل ذلك فى سوريا . وأن تعطى ايطاليا كل ما بيدها فى غرب مصر وجنوبيها الشرقى بعد أن يضم بعضه إلى بعض ليكون أرض انتداب .

وواضح أنه لو كان ذلك العليل الضعيف الذى عرضه سكرتيره فى مهده بجنيف ، آملا أن يدب فيه شىء يشبه دبيب الحياة ، قد قضى نحبه للفور بسبب ضعف الطفولة الذى يصيب كل مؤسسة تولد بلا حماسة ويقضى عليها ، لأصبحت كل هذه الانتدابات أراضى مضمومة ضما صريحا . زد على ذلك أن جميع الدول أخذت تتدافع فى المؤتمر بالظفر والناب طلبا لحدود ذات قيمة استراتيجية — وهذا لعمرى أقبح مظهر لهم ، لماذا تريد دولة من الدول الحصول على حدود استراتيجية مالم تكن تضمر التفكير فى الحرب ؟ وعلى أساس هذه الحجة أصرت إيطاليا ، مثلا على ضرورة وجود سكان من الألمان خاضعين لها فى التيرول الجنوبى وسكان تابعين من اليوغوسلافيين فى دالماسيا .

وأشد خطورة على مدى الزمان من هذه التسويات الجغرافية السيئة فرضهم على ألمانيا مبالغ للتعويضات تتجاوز كل مقدرتها على الدفع ، مخالفين بذلك أسس التفاهم الصريحة التى سلمت بمقتضاها . فاضطرت إلى موقف من العبودية الاقتصادية . ووضعوا على عاتقها أحمال أخذهم منها تعويضات هائلة دورية مستحيلة التنفيذ ، ونزع منها السلاح ، وكان وجود هذا النقص فيها كافياً لتعريضها تعريضاً فعلياً لأى اعتداء من ناحية دائنيها . ولم تستبن إمكانيات هذه التسوية تماما إلا بعد مرور سنة أو ما يزيد على السنة . ثم عجزت ألمانيا عن الدفع ، وفى يناير ١٩٢٣ تقدم الفرنسيون بجيوشهم إلى وادى الرور ، وظلوا فيه حتى أغسطس ١٩٢٥ ، وهم يستغلون المناجم على أحسن ما يستطيعون ، ويديرون السكك الحديدية ، وينكأون قروح الألمان المؤلمة بعثات لا محيص منها من صغار المظالم وأعمال العنف .

ولسنا بداخلين هنا فى أى تفصيل عن عواقب أخرى معينة لما طبعت عليه معاهدة فرساى من العجلة والاطمئنان فى التصرف — وكيف خضع الرئيس ولسون لليابانيين وأقرحلولهم محل الألمان فى كياوتشاو ، وهى من خالص أملاك الصين . وكيف أن مدينة دانزج الألمانية الصميمة تقريباً ، قد ألحقت ببولندة إلحاقاً عملياً إن لم يتم ذلك قانونياً . وكيف تنازعت الدول حول ادعاء التسلطيين (الاستعماريين) الإيطاليين ، ذلك الادعاء الذى قوته هذه التصرفات — فى الاستيلاء على مرفأ فيومى اليوغسلافى وحرمانهم اليوغوسلافيين بذلك من ثغر جيد على البحر الأدرياتى . واحتل المدينة متطوعة من الإيطاليين بقيادة الشاعر دانونزيو ، وأقاموا فيها جمهورية من العصاة ، حتى ألحقت بإيطاليا نهائياً فى يناير ١٩٢١ .

كذلك لن نتجاوز حد النظرة إلى التنظيمات والتبريرات المعقدة التى وضعت وادى السار فى يد الفرنسيين ، وهو أرض ألمانية بحتة — ولا عن الاعتداء الصارخ على حق تقرير المصير الذى يمنع النمسا الألمانية — منعاً فعلياً من الاتحاد مع سائر ألمانيا مع أن اتحادها وإياها أمر طبيعى صائب لا غبار عليه .

٥ — البلشفية فى الروسيا

سبق أن لحظنا ثورتى ١٩١٧ الروسيتين . وقد آن لنا أن نعالج بعيار أوفى ذلك التغير الخارق المعتاد الذى غير اتجاه الأمور فى الروسيا فى ذلك الزمان . ولم يكن ذلك التغير إلا انهيار المدنية الغربية العصرية فى الروسيا . ولكن ما استولى على مقاليد الشعب الروسى كان أمراً يتجاوز كثيراً حدود تجربة اشتراكية . إذ كان لها مظهر خادع ، يظهرها كأنما هى امتحان قاطع عملى لفكرة الاشتراكية الغربية . والواقع أنها أظهرت بالفعل نفس نقائص النظرية الاشتراكية التى وجهنا إليها النظر فيما سلف ، كما أظهرت بوجه خاص عقم مدرسة ماركس الاشتراكية . كذلك أثبتت صحة المبدأ القائل بأن أية ثورة لا تستطيع أن تخلق شيئاً لم يناقش ولم تدبر خططه ، ولم يفكر الناس فيه مقدماً ولم يفسروه على أوفى وجه قبل شروعهم فيه . وإلا لم تزد الثورة عن أن تحطم حكومة أو أسرة مالكة أو منظمة من المنظمات ، — حسبما يكون الحال . وإنما الثورة عملية طرد واستبعاد وليست عملية خلق .

وقد أدلينا إليك ببيان عن نمو الفكرات الاشتراكية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وعن الدور الكبير الذى لعبته فى هذا التطور فكرات « حرب الطبقات » التى ارتآها كارل ماركس . وكانت هذه الفكرات تداهن الكبرياء وتثير الأطماع لدى الأشخاص المتذمرين

الأشد همة فى كل مناطق العالم الصناعية . وأصبحت الماركسية فى كل مكان عقيدة العامل الصناعى القلق . ولكن لما لم يكن فى المبدأ الاشتراكى أى لذة كبيرة للفلاح ، الذى يملك أو يريد أن يملك الأرض التى يزدرع ، ولما كانت المجتمعات الكبيرة فى المدن بأوربا الغربية وأمريكا تتكون من الناحية العقلية من أفراد من الطبقة الوسطى أكثر منهم من الطبقة الصناعية ، فإنه سرعان ما أدركت الماركسية أن الثورة الاجتماعية والاقتصادية التى يدبرون لم تكن لتستطيع أن تنتظر الأساليب البرلمانية وأصوات الأغلبية ، فلا بد لها قبل كل شىء من أن تكون ثمرة عمل أقلية ، أقلية من عمال الصناعة ، الذين يقبضون على زمام السلطة ، ويؤسسون نُظماً شيوعية ، وبذا يدربون العالم على سعادة العصر الذهبى[1] ، التى تعقب ذلك . وهذا الدور من حكم الأقلية المرجو منه أن ينتج العصر الذهبى المنتظر كان يسمى فى مصطلح الماركسيين باسم ديكتاتورية البروليتارية .

فإن رجالاً من المتعصبين كانوا فى كل مكان ، وبنشاط الداعية المتعصب ، يفنون حياتهم وطاقاتهم فى بث تلك الفكرة لا يبتغون على ذلك أجراً . وربما كان هناك فى العشرات الأولى من سنى القرن العشرين ما يقارب المليون عدا من الرجال المقتنعين بأنه إن تم الأمر لهذه الديكتاتورية البروليتارية التى يفكرون فيها تفكيراً مبهماً غير واضح ، لأعقب ذلك نظاماً اجتماعياً جديداً أحسن من سابقه يكاد ظهوره يتم تلقائيا بطريقة أوتوماتية . وقد سبق أن أظهرناك فى مناقشتنا للاشتراكية كم كانت هذه الفكرة خداعة أخاذة .

ولم يكن لدى الماركسيين أى خطط واضحة مستقرة عن أجر العامل ولا عن المناقشة العلنية ولا عن الإدارة الاقتصادية يوم يتم تحطيم الرأسمالية . وقد دبرت الحلول لكل هذه الأشياء على طريقة كانت ولا شك غير عادلة وتقوم على الخبرة الشخصية دون الأسس العلمية ، ولكنها كانت مع هذا طريقة عملية ، وأعنى بها نظام الرأسمالية الفردية . ولم ينتج الماركسيون أبداً أى بديل لهذه الطريقة ، التى تدار بها تلك المسائل ، ولم يبد عليهم أنهم أدركوا أن الناس بحاجة إلى طريقة جديدة بدل الأولى . والواقع أنهم قالوا للعمال : «سلمونا السلطة ، يتم كل شىء» . وغلب اليأس على الروسيا فاستسلمت إلى ديكتاتورية البروليتارية وقد عذبها وبدد مواردها وتخلى عنها الحلفاء الذين خدمت بغاية الاخلاص .

وقد تفاوت عدد أعضاء الحزب الشيوعى فى الروسيا ، فإنه لم يدع حتى زمن قريب جداً

(١) العصر الذهبى : يشير المؤلف إلى الألف السنة المذكورة فى الإصحاح العشرين ١ — ٥ التى يعتقد أصحاب مذهب الألف عام السعيدة أن المسيح سوف يحكم الأرض فيها ومعه قديسوه .

أن له أكثر من ٨٠٠,٠٠٠ نصير ، بل لقد كانوا فى الزمان الذى نتكلم الآن عنه يقلون فيما يرجح عن ربع المليون . ولكن هذه الهيئة الصغيرة نسبياً ، استطاعت بما لها من عزم وإصرار وإخلاص ، ولأنه لم يكن هناك شىء غيرها يتصف بالعزم والاخلاص أو يتسم بالقدر الكافى من الاقتدار فى كل تلك البلاد غير المنتظمة ويستطيع أن يقف فى وجهها ، استطاعت أن تقيم أسسها فى بطرسبرج وموسكو ومعظم مدن الروسيا ، وأن تحصل على تعلق نوتية الأسطول (الذين قتلوا معظم ضباطهم واحتلوا قلاع سفاستبول وكرونستاد) ، وأن تصبح الحاكم الفعلى للروسيا .

ونشأ ثمة دور من حكم الإرهاب . إذ يدعى البلاشفة أنه لم تكن لهم مندوحة من أن يحكموا البلاد بادىء بدء بالرعب والإرهاب . إذ كان انحلال النظام الاجتماعى فى البلاد بالغاً منتهاه . فإن الفلاحين قد ثاروا فى مناطق كبيرة ضد أصحاب الأراضى ، وقام بعض الناس بتقسيم المزارع الكبيرة واطرد حرق القصور على شاكلة ما حدث فى الثورة الفرنسية الأولى . واجترح الكثير من الفظائع البشعة . فاستولى الفلاحون على الأراضى وقسموها بين أنفسهم ، وهم على تمام الجهل بتعاليم كارل ماركس فى هذا الصدد . وفى نفس الوقت أخذ مئات الألوف من الجنود يضربون فى الأرض من منطقة الحرب إلى قراهم ، وأسلحتهم فى أيديهم . وكانت حكومة القيصر قد جندت عدداً بلغ الثمانية الملايين — وهو عدد يفوق بكثير عدد من كانت تستطيع أن تسلحه من الرجال أو تدفع به إلى الميدان — وكانت اقتلعتهم من قراهم ، وأضحت جماهير عظيمة من هؤلاء المقترعين قطاعا حقيقيين للطرق يعيشون فى بلاد الريف . وقد غصت موسكو فى أكتوبر ونوفمبر من ١٩١٧ بمثل هؤلاء الرجال . فكونوا من أنفسهم عصابات مترابطة وأخذوا يطرقون المنازل ينهبونها ويعتدون على الأعراض فيها فلا يعترض أحد سبيلهم . وتلاشى القانون والنظام وأداة الحكم من الوجود . وكان الرجال المسروقون والمقتولون يرقدون لقى مهملا فى الشوارع أياما متتالية .

ولزام علينا أن نتذكر أن تلك هى حال الأمور يوم تقلد البلاشفة مقاليد الحكم . ولم يكن هذا الحال ناشئاً عن اغتصابهم للسلطان . ولقد قضوا زمانا يحاولون إعادة النظام ، وكان كل من يضبط حاملا سلاحا يقتل رمياً بالرصاص . فقبض على آلاف وأعدموا ، ومن المشكوك فيه أنه كان فى الإمكان رد النظام إلى شبه نصابه فى موسكو دون الالتجاء إلى مثل هذا الإجراء . وقد بلغ من تفكك عرى الروسيا القيصرية أن تقوض صرح النظام العمومى وعاداته . « كانوا مضطرين أن يقتلوا الناس بالرصاص » ، ذلك ما قاله الرئيس مازاريك مرة لكاتب

هذا الكتاب ثم أضاف قوله : « ثم تواصل القتل بقساوة وبغير تعقل » .

وفى ربيع ١٩١٨ كان البلاشفة تمكنوا من السيادة على المدن الكبرى ، وعلى السكك الحديدية والسفن فى معظم الروسيا ، وثمة جمعية تأسيسية حلت وشتت أفرادها فى يناير ، ذلك أن البلاشفة لم يستطيعوا العمل معها . إذ كان فرط التفرق — فيما زعموا — رائدها فى مراميها ومشوراتها بحيث يعوق كل عمل قوى . وفى مارس أبرموا مع ألمانيا الصلح فى برست ليتوفسك وهو صلح الخاضع الذليل .

وكان على رأس الديكتاتورية البلشفية التى نصبت نفسها آنذاك لحكم الروسيا لينين ، وهو رجل عالى الهمة شديد النشاط متوقد الذكاء قضى معظم حياته مبعداً فى لندن وجنيف ، مشتغلا بالمضاربات السياسية وبالسياسة الغامضة الخفية للتنظيمات الماركسية الروسية . كان رجلا من أصحاب المبادىء النظرية البحتة على تمام الشرف طهارة الذيل ، يعيش عيش البساطة ولا يكل ولا يمل ، ولم تكن لديه أى خبرة بالإدارة العملية للشئون . وكان يشترك معه فى العمل تروتسكى وهو شخص مبعد عن نيويورك ، قدر له أن يظهر للفور اقتداراً عسكريا عملياً جسيما . وكان راديك ولونارخارسكى وزينوفييف وزورين وكامينييف وكراسين بين الأعضاء البرزين فى الطائفة القليلة التى نصبت نفسها آنذاك لإعادة تنظيم الروسيا وإنهاضها من الكبوة الكارثة التى أوقعتها الحرب بين براثنها وجعلها أمة تستظل الحقبة الذهبية الشيوعية .

وفى بادىء الأمر كانت أطماع زعماء البلاشفة تتجاوز الروسيا كثيراً . إذ ليس العمل فى الروسيا على درجة من الكبر تستغرق نشاطهم . فأعلنوا الثورة الاجتماعية فى أرجاء العالم قاطبة ، وأهابوا بالعمال فى كل مكان أن يتحدوا ، وأن يقلبوا نظام الرأسمالية ، وبذلك يجلبون عصر الماركسية الذهبى ، الذى لا شكل له ولا خطة . وطبيعى أن يقذف بهم هذا الاجراء إلى معمعان النزال ضد كل الحكومات القائمة . فأضاف إلى عبء تأسيسهم الشيوعية فى الروسيا عبئاً جديداً هو المحافظة عليها ضد سلسلة من الهجمات المضادة التى تعرضت لها من جراء تشهيرها ذاك بالحكومات الأجنبية .

ولم تمض سنتان أو ثلاثة حتى تجلى فشل الروسيين فيما حاولوا أن يقيموا من شيوعية عملية ، كما تجلى فى تلك السنين عقم المبادىء الماركسية تاما بالغاً . لم يستطيعوا أن ينهضوا الروسيا على قدميها ثانية . ولقد عجزوا تمام العجز عن أن يرجعوا دولاب الصناعة الروسية المحطمة إلى الدوران . وكان معظم زعمائهم من الطراز الذى يكتب ويتكلم ، دون أن تكون له أية خبرة فى إدارة الأعمال وتنظيمها .

ولقد حملهم كرههم الأعمى للطبقات الأخرى فى مبتدأ حكمهم أن يقضوا على معظم من كان باقيا فى الروسيا من أفراد طبقة مديرى المصانع والخبراء الفنيين ورؤساء العمال ومن إليهم . ولم يكن لديهم أى عرفان منظم كما كان غرور أصحاب المبادىء الماركسية النظرية البحتة يحملهم على احتقار كل عرفان يجهلونه عن سيكولوجية العامل فى عمله . بل لم يكن بين أيديهم تلك المعرفة العملية التى تهيأت للرأسمالية القديمة التى يحتقرون . وكل ما كانوا يعرفونه فى ذلك الشأن هو سيكولوجية العامل أثناء الاجتماعات الحافلة فحاولوا أن يسيروا بالروسيا بطريق الحث والتحضيض ، ولكن لم يستجب لهم لا العامل عند ما عاد إلى مصنعه ولا الفلاح يوم رجع إلى غيطه . وأخذ النقل والإنتاج الميكانى فى المدن يهبط باطراد حتى تزعزت أركانهما وهوى بنيانهما وشرع الفلاح ينتج لنفسه ما يكفيه ويخفى ما زاد على ذلك .

وعند ما زار كاتب هذه السطور بطرسبرج فى ١٩٢٠ شهد منظرا مدهشا من الدمار . كانت تلك هى أول مرة تنهار فيها مدينة عصرية على هـذا النحو . فإن شيئاً واحداً لم تمتد إليه يد الإصلاح فى مدى أربع سنوات . وكانت هناك حفر عظيمة فى الشوارع التى سقط سطحها فى المجارى المتهدمة ، وكانت أعمدة المصابيح ملقاة حيث سقطت ، ولم تكن فى المدينة دكانة واحدة مفتوحة ، وكان معظمها مقفلا بألواح خشبية تظهر نوافذها (فترينتها) المكسورة . وكان المارة فى الطريق على قلتهم يرتدون ثيابا رثة غير متجانسة ، إذ لم تكن هناك فى الروسيا ثياب جديدة ولا أحذية جديدة . وكان كثير من الناس يرتدون لفائف من الليف حول أقدامهم . وكان الناس والمدينة وكل شىء رثا باليا . بل إن (القوميسيرين)[1] البلاشفة أنفسهم كانوا يسيرون بذقون خشنة إذ لم تكن المواسى تصنع فى البلاد ولا تستورد . وكانت نسبة الوفيات هائلة ، وكان عدد سكان هـذه المدينة التى جرى عليها القدر المحتوم يتناقص بمئات الآلاف كل عام .

وهناك أسباب كثيرة تدعو إلى الاعتقاد بأنه حتى فى ١٩١٨ ، ١٩١٩ كانت الديكتاتورية البلشفية على أن تميز أخطاء طرائقها وأن تشرع فى تكييف نفسها طوعا للعوامل غير المنتظرة فى الموقف الذى وجدت فيه نفسها . أجل إنهم كانوا ضيقى العطن محدودى الأفق مستمسكين بحرفية المبادىء ، على أن الكثيرين منهم كانوا رجالا ذوى خيال فسيح ومرونة ذهنية ، ولا سبيل إلى المشاحة فى أنهم كانوا فى كل ما أتوا من شر ، شريفى المقاصد مخلصين فى الخطة . فلو أنهم تركوا وشأنهم لجاز أن يقوموا بتجربة ذات قيمة عظيمة للإنسانية . ولاضطروا أن يصلوا ما بين نظامهم وبين تقاليد النظام النقدى البطيئة التطور ، ولوصلوا إلى التعامل مع

(١) القوميسيرين : هم مندوبو الشعب الروسى الذين يتولون الوظائف فى الحكومة السوفيتية .

الروح الفردية المستعصى علاجها روح الفلاح المزدرع . ولكنهم لم يتركوا وأنفسهم لأنهم أثاروا منذ مبتدأ حياتهم معارضة جنونية من ناحية أوربا الغربية وأمريكا . ولم يبد أحد نحو المغامرين الماركسيين شيئاً من ذلك التسمح الذى لقيته حكومة القيصر التى تعادلهم أعظم معادلة فى عدم الكفاية وجر الكوارث على البلاد . فقاطعهم الناس فى كل مكان ، وكانت الحكومات الرجعية فى فرنسا وبريطانيا العظمى تعول وتساعد كل مغامر داخل الروسيا وخارجها على مهاجمتهم .

وشرعت حملة صحفية تبلبل أفكار الجمهور بسلسلة من الترهات الخيالية السخيفة والآراء المرجفة عن البلاشفة . نعم أنهم كانوا رجالا عديمى الكفاية مستمسكين بحرفية المبادىء وناحيتها النظرية البحتة ولهم نظرية اجتماعية واقتصادية سيئة ، وهم يسيرون فى الأوحال وسط بلاد متهدمة . وكان بين أتباعهم رجال أدنى إلى الوحشية وسوء السريرة . وإن أية حكومة فى الروسيا كانت تجد فى إدارتها الأعمال الحكومية مادة هزيلة وتحس فى نفسها ضعف يدها عن الهيمنة عليها . ولكن الدعاية المضادة للبلشفية كانت تمثل مغامرى موسكو فى صورة شىء بشع لا ضريب له فى تاريخ العالم ، وتلوح بأن مجرد إزالة كابوسهم يكفى لإعادة السعادة والرجاء إلى الروسيا . وكان الدعاة يبثون فى الناس ضد البلاشفة شيئاً بشبه الحملة الصليبية ، ولكن تكون لمصلحتهم رد فعل مشرق فى أذهان المفكرين الأسماح الذين ربما كانوا لولا هذا الحال يظلون أميل إلى التزام جانب الانتقاد .

ونتيجة لهذه المداوة المنظمة ، اضطر البلاشفة فى الروسيا منذ البداية نفسها إلى التزام وضع دفاعى يحميهم من العدوان الأجنبى . وقوتهم العداوة الملحاحة التى كانت تبديها الحكومات الغربية للروسيا أعظم تقوية . وبالرغم من نظريات الماركسيين الدولية ، فإن الحكومة البلشفية فى موسكو أصبحت حكومة وطنية تدفع عن حكومتها عدوان الأجانب ، وتدافع بوجه خاص عن الفلاحين ضد عودة ملاك الأراضى وأصحاب الديون . كان ذلك موقفا فيه كثير من المفارقات والشذوذ . فقد أنتجت الشيوعية فى الروسيا ملاكا من الفلاحين . وكان تروتسكى بطبعه رجلا مسالماً ، ولكنه تدرب فى فن الحرب بالرغم منه حتى أصبح جنرالا عظيما ،

على أن هذه الروح العسكرية وهذه الوطنية التى فرضت هكذا قسراً على حكومة لينين ، وهذا الانتباه الكلى المركز على التخوم ، كان يحول بينهم وبين إعادة تكوين البوليس والقوى النظامية فى الداخل إعادة فعالة ، حتى ولو كان البلاشفة قادرين على مثل هذه الإعادة . والواقع أن الحكومة الجديدة واصلت بالفعل استعمال البوليس القيصرى القديم الظالم المضطهد للناس .

وتقلدت هيئة قبيحة مختلة من البوليس السرى زمام سلطات تنفيذية عرفية ، واتخذت لنفسها تقاليد من سفك الدماء ثم أخذت تكافح المرسلين الأجانب الواردين من الخارج وتناهض الإغراء ، والخوف والخيانة فى الداخل ، وأشبعت بمحض الصدفة تلهفها القبيح إلى إيقاع المقوبة بالناس . وفى يوليو ١٩١٨ أعدم القيصر وعائلته بأمر من موظف صغير بسبب ظهور بوادر تدل على احتمال إنقاذ قوة رجعية من الجنود لهم . وفى يناير ١٩١٩ أعدمت حكمدارية البوليس أربعة من الغراندوقين هم أعمام القيصر بمدينة بطرسبرج فى تحدٍ صريحٍ لما قرره لينين من إرجاء التنفيذ .

وظل الشعب الروسى زهاء خمس سنوات قضاها فى ظلال هذا الحكم الغريب الذى ليس له من مثيل ، وهو محتفظ بوحدته مقاوم كل محاولة لتمزيق وحدته واخضاعه . وفى أغسطس ١٩١٨ نزلت إلى البر فى أركانجل قوات بريطانية وفرنسية ، ثم سحبت فى سبتمبر ١٩١٩ . وبذل اليابانيون جهوداً جبارة منذ ١٩١٨ فما تلاها ليقروا أنفسهم فى سيبيريا الشرقية . وفى ١٩١٩ لم يكن الروس يحاربون البريطانيين فى أركانجل واليابانيين فقط ، بل كانت ضدهم قوة رجعية فى سيبيريا بقيادة الأميرال كولتشاك ، كما كان يهاجمهم الرومانيون فى الجنوب ومعهم مجندون فرنسيون ويونان ، ويقاتلهم فى بلاد القرم الجنرال دينيكين ومعه جيش من الرجعيين الروس مزود بكميات هائلة من المهمات الحربية والذخائر ما بين بريطانية وفرنسية ويعاونه الأسطول الفرنسى .

وفى يوليه كان كولتشاك ودينيكين قد اتحدا وأصبح فى يديهما جنوب الروسيا الشرقى من أودسا إلى يوفا ، وكذلك أخذ جيش أوستونى بقيادة الجنرال يودونتش يتقدم نحو بطرسبرج . وكأنما لم تكن خاتمة البلشفيك إلا رهن زمان يعد بالأسابيع أو الأيام . ومع هذا فإنه ما كاد الحول ينتهى حتى كان جيش يودونتش قد شتت ونسى أمره ، وحتى أخذ كولتشاك بكل أسباب التراجع إلى سيبيريا وتقهقر دينيكين إلى البحر الأسود . وحملت السفن البريطانية والفرنسية دينيكين والبقية الباقية من جنوده فى مبتكر ١٩٢٠ ، وقبض على كولتشاك وأعدم بالرصاص فى سيبريا .

ولكن الروسيا لم تكن لتعطى أية مهلة تستريح فيها . فإن البولنديين قاموا بتحريض من الفرنسيين بحملة جديدة عليهم فى أبريل ١٩٢٠ ، وواصل مغير رجعى جديد هو الجنرال رانجل أعمال دينيكين فى غزو بلاده وإهلاك الحرث والنسل فيها . ولم يلبث البولنديون بعد أن دفعوا إلى الخلف حتى وارسو أن استطاعوا أن ينتعشوا بمساعدة الفرنسيين وأمدادهم

وتقدموا ظافرين فى الأراضى الروسية . وعقدت فى ريغا فى أكتوبر ١٩٢٠ معاهدة يغلب فيها صالح بولنده اتسعت بها رقعتها . ولقى رانجل بعد أن دمر الطعام والمحاصيل فوق مساحات شاسعة عظيمة نفس المصير الذى لقيه دينيكين ، ثم تقاعد فى نهاية السنة وأخذ يعيش على حساب مكارم الدول الغربية . وفى مارس ١٩٢١ اضطرت الحكومة البلشفية واستطاعت بالفعل أن تخمد عصيانا قام به البحارة فى كرونستاد ، وهم حرس البلشفية البريتورى[١] وركنها الذى كانت تعتمد عليه .

وأخذت المداوة للبلاشفة فى أوربا الغربية وأمريكا تخلى مكانها فى بطء طيلة ١٩٢٠ ، لتفكير فى الموقف يغلب عليه طابع التبصر . وكانت هناك عقبات كثيرة تعترض سبيل الاعتراف بالحكومة البلشفية كاملا تاماً ، وهى عقبات ترجع فى الكثير من شأنها إلى عدم التعقل الذى كان يسود الناحية البلشفية أيضاً ، وعند نهاية ١٩٢٠ كان هناك نوع ردىء من الصلح الغليظ غير الأدبى بين الروسيا ومعظم بقية العالم ، وأصبح فى إمكان الباحثين الأمريكيين والبريطانيين والفرنسيين أن يدخلوا تلك البلاد ويخرجوا منها . وفى مبتدأ ١٩٢١ أنشأت كل من إنجلترا وإيطاليا اتفاقات تجارية مع الروسيا . وأعاد ممثلون للروسيا جاءوا فى هيئة الوفود التجارية فتح التواصل بين ذلك القطر المنبوذ وبين بقية العالم .

ولكن كارثة من أعظم الكوارث وأشدها هولاً كانت تتهيأ للانقضاض على هذا الشعب الأسيف المحزون . فقد حل ببلاده فى ١٩٢١ قحط شديد لم يألف الناس له مثيلا . ولا بد أن القارىء اللبيب لهذا الكتاب قد لاحظ فيما سلف كم المناخ فى المناطق الأرضية العظيمة المحيطة ببحر قزوين متقلب غير ثابت . فهذه الأراضى إنما هى بطبيعتها أرض قوم رُحّل ، ومن المشكوك فيه أنها ستكون يوماً مستقرا مطمئناً لعدد كبير من السكان الزراعيين. والآن وقد حل القحط والجفاف فإن المحاصيل تلفت تلفاً تاماً فى مساحات هائلة من الروسيا الجنوبية الشرقية ، وعقب ذلك ظهور أفظع مجاعة عرفها العالم فى سجل التاريخ بأكمله . فهلك الملايين من الناس . وكانت جماهير غفيرة من الناس وقرى بأكملها ومدن بكليتها تجلس فى بيوتها تنتظر الموت . ثم تموت فعلا . وطعم الكثيرون الدريس والثرى وأقذاراً ليس إلى وصفها سبيل . وأخذ الناس ينبشون القبور عن الموتى ويأكلون لحوم البشر . وخلت مناطق عظيمة من سكانها .

---

(١) الحرس البريتورى (Pretorian) : حرس خاص أنشأه أوغسطوس قيصر لنفســه وتبعه فى الاحتفاظ به أباطرة الرومان .

ومع هذا كان هناك قمح فائض يحرق لا فى أمريكا وحدها بل حتى فى أوكرانيا ورومانيا والمجر . ولكن المواصلات فى تلك البلاد كانت متحطمة تحطماً لا مطمع فى إصلاحه بسبب حملات كولتشاك ودينيكين ورانجل ، ولم يكن فى يد الحكومة البلشفية من الموارد والاقتدار ما تستطيع به أن تواجه هذه الكارثة الهولة .

وتألفت لجنة أمريكية ولجنة أخرى برياسة الدكتور نانسن المكتشف القطبى العظيم ونظمتا وسائل المعونة بمساعدة الحكومة وموافقتها ، وأدركت الأمريكيين نوبة لا بأس بها من الأريحية فأخذت مؤنهم تصب فى البلاد صباً . ولكن الحكومات الأوربية الكبرى استجابت مستكرهة أو لم تستجب أصالة لتوسلات الموقف القصوى . فأما الحكومة البريطانية التى أنفقت من قبل مئة مليون من الجنيهات فى عمليات عسكرية غير مشروعة ضد حليفتها السابقة ، فإنها لطخت اسم بريطانيا الناصع بالعار برفضها أن تشترك فى أعمال المساعدة . وبذا يكون الدرس — درس التماسك الإنسانى الذى كان يجب أن تُعلمه الحرب العظمى للبشرية — درساً بالغاً حتى ذلك الحين منتهى الضآلة والصغر .

وعلى حين كانت الجماهير التعسة المنكودة تهلك فى الروسيا ، كان القمح يُضيع عبثاً فى أجرانه على بعد بضعة مئات من الأميال ، وكانت السفن فى أوربا الغربية ملازمة للمرافىء لقلة المواد المشحونة ، وكانت مصانع الصلب حيث كان فى الإمكان صنع القضبان والقاطرات — تقف جامدة لا حراك بها ، وكان الملايين من العمال عاطلين من الأعمال لأن أصحاب الأعمال قالوا « إنه ليس لهم شىء يعملونه » . بينما أصبحت مئات من الأميال المربعة فى الروسيا الجنوبية الشرقية صحراء بلقعاً من الحقول المهجورة ومن بلدان الموتى وقراهم .

ومع ذلك فإن الحكومة البلشفية استمرت وسط هذا الخراب . وأخذت الضرورة الداعية إلى الاعتراف والتعامل مع هذا النوع الجديد من الدولة ، مهما تخالف طبيعتها طبيعتهم — تبدو بوادرها فى الذهن الأوربى . ولما يزل العالم الغربى إلى يومنا هذا يصطرع وتلك الضرورة . ومسألة إيجاد الترابط بين نظام رأسمالى وبين نظام شيوعى يضمهما كوكب واحد — أخذت فواصل المسافات الكبيرة تنعدم منه — لا تزال مسألة غير محلولة حتى وقت كتابة هذه السطور .

وأخذت الدعاية البلشفية وقد أدارت وجهها عن الغرب المعادى لها ، تبدى قدراً متزايداً من الرغبة فى إرضاء الجماهير المدقعة فى الهند والصين . وكان للبلاشفة على الدوام ناحيتان ، ناحية تتجه نحو الغرب تريد أن تستعمل العلم ، والماكينات والتنظيم الإنتاجى الكبير ، وهى

ناحية يمثلها لينين وتروتسكي ، وناحية من المتجهين صوب الشرق ولهم ميول عسكرية وبدائية وتصوفية ، ورأس هؤلاء زينوفييف . وكانت سياسة الحكومتين البريطانية والفرنسية تبعث الروسيا على إدارة دفة اتجاهها إلى الشرق على الدوام . ويلوح أن العالم الإسلامى قد أخذ متأثراً بمثال الروسيا يسترد تطوره الذى طال الأمد على اعتقاله . وأخذ موقف الحكم البلشفى حيال مدنيات الأطلسى ، التى سادت العالم نيفاً وقرنين ونصف من الزمان يشابه بالتدريج حكم الإسلام . فإن كلا منهما يصبح متشبثاً متشدداً ومعارضا . والدول الغربية المنقسمة على بعضها البعض بما بينها من منافسات مدبرة ومصالح متناحرة ، تلقى كذلك مقاومة مطردة الزيادة لأساليبها واستغلالاتها فى الروسيا وتركيا وأفريقيا الشمالية وآسيا بأجمعها . فهذه المقاومة المجتمعة وهذه الطاقة المتداعية المتناقصة فى الطعنة المضادة لها تمطيك القياس الحقيق لكارثة ١٩١٤ — ١٩١٨ . ويلوح أن أيام السيادة الأوربية الغربية على العالم قد أوشكت على الزوال .

وفى ١٩٢٤ توفى لينين . وخلفه ستالين ، وهو رجل من أهل جورجيا قوى الروح هدم وأبعد الكثيرين من زملائه السابقين وبخاصة تروتسكي ذلك النقذ المقتدر للجمهورية السوفييتية فى أحلك أوقات حاجتها . ومن الجلى أن ستالين شيوعي متمسك بالشيوعية لا تأخذه فيها هوادة ولا موادعة ، وأنه وطيد العزم على صد المجتمع الروسى عن الانزلاق نحو الرأسمالية أو المسيحية سواء . وقد حدث فى أيام زعامته أن هدم العدد الكبير من الكنائس وأن قاربت معاملته لليهودية الرسمية والعبادات المسيحية حد الاضطهاد . وكان لينين قد تساهل بعد ما أصاب البلاد ما أصابها من محن ١٩٢٠ — ١٩٢١ ، فاتجه إلى التسمح مع الملكية الخصوصية والمساعى الخصوصية[1] وأوجدت « سياسته الاقتصادية الجديدة » حالة للأمور فى الروسيا تكاد تشبه حال الأمور فى الولايات المتحدة الأمريكية قبل ذلك بمئة سنة . وشرع بعض الفلاحين وهم يستمتعون بحرية التجارة الجديدة يزيدون فى الثراء عن جيرانهم ويطلبون المنافع لعائلاتهم . ويسمى هؤلاء الفلاحون الأكثر ثراء باسم كولاك . وظهر المتجرون وصغار أصحاب المصانع وحالفهم اليسر والربح . وقد وقف ستالين مناهضاً لهذه العودة إلى عدم المساواة بين الناس . وتحاول الحكومة الروسية محاولة خشنة جداً أن تقضى على الكولاك الذين أنتجتهم «سياستها الاقتصادية الجديدة» السابقة . والاتحاد السوفييتى بأكمله يعانى آلام تجربة عظيمة هى أوسع وأعجب محاولة لتعمير (إعادة إنشاء) الحياة الاقتصادية حاولها العالم

(١) المسعى الخاص : يقصد به أصحاب المشروعات الخاصة .

أبداً . وهى تسمى مشروع الخمس سنوات وقد ابتدأت فى أكتوبر ١٩٢٨ ، فإذا نجح المشروع فإن الروسيا تصبح فى مدى خمس سنوات أرض مزارع ضخمة تديرها حكومة الشعب . وبها يصبح الفلاح عاملا أى زارعا أخلى من ملكيته ، كما ظل شأنه فى انجلترا مدة قرنين ، ولكنه عامل يعيش فى ظلال حكم شيوعى ولا بد من أن يجعل بينه وبين العامل فى المدن الصناعية تشابه وتماثل . ولا بد للاتحاد السوفيتي من أن يصبح تنظيمة منتجة هائلة تدير مزارعها من أجل الفائدة المشتركة .

٦ — دولة إرلنـــــده الحرة

خرجت الإمبراطورية البريطانية من الحرب العظمى منهوكة القوى الجثمانية والخلقية إنهاكاً قاسياً جداً . فإن زهرة الشباب قد فنيت ، أو أضعفتها الجروح وشاهتها التشويهات أثناء العمل العسكرى المذل . وأصيبت روتينيات الحكم فيها وعادات الحرية فى أرضها باختلال عظيم نشأ عن تشريع الطوارئ الضرورى أثناء الكفاح ، واختلت صحافتها أسوأ اختلال بسبب توجيهها للدعاية . فإن الأخبار عن المسائل الأجنبية فسدت فساداً ملحوظا . ولم يقتصر الأمر على أن الجمهور العام كان يعطى الأخبار عن مسئولياته فى الإمبراطورية بطريقة سيئة فحسب ، بل إن ذهنه كان من الانشغال بما ألمّ بالعمل والأعمال من كوارث ، بحيث لم يتيسر له أن يقسم للإمبراطورية قسماً من عنايته . كان ذلك زمان فرصة سنحت للموظف الأحمق المعتز بذاته ، وكان يستفيد فى كل مكان أعظم الفائدة من نهزاته .

فكانت هناك فى كل مكان ، اللهم إلا فى تلك الأجزاء التى تحكم نفسها من قبل بنفسها — كانت هناك عملية متماثلة تعمل عملها — وأعنى بها تسخطاً يكاد يكون منتظم التكوين صادراً عن الشعوب المحكومة لما لقيت من ألوان التضييقات ، واللوائح غير المعقولة والإهانات والاعتقالات التعسفية وما شاكل ذلك من التدخل فى الحريات . وكانت الطبقة العسكرية وطبقة الموظفين فى كل مكان خارجين على كل سيطرة وسلطان . وكان عنصر المحافظين (التورى) القديم يلوح فى كل مكان كأنما هو مكب على إحداث انفجار .

وهذا الحال يصدق على كل من الهند ومصر وإرلنده على السواء . ففى تلك السنوات ، سنوات الإهمال والرقابة المركزية الضعيفة أثارت سياسة القمع ونكث العهود المقطوعة لأهالى البلاد والإصلاحات الخداعة بغية تسكين ثائرة الضمائر القلقة فى أرض الوطن (انجلترا) ، أثارت حتى السكان الهنود المسالمين أنفسهم إلى درجة استشرفت العصيان . وجاءت فترة من الزمان

كان التحذير واللوم لايجدان فيها أذناً مصغية . وكانت الأساليب السمجة التى تستعملها فى تجنيد الجنود إدارة الحكومة فى البنجاب سبباً فى انقلاب هذا الجزء من الهند من ولاية من أشد الولايات ولاء إلى حال شديدة من القلق والاضطراب . وحدثت القلاقل ، وهوجم الأوربيون وقامت حالة تشبه حكم إرهاب الموظفين بلغت أوجها فى مذبحة أمريتسار (أبريل ١٩١٩) عندما أطلقت النار على جمهور كبير كان فى عظيم أمره غير مسلح فقتل ٣٧٩ شخصاً وجرح عدد يربو على الألف . ولم تبلغ أخبار هذا الاعتداء المنكر إلى ضمائر الجمهور البريطانى فى أرض الوطن حتى صدر تقرير هنتر فى أخريات ١٩١٩ . وعند ذلك أظهرت العناصر الطيبة فى الحياة البريطانية أثرها ردحاً من الزمان . ومع هذا فإن طوراً جديداً من الحكم يرمى إلى الصلح والتراضى برئاسة اللور ريدنج بوصفه نائب الملك قد احبطته وادعت فساد آرائه عناصر الرجعية فى الحكومة البريطانية . وفى ١٩٢٢ حكم على المستر غاندى[1] وهو مبشر بالمقاومة السلبية يشبه القديسين ، بالسجن ست سنوات ، وبذا صار أحد الشهداء .

وتواصل نزاع مماثل لهذا فى مصر . وكان يعوق النزوع إلى التفاهم ويحبطه دافع غريب متسلط ينزع إلى القمع . ولكن أشد القصص إيلاما وأدعاها إلى الرحمة فى كل هذا الثبت المحزن الذى يسجل على البريطانيين العجز وعدم الاقتدار فى زمان سنحت فيه الفرص البديعة ، هى قصة الثغرة المتزايدة المفرقة بين الشعبين الإنجليزى والإرلندى .

ففى أيام السياسيين الإرلنديين العظيمين المسماحين وأعنى بهما الأخوان ريدموند ، كان ما زال يبدو أن فى الإمكان أن تعيش كل من الجزيرتين إلى جانب أختها متعاونتين تعاوناً حراً تدفعه الرغبة ، وفى حال من الوحدة الودية المتبادلة على حين تتشاركان مسئولية بريطانيا فى الإمبراطورية وتواجهان العالم معاً . فإن المسافة الدانية بينهما تتطلب مثل هذه الرابطة الوثيقة . فرخاء إرلنده وانجلترا يشابه رخاء التوأمين السياميين اللذين ترتبط أجسامهما برباط العروق والشرايين . ولم يكن ينبغى أن تكون الأحقاد القديمة والفوارق الدينية سبباً كافياً لمنع نشوء

---

(١) المستر غاندى (١٨٦٩ — ١٩٤٨) : ويلقب بالمهاتما أى الحكيم الأعظم . وشهرته أعظم من أن تحتاج إلى بيان ، فهو زعيم الهند الاجتماعى والسياسى . ولد بالهند ودرس القانون بلندن واشتغل بالمحاماة ١٨٨٩ . وفى ١٨٩٣ أصبح محامياً بجوهانسبرج . وهناك قاد حملة المقاومة السلبية ضد التفريق فى المعاملة بين الملونين والبيض ، وعاد إلى الهند ١٩١٥ واستعمل طريقته تلك فى الكفاح ضد الحكم البريطانى . وظل يكافح ويقيم العصيان تلو العصيان لا يرتد عنه حتى يراه أخذ يتحول إلى العنف — حتى وفق فى جهاده وكان يلعب من وراء الستار دوراً فعالا فى المفاوضات التى انتهت بالاستقلال فى ١٩٤٧ . وغاظت جهوده لصالح المسلمين بعض المتطرفة من الهندوك فاغتيل فى نيودلهى ٣٠ يناير ١٩٤٨ .

تعاون صحيح ذكي . ولكن الأمر لم يكن هو الأحقاد القديمة ، بل إن الأحقاد الجديدة هي التي دفعت إرلنده في طريق الانفصال . وقد أسلفنا عليك كيف أن السير إدوارد كارسون نابغة الشر في الشعوب البريطانية ، أدخل الأسلحة لأول مرة إلى إرلنده ثم أيقظ وحرك عملية مرعبة من العنف والانتقام في البلاد ، وكيف خدعت إرلنده في أول الحرب عن حكمها الذاتي ، وكيف أن الحكومة البريطانية وعلى رأسها المستر آسكويث قد أهانت إرلنده إما عن عماية وغفلة أو عن قصد وتدبير ، بإدخالها هذا الرجل الملطخ اليد بالدماء والتغرير بالأبرياء عضواً في حكومة الائتلاف . وأخبرناك كذلك كيف قمع العصيان في دبلن وأنزلت من أجله العقوبات ، وكيف زاد ذلك في مرارة حفيظة إرلنده . ونتائج كل هذا صريحة واضحة على صفحة التاريخ .

ففي ١٩١٤ نزلت إرلنده ساحة الحرب العظمى حرة مقدامة كانجلترا سواء بسواء . وكانت ما تزال بلداً منظماً ممدناً . وعند نهاية ذلك الكفاح كانت إرلنده قد أصبحت أرض فتنة ثائرة لا تمسك إلا بالقوة القاهرة . فإن الاستعمار المتطرف قد أوتي رد فعله في صورة الوطنية المتطرفة . وكانت إرلنده قد أصبحت آنذاك مصرة كل الإصرار على أن تصبح جمهورية منفصلة تماماً عن بريطانيا العظمى .

ومر في البرلمان البريطاني قانون حكم ذاتي جديد في ١٩٢٠ . وبه تأسس برلمانان منفصلان ، أحدهما في آلستر والثاني في الجزء الباقي من إرلنده ، مع وجود ترتيبات ترمي إلى التعاون بينهما وإمكان إدماجهما أحدهما في الآخر . وكان بالقياس إلى قوانين الحكم الذاتي السابقة تدبيراً فيه شيء كثير من السخاء . ولكن الإرلنديين رفضوه بحذافيره .

فإن أعضاء حزب السين فين الذين انتخبوا أعضاء في برلمان ١٩١٩ لم يقبلوا حتى أن يظهروا في وستمنستر لمناقشته . وفي الوقت ذاته كانت أساليب العصيان والتسخط من ناحية ، وسياسة القمع من ناحية أخرى تحول البلاد بأكلها إلى مسرح من مسارح حرب العصابات . فكان العصاة يغيرون ويكمنون ويغتالون ثم تراموا في النهاية إلى أن أصبحوا يقاتلون في معارك صغيرة حامية الوطيس مع فصائل صغيرة من الجنود . فأما الجنود الإنجليزية وكانت حسنة السلوك في البداية فإنها أغريت للفور وشجعت على الدخول في دور الانتقام بالمثل . ونظم بوليس إضافي خاص هو السود والصفر ميز نفسه بأساليبه الخشنة الشديدة .

وأخذ شر الاعتداء يتفاقم تفاقماً مطرداً . فكان مقتل كل فرد في هذا الجانب أو ذاك يفضي إلى قتل أفراد . فإذا قتل جندي أو فرد من أفراد القوة الإضافية المسماة بالسود والصفر قتل نظيره فرد من الطرف الآخر ، ربما كان أو لم يكن له ضلع بالجريمة الأولى . وكان كل طرف

فى هــذا التناحر يجهد أن يبذ أخاه فى القساوة . حتى تناهى الأمر إلى أن لم يعد أحد يأمن وهو فى منزله ولا هو فى فراشه . فإن رجالا من أحد الحزبين أو الآخر ربما جاءوا بليل يطرقون باب أحد الناس بتهمة حقيقية أو خيالية . فكان الرجال يقتلون بالرصاص على أبواب منازلهم ، وسرعان ما تحول هــذا إلى إعدام العائلات بأسرها . وفى ديسمبر ١٩٢٠ انفجر العسكريون انتقاما من وقوع أحد عشر تلميذاً فى المدرسة الحربية فى كين ، فأقدموا على القتل والسلب حتى لقد دُمرت أملاك يبلغ ثمنها ثلاثة ملايين من الجنيهات . وبديهى أن قد ربت السرقة وازدهر قطع الطرق فى مثل هذا الجو .

وأصبح قانون الحكم الذاتى سارى الأحكام فى ١٩٢١ ، وتكون بمقتضاه برلمانان إرلنديان ، أحدهما للشمال والثانى للجنوب . وانتخب البرلمان الشمالى فى وقته المعين ، وفتحه الملك فى احتفال فخم ، فى ٢٢ مايو ١٩٢١ . ورفض أهل الجنوب قبول البرلمان فلم يجتمع أبداً . واجتمعت بدله فى دبلن هيئة كونت نفسها بنفسها ، هى الديل إيريان ، معلنة أنها برلمان إرلنده المستقلة ، ومنتخبة لكرسى رياستها المستر ديفاليرا الذى كان مؤسسها الأكبر .

وكان الملك قد ألقى فى خطاب افتتاحه البرلمان الشمالى خطبة ملؤها التسامح والرغبة فى السلام . وانتهز المستر لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية هذه المناسبة فدعا المستر ديفاليرا والسير چيمس كريج لحضور مؤتمر يعقد فى لندن لبحث الشئون الإرلندية ، ودعى الطرفان إلى إنشاء هدنة عن العنف ، وهى هدنة نفذت على أحسن ما تسمح به حالة البلاد المضطربة ، وفى ١١ أكتوبر ١٩٢١ افتتح فى لندن مؤتمر تمرس فيه المستر ديفاليرا وزملاؤه المختارون عن (الديل إيريان) وعليهم بوجه خاص سيما رجال قادوا ثورة مسلحة إلى نصر مؤزر ، — بالمحادثة مع ممثلى الحكومة البريطانية فى موضوع مستقبل إرلنده .

وكان هذا أمراً يسر كل إنجليزى مفكر سروراً يقارب جزل أى أمريكى فى ١٨٦٣ لدى رؤيته جفرسون دافز يتفاوض مع أبراهام لنكولن فى واشنطون بشأن مستقبل ولايات القطن . ذلك أن انفصام إرلنده التام عن بريطانيا ليس مجرد أمر ثقيل تأباه الأنفس ، بل هو أمر خطر جداً ربما كانت فيه الكارثة على كل من البلادين . ولكن هذا الاعتراف العملى بالهزيمة كان برشامة ، سمح الرجل الإنجليزى لأصدقائه المختارين أنصار كارسون بأن يصنعوها له ، وكان عليه أن يزدردها على أحسن ما يستطيع من التجمل والوقار . وكان المشهد فى هوايت هول فى أكتوبر ١٩٢١ أثناء مؤتمر داوننج ستريت مشهداً عجيباً جداً . فقد رفع قدر عظيم من الرايات الإرلندية والشعارات القومية الإرلندية فى جال تحد ظاهر ، ولم

يقتصر سلوك جمهور لندن على مجرد التسمح بل تبدّى فيه المودة والعطف .

وبعد مهاترات كثيرة وصل الطرفان إلى تسوية أقرها البرلمان البريطانى كما أقرها (الديل إيريان) ، فى كثير من التمنع والمقاومة . ودانت إرلنده فى النهاية بالولاء للتاج البريطانى ، وتقيدت ببعض القيود البحرية والجوية وأصبحت — كلها (فيما عدا آلستر البروتستانتية تحت حكم البرلمان الشمالى) — دولة مستقلة هى دولة إرلنده الحرة . وكان هذا نصراً عظيما للتعقل والتبصر والرغبة فى السلام . فاستقرت بذلك حرية قائمة وصينت وحدة شكلية . ولكنها كانت تسوية مهددة من كلا الطرفين .

واعترض المستر ديفاليرا على المشروع لأنه يجزئ إرلنده ولا يذل بريطانيا إذلالاً كافياً ، وحرض أنصاره على الثورة على الدولة الحرة الجديدة . كذلك بذل السير إدوارد كارسون وهو عند ذاك قاض برتبة اللوردية قصارى جهده — بالرغم مما ألفه القضاة من الوقار ، ليوقظ ويذكى روح العنف وسفك الدماء فى آلستر . وكان من أثر هذا أن كافحت دولة إرلنده الحرة فى سبيل الحياة وعلى نغمات الطلقات النارية والصرخات تدوى فى بهيم الليل . وكانت البلاد مليئة بالشبان الذين لم يتعلموا أية صناعة إلا حرب العصابات ، وكانت عادات العنف والإخلال بالنظام قد تمكنت من قلوب السكان ، وأعقب ذلك حرباً أهلية بين الجمهوريين وعلى رأسهم ديفاليرا وبين جيش الدولة الحرة .

ذلك بيان موجز لقصة انفصال إرلنده عملياً عن انجلترا . فما لم يحدث تغيير كبير فى أساليب تعامل الإمبراطورية البريطانية مع شعوبها المحكومة ، فإن من المحتمل أن تثبت الأيام أن انفصالها قطرة أولى من صدوع هدامة مقوضة لبنائها أكبر شأناً وأعظم خطورة . ويجب أن يكون هذا الأمر مصدراً للقلق والأسف العميقين لدى الشعبين البريطانى والأمريكى على السواء .

وقد جاء زمان بدت فيه الإمبراطورية البريطانية كأنما هى على وشك أن تصبح أماً لاحتلاف عظيم ومثالى من شعوب حرة ، تتكلم الإنجليزية أو تستعمل الإنجليزية كلغة أوربية أجنبية وتصطنع تقاليد واحدة عظيمة من صراحة القول ، والتعامل الصريح والعدالة فى أرجاء العالم قاطبة . ولقد أتى على الناس حين من الدهر لاح فيه أن هذه الشبكة العظيمة التى يقويها تفاهم يزداد عمقاً وتعاون يعظم توثقاً مع الولايات المتحدة الأمريكية — هذه الشبكة قد تقوم بدور الزعيم فى ربط العالم بعضه ببعض باتحاد أعظم منها وأكمل . وكم أطافت مثل هذه الأحلام بخيال كاتب هذه السطور نفسه ولكن المؤرخ ملزم أن يدون ما لديه من حقائق — والحقائق التى نسوقها هنا لا تساير هاتيك الأحلام إلا أسوأ مسايرة .

ويبدو أن تعليم الطبقات البريطانية الحاكمة لم يبلغ من الاتساع والسلامة القدر الكافى المناسب لما بين أيديهم من نهزات . فإن الرجال الإنجليز الذين بيدهم الأمر لم يبلغوا من بعد الهمة وقوة الشخصية ولا من الجنتلمانية الحد الكافى الذى يؤهلهم للتبعات التى تصدوا لها وتولوها . والعالم لا يستطيع أن ينتظر البريطانيين حتى يقودوه . وقد فشلت الشعوب الناطقة بالإنجليزية فلم تستطع أن تتطور المنظمة التعليمية والعظمة الخلقية التى تسوغ ادعاءها زعامة البشرية ، وتهزأ النهزات والفرص بهم وتمر بهم سراعاً . فإن الأجناس والشعوب التى كانت فى يوم من الأيام تلميذاً للمدنية الغربية راغباً فيها ، ترسم لنفسها نهجاً جديداً من التجريب وتفكر على أسسها الخاصة بها . ويتسع ميدان التقدم ويأتى يوم يجب أن يقنع فيه أولئك الذين كانوا هم القادة فى زمان ما بأن يسايروا سائر الناس .

٧ — اضطراب الأمور فى الصين

لاحظنا فيما سلف سقوط أسرة مانشو فى الصين فى ١٩١١ . وهذا دلالة على إدراك الذكاء الصينى للطبيعة الرثة التى عليها نظامهم الإمبراطورى العهيد . لقد نبذوا الثوب القديم . ولكن لم يكن لديهم ثوب جديد أعدوه لترتديه بلادهم . فإن الجمهرة الكبرى من السكان ظلت فى سبيلها الذى ما فتئت تسلكه قرناً بعد قرن ، كادحة أمية منتجة للنسل فقيرة مسالمة ، محافظة على القديم ومن فوق هؤلاء كانت الأقلية المتعلمة تكافح محاولة أن تكشف نظماً جديدة ذات كفاية تحلها محل الحكومة العليا التى شاخت ثم تلاشت من الوجود .

وانتشرت فى الجنوب مبادئ جمهورية تصبغ البلاد بالروح الغربية تحت زعامة الدكتور صن يات صن ، وكانت الحكومة الجديدة التى أقيمت فى بكين جمهورية برلمانية . على أن القوة الحقيقية كانت فى يد صاحب التصرف فى قوات البلاد المسلحة ، ولاح فى الأفق ردحاً من الزمان احتمال نشوء أسرة مالكة جديدة تحت موظف عظيم ورجل دولة كبير هو يوان شى كاى . والواقع أن الملكية أعيدت بالفعل فى ١٩١٥ ولكنها تلاشت فى السنة التالية . ولعب اليابانيون دوراً دبلوماسياً فيما لا مناص من حدوثه بين الصينيين من اختلافات . فكانوا يناصرون هذا الحزب أولاً ثم ذاك ، تحدوهم سياسة عامة هدفها منع الصينيين من أن يعيدوا بناء دولتهم الناهضة بناء قوياً متماسكاً .

وانضمت الصين إلى الحلفاء ضد ألمانيا فى ١٩١٧ انضماماً متأخراً غير ذى أثر ، مؤملة

أن تظفر من وراء ذلك بمركز دولى تقاوم به ضغط اليابان العدائى عليها . وازداد تاريخ الصين كل يوم اضطراباً منذ وفاة يوان شى كاى . فإن عدداً من القواد العسكريين وثبوا بمناطق فسيحة وكافحوا وأخذوا يتنازعون فيما بينهم على السلطة العليا . وكانت الحكومات الصينية المتنافسة ترسل الممثلين إلى أوربا . وأخذت الولايات المتحدة واليابان والدول الأوربية الكبرى تدبر المؤامرات المعقدة وتنصر هذا الرجل أو ذاك . وفى نفس الوقت واصلت الحياة العامة مسيرها فى السبل التليدة المكرمة التى كانت على أيام الأجداد ، وظهرت تطورات جسيمة فى إنتاج المصانع وأعمال البنوك . وأصبح التعليم عصرياً . وأجريت التجارب فى تبسيط الخط والكتابة . وإن هناك لشيئاً يهز خيال المؤرخ هزاً عميقاً فى شهوده هذا العدد الضخم من الناس وهو يحل الروابط القديمة لكيانه الإدارى ويحاول فى عماية وتحسس لطريقه أن يبحث عن فرجة يصل بها إلى المحتملات الجديدة الكامنة فى التنظيم الاجتماعى والقوة الحشدية .

وكان قد قُضى على الصين بعيد فتن البوكسر بأن تدفع تعويضات باهظة للدول المختلفة التى أصيب رعاياها فى هاته الفتن . وقد تجاوز الأمريكان — فى شىء عظيم من الحكمة — عن هذه التعويضات على شريطة أن تخصص للتعليم ، وأرسل عدد جسيم من الطلاب الصينيين إلى الكليات الأمريكية بوصف كونهم بواكير ثمار هذه الفكرة الكريمة . وكان الفرنسيون أشد ميلاً إلى إنشاء البنوك ومشروعات السكك الحديدية . ووجه البريطانيون واليابانيون نصيبيهما توجيهاً غير واضح إلى أعمال التعليم ، والصحة والإسعاف وأعمال الاقتصاد النافعة . ويبدو أن من المحتمل أن يصبح الأمريكيون آباء الصين الروحيين ، ما لم تنافس الدعاية الروسية نفوذهم أو تحل محلهم .

وفى ربيع ١٩٢٥ بلغت نار الغضب الكامنة على البريطانيين فى صدور المتعلمين والوطنيين الصينيين أقصى مداها بحماقة موظف بريطانى فى بوليس شنغهاى ، أمر رجاله أن يطلقوا النار على مظاهرة كانت تمر فى الحى الأجنبى بسبب مقتل عامل صينى فى مصنع يابانى فى تلك المدينة . وعادة إطلاق النار على الجماهير ربما قضت فى النهاية على الإمبراطورية البريطانية قضاء مبرما . فقد أنتجت موجة من الغضب فى كل أرجاء الصين وفى نفوس الصينيين من كل الطبقات . وترتب على ذلك ظهور حركة مضادة للأوربيين ومناهضة لليابانيين لا مثيل لها فى الاتساع وقوة التماسك .

وهنا أيضاً ، يلوح أن نجم العظمة المادية والذهنية لبريطانيا وأوربا الغربية آخذ فى الأفول ، وأن الشعوب الآخذة فى التيقظ تظهر من روح البادهة والابتكار ما كان أثناء القرن التاسع عشر يبدو خارج كل ما يقدر لها من احتمالات . وأولى هذه المراحل تكون ولا مراء مرحلة اختلال ونزاع ، ولكن الظاهر أن لا أمل فى الوصول — إلا بواسطة هذه الكفاحات وبواسطتها هى وحدها — إلى تمكين الشعوب الكبيرة العدد خارج منطقة أوربا من إقامة ما لها من حق فى أن تستشار فى مستقبل عالمنا المشترك ، وفى المساهمة على أسس من الشرف والنزاهة فى عملية تطوره . فالغرب لن يعلمهم بل سوف يقتصر على مجرد استغلالهم . وينبغى لهم ألا ينتظروا أن يأتيهم العلم بنفسه ، وإنما عليهم أن يمدوا أيديهم لاقتطاف ثماره الدانية ، فيجب أن يبرهنوا على وجودهم وأن يعلموا أنفسهم بأنفسهم .

٨ — إختمار الإسلام

كان نفس ارتشاح الفكرات الغربية وأساليبها وتطبيقاتها ، الذى ترتب عليه تقويض مدنية الصين العتيقة يعمل عمله فى كل أرجاء الشرق الأدنى بقوة تتزايد كل يوم منذ الحرب العظمى . إذ يلوح أن ذلك السبات الطويل المنطوى على القدرية وعدم التسمح الذى ران على الإسلام قد أخذ يقترب من نهايته . فإن العالم الإسلامى يستعمل الآن الصحف والتلغراف واللاسلكى والتطبيقات التعليمية العصرية والدعاية العصرية . وقد أسلفنا عليك شيئاً عن نهوض الترك بعد هزيمته ، وعن وحدة العرب المؤقتة . وإنا لنلحظ فى إيران اشتداداً فى مقاومة الإسلام لاستغلال الغرب المجرد .

وكانت إيران قبل الحرب مرتعاً خصبا يجد فيه قناصو الدبلوماسية الأوربية كل ما يشتهون من الصيد ، كما كانت أنكد أرض لعيش الرجال والنساء من سكانها . وكانت الروسيا تضغط على القطر التعس من الشمال ، وتضغط عليه بريطانيا من الخليج الفارسى ، وقامت كل بكل ما تستطيع لإضاعة الثقة بالأخرى وإيقاع الأذى بها . واكتشف فى البلاد موارد عظيمة للبترول ومن ثم أخذت الدوائر الأمريكية المهتمة بالزيت ترود طرقا منحرفة من التحريض والمناصرة . وتكونت فى البلاد أمسوخة للحكومة البرلمانية الأوربية برياسة الشاه على حين أن القوة الحقيقية كانت تنتقل بين أيدى رؤساء إقطاع يتخاطفونها . فكان أحدهم يغير على الآخر أو يقتله . وكان الروسيون قد وضعوا فى البلاد فيلقاً من القوزاق ليكونوا فى طاعة الحكومة اسمياً وإن رموا منه فى الواقع إلى السيطرة عليها . وأنشأ البريطانيون هيئة

مقابلة هى فرقة شرطة النظام (چندرمة)[١] ضباطها من السويديين ، كان مفهوما أن لها سمة دولية . وكانت هـذه الهيئات المتناحرة تعيث فى البلاد فساداً وتقتل الآمنين باسم النظام الأوربى . ولم يفت الألمـان أن يدبروا المؤامرات بواسطة الأتراك بغية القضاء على كل من البريطانيين والفرنسيين .

وكانت حماية خطوط أنابيب الزيت أو تحويلها أو تدميرها هى قطب الرحى فيما للموقف من خطط استراتيجية معقدة . وكانت الحرب العظمى فى إيران قصة غارات وزحوف للجنود واستيلاء ومخامرات يقوم بها القوزاق تارة والألمان حيناً والبريطانيون حيناً آخر وقوات القبائل من الأهالى طوراً . ومع تأرجح النصر بين الألمـان وخصومهم كان الإيرانيون الذين لم تكن تمنيهم هذه المنازعات الأوربية فى كثير ولا قليل يسترضون البريطانيين أو يهاجمونهم . وأقام البريطانيون دهراً بعد الحرب وهم أصحاب الـكلمة الأولى فى فارس ، ولـكن مراكزهم بدأ فى ١٩٢٠ يهدده تهديداً خطيراً غزو بلشفى أعاد سابق التضغط القديم الذى كان يقوم به النظام القيصرى . ولـكن روحا أوفر قومية وأكثر استقلالا عن أوضاع الدبلوماسية أخذ يثبت وجوده على التدريج . ذلك أن الوعى القومى الإيرانى أخذ يترعرع ، وأن هيبة الغرب أخذت تذوى . وظهر رجل قوى هو رضا خان، أمسك بزمام الحـكومة فى ١٩٢١ ، محتفظاً برياسة الشاه الإسمية . ثم عقد مع روسيا السوفيتية محالفة ركزت البلاد على أسس من استقلال أعظم وأكبر مما كانت فيه أمد سنوات عديدة . وفى ١٩٢٦ تخلى عن الديكتاتورية وحل فى العرش محل الشاه .

ومن فارس شرقا إلى ساحل مُراكش الأطلسى ، على كامل امتداد خط التماس بين المسيحية القديمة وبين العالم المحمدى ، تُظهر هـذه السنوات التالية للحرب حالة معقدة من المنازعات والشغب بين الإسلام والدول الغربية وتبدى مقداراً أكبر كثيراً من التماسك ووحدة الغرض ، بل لقد تبدت فى النهاية وحدة فى العمل ظاهرة بارزة فى الجانب الإسلامى أكثر منها فى الغربى . فأما الدول الأوربية فى حمايتها عن الخطر النامى المحدق بها فإنها تواصل الـكيد إحداها للأخرى على نفس ما جرت به طريقتها المتبعة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . فإن الاتجار فى الأسلحة إما علانية أو خفية يزدهر ويزكو . ويُضحى الاحتفاظ بولاء الجنود البلديين أمراً يزداد صعوبة من يوم إلى يوم . فأما الأوربى الدخيل المسلح القلق الغبى سواء

(١) چندرمه : فرقة من الجنود المسلحين تقوم كبلوكات الخفر والنظام بمصر بضبط الأمن وبعض الأعمال البوليسية .

أكان بريطانياً أم فرنسياً أم أسبانياً أم إيطالياً فإنه يلقى من الناس فى كل مكان كل تجهم ومكيدة .

ففى مراكش واصلت أسبانيا حرباً باهظة النفقة لا نهاية لها ضد عصيان متجمع زود بالسلاح الأوربى والأمريكى . وكم من مرة ألمت بهم الكوارث والتقهقر والانسحابات ، وارتفع شخص بعينه اسمه عبد الكريم إلى مرتبة الزعامة فى الريف . وفى نفس الحين كانت فاس بيد الفرنسيين الذين مدوا سلطانهم وثبتوا أملاكهم إلى جنوبى أراضى قبائل الريف ، ممتنعين عن إسداء أية معاونة للأسبان حتى انقلب عبد الكريم فى ١٩٢٥ يصوب مدافعه وبنادقه عليهم ويفتتح عهد حرب طويلة خطيرة .

وسرعان ما كان عدد الرجال المشتغلين بتلك الحرب فى الجانب الفرنسى مئة وعشرين ألف رجل . وأنتج قمع الفرنسيين للثورات فى مراكش صدى فى أراضى الانتداب السورية . فإن الدروز ثاروا على الفرنسيين وأوقعوا بهم خسائر بالغة . وامتنع السكان العرب عن معاونة الفرنسيين وأصبحوا مصدر خطر عليهم . وأصبح الخطر على فاس خطراً على دمشق أيضاً . وإلى الجنوب استطاع العرب الوهابيون أن رغموا ملك الحجاز الذى يحميه البريطانيون على التنازل عن العرش (١٩٢٣) ، وأن يدفعوه إلى المنفى . فاستولوا على مكة ومدوا سلطانهم فى تؤدة ورسوخ قدم فى الأراضى الحجازية المرموقة . وكانت مصر فى اضطراب لا ينقضى ، فإن المصريين تحت الحكم البريطانى كانوا أشبه شىء بلبن يغلى فى إناء مسبل الغطاء . وشرعت الدول حتى الفرنسيون منهم والإيطاليون وهم أشد الناس وعياً قومياً — يدركون أن الأمل الوحيد للمحافظة على السيادة الأوربية على العالم الإسلامى ينحصر فى التعاون العلمى الشريف(١) الذى ينعقد بين كل الدول الأوربية المختصة . وأخذ هؤلاء الأخيرون يدركون فى بطء ومهل أن الأيام التى كانوا يستطيعون إبانها أن يفرقوا ويسودوا فى دوائر نفوذهم الخاصة وأن يثيروا الخلاف فى دوائر جيرانهم — أيامٌ قد تولت ولن تعود .

فهذا الإدراك التدريجى العالمى للضرورة العلمية القاضية بالوحدة والعمل الموحد إنما هو أعظم الظاهر فى هذا الدور من أدوار الشئون الإنسانية . فإن الشرط الأول الذى تقوم على عليه الحرية والقوة هو الفكر الحر التنقل . وإنما يصبح الإسلام قوياً لأنه يطور بين أجزائه اتصالات ويربى فيما بينها وعياً مشتركا . فهو فى دور نهضة وانبعاث . وتصبح الصين التى

(١) تعاون شريف : لمصلحة من يقوم بين الدول الأوربية ذلك التعاون الذى ينعته الكاتب بالشرف ؟ ألمصلحة الأوربيين أو الشرقيين ؟ .

كانت على الدوام تتبرم بالتدخل الأجنبي ، بلاداً يزداد فيها الأثر الفعال للتبرم ، لأن تعليما جديداً قد أكسبها دعامة من الفكرات المصرية وتفهماً أحسن للطريقة التي تضايق بها غيرها . والآن يتناقش الهنود والمصريون والأتراك والعرب فيما بينهم فى الاستعمار الأوربى — ويتقبون من وضع يشتركون فيه حياله . وتقع أوربا تحت سيطرة أمريكا المالية وتفقد سيطرتها على آسيا وأفريقيا الشمالية ، لأنها تبدد قوتها فى الخلافات الداخلية .

٩ — الديون والنقود والتثبيت النقدى

أخذت العادات الذهنية التى اكتسبها الناس من الدعاية والحاجة الملحة أثناء الكفاح القاضية باعتبار الألمان شعباً ذا وحشية خاصة وجنساً شريراً يخالف كل البقية الباقية من البشرية — أخذت تذوى على التدريج بتعاقب السنين سنة بعد أخرى وبتوالى الأعوام فصل أذهان الناس أكثر فأكثر عن تأزمات وانفعالات الحرب العظمى . وأخذ الرجال العمليون يدركون الصعوبات التى تلقاها الدول الأوربية منذ حرمت من المساهمة الكاملة لشعب ما زال من أحسن شعوب العالم تعليما وأنظمها عقلية .

زد على ذلك ، أن هذه المشاكل كانت تتغير من يوم إلى يوم فى خصيصتها المميزة وشكلها . وكانت أستار التضليل التى أسبلت على الصفات العنصرية وتقاليد العداوة القومية والنزعات الوطنية والشهوات التشيعية ، قد بدأت تذوى إزاء المصالح المباشرة القريبة . وأخذ الأوربيون يدركون أن شئونهم متورطة تورطاً يربك الألباب فى شبكة خارقة للمعتاد من نسجهم هم ، لا يستطيعون منها فكاكا ، وأن حياتهم اليومية كانت مقصوصة الجناح محرومة من الغذاء بين رائن عنة من الديون ، والضرائب وتغيرات نقدية تقوم على التدليس .

وقد أسلفنا إليك فى بياننا عن الثورة الفرنسية مناقشة فى العلاقات الأولية بين الائتمان والنقود وبين الحياة الاجتماعية . ولكن التزعزع الاجتماعى الذى تسبب فى فرنسا عن الثورة والحروب التى نجمت عنها ، كان تافها بالقياس إلى التخلخل الهائل بعد الحرب العظمى . فالمجتمع فى نهاية القرن الثامن عشر كان من جميع نواحيه مجتمعاً أشد بساطة وأكثر استقلالا من المجتمع الأوربى العصرى المعقد النسيج . وكانت حياته الاقتصادية والاجتماعية محصورة بين دفتى حدوده . ولكن الصعوبة الخاصة فى الوقف العصرى ، هى أنه بينما العلاقات والارتكاسات الاقتصادية ، قد تسامت من أمد طويل على تخوم الدول القائمة ، بسبب التغير الضخم فى وسائل المواصلات ، وعلى حين أن فى الإمكان اليوم نقل سلع الغذاء الرئيسية

والعمال كتلة وجملة من أى جهة فى العالم تقريباً إلى الأخرى — وهو أمر لم يشهد الناس له من قبل مثيلا إلا فى المؤن المرسلة إلى روما الإمبراطورية — كان الرجال لا يفتأون يتعلقون بالأقسام السياسية الصغيرة، والدول المنعزلة ذات السيادة، المؤسسة فى ظلال الأحوال البائدة.

وإنما تضليل الناس فى السيادة القومية وما يلازمه من تعصب (لله والملك والوطن) وما إليها، هو أفظع الخرافات الناشطة الأثر فى الناس فى هذا الزمان. ولا بد لكل دولة من أن تكون حرة فى تكوين نقودها الخاصة بها، وتنظيم ديونها، وإعاقة مرور وسائل المواصلات فى أرضها وإقامة حواجز من التعريفة لإيقاف فيض التجارة. ولابد لكل منها أن تستدين ديونها الخاصة وأن تظل على ما هى عليه من الاعتراض للغير والوقوف فى سبيله والعداوة والتسلح التام ضد جيرانها المماثلين لها مماثلة جوهرية. ولا بد لكل منها من إقامة نظامها التعليمى الخاص، ومن تعليم النشء فيها تاريخاً متحزباً كاذباً، وبث غرور قومى سام، وعداوة سامة للأجانب فى كل جيل جديد.

وكانت عقبى أوربا هذه، صاحبة تلك اللعنة الورونة المكونة من دول ذات سيادة لا يربطها فيما بينها اتحاد، هى أنه عندما عادت عملية الاضطراب والانهاك الاقتصادية التى كانت ظهرت فى فرنسا بعد الثورة الفرنسية، عندما عادت فظهرت فى أوربا على درجة أعظم بعد الحرب العظمى، زادتها المعقدات الدولية تعقيداً على تعقيد. كان الفقر قد عض كل دولة، ولكن كل دولة كانت قد جمعت حساب الديون التى لها على كل دولة أخرى مقابل المساعدة القومية فى الحرب التى كانوا فيها حلفاء، كذلك فرضوا على المغلوبين فريضة من ديون خيالية مضحكة. ومع أن الولايات المتحدة كانت فى المدة الأخيرة من الحرب العظمى خصماً لألمانيا ولقيت من الآلام أقل من أية دولة أوربية لها أصبع فى الموضوع، فإن الذخائر والميرة الأمريكية قدمت لكل حلفائها بثمن باهظ مبالغ فيه، فكانت أوربا لذلك مدينة عند ذاك لأمريكا ديناً يعقد الألسنة دهشاً.

وكان الرفض الصريح لمعظم ديون الحرب ومدعيات الحرب هذه، خير ما يصفى الجو فى العالم بأكمله، ولم يكن شىء ليستطيع أن يتذرع بالقدر اللازم من الجرأة والصراحة إلا حكومة اتحادية قوية فى أوربا. ولكن لم تكن لأوربا حكومة اتحادية، ولا سياسيون عالميون ولا قادة وحيو الفكر، بل كان هناك كل ضيق الحدود من الملوك ورجال الدولة والسياسيين وزعماء الأعمال الذين يعتمدون على التعريفة الجمركية، والصحف المحدودة الأفق القاصرة على لغتها ومناطق توزيعها، والمعلمين الذين تعينهم الدولة بالأموال والجامعات القومية وجماعات الماليين.

الوطني النزعة وكل كان ينخلع فؤاده فرقاً لمجرد التفكير في أي نظام أكبر من نظامهم يمحو المزايا الشخصية المميمة التي ينعمون بها على حساب الدولة المشتركة الأوربية . إنهم ليرفضون أن تكون لهم أوربا مشتركة . وإنهم ليأبون أن يسمموا عن ذلك كله واحدة. وإنهم ليفضلون أن تموت أوربا على أن تزول قومياتها . وكأني بهم ذباب يقع على كومة من قاذورات ويأبى إلا أن تبقى ليستمتع بها ما ساعفه الاستمتاع .

وعلى ذلك فإن أوربا إلى الغرب من الروسيا دخلت من الناحية السياسية في دور تقمصت فيه شخصية شايلوك[1] ، فإن الخطط المدبرة لتسديد هذه الديون الخيالية للحرب كانت تستنفد ذهن الرأى العام بأكمله ، وفي نفس الوقت اتبعت كل دولة ذات سيادة طرائق خاصة بها في شئون النقود . وحلت كوارث الفقر ومحنه بكثير من الناس وأصبح الكثير أغنياء بالمضاربات على شاكلة خيالية مضحكة ، ولاح للناس أن إنفاق النقود أصوب من جمعها . فلئن توقف إنشاء المنازل للناس العاديين فلم يكن هناك ما يحول دون بناء وتحسين فنادق الترف . ولم يحدث قط في أوربا مثل هذا القدار الكبير من الرقص ولم يحدث قط مثل الاهتمام الكبير باقتناص الرياضة واللذات . وكان وجه أوربا ينم عن حمرة الحمى المهلكة .

وجاء انهيار النقد في الروسيا أولا . وهناك رعته الحكومة الشيوعية ورحبت به . فأخذت الروبلات تطبع بلا حساب ، وهبط التبادل وارتفعت الأسعار حتى أصبحت البيضة أو التفاحة تباع بعشرة آلاف روبل ولم يعد للفلاح ما يدعوه إلى اكتناز النقود أو إلى العمل من أجل اكتنازها . وكان في نية غلاة الشيوعيين إلغاء كل بيع أو شراء حر . وكانوا يرمون إلى جعل النقود بلا قيمة ، وكان عمل الهادن على أن يقدر ببطاقات تسلم إليه على فترات دورية لا يمكن على وجه العموم تبادلها ولكنها تحمل كوبونات قابلة للفصل تنتظم الطعام والكتب والسفر وما إليها . ولكن الحكومة البلشفية اقتنعت في ١٩٢١ بالحاجة إلى استعادة هذه السيولة الاقتصادية التي لا يتيحها لنا إلا النقود ، وظهرت عملة روبل جديدة . كان فيها كل روبل مساوياً لعشرة آلاف من القديمة . واستبدلت بهذه في ١٩٢٣ عملة الشرفونتز وهي روبل ذهبي يعادل في القيمة الروبل القيصري قبل الحرب . وذلك هو قاعدة العملة اليوم . وقد أصدر عن حكمة وتبصر فاحتفظ بقيمته إلى يومنا هذا ، وهو يسجل عجز النظام الاقتصادي البلشفي عن فصل نفسه عن معقد الأساليب ، والتبادلات والديون القائمة

---

(١) شايلوك : شخصية مهاب يهودى جشع فى رواية تاجر البندقية لشكسبير .

إلى الغرب منه . فإن مسألة النقود فى العالم واحدة ولا يمكن أن تحل إلا بوصفها مسألة عالمية .

ولم تجر إلى الغرب من الروسيا أية محاولة للتخلص من استعمال النقود تخلصاً نهائياً ، ولكن كان هناك فى كل دولة تضخم يتفاوت مقداره . وكان ابتلاء ألمانيا بالنقود بالغاً أقصاه وهو يبرز لنا العملية العامة فى أكمل صورها . ولجأت الحكومة إلى المطابع لعجزها عن أن تجمع بالضرائب الأموال الكافية لمقابلة التزاماتها الخارجية وحاجاتها الداخلية . وبزيادتها لمقدار الماركات المتداولة ، ارتفعت تكاليف الإدارة وعلا ثمن العملة الأجنبية اللازمة لدفع التعويضات ، وهذا الأمر استلزم من الحكومة اللجوء مرة ثانية إلى المطبعة . وفى يناير ١٩٢٣ بلغت قيمة الدولار الذى كان ثمنه الأصلى يعدل خمس ماركات ذهبية ٧٢٦٠ ماركا . ثم حدث انهيار سريع . فإنه كان يساوى فى فبراير ٢١,١٢٠ ماركا ورقياً . وتجاوز فى يوليه حد المليون . وفى نهاية السنة كان قد بلغ أربعة بلايين من الماركات الورقية .

وكانت الآثار الاجتماعية لهذا التغير الخيالى المضحك للنقود الموثوق بها وتحولها إلى ورق لا قيمة له آثاراً عميقة . فإن جميع طبقات الناس الذين يعيشون على استثمارات ذات فوائد ثابتة وأرباب المعاشات والأرامل والأيتام الذين لهم أعطيات سنوية إلى غير ذلك ، قد أدقعت ودفعت إلى إتيان أحقر وأذل الوسائل فى سبيل العيش ، وتوقفت كل أعمال النشاط العلمية والأدبية والتعليمية المعتمدة على الهبات ، ولم يستطع الموظفون ولا المدرسون ولا أرباب الحرف ومن إليهم من أشخاص يعيشون على مرتبات ثابتة أو أتعاب ثابتة أن يزيدوا أبداً فى دخلهم زيادة تتناسب مع ارتفاع الأسعار . وكان ما يحدث إنما هو فى الواقع نوع من الذبح الاقتصادى للمتعلمين الفقراء . واختفت الإيجارات من الوجود ولكن أثمان جميع الضروريات حلقت فى السماء تحليقاً مضحكا .

وفى نفس الوقت أصبح كل راهن أملاكه وكل شركة أعمال فى مركز يخولهم أن يدفعوا ديونهم ورقاً لا قيمة له ، وتبخر دين الحكومة الداخلى وسُلف البلديات فى الداخل . وجاء وقت تنبهت فيه أشغال التصدير تنبهاً عصبياً . وأصبح من الضرورى فرض حواجز قوية تمنع تصدير كل شىء ثمين فى البلاد . ولكن استيراد الطعام والمواد الخام هبط إلى لا شىء ، وهبط استخدام العمال هبوطاً سريعاً بعد أن ابتدأ بنشاط قوى . وأمسى الطعام نادراً فى المدن لأن الفلاحين ، وقد أدركوا عدم فائدة النقود لم يعودوا يقبلون عند ذلك إلا طريقة المقايضة ، وكان الجوع والألم والهم نصيب كتلة الطبقات الوسطى والفقراء الطيبين المقتصدين . وارتفعت نسبة الانتحار ارتفاعاً شديداً . وهبطت نسبة المواليد ١٥٪ فى المئة بالمقارنة إلى السنة السابقة .

وبالرغم من هذا فإن نسبة وفيات الأطفال زادت ٢١ فى المئة .

وكانت المتاعب السياسية تضطرم فى كل مكان حركات رجعية وعصيانية . ولعل شعبا واحداً لم يكن ليستطيع تحمل هذه العاصفة إلا الألمان ، ذلك الشعب المتعلم النظامى . وفى نوفمبر أنشأت الحكومة عملة جديدة . فأصدرت ماركا جديدا هو الرنتمارك بضمانة ما فى البلاد من الأرصدة العامة وأوقفت طبع الماركات القديمة . وكان المارك الجديد ماركا مكافئاً لبليون من المارك الورق . وترتب على التقليل من الطبع تقليلا قاسياً ، أن ارتفع المارك الجديد بالتدريج حتى بلغ مراقى النجاح ، وبذلك استطاعت ألمانيا أن تعود أيضاً إلى ولائها القديم لعيار الذهب ، وحل الريخ مارك الذهبى محل المارك الجديد فى ١٩٢٥ ، بقيمة معادله ، ومن ثم أخذ فى سحب المارك الجديد شيئاً فشيئاً .

وقد حدث فى أقطار عديدة من أمثال النمسا وبولنده أن قصة النقود أوشكت أن تبلغ فيها مبلغها المحزن فى ألمانيا . وترنحت كل منهما حتى أنشأت عملتها الحالية الجديدة المعدلة . واستعمل النمسويون عملة جديدة للمحاسبة هى الشلن وأوجد البولنديون الزلوتى وكلاهما يعتمد على أساس الذهب . فأما الأقطار الأخرى من أمثال تشيكوسلوفاكيا واليونان وفنلنده فإنها وإن تضخمت فلقد تضخمت فى حدود الاعتدال واحتفظت بوحدتها النقدية الأصلية فى ضرب من الثبات يعدل خمس أو سدس قيمتها الذهبية السابقة . وتضخمت إيطاليا وفرنسا والبلجيك فى حدود أضيق من هذه كثيراً . وهبطت الليرة من ٢٥½ إلى مئة للجنيه الإسترلينى قبل زمان موسولينى ، وبعد أن مرت فى دور من أدوار الطمأنينة المشكوك فيها أخذت تواصل الهبوط تدريجياً إلى ١١٠ و ١٢٠ و ١٣٠ . وعند ذلك وضعت فى حالة من التضييق القاسى وثبتت على مستوى جديد يزيد قليلا على ربع قيمتها الأصلية . وهبط الفرنك الفرنسى والبلجيكى والبيزيتا الأسبانية بدرجة أبطأ منها نوعا ما . وتجاوز الفرنك حد المئة للجنيه فى ١٩٢٥ ، ثم أصيب بأزمة وحدثت نوبة رعب عدل بعيدها إلى خمس قوته الشرائية قبل الحرب .

وسقط الجنيه البريطانى عن قيمته الذهبية بعد الحرب العظمى ، ولكنه لم يبلغ قط إلى حد فقدان أكثر من ثلث قيمته ، وفى ١٩٢٤ — ١٩٢٥ ، وبعد مجهودات مضنية وتقييد للائتمان ، وإيقاف للمشروعات والأعمال وأزمة خطيرة فى البطالة ، جُذب من جديد إلى معادلته القديمة للدولار الذهبى ، ومرت على الأقطار السكندناوية وعلى هولنده وسويسرا تجارب صغيرة نسبياً فى ارتفاعات العملة وانخفاضاتها .

وما هذا إلا تاريخ العالم نسطره لك على هيئة الحساب والأرقام . ولا بد للقارىء من

أن يتخيل بنفسه ضخامة المخاوف والحرمان والأمراض والقنوط والموت التي كانت تتضمنها هذه العجائب البارومترية في العملات الأوربية لو أنها ترجمت إلى لغة الشعور الإنساني .

وعادت بريطانيا بصعوبة إلى عيار الذهب ردحا من الزمان . ولم تقدم للعالم عملة مثالية ، ولكنها لاحت خير معيار في مستطاع العالم ، على حين كانت النقود ما تزال يتصرف فيها عدد كبير من الحكومات المستقلة . ونظراً لأنه لم تكن هناك حكومة عالمية عامة ولا حكومة اتحادية للعالم تستطيع أن تتصرف في هذه الشئون ، فقد لاح من الضروري أن يسلم الناس السيادة الاقتصادية في الأرض إلى أحد المعادن . وكان المعدن مادة مواتاً ، ولم يكن يستطيع أن يستجيب للزيادة والنقصان في الثروة الحقيقية ، وكان يجعل كل نشاط إنتاجي جديد يدفع الجزية لأرباح الماضي . ولكنه لم يكن على الأقل يستطيع أن يغش أو يكذب ولم يكن فيه شيء من سوء الظن بالغير والتحامل الوطني على الغير .

ولكن كان في المستطاع إمساكه وسجنه . وكان من أثر دفعات الدين الهائلة التي دفعت لأمريكا وفرنسا أن تراكمت كميات عظيمة جداً من الذهب في هذين القطرين . وهناك اكتنزوه وأصبحت القيمة الفعلية للدولار المسكوك من الذهب أقل من عملة دولار الذهب الورقية العادية . وكانت العودة إلى معيار الذهب في زمان كان فيه إنتاج السلع يفوق على وجه العموم إطلاق الذهب لتصنع منه النقود — أمراً لصالح الدائنين دون غيرهم . هبطت الأسعار تجنـوا أكثر مما بذروا وتعرقل كل جهد ومسعى اقتصادي .

ومما يزيد كثيراً في عيوب المعيار الذهبي أن الجيولوجيين يخبروننا بأن موارد الذهب قد أخذت تقارب النضوب . ويجد القارىء مناقشة وافية صريحة لكل هذا في الكتاب المسمى « ثروة البشرية وسعادتها[1] » . وقد بلغت الديون التي فرضها المظفرون في فرساى على ألمانيا والنمسا من الفداحة (كما بين ذلك في حينه المستر ج . م . كاينز)[2] حداً يجعلها من الناحية العملية عبئا لا يطاق . ولكن كان يصحب كل هبوط في الأسعار يرجع إلى اكتناز الذهب ويصحب الإنتاج المتناقص للذهب والزيادة في الإنتاج ، أن أصبح عبء هذه الديون على المنتج الأوربي أفدح بالفعل . فكان لا بد له أن يزرع وأن يصنع وأن يبيع أكثر فأكثر حتى

(١) ثروة البشرية وسعادتها : تأليف ولز أيضاً وهو الكتاب الذي يرى ولز أنه يكون مع كتابي علم الحياة ومعالم تاريخ الإنسانية الإنجيل الحديث الذي لا بد لكل مواطن في العالم أن يدرسه دراسة عميقة حتى يصبح مواطناً صالحاً يستطيع أن يفهم المشاكل المتصلة بوطنه وبالعالم ويقضي فيها برأي (راجع المعالم كلمة المترجم ج ١) .

(٢) كاينز : بلغ من استفداح المستر كاينز لهـذه التعويضات المفروضة على ألمانيا أن استقال من وظيفته احتجاجاً عليها كما أسلفنا .

يحصل على نفس المقدار من الذهب اللازم لدفعاته . على أنه وجد أنه بالرغم من كل مجهوداته استطاع أن يبيع أقل مما كان يفعل آنفاً . إذ كانت التعريفات الجمركية العالية فى كل جانب تحول دون بيعه . وكان مشروع داوز[١] (١٩٢٤) ومشروع يونغ[٢] (١٩٢٩) إعادة نظر فى الديون الأوربية وتعديلات فى أساليب الدفع ، استدعاها هـذا التحميل المتواصل الذى أبهظ الموازين التجارية فى صالح الدائنين . وكانت الراحة التى ينتجها كل مشروع منهما لا تلبث أن تتلاشى سريعاً فى عملية التخفيض المتواصل فى مقدر العملة الورقية المتداولة . ولما وافت ١٩٣١ كانت أوربا عامة ، وألمانيا والنمسا بوجه خاص ، على شفا الانهيار الاقتصادى التام ، وفى يونيه من تلك السنة ، لا قبل ذلك اقترح الرئيس هوفر السماح بهدنة فى دفع الديون تمتد اثنى عشر شهراً . ويقال إنه كان يتصل بهذا الاقتراح فى ذهن الرئيس فكرة سمحة ترمى إلى إعادة السلام السياسى والاقتصادى إلى أوربا ، لولا أن موقف فرنسا من تلك الهدنة المالية (الموراتوريوم) لم يشجعه على مواصلة البحث فى هـذه المسائل الأكبر عظما وضخامة : إذ انزعجت فرنسا لإنزال الألمان سفينة حربية صغيرة ولكنها قوية جداً فهيج ذلك جميع مخاوفها من الانتقام الألمانى . وترتب على اعتراض الفرنسيين على إطلاق ألمانيا من ربقة الديون ، أن حدث شىء من التأخير فى تنفيذ مقترح الرئيس هوفر ، وجاءت النجدة بعد فوات الأوان فلم تستطع أن تمنع سلسلة من كوارث البنوك فى ألمانيا والنمسا . وكانت لندن تدعم « الائتمان » الألمانى بسلف قصيرة الأجل ، مستعملة فى ذلك الأموال الفرنسية فى الديون القصيرة الأجل . وأفضى الانهيار المالى الألمانى إلى تجميد الأموال الإنجليزية التى بألمانيا ، وأخذ الدائن الفرنسى يسحب ودائعه من لندن . وأوجد هذا حالة لا سابق لها من عدم الاستقرار فى مركز بريطانيا المالى . وفى أغسطس استقالت حكومة العمال ، وألفت لمواجهة الحال حكومة قومية لإنقاذ الجنيه والاحتفاظ به على معيار الذهب . وظل المستر رمزى ماكدونلد الذى كان حتى ذلك الحين زعيم العمال ، فى منصب الرياسة . واستمرت محاولاتهم إنقاذ الجنيه ثلاثة وعشرين يوما . ومن بين نواحى الاقتصاد فى المصروفات أن مرتبات البطالة وماهيات قوات الإمبراطورية المسلحة ، والبوليس والمدرسين أنقصت انقاصاً قوياً . ومن سوء الحظ أن فشلت هذه التضحيات التى بذلت من أجل المعيار الذهبى فى

---

(١) شارلس داوز : (ولد ١٨٦٣) محام وسياسى أمريكى ، عينته لجنة الحلفاء للتعويضات رئيساً للجنة التى أصدرت مشروع داوز — وهو المشروع الذى يرمى إلى مساعدة ألمانيا حتى تدفع أقصى ما تستطيع من ديون الحرب . وقد حل محله مشروع يونغ فى ١٩٢٩ .

(٢) أوين يونغ (ولد ١٨٧٤) : محام أمريكى ، رأس لجنة يونغ لتسوية التعويضات الألمانية فى ١٩٢٩

استعادة الثقة الأجنبية . وحدث أن تقدم من الأسطول احتجاج على تخفيض أجور البحارة فبولغ فى شأنه فى البورصات الأجنبية إلى حد أن أخذ الناس يتحدثون عن تمرد خطير ، وعن انهيار بريطانيا العظمى وعن احتمال حدوث الثورة فيها ، ومن بعدها لم يقو أى شىء على إيقاف تيار سحب الذهب من البلاد . وفى سبتمبر اضطرت بريطانيا إلى الخروج عن معيار الذهب ، وإليه عادت فى غير تبصر وفى شىء كثير من التسرع فى ١٩٢٤ — ١٩٢٥ . وسقطت قيمة الجنيه من قرابة خمس دولارات إلى أقل من أربعة .

ذلك هو القدر الذى نستطيع أن نتحدث به ها هنا عن تأرجحات وتخبطات النقود طيلة فترة ما بعد الحرب . ويجد القارئ بيانا أوفى من هذا وتحليلا للأسباب الفعالة أنصع منه — فى كتاب «ثروة البشرية وسعادتها» . وقد أدلينا إليك هاهنا بالقدر الكافى لتوضيح متاعب الإنسانية المتزايدة ، ومتشعب اتجاهات شئون العالم النقودية بين عدد من الدول المستقلة المتنافسة ذات السيادة . ونحن فى قصتنا عن سقوط روما قد لاحظنا الدور الذى لعبته الديون على مسرح هذا الانحلال الضخم . ومن الواجب المفروض على هـذا الجيل أن يتأمل إلى أى حـد سوف تستطيع مدنيتنا الحاضرة أن تتجنب نشوء عملية مماثلة لهـذه قوامها الاختناق بالديون والانهيار الإقتصادى .

١٠ — التناقض بين فرط الإنتاج والحاجة

فى العشرين السنة الأخيرة أخذت صعوبات اقتصادية بعينها تحير الإنسانية وما تفتأ تحيرها إلى اليوم . ولم تنشأ هذه الصعوبات بصفة مباشرة عن القومية المالية وما يترتب عليها من الاختناق فى الائتمان والعملة ، الذى كنا نناقشه من توِّنا ، وإن زادت ولا شك زيادة فاحشة وتوكدت توكيداً كبيراً بسبب هذه الأشياء . على أن سنوخ أسبابها كانت تمتد إلى أبعـد من ذلك . فلو أن العالم كان موحدا وينعم بأعظم وأكمل ما يتصوره العقل من أنواع النظم العالمية للأعمال لظهرت تلك الصعوبات مع ذلك ، وإن حدث ذلك فى شكل أكثر بساطة وأيسر معالجة . كانت جزءاً من طبيعة أساليب الأعمال ذاتها التى أنتجت الثروة والاتساع الاقتصادى فى القرن التاسع عشر .

كان هناك فى القرن التاسع عشر نوع من التوازن بين الإنتاج والاستهلاك . فقد كان العالم يحصل بشكل ما على غذائه وكسائه ويزود بكل شىء آخر يعد ضروريا وطيباً ، بوساطة استخدام قسم كبير من السكان . وكان إنتاج كثير من السلع المصنوعة يفوق فى الأقطار الأكثر تقدما قوة الاستهلاك الداخلية ، ولـكن كان يوازن هـذا الحال تصدير الفائض

واستيراد بضائع فى مقابله ممـا لا يمكن الحصول عليها بغير استيراد . على أن تقدم أساليب الصناعة كان سريعاً . إذ كانت الزيادة فى الـكفاية الإنتاجية مطردة وكان معنى ذلك أن نفس المقدار من الإنتاج كان يستدعى وجود عدد من العمال يتناقص يوما بعد يوم . فـكانت المصانع فى ١٨٣٠ غاصة بالعمال الذين يتصببون عرقا ، وهم يشتغلون ذراعا إلى ذراع ومرفقاً إلى مرفق . كانوا تعساء ولـكنهم كانوا يجدون عملا . ومثيلات هذه المصانع فى ١٩٣٠ تقدم إليك صفاً من الماكينات الهادرة ، قد يكون عليها عامل أو إثنان يتقاضيان أجراً معقولا وهما يسيران بينها يلحظانها فى انتباه واقتدار . وترى فى الخارج مكاتب لتخديم العمال وعلى أبوابها طوابير متزايدة الطول من العاطلين . فـكأنه كان هناك زيادة فى الإنتاج يسايرها نقص فى الاستخدام . فالصناعة تزيد كل يوم كفاية وطرداً للناس عن أعمالهم .

وقد ظهرت طبيعة هـذه العملية فى بريطانيا العظمى أولا بسبب ما عليه الإحصاءات البريطانية الصناعية من عظيم السلامة والدقة . ففى السنين السابقة للحرب كانت نسب العاطلين إلى العمال العاملين لا تزيد فى العادة عن شىء يتراوح بين ٥ و ٧ فى المئة . ثم اكتشفوا تلك النسبة ترتفع إلى ١٢ ثم ١٥ فى المئة . وكان فى انجلترا فى ١٩٢٧ ما يربو على المليون من العاطلين . وفاقت هذه الأرقام فى ١٩٣٣ الثلاثة الملايين عداً . واكتشف الناس للفور ألمانيا وهى على نفس الحال . إذ كان لديها فى ١٩٣٠ ثلاثة ملايين من العمال العاطلين ، فتجاوز هذا الرقم الأربعة الملايين فى ١٩٣١ . وفرنسـا تتصرف فى الإحصاءات العامة بطريقة تخالف هذه ، ولـكن كانت العطالة تنتشر من وراء الحجب ، ويقدرها الثقات بمـا لا يقل عن المليون فى ١٩٣٠ . وبلغ رخاء أمريكا المحموم أوج اضطرابه بانفجار عاصفة عظيمة من بيع الأسهم والسندات فى ١٩٢٩ ، وجاءت عقب ذلك سلسلة من أدوار الهلع وانخفاض الأسعار فجأة . وقدر عدد العاطلين الأمريكيين فى ١٩٣٠ بشىء يتراوح بين أربعة ملايين وثمانية ملايين .

وأدرك الناس أن الأمور تدور دورة نقمة وشر . فكانت الـكفاية المتزايدة فى الأعمال تنقص استخدام العمال . وكان معنى النقص فى الاستخدام نقصاً أعظم فى الأجور ، إذ كان من يتلقون الأجور عدداً أقل . وكان معنى هـذا من ناحية أخرى نقصاً فى القوة الشرائية لدى الجمهور العمومى الذى كانت نسبة متزايدة من أفراده تكف عن الـكسب . كان هناك مقدار يفوق الحاجة من كل الأصناف ، وبذا كان الناس يحرمون من قوة شرائها واستهلاكها . وأدى ذلك إلى وجود بضائع لاتباع وإنتاج يتناقص ، وأدى هذا بدوره إلى المزيد من العطالة والتناقص فى الطلب . فكلما زاد ما كان لدى العالم زاد ما كان يحتاج إليه . وشهدت ١٩٣٠ عالماً وجد فيه

قدر أكبر مما يلزم ، من الحنطة ومن الحديد والفولاذ ومن النحاس والمطاط ، وفيه من الناحية الأخرى حشد متزايد من الناس لا يستطيعون أن يشبعوا أبسط حاجاتهم .

وصل نظام الإنتاج من أجل الكسب إلى أزمة عصيبة . ولكن نظام الإنتاج من أجل الكسب هو الذى أوجد العالم الذى نعيش فيه ، وأعطانا كل فكراتنا عن العمل وعن العمليات الصناعية ، وها نحن أولاء نجد أنفسنا وليس لدينا أى حل صحيح مرض لذلك اللغز الذى اقتادنا إليه نظام الإنتاج للكسب . ولسوف يجد القارىء فى كتاب « ثروة البشرية وسعادتها » مناقشة أعظم مما نستطيع ها هنا وأكمل ، لمعقدات هذا الموقف وآماله وأخطاره . ولا يكاد الإنسان يصدق أن عالم البشرية الذى يرى ، والذى قام بعدد جم من المدهشات لن يعثر على مخرج له من هذه الورطة التى نعانى فيها اليوم أشد الآلام — مع وجود مقادير أكثر من اللازم من كل شىء نحتاج إليه . ولكن لا نعرف على وجه العموم لنا حتى اليوم مخرجاً من هذه الورطة . ويعم هذا التأزم الاقتصادى العالم اليوم . وهو يملأ عقول الرجال بيأس من نفد صبره ويجعل تلك المشكلة الكبيرة الأخرى ، وأعنى بها مشكلة توحيد العالم ، التى نرى أن الواجب الخاص « لمعالم التاريخ » هو أن يتأملها — أشد خطراً وأعظم صعوبة مما لو كان الحال غير هذا الحال .

وربما كان هناك بارقة أمل فى عبارة تفشو اليوم فى الأفكار السارية وأعنى بها عبارة الاستهلاك الحشدى أو بعبارة أخرى إنفاق المجتمع . فالمشترى الفرد يتناقص عدداً ، على أن هذا ليس بالسبب الذى من أجله — فى شئون السكنى والنقل والبحث العلمى والزراعة والتعدين والتعليم وحتى الملاهى — يجب ألا يدبر المجتمع فى جملته أساليب الشراء واستخدام ما بين يديه من عمال ومواد هى الآن راكدة آسنة . وربما نكون مقدمين على عصر إعادة بناء مدن ذات روعة وجمال غير عاديين .

١١ — تنازع التقاليد والتعمير

تمكنا فى بياننا عن قصة مغامرة البشرية إلى يومنا هـذا من ربط التغييرات الكبيرة فى الخبرات الإنسانية بالبذور والأجيال التى عنها نشأت ، لأن كل تغيير كان وهو يتم يكشف عن جذوره وبذوره . ولكن تقدير القوى المخبوءة ثمارها فى أطواء المستقبل إنما هو مشكلة ذات صفة مختلفة تمام الاختلاف . ولقد عرضنا عليك فى ثنايا قصتنا كفاحا طويلا بين التجديد التعقلى وبين التقاليد . فمنذ أفلاطون وما ذهب إليه فى شأن المدينة الفاضلة وثقته فى

قدرة الإنسان على تغيير حالته ، ومنذ أرسطو وإصراره على استعلاء العقل وفوقه وعلى الحقائق المثبتة بالبرهان ، — حتى عهد الجهد والعلم الإنشائيين فى هـذا الزمان ، ونحن نرى العقل الإنسانى يتحسس طريقه نحو الحرية الخلاقة . وفى كل آن كانت قوى المحافظة الغريزية وذوو الامتيازات والسلطة الدينية المتحكمة تقاوم ذلك التقدم أو تمنعه . نعم إن هناك تطوراً فى الفكرات العالمية السياسية منها والاجتماعية والأخلاقية ولـكن هل قدر لها أن تؤتى ثمارها ؟ فإن الجيوش تزحف والرايات ترفرف ، وذوى الوطنية يصرخون . فهل القومية طيف خيال أوشك أن يصبح به الديك[1] فيتلاشى ؟ أم أنها حقيقة مستديمة مدمرة ؟ بينما لا تزيد الوحدة الإنسانية على أمل عابر ! إنها طيف مشرق صاخب إن صح أنها طيف . تناول أية صحيفة سيارة وقس نسبة ما تتسع له صفحتها من التعليم والفكر وشئون المستقبل . ولاحظ أى مجموعة من الأفراد العاديين واستكشف بنفسك كم دقيقة فى الأسبوع يوجهون فيها تفكيرهم إلى تقدم العالم .

ومع هـذا فإن التقدم العلمى والمادى يطرد فى سبيله ، وبخاصة فى نواحى السيكولوجيا الاجتماعية والتحليل العقلى . وربمـا كان من الضرورى وجود فكرة جديدة أكثر صحة ، عن الإرادة الإنسانية والخيال البشرى من أجل الحصول على الخطوة التالية أماماً فى الشئون الإنسانية ، وكأنمـا نحن آخذون بأسباب الوصول إلى هذه الفكرة . نعم إن الجمهور متخلف ولـكن الجمهور متحرك ، فلو تعلم قدراً ضئيلا نسيه بسهولة ، وفى الإمكان صبه فى أواعى جديدة ، وعند ذلك يتشكل بغاية السرعة بشكل النظم الجديدة . وما وطنياته وولاءاته وعداواته بل ليست معتقداته التى يعبر عنها بأشـد حماسة إلا أموراً سطحية لا تتجاوز أديم البشرة . وكل وسائل وأساليب بث الفكرات فى عقول الناس وعرض وجهات النظر عليهم ، ومساعدتهم على رؤية الأشياء على حقيقتها ، قد أصبحت اليوم أكثر كفاية واقتداراً مما كانت عليه من قبل إلى حدٍّ لا يدع مجالاً إلى أية مقارنة . ونحن الآن نتجاوز تلك الفكرة الفجة الأولى للديموقراطية التى كانت تنظر إلى الجموع الناخبة منتظرة منها المبادهة والتوجيه . وإنا لندرك على درجـة متزايدة من الوضوح أن المستقبل يعد فى المعمل الـكيماوى والمـكتب وليس يجهز فى الشارع . والقومية التى تتسلط اليوم على العـالم أشبه شىء بعربيد ثمل صاخب ، يتحكم ويصم آذان كل إنسان فى الحجرة . فحتى يأتى ذلك الوقت الذى يُطرد فيـه بغتة وإذا بكل إنسان يصبح غير مصدق أنه أطاق شره . فإن الحدة والعنف اللذين تستعملهما الوطنية فى

(١) فى ذلك إشارة إلى الخرافة القائلة بأن الأشباح والعفاريت تتلاشى فى الفجر عند صياح الديكة .

إيطاليا فى إرهاب الناس وقتلهم وتحاول أن ترهب بهما فى فرنسا وألمانيا وبريطانيا والولايات المتحدة هما معيار خشيتها من مناقشتها الحساب النهائى .

والقوى الجديدة والفكرات العالمية التى يجب أن ترث الأرض يوماً ما ، تكافح عوائق وربكات عامة ينطوى عليها ما فطرت عليه من عدم ولاء لمدعيات كل حكومة قائمة . وهؤلاء الذين يستولى على لبهم حلم عودة الوحدة إلى الإنسان لا بد لهم أن يختاروا بين أن يمتنعوا عن الحياة السياسية ، وبذا يقضون على أنفسهم بعدم الفائدة ، وبين أن يدخلوا فى الهيئات التشريعية ويقسموا أيمان الولاء مع عقدهم العزم الأكيد على إخضاع النظام الذى يعدون بخدمته وتعضيده إلى تحقيق غاية أعظم . زد على ذلك أن الحكومات والهيئات التشريعية مكونة من أجل النزاع والتعبير القومى بحيث أن الرجال الذين يدخلون حظائرها عامرى الذهن بأرحب المقاصد يجدون أنفسهم خاضعين لتحديدات الظروف المحيطة بهم وقيودها . فإن الاستعلاء على الحدود القومية والإمبراطورية أيسر على الأعمال والتنظيمات المالية التى علكها الأفراد منه على السياسيين . وهناك عصبة من أصحاب المصارف أخذت ترجع العالم اليوم إلى المعيار الذهبى الدولى ؛ وشركات السفن والنقل الكبرى هى التى يجب أن تشخص أبصارنا إليها متوقعين أملا كالتى نرجوه الآن فى تحرير الإنتاج العالمى من قبضة التعريفات الجمركية الخانقة .

على أن النزاع بين « الأمة » و « الإنسانية » ، بين الجماعة الإنسانية المعتصمة بالحصون والجماعة الإنسانية الحرة الطلقة ، لن يكون على الدوام ولا على العموم نزاعاً بين جنس من أجناس الإنسان وجنس آخر . بل لسوف يكون أقرب إلى نزاع تدور رحاه فى أذهان الناس . والفكرات الجديدة عن المحتملات الإنسانية تترشح فى كل مكان ، وتغزو أفكار كل إنسان . وربما طفق أحد رجال الأعمال يدبر الخطط ويرهق عماله عملا بأبخس الأجور ويضيق الخناق على السلع احتكاراً ويتغلب على من عداه بكل ما أوتى من قوة وعزم ، ثم يصحو بليل ويتساءل عما إذا كان يقضى حقبة زمانه القصير بين الأبديتين على خير ما يقضى الزمان . وإن هناك فى أعماق الضمير الإنسانى لكراهية من الإنسان لعدم فائدته الشخصية . فكل إنسان حى يتساءل فى بعض الأحايين ، « ماذا أفعل بحياتى » ؟ ولسنا بقادرين إلا عند ما تتكشف لنا أطواء المستقبل أن نبدأ فى قياس مقدار وكيفية تسرب الحلم الجديد إلى أذهان الناس وقلوبهم تسرباً خفياً عاماً .

١٢ – لن يتم التوحيد إلا بالجهد الواعى

ترسم تاريخنا النماء المطرد للوحدات الاجتماعية والسياسية التى تجمع فيها الناس . ففى الفترة الوجيزة المكونة من عشرة آلاف سنة ترعرعت هذه الوحدات عن قبيلة العائلة الصغيرة فى الثقافة النيوليثية[1] المبكرة — إلى أن صارت الممالك الضخمة الموحدة فى زماننا الحاضر — وهى ضخمة نعم ، ولكنها لا تبرح صغيرة جزئية . وهذا التغير فى حجم الدولة — وواضح أنه تغير ناقص غير مكتمل — قد صحبته تغيرات عميقة فى طبيعته . فإن القسر والعبودية قد حل محلهما فكرات الحرية المشتركة ، والسيادة التى كانت تنحصر يوماً فى ملك مستبد (أوتوقراطى) وفى الرب ، قد انتشرت على نطاق فسيح فى كل أرجاء المجتمع . ولم يكن هناك حتى اليوم الذى وسعت فيه الجمهورية الرومانية حدودها حتى شملت كل إيطاليا ، أى مجتمع حر يكبر دولة مدينة . وكانت كل المجتمعات الكبيرة مجتمعات طاعة رياسة ملك . والجمهورية المتحدة فى الولايات المتحدة إن هى إلا شىء مستحيل قبل ظهور المطبعة والسكك الحديدية . ويصر التلغراف والتليفون والطائرة والتقدم المتواصل فى النقل البرى والبحرى على ضرورة وجود تنظمية أكبر من هذه وأعظم .

فإذا كان كتابنا هذا قد رسم على أسس صادقة ، وإذا كانت هذه الاستنتاجات الوجيزة سليمة ، ترتب على ذلك إذن أننا نشتغل بواجب هائل هو تنظيم الأمور وتنسيقها على ميعار أعظم ، وأن يكون ذلك هو الصيغة الجامعة للشئون الإنسانية عامة . وحروبنا ونزاعنا الاجتماعى وما نكابده من أزمات اقتصادية هائلة إنما هى مظاهر لذلك التنسيق . والولاء وإظهار الطاعة فى هذا الزمان إنما هى فى خير أحوالها ولاء وطاعة وقتيان . ودولتنا الحقيقية التى شرعت تبدو بوادرها ، هذه الدولة التى يدين لها كل انسان بأقصى جهده السياسى ، لابد أن تكون اليوم هى هذا العالم الاتحادى الوليد الذى تشير إليه الضرورات الإنسانية . وربنا الحقيق اليوم رب العالمين أجمعين . ويجب أن تذهب الوطنية بوصفها ربا إلى حيث ذهب رب القبيلة . فأما جنسيتنا أو قوميتنا الحقيقية فهى الإنسانية .

فإلى أى حد سوف يضع رجال هذا العصر أيديهم على هذه الضرورة ويتقمصونها وينصبون أنفسهم لتنقيح فكراتهم ، وإعادة صنع نظمهم ، ويعلمون الأجيال القادمة علم هذا الاتساع النهائى للمهادنة ؟ وإلى أى مدى سوف يظلون أغبياء متحجرى القلوب غلظة وقسوة ،

---

(١) النيوليثى : آخر العصور الحجرية (ص ٩٣ ج ١ من المعالم)

خاضعين للعادة ، مقلدين يقاومون القوى المتشعبة أمامهم شعبتين فإما الوحدة وإما الشقاء ؟ لسوف تأتى هذه الوحدة إن عاجلا أو آجلا ، وإلا فإن الناس سوف يهلكون بما يخترعون من مخترعات . ونحن — إذ نؤمن بقوة العقل وبحسن النية المتزايدين فى الناس ، نجد أنفسنا مضطرين إلى رفض الاحتمال الثانى . ولكن الطريق إلى الاحتمال الأول قد يكون طويلا ممتداً ومتعباً شاقاً ، مليئاً بالأحزان والمتاعب ، وربما أكنّ فى أطوائه حالة استشهاد ، لأجيال كثيرة ، أو لعلنا نرحل إليه سريعاً فى مدى جيل أوما يقاربه . فإن كل هذا يعتمد على قوى نفهم الآن طبيعتها إلى حد ما وإن لم نعرف قوتها . ولابد من وجود عملية عظيمة للتعليم بالسُّنة المحتذاة وبالإخبار والخبرة . ولكن ليس هناك حتى الآن مقياس كى للتعليم ينبئنا بالمقدار اللازم تعلمه ولا مدى السرعة التى يمكن بها تنفيذ هذا التعلم . وتختلف تقديراتنا باختلاف أمزجتنا ، وربما كان الزمن أطول كثيراً من آمالنا وأقصر كثيراً من مخاوفنا .

وقد أفضت التجارب الفظيعة فى الحرب العظمى إلى أن عدداً غفيراً من الرجال الذين كانوا يوماً ما يستهينون بالأمور السياسية شرعوا يعدونها أمراً خطيراً . ومن ثم أصبح الوصول إلى سلام عالمى العمل الأسمى فى حياة عدد صغير بعينه من الرجال والنساء كما أصبح تكريساً دينياً للنفس . وأصبح لدى عدد أكبر من هذا بكثير دافعاً متحكماً على الأقل . والكثير من أمثال هؤلاء الناس يبحثون الآن عن طرق للعمل على هذه الغاية العظيمة ، أو لعلهم اليوم يشتغلون من زمن شغلا تجريبياً منوعاً ، بطريق القلم والإقناع فى المدارس والكليات والكتب ، وفى الطرق الرئيسية للحياة العمومية وفى منعطفاتها الجانبية . وربما كان معظم أفراد الإنسانية ميالين الآن أحسن ميل إلى أمثال هذه المجهودات ، وإن عراهم فى ميلهم هذا شىء من الربكة ، فليس لديهم أى فهم واضح لما يجب أن يعمل وما ينبغى أن يمنع ، حتى تتوثق عرى التماسك الإنسانى . وما تفجر ينابيع آمال العالمين وإعجابهم بالرئيس ويلسون ، قبل أن أخذ شأنه يذوى ويُخيب آمالنا ، إلا شيئاً عظيم الدلالة فى مستقبل البشرية . نعم تنهض إزاء دوافع الوحدة هذه دوافع أخرى معادية لها تمام العداء ، منها الخوف من الأشياء والشعوب الغريبة وكراهيتها ، ومنها حب كل تقليدى من الأشياء القديمة والثقة به ، ومنها الوطنية والتحامل الجنسى والعنصرى ، والشبهات وعدم الثقة وعناصر الضغينة والنذالة والأنانية البحتة التى ما تزال على أقصى قوتها فى كل نفس إنسانية .

والقوى الجامحة التى ظلت حتى اليوم فى الفرد وفى المجتمع تكافح وتتغلب على العنيف الشرس والسافل الوضيع والفردى الأنانى من الدوافع التى تفرق بين المرء وأخيه ، كانت هى

قوى الدين والتعليم . فإن الدين والتعليم — هـذين المؤثرين المرتبط أحدهما بالآخر بأوثق رباط — قد طوعا وجود الجماعة الإنسانية الأعظم حجما التى تتبعنا نماءها فى هذه العالم . كانا هما القوتين التركيبيتين الرئيسيتين فى كل هذه القصة العظيمة ، قصة تكبير وزيادة أنواع التعاون الإنسانى التى تتبعناها منذ بداياتها . وقد وجدنا فى المنازعات الذهنية واللاهوتية فى القرن التاسع عشر التفسير لذلك الفصل العجيب بين التعاليم الدينية والتعليم الرسمى الذى هو مظهر مميز لعصرنا الحاضر ، كذلك تتبعنا عواقب دور المنازعات والربكة الدينية ذاك فى انحراف الشئون السياسية الدولية إلى قومية وحشية ، وفى تراجع الحياة الصناعية وحياة الأعمال نحو حالة من طلب الربح خشنة أنانية غير خلاقة . لقد حدث فى العالم تزلق عن الضوابط القديمة واعترى أفكار الناس انحلال حقيقى ذهنى للمدنية .

وإنا لنحب أن نشدد هاهنا على الفكرة القائلة بأن هـذا الانفصال بين التعاليم الدينية وبين التعليم المنظم إنما هو بالضرورة تفريق موقوت وهو حالة تزلزل غير دائمة ، وأن التعليم ينبغى له أن يصبح من فوره دينياً فى مقاصده وروحه ، وأن الدافع إلى الإخلاص وإلى الخدمة العامة وإلى التخلص التام من النفس ، وهى قوام القوى الباطنة المشتركة فى كل الديانات العظيمة فى القرون الخمسة والعشرين الأخيرة — وهو دافع قد انحسر انحساراً ملحوظاً جداً أثناء فترة الرخاء والتوانى والتشكك وكشف عماية الخداع فى السنوات السبعين أو الثمانين الأخيرة عن الناس — سوف يعود فيظهر ثانية ، مجردا واضحا ، ويكون هو الدافع التركيبى الجوهرى المعترف به لدى الجماعة الإنسانية .

والتعليم هو إعداد الفرد ليكون عضواً فى المجتمع ، وتدريبه الدينى إنما هو جوهر ذلك الإعداد . فمع إعادة صوغ العلوم والتوسعات الذهنية الجديدة فى القرن التاسع عشر ، لم يعد مفر من أن يصاب التعليم بالتصدع والربكة وفقدان النابة والهدف . ولسنا نستطيع بعد اليوم أن نعد الفرد لمجتمع بينما فكراتنا عن المجتمع محطمة لا تزال فى دور إعادة التكوين . والولاء القديم والدعاوى السياسية والاجتماعية القديمة المسلم بها الشديدة التحديد والضيق ، وقوانين الإيمان القديمة الدينية الشديدة الإحكام والتفصيل ، قد فقدت قوتها على الإقناع ، وأخذت الفكرات العظيمة ، فكرات الدولة العالمية وفكرات الدولة الاقتصادية المشتركة ، تفوز بغاية البطء بالتقدم نحو الظهور والسيادة .

وهى لم تؤثر حتى اليوم إلا فى أقلية من الرجال غير العاديين . ولكن عسى أن يخرج من متاعب ومآسى هذا الزمان ومن ربكة المستقبل انتعاش خلقى وذهنى ونهضة دينية لها من

البساطة وسعة المجال ما يجمع أفئدة الرجال المختلفى الأجناس ذوى التقاليد المتباينة اليوم تحت لواء عيش واحد مشترك مصان، هدفه خدمة العالم. ولسنا بقادرين أن نتنبأ بمجال مثل هذا النهوض وقوته، بل نحن حتى لا نستطيع أن نقدم إليك أى دليل على ابتدائه. فإن بدايات مثل هــذه الأمور لا تبدو قط للعيان. إذ أن الحركات العظيمة للروح العنصرية تدب بادىء الأمر دبيب اللصوص فى موهن الليل، ثم تكتشف فجأة وإذا بها قوية تملأ رحاب العالم. والعاطفة الدينية حين تجرد من المفاسد وتحرر من آخر معقداتها الكهنوتية — عساها أن تهب من جديد فى أرجاء الحياة للفور هبوب ريح عظيمة، فتفتح بالقوة أبواب حياة الفرد ومصاريعها، وتجعل أشياء كثيرة أمراً ممكناً يسيراً من تلك الأشياء التى تبدو فى أيام الانهاك هذه الحاضرة شيئاً توشك الرغبة فيه أن تكون من الصعوبة بمكان.

١٣ — القوى الهادفة إلى توحيد العالم

إذا افترضنا فى الناس قدراً كافياً من البر والذكاء ينتجان على الفور — اتعاظاً منهم بدروس التاريخ الماثلة — إرادة حازمة فعالة تتجه صوب السلام العالمى، وبعبارة أخرى إرادة فعالة لإيجاد قانون عالمى فى ظل حكومة عالية — إذ لا يستطاع التفكير فى السلام العالمى على غير هذه الصورة — فعلى أية حالة نتوقع أن نرى الأمور تسير نحو هذا الهدف؟

لن تسير هذه الحركة بخطى متساوية ولا شك فى كل قطر، كما أنه ليس من المحتمل أن تتخذ فى البداية صورة واحدة تعبر بها عن نفسها. فإنها لقد تجد فى هذا المكان جواً منبهاً وموافقاً لطبيعتها، وتجد نفسها فى ذاك معادية للتقاليد العميقة أو الخصيصة العنصرية أو المعارضات الوضيعة الجيدة التنظيم. وفى بعض الحالات، يكون الذين توجه إليهم الدعوة إلى النظام الجديد عائشين فى حالة تكاد تكون على استعداد لخدمة غايات عمليات التركيب السياسية الأكبر حجما، وهم فى بعض الحالات الأخرى مضطرون أن يقاتلوا قتال المتآمرين ضد حكم القوانين الشريرة.

وليس فى الدستور السياسى لبلاد من أمثال الولايات المتحدة أو سويسرا إلا أقل الموانع فى سبيل ائتلافها على أسس من التفاهم والأخذ والعطاء الصريحين مع اتحادات تعادلها فى المدنية، والأنظمة السياسية المنطوية على أقطار تابعة وشعوب خاضعة، كما كان شأن الإمبراطورية التركية قبل الحرب العظمى، تبدو بحاجة إلى شىء يقارب تفكيك عراها قبل أن تتكيف طبقاً لنظام عالم اتحادى. وسوف تصبح كل دولة متشبعة بتقاليد سياسة خارجية

عدوانية عنصراً عسير التمثل فى هذا المزج العالمى . ومع أن الحكومة ربما بذلت العون ها هنا ، وأبدت العداء والنباوة هنا لك ، فإن الواجب الجوهرى لكل رجل طيب النية والإرادة فى كل الدول والأقطار يظل كما هو — فهو واجب تعليمى عصارته ولبابه أن يقرب إلى عقول جميع الناس فى كل مكان سرداً جديداً للتاريخ وتأويلا مشتركا له ، — بوصفهما أساساً ضرورياً للتعاون العالمى .

فهل هذه العصبة الأمم التى خلقها ميثاق ١٩١٩ تضم فى أطوائها جرثومة أى اتحاد مستديم للجهود الإنسانية ؟ وهل قدر لها أن تنمو فى المستقبل إلى أى صورة يستعد من أجلها الرجال كما يقول ستالى براس « أن يشتغلوا من أجلها بكل أفئدتهم وأن يقاتلوا إذا استلزم الأمر » كما هم حتى اليوم مستعدون للقتال فى سبيل وطنهم وأبناء جلدتهم ؟ والعالم لا يحتوى فى الزمن الحاضر إلا أمثلة قليلة لمثل هذه الحماسة لهاته العصبة . وليس يلوح على العصبة أنها حتى تعرف كيف تتكلم إلى الرجال العاديين . فإنها دخلت الدور الحكومية الرسمية ، وقل نسبياً من الناس من يفهمون أو يعنون بما تفعل هناك . وربما كان الأمر أن العصبة لا تتجاوز حد مشروع أول للاتحاد ، مثالى فى شىء واحد فقط هو عدم كفاياته وأخطاره ، ومقدراً عليها أن يحل محلها شىء أوثق منها عرى وأتم صورة مثلما حل دستور الاتحاد محل موادالاحتلاف فى الولايات المتحدة . والعصبة فى هذا الأوان الحاضر هى مجرد عصبة متحيزة من حكومات ودول . وهى تقر القومية وتؤكدها وتذعن للسيادة . فما يحتاجه العالم ليس مثل هذا الصنف من عصبة الأمم ولا هو حتى مجرد عصبة شعوب ، بل عصبة عالمية للناس كافة . فإن العالم يهلك مالم تغمر السيادة وتخضع القومية . ولهذا الأمر يجب أن تكون أذهان الرجال مستعدة بالخبرة والعرفان والفكر . والواجب الأسمى المفروض على الناس فى زماننا هذا هو التربية السياسية .

ولن نحاول أن نزن هنا مقدار النصيب الذى سيتحمله فى إعادة صوغ الشئون الإنسانية وتوثيق تماسكها كل من تعاليم الدولية العالية ودعايتها ، ودراسات وحاجات المالية الدولية ، وضرورات الأشغال الكبيرة ، أو أمثال هذه القوى المحطمة للحدود بين الدول وأعنى بها العلم والفن وتعليم التاريخ . وربما بذلت كل هذه الأمور جهداً متكاتفاً ، ربما لم يكن فى الإمكان تحديد نصيب كل فرد منها بالتدقيق ، وربما انحلت المعارضة ، فتلين النحل العادية وتصبح ثقافة مشتركة ، بطريقة لا يكاد الناس يشعرون بها . وقد تبدو هذه المثالية الجريئة اليوم أمراً معقولا محضاً فى الغد . وتكتنف التعقيدات مشكلة التنبؤ بسبب احتمال وجود فترات التوقف

وحالات الانعزال والتخلف . ولم يحدث قط أن سار التاريخ إلى الأمام فى بساطة وسهولة .

والسنوات التى تعقب أى حرب عظمى معرضة بوجه خاص لأن تكون سنوات رجعية واضحة . فإن الكلال يكون قد بلغ بالرجال حداً يجعلهم لا يهتمون بما تم وما أزيل من الطريق وما أصبح فى حيز الإمكان . ومن بين الأشياء التى يلوح أنها تسير فى تحكم وتسلط ، صوب إيجاد رقابة عالمية كافية فى العصر الحاضر :

١ — ازدياد قوى التدمير وتزايد عدم إطاقة الناس للحروب المشبوبة بمساعدة قوى العلم الجديد .

٢ — الصهر الذى لا مفر منه لشئون العالم الاقتصادية وجعلها نظاماً واحداً يؤدى بالضرورة فيما يبدو إلى ضرب مشترك من الرقابة على العملة ، ويطالب بمواصلات أمينة غير متقطعة ، وبحركة حرة للبضائع والعمال براً وبحراً فى أرجاء العالم كافة . وسوف يحتاج إرضاء هذه الحاجات إلى رقابة اتحادية عالمية لها سلطة جسيمة جداً وقوات للتنفيذ بالقوة عظيمة جداً .

٣ — الحاجة بسبب الزيادة فى سهولة حركة الشعوب إلى رقابة فعالة على الصحة فى كل مكان .

٤ — الحاجة الماسة إلى إيجاد شىء من التعادل فى أحوال العمال ، وإلى إيجاد حد أدنى لمستوى الحياة فى العالم . ويلوح أن هذا الأمر يحمل فى أطوائه لاحقاً ضرورياً هو إيجاد ضرب من الحد الأدنى فى التعليم لكل إنسان .

٥ — استحالة النهوض بمزايا الطيران الهائلة من غير رقابة عالمية على الطرق الجوية .

وضرورة ومنطق مثل هذه الاعتبارات المتنوعة تدفع الذهن دفعاً لا يقاوم ، بالرغم من الصدام بين الأجناس والتقاليد والفوارق الضخمة التى تخلقها الفوارق فى اللغة ، نحو الإيمان بأن الكفاح الوعى فى سبيل تكوين مجتمع سياسى عالمى أو منعه من القيام ، سوف تكون المرحلة التالية فى التاريخ الإنسانى . والأشياء التى تتطلب هذا المجتمع العالمى حاجات مستديمة ويروق أحد هذه الحاجات أو الآخر كل إنسان ، ولا تقوم ضد بقائها المستديم إلا صعوبات فانية زائلة ، نعم إنها عظيمة ولا ريب ، ولكنها فانية — وكلها تحامل وتحيز وشهوات وعداوات وخداعات حول الجنس والوطن وأنانيات وما شاكل ذلك من أشياء متأرجحة سريعة الزوال ، يقيمها فى أذهان الناس التعليم والإيحاء . وليس منها شىء يهدف اليوم إلى مصلحة الأفراد الذين تحت سلطانها وبقائهم ، ولا إلى مصلحة الدول والمدن والجماعات التى تسودها تلك الأمور .

١٤ — هل الدولة الاتحادية العالمية أمر مرجح ؟

قد تعوق طريق الوصول إلى الدولة العالمية عقبات وقد تعترضها اليوم قوى كثيرة ظاهرة الـكبر ، ولـكن تحثها على المضى إلى الأمام قوة أكبر من هذه مُنة ، وأعنى بها قوة الفطنة الحرة المشتركة النامية للإنسانية . وإن فى العالم اليوم لعدداً صغيراً ولـكنه متزايد من الرجال — أمثال المؤرخين والأثريين وعلماء الأجناس البشرية وعلماء الاقتصاد والاجتماع والتشريح والتربية ممن يقومون للنظم الإنسانية بنفس واجب التحليل الخلاق — الذى كان رجال العلم فى القرنين السابع والثامن عشر يقومون به فى سبيل مكونات الحياة الإنسانية ووسائلها . وكما جعل هؤلاء الأخيرون وهم يكادون لا يدركون ما يفعلون — من التلغراف والنقل السريع براً أو بحراً ، والطيران وآلاف مما كان حتى حين يعد من المستحيل ، أموراً ممكنة ، فعسى أن يجىء الأولون بنتائج تفوق ما يتوقعه العالم ، أو تفوق ما يتوقعون هم أنفسهم ، فى توضيح وتبسيط ما يجب أن يعمل وطريقة عمله ، فى الشئون الإنسانية الـكبرى والأشد خطورة .

فلنقلد الآن روجر باكون فى مزاجه التنبوئى ، وندون هنا ما نعتقد أنه سوف يكون الأسس الجوهرية الإجمالية للدولة العالمية المقبلة :

١ — لسوف تقوم على دين عالى عام ، مبسط كثيراً جداً ومعمم كثيراً جداً ومفهوم فهماً أحسن وأوفى . ولن يكون هذا الدين هو المسيحية ولا الإسلام ولا البوذية ، ولا أى ضرب من أمثال هـذه الأشكال الدينية المتخصصة ، ولـكنه يكون الدين ذاته محضاً صرفاً نقياً طاهراً — ويكون هو الطريق الثمانى[1] وملـكوت السموات والأخوّة والخدمة الخلاقة ونسيان الذات . ولسوف يحوّل التعليم والمثال المحتذى ودائرة الفـكرات المحيطة بالناس ، أفـكار الناس وحوافزهم فى كل أرجاء العالم ، عن التشبع بفـكرة « النفس » إلى السرور الجميل بخدمة العرفان الإنسانى والقوة الإنسانية والوحدة الإنسانية .

٢ — وسوف يدعم هذه الدولة العالمية تعليم عام منظم ، على مجال رحب وعلى أساس من النفاذ وجودة الصنف يتجاوز كل خبرتنا الراهنة . لسوف يتعلم الجنس البشرى بأجمعه لا مجرد طبقات منه وشعوب . وسوف يكون لدى معظم الوالدين معرفة فنية بطرق التدريس . وفضلا عن واجبات الأبوة والأمومة فربما اضطر عشرة فى المئة من السكان أو يزيدون أن يشتغلوا فترة من حياتهم عمالا فى التنظيم التعليمى العالمى . وسوف يستمر التعليم طول العمر حسب

(١) أنظر للعالم ص ٣٩٢ ج ٢ « قصة جوتاما » .

الطريقة التى سوف يراها العصر الجديد ، ولن يتوقف فى أى عمر خاص . وسوف يصبح الرجال والنساء مجرد معلمين لأنفسهم وطلابا فرديين ومعلمين طلابا مع تقدم العمر بهم .

٣ — ولن تكون هناك جيوش ولا أساطيل ولا طبقات من المتعطلين سواء أكانوا من الأغنياء أو الفقراء .

٤ — وسوف يكون تنظيم الدولة العالمية للبحث العلمى والسجل العلمى بالمقايسة إلى ما يحدث اليوم أشبه شىء بماخرة المحيطات الضخمة بالقياس إلى زورق من زوارق الكانو خلفه لنا أحد المتجولين النيوليثيين الأقدمين .

٥ — وسوف يوجد أدب ضخم حر قوامه النقد والجدل .

٦ — وسوف يكون التنظيم السياسى فى العالم ديموقراطياً ، أعنى أن الحكم وتوجيه الشئون سيكونان على اتصال مباشر بالفكر العام للسكان المتعلمين بأجمعهم وسيستجيبان له .

٧ — وسوف يكون بتنظيمه الاقتصادى استغلالا لكل الثروة الطبيعية ولكل إمكان جديد يكشف عنه العلم على يد وكلاء وخدمة الحكومة المشتركة من أجل الخير المشترك . وسوف يكون صاحب المشروع الخاص خادما — ويكون خادما نافعا يُقدَّر حق قدرة ويكافأ بأحسن الجزاء — ولكنه لا يكون بعد السيدُ اللصُّ فى الدولة المشتركة .

٨ — ويتضمن هذا الأمر الوصول إلى عملين جليلين يلوحان لنا اليوم فى غاية الصعوبة . وهما أمران يختصان بالوسائل ، ضروريان لخير العالم ضرورة قاهرة لازبة — أشبه ما تكون بضرورة ألا يخون المدفع الرشاش الجندى الذى يحمله مهما تكن شجاعته فيقف عن الحركة ، وألا تتخلى عن الطيار آلة القيادة وهو بين السماء والأرض . وتطالب المصلحة السياسية باللجوء إلى الانتخابات والأساليب الانتخابية ، وتستلزم المصلحة الاقتصادية أن تستعمل عملة تكون فى مأمن وتكون منيعة من تدبيرات وتلاعب الرجال الحذاق غير الشرفاء .

١٥ — بعض احتمالات الدولة الاتحادية العالمية .

ليس إلى الشك من سبيل أن الوصول إلى اتحاد يضم الإنسانية جميعاً ، يرافقه تدبير كافٍ من العدالة الاجتماعية ، لتأمين الصحة والتعليم ونوع إجمالى من المساواة فى الفرصة لمعظم الأطفال الذين يولدون لهذا العالم ، تعنى إيجاد قدر من إطلاق السراح والزيادة فى الطاقة الإنسانية يبلغ من العظم أن يكفل فتح طور جديد فى التاريخ الإنسانى . وسيبطل التبذير الهائل الذى تسببه الاستعدادات العسكرية والمضايقة المتبادلة بين الدول الكبرى المتنافسة والخسارة التى تفوق هذه السابقة والتى ترجع إلى قلة إنتاج حشود عظيمة من الناس ، إما لأنهم

أغنى من أن يكون لهم مثير يحفزهم على العمل أو أفقر من أن يكونوا ذوى كفايات . ولابد أن يكون هناك زيادة كبيرة فى تموين الإنسان بما يلزمه من ضروريات ، وارتفاع فى مستوى الحياة وفيما يُعدُّ شيئاً ضرورياً ، وتطورٌ فى التنقل وفى كل نوع من أنواع وسائل الراحة ، ولسوف ينتقل عدد غفير من الناس من حالة الإنتاج الدنىّ الدرجة إلى العمل الأسمى منزلة من أمثال الفن بكافة أنواعه والتدريس والبحث العلمى وما أشبهها . ويحدث فى العالم أجمع إطلاق لسراح الكفاية الإنسانية ، مما لم يحدث له مثيل حتى اليوم إلا فى أماكن ضيقة وفى ظل أدوار ثمينة محدودة من أدوار الرخاء والأمنة . فإذا لم يكن من الميسور علينا أن نعتقد أن قد حدث فى الماضى ظهور فجائى تلقائى للسوبرمان(١) ، فإن من المعقول أن نستنتج أن أثينا فى عصر بركليس ، وفلورنسا فى عهد آل مديشى ، وانجلترا إبان حكم إليزابيث ، وأعمال أسوكا العظيمة وعهود التانج والمنج فى الفنون ، ما هى إلا نماذج لما قد ينتجه عالم بأكمله من الطمأنينة المتواصلة من الإنتاج المستمر المتراكم . ولئن لم نفترض أى تغيير فى صفات الإنسان ، اللهم إلا مجرد فكاكه من ربقة نظام الإسراف البليغ الحاضر ، فإن التاريخ يبرر لنا ما نتوقعه .

ولقد رأينا ، أنه منذ أن تحررت الروح الإنسانية فى القرنين الخامس والسادس عشر ، أنتج عدد قليل نسبيا من الرجال الطلعة الأذكياء الذين ظهروا فى أوربا الغربية خاصة — نظرة إلى العالم وهيئة علمية تحدث اليوم من الناحية المادية ثورة انقلابية فى الحياة . وكان هؤلاء الرجال يشتغلون فى معظم الأحايين وهم بإزاء تثبيط للهمة عظيم ، وليس بين أيديهم إلا النذر غير الكافى من المال وإلا القدر الضئيل من عون غالبية البشرية . ومحال أن يظن المرء أن هؤلاء الرجال كانوا أقصى ما يستطيع جيلهم أن يقدم من حصاد ذهنى فلابد أن تكون انجلترا وحدها قد أنتجت عشرات من أمثال نيوتن لم يتح لهم قط أن يتعلموا القراءة ، ومئات من أضراب دالتون وداروِن وباكون وهكسلى ماتوا فى أحقر الخصاص مغلولى العقلية ، أو لم تتح لهم فى يوم فرصة يظهرون بها مواهبهم .

ولا بد أنه فى مقابل كل فرد من أولئك الذين تركوا آثراً عميقاً من بعدهم فى العالم ، قد كان هناك فى العالم بأكمله جماهيرُ غفيرة من الرجال الكامنى القوة منهم الباحثون ذوو الطراز الأول فى المقدرة ، والفنانون المبدعون ، وذوو الأذهان المبتدعة الخلاقة الذين لم يتح لهم الدهر بارقة إلهام يلهمهم ولا نهزة ينتهزونها . ففى خنادق الميدان الغربى وحدها أثناء الحرب العظمى مات آلاف من رجال كانت ترجى فيهم العظمة غير مكتملى النضوج . ولكن

(١) السوبرمان أو الإنسان الفوقى : كائن فرضى يحصل على القوة والعزة بقوة خلقه البالغة .

عالماً فيه شيء يقارب صورة للسلام الدولى الأمين وشيء يقارب العدالة الاجتماعية شبهاً ، لعالم لا بد أن يتصيد الاقتدار بواسطة شبكة التعليم العام الدقيقة الميون ، ويجوز له أن يتوقع رزقاً يفوق فوقا لا سبيل فيه إلى المقايسة كل رزق رُزقه العالم حتى اليوم من الرجال الأذكياء والمقتدرين .

ومثل هاته الاعتبارات هى التى تقوم فى الواقع بتبرير عملية تركيز الجهود فى المستقبل القريب على إنشاء دولة عالية جديدة قوامها الخير والصلاح على أنقاض ربكاتنا الراهنة . وإنما الحرب شيء فظيع ، وسوف يتزايد على الدوام ما هى عليه من فظاعة ورهبة ، حتى أنها ما لم يقض عليها البشر فإنها سوف تقضى ولا مراء على الجماعة الإنسانية . والظلم الاجتماعى ، ومرأى الأشخاص المحدودين والمهيضين الذين ينتجهم ذلك الظلم ، يعذب الروح ، ولكن أقوى الحوافز على العمل السياسى والاجتماعى الإنشائى لا يقوم فى نظر الروح الواسعة الخيال على مجرد الأمل فى الإفلات من الشرور قدر ما يقوم على سنوح نهزات المغامرات العظيمة التى سوف يفتح القضاء على الشرور أبوابها أمام جنسنا . فإنا نريد أن نتخلص من المسكرين ، لا لمجرد أنهم يؤذون ويقتلون ، بل لأنهم قوم أغبياء غليظو الأصوات ، يقفون يتجبرون ويعجون بالضجيج فى طريق قيامنا بجلائل الأعمال . وإنا لنرغب أن نلغى كثيراً من أضرب السرف فى الملكية الفردية الخاصة رغبتنا فى أن نزيح من طريقنا حارساً معتوهاً رفض أن يأذن لنا بالدخول إلى مكتب فنى (أستديو) نستطيع أن نأتى فيه بالعجب العاجب .

ومن الناس من يلوح أنهم يتخيلون أن قيام النظام العالمى ونشوء قانون عام للعدالة ، فيه القضاء على المغامرات الإنسانية . والواقع أنها لا تتعدى أن تبدأ بها . ولكن الحال يصبح غير الحال ، فبدلا من مغامرة الماضى ، وبدلا من الحديث الأبدى المتكرر عن مبتذل ردود الأفعال[1] الخاصة بالمسائل الجنسية والقتال ، وبدلا من التسابق على الذهب ، يكون ثمة ارتياد وتفحص لا نهاية له يقوم به الناس على نهاية حافة التجارب . فقد كان الرجل من هؤلاء يعيش حتى اليوم فى منزل قذر بين المشاجرات وأخذ الثأر والكبرياء والخجلات والتعبيرات ، والرغبات الحارة والشهوات المستعجلة . ولم يكد حتى اليوم يستنشق الهواء الصافى ويتذوق حريات العالم العظيمة التى وسعها له العلم .

وإذا نحن صورنا لأنفسنا شيئاً من تلك الحياة الأوسع مدى التى سوف يفتح أبوابها أمام الناس اتحاد العالم ، تكونت أمام ناظرينا صورة تأملية جذابة رائعة . لا شك أن الحياة ستسير

(١) ردود الأفعال : هى الأفعال التى تتم استجابة أو مقاومة لمثير جثمانى أو عقلى .

فى طريقها نابضة نبضات أقوى وأشد ، وستتنفس أنفاساً أشد عمقاً لأنها ستكون قد لفظت وقهرت مئات من أنواع العدوى التى تلحق الجسم والذهن والتى تجعله اليوم فى عداد الناقهين والملوثين . ولقد أسلفنا عليك التشديد فى شأن إزالة الشىء الكثير من الكدح من الحياة الإنسانية بسبب إنشاء جنس جديد من الأرقاء هو الماكينات . فهذا الأمر مع اختفاء الحرب من الوجود وإزالة أنواع لا حصر لها من التضييقات والنازعات بقيام تنظيمات اجتماعية واقتصادية أكثر عدالة ، أمور لا بد أن ترفع عن كواهل أطفالنا العبء الكامن فى العمل المتعب والعمل الروتينى الذى أضحى ثمناً للأمتة الإنسانية منذ أن طلع فجر المدنيات الأولى . وليس معنى ذلك أنهم سيكفون عن العمل بل عن القيام بالعمل المضنى ، تحت الضغط ، وأنهم سوف يشتغلون شغلا حراً مديرين الخطط أو مبتدعين ، وكل ميَّسر لما بُث فيه من مواهب وغرائز . ولسوف يقاتلون الطبيعة بعد هذا لا بوصفهم جنوداً أغبياء جاءوا من وراء المعول والمحراث بل جنوداً يطلبون فتحاً باهراً . ولا يُغشى أبصارنا الآن إلا خور عزيمتنا الراجع إلى أحزاننا التى تعمى أبصارنا عن إشارات العقل الصريحة التى توحى إلينا بأنه فى مدى بضعة أجيال سوف تستطيع كل مدينة صغيرة فى الريف أن تصبح آثينا ، ويصبح كل كائن إنسانى رقيقاً مهذباً بالتربية صحيح الجسم والعقل ، وتصبح الأرض اليابسة بأكملها منجم الإنسان كما تصبح أقطارها القصوى ملاعبه .

ولقد جهدنا فى هذا الكتاب أن نعرض نظامين عظيمين للتطور يتفاعلان فى قصة الجماعة الإنسانية . فرأينا تلك الثقافة النيوليثية المتأخرة الخاصة تتمخض فى أجزاء العالم الغرينية الأشد دفئاً ، عن المدنيات البدائية العظيمة ، التى كانت مجموعات خصبة للإخضاع والطاعة ، وموطن تكاثر هائل فى الرجال المجدين الخاضعين . وأظهرنا العلاقة الضرورية بين هذه المدنيات المبكرة الأولى وبين المعابد الأولى وبين الأرباب الملوك والملوك الآلهة . وتقصينا فى نفس الوقت تطور الشعوب الجوالة من مستوى نيوليثى أشد بساطة ، إلى أن أصبحت الشعوب المترحلة ، فى تلك المجاميع العظيمة من الآريين النورديين والشعوب الهونية المغولية فى الشمال الغربى والشمال الشرقى والساميين فى الصحراوات العربية . كذلك تكلم تاريخنا عما انتاب المدنيات الأصلية للشعوب السمراء من متكرر الغزو والانتعاش على يد هؤلاء الشعوب الحرة الروح والأقوى مُنة والأجرأ جنانا والمنحدرين عليها من السهوب والصحارى . وبينا كيف أن هذا الحقن المتواصل المتكرر بدماء المترحلين كان يغير دم وروح المدنيات البدائية تغييراً مستمراً ، وكيف أن ديانات العالم فى هذا الزمان ، وما نسميه اليوم

باسم الديموقراطية ، والجرأة المتجلية فى البحث العلمى المصرى ، وحالة عدم الاستقرار الشاملة العامة ، ترجع إلى ما رأيت من صبغ الحضارة بصبغة الترحل . وكانت المدنيات القديمة تخلق التقاليد وتعيش بالتقاليد . فأما اليوم فإن قوة التقاليد قد تحطمت . ولا تزال دولتنا الحاضرة تتجسد فى جسد المدنية ولكن روحها هو روح العالم الترحلى إنه روح السهول العظيمة وأعالى البحار .

حتى ليعسر على الناس أن يقاوموا اقتناعهم بأنه لن يكاد يطبق على الأرض قانون واحد وتكف شراسة الحدود عن أن تسبب لنا الآلام ، حتى يشرع ما فى طبيعتنا من التوثب الذى يدفعنا فى الربيع والخريف أن نهب ونضرب فى الأرض — أن يتغلب علينا ويبدو أثره فينا . ومن ثم فإنا سوف نلبى ما للمراعى الصيفية والمراعى الشتوية من دعاء فى دمائنا ، كما نلبى دعاء الجبل والصحراء والبحر الخضم . وهناك دعوة أخرى تهيب بأفرادمنا لعلهم من طينة أخرى ، وأعنى بها دعاء الغابة ، فهناك من يحبون أن يتصيدوا فى الصيف وأن يعودوا إلى الغيطان يلتمسون الحصاد والحراث . ولكن ليس معنى هذا أن الناس سوف يكونون جوابى آفاق ليس لهم وطن يؤويهم . إذ ليست حياة الترحل العادية حياة لا وطن لها ، وإنما هى حركة بين الأوطان . فإن قبائل الكالموك[(١)] يقطعون اليوم — فعل العصفور — ألف ميل سنوياً من موطن لهم إلى آخر . ومن اليسير علينا أن نحكم بأن مدن العصر القادم الجميلة المريحة سوف تكون لها مواسمها من الامتلاء بالحياة ومواسمها حين تبدو وقد ران على عينيها الكرى . وسوف يحدث للحياة مد وجزر موسميان من وإلى كل إقليم مع ارتفاع أو انحطاط اللذة فى ذلك الإقليم .

وسيكون هناك فى هذا العالم الأحسن تنظيما نزر يسير من المسافة ، وسوف يكون العسيف العام هو القوى الطبيعية المكبلة فى الماكينات . فما كان من أصناف المسافة[(٢)] أمراً لا محيص عنه فسيتم بوصفه خدمة وواجباً لمدة سنوات أو أشهر قليلة من حياة كل فرد . ولن يستنفد ولا يضيع من حياة أى فرد بأكملها . ولن يقتصر الأمر على السقاء وما يتصل بهم من كدح شاق بل إن أنواعاً أخرى كثيرة من الرجال ومن طرائق الحياة التى ترتسم ضخمة فى الخطة الاجتماعية السارية ، ستكون بالضرورة قد ذوت أهمية أو زالت من

---

(١) الكالموك (Kalmucks) : شعب مغولى هاجر من آسيا الوسطى فى القرن السابع عشر ، وسكن منطقة السهوب الروسية إلى الجنوب من وادى الفولجا الأدنى .

(٢) المسافة : العمل الدنىء الذى يقوم به العسيف هامش ص ١٠٣٠ .

الوجود زوالا تاماً ، وسيكون هناك عدد قليل من الرجال المحترفين القتال أو لن يكون منهم أحد البتة ، ولن يوجد هناك موظفون للجمارك . وسوف تلغى الحشودُ الكبيرة من المعلمين قوات كبيرة من البوليس وهيئات كبيرة من موظفى السجون ، وستصبح مستشفيات الأمراض العقلية نادرة أو لا وجود لها ، وسوف ينقص التدبير الصحى الذى يعم العالم أجمع نسبة المستشفيات والممرضات وملاحظى غرفات المرض وما أشبههم . وتنشأ عدالة اقتصادية تشمل العالم وتقطع دابر النشاشين ، والمحتالين والمغامرين ومحتكرى السوق والطفيليين والمضاربين عامة ممن يعيشون بالطفو على سطح المجتمع . ولكن لن يحدث أى تناقص فى المغامرة ولا فى رومانس هذا العالم فى مستقبل الأيام . وسوف تستدعى مصايد الأسماك وتقلبات البحر التى لا تنتهى ، أنماط الرجال المتينة العضلات اللائقين لها . وسوف يضج الهواء العالى مطالباً بالرجولة كما ستضج مواطن الطبيعة الخفية العميقة الخطرة .

ولسوف يلتفت الرجال مرة ثانية إلى عالم الحيوان وقد تجددت لتهم فيه . وتجرى فى هذه الأيام المختلة مذابح فى أجناس الحيوان حمقاء لا سبيل إلى ضبطها — وهى مسألة إذا نظرنا إليها من زوايا معينة وجدناها تكاد تفوق فى أثرها المحزن كل ما يقاسيه البشر من تعاسات . فقد أبيدت فى القرن التاسع عشر دسائج بأكلها من أنواع الحيوان ، بعضها أنواع شائقة جداً . ولعل إحدى أوائل ثمار الدولة العالمية تكون فى تحسن وسائل حماية ما نسميه اليوم باسم الدواب المتوحشة . ومن عجائب الأمور فى التاريخ الإنسانى أن يلحظ المرء القدر الضئيل الذى بذله الناس منذ عصر البرونز فى ترويض الحياة الحيوانية المحيطة بنا واستعمالها ومصادقتها وتقديرها . على أن ذلك القتل الأحمق المحض الذى يسمى اليوم باسم الرياضة ، لا مفر له من أن يخلى مكانه فى مجتمع عالمى أحسن تعلماً ، إلى تعديل لتلك الغرائز البدائية التى وجدت فى هذا المضمار مجالا للتنفيس والتعبير عن نفسها ، مع تغييرها إلى حالة من الالتذاذ بحياة الحيوان لا بموته ، وقيادتها إلى محاولات جديدة ربما تكون جد عجيبة وجميلة للتصادق مع هذه السوائم والمخلوقات الحزينة القريبة منا والأدنى منا مرتبة ذات القربى منا التى لم نعد نخشى بأسها كأعداء لنا ، ولا نكرهها كمنافسة لعيشنا ولا نحتاج إليها عبيداً أرقاء .

وليس معنى وجود الدولة العالمية والعدالة العامة احتباس جنسنا البشرى فى حالة من النظام الذى يقوم على النظم الموات الجامدة . بل لن تزال الجبال والبحار موجودات ، ولسوف تكون هناك الآجام والغابات الكبيرة ، يعنى بها الناس لا جرم ، ويقدرن قيمتها ويشملونها بحمايتهم ، ولسوف تظل السهول العظيمة تمتد أمامنا فسيحة رحيبة ، ولسوف تخفق فيها

الرياح الضوارى . ولكن لن يبلغ الكره بالرجال ولا الخوف بهم ولا الخداع المستيئس بهم مبلغه فى هذه الأيام ، ولسوف يحتفظون بأذهانهم صافية نقية من الشوائب والأدران .

وهناك متنبئة انقطع بهم خيط الأمل فهم يرون أن فى تجمع الناس فى مجتمع واحد احتمالا لحدوث منازعات عنصرية عنيفة طلباً للسيادة ، ولكن معنى هذا أن يفرض المرء أن المدنية تقدر على الإتيان بالتوفيقات التى تجعل الرجال ذوى الصفات والأمزجة المتباينة والأشكال المختلفة يعيشون جنباً إلى جنب ، ويلعبون أدواراً مختلفة ويقدمون هبات متنوعة ولا يتضمن عملية نسج البشرية فى مجتمع واحد خلق مجتمع متجانس بل عكس ذلك فى الغالب . وسيكون الحال ترحيباً بالخصائص المميزة واستعمالا كاملا لها فى ظل جو من التفاهم . وليس هناك شىء يجعل الجنس لا يطيق الجنس غير الأخلاق الشريرة التى تكاد تعم العالم فى عصرنا الحاضر . وسوف يكون المجتمع الذى ربما كنا نتحرك صوبه أشد اختلاطاً — وهو أمر ليس معناه بالضرورة أنه أكثر اختلاط أجناس زواجاً — كما أنه سوف يكون أكثر تنوعاً وأكثر تشويقا ولذة من أى مجتمع كائن . فأما المجتمعات التى صيغت كلها على غرار واحد كعلب الجنود التى يلعب بها الأطفال ، فأمور تمت إلى الماضى أكثر منها إلى المستقبل .

وعلى أن من أصعب الأمور التى قد يتصدى لها الكاتب وأشدها استحالة ، تصوره حياة قوم أحسن تعليما ، وأكثر سعادة بظروفهم ، وأوسع حرية وأسلم صحة مما يستمتع به هو نفسه . ومعرفتنا اليوم تكفى لأن تعرفنا أن هناك مجالاً لا نهائياً للتحسين فى كل ما يهم الإنسان من شئون . ولسنا إلى شىء بأحوج منا إلى الجهد الحشدى . وما قلقنا والأمور المضيقة علينا والعدوى التى تصيبنا وعسر الهضم الذى يُلم بنا ولا مشاجراتنا وسوء التفاهم بيننا ، إلا أمور يمكن تداركها وضبطها وإزالتها بواسطة الجهد الحشدى المتكاتف . على أن علمنا بحال الحياة من دون هذه الأمور يعادل فى الضآلة علم مخلوق فقير قذر يلقى سوء المعاملة ، عنيف النفس ، ولد وربى فى بيئة خلقية قذرة قاسية بزقاق وضيع أوربى حين يُعلم جدوى الاستحمام فى كل يوم ، ومواصلة الارتداء للثياب الجميلة ، وصعود الجبال طلباً للذة والسرور والطيران وعدم مقابلة أى فرد إلا الظرفاء ذوى الأخلاق الحسنة من الناس ، والقيام بالأبحاث أو عمل أشياء لطيفة سارة ، ومع ذلك فإن الزمن الذى تصبح فيه كل أمثال هذه الطيبات فى متناول كل الرجال قد يكون مجيئه أقرب مما نظن . فكل من يعتقد هذا الاعتقاد يقرب الشقة بيننا وبين ذلك الزمان الصالح . وكل قلب يتخذل يؤخر وروده .

ولا يستطيع المرء أن يتنبأ بالفاجآت أو خيبات الأمل التى يختزنها لنا المستقبل فى أطوائه

وقبل أن يستطيع هذا الفصل ، فصل الدولة العالمية أن يبدأ بداية لطيفة فى تاريخنا ، فقد تكون هناك فصول أخرى لا نتوقعها حتى يومنا هذا ، بحاجة إلى من يكتبها ، وتكون من الطول والامتلاء بالكفاح على نفس حال بياننا عن نمو الدول العظمى ومنافساتها . وقد تحدث كفاحات اقتصادية محزنة ، ومصارعات قاسية بين الجنس والجنس وبين الطبقة والطبقة . وربما أبى صاحب السمى الخاص أن يتعلم درس الخدمة والواجب حتى تنشب ثورة تجلب عليه الكوارث والملمات . فلسنا نعرف الغيب ولا نحن بقادرين أن نتنبأ به . وطبيعى أن هذه الكوارث أمر لا ضرورة له ولكنها قد تكون كوارث لا مناص منها . والتاريخ الإنسانى يتحول أكثر فأكثر إلى سباق بين التعليم والكارثة . وبالرغم من مجهود المسيحية الموحد للقوى وبالرغم من تأثير الانقلاب الآلى الموحد للجهود ، فإن الكارثة كانت الظافرة — مظفرة على أقل تقدير إلى حد الإتيان بالحرب العظمى . ولسنا نستطيع أن نخبرك حتى الآن كم انتصاراً للكارثة ما تزال ينتظر من يضمه إلى ما سلف لها من فوز . فقد تنهض أباطيل جديدة وتنتظم الرجال فى سلك نظام جديد غير خيِّر محتوم الفشل ، يستمر ردحاً من الزمان قبل أن ينهار بين ظهرانى تعاسة ومذابح الأجيال .

ولكن يلوح أن العالم يتقدم ولن يبرح يتقدم ، — إما بخشونة وغلظة أو سهولة ولين . وقد اقتبسنا فى هذا الكتاب حين تكلمنا عن الرجال الباليوليثيين ، وصفاً استعرناه من المستر ورثنجتون سميث يصف فيه أعلى ما بلغته الحياة فعلا قبل قرابة خمسين ألف سنة خلت فرأيناها حياة وحشية . كذلك رسمنا لك صورة خشنة لاجتماع لتقديم الضحية الإنسانية قبل يومنا هذا بخمسة عشر ألف سنة تقريباً . وهذا المنظر يحوى هو أيضاً من القساوة ما لا يكاد يصدقه عقل القارىء العصرى المدن .

ومع كل هذا فلم تكد تمضى اليوم سنون خمسمئة على إمبراطورية الأزتيك واستمرارها فى الاعتقاد بأنها لا تستطيع العيش بغير سفك الدماء . وكانت مئات من الضحايا الإنسانية تموت كل سنة فى بلاد المكسيك على هذه الشاكلة : كان الجسم يُحنى إحناء القوس على حجر التضحية القوس ، وكان الصدر يبقر بسكين من الأوبسيديان[1] (Obsidian) ، وكان الكاهن ينتزع قلب الضحية التى ما تزال حية وهو ينبض ويختلج . وقد يكون أقرب إلينا من حبل الوريد ذلك اليوم الذى لا تنتزع فيه قلوب الرجال ، وإن كان ذلك من أجل آلهتنا القومية . وما على القارىء إلا أن يرجع إلى الخرائط الزمنية القديمة التى قدمناها فى هذا

(١) نوع من الحجر الزجاجى القاتم أو صخر بركانى يشبه زجاج القوارير .

الكتاب ، ليرى القياس الحق وسمة الوقتية التى عليها كل المنازعات والحرمانات والتعاسات التى تسود الفترة الحاضرة فترة التغير الجهم المؤلم وإن يكن على الإجمال تغيراً عامراً بالآمال .

١٦ — ما وراء ذلك من مستقبل البشرية

الواقع أن التاريخ إنما هو بيان عن البدايات ويجب على الدوام ألا يتجاوز ذلك ، وإنا لنستطيع أن نتجرأ فنتنبأ بأن الفصول التالية التى ستكتب فى المستقبل سوف تتحدث ، وإن تخللها فترات طويلة من النكسات والكوارث ، — عن الوصول نهائياً إلى الاتحاد السياسى والاجتماعى الذى يعم العالم قاطبة . ولكن إذا بلغت الإنسانية ذلك فلن يكون معناه بلوغها أية مرحلة ترتاح فيها ، ولا حتى مرحلة تلتقط عندها بعض أنفاسها ، إلى أن تقوم بكفاح جديد وتبذل جهوداً جديدة أكبر وأعظم . سيتحد الناس لمجرد تشديد البحث عن العرفان والقوة . وسيعيشون كدأبهم منذ الأزل يطلبون الفرص الجديدة . ولسوف يأتى اليوم الذى تكشف فيه عن أسرارها حياة الحيوان والنبات وعمليات الفسيولوجيا الغامضة والتركيب الحقيق للمادة وما يكنه باطن الأرض ، لسوف تسلم كلها بأسرارها وتمنح غازيها أحسن الجزاء . والحياة لاتبرح تبدأ أبداً . والآن وقد جمعت الحياة صفوفها آخر الأمر تحت قيادة المعلم التلميذ فى هذا الكون وأعنى به الإنسان بعد أن توحدت صفوفه وانتظم أمره وتسلح بقوى الذرة الخفية وبمعارف تتجاوز الآن حدود الأحلام ، — فإنها أى الحياة التى تفنى أبداً لكى تولد من جديد ، والتى هى الفتية المتفتحة دوما ، سوف تنهض للفور متخذة من الأرض نضدا وتمد ألوية سلطانها بين أطباق الجوزاء .

ذيل الكتاب

[لما كانت آخر طبعة صدرت من العالم بالإنجليزية فى ١٩٣٠ فقد رأيت استكمالاً للفائدة أن أضيف فصلا فى تاريخ الحقبة من ١٩٣٠ إلى ١٩٤٤ دبجه ولز نفسه فى كتابه لباب التاريخ الذى نقلته إلى العربية وشرعت فى طبعه لما رأيت فيه من إيجاز دسم وتركز عميق]

١ — من ١٩٣٠ إلى ١٩٣٨

..... ارتفع صوت جديد فى ألمانيا وهى فى بحران الفوضى التى رانت عليها بعد الحرب . صوت أجش غاضب ، ولكنه يعبر عما كان يشمز به ملايين من غفاة الألمان ولا سيما جماهير الشباب المتزايدة أبداً بعد الحرب : لقد خُدعت ألمانيا وخينت ؛ تلك نعمته الكبرى ؛ ولا بد من إعادتها إلى سالف مجدها الذى كانت تتبوؤه قبل ١٩١٤ بل وأحسن منه مهما جلّت الجهود وعظمت التضحيات . ألا وإن ألمانيا لم تهزم ؛ فإن هزيمة ألمانيا أمر محال ؛ بل إنها قد خيفت من الداخل ، خانها بوجه خاص يهودها ومفكروها وشيوعيوها الدوليون . ولا بد لها من أن تعود إلى سابق نقائها العنصرى ، وإلى حياة الحرب المضنية التى كان عليها سلفها التيوتونى الآرى . كان ذلك الصوت ، صوت مصور نمسوى هو أدولف هتلر ، فلقى إقبالا هائلا لا سبيل إلى مقاومته بين الطبقات الضخمة النامية من أفراد الشباب المحرومين آنئذ من كل أمل معقول فى الحياة . ثم تطورت الفكرة هيئة انتشرت ، وخلقت حزباً سياسياً عسكرياً ، هو الاشتراكيون القوميون .

وأفضت منافسة اليهود الاقتصادية والاجتماعية ، فضلا عن عيشهم المثير عيشة الشعب الغريب ، الذى تغلب عليه النزعة العالمية دون القومية ، — إلى تعريضهم لا إلى مجرد المعاملة الانتقامية بل إلى النهب والسلب أيضاً .

والديكتاتورية الوبيلة تبدأ دائماً بهجوم على اليهود والشيوعيين باسم الوطنية . وفى ١٩٣٢ أصبح هتلر مستشاراً للريخ وقد صعد أولى درجات السلطة العليا .

وكانت تحدث فى ذلك الحين كما أسلفنا أمور فى إيطاليا عليها سيما المشابهة لما كان يحدث من تطورات النازى مع ضرب بعينه من الفوارق . (ذلك أنها لم تكن مثلا تضع العداء لليهود فى المحل الأول) . وكانت كل حركة منهما كلما زادت نمواً زاد تأثيرها فى أختها . وكانتا فى الأصل مستقلتين تماماً إحداهما عن الأخرى ولم يكن هتلر يعرف عن موسولينى

ولا موسوليني عن هتلر إلا القليل فى المراحل الأولى من حياتهما . ثم تكشف لهما تشابههما فاستغرباه إلى حد كبير . كانا الثمار الطبيعية للتطور والنشوء الاجتماعى الذى أحدثه العصر ، أعنى أنهما نظما وترجما عن فكر ومناشط الطبقة الوسطى من الشباب الثائرة المحرومة من كل هدف ، الذين يظهرون فى وقتنا هذا بحكم الضرورة فى كل قطر محطم اقتصادياً .

بدأ موسوليني حياته [كما أسلفنا] اشتراكياً ثورياً . وكان محرراً لصحيفة اشتراكية هى الآفانتى (Avanti) ، وكان معروفاً من قبل الحرب بأنه زعيم جرئ وقوى . فانفصل عن معظم إخوانه اليساريين ، بسبب موضوع اشتراك إيطاليا فى الحرب إلى جانب الحلفاء ، فاستقال من رئاسة تحرير الآفانتى ، وأنشأ صحيفة البوبولو ديتاليا ليبسط بها آراءه . ثم حدثت بعد الحرب اضطرابات اجتماعية كثيرة وثورات شيوعية متفرقة ، ولم تكن إيطاليا أفادت من الحرب أى شرف عسكرى . وكانت الحكومة ضعيفة لا تبت فى أمر حتى لاح لكثير من المراقبين أن الثورة الشيوعية أصبحت وشيكة . وكان موسوليني يشعر بما كان يشعر به هتلر من عدم ارتياح وطنى ، وأخذ ينظم حركة قومية من القمصان السود ، هى الفاشية ، مطالباً بحكومة حازمة لا تحزم أمرها فقط فى جمهرة الشعب بل وفى الهيمنة على الأعمال . فتلقى مناصرة قوية من كبار رجال الصناعة والماليين إذ كانت لديهم فكرة لعلها تنطوى على المبالغة ، عن مقدرة الحمر الثوريين على انتزاع أملاكهم منهم ، كما كانوا على اقتناع أحمق ، أنه ما يكاد ذلك المغامر المحطم للاضرابات يقضى الغرض المقصود منه حتى يستطيعوا التسلط عليه . كانوا يخافون الحمر أكثر من اللازم والسود أقل مما ينبغى . على أن موسوليني لم يظهر فى أية مرحلة من مراحل حياته أية نزعة تنم عن أنه يعد نفسه أجيراً لأصحاب الأموال الخاصة . وكانت نظريته عن الحكومة المتحدة تتضمن رقابة مشددة جداً على المغامرين الاقتصاديين الخصوصيين .

وتطورت حركته قبل حركة هتلر ببضع سنين ، والراجح أن ذلك كان لأن شباب الطبقة الوسطى فى المدن الإيطالية لم يقتلوا إلى نفس المدى الذى بلغه القتل فى أندادهم من الألمان . فافتتحت حملة إرهابية من الغارات والضرب والاغتيالات قام بها قمصانه السود ورجحت كل ما قام به متعصبة حرب الطبقات من أعمال إرهابية . وحدث الزحف على روما فى أكتوبر ١٩٢٢ ، وهو عملية قبض على السلطان مطلقة ، ومن ثم أصبح ارتفاع شأن موسوليني سريعاً مطرداً . سبق هتلر بعشر سنوات فى استحواذه على السلطات الديكتاتورية .

وكانت أسباب مماثلة لهـذه تنتج منازعات شبيهة بهذه فى طول أوربا وعرضها وبلاد الصين واليابان وتؤدى إلى نتائج مقاربة لهذه. وكان المدققون المتشددون فى المذاهب يفسدون فى كل مكان النظام الاقتصادى والسياسى ويختلفون فيما بينهم ، وكانوا فى كل مكان يمهدون السبيل لقيام الديكتاتوريين المتعصبين والطغاة والأقوياء من الرجال ، ويفتتحون عصوراً من الحكم الفردى الشخصى ، ويقضون على حرية كل كلام وكل عمل سياسى بعنف ليس بعده إلا عنفهم . فأما المبادىء التى كانوا يعتنقون فأمور لا تكاد تهم ؛ إما الشيوعية وإما الدولة المتحدة ؛ ذلك ما كانوا عليه وما كانوا يعملون. ولم يكن يهم كثيراً أبلغت الديكتاتورية بطريق اليمين أو اليسار غير الشرعى. إذا كانت النتيجة الواقعية واحدة. وتخلى الناس فى كل مكان تحت السلطان الديكتاتورى عن كل مثل أعلى علمى وعالمى خلاق وأخذوا ينتكسون إلى الدولة القومية العسكرية . وكانت الديكتاتورية الروسية أميل الثلاثة إلى السـلام ، وكانت قانعة بحدودها تحاول التعاون مع عصبة الأمم تلك الهيئة الهزيلة . وكانت ألمانيا وإيطاليا واليابان تعامل تلك الدولة التى أساءوا فهمها بقدر متزايد من الاحتقار .

وكانت اليابان مسلحة من قبل ؛ وقد ظلت كمعظم الظافرين محتفظة بعد الحرب بتسلحها ؛ وكانت تعد العدة لتلهية ما كان يساور شبابها من قلق بهجوم تشنه على فوضى الصين وارتباكها الماثل. ونشطت ألمانيا وإيطاليا تبذلان الجهد الجهيد فى سبيل تحسين صحة الجيل الصغير ونظامه وفى النهوض بقواتهما الجوية نهوضاً قوياً . وكان تسلح ألمانيا مناقضاً لمعاهدة فرساى ، على أن إيطاليا لم يفرض عليها ذلك الحظر. ومن ثم أخذوا يبثون فى مدارس وصحافة تلك الأقطار الثلاثة روح العدوان الحربى بلا انقطاع .

وحدث فى بعض مناطق أوربا أن ما رسمته العصبة من حدود لم ينفذ البتة تنفيذاً فعالا . فإن ڤيلنا التى خصت بها لتوانيا قد تقاتل من أجلها الروس والبولنديون واللتوانيون ثم بقيت فى أيدى البولنديين . وثارت لتوانيا فى ١٩٢٣ واستولت على سبيل التعويض على مدينة ممل وميناثها ، من الحامية الفرنسية التى وضعتها العصبة هنالك ، ثم تركت فى النهاية تمتلك المدينة .

وظهر أيضاً ميل مبكر إلى إهمال إجراءات العصبة جلياً عندما قتلت ثلة من الجند اليونان قائداً إيطالياً على الحدود اليونانية الألبانية . فقذفت إيطاليا جزيرة كورفو بقنابلها دون أن تنتظر تفويضاً من العصبة وطالبت بالتعويض . وأصلح الموقف بأن وافقت العصـبة على تصرف إيطاليا .

وكانت فيوى مركزاً آخر من مراكز الاضطراب . ذلك أن فيوى منحت لكرواتيا ، فأغارت عليها قوة من المغامرين بقيادة الشاعر الإيطالى دانونزيو (١٩١٩) كما أسلفنا ، وبعد أن انتقلت ملكيتها عدة مرات ، أصبحت إيطالية إلى الأبد فى ١٩٢٤ . كانت هذه أموراً صغيرة نسبياً ، بيد أنها كانت تحذيراً واضحاً للتقدير الهزيل الذى كان يولى لتشريعات العصبة .

وكان الشرق الأقصى هو المسرح الذى اتضحت عليه بصورة ضخمة الحالة اللاحقيقية التى تنطوى عليها تسوية العصبة للمسائل العالمية . وإن أحداً من رجال السياسة (الموقرين !!!) ورجال الدولة الغربيين الذين خلقوا العصبة وكانوا هم المدبرين لها لا يبدى أى تفهم قوى للمشاكل العويصة التى لمجتمع مكون من أربعمئة مليون إنسان انهار كيانهم السياسى والاجتماعى والاقتصادى القديم فى بحر جيل واحد . ولم تكن الصين فى نظرهم إلا إحدى تلك الكائنات الخيالية الأسطورية مثل فرنسا أو بريطانيا أو ألمانيا ، التى كانت لها وحدة خاصة بها والتى كانت تستطيع أن تَسترضى وأن تُسترضى وأن تأخذ على نفسها التعهدات وتؤدى الديون وتنزل العقوبات وما إلى ذلك . ونصب جماعة من متعلمى الصين أنفسهم لتكوين فكرة وصورة جديدة لبلادهم وهى فيما هى عليه من فوضى وارتباك عام ، وظلت هيئة هى الكومنتانج تكافح بضع سنوات بعد ١٩١٢ لخلق وطنية عصرية بالصين . ولم يكن ثمة مفر من قيام فوارق واختلافات ضخمة فى النظريات والمشاعر المحلية وإمكانيات عظيمة فى السطو وقطع الطرق بتلك البلاد الهائلة ، وزاد الحالة سوءا أنه بالرغم من كل ادعاءات العصبة الاحترام للقوميات ، فإن مقاطعة شانتونج التى كانت لألمانيا فيماسلف من الأيام سلمت الآن إلى اليابان . وما نحن بمستطيعين فى هذا المجال أن نتعقب زعماء الصين المختلفين ومنهم صن يات سن العصرى التفكير ولا القائد المسيحى الجنرال فانج ولا المغولى تشانج تسولن ، الذى كان يستهدف العرش الإمبراطورى ، ولا تنقلات الحكومة بين بيكين ونانكين وكانتون ، ولا أدوار الثوران ضد الأجانب ولا توالى تداخل الروسيا السوفيتية واليابان فى شئون الصين المرتبكة . واتضح على مر الأيام أن اليابان هى المعتدى الأكبر على بلاد الصين ، وأنها تشخص ببصرها على الدوام وفق خطة الاستعمار الأولى ، إلى السيادة والتسلط على شرق آسيا . وفى ١٩٣٢ فصلت منشوريا عن الصين ، وتأسست فيها دولة محمية تحت السيطرة اليابانية .

وفى نفس الوقت كان التقدم المطرد فى الطيران وإمكانيات الحرب الجوية تغير من روح الضغوط الدولية فى كل أرجاء العالم ، وتنتقل بها من سيء إلى أسوأ . وكانت كل وزارات الحربية والبحرية القديمة تتغير بفعل تلك الأسلحة الجديدة . وكانت الغواصة أصبحت من

قبل شيئاً قديم الطراز والمودة ، وحل محلها قاذفة القنابل السريعة ، كما أن كل الفكرات القديمة ، من الجبهة البرية والطرق البحرية كانت فى طريقها إلى الزوال . وكانت الدول المتشربة بروح الانتقام والعدوان أشد الدول إحساساً بذلك التغير الذى اعترى الظروف ، وكانت تواصل نهوضاً سريعاً خفياً ضخما بالسلاح الجوى . واكتشفت بريطانيا وفرنسا على الفجاءة وكانتا فى مركز تفوق عسكرى لا يدانى أثناء العقد الثالث ، — أنهما فقدتا تفوقهما فى الجو إبان ما نستطيع أن نسميه باسم العقد الرابع المتخوف . وتزايدت على كر الأيام جرأة ألمانيا الجديدة بقيادة هتلر وجورنج وإيطاليا الفاشية . وكانتا تواجهان الدولتين الغربيتين بثقة متزايدة واطمئنان ، كما أن الطبقة العسكرية فى اليابان ، وقد أدركت قيمة توزع الاهتمام بين الدولتين ، زادت كل يوم فى عدوانها ببلاد الصين . وكانت الجيوش اليابانية التى كانت مهيمنة على منشوريا تجتاح ولاية جيهول عند نهاية ١٩٣٢ ، فوصلوا إلى سور الصين الأعظم فى ١٩٣٣ .

ولم تكن بريطانيا ولا فرنسا ولا الروسيا تريد الحرب . فكانت كل منها — وعلى شاكلتها الخاصة — فى حالة من الاضطراب بما فيها من ويلات اقتصادية ومالية . وانتشرت الدول العدوانية الثلاث فى الأرض بمزيج من التهديد الحق والتهويش ، تمزق معاهدة فرساى وعصبة الأمم تمزيقاً نهائياً وكاملا .

وعند نهاية ١٩٣٤ شجر خلاف حاد بين الحبشة وإيطاليا ، وفى خريف ١٩٣٥ كانت إيطاليا منهمكة تماماً فى حرب تغزو بها بلاد الحبشة ، ووقفت هذه الحرب فى مايو ١٩٣٦ بما استعملته إيطاليا بقساوة بالغة من القنابل الحارقة والغازات السامة . بيد أن الإيطاليين وجدوا من الحبشة قطراً عسير السكنى والاستغلال .

وفى صيف السنة نفسها ، لقيت الحكومة الجمهورية بمدريد وقد أضعفها كفاح طويل مع القطالونيين من دعاة الوطنية والمتطرفين من الشيوعيين — نفسها هدفا لثورة عسكرية يقودها الجنرال فرانكو الذى كان على رأس الجنود المغاربة والذى كانت تساعده ألمانيا وإيطاليا . وفشل التمرد فى أن يصبح ثورة مباغتة ، فإن الأسبان التفوا حول راية حكومة مدريد ، ومن ثم شبت حرب ضروس فى شبه الجزيرة دامت سنتين ، وكانت ألمانيا وإيطاليا تزدادان فى الاشتراك فيها صراحة وإعلانا . وكان المغيرون يقذفون المدن بقنابلهم فى غير رحمة حتى قتل فى هذه الحرب عدد لم يسبق له مثيل من النساء والأطفال . ولم يكن هناك من البداية إلى النهاية أى إعلان لحرب . فكانت ألمانيا وإيطاليا من الناحية القانونية فى سلم مع الصين .

وفى ربيع ١٩٣٨ غزا هتلر على حين فجأة بلاد النمسا وألحقها ببلاده فى تحد صريح لما حظرته معاهدة فرساى . ولم يحدث إزاء ذلك أية مقاومة فعالة لا فى داخل النمسا ولا خارجها . وأصبح هتلر (ومسولينى معه حليف يقظ) ، يدرك رويداً رويداً أنه السيد المتصرف فى الشئون العالمية ، وأن ألمانيا النازية هى الدولة العزيزة فى العالم . وأخذ الخوف الذى لعله كان مبالغاً فيه يعمل عمله فى شل تفكير الديموقراطية . فابتدأ سباق جنونى على التسلح أكثر نفقة وانهاكا للقوى من ذلك الذى بلغ ذروته فى الحرب العظمى ١٩١٤ — ١٩١٨ .

ولم يتهيأ لنا أن نفهم فشل كل سياسة بسيطة ذات عزم فى ذلك التسابق الدولى ، وتبخر كل كبرياء بل كل ثقة فى النفس من جانب أمريكا وفرنسا وبريطانيا ، إلا إذا أدركنا أن كلا من هـذه الدول المتسلطة فى الماضى كانت تقاسى على شاكلاتها الخاصة من تغير الظروف الاقتصادية فيها وسوء فهمها لها . وكانت هى أيضاً تمر فى دور من الانقلاب الجوهرى فى طرائق الإنتاج وفى حال من فساد التوزيع ، كان من شأنهما أن تدمرا الطلب القديم على استخدام العمال ، كما ترتب عليهما مع نمو الصغار أن حل محل طبقة العمال القديمة المدربة طبقة من العاطلين القلقين المتذمرين . وشعرت الولايات المتحدة بضغط الضائقة على صورة نقص فى استهلاك السلع ، ولما كان الاستثمار قد انتشر أثناء الحرب وفترة الثقة التى عقبت الحرب انتشاراً فسيحاً ، فقد استتبع ذلك بيع للأسهم والسندات ثم أزمة مالية . ووقع فى بحران المتاعب عدد ضخم من المصارف الأمريكية التى كانت تستمتع بحرية ضخمة ولا تجد أية رقابة مالية . وكان من يمن طالع البلاد فيما عقب ذلك من رعب مالى فى ١٩٣١ — ١٩٣٢ ، أن وجدت فى فرانكلين روزفلت قائداً وزعيما لها . فأقام على البنوك رقابة لم يسبق لها مثيل وحول وجهة البلاد من الفردية التقليدية التى جمعت الثروة النقدية وبددت مواردها فى نفس تلك العملية ، — إلى وجهة اقتصاد جديد عصرى الصباغ ذى خطة مرسومة هو نظام « التعامل الجديد » . بيد أن مقدار التشريك الذى كان يستلزمه ذلك المشروع كان بحاجة إلى موظفين مدنيين تتجاوز العدد الموجود من الرجال المدربين والمتعلمين ، وكانت تعوق الرئيس الجديد منذ البداية عيوب بعينها ترجـع إلى لطف خلقه وإلى انقسام وزرائه وضيق أفقهم ، وإلى ما كان يبديه النظام القضائى الأمريكى (من المحكمة العليا فنازلا) مـن التحيز إلى الفردية والابتكار والابتداء الفردى . وكانت أمريكا لا تزال فى معمعان تلك التجربة العظيمة من التعمير فى ١٩٣٧ — ١٩٣٨ يوم كانت احتمالات الحرب فى العالم القديم تتطور يوما بعد يوم . فبدأت تدرك التهديد الذى يتعرض له كل من ساحليها الشرقى والغربى إذا حلت بالإمبراطورية

البريطانية أية كارثة خطيرة ، وكان الخطر الجوى يتراءى فى كل آونة أدنى وأقرب كلما ازدادت الطائرات سرعة وحجما . وفضلا عن ذلك فقد لاح أن الاستعداد للحرب يبشر بتخفيف مباشر فى البطالة . ولذا فإن أمريكا أقدمت وهى لا تزال تتعلق بحلم العزلة ، على الاشتراك فى سباق التسلح الضخم الذى كانت بريطانيا وفرنسا مشتبكتين فيه .

وتكاثرت على بريطانيا العظمى المصاعب الاقتصادية . وكانت قد سبقت أمريكا فى الثورة الشعبية على الأغنياء الأحرار الأقوياء ، بفرضها ضريبة ثقيلة جداً على الدخل ، وبضرائب التركات وبتوزيعها الإعانات على المتعطلين . ومن ثم فإنها أبعدت شبح التوتر الثوروى ، على حين كان شبابها المتعطل يتسكع وهو عبء على نفسه والمجتمع سواء . ولم يتهيأ لهؤلاء الشبان اليائسين العديمى الأمل إلا القليل نسبياً من الرعاية لشئونهم الصحية ولتنظيمهم واستكمال تعليمهم والاستفادة منهم . وكان الثراء الفردى والمسعى الفردى الخاص والمالية الفردية من القوة السياسية ببريطانيا العظمى بحيث كفلت عدم قيام أى تشريك (Socialization) للصناعة أو الموارد الصناعية . وفى ١٩٣٧ تنبهت بريطانيا العظمى أيضاً إلى حقائق نذر الحرب وانتقلت مع سائر العالم إلى نظام من العبودية للضرورات العسكرية .

ويتزايد وضوحا فى كل يوم لدى كل إنسان زكى ، أنه ما دام هناك استقلال ذو سيادة للدول القومية وتعليم منتظم للأكاذيب العنصرية وتحاملات ثقافية وقومية ، وما دام هناك أيضاً ذلك الاحتياز القاتل للمواهب احتياز موارد الثروة من أجل نفع الفرد ، وما دامت الملاعبات المالية فى طلب الأملاك مستمرة ، — فلن تزال حالة عدم الثبات التى نحن عليها تتفاقم ، ولن تزال الحياة والفكر الإنسانيان مكرسين بشدة متصاعدة للتنظيمات والعبوديات والمخاوف والشهوات التى هى قوام حرب تتعالى على مر الأيام قواها التدميرية . إن هناك لضربا من الهستريا العسكرية يتهدد نوعنا البشرى ، وقد يهوى بنا خطوة فخطوة ، إلى تجارب قاس دنىء ، وإلى حياة لا نجد فيها إلا مهمات قليلة لا تتجاوز الألم والبغضاء والشهوات البدائية ، ولن نجد فيها إلا فضائل قليلة لا تتعدى التجلد الإسبارطى .

على أن اكتشاف الاتجاهات أسهل من العثور على الدواء ، وإن ما يبديه علماء الاجتماع والاقتصاد فى العالم من مناشط ذهنية فى سبيل تشخيص متاعبنا وتحديد سياسة تستهدف التكيف ، كانت إزاء حاجتنا مغمورة بالاحتقار أو تكاد . لقد اجتمعت مؤتمرات لا حصر لها لم تؤت ثمرة ما ، وتمت اجتماعات وأعلنت تصريحات ، وكثر الهذر فى مبتذل التفاهات غير المترابطة وأنصاف الحقائق . وإن هناك لطلباً عظيما للتنسيق وليس ثمة أى تضحية بالنفس .

وإن هناك لتلهفاً بعيداً إلى شىء يسمونه السلام ، وليس ثمة اضطرار يهدف إلى حياة متزنة قوية وخلاقة . وإن هناك لعنصراً جسيما من التكاسل يتملك نفس كل داعية إلى السلام ، وإذا تم للناس فى النهاية الحصول فعلا على مثل ذلك التركيز للقوى الذى يصون لهم فى أرجاء العالم كلها تنظيما كافياً للسلام ، فلن يتم ذلك على التحقيق بسلوك طريق عدم المقاومة السهل الهين . ولقد كان السلم الرومانى (Pax Romana) ثمرة الامتلاك والغزو ، ولا شك أن « السلم العالمى » يستدعى شيئاً مثل الذى أظهره الرومان من العزم الثابت ومن المعاملة الحازمة للمعاندين .

٢ — الحرب العظمى الثانية

الآن نقص عليك مجموعة الأحداث المتعاقبة التى أفضت إلى الحرب العظمى التى تسير الآن متثاقلة نحو أدوارها الختامية الغامضة . ففى مارس ١٩٣٨ ، اقترح المستر لتفينوف وزير خارجية الروسيا أن تتباحث حكومات بريطانيا وفرنسا وأمريكا وروسيا السوفيتية فى ضرورة التعاون على العمل المشترك ضد العدوان وبخاصة فى أوربا الوسطى . ولم تدع ألمانيا ولا إيطاليا ولا اليابان فى هذا التشاور ، وذلك كما قال لتفينوف : « لأننا لا نريد أن نبحث العدوان مع المعتدى » . وكان فى ذلك إشارة واضحة صريحة لعلها كانت جنبت العالم ويلات النزاع الأوربى تجنيباً تاما ، أو قضت عليه وهو برعم فى الأكمام ، ولكن جنون العداوة للشيوعية الذى يتسلط على الأغلبية البريطانية المحافظة ، كان أقوى كثيراً من خوفها من الخطر الألمانى . ولكن هذا الاقتراح ظل حتى نفس ساعة إعلان الحرب على ألمانيا ، وبعد أن ردده ستالين فى مارس ١٩٣٩ ، وكرره مولوتوف فى مايو — مضافا إليه ما أعلن من أن على بريطانيا وفرنسا أن تضمنا سلامة دول البلطيق ترابطاً منها مع الروسيا ضد العدوان الألمانى — ظل ذلك التصريح هو سياسة الروسيا المعلنة والتى تتمسك بها على الدوام .

وكانت الخطوة التالية فى البرنامج الألمانى هى تدمير تشيكوسلوفاكيا . وقد أدى ضم النمسا إلى ألمانيا إلى إحاطة تلك الدولة الصغيرة الهامة القوية من ثلاث جهات ، ثم ابتدأت عند ذلك دعاية هائجة صاخبة ممزقة للآذان دفاعا عن السكان الألمان ، الذين أصرت معاهدة فرساى تمشياً منها مع مبدأ التخوم الاستراتيجية ، على إلحاقهم بمنطقة بوهيميا . وحدثت عقيب ذلك تهديدات بالحرب وبعض مفاوضات سخيفة . وبالغ المستر تشمبرلن فى بذل جهوده فى سبيل إرضاء العدو المشترك . ومنذ ذلك التاريخ نبذ الشعب البريطانى سياسته ، ولكنه كان فى ذلك

الوقت يناصره مناصرة قوية لا جرم . فأخذ يغدو إلى ميونخ ويروح ، ولا يغربن عن بالك أنه عند ما عاد إلى الميناء الجوى فى هستن ، بعد التخلى عن الدكتور بنيش ، ونبذ الضرورة الواضحة القاضية بالقيام بقمع جماعى لألمانيا على يد الروسيا وفرنسا وبريطانيا وتشيكوسلوفاكيا ، — وبعد تسليمه بكل ميزة عسكرية كانت تشيكوسلوفاكيا تملكها ، وحصوله بدلا من ذلك على جذاذة من ورق لا قيمة لها عليها إمضاء هتلر ، وذلك عند ما أعلن للجمهور المحتشد فى داوننج ستريت « إنه السلام فى وقتنا هذا أيها الأصدقاء . وإنى لأنصحكم الآن أن تذهبوا إلى بيوتكم وأن تناموا قريرى العيون » ، فتلقاه الجمهور بهتاف ملؤه الغبطة . فعلينا أن لا ننسى ذلك أبداً . وذهب القوم لمضاجعهم ليناموا .

إن مملكة الطبيعة الخشنة تنزل من العقاب على الحماقة والضعف قدر ما تنزل منه على الإجرام ، والآن تدفع بريطانيا والبشرية جمعاء ثمن هذا التملص الدنىء من الشرف والواجب . ذلك أن ألمانيا لم تف بتعهداتها لحظة واحدة ، ويكاد العقل لا يصدق اليوم أن يكون أى إنسان من الغفلة بحيث يصدق أنها ستفى ؛ وظلت ألمانيا على حذر وترقب بينما ذهبت انجلترا شعب المستر تشمبرلن الطيب — إلى مضاجعها لتغط فى النوم ! ! !. وتقدمت الجيوش الألمانية إلى المناطق التشيكوسلوفاكية المحددة لها ثم استمرت فى طريقها . ولما حل مارس ١٩٣٩ كانت تشيكوسلوفاكيا زالت من الوجود ، وكانت مصانع سكودا تنتج الأسلحة للجيوش الألمانية التى لا تنفك تقوى . وغاب عن بولنده والمجر احتمال سقوطهما هما أيضاً فى نفس القبضة ، فوثبتا على الدولة الصريعة كالذئاب الضارية . واستولت بولنده على إقليم تسكن (Teschen) وقبضت المجر على قطعة من إقليم أوكرانيا .

ولم يقدر لبولنده أن تتملك فى سلام تلك المناطق الجديدة . فإنها كانت الهدف التالى فى التقدم الألمانى . وهنا التقط هتلر خلافاً على مسألة دانزج . وأخذ الموقف يشتد ويتفاقم ، وأخذ تردد المستر تشمبرلن وبلاده يصبح شيئاً محزناً أكثر فأكثر . لقد دفعه الرعب إلى إضاعة دفاع تشيكوسلوفاكيا لخوفه من البلشفية فى معظم الأمر وارتيابه فيها . وظهر على بريطانيا أنها لا تزال تتعلق بفكرة هتلر وأنه يدبر القضاء على الشيوعية ، ولا تزال تؤمل أن يزحف هتلر شرقاً ، على حين تلعب الرجعية الغربية دور متعقبى المعسكرات غير الكريم وإن كان مربحاً . ولكن بولنده كانت من قديم الزمان كما كانت لا تزال فى ذلك الحين ممن لا يؤمنون بإنصاف الحلول ؛ كانت رجعية وكانت كاثوليكية وكانت ضد الروس ؛ وابتدأت من جديد المفاوضات للقيام بكبح مشترك لأطماع ألمانيا ، ولكن عاقها كراهية الطبقات

العليا البريطانية القيام بأى تعاون مخلص مع الروسيا . فإن الثورة الاشتراكية كانت ولا تزال (البعبع) المخيف لهم وليست ألمانيا .

وفى مارس أُضيفت ميناء ممل الليتوانية إلى الرخ الألمانى . وفى أبريل ١٩٣٩ ، تقدمت إيطاليا فى تحد صارخ لعصبة الأمم وما إلى ذلك فاستحلقت على الفجاءة ألبانيا بين رشاش الاحتجاجات غير المجدية المعهود ، وعند ذلك خلا مكان آخر فى اجتماعات العصبة . وفى مايو قدم المستر لتفينوف قوميسير الشئون الخاجية — وكان يتخذ على الدوام اتجاهاً صريحاً مستقيما من الرغبة فى التعاون مع الغرب — آخر إشارة تحذير للدول الغربية بأن استقال من منصبه ، وتراجع إلى خلفية المسرح بما هو عليه من الحصافة والخبرة ومنزلة الثقة ، ولكن حل محله المسيو مولوتوف الذى كان أقل من سلفه ميلا إلى الغرب . ولكن إشارة المسيو لتفينوف لم تكن لها أية دلالة لدى وزارة الخارجية البريطانية التى لا يلوح عليها بالفعل أنها منذ الثورة الروسية لاحظت حدوث أى شىء فى الروسيا تستطيع تجنب رؤيته . وكانت رغبتها فى زوال الروسيا من الوجود واضحة صريحة بسيطة .

وفى ٢٤ أغسطس ، وقعت بريطانيا فى اللحظة الأخيرة حلفا للدفاع المتبادل مع بولندة . وقد سبق هذا الحلف معاهدة عدم اعتداء بين ألمانيا والروسيا . فذهب روبنتروب وزير خارجية ألمانيا إلى روسيا وواضح أنه استطاع أن يقنع ستالين ومولوتوف بنفاق بريطانيا وسياستها ذات الوجهين . وولت الروسيا ظهرها للدعوقراطيات وهى فى حالة من الغضب والارتياب ، وتخلت ألمانيا تماماً عن ادعائها العداء للشيوعية الذى كان يلعب حتى ذلك الوقت دوراً كبيراً فى الاحتفاظ لها بموقف تحبيذ للنازية بين صفوف علية القوم وذوى النفوذ فى فرنسا وبريطانيا العظمى . لقد وفت تلك الفترة بأغراضها . وعبر الألمان الحدود البولندية فى أول سبتمبر ، وأعلنت بريطانيا وفرنسا عليهم الحرب فى ٣ سبتمبر . وبذلك استيقظ الشعب البريطانى الطيب من نومه فوجد نفسه مشتبكا فى الحرب مع أشد من حملت البسيطة من شعوب الأرض المقاتلة تنظيما ، وقد نفر منهم أعظم حلفائهم قوة نفوراً تاماً . ومع ذلك فإنهم ظلوا نصف سنة أخرى فى نعاس ، وذلك لسوء إخبارهم بالأخبار ، وعدم تلقيهم أى تحذير وعدم استعدادهم ولأنهم طمئنوا طمأنينة غير شريفة .

وكانت حملة الألمان على بولنده وجيزة تمتاز بالكفاية . وربما كان ثمة قدر عظيم من نشاط الطابور الخامس ، وتدمير عظيم للمطارات البولندية بحشود محشودة من الطائرات . ودفعت الجيوش البولندية وهى تنافح بقوة وجلد ، وذلك بسبب تسرب الدبابات الألمانية ، وبسبب

تفوق الألمان فى المهمات تفوقاً جارفاً هائلا ، وأعلنت القيادة الألمانية العليا (١٢ سبتمبر) أن المدن المفتوحة والقرى والنجوع ستقذف بقنابل المدافع والطائرات للقضاء على كل مقاومة يبديها السكان الدنيون البولنديون . وحدثت مذابح بين السكان الدنيين البولنديين . وكانت الجيوش البولندية تزحف فى نفس الوقت إلى لتوانيا والجروزومانيا . وفرت الحكومة إلى رومانيا وسقطت وارسو فى ٢٨ سبتمبر .

وفى سبتمبر عبرت الحكومة الروسية وقد أدركت أن بولندة لاقبل لها بعدوها ، الحدود البولندية دون أن تلقى إلا أقل مقاومة . وتقدمت القوات الروسية إلى الحدود التى كانت للروسيا بمقتضى اتفاقية كيرزون بين ١٩١٨ ، ١٩٢٠ ، وكان عدد السكان البولنديين الحقيقيين الذين يسكنون تلك الأراضى ضئيلا جداً . وأعيدت ڤلنا التى سلبت من لتوانيا تحدياً لعصبة الأمم إلى أصحابها الأصليين . وعند ذلك أخذت الروسيا تعقد المعاهدات مع دول البلطيق الثلاث (وهى التى رفضت فرنسا وبريطانيا كما رأيت أن تمنحها ضماناً مشتركا) — وكان ذلك الأمر ينطوى على تسلط القوات الروسية عمليا على دفاع تلك الولايات الجوى والساحلى . وأصبح من البين أن الروسيا كانت تعنى أن تفيد من الموقف لتقوية تسلطها على سواحل بحر البلطيق . وكان يساورها على الدوام خوف من أن تقوم الدول الرأسمالية مجتمعة بالهجوم عليها ، وكان لها الكثير من الحق فى أن تعد فنلنده رأس الحربة لهذا الهجوم . وربما كانت فى مخاوفها شىء من المبالغة . فإن المدافع الفنلندية كانت تتسلط على الطرق المؤدية إلى بطرسبرج إلى درجة ما كانت لتقبلها أية دولة أخرى . ومن المحال علينا أن نتصور أن تنظر أمريكا فى استسلام وصبر إلى قيام تحصينات أجنبية قوية بجزيرة ستاتن[1] . وابتدأت بين الطرفين سلسلة من الأحاديث لم تفض إلى نتيجة ، وفى ٣٠ نوفبر بدأت الروسيا الحرب بسلسلة من الغارات على المدن الفنلندية . وكانت تلك وحشية كانت الروسيا تستطيع أن تستغنى عنها إلى حد كبير . وأثبتت الحرب أنها عسيرة على السوفييت باهظة النفقة ، وانتهى الأمر أن فنلنده اعترفت أخيراً بالهزيمة بعد قتال رائع دام ثلاثة أشهر ونصفاً وقبلت الصلح .

وفى نفس الوقت اقتصرت الحرب بوجه رئيسى على البحر . وكان الفرنسيون والألمان يتلاقيان وراء خطوط ثقيلة التحصينات ، هى خطا ماچينو وسيجفريد . وحدث هجوم فاتر على الجناح الشمالى للميدان . وعاد الألمان إلى حرب الغواصات مرة أخرى وفشلوا فيها تقريباً . فإن الأسطول البريطانى استعمل وسائل فنية جديدة وقضى على تلك الآفات بكل همة ، ولم تصبه إلا بضع خسائر قليلة مما لا مفر منه ، كبارجة أو ما يقاربها وحاملة طائرات ضخمة هى

---

(١) جزيرة تقع قبالة مدينة نيويورك .

كوراچيوس وبضع طائرات . وكانت الخسائر فى قوافل السفن أقل كثيراً مما كان منتظراً ، فكانت مقادير عظيمة من الأمداد تصل إلى بريطانيا . واستولى البريطانيون على أكثر مما فقدوا من السفن . وأمسكت البارجة جراف سبي (Graf Spee) ، وتغلبت عليها ثلاث سفن أصغر منها وأضعف هى الإكسيتار ، وأشيلس ، وآچاكس ، ثم فضلت أن تغرق نفسها عقب ذلك على أن تواصل القتال . وانتحر ربانها .

وظلت حالة من الترقب الفظيع تخيم على الميدان الغربى ستة أشهر . وتزايدت طاقة الاستعدادات البريطانية ، وأخذت مقادير متزايدة يوما بعد يوم من الجنود وأكداس متكاثرة من المدافع تعبر بحر المانش .

وحدثت أثناء تلك الفترة غلطة قدر للفرنسيين أن يأسفوا عليها فيما بعد هى مطاردة قوية لزعماء العمال الشيوعيين واليساريين واضطهاد لهم . إذ لاح أن ذلك لم يكن موجها وحسب إلى الشيوعيين بل إلى زعماء نقابات العمال . فأما نواب الشيوعيين الخمسين القليلى العدد فى مجلس النواب فقد اعتقلوا أو اضطروا إلى الاختفاء ، وحل موظفون خاصون محل المجالس البلدية الشيوعية فى كل أرجاء البلاد . ولم يكن ذلك العمل مهما خففنا نعته عملا معقولا وذلك لأن الآراء الاشتراكية اليسارية كانت شديدة الانتشار بين أفراد جنود الجيش عامة ، سواء أجاءوا من المدن أو كانوا من الفلاحين . وكانت الروسيا فى عين كثير منهم لا تزال رمز الثورة الاشتراكية . فبدأوا يتساءلون أهم يدافعون عن فرنسا التابعة للأغنياء ، وبدأت روح التدمير تنتشر لا بين صفوف الجنود وحدهم ، بل فى مصانع الذخائر . وعند ذلك استطاع المتدى مرة أخرى أن يدفع السفينة بين الرجعية وبين الدافع الثورى فى الإنسان العامى . ونظراً لأن الخيانة تجمعت أيضا بين صفوف اليمينيين أتباع دلادييه ، وهى خيانة من نوع أقوى منه بكثير بدرت دون أن يشك فيها أو يتحداها أحد .

وكان الشتاء قارصاً شديداً ، فتعرضت الجيوش فى الميدان لمصاعب جمة ضخمة ، ولم تكن المحاصيل فى أوربا بأجمعها تبشر بالخير . وفى منتصف فبراير انتقلت بؤرة الالتفات إلى بلاد النرويج . إذ أصبح حياد ذلك القطر موضع الشك . ذلك أن الملك هاكون كان مخلصاً فى ميوله لبريطانيا ، وكانت عامة الشعب بها على روح من الديمقراطية . على أن الحلفاء أنشئوا يدركون على حين بغتة أن شقة الماء الضيقة الممتدة على طول الشاطىء النرويجى بعرض الثلاثة الأميال المحددة قانونا مياها إقليمية ، كان الألمان يستعملونها ممراً يجلبون فيه الأمداد والمواد الحربية ليستخدموها فى مهاجمة البريطانيين . وبلغت الأمور ذروة التأزم بما يسمى باسم حادثة

آلتمارك (١٩٤٠) . فإن عدداً يتراوح بين الثلاثمئة والأربعمئة من بحارة السفن التى أغرقتها البارجة الأميرال جراف سبي قبل تدميرها قد هُرِّبوا على الطرادة الألمانية آلتمارك فى ذلك الممر بإغضاء من سلطات الموانى النرويجية . وأرسلت مدمرة بريطانية فى إثرهم ، وعلى الرغم من احتجاج صدر من اثنين من زوارق المدافع النرويجية ، ومن إنكار موظفى الموانى النرويجية ، أن على ظهرها أى أسرى ، فإنها دخلت فيورد يوسنج ، واعتلى رجالها ظهر السفينة المعتدية آلتمارك التى شحطت على الأرض أثناء النزال وأطلقت سراح الأسرى .

ومن بعد ذلك أخذ الموقف فى بلاد اسكنديناوه يتطور تطوراً سريعاً . فغزا الألمان بلاد النرويج والدانمارك فى وقت واحد . واستسلمت الدانمارك معاجلة . وقاومت أوسلو ، ولكن الحزب الفاشى من سكانها خان الموقف . وأعقب ذلك بضع أسابيع من الكفاح المصحوب بالارتباك . حدث الغزو الألمانى للنرويج والدانمارك فى ٩ أبريل . وفى ٨ مايو كان مجلس العموم البريطانى يجرى تحقيقاً فى سبب تلك الهزيمة الساحقة . وإليكم فقرات من خطبة ألقاها المستر لويدجورج .

« الآن نجح هتلر فى وضع بلاده فى موضع استراتيجى أحسن ألف مرة من موضع أسلافه فى ١٩١٤ . فإن اسكنديناوه والنرويج وهما من أعظم الاحتمالات الاستراتيجية فى الحرب أصبحتا فى يد الألمان . ولم يكن ثمة فائدة من توجيه النقد إلى بلاد السويد ، التى أصبحت آنذاك بين الألمان عن يمينها والألمان عن يسارها . فبأى حق يجوز لنا أن ننتقد الدول الصغرى ؟ لقد وعدنا بأن ننقذهن ونحميهن . ولم نرسل قط طائرة واحدة لبولنده ، وتأخرنا عن بلاد النرويج حتى فات الأوان . أيستطيع إنسان أن يشك أن هيبتنا قد خدشت ؟ لقد وعدنا كلا من تشيكوسلوفاكيا وبولنده وفنلنده . ومذكراتنا الحاملة لوعودنا أصبحت الآن فى عداد القمامة ... لقد وعدونا (الحكومة) بأن يمادتسليحنا فى ١٩٣٥ ، وقدمت إلى هذا المجلس فى ١٩٣٦ مقترحات فعلية . وكنا جميعاً نعرف أن كل ما كان يُعمل كان يُعمل عن تكره وفى غير رغبة صادقة ، ودون أن يكون له أثر ولا قوة دافعة ولا ذكاء يسيطر عليه . وكان العالم كله يعرف أننا كنا فى أسوأ وضع استراتيجى وقعت فيه البلاد فى تاريخها . . . . . .

« وكان المستر تشمبرلن قد قال « إن معى أصدقائى » . والمسألة ليست من هم أصدقاء رئيس الوزراء . بل هى أعظم من ذلك قدراً . فلا بد لرئيس الوزراء أن يتذكر أنه تقابل مع خصمنا الجبار فى السلم والحرب ، وكان يلقى الهزيمة فى كل لقاء . ولقد طالبنا بالتضحية .

والشعب مستعد لبذلها ما كانت له زعامة تنزعه . وإنى لأقولها الآن جادة مدوية أن فى وسع رئيس الوزارة أن يقدم لنا مثالا لتلك التضحية ، إذ ليس هناك طريقة أدعى إلى النصر فى هذه الحرب من أن يتخلى جنابه عن مقاليد الحكم » .

وبينما كانت بريطانيا تعيط عن نفسها بغاية العناء حكم وزارة المستر تشمبرلن الخانق ، ظلت ألمانيا تمثل بغير هوادة فى صورة ذلك الثالوث الشرس الرهيب ثالوث جورنج وجبلز وهتلر . وأنزلت فى ١٠ مايو الضربة العظيمة التالية للعلم المسكرى التاخر بفرنسا وبريطانيا ، يوم غزت ألمانيا هولنده وبلجيكا ولوكسمبرج فى وقت معاً .

وربما رأى دارس التاريخ فى السنوات القادمة — إن كان هناك دارسون للتاريخ فى قابل الأيام — أن من العجيب أن واحدة من هذه الدول الثلاث لم تفكر إزاء خطر الحرب الماثل الواضح ، فى أن تُعد خطة دفاع مشتركة مع بريطانيا وفرنسا . وقامت نفس العناصر الخائنة غير المخلصة بدورها فيما عقب ذلك من كوارث . ولم يكن الفرنسيون مدوا البتة خط ماجينو إلى ما بعد الحدود البلچيكية ، وكانت خطة الحلفاء لمواجهة الحركات العسكرية على اليسار المكشوف خطة ناقصة بتراء جداً . وقاوم الهولنديون والبلچيكيون المخلصون مقاومة شديدة ، ولكنهم غُلبوا بسبب الخيانة وراء خطوط قتالهم وبسبب استعمال الألمان لرجال المظلات استعمالا هائلا ، لم يكن خيال الحلفاء مستعد له إذ لم يسبق له أن درس تلك المسألة مدة تتجاوز الخمس أو الست سنوات . ولقيت روتردام نفس ما لقيته جرنيكا ، فدفنت جماهير غفيرة من الناس تحت الأنقاض ، ولم تنقض أربعة أيام حتى انهارت المقاومة الهولندية .

واستمر ضغط الألمان على خط الحلفاء المتقبض . وكان من أفتك ما بيدهم من أسلحة دبابات سكودا . وأخذ الخط الفرنسى يتكسر إلى جوار سيدان ، وتقدم الألمان شرقا خلال الثغرة التى فتحوها . ثم تركوا باريس عن يسارهم واندفعوا صوب بحر المانش (القنال الإنجليزى) وانجلترا . ولم يستطع الحلفاء أن يسدوا الثغرة . ومن ثم قطع الطريق على قوة ضخمة من الإنجليز والفرنسيين والبلچيكيين ، وانفصلت عن قوة الدفاع الرئيسية بفرنسا ، وبدأ خطر أسرها وشيكا . وكانت نسبة عظيمة من ذلك الجيش الشمالى بريطانية ، ومن ثم يكون فى فقدها كشف بريطانيا . وخطر على بال الملك ليوبولد الذى توسل إلى فرنسا وبريطانيا أن تساعداه عندما هوجمت بلاده ، أنه قد حان الوقت للقيام بعمل ينطوى على عظيم الجبن والخيانة . فدخل فى المفاوضات مع الألمان وأمر جيشه بالكف عن القتال فى ٢٨ مايو ، دون أن يخطر بذلك حلفاءه ، ومخالفا فى ذلك التسليم لنصيحة حكومته الإجماعية ، ودون أن

يهتم أدنى اهتمام بالجنود البريطانية والفرنسية الذين جاءوا لنصرة بلاده إبان محنتها بناء على توسلاته المحزونة .

وكاد الجيش البريطانى أن يؤسر ، ولكن صنف عامة جنوده الجديرة بالإعجاب أنقذه من التسليم . فاخترق طريقه قتالا إلى دنكرك ، واحتفظ بالمدينة أياما عصيبة حاسمة ، وتهيأ للحلفاء فى وجه تركيز هائل للقوة الألمانية ، أن يعبروا به القنال الإنجليزى ومعه جنود فرنسية وجنود بلجيكية مخلصة . وبلغ من حسن مسلك الجيش ، ومن حدوث حوادث عديدة جدا من البطولة الرائعة أثناء نقل تلك الحشود الهائلة من الرجال عبر البحر ، أن الشعب البريطانى لم يحزن للكارثة بل ازدهى بها . وقال المستر ونستون تشرشل محذراً « إن التقهقر الناجح ليس نصراً » وكان قد حل محل المستر تشمبرلن فى رياسة الوزارة . وخسر الحلفاء خسائر فادحة فى المدافع وغيرها من مواد . وكانت المقاومة الفرنسية الرئيسية تبدى دلالات متزايدة على قرب الانهيار .

وعند ذلك جاء الأوان الذى يعلن فيه موسولينى الحرب ، وقد فعل ذلك فى ١٠ يونية . وأخذت الجيوش الإيطالية تتحرك على الحدود الألبية لفرنسا ، وأخذت للدوتشى صورة على الأرض الفرنسية . وتحول انهيار القوات الفرنسية إلى عملية تشتيت . فتخلى الفرنسيون عن باريس وانتقلت الحكومة الفرنسية إلى بوردو ، وتقدم المسيو رينو برجاء يائس أخير إلى الرئيس روزفلت فى ١٣ يونية يطلب منه العون . قائلا « إن الكفاح إنما هو من أجل حياة فرنسا نفسها » . وأجابه الرئيس على الفور معبراً عن أسمى أنواع العطف والإشفاق وواعدا بالمساعدة المادية ، وإن ختم قوله بهذه الكلمات ذات الحدين : « إنى أعرف أنكم تفهمون أن هذا الكلام لا يحمل أى معنى يدل على الاشتراك فى العمليات الحربية . إذ لا يستطيع أن يقوم بذلك الاشتراك إلا الكونجرس » .

وعند ذلك استقال المسيو رينو ، وخلفه فى الرياسة الماريشال بيتان الشيخ المسن ، وتولى الماريشال ويجاند الأسن منه وزارة الدفاع الوطنى . وعند ذلك تقدمت الحكومة الفرنسية الجديدة لتسليم بلادها تسليما كاملا يكاد ينم عن شىء من الحمية . وفى اللحظة الأخيرة تقدمت الحكومة البريطانية باقتراح يدعو فرنسا إلى الاتحاد مع بريطانيا . ذلك أن البريطانيين والفرنسيين كانوا تعاهدوا آنفا بأن لا يقوم أحدها بصلح منفرد ، ولكن هذا الأمر أصبح منسيا ، وللمرة الثانية وجد البريطانيون أنفسهم يسحبون جنودا مضيقا عليها بفرنسا . وأخذت الجيوش الألمانية المظفرة تنصب فى فرنسا صبا ، وسقطت جزائر القنال الإنجليزى ،

وهى الإمارة الباقية من دوقية نورماندى ، التى كانت تابعة للتاج البريطانى منذ ١٠٦٦ ، فى يد الألمان ، فذهل لذلك البريطانيون . لقد أخذت الحرب حينذاك تصبح خطيرة حقاً على البريطانيين ، هنالك برزت قوة جديدة فى العمل ووجدت فى المستر تشرشل لسانها الناطق . وكانت موانى فرنسا البحرية ، كما كانت قوة الأسطول الفرنسى فوق كل شىء تكونان تهديداً لبريطانيا لايمكن التهاون به . وانضمت بعض السفن الفرنسية إلى بريطانيا طوعا ، وأنشئت فى لندن لجنة قومية فرنسية برياسة الجنرال ديجول ، لتنظيم عملية استرداد فرنسا .

وهوجمت قوة فرنسية معارضة فى وهران تحتوى على البارجتين ستراسبورج ودنكرك اللتين كانتا بارجتين من الطراز الأول — ثم جردت من سلاحها على يد الأميرال سومرڤيل . وفى أول قتال بحرى جدى مع الأسطول الإيطالى ، أصابت البارجة سدنى الاسترالية البارجة الطليانية الفائقة بارتولوميو كوليونى وأغرقتها رغم أنها كانت من أسرع بوارج العالم . والآن قد عاد البريطانيون أدراجهم إلى جزيرتهم ، وأخذوا يمتطون صهوة الجو وصفحة الماء ، وبخاصة فى أطباق الهواء ، شرع الجوهر البريطانى الحر ينفض عنه الأدران التى تجمعت عليه أثناء سنى التدلى الطويل التى أخنت عليه . وأخذ حرس وطنى يتزايد كفاية واقتداراً ، وتبدد القلق والفزع وحل محلهما الترقب والتسامى . وأخذت القوات الجوية البريطانية تزداد مع الأيام تفوقاً واضحاً للعيان . وأنشأت تجمع الطيارين الأكفاء من بين أفراد كل طبقة فى المجتمع ، فى كل من الإمبراطورية وحلفائها . وكان احتمال القيام بغزو فعال يهبط درجات كلما أرجىء يوماً .

وانتقل محور الالتفات الآن إلى اسبانيا ، أى إلى البحر المتوسط ؛ ثم تحول مرتداً إلى الشرق . وأخذت تتجلى فى كل يوم ظاهرة تنبىء بأن للروسيا فكرة عن مستقبل نفسها جعلتها على أقل تقدير غير ميالة إلى العطف على الألمان ، مثلما كانت الطبقة الحاكمة فيها ميالة للبريطانيين . فعادت إلى عملية تقوية حدودها ضد ألمانيا ، وإلى تحصين مواقعها على الدانوب والبحر الأسود . وعند ذلك طلبت بغاية الحزم عودة أقاليم بسارابيا وبوكوڤينا الشمالية التى أخذتها رومانيا فى ١٩١٨ ، فاضطرت تلك الأخيرة إلى الإذعان بعد التجائها إلى ألمانيا دون جدوى . ثم استجابت أثر ذلك إلى حركة اشتراكية أوجدتها الصدفة العجيبة فى دول البلقان ، وبذلك دخلن ثلاثتهن فى الاتحاد السوڤيتى . . . . .

واستثار هـذا التصرف الشعور الخلقى المديد الحيال فى الولايات المتحدة . فإنها لم توافق على اختفاء تلك الأقطار قدر عـدم موافقتها على طرد فنلنده من مصب النيڤا . وتكلم

المستر كوردل هل وزير الخارجية بقوة ضد ضم تلك الدول ، وأجابه المسيو مولوتوف قوميسير الشئون الخارجية معبراً بحدة عن وجهة النظر الشيوعية الذهبية المعتادة ، قائلا إن أمريكا تستطيع أن تهتم بشئونها الخاصة . واتسعت شقة الخلاف بين هاتين الدولتين العظيمتين ، المهتمتين جميعاً بقضية السلم ، واللتين كانت كل منهما عاجزة بمفردها عن الوصول إليه . ومع ذلك فلم تكن ثمة حقيقة تفصلهما بعضهما عن بعض إلا شيء من النقص فى التفاهم وسعة الخيال .

فلئن كان الكومنولث قد وصل فى النهاية فى صيف ١٩٤٠ إلى تجميع قواته للقتال جديا حول رايته ، فإن حكوماته كانت لا تزال تتخبط خبط عشواء ولا تجد من ينصحها بمحضها النصح فى مناشط دعايتها . ونشأت هيئة خفية وشبه سرية هى لجنة سوينتون ، التى كانت مهمتها معالجة الجماهير المتكدسة من اللاجئين والأجانب ببريطانيا العظمى . وكان على رأس هذه اللجنة رجل اسمه المستر لويد جرايم ، الذى اتخذ اسم كانليف ليستر فى ١٩٢٤ ومنح رتبة اللوردية فى ١٩٢٩ تحت اسم اللورد سوينتون . ونشأ فى أعقاب ذلك الحين اضطهاد قاس عنيف أنزل بالشعوب نفسها التى كان ينبغى على بريطانيا أن تتوقع منها العون فى قتالها فى سبيل رد الحرية إلى ربوع أوربا . فلقوا معاملة تنطوى على الحماقة الشريرة والوحشية التى أنزلت باسم بريطانيا ضرراً لا يحصى . فإن الأعداء المتحمسين ضد الاشتراكية الهتلرية الوطنية وضد الفاشية قد سجنوا فى ظروف بشعة فظيعة ، وأبعدوا عن زوجاتهم وعائلاتهم ، بل أخرجوا من أوطانهم ؛ ودفع بكثير منهم إلى ارتكاب الانتحار . وفى أيام الماضى العظيم ، أيام كاننج وبلمرستون وملبورن ، التى كانت بريطانيا تواجه فيها المحالفة المقدسة ، كانت سياسة بريطانيا المألوفة أن تصادق الحركات الثورية فى كل قطر أوربى ، وأن تؤويها وتعاونها . ومن مفاخر بريطانيا أنها أوقفت تجارة الرقيق فى الماضى . وكان من أعظم دواعى فخار البريطانيين أنهم حيثما رفرفت رايتهم فثم حصن الحرية الأمين . فأما اليوم فإن العالم المأخوذ أخذ يتساءل : هل نسيت انجلترا تقاليدها ؟ أكان كل ذلك الحديث عن الديموقراطية لا يزيد عن قناع ودعوى تخفى وراءها ما تخفى ؟

ومما زاد أثر ذلك الاضطهاد الضار سوءاً أن الحكومة البريطانية أصرت إصراراً تاما منذ بدء الحرب على رفض إصدار أى بيان واضح عن أغراضها من الحرب . وكانت كل قوة أسمحية فى العالم ، داخل الإمبراطورية وخارجها ، قد طالبت بأن يتم ذلك . ولكن الشعوب البريطانية الآخذة بأسباب اليقظة وجدت نفسها مع ذلك غير قادرة على تخليص يدها من

أغلال نزعات حزب التورى القاسى الفؤاد الذى أوقعهم فى حبائله الحرب . . . . .

ومن ثم واصل البريطانيون القتال وبلادهم يحدث فيها باطراد تطور مستمر فى الكفاح الاجتماعى . وحدث هجوم جوى عظيم متلاحق على لندن فى سبتمبر وأكتوبر فكشف عن صلابة عود عامة الناس وشدة جلدهم وأظهر قوة سلاح الطيران البريطانى المتزايدة . وكان اتجاه أمريكا بزعامة الرئيس فرانكلين ديلانو روزفلت ينتقل رويداً رويداً إلى العطف على جهود بريطانيا فى الحرب . وكانت جيوش موسولينى تشق طريقها إلى مصر قاصدة قناة السويس ، وبلغ من ثقته بالنصر أن ضم إليه أيضاً ألبانيا (١٩٣٩) وهاجم بلاد اليونان (١٩٤١) . وكان الرئيس متكساس قد بلغ بالجيوش اليونانية ذروة عالية من الكفاية . وظهر قائد بريطانى من طراز جديد أعظم كفاءة هو الجنرال ويفل ، فضرب الجيوش الإيطالية فى شمال افريقيا وإريتريا وبلاد الحبشة بسرعة وقوة أدهشت أبناء وطنه قدر ما أدهشت الإيطاليين . ولم تنقض عشرة أسابيع حتى كانت المثانة الفاشية المنفوخة قد مزقت . وتهيأ للبريطانيين بقوات جامعة الدول البريطانية الجديدة الأقل عدداً والجليدة فى القتال والأحسن عدة ، أن يهزموا ويأسروا الجيوش الإيطالية المتناثرة بين البحر الأحمر إلى برقه ، على حين استطاع اليونان بمساعدة السلاح الجوى البريطانى أن يجترفوا أمامهم القوات الإيطالية فى ألبانيا . ولا شك أن البريطانيين كانوا يستطيعون بمثل هذه القيادة الذكية الجليدة أن يحطموا هجوم النازيين على النرويج فى ١٩٤٠ . ولكن كثيراً من التلاعب الداخلى — سواء أكان مقصوداً أم غير مقصود — كان لا يزال يُفسد جهود الدوافع الخلاقة فى الرجل العادى غير الميال للعدوان وذلك بغية انقاذ سفينة عالمنا الغارقة .

* * *

وفى ١٩٤٠ — ١٩٤١ كان جميع العالم غير المستعد يلعب التماساً للوقت ويضمر الاسترابة بأصدقائه المحتملين . واستطاع هتلر رغم ما كان يصدر عنه من أكاذيب لا يكاد يصدقها عقل — أن يعقد المعاهدات ويقيم التفاهم مع جميع الضحايا الذين أسقطهم ما عدا اليهود ، الذين حلت عليهم نقمته على كل حال . ويلوح أن الأمريكيين كانوا بمنأة عن دائرة أطماعه فى ذلك الأوان . فكان هدفه غزو العالم المتمركز حول أوربا . وسار مولوتوف وبوريس ملك بلغاريا وممثل للحكومة الألعوبة القائمة فى يوغوسلافيا ، فى أثر خطوات تشمبرلن وذهبوا للمفاوضة مع هتلر . وظلت بريطانيا حيناً من الدهر تتحمل وحدها عبء هجوم لا يزال يتزايد كل يوم شدة . على أن هتلر شعر بعد حديثه مع مولوتوف بالقلق من ناحية الروسيا . فإن الروسيا

كانت تسترد قوتها من ساعة إلى أخرى . كانت هي الخطر الأكثر إحاقة به . وقد تكون بريطانيا قوية في دفاعها ، على أنها كانت حتى ذلك الحين غير مستعدة للهجوم تماماً . ومن ثم ففي ٢٢ يونيه ١٩٤١ غزا هتلر الروسيا . فإن غزو بريطانيا كان من الميسور إرجاؤه حتى يقضي على الروسيا . وكان أهل الرأي في أمريكا منقسمين ، ولكن هجوما على بريطانيا كان لا مفر مفضياً إلى تحالف وثيق بين روزفلت والقطر العجوز . وربما كان من السهل إيصال الجنود إلى انجلترا ، ولكن كان من أعسر الأمور رغم وجود أتباع موزلي ومن إليهم ومساعدتهم له ، استرجاع الجنود منها ثانية . وكانت القبضة الألمانية ممتدة هنا وهناك ، وفي كل مكان . وكانوا متفرقين تفرقا مفرطاً ، وكان الإنجليزي العادي قد اكتسب الشهرة بصلابة العود . وربما استهلكت مليونا من الرجال بينما ليس لديها ربع مليون تستبقيهم لنفس العمل . وربما أصبحت بريطانيا معسكراً لاعتقال أسرى الحرب ، ومن ثم ينزل النازيون إلى أرض انجلترا ليجعلوها تقوم بذلك الدور .

ولكن لأن استبقى النظام الهتلري رأسه خارج المصيدة البريطانية فإنه لجأ مع ذلك إلى شن هجوم عنيف على الروح المعنوية لسكان لندن الشديدي التخلط السيء التعليم والأقوياء المراس . وابتدأ ما يسمى باسم معركة بريطانيا . فشهدت بنمو الكفاية الجوية لدى البريطانيين . وما وافى ١٨ سبتمبر ١٩٤٠ ، حتى كانت ١٨٦٧ طائرة معادية قد أُسقطت مقابل ٦٢١ طيارة بريطانية قتل من ملاحيها ٦٠٠ ونجا الباقون بالمظلات الواقية ثم عادوا إلى ميدان القتال . ولكن سكان لندن المدنيين دفعوا ثمناً أفدح من هذا . فقد كان القتلى حتى ٥ نوفمبر أربعة عشر ألفاً ، وكان الجرحى عشرين ألفاً ، أربع أخماسهم جميعاً في لندن وحدها . ودمرت دار نقابات العمال بلندن وثمانية من الكنائس التي بناها السير كريستوفر رن في ذلك الهجوم الجوي النازي . وتكلم تشرشل عن المجتمع البريطاني فقال لأمريكا : « أعطونا الأدوات نتم لكم الشغلة ! » وذلك لأن أمريكا كانت لا تزال جالسة في مقاعدها تصفق لبريطانيا تصفيقاً حاداً ، ولكن دون أن يبدو عليها أي مظهر ينبيء بعدها يد العمل في ذلك الكفاح . وفي أكتوبر طالب الإيطاليون بنصيب في تدمير انجلترا وساعدوا في القيام بالهجوم .

ولكن حدث في السابع من ديسمبر ١٩٤١ ، أن شيئاً أشد عمقاً وأكثر فطنة وأوسع مجالا من مؤامرة النازي على سائر البشرية ، ظهر تحت الشمس فجأة وأخذ كلا من البريطانيين والأمريكيين على غرة . ذلك أنه قد تواصلت في آسيا الدعاية المضادة للأوربيين بضع سنين ، وكان مبعث تلك الدعاية خيال اليابانيين الناشط الخبيث العدواني . ولم تجد تلك الدعاية لنفسها

تنفيساً كبيراً فى اللغة الهندوستانية ، تلك اللغة التى تضيق الحدود على كل ميال إلى الغرب داعية إلى نظمه وعاداته . ووجدت من يعبر عنها باللغات الوطنية فى صحافة الشرق من الهند إلى الفلبين . وعمت كل أرجاء الصين ، وكانت اليابان فى كل مكان تتخذ صورة الزعيمة الناصرة للعالم الأسيوى الناهض ، الذى سطرت له القادر أن يتسلط فى النهاية على هذا الكوكب ، والذى كان قد ملأ البقاع من الشرق إلى الغرب بطريق هونولولو وكاليفورنيا ، حيث كان يقيم عدد ضخم من السكان شديدو الاصطباغ بالمدنية الأمريكية ، بداخلهم الجواسيس والوكلاء السريون ويكمن ودهم إلى تقاليدهم القومية . ولم يكن اليابانيون يضمرون للألمان إلا نفس القليل من الاحترام الذى يضمرونه للأوربيين كافة ، وكان رأى هتلر الأول فى ذلك الشعب الأصفر الصغير الأجسام لا يقل عن هذا انحطاطاً واحتقاراً .

وقذف هذا المشروع الذى طال الأمد بإعداده ، قذف على العالم به فى ٧ ديسمبر ١٩٤١ ، وعلى حين كان الديبلوماسيون اليابانيون لا يبرحون يخففون من الشبهات ضد بلادهم بإجراء المفاوضات فى واشنطون . وكان أسطول الولايات المتحدة الباسيفيكى يرقد هادئاً فى مياه بيرل هاربور قاعدته البحرية عند ما وثب عليه اليابانيون . وفقدت فى تلك المفاجأة أو دمرت بارجتان وثلاث مدمرات وسفينتان أخريان ، وأعلنت القيادة اليابانية العليا أنها فى حرب مع بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية . وأغرقت البارجتان البرنس أوف ويلز والريبالس لأنهما كانتا بلا عون جوى (! ! !) بطرابيد ألقيت من الطائرات اليابانية . وهل لى أن أكرر هـذه الكلمات المشحونة بالمعانى الأسيفة . . . لأنهما كانتا بلا عون جوى ! ؟ ولسنا نعرف إلى يومنا هذا من كان المسئول عن ذلك التقصير ... ...

***

لقد صد ويفل هجوم الإيطاليين وتقدم إلى غزاله ولـكن سحب جيوشه إلى البلقان أضعف حملته ، فتقدم روممل حتى أصبح على مسيرة ٧٠ ميلا من الإسكندرية . وفاز الجنرال مونتجومرى فى أكتوبر ونوفبر ١٩٤٢ بمعركة العلمين المدوية . ومن ثم بدأ تقدم سريع على حين نزلت بمراكش والجزائر جيوش أمريكية وبريطانية بقيـادة الجنرال إزنهاور . فوقع الألمان بين نارين فسلموا فى سبتمبر سنة ١٩٤٣ . ثم استوجب الحال بعد سقوط الإمبراطورية الإيطالية بشرق إفريقيا تقوية مركز الحلفاء فى الشرق الأوسط فاحتلت العراق وسوريا بعد أن أظهرتا شيئاً من العطف على المحور .

وفى أغسطس احتل الروس والبريطانيون إيران وحولوها إلى مركز إمداد وتموين عظيم .

ولم تلبث القوات المتحالفة أن اجتاحت إيطاليا بطريق صقلية من ١٩٤٣ — ١٩٤٥ . وفى يوليه سقط موسولينى ، وفى ٣ سبتمبر وقعت الحكومة الجديدة الهدنة وأعلنت الحرب على ألمانيا فى ١٣ أكتوبر .

وعند ذلك دخلت إيطاليا قوات ألمانية عظيمة ، أخذت تحارب حرباً مريراً حتى كسرت فى مايو ١٩٤٤ على الخط القوطى بالقرب من بيزا ، ثم استسلم الألمان بعد ذلك فى أبريل ١٩٤٥

وفشل الألمان عند ستالينجراد عدة مرات ، ثم قام الروس بهجومهم العظيم فى ربيع ١٩٤٤ حرروا به جميع أوكرانيا ودخلوا رومانيا . ثم بدىء بهجوم عام أخرجت به فنلندة ورومانيا وبلغاريا من الحرب ، ودخل الروس بروسيا الشرقية وبولندة ويوغوسلافيا . ودخلت القوات البريطانية بلاد اليونان فى أكتوبر ، وفى نهاية ١٩٤٤ كانت معظم البلقان قد خرجت من أيدى الألمان . وأسدى أنصار تيتو إلى الحلفاء مساعدة ثمينة . وثمة هجوم روسى أخير حرر بولندة ودخل تشيكوسلوفاكيا وبلغ برلين (يناير — مايو ١٩٤٥) .

ومهد الطريق للجبهة الثانية فى الغرب بقذف ألمانيا بالطائرات بغاية الشدة . وفتحت الجبهة بشمال فرنسا الغربية بقيادة إيزنهاور ثم تقدمت الجنود المتحالفة من الساحل الجنوبى بسرعة إلى الشمال . فلما وصلت الجيوش إلى حدود ألمانيا هاجمها رونشتد فى الأردن فصدها إلى حين ، ثم ما لبثت أن كسرت خط سيجفريد وأن عبرت الرين فى مارس . وفى ٧ مايو سلمت ألمانيا بلا قيد ولا شرط .

وسرعان ما اجتاح اليابانيون شبه جزيرة الملايو وبسطوا نفوذهم على معظم جزائر المحيط الهندى والهادى . ثم أخذت الهزائم تتوالى على اليابانيين فاستردت بورما فى يناير ١٩٤٥ .

ومن أكتوبر ١٩٤٤ حتى يوليه ١٩٤٥ تم استرداد الفيلبيين . وكان الاستيلاء على إيوجيما وأكيناوا مقدمة للهجوم على اليابان نفسها .

وجاءت النهاية فجأة ، فإن قنبلة ذرية أسقطت على هيروشيما فى ٦ أغسطس وأخرى على نجازاكى فى ٩ أغسطس . وأعلنت الروسيا الحرب على اليابان ، وغزت منشوريا . وفى ١٤ أغسطس أعلن هيروهيتو قبوله لشروط الحلفاء .

جدول تاريخى

نختتم الآن هذه العالم بتقديم قائمة بالأحداث العظمى من ٨٠٠ ق . م إلى ١٩٤٦ م . ويحسن بالقارئ أن يستحضر أمام ذاكرته فكرة واضحة عن التناسب الحقيقى بين الزمن التاريخى والزمن الجيولوجى . ولنقتبس لك الآن فقرة من كتاب أصدره حديثاً المستر ج . ه . روبنسون : « لكى يتسنى لنا أن نفهم الضوء الذى يعكسه عمر البشرية الضخم على مركزنا الحالى ، وعلاقتنا بالماضى ، وأملنا فى المستقبل ، سنقتبس فى شىء من التعديل (من هنرخ شميت ، أحد تلاميذ هيجل) وسيلة ذكية ماهرة لتمثيل الصورة التاريخية المصرية المرئية . فعلينا أن نتصور أن تاريخ البشرية بأكمله مقسم إلى اثنتى عشرة ساعة ، وأننا نعيش فى ظهيرة اليوم الإنسانى الطويل . وعلينا لكى نسلك سبيل القصد والارتياد المريح ، أن نفترض أن الإنسان كان مستقيما ومنشغلا بطلب المستحدثات لمدة مئتين وأربعين سنة لا غير . وستمثل كل ساعة من يومنا هذا عشرين ألف سنة ، وتمثل كل دقيقة ثلاثمئة وثلاثة وثلاثين سنة وثلثاً . لقد انقضى ما يربو على أحد عشر ساعة ونصفاً لم يسجل فيها شىء . فنحن لا نعرف فيها شخصاً ولا حدثاً ؛ بل الحق أننا لا نتجاوز حالة الاستنتاج ، إذ نقول إن الانسان كان يعيش على الأرض ، ذلك أننا نجد آلاته الحجرية وأجزاء من فخاره ، وبعض صوره التى تمثل الماموث والجاموس البرى (: البيزون) . وليس هناك حتى الدقيقة العشرين قبل الساعة الثانية عشرة أى شىء ، ثم تبدأ أوائل آثار المدنيتين المصرية والبابلية . وليس عمر الأدب والفلسفة والعلم الإغريقى التى جرت عادتنا أن نسميها بالقديمة إلا سبع دقائق فقط . وفى الساعة الثانية عشرة إلا دقيقة كتب اللورد باكون كتابه الموسوم « تقدم العلم » ولم تكد تنقضى نصف دقيقة منذ أن بدأ الإنسان لأول مرة يجعل الآلة البخارية تقوم له بعمله .

ذلكم مثال فائق لتمثيل زمنى للتاريخ صغير المعيار .

ولا يبدأ التأريخ أن يكون بدرجة كافية من الدقة لتحديد سنة أية حادثة بالضبط إلا بعد تكوين فترات الأولمبياد الأول وبعد بناء روما .

وفى قرابة عام ألف ق . م . كانت الشعوب الآرية تستقر فى أشباه جزائر أسبانيا وإيطاليا والبلقان ، وكذلك استقروا فى شمالى الهند ، وكانت كنوسوس قد دمرت من قبل ذلك ، وكانت عصور التوسع المصرية أيام تحتمس الثالث وأمينحوتب (أمينوفيس) الثالث . ورمسيس الثانى قد ولت منذ ثلاثة أو أربعة قرون . وكان يحكم فى وادى النيل ملوك ضعفاء

من الأسرة الحادية والعشرين . وكانت إسرائيل موحدة تحت ملوكها الأوائل ، وربما كان شاؤول أو داود أو لعله سليمان نفسه يحكمون البلاد .

وكان سرجون الأول (٢٧٥٠ ق . م) أخو الإمبراطورية الأكادية السومرية ، ذكرى بعيدة فى التاريخ البابلى ، كان أبعد من بعد قسطنطين الأكبر من عالمنا اليوم . وكان انقضى على موت حامورابى ألف سنة . وكان الآشوريون يحكمون من قبل البابليين الأقل منهم خلقاً حربياً . إذ كان تجلاث بلسر الأول استولى على بابل منذ ١١٠٠ ق . م . ولكن لم يقم ثمة فتح دائم ؛ فكانت آشوريا وبابلونيا لا تزالان إمبراطوريتين منفصلتين . وكانت أسرة تشاو الجديدة تزدهر فى الصين . وكان عمر ستون هنج فى انجلترا ألف سنة فى ذلك العصر .

وشهد القرنان التاليان نهضة فى مصر تحت الأسرة الثانية والعشرين ، وانقسام مملكة سليمان العبرانية الصغيرة القصيرة الأجل ، وانتشار الإغريق فى البلقان وجنوبى إيطاليا وآسيا الصغرى وأيام سيادة الإترسك فى وسط إيطاليا . وقد نستطيع أن نبدأ قائمة التواريخ الممكنة التحقيق بالآتى : —

ق . م

٨٠٠ بناء قرطاجنة

٧٩٠ غزو الإثيوبيين لمصر (تأسيسهم الأسرة الخامسة والعشرين)

٧٧٦ الأولمبياد الأول

٧٥٣ بناء روما

٧٤٥ تجلاث بلسر الثالث يفتح بابل ويؤسس الإمبراطورية الآشورية الجديدة

٧٣٨ مناحم ملك اسرائيل يشترى رحيل تجلاث بلسر الثالث عن بلاده

٧٣٥ الإغريق يسكنون صقلية

٧٢٢ سرجون الثانى يسلح الآشوريين بأسلحة من الحديد

٧٢١ نقل الإسرائيليين إلى الأسر

٧٠٤ سناحريب

٧٠١ الوباء يدمر جيشه وهو فى طريقه إلى مصر

٦٨٠ إسارهادون يأخذ فى مصر طيبة من يد الأسرة الخامسة والعشرين الأثيوبية

٦٦٧ ساردانا بالوس

٦٦٤ أبسماتيك الأول يسترد حرية مصر ويؤسس الأسرة السادسة والعشرين (فى ٦١٠) .

ق . م

وقد ساعدته ضد مملكة آشور جنود ليديه أرسلها الملك چيچيس

٦٠٨ نخاو ملك مصر يهزم يوشع ملك يهوذا فى معركة مجدّو

٦٠٦ الكلدان والميديون يستولون على نينوى . تأسيس الإمبراطورية الكلدانية .

٦٠٤ نخاو يتقدم إلى الفرات وهناك يغلبه نبوخذنصر الثانى

٥٨٦ نبوخذنصر الثانى يحمل اليهود إلى بابل . ويفر منهم كثيرون إلى مصر ويقيمون بها

٥٥٠ قورش الفارسى يخلف سيا كسارس

قورش يهزم كرويسوس

بوذا كان يعيش قرابة ذلك الزمان . وكذلك كونفوشيوس ولاهوتسى

٥٣٩ قورش يستولى على بابل ويؤسس الإمبراطورية الفارسية

٥٢٧ مات بيزستراتوس

٥٢٥ غزا قمبيز مصر . مولد إيسكيلوس

٥٢١ دارا الأول ابن هيستاسبس يحكم من الدردنيل إلى السند

حملته على بلاد الإسكيذيين

٤٩٥ مولد سوفوكليس

٤٩٠ معركة ماراتون

٤٨٤ مولد هيرودوت . فاز إيسكيلوس بأول جائزة له على التراچيديا

٤٨٠ معركتا ترموبيلاى وسلاميس . مولد يوريبيدس

٤٧٩ معركتا بلاتيا وميكالى تتمان طرد هزيمة فارس

٤٧٤ الإغريق الصقليون يدمرن الأسطول الإترسكى

٤٧٠ رحلة هانو

٤٦٦ بركليس

٤٦٥ مقتل إجزرسيس

٤٣٨ هيرودوت يلقى تاريخه فى آثينا

٤٣١ ابتداء حرب البيلوبونيز (حتى ٤٠٤)

٤٢٩ وفاة بركليز . وفاة هيرودوت

٤٢٧ بدأ أرستوفانيس حياته العملية : مولد أفلاطون . وعاش حتى ٣٤٧

٤٠١ تراجع عشرة الآلاف (مع زينوفون) .

ق . م

٣٩٠ نهب برينوس روما

٣٦٦ بنى كاملّوس معبد الكونكورد

٣٥٩ أصبح فيليب ملكا على مقدونيا

٣٣٨ معركة خايرونيا

٣٣٦ عبرت جيوش مقدونيا إلى آسيا . مقتل فيليب

٣٣٤ معركة جرانكوس

٣٣٣ معركة إسّوس

٣٣٢ الإسكندر بمصر

٣٣١ معركة أربيلا

٣٣٠ مقتل دارا الثالث

٣٢٣ موت الإسكندر الأكبر

٣٢١ قيام شندراجوبتا فى البنجاب . السمنيون يهزمون الرومان هزيمة تامة فى معركة كودين فوركس

٣٠٣ شندراجوبتا يطرد سيلوقوس

٢٨٥ وفاة بطلميوس سوتير

٢٨١ غزا بيروس إيطاليا

٢٨٠ معركة هرقلية

٢٧٩ معركة أوسكولوم

٢٧٨ غارة الغالة على آسيا الصغرى ومقامهم بغلاطيا

٢٧٥ بيروس يغادر إيطاليا

٢٦٤ الحرب البونية الأولى . (بدأ أسوكا حكمه فى بيهار — حتى ٢٢٧) أول ألعاب للمجالدين بروما

٢٦٠ معركة ميلاى

٢٥٦ معركة إكنوموس

٢٤٦ أصبح شى هوانج تى ملكا على تسن

٢٤١ معركة الجزائر الإيجاتية . نهاية الحرب البونية الأولى

ق . م

٢٢٥ معركة تيلامون . الجيوش الرومانية فى إلليريا

٢٢٠ أصبح شى هوانج تى إمبراطوراً للصين

٢١٩ الحرب البونية الثانية

٢١٦ معركة كاناى

٢١٤ بدأت الحرب الصينية العظمى

٢١٠ وفاة شى هوانج تى

٢٠٢ معركة زاما

٢٠١ نهاية الحرب البونية الثانية

٢٠٠ — ١٩٧ امتداد الحرب بين روما ومقدونيا

١٩٢ الحرب مع السلوقيين

١٩٠ معركة ماغنيسيا

١٤٩ الحرب البونية الثالثة . (يويه تشى تنتقل إلى التركستان الغربية)

١٤٦ تدمير قرطاجنة . تدمير كورنثه

١٣٣ أتالوس يهب برجامه لروما . مقتل تيبريوس جراكوس

١٢١ كايوس جراكوس يُقتل

١١٨ الحرب مع يوجورثا

١٠٦ الحرب مع يوجورثا تنتهى

١٠٢ صد ماريوس الألمان

١٠٠ نصر ماريوس . (فوتى يغزو وادى التاريم)

٩١ الحرب الاجتماعية

٨٩ أصبح جميع الإيطاليين مادنين رومانيين

٨٦ وفاة ماريوس

٧٨ وفاة سولا

٧٣ ثورة الأرقاء بقيادة سبارتاكوس

٧١ هزيمة سبارتاكوس ونهايته

٦٦ قاد بومبى الجيوش الرومانية إلى بحر قزوين ونهر الفرات . والتقى بالآنيين

ق . م

٦٤ مات ميتريداتس البونطشي

٥٣ مقتل كراسوس فى كرهاى . عناصر منغولية مع الاشغانيين

٤٨ هزم يوليوس قيصر بومبى عند فرسالوس

٤٤ إغتيال يوليوس قيصر

٣١ معركة أكتيوم

٢٧ أوغسطوس قيصر أميراً (حتى ١٤ م)

٤ التاريخ الحقيقى لمولد يسوع الناصرى

الحقبة المسيحية

م

٦ تأسست مقاطعة موسيا

٩ تأسيس مقاطعة بانونيا . مد الحدود الإمبراطورية إلى الدانوب

١٤ وفاة أوغسطوس . تيبريوس يصبح إمبراطورا

٣٠ صلب يسوع الناصرى

٣٧ كاليجولا يخلف تيبريوس

٤١ كلوديوس (أول أباطرة الكتائب) ينصبه الحرس البرتيورى (الإمبراطورى) على العرش بعد مقتل كاليجولا

٥٤ نيرون يخلف كلوديوس

٦١ بواديكيا تذبح الحامية الرومانية ببريطانيا

٦٨ انتحار نيرون . (جالبا وأوتو وڤيتيلوس أباطره على التعاقب)

٦٩ ڤسباسيان يبدأ الأسرة الموسومة بالفلاڤية

٧٩ تيتوس يخلف ڤسباسيان

٨١ دوميتيان

٨٤ استلحاق شمال بريطانيا .

٩٦ نرڤا يبدأ أسرة الأنطونين المزعومة

٩٨ خلف تراچان نرڤا

١٠٢ پان تشاو على بحر قزوين . (الهندوإسكيذيون يغزون شمال الهند)

م

١١٧ هادريان يخلف تراجان . الإمبراطورية الرومانية فى أعظم مداها .

١٣٨ أنطونيوس بيوس يعقب هادريان .

(كان الهندوإسكيذيون فى ذلك الأوان يدمرون آخر آثار الحكم الهلينى فى الهند)

١٥٠ (فى ذلك الوقت كان كانشكا يحكم الهند وقشغر ويرقند وختوتان[1])

١٦١ ماركوس أوريليوس يعقب أنطونيوس بيوس .

١٦٤ بدأ الطاعون العظيم واستمر حتى وفاة ماركوس أوريليوس ١٨٠ ، وعاث فساداً أيضاً فى آسيا بأجمعها .

١٨٠ وفاة ماركوس أوريليوس .

(ابتدأ فى الإمبراطورية الرومانية ما يقارب القرن من الحرب والفوضى) .

٢٢٠ نهاية أسرة هان . بداية ٤٠٠ سنة من الانقسام فى الصين .

٢٢٦ أردشير الأول (أول شاه ساسانى) يقضى على الأسرة الأرشكية بفارس .

٢٤٢ بدأ مانى تعليمه الناس .

٢٤٧ القوط يعبرون الدانوب فى غارة عظيمة .

٢٥١ نصر عظيم للقوط ، مقتل الإمبراطور ديكيوس

٢٦٠ سابور الأول ثانى شاه ساسانى يستولى على أنطاكية ، وأسر الإمبراطور ڤاليريان ، وقطع عليه خط عودته إلى فارس أوديناثيوس ملك تدمر .

٢٦٩ هزم الإمبراطور كلوديوس القوط عند نيش .

٢٧٠ أوريليان يصبح إمبراطوراً .

٢٧٢ حملت زنوبيا أسيرة إلى روما . نهاية أمجاد تدمر الوجيزة .

٢٧٥ پروبوس يخلف أوريليان .

٢٧٦ القوط فى إقليم بونطس . الإمبراطور پروبوس يضطر الفرنجه والألمانى إلى التراجع

٢٧٧ مانى يصلب فى فارس .

٢٨٤ دقلديانوس أصبح إمبراطوراً

٢٨٤ دقلديانوس يضطهد المسيحيين

٣٠٦ قسطنطين الأكبر أصبح إمبراطوراً

٣١١ تخلف جاليريوس عن اضطهاد المسيحيين

م

٣١٤ قسطنطين يرأس مجلساً مسيحيا فى آرلس

٣٢١ الغارات القوطية الجديدة تصد

٣٢٣ قسطنطين يرأس مجمع نيقيا

٣٣٧ الوندال يحصلون وقد دفعهم القوط ، على الأذن بالمقام فى بانونيا
قسطنطين يعمد وهو على فراش الموت

٣٥٤ مولد القديس أوغسطين

٣٦١ — ٣٦٣ جوليان المرتد يحاول أن يدخل الميثرائية بدل المسيحية

٣٧٩ ثيودوسيوس الأكبر (وهو أسبانى) يصبح إمبراطوراً

٣٩٠ تحطيم تمثال سيرابيس بالإسكندرية

٣٩٢ ثيودوسيوس الأكبر إمبراطوراً للشرق والغرب

٣٩٥ وفاة ثيودوسيوس الأكبر . هونوريوس وأركاديوس يقتسمان الإمبراطورية من جديد
ويتخذان من استيليكو وآلاريك سيدين وحاميين

٤١٠ استولى القوط الغربية بقيادة آلاريك على روما

٤٢٥ الوندال يستقرون فى جنوب أسبانيا . ويستقر الهون فى بانونيا والقوط فى دالماسيا .
القوط الغربية والسويفى فى البرتغال وشمال أسبانيا . الإنجليز يغزون بريطانيا

٤٢٩ الوندال بقيادة جنسريك يغزون إفريقية

٤٣٩ أخذ الوندال قرطاجنه

٤٤٨ بريسكوس يزور آتيلا

٤٥١ آتيلا يغزو بلاد الغاله ويهزمه الفرنجة والأليمانى والرومان فى ترويس

٤٥٣ وفاة آتيلا

٤٥٥ الوندال ينهبون روما

٤٧٠ إغارة الإفثاليين على الهند

٤٧٦ أودواكر ملك خليط من القبائل التيوتونية ، أبلغ القسطنطينية أنه ليس هناك إمبراطور
فى الغرب . نهاية الإمبراطورية الغربية

٤٨٠ مولد القديس بندكت

٤٨١ كلوفيس فى فرنسا . الميروفنجيون

م

٤٨٣ الكنيسة النسطورية تنفصل عن الكنيسة الأرثوذكسية المسيحية
٤٩٣ ثيودوريك القوطي الشرقي يغزو إيطاليا ويصبح ملك إيطاليا ، ولكنه كان خاضعاً اسمياً للقسطنطينية
(ملوك القوط فى إيطاليا . القوط يقيمون فى أراضى خاصة مصادرة بوصفهم حامية)
٥٢٧ جستنيان إمبراطوراً
٥٢٨ طرد ميهيراجولا (آتيلا الهند الإفثالى)
٥٢٩ أغلق جستنيان مدارس آثينا ، بعد أن ازدهرت ألف سنة تقريباً
بلساريوس (قائد جستنيان) استولى على نابلى
٥٣١ كسرى الأول بدأ حكمه
٥٤٣ الطاعون العظيم بالقسطنطينية
٥٤٤ وفاة القديس بندكت
٥٥٣ جستنيان يطرد القوط من إيطاليا . كاسيودوراس يؤسس ديره
٥٦٥ وفاة جستنيان . فتح اللومبارد معظم إيطاليا الشمالية (تاركين رافنا وروما لبيزنطه) .
شتت الأتراك الإفثاليين بالتركستان الغربية
٥٧٠ مولد محمد عليه الصلاة والسلام
٥٧٩ وفاة كسرى الأول
(اللومبارد يسودون إيطاليا .)
٥٩٠ الطاعون يحصد الناس فى روما . (جريجورى الأعظم وهو جريجورى الأول — ورؤيا القديس أنجيلو .) بدأ كسرى الثانى حكمه
٦١٠ بدأ هرقل حكمه
٦١٨ بداية أسرة تانج بالصين
٦١٩ كسرى الثانى وبيده مصر وبيت المقدس ودمشق وجيوشه على الدردنيل
٦٢٢ الهجرة
٦٢٣ معركة بدر
٦٢٧ هرقل يهزم الفرس هزيمة كبرى عند نينوى . مكة وأحزابها تحاصر المدينة . تاى تسونج يصبح إمبراطوراً للصين

م

٦٢٨ قتل قباذ الثانى أباه كسرى الثانى وخلفه على العرش

٦٢٩ بدأ يوان شوانج رحلته إلى الهند . فتح مكة . (غزوة الفتح)

٦٣٢ وفاة محمد . وخلافة أبى بكر

٦٣٤ خلافة عمر

٦٣٥ تاى تسونج يستقبل المبعوثين النسطوريين

٦٣٦ معركة اليرموك . المسلمون يستولون على سوريا

٦٣٧ معركة القادسية

٦٣٨ بيت المقدس تسلم لعمر

٦٤٢ وفاة هرقل

٦٤٤ خلافة عثمان

٦٤٥ يوان شوانج يعود إلى سنجان

٦٥٥ المسلمون يهزمون الأسطول البيزنطى

٦٥٦ مقتل عثمان بالمدينة

٦٦١ مقتل على . خلافة معاوية . (أول خلفاء بنى أمية) .

٦٦٨ هاجم الخليفة معاوية القسطنطينية بحراً — أصبح تيودور الطرسوسى رئيساً لأساقفة كانتربرى

٦٧٥ آخر هجوم بحرى لمعاوية على القسطنطينية

٦٨٧ ناظر القصريين الهرستالى يوحد أوستريسيا ونوستريا

٧١١ غزا جيش المسلمين أسبانيا من إفريقية

٧١٦—٧١٧ سليمان أخو الوليد وخليفته يفشل فى أخذ القسطنطينية . الأسرة الأموية تنحدر عن أوج مجدها

٧٢١ شارل مارتل ناظراً للقصر . ممتلكات الخليفة الوليد الأول تمتد من جبال البرانس إلى الصين

٧٣٢ هزم شارل مارتل المسلمين عند بواتييه

٧٣٥ وفاة بيد (Bede) الوقور

٧٤٣ الوليد الثانى خليفة — وهو الخليفة الكافر

م

٧٤٩ خلع بنى أمية . أبو العباس أول خلفاء الدولة العباسية . ظلت أسبانيا أموية ، ابتداء تمزق الإمبراطورية العربية

٧٥١ پپين يتوج ملكا للفرنسيين

٧٥٥ استشهاد القديس بونيفاس

٧٧١ شارلمان الملك بمفرده

٧٧٤ شارلمان يفتح لومباردى

٧٧٦ شارلمان فى دالماسيا

٧٨٦ هرون الرشيد خليفة العباسيين ببغداد (إلى ٨٠٩)

٧٩٥ أصبح ليو الثالث بابا (إلى ٨١٦)

٨٠٠ توج شارلمان إمبراطوراً على الغرب

٨٠٢ إجبرت وهو لاجئ إنجليزى ببلاط شارلمان ، يقيم نفسه ملكا على وسكس

٨١١ كروم البلغارى يهزم ويقتل الإمبراطور نقفور

٨١٤ مات شارلمان ؛ وخلفه لويس التقى .

٨٢٨ أصبح إجبرت أول ملك لانجلترا

٨٤٣ مات لويس التقى وتمزقت الإمبراطورية الكارلوفنجية . لم يكن هنالك حتى ٩٦٢ أى تعاقب منتظم لأباطرة الدولة الرومانية المقدسة ، وإن ظهر اللقب على فترات

٨٥٠ فى قرابة ذلك الوقت أصبح روريك وهو شمالى (نورثمان) حاكما لنوفجورود وكييف

٨٥٢ بوريس أول ملك مسيحى لبلغاريا (إلى ٨٨٤)

٨٦٥ أسطول الروس وهم الشماليون (Northmen) يهدد القسطنطينية

٨٨٦ المعاهدة بين ألفرد الإنجليزى وجوثروم الدانمركى توطد قدم الدانمركيين بانجلترا

٩٠٤ أسطول الروسيين (النورثيين) يغادر القسطنطينية

٩١١ رولف المنسرى يوطد نفسه فى نورماندى

٩١٩ هنرى الصياد ينتخب ملكا لألمانيا

٩٢٨ ماروزيا تحبس البابا يوحنا العاشر

٩٣١ يوحنا الحادى عشر بابا (إلى ٩٣٦)

٩٣٦ أوتو الأول أصبح ملكا لألمانيا خلفاً لأبيه هنرى الصياد

م

٩٤١ الأسطول الروسى يعود إلى تهديد القسطنطينية

٩٥٥ يوحنا الثانى عشر هو البابا

٩٦٠ أسرة صنج الشمالية تبدأ ببلاد الصين

٩٦٢ أوتو الأول ملك ألمانيا يتوج إمبراطوراً (أول الأباطرة السكسون) بيد يوحنا الثانى عشر

٩٦٣ أوتو عزل يوحنا الثانى عشر

٩٦٩ الخلافة الفاطمية المنفصلة تقام بمصر

٩٧٣ أوتو الثانى

٩٨٣ أوتو الثالث

٩٨٧ أصبح هيوكابت ملكا لفرنسا . نهاية الأسرة الكارلوفنجية من الملوك الفرنسيين

١٠١٦ أصبح كانيوت ملكا على انجلترا والدانمركة والنرويج

١٠٣٧ مات ابن سينا البخارى أمير الأطباء

١٠٤٣ الأسطول الروسى يهدد القسطنطينية

١٠٦٦ وليم دوق نورماندى يفتح انجلترا

١٠٧١ انتعاش الإسلام تحت الأتراك السلجوقيين . معركة منازجرد

١٠٧٣ أصبح هلدبراند بابا (جريجورى السابع) إلى ١٠٨٥

١٠٧٧ هنرى الرابع يقدم التوبة فى كانوسا .

١٠٧٩ مولد بطرس أبيلارد

١٠٨٢ روبرت جسكارد يفتح دورازو

١٠٨٤ روبرت جسكارد ينهب روما

١٠٨٧ — ١٠٩٩ أربان الثانى بابا

١٠٩٤ وباء

١٠٩٥ أربان الثانى يدعو فى كليرمونت إلى الحرب الصليبية الأولى

١٠٩٦ مذبحة الحملة الصليبية الشعبية

١٠٩٩ جودفرى البويونى استولى على بيت القدس . بسكال الثانى بابا (إلى ١١١٨)

١١٣٨ ازدهار إمبراطورية كن . نقل عاصمة أسرة صنج من نانكين إلى هان تشاو

م

١١٤٢ وفاة بطرس أبيلارد

١١٤٧ الحرب الصليبية الثانية . تأسيس المملكة المسيحية البرتغالية

١١٦٩ صلاح الدين سلطانا على مصر

١١٧٧ فردريك باربروسا يعترف بسيادة البابا (إسكندر الثالث) بالبندقية

١١٨٧ استولى صلاح الدين على بيت المقدس

١١٨٩ الحرب الصليبية الثالثة

١١٩٣ مولد ألبرتوس ماجنوس

١١٩٨ وفاة ابن رشد القرطبي الفيلسوف العربي . إنوسنت الثالث بابا (إلى ١٢١٦) ؛ أصبح فردريك الثانى (وعمره أربع سنوات) ملك صقليه تحت وصايته

١٢٠٢ الحرب الصليبية الرابعة تهاجم الإمبراطورية الشرقية

١٢٠٤ اللاتين يستولون على القسطنطينية

١٢٠٦ أسس قطب الدولة الإسلامية بدلهى

١٢١٢ حملة الأطفال الصليبية

١٢١٤ جنكيزخان استولى على بكين

١٢١٥ التوقيع على الماجنا كارتا

١٢١٦ هونوريوس الثالث بابا

١٢١٨ جنكيزخان يغزو خوارزم

١٢٢١ فشل الحملة الصليبية الخامسة وعودتها . وفاة القديس دومينيك (جمعية الدومينيكيين)

١٢٢٥ ميلاد توماس أكويناس

١٢٢٦ وفاة القديس فرنسيس الأسيسى (عقد الفرنسيسكانيين)

١٢٢٧ مات جنكيزخان ، وهو يحكم من بحر قزوين إلى المحيط الهادى ، وخلفه إقطاى خان . جريجورى التاسع بابا

١٢٢٨ شرع فردريك الثانى فى الصليبية السادسة ، واحتاز بيت المقدس

١٢٣٤ أتم المغول فتح إمبراطورية كن بمساعدة إمبراطورية صنج

١٢٣٩ فردريك الثانى يصدر ضده الحرم للمرة الثانية

١٢٤٠ المغول دمروا كييف . الروسيا تصبح تابعة للمغول

م
١٢٤١ المغول ينتصرون عند ليجنتز فى سيليزيا

١٢٤٤ سلطان مصر يستولى على بيت المقدس من جديد . فأدى ذلك إلى الصليبية السابعة

١٢٤٥ فردريك الثانى يحرم مرة ثانية . رجال شويز يحرقون قلعة نيوها بسبرج

١٢٥٠ القديس لويس الفرنسى يدفع الفدية . وفاة فردريك الثانى آخر أباطرة أسرة هوهنشتاوفن . فترة خلو العرش الألمانى حتى ١٢٧٣

١٢٥١ أصبح مانجو خان هو الخان الأعظم . قوبلاى خان حاكما على الصين

١٢٥٨ هولاكو خان يستولى على بغداد ويدمرها

١٢٦٠ أصبح قوبلاى خان خانا أعظم . هزيمة قطبغا بفلسطين

١٢٦١ عاد الروم فاستولوا على القسطنطينية من اللاتين مرة ثانية

١٢٦٥ مولد دانتى أليجيرى

١٢٦٦ مولد جيوتو

١٢٦٩ أرسل قوبلاى خان رسالة استعلام إلى البابا على يد الأخوين الكبيرين بولو

١٢٧١ ماركو بولو يبدأ رحلاته

١٢٧٣ رودلف الهابسبرجى ينتخب إمبراطوراً . أسس السويسريون حلفهم الدائم

١٢٧٤ وفاة توماس أكويناس

١٢٨٠ أسس قوبلاى خان أسرة يوان بالصين . مات ألبرتوس ماجنوس

١٢٩٢ وفاة قوبلاى خان

١٢٩٣ وفاة روجر باكون نبى العلوم التجريبية

١٢٩٤ بونيفاس الثامن يصبح بابا (حتى ١٣٠٣)

١٢٩٥ ماركو بولو يعود إلى البندقية

١٣٠٣ وفاة بونيفاس الثامن بعد اعتداء غليوم دى نوجاريت عليه فى أناجنى

١٣٠٤ ميلاد بترارك

١٣٠٥ كلمنت الخامس بابا

١٣٠٨ دنس سكوتاس يموت

١٣٠٩ إقامة البلاط البابوى فى آفينيون

١٣١٨ أربعة رجال من الفرنسسكان يحرقون بمرسيليا بتهمة الهرطقة

م

١٣٣٧ وفاة جيوتو

١٣٤٧ وفاة أكام

١٣٤٨ الطاعون العظيم — الموت الأسود

١٣٥٨ حروب الفلاحين (الجاكرى) بفرنسا

١٣٦٨ فى الصين سقطت أسرة يوان المغولية وخلفتها أسرة منج (إلى ١٦٤٤)

١٣٦٩ تيمورلنك يتخذ لقب الخان الأعظم

١٣٧٤ مات بترارك

١٣٧٧ عاد البابا جريجورى الحادى عشر إلى روما

١٣٧٨ الصدع الأعظم . إربان السادس فى روما — كلمنت السابع فى آفينيون

١٣٨١ فتنة الفلاحين بانجلترا . وات تايلور يقتل بحضرة الملك ريتشارد الثانى

١٣٨٤ وفاة ويكليف

١٣٨٧ مولد فرا أنجليكودى فيزولى

١٣٩٨ بشر هس بتعاليم ويكليف فى براغ

١٤٠٠ مات شوسر

١٤٠٥ وفاة تيمورلنك

١٤١٤—١٤١٨ مجمع كونستانس . إحراق هس (١٤١٥)

١٤١٧ نهاية الصدع الأعظم . مارتن الخامس بابا

١٤٢٠ ثار الهسيون . دعا مارتن الخامس إلى حملة صليبية ضدهم

١٤٣١ تبدد الصليبيون أمام الهسيين عند دومازليس

اجتمع مجلس بال . مولد فيون . مولد مانتنيا

١٤٣٦ اتفق الهسيون مع الكنيسة

١٤٣٩ أوجد مجلس بال صدعاً جديداً فى الكنيسة

١٤٤٥ استكشاف البرتغاليين لرأس فردى

١٤٤٦ أول الكتب المطبوعة (كوستر فى هارلم)

١٤٤٩ نهاية مجلس بال

١٤٥٢ مولد ليوناردو دافنشى

م

١٤٥٣ استولى الأتراك العثمانيون بقيادة محمد الثانى على القسطنطينية

١٤٧١ مولد ديورر

١٤٧٣ مولد كوبرنيق

١٤٨٠ خلع إيفان الثالث غراندوق موسكو طاعته للمغول

١٤٨١ وفاة السلطان محمد الثالث وهو يستعد لغزو إيطاليا . بايزيد الثانى سلطان الأتراك (حتى ١٥١٢

١٤٨٦ دار دياز حول رأس الرجاء الصالح

١٤٩٢ عبر كولمبس الأطلسى إلى أمريكا . رودريجو بورچيا ، الإسكندر السابع بابا (إلى ١٥٠٣)

١٤٩٣ أصبح ماكسيمليان الأول إمبراطوراً

١٤٩٨ دار ڤاسكودى جاما حول الرأس إلى الهند

١٤٩٩ أصبحت سويسرا جمهورية مستقلة

١٥٠٠ ولد شارل الخامس

١٥٠٩ هنرى الثامن ملكا على بريطانيا

١٥١٢ سليم الأول سلطانا حتى (١٥٢٠) . اشترى لقب الخلافة . سقوط سودرينى ومكياڤللى بفلورنسا

١٥١٣ ليو العاشر بابا

١٥١٥ فرنسيس الأول ملكا لفرنسا

١٥١٧ ضم سليم مصر إلى أملاكه . لوثر يبسط نظريته فى وتنبرج

١٥١٩ مات ليوناردو داڤنشى . الشروع فى رحلة ماجلان حول العالم . كورتيز يدخل مدينة المكسيك

١٥٢٠ سليمان القانونى سلطانا إلى ١٥٦٦ ، وكان يحكم من بغداد إلى بلاد المجر . شارل الخامس إمبراطوراً

١٥٢١ لوثر بمجلس الدايت فى ورمس . جرح ليولا فى بامبلونا

١٥٢٥ بابر فاز بمعركة بانيبات وفتح دلهى ، وأسس الإمبراطورية المغولية

١٥٢٧ الجنود الألمانية بإيطاليا بقيادة كونستابل بوربون ، تستولى على روما وتنهبها

١٥٢٨ مولد بول ڤيرون

م

١٥٢٩ سليمان يحاصر ڤيينا

١٥٣٠ غزا بيزارو بيرو . توج البابا شارل الخامس . بدأ هنرى الثامن خلافه مع البابوية

١٥٣٢ استولى التعميديون على مونستر

١٥٣٥ سقوط عهد التعميديين فى مونستر

١٥٣٩ تأسست جمعية اليسوعيين

١٥٤٥ اجتمع مجلس ترنت (إلى ١٥٦٣) لينظم الكنيسة

١٥٤٦ وفاة مارتن لوثر

١٥٤٧ إيڤان الرابع (الرهيب) اتخذ لقب قيصر الروسيا . توفى فرنسوا الأول

١٥٤٩ وصلت أول البعثات اليسوعية فى أمريكا الجنوبية

١٥٥٢ معاهدة باساو . تسكين مؤقت لألمانيا

١٥٥٦ تنازل شارل الخامس عن العرش . أكبر يصبح المغولى الأعظم (إلى ١٦٠٥) .
مات إغناطيوس ليولا

١٥٥٨ وفاة شارل الخامس

١٥٦١ مولد فرنسيس باكون (لورد ڤيرولام)

١٥٦٣ نهاية مجلس ترنت وإصلاح الكنيسة الكاثوليكية

١٥٦٤ مولد شكسبير

١٥٦٦ مات سليمان القانونى

١٥٦٧ ثورة الأراضى المنخفضة

١٥٦٨ إعدام الكونتين إجمونت وهورن

١٥٧٣ حصار ألكمار

١٥٨٣ حملة السير والتر رالى على ڤرچينيا

١٦٠٣ چيمس الأول ملكا لانجلترا واسكتلنده

١٦٠٥ المغولى الأعظم چيهان جير

١٦٠٦ تأسيس شركة ڤرچينيا

١٦٠٩ استقلال هولنده

١٦١٨ ابتداء حرب الثلاثين سنة

م

١٦٢٠ حملة الماى فلاور تؤسس نيوبليموث . أول أرقاء زنوج ينزلون فى چيمس تون

١٦٢٥ شارل الأول ملك انجلترا

١٦٢٦ توفى السير فرنسيس باكون (لورد فيرولام)

١٦٢٨ شاه جيهان يصبح المغولى الأعظم . « التماس الحقوق » الانجليزى

١٦٢٩ شارل الأول ملك انجلترا يبدأ حكمه أحد عشر عاما بلا برلمان

١٦٣٢ لى يوون هويك يولد . مصرع جوستاف أدولف فى معركة لوتزن

١٦٣٤ مقتل والنشتين

١٦٣٨ إقفال اليابان فى وجه الأوربيين (حتى ١٨٦٥)

١٦٤٠ عقد شارل الأول ملك انجلترا البرلمان الطويل

١٦٤١ مذبحة الإنجليز بإرلنده

١٦٤٣ بدأ لويس الرابع عشر حكما دام اثنتين وسبعين سنة

١٦٤٤ أنهى المانشو أسرة منج

١٦٤٥ هدم حظائر الخنازير بالدينة الداخلية من ليبزج

١٦٤٨ معاهدة وستفاليا . وبها اعترف بهولنده والسويسره جمهوريتين حرتين وأصبحت بروسيا دولة هامة . ولم تعط المعاهدة نصراً نهائياً للتاج الإمبراطورى ولا للأمراء. حروب الفروند ؛ وانتهت بنصر التاج الفرنسى نصراً كاملا

١٦٤٩ إعدام شارل الأول ملك انجلترا

١٦٥٨ أورانغزيب المغولى الأعظم . مات كروم ويل

١٦٦٠ شارل الثانى ملك انجلترا

١٦٧٤ أصبحت نيو أمستردام بريطانية نهائياً بمعاهدة ، وسميت نيويورك

١٦٨٣ آخر هجوم تركى على ڤيينا يهزمه حنا الثالث ملك بولنده

١٦٨٨ الثورة البريطانية . فرار چيمس الثانى . وليم ومارى بدأ حكمهما

١٦٨٩ بطرس الأكبر قيصر الروسيا (حتى ١٧٢٥)

١٦٩٠ معركة بوين (Boyne) بإرلنده

١٧٠١ فردريك الأول أول ملك لبروسيا

١٧٠٧ وفاة أورانغزيب . إمبراطورية المغولى الأعظم تتفتت

م

١٧١٣ مولد فردريك الأكبر ملك بروسيا

١٧٣٣ أسس أوجلى ثورب ولاية چورچيا

١٧٣٦ أغار نادر شاه على الهند . (بداية عشرين عاماً من الفوضى والغارات بالهند)

١٧٤٠ تولى فردريك الأعظم ملك بروسيا

١٧٤٠ بدأت ماريا تريزا حكمها . (ولأنها امرأة لم تصبح إمبراطورة . وأصبح زوجها فرانسوا الأول إمبراطوراً بعد ١٧٤٥ حتى وفاته فى ١٧٦٥ عند ما خلفه ابنها چوزيف الثانى)

١٧٤١ بدأت قيصرة الروسيا الإمبراطورة إليزابيث حكمها

١٧٥٥ — ١٧٦٣ بريطانيا وفرنسا تتقاتلان على أمريكا والهند . فرنسا تتحالف مع النمسا والروسيا ضد بروسيا وبريطانيا (١٧٥٦ — ١٧٦٣) ، حرب السبع سنوات

١٧٥٧ معركة بلاسى

١٧٥٩ استولى الچنرال ولف البريطانى على كويبك

١٧٦٠ چورچ الثالث ملك بريطانيا

١٧٦٢ وفاة الإمبراطورة إليزابيث الروسية . مقتل القيصر بول ، وتولى كاترين العظمى عرش الروسيا (إلى ١٧٩٦)

١٧٦٣ صلح باريس ؛ والتنازل عن كندا لبريطانيا . بريطانيا تسود الهند

١٧٦٤ معركة البوكسر

١٧٦٦ مولد مالثوس

١٧٦٩ مولد نابليون بونابرت

١٧٧٤ بدأ لويس الرابع عشر حكمه . انتحار كليف . بدأ المسرحية الثورية الأمريكية

١٧٧٥ معركة لكسنجتون . مولد ترنر

١٧٧٦ إعلان الاستقلال بالولايات المتحدة الأمريكية

١٧٨٠ نهاية حكم ماريا تريزا . خلفها الإمبراطور چوزيف (١٧٦٥ إلى ١٧٩٠) فى ممتلكات آل هابسبرج الموروثة

١٧٨٣ معاهدة الصلح بين بريطانيا وبين الولايات المتحدة الأمريكية الجديدة . إطلاق سراح كواكو عاساشوستس

م

١٧٨٧ مؤتمر فيلادلفيا الدستورى يقيم حكومة الولايات المتحدة الاتحادية . تبين أن فرنسا مفلسة . جمعية الأعيان

١٧٨٨ الكونجرس الاتحادى الأول للولايات المتحدة بنيويورك

١٧٨٩ مجلس الطبقات العام الفرنسى يجتمع . هدم الباستيل

١٧٩١ ثورة اليعاقبة . الفرار إلى ڤارن

١٧٩٢ أعلنت فرنسا الحرب على النمسا . أعلنت روسيا الحرب على فرنسا . أصبحت فرنسا جمهورية

١٧٩٣ إعدام لويس السادس عشر

١٧٩٤ إعدام روبسبيير ونهاية جمهورية اليعاقبة . حكم المؤتمر

١٧٩٥ حكومة الإدارة . أخمد بونابرت ثورة وذهب إلى إيطاليا قائداً عاما

١٧٩٧ دمر بونابرت جمهورية البندقية بمعاهدة كامبوفورميو

١٧٩٨ ذهب بونابرت إلى مصر . معركة النيل

١٧٩٩ عاد بونابرت . أصبح القنصل الأول مع سلطات هائلة

١٨٠٠ الاتحاد التشريعى بين انجلترا وإرلنده ينفذ فى أول يناير ١٩٠١
حملة نابليون على النمسا . معارك مارنجو (فى إيطاليا) وهوهنلندن (وهى انتصارمورو)

١٨٠١ مسودات الصلح بين فرنسا وانجلترا والنمسا توقع

١٨٠٣ بونابرت يحتل سويسرا ، وبذا يعجل بالحرب

١٨٠٤ أصبح بونابرت إمبراطوراً . اتخذ فرانسوا الثانى لقب إمبراطور النمسا فى ١٨٠٥ وفى ١٨٠٦ أهمل لقب إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وبذلك انتهت الدولة الرومانية المقدسة

١٨٠٥ معركة الطرف الأغر . معركتا أولم وأوسترليتز

١٨٠٦ هزيمة بروسيا فى يينا

١٨٠٧ معركتا إيلاو ، وفريدلند ، ومعاهدة تلست

١٨٠٨ جعل نابليون أخاه جوزيف ملكا على أسبانيا

١٨١٠ أصبحت أمريكا الأسبانية جمهورية

١٨١١ انسحب الإسكندر من النظام القارى

١٨١٢ تقهقر نابليون من موسكو

م

١٨١٤ تنازل نابليون عن العرش . لويس الثامن عشر

١٨١٥ حملة واترلو : معاهدة ڤيينا

١٨١٩ أول قانون للمصانع يقره البرلمان بناء على جهود روبرت أوين

١٨٢١ ثورة اليونان

١٨٢٤ شارل الخامس ملك فرنسا

١٨٢٥ نيقولا الأول قيصر الروسيا . أول سكة حديد من ستوكتون إلى دارلنجتون

١٨٢٧ معركة نوارين

١٨٢٩ استقلال اليونان

١٨٣٠ سنة من الفوضى والفتن . طرد لويس فيليب شارل العاشر
انفصلت بلجيكا عن هولنده . أصبح ليوبولد أمير ساكس كوبرج جوثا ملكا على تلك الدولة الجديدة ، وهى بلجيكا . ثارت بولنده الروسية بغير جدوى

١٨٣٢ قانون الإصلاح الأول ببريطانيا يرجع إلى البرلمان البريطانى السمة الديموقراطية

١٨٣٥ أول استعمال لكلمة « الاشتراكية »

١٨٣٧ الملكة ڤيكتوريا

١٨٤٠ تزوجت الملكة ڤيكتوريا الأمير ألبرت أمير ساكس كوبرج جوثا

١٨٤٨ سنة أخرى من الفتن . جمهوريات بفرنسا وروما . مؤتمر الجامعة الصقلبية يعقد فى براغ . ألمانيا كلها تتحد فى برلمان بفرانكفورت . ملك بروسيا يدمر وحدة ألمانيا

١٨٥١ معرض لندن المظيم

١٨٥٢ نابليون الثالث إمبراطوراً للفرنسيين

١٨٥٤ حملة برى (Pery) (الثانية) تنزل باليابان . احتل نيقولا الأول ولايات تركيا الدانوبية

١٨٥٤ — ١٨٥٦ حرب القرم

١٨٥٦ إسكندر الثانى قيصر الروسيا

١٨٥٧ العصيان الهندى

١٨٥٩ الحرب الفرنسية النمسوية . معارك ماجنتا وسولفرينو

١٨٦١ ڤيكتور عمانويل أول ملك لإيطاليا . أصبح أبراهام لينكولن رئيساً للولايات المتحدة . ابتدأت الحرب الأهلية الأمريكية

م

١٨٦٣ أطلق البريطانيون قنابلهم على مدينة يابانية

١٨٦٤ أصبح ماكسمليان إمبراطوراً للمكسيك

١٨٦٥ التسليم فى أبوماتوكس كورت هاوس . فتح أبواب اليابان للعالم الخارجى

١٨٦٦ بروسيا وإيطاليا تهاجمان النمسا (والولايات الألمانية الجنوبية فى تحالف معها) .
معركة سادْوا

١٨٦٧ مقتل الإمبراطور مكسمليان بالرصاص

١٨٧٠ نابليون الثالث يعلن الحرب على بروسيا

١٨٧١ سلمت باريس (يناير) . أصبح ملك بروسيا هو غليوم الأول إمبراطور ألمانيا
صلح فرانكفورت

١٨٧٥ الفظائع فى بلغاريا

١٨٧٧ الحرب التركية الروسية. معاهدة سان استفانو. أصبحت الملكة فكتوريا إمبراطورة الهند

١٨٧٨ معاهدة برلين . سلام مسلح بأوربا دام ٣٦ سنة

١٨٨١ معركة تل ماجوبا . تحرير الترنسفال

١٨٨٢ وفاة شارلز دارون

١٨٨٣ احتلت بريطانيا مصر . (وصحة التاريخ ١٨٨٢) مات كارل ماركس

١٨٨٦ أول قانون للحكم الذاتى الإرلندى ينشئه جلادستون

١٨٨٨ الإمبراطور فردريك الثالث (مارس) ثم غليوم الثانى (يونيه) يتوليان الحكم بألمانيا

١٨٩٠ عزل بسمارك . اللورد سالسبورى ينزل لألمانيا عن هوليجولنده

١٨٩٤ — ١٨٩٥ حرب اليابان مع الصين

١٨٩٥ الحكومة الاتحادية (الاستعمارية) ببريطانيا

١٨٩٦ معركة عدوه

١٨٩٨ الخلاف بين فرنسا وبريطانيا على فاشوده . ألمانيا تستولى على كياوتشاو

١٨٩٩ ابتدأت الحرب بجنوب إفريقية (حرب البوير)

١٩٠٠ فتن البوكسر بالصين . محاصرة السفارات فى بيكين

١٩٠٤ غزا البريطانيون التبت

١٩٠٤ — ١٩٠٥ الحرب الروسية اليابانية

م

١٩٠٦ الأحرار يغلبون حزب الاتحاديين (الاستعماريين) فى مسألة التعريفة

١٩٠٧ تأسيس اتحاد جنوب إفريقية

١٩٠٨ ضمت النمسا البوسنه والهرسك

١٩٠٩ طار المسيو بليريو بطيارة من فرنسا إلى انجلترا

١٩١١ أعلنت إيطاليا الحرب على تركيا واستولت على طرابلس

١٩١٢ أصبحت الصين جمهورية . أعلن الحلف البلقانى الحرب على تركيا

١٩١٣ تهريب الاتحاديين السلاح يترتب عليه سفك الدماء بلندندرى فى إرلنده

١٩١٤ ابتدأت الحرب العظمى الأوربية

١٩١٧ الثورتان الروسيتان . تأسيس النظام البلشفى بالروسيا

١٩١٨ الهدنة (نوفبر)

١٩١٩ — ١٩٢٠ معاهدة ڤرساى

١٩١٩ انسحب البريطانيون من أركانجل . هزيمة دنيكين . أوشك يودينيتش أن يستولى على بطرسبرج ثم انهار . الأسطول الألمانى يخرج ليسلم للبريطانيين ولكن يغرقه قواده وضباطه عند سكاپافلو

١٩٢٠ أول اجتماع لعصبة الأمم ، التى حظرت على ألمانيا والنمسا والروسيا وتركيا ، والتى لم تمثل فيها الولايات المتحدة . قتل كولتشاك رمياً بالرصاص . بولنده تهاجم الروسيا ، ويغزوها رانجل من الجنوب فيدفع إلى الوراء . رضا باشا يقبض على السلطة فى فارس

١٩٢١ الحلفاء يسيطرون على القسطنطينية . مؤتمر لبحث نزع السلاح البحرى يعقد بواشنطون برئاسة الرئيس هاردنج

١٩٢٢ مجاعة عظيمة بالروسيا . مؤتمر جنوا الذى حضره الألمان والروس . ازدياد الخلل فى المالية الألمانية وعدم مقدرتها على دفع عقوبات الحرب الباهظة . الانهيار اليونانى العسكرى بآسيا الصغرى . انفصال إرلنده الجنوبية عن بريطانيا العظمى

١٩٢٣ احتلال الفرنسيين لحوض الروهر والانهيار النقدى بألمانيا . إنشاء الرنت مارك

١٩٢٣ بريطانيا العظمى تسترد لعملتها معيار ما قبل الحرب

١٩٢٤ أول حكومة للعمال ببريطانيا . وخلفتها حكومة محافظة فى نوفبر بعد انتخابات عامة توفى لينين . مقتل ماتيوت ، (وهو كاتب إيطالى) بيد الفاشست . مشروع داوز لتخفيض ديون الحرب الألمانية

م

١٩٢٥ الفرنسيون يهاجمهم عبد الكريم بمراكش والدروز فى سوريا . إنشاء الريخ مارك بألمانيا . معاهدة لوكارنو . خلع شاه إيران على يد على رضا خان . رضا خان يصبح شاها

١٩٢٦ الإضراب العام ينجم فى انجلترا عن إغلاق مناجم الفحم . الفرنك الفرنسى ينزل دون البنس الانجليزى ولكن هبوطه يوقف ، وتعاد قيمته إلى بنسين بحكومة ائتلافية ، ألفت لمواجهة الأزمة . هزيمة عبد الكريم

١٩٢٧ هاجمت الحكومة البريطانية إدارة الأعمال التابعة للحكومة الروسية بلندن وقطعت علاقاتها الدبلوماسية مع الروسيا . فشل مؤتمر لنزع السلاح بجنيف

١٩٢٨ المستر كيلوج وزير خارجية الرئيس كوليدج يبتكر مجموعة من المعاهدات بها يتخلى جميع الدول العظمى فى العالم عن الحرب . نشاط لا ينفد لصناعة الأسلحة . إتمام تحويل الجيوش إلى وحدات ميكانيكية والاستفاضة فى دراسة حرب الغازات والبكتيريا . بدأ مشروع الخمس سنوات فى الروسيا

١٩٢٩ وزارة العمال الثانية بانجلترا بعد انتخابات عامة . تجديد العلاقات بين انجلترا والروسيا وفاة شترزمان . أصبح هوفر رئيساً للولايات المتحدة . كانت ظاهرة سقوط الأسعار وتواصل عطالة العمال زيادة ظاهرة فى كل مكان . مشروع يونغ لتخفيض ديون الحرب الألمانية

١٩٣٠ عقد بلندن مؤتمر لنزع السلاح البحرى وكانت نتائجه تافهة . ظهر فى الريخستاغ الألمانى حزب فاشى جديد قوى بزعامة نمسوى اسمه هتلر . إنشاء بنك التسويات الدولى

١٩٣١ أصبحت أسبانيا جمهورية (أبريل) . اشتدت حدة محنة ألمانيا الاقتصادية ، واقترح الرئيس هوفر أن يعطل دفع ديون الحرب سنة . وجاءت الأزمة المالية فى أعقاب ذلك إلى بريطانيا . وحلت محل حكومة العمال ، حكومة طوارىء قومية ، تعهدت بدعم معيار الذهب . ثم تخلت عن تلك الفكرة بعد ثلاثة وعشرين يوماً قضتها فى اقتصاد هستيرى . واحتفظ المستر رمزى ما كدونلد رئيس حزب العمال السابق بمنصب رئاسة الوزارة بمهارة تامة طيلة تلك التقلبات السياسية

١٩٣١ رفضت عصبة الأمم أن تأذن بقيام اتحاد جمركى بين ألمانيا والنمسا

١٩٣٢ أنشأت اليابان دولة منشوكو . انتخب فرنكلين روزفلت رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية

م

١٩٣٣ حريق الريخستاغ ببرلين والانقلاب النازى . أصبح هتلر دكتاتوراً لألمانيا . المؤتمر الاقتصادى المالى بلندن يعقد بغير جدوى . اليابان تترك عصبة الأمم (أبريل) وتليها ألمانيا (أكتوبر)[1]

١٩٣٤ دخلت الروسيا عصبة الأمم . مصرع كيروف

١٩٣٥ أعيد السار إلى ألمانيا . أخذت الحبشة تستصرخ عصبة الأمم ضد إيطاليا بغير جدوى . حرم اليهود من حقوق المهادنة الألمانية وحظر زواجهم بالألمانيات الآريات الأصل

١٩٣٦ وفاة چورج الخامس ملك انجلترا . غزو إيطاليا الفعلى للحبشة . ثورة فرانكو بأسبانيا تنازل إدوارد الثامن ملك انجلترا عن العرش

١٩٣٧ حصار مدريد والإنهاك التدريجى الذى اعترى قوات الحكومة الأسبانية

١٩٣٨ غزت ألمانيا النمسا وضمتها إليها دون أن تلقى مقاومة مسلحة

١٩٣٩ نشوب الحرب العالمية الثانية

١٩٤٠ احتلت ألمانيا النرويج والدانمركة وهولندة والبلجيك . سقوط فرنسا ، وانضمام المجر ورومانيا وسلوفاكيا للمحور . الإيطاليون يفشلون فى غزو بلاد اليونان . تشرشل يرأس الوزارة البريطانية . روزفلت ينتخب للمرة الثالثة رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية . أجرت بريطانيا قواعد الأطلسى للولايات المتحدة . اغتيال تروتسكى بالمكسيك

١٩٤١ تقلبات الحرب بشمال أفريقيا . تقدم البريطانيون فى ليبيا ١٩٤١ ثم انسحبوا ثانية فى الربيع ، وتقدموا فى نوفمبر وانسحبوا مرة ثانية فى ربيع ١٩٤٢ . انضمت بلغاريا إلى المحور . احتلت ألمانيا بلاد اليونان ويوغوسلافيا وكريت . تحرير الحبشة . البريطانيون والفرنسيون يحتلون سوريا . ألمانيا تغزو الروسيا (٢٢ يونية) . ميثاق الأطلنطى . احتلال البريطانيين والروس لإيران . سقوط كييف بيد الألمان . فشل هجوم الألمان على موسكو . هاجمت اليابان الولايات المتحدة . أعلنت الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا

١٩٤٢ سقوط سنغافورة . فتوح اليابانيين فى المحيط الهادى وبورما . معركة جزيرة مدواى .

(١) هذه الأحداث نقلا عن كتاب لباب التاريخ (هـ ج ولز) تعريب المترجم

هجوم روميل فى ليبيا أوصل الألمان إلى مصر . معركة مصر بالعلمين . نزول البريطانيين والأمريكان بشمالى أفريقيا . ظلت تونس بأيدى الألمان حتى ١٩٤٣ ، عند ما طهر شمال إفريقيا تماماً . اغتيال الأميرال دارلان فى الجزائر . سقوط سباستبول بيد الألمان الذين دخلوا بلاد القوقاز ولكنهم أوقفوا عند ستالينجراد

١٩٤٣ مؤتمر الدار البيضاء . الإصرار على التسليم بلا قيد ولا شرط . احتلال الإنجليز والأمريكان لتونس . غزو صقلية . غزو إيطاليا . تقدم الأمريكيين فى الباسيفيكى . يسترد الروس خركوف وسمولنسك وكييف . مؤتمر كويبك . مؤتمر طهران

١٩٤٤ نزول الحلفاء فى فرنسا . تحرير فرنسا وبلجيكا . الحلفاء يحاربون على حدود ألمانيا . تحرير اليونان . زحف الروس خلال رومانيا وبلغاريا إلى بلاد المجر ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا . انتخاب روزفلت للمرة الرابعة . الأمريكيون ينزلون بالفلبين

١٩٤٥ تسليم ألمانيا بلا قيد ولا شرط . وفاة روزفلت . ٦ أغسطس قنبلة هيروشيما الذرية . ٩ أغسطس قنبلة ناجازاكى الذرية . الروسيا تعلن الحرب على اليابان . استسلام اليابان رسمياً ٢ سبتمبر

ميثاق سان فرانسسكو بإنشاء هيئة الأمم المتحدة بمنظمتيها الجمعية العامة ومجلس الأمن لتحقيق السلام العالمى

١٩٤٦ إنشاء هيئة اليونسكو أى منظمة التربية والعلوم والثقافة

تم الكتاب

كلمة رجاء وثناء

وبعد ، فإنى أرجو من القارئ بعض التسامح إزاء ما قد يأخذه على الكتاب من هفوات. كما أنى أقدم شكرى عظيما مستطابا إلى حضرات أصحاب السعادة والعزة الأساتذة الموقرين أعضاء لجنة التأليف ورئيسها الجليل . وأزجى ثنائى العاطر على حضرات الأساتذة الفضلاء الذين أعانونى فى العمل والذين راجعوا الترجمة حتى وصلوا بها إلى هذا المستوى الكريم ، كما أقدم الشكر الجزيل لحضرات الإخوان والقراء الذين طالما غمرونى بتشجيعهم وثنائهم اللذين منهما كنت أستمد العون فى النهوض بهذا الكتاب الضخم الجليل . .

عبد العزيز توفيق جاويد

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٥٢

Bibliotheca Alexandrina
0419752